دار
سحر
القلم

المـرأة و الرجـل



عقـل واحد
أم
عقـــلان ؟

علي الزيدي

المرأة والرجل

عقل واحد
أم
عقلان؟

علي الزيدي

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (١٢٧٦) لسنة ٢٠٢١

301
ز ٩٤٩، الزيدي، علي،
المرأة والرجل: عقل واحد أم عقلان / علي الزيدي. – بغداد: دار سحر القلم، ٢٠٢١
(615) ص؛ (17,24) سم،
١ - الإجتماع، علم –أ– العنوان،

م.و
١٢٧٦/ ٢٠٢١

ISBN 978 – 9922 – 9356 – 1 - 4

- المرأة والرجل؛ عقل واحد أم عقلان
- علي الزيدي
- الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٤٢هـ/ ٢٠٢١م.
- الناشر: دار سحر القلم للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف +9647739584181

Email : alshhama @ hotmil. com

الفهرس

الفصل الأول
المرأة في الحضارات القديمة
٢١ - ٨٥

الفصل الثاني
المجتمع الأمومي والمجتمع الذكوري
٨٧ - ١٤١

الفصل الثالث

المرأة في الشرائع الكبرى

١٤٣ - ٢٦٧

الفصل الرابع

النساء والنبوة

٢٦٩ - ٣٥٤

الفصل الرابع

النساء والنبوة

٢٦٩ - ٣٥٤

الفصل الخامس

الدراسات الجندرية حلول أم إثارة مشاكل؟

٣٥٥ - ٥١٦

الفصل السادس
العقل الواحد والتغير الوظيفي
٥١٧ - ٥٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الكتابات عن الرجل والمرأة كثيرة ولا تكاد أن تحصى، وحين تقلبها وتنظر إليها تنتابك الحيرة والتساؤل، فإن الذين يكتبون وينتقدون المواقف والأدوار، ولربما ينتفضون بشكل غير منطقي، هم أنفسهم الرجال تارة، وتارة أخرى النساء، وفي الغالب، ولا أقول الكل، تجد الهجوم والإستنقاص من أحدهم على الآخر هو السائد في كتاباتهم، وياليتهم نجحوا في ذلك، أو تمكنوا من الوصول الى الحقيقة، ولو بمقدار جناح ذبابة.

فلماذا هذا الهجوم والإستنقاص من الآخر، وهو في نفس الوقت أخ أو أخت لك، أم أو أب، زوج أو زوجة، بنت أو ابن، صديق أو صديقة، كل هذه العناوين وغيرها، يحيطون بك أو بها، ولا يمكن بحال من الأحوال الخروج من هذا المحيط.

وإذا تساءلنا لماذا لا نستطيع الخروج من هذا المحيط، فسيكون الجواب؛ هو لأننا هكذا خلقنا ووجدنا رجل وامرأة، منذ البدايات الأولى للخليقة، كان آدم ومعه حواء، خطوات من أقدام أربعة شكلت أول أحرف المسير الإنساني في هذه الدنيا، حتى أنهما تقاسما ذلك الهبوط ذو الأمر الإلهي المحتوم، فذاقا سوية نعيم الجنة وشقاء الدنيا.

ومنذ وجودهما الأول، علم كل منهما دوره وتكليفه في هذه الحياة، بلا تضاد أو تزاحم، وبانت واجبات الأنثى وواجبات الذكر، ولذلك بقيا ونجحا في هذا البقاء، لأن من أهم مقومات البقاء والإستمرار هو معرفة الأدوار والإبداع فيها. ولولا ذلك لهلك الإثنان، ولما كان هناك بشر تسكن وتعمر هذه الأرض.

وذلك بإعتبار ان الإنسان لا يمكن أن يتعلم الأشياء كلّها عن طريق التجربة والتكرار، وإنّما هناك طريقان آخران يعتبران من المصادر الرئيسية في التعلم، ومن ثم يأتي دور التجربة بالتبع. والأول من هذين الطريقين هو الوحي الإلهي، والآخر هو النموذج الذي يقتدى به، ومن ثم ينطلق الإنسان- المرأة والرجل- بالإبداع والتطور واكتشاف الأشياء عن طريق المحاولة والتجربة. ونحن عندما نقول النموذج الذي يقتدى به، لا نقصد من وراء ذلك التقليد والجمود عليه، وإنّما نقصد النموذج البدئي الذي يحدد من خلاله الدور أو الأدوار التي من غير الممكن أن يؤتى بها وتؤدّى من دون ذلك النموذج، لأن هناك أدوار وأمور مصيرية لها علاقة مباشرة بالحياة والبقاء أو الموت والفناء، فهي لا تتحمل الإنتظار والتجربة، وهي بطبعها تختلف عن تلك الأمور التي يمكن إنتظارها، الى أن تحين ظروف نضجها، لتظهر وتتهيأ أسبابها، بحسب المصالح والإحتياجات التدريجية التي تبرز ضمن سلسلة زمنية طويلة.

ومن أهم هذه الأمور هو بيان دور كل من الرجل والمرأة بشكل عملي بلا ملابسات أو وجود للإحتمال. وطبعاً يتم هذا على ضوء ذلك الإستعداد البيولوجي لكل منهما، الذي لا يعرف حدوده وإمكاناته الكاملة إلّا الله تعالى، إذ كيف يعرف الإنسان الأول تلك الحدود والطاقات، وهو بعد لم يجرب قابلياته على أرض وطأتها قدماه، لتكون مستقراً له، وفيها سيتلقون الخيوط الأولى لهداية

البشرية في مسيرها الطويل، وكما بين ذلك الله تعالى في كتابه الكريم: (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) سورة البقرة: ٣٨ ، وحينئذ سيكون من أولويات تلك الهداية هو أن يبيّن واجبات الرجل وحقوقه، وواجبات المرأة وحقوقها، إذ لازالا، لا يفقهان من حياتهما الأرضية شيئاً مذكورا.

إذن الإختلاف بين المرأة والرجل لم يكن يوماً صناعة بشرية، ذات بعد قصدي، وإنّما الإختلاف تكويني- طبيعي- سواء في جانبه البيولوجي أم جانبه السيكولوجي. وهذا الإختلاف بدوره سيولد إختلافاً في الجانب الوظيفي حتماً، وهذا يحدد من خلال الوحي بشكل أساسي ومباشر، وبالنموذج ثم التجربة والتكرار من جانب آخر.

وعليه مادام الإنسان حُمّل مسؤولية إعمار الأرض، فعليه أن يسعى لذلك- الرجل والمرأة- ولا يتم ذلك إلّا بعد معرفة دور كل واحد منهما. وكلّما عرف الرجل دوره ومارسه بشكل كامل، وعرفت المرأة دورها ومارسته بشكل كامل عجّلنا في سعادتنا المأمولة.

وهكذا سارت البشرية منذ زمن وجودها البدئي، بدون مشاكل تثار بين الذكورة والأنوثة، وكلّ قد رضى بوضعه وتكليفه.

الى أن لعبت الأهواء في نفوس البشر، واستغل الرجل قواه، وما كلّف به ليستخدمها في ظلم المرأة، وتغيير ذلك الجو من الود والتفاهم والتراضي الى حلبة صراع، لتتحول النتائج فيما بعد الى إضطهاد وتسيد في كثير من الأحيان.

والذي زاد الطين بلة، هناك من تحرك ليزيد من هذه الهوّة بين الرجل والمرأة وخصوصاً في القرن الأخير الذي حظي بإهتمام كبير لعلماء الإجتماع والنفس وعلم الأحياء الإجتماعي، وقد كان لعلماء الحركة النسوية الحظ الأكبر في إثارة الإشكالات التي تتطلب الكثير من الدراسات التي تركز على إبعاد أية علاقة بين الجنس وأداء الدور.

وبالتالي آلت جهود الحركة النسوية الى التشكيك في كثير من المسلمات المرتبطة بالأدوار الجنسية، فكان الشعار المعروف للحركة النسوية الراديكالية هو أن كل أمر شخصي فهو سياسي، وما ذلك إلّا لزيادة التضاد بين دائرة المنزل ودائرة المجتمع. وتمسكوا بأن هناك جبر بيئي وإجتماعي يتدخل في صياغة الذكورة والأنوثة لدى الفرد، ليكون تحركهم بالتالي مشابهاً لجماعة من السلوكيين أمثال (واطسون وسكنر) الذين ذهبوا الى أن الإنسان سريع التأثر بالبيئة وفاقد للإرادة الحرّة، فهو بالتالي مخلوق مرن يمكن عن طريق التربية المقصودة تحويله الى الإنسان الذي يوافق إرادتهم.

وحسب هذه المباني ولدت آراء ونظريات وكتابات سيوسيولوجية في ستينات وسبعينات القرن الماضي، وبانت النزعة الأنثوية الراديكالية المتطرفة، ونادت بأفكار سياسية وإجتماعية تسعى للتغيير الإجتماعي والثقافي، تتغير على ضوئه العلاقات بين المرأة والرجل، بحيث تصل الى المساواة المطلقة، وإعتبار ذلك هدفاً إستراتيجياً لهم.

ونمت مثل هكذا فلسفات وتغلغلت بقوّة في المجتمعات الغربية، حتى وصل الأمر الى التأثير على بعض الجهات الدينية فيها، فأصدرت عام ١٩٤٤م طبعة

للكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد واعتبروها- طبعة مصححة- جاء فيها تغيير بعض المصطلحات والضمائر المذكرة وتحويلها الى ضمائر محايدة.[١]

وهم ابتعدوا بذلك حتى عن المفهوم الجديد وهو (المنشأ الإنقلابي أو التفجير للمعنى) الذي ينادي به علماء الألسنيات والسيميائيات الدلالية، الذين يقصدون بذلك تفجير المعنى السائد، بعد أن نكتشف أنه خاطئ أو ليس أثراً من آثار المعنى، فيتم تفجيره وتفكيكه، لكي يحلّ محلّه معنى آخر أفضل منه وأكثر تماسكًا عندما يصطدم بالواقع. وإذا كان أصحاب هذا المبنى يريدون إيجاد معنى جديداً للكلمة أو النص، وإلغاء المعنى الأول، فإن أصحاب الأنثوية المتطرفة يريدون إلغاء الكلمة أصلاً وإيجاد بديلاً عنها، حتى وإن كانت نصًا مقدسًا.

وهذه الأمور عندما تطرح في الحقيقة هي ليست حلولاً لمشاكل، وإنّما تزيد في تعقيد المشكلة وتناميها، وبالتالي زيادة الصراع فيما بين الرجل والمرأة حول البنية الوظيفية بينهما. فهناك نفوس تعمل على خلق الفرقة والتشتت بين البشر وبالتالي قطع أواصر العلاقات الطيبة القائمة بينهم، ومن أخطر أشكال التفرقة التي حاولوا غرسها وتنميتها هي تلك التفرقة التي ابتدعوها داخل الأسرة الواحدة، وذلك بتفريق الرجل عن امرأته أو البنت عن أبيها وهكذا، وكل ذلك يجري تحت ذريعة التحرر والمساواة.

واليوم يحاول الغرب تغيير الكثير من سمات المرأة، لكي تكون مشابهة للرجل في كلّ شيء، ولكن الأمر الملفت للنظر، أنه مهما حاول العلم من أن يزيل

(١) ينظر: علم إجتماع الجندر: د. معن خليل العمر، نشر دار الشروق، عمان، الأردن، ط١، ٢٠١٥م؛ ص٢٠.

السمات الموجودة في وظيفة المرأة كالحمل والحيض والرضاعة وضعف البنية الجسدية عن تحمل المصاعب، تأتي النتائج عكسية، فكثير من التجارب التي أجروها على الحيوانات وأعلنوا نجاحها بعد مدّة تظهر السلبيات فلا يعلنون عنها. ومثال ذلك النعجة (دالي) وما أثاروا من ضجة إعلامية عنها، وختاماً قتلوها للتخلص منها، لما تحمل من أوبئة وقلّة مناعة.(١)

فهذه الأمور كلها تجري خلافاً للطبيعة البشرية، ومعاندة لسجية الإنسان، وعليه لن تدوم، ولن تنجح، وما هي إلّا محاولات ليس من سماتها، إلّا عرقلة المسير الإنساني الصحيح، والوقوف بوجه الدين، وما يحمله من تقنين لا يشوبه الشك أو الريبة، والذي يحاكي الفطرة السليمة والإستعداد الموهوب للمرأة والرجل، الذي يأخذ بهما لما يناسبهما، وفي بعض الأحيان يتجه كلًّا منهما لاشعورياً صوب ما تمليه عليه فطرته، فيأتي المشرع فيقرّه، وينظّم كثيراً من الأمور الإجتماعية والعرفية عليه، فعلى سبيل المثال؛ لو قمنا بعزل إنسان ذكر وتم تركه في غابة يعيش فيها لوحده ومن دون أن يكتسب أية آثار إجتماعية أو أنماط سلوكية مسبقة تحدد له وظيفته، فهو إذن لا يمتلك إلّا واقع النمط الوراثي والأعضاء التناسلية التي وجدت معه عند الولادة. ونأتي بأنثى أيضاً تم عزلها في غابة بعيدة عن كل الناس ونجمعهما سوياً، فياترى ما الأعمال التي سيقومان بها، وكيف سيتم توزيع الوظائف بينهما لتمشية أمورهما، وإذا ما واجههما حيوان مفترس أو أي خطر آخر من الذي سيقوم بمهمة الدفاع عن الآخر، وإذا حدث حمل، من الذي سيقوم بالإعتناء بالطفل وقضاء حاجاته؟.

---

(١) ينظر: التطرف العلماني: سامي جواد المنذري، نشر دار الوارث، ط١، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م: ص١٠٧.

ولأسهل الجواب عليك أقرب الأمر بمثال آخر؛ لو أننا أخذنا صغار حيوان ما، أحدهما أنثى والآخر ذكر، وقمنا بعزلهما عن والديهما، وندعهما يكبران لوحدهما، ومن ثم نأتي ونلاحظ سلوكهما فيما بينهما، فبالتأكيد هنا سنلاحظ بوضوح التصرفات الذكورية واضحة عند الذكر، والتصرفات الأنثوية والأمومية واضحة عند الأنثى، مع العلم أنهما لم يتربّيا مع والديهما حتى يكتسبا العادات والطبائع منهما.

وحينئذ سيصبح واضحاً بأنه لابد وأن ستظهر على أنثى الإنسان ما يخصّها من تصرفات، وسيظهر على ذكر الإنسان ما يخصّه من تصرفات. فكيف عرف كلّ منهما ما عليه القيام به، وبغض النظر عن آثار التنشئة الإجتماعية؟!.

عموماً فإن قصدنا من وراء تأليف هذا الكتاب، هو أننا نريد أن نصل الى مباني نظرية جديدة تستند على مفهوم (العقل الواحد والتغير الوظيفي)، وبها سنستطيع إن شاء الله تعالى أن نحل جميع أو أغلب المشاكل المطروحة بين الرجل والمرأة، ونرفع بها كل الإشكالات والتساؤلات الواردة في هذا الجانب، الذي عجزت كثير من النظريات والآراء عن تقديم الحلول الكاملة والتي تنجو من النقد والتمحيص.

هذا وقد إنتظم الكتاب في ستّة فصول:

جاء في الفصل الأول دراسة عن المرأة في الحضارات القديمة، وذلك لكي نعطي صورة عن المرأة وبعدها القيمي في كل حضارة من الحضارات ومدى التشابه والإختلاف بينها، وتعرضنا كذلك في آخر الفصل للمرأة عند العرب قبل الإسلام، لما سيشكله من بعد متداخل مع بزوغ الإسلام في شبه الجزيرة العربية.

وفي الفصل الثاني تكلمنا عن المجتمع الأمومي والمجتمع الذكوري، ومن سبق الآخر في وجوده وتمركزه، باحثين عن الأسباب والمقومات التي ترجح أحدهما على وجود الآخر، ولنصل بالتالي الى نتيجة واضحة وبيّنة في هذا الأمر.

وفي الفصل الثالث تكلمنا عن المرأة في الشرائع الكبرى- اليهودية- النصرانية- الإسلام- وتطرقنا فيه الى مسألة كيفية خلق المرأة، وهل كانت الصورة التي ذكرت فيها مسألة الخلق مقصودة للتقليل من قيمة المرأة، ومن ثم إشعارها بالذنب والخطيئة التي عليها أن تدفع ثمنها في طول خط وجودها الدنيوي، ومن ثم تطرقنا الى كيفية تعامل كل من تلك الشرائع مع المرأة وكيفية إبرازها للوجود.

وفي الفصل الرابع جاءت الدراسة عن النساء والنبوة، وهل توجد إمرأة نبية، بإعتبار وجود مفردة الوحي أو كلام الملائكة مع بعض النساء، كما جاء في الخطاب القرآني، وكذلك ذكر لفظ نبوة بعض النساء في التوراة والإنجيل، وذلك لكي نعرف حدود حركة المرأة، وحدود حركة الرجل، لنصل بالتالي الى إيجاد نظرية (التفرد لا التسيد) التي تحل لنا إشكالات هذا الموضوع وتوابعه.

وفي الفصل الخامس سنتعرض الى موضوع الدراسات الجندرية، ولنرى من خلال الدراسة، هل هي حلول تقدم للمرأة والرجل أم هي تطرح من أجل إثارة المشاكل من خلال إستخدام ألفاظ فظفاظة وجذّابة مثل التحرر والمساواة. وناقشنا فيها الكثير من الأمور المتعلقة بهذا الموضوع، ومن أهمها؛ هل أن الأنوثة طبيعة أم صناعة، والإتجاه الموضوعي والإتجاه التشريعي لسلوكيات الرجل والمرأة.

ولنصل أخيراً في الفصل السادس الى مقومات النظرية التي تبنيناها لتقديم مفهوم عن عقل الرجل وعقل المرأة، وما هو البناء الوظيفي لهما، بعد أن نعرض عدّة فرضيات ونظريات بهذا الخصوص ومناقشتها والرد عليها.

وأخيراً أسأل الله تعالى أن أكون قد وفقت بهذه الدراسة، ولله الحمد أولاً وآخراً.

علي الزيدي

بغداد

٢٣/ شعبان/ ١٤٤٢هـ

٧/ ٤/ ٢٠٢١م

الفصل الأول

المرأة في الحضارات القديمة

المرأة في حضارة بلاد الرافدين

يحقق نظام الأسرة للمرأة الإستقلال لشخصيتها القانونية خصوصاً في موضوع أدارة أملاكها، وهذا أمر يسترعي الأنظار. والذي يقدمه الزوج المقبل لحميه عند اعطاء الوعد بالزواج لا يصبح ملكاً للزوجة، ولكنها تبقى المالكة الوحيدة للبائنة التي تجلبها لزوجها. أما الهدايا التي من الطبيعي أن يقدمها الزوج لزوجه فلا تستطيع هذه الأخيرة أن تبيعها ولكن لها الحق بالإنتفاع منها، وللمرأة حق التصرف بكل حرية بما هو ملك لها من أموال منقولة وثابتة، وللعقد الذي هو ضروري وأساسي لكل زواج صحيح أن يمنع إلقاء القبض على شخص الزوجة من قبل دائن زوجها. ولكن لا يسري عادة هذا البند إلّا على الديون التي توجبت على الزوج من قبل زواجه. ولكن ينفذ مبدأ التكافل والتضامن للديون التي تعقد بعد الزواج، ولا يستأثر إذ ذاك الزوج بإدارة المنافع المشتركة، بل نرى الزوجة تتدخل أقلّه كشاهد، عند عقود البيع، وإن كان الزوج جندياً، وطلب للخدمة فيعود إذ ذاك للزوجة حق إدارة أملاكه، إن لم يكن له أبن بلغ أشدّه، وتصبح الزوجة في مثل هذه الحالات مالكة لثلث الريع.

ويستطيع الزوج دون شك أن يطلق امرأته، ولكن القوانين تحميها إذ ذاك ضد قراره التعسفي، إذ عليه أن يلجأ الى المحاكم ويثبت شكواه بأدلة عادلة وقوية. وعلاوة على ذلك فأن سوء سلوك الزوج يعطي الزوجة الحق بإقامة دعوى مماثلة لتعود الى ذويها. وفي كل من الحالتين تأخذ معها كل ما يخصها وغالباً ما يكون هناك تعويضاً تقدره القوانين. أما في جرم الزنى المشهود فبالنسبة للزوج فالقانون لا يذكره، بينما يمكن إلقاء الزوجة مع غريمها الى الماء، إذا لم يصفح عنها زوجها، وهذا ما يبدو هو التفاوت الحقيقي الوحيد. ونظام الزوجة الواحدة هو

الساري حسب القوانين، ويحد من شدّته حق تأمين ذرية للرجل، لذا فأن عقم الزوجة ومرضها هما من أسباب الطلاق الشرعية كرفض المرأة القيام بواجباتها كزوجة وربة بيت وتهاونها في ادائها. ويحق للزوجة العاقر أن تهدي زوجها عبدة بمثابة خليلة. ولربما هدف هذا التدبير الى منعها من إتخاذ أي تدبير قبله إن اتخذ له سراري، إذ أن القانون في مثل هذه المواقف التي لا تشرف، يكتفي دون شك بالتلطيف من أفعال لا مفر منها. وهناك حوادث ذكرت أنجب فيها الرجل أولاداً من زوجه ومن خليلته أيضاً. ولا يمكن بيع العبدة التي غدت موضوع انتخاب كهذا، لا بل تعتق مع أولادها عند موت سيدها. ولكن عليها مع هذا أن لا تنافس سيدتها وأن تنجب أولاداً. وإن أخلت بأي من هذه الشروط يحق إذ ذاك للزوجة أن تعيدها الى العبودية. ويسمح القانون للزوج إن لم ينجب أولاداً من زوجته أو من خليلته، أن يدخل الى بيته زوجة من رتبة ثانية، وعلى هذه الزوجة أن تحترم أفضلية الزوجة الأولى، وقد ينص صراحة عقد الزواج الثاني على أن الزوجة الثانية (تغسل رجلي الأولى). ويحدد القانون بدقة بالغة قوانين الإرث، فبالنسبة للمرأة فإن كل ما تملكه، حتى لو استرجعه معها عند عودتها الى اسرتها، يعود الى أولادها، ومع هذا فبوسع الزوج أن يهب الهبات لإمرأته أو لأي من بنيه.[1]

(١) تاريخ الحضارات العام : إشراف موريس كروزيه، نقله الى العربية فريدم داغر وآخرون، نشر دار عويدات، بيروت، ط١، ٢٠٠٦:ج١، ص ١٥٤ وما بعدها بتصرف.

المرأة في المجتمع السومري

كانت المرأة في المجتمع السومري والبابلي تتمتع بالوضع الإجتماعي بحق المساواة مع الرجل في قبال هذا لم يكن هناك من وصمة عار تلحق بمن يلجأ الى العاهرات في المعبد والى المحظيات، وعندما أصبح العبيد من الأملاك الشخصية، اصبحت الإماء من العبيد تستخدم لأغراض جنسية ولم تكن حالة المحظية لتغير من حالة الأمة التي لم تكن تنعم بحريتها بشكل آلي، بينما كان أولادها يستمرون في حالة العبودية، ما لم يقبل السيد أولاد شرعيين. وكان من الممكن للرجل إن كان عازباً أو أرملاً أو إن كان رجلاً متزوجاً لديه زوجة مطيعة ولطيفة ومتسامحة أن يتزوج إحدى الإماء ويجعلها سيدة للمنزل. ولكن هناك انتقاد لمثل هذه الأعمال ورد في أحد الأمثال، وكذلك فإن سيدات المنزل المتنفذات لا يوافقن على ذلك العمل وربما بدأت في عمل أعمال تنغّص الحياة في وجه الزوج المسكين وتجعل بيته مكاناً غير مريح بالنسبة لذلك الزوج، وهذا ما تشير إليه النبوءة التالية: (إذا إتفقت الزوجة مع الزوجة الأخرى فإن وضع المنزل سوف يصبح حسناً). وهذا يشير الى أن الوضع غير المريح كان وارداً.[1]

وكان عدد من النساء السومريات يتصلن بالهياكل كخادمات أو سراري للآلهة أو لممثليهم الذين يقومون مقامهم على الأرض، ولم تكن الفتاة السومرية، ترى شيئاً من العار في أن تخدم الهياكل على هذا النحو، وكان أبوها يفخر بان يهب جمالها ومفاتنها لتخفيف ما يعترى حياة الكهان المقدسة من ملل وسآمة، وكان يحتفل بإدخال ابنته في هذه الخدمة المقدسة، ويقرّب القرابين في هذا

(١) عظمة بابل: هاري ساغز، ترجمة خالد أسعد عيسى وأحمد غسان سبانو، نشر دار ارسلان، دمشق، ط١، ٢٠١١م: ص٢٠٦.

الإحتفال، كما كان يقدم بائنة ابنته الى المعبد الذي تدخله. وكان الزواج قد أصبح وقتئذ نظاماً معقداً تحوطه شرائع كثيرة، فكانت البنت إذا تزوجت تحتفظ لنفسها بما يقدمه أبوها من بائنة، ومع أن زوجها كان يشترك معها في القيام على هذه البائنة، فقد كان لها وحدها أن تقرر من يرثها بعد وفاتها. وكان لها من الحقوق على أولادها ما لزوجها نفسه، وإذا غاب زوجها ولم يكن لها ابن كبير يقيم معها كانت تدير هي المزارع كما تدير البيت. وكان لها أن تشتغل بالأعمال التجارية مستقلة عن زوجها، وأن تحتفظ بعبيدها أو تطلق سراحهم. وكانت تسمو أحياناً الى منزلة الملكة كما سمت "شوب- آد" وتحكم مدينتها حكماً رحيماً رغداً قوياً، غير أن الرجل كان هو السيد المسيطر في الأزمات جميعها وكان من حقه في بعض الظروف أن يقتل زوجته أو يبيعها أَمَة وفاء لما عليه من ديون. وكان الحكم الأخلاقي على الرجل يختلف عن الحكم الأخلاقي على المرأة حتى في ذلك العهد السحيق، وكان ذلك نتيجة لأزمة اختلافهما في شؤون الملكية والوراثة. فزنى الرجل كان يعد من النزوات التي يمكن الصفح عنها، أما زنى الزوجة فكان عقابه الإعدام، فقد كان ينتظر منها أن تلد لزوجها وللدولة كثيراً من الأبناء، فإذا كانت عاقراً جاز طلاقها لهذا السبب وحده، إما إذا كرهت أن تقوم بواجبات الأمومة، فكانت تقتل غرقاً. ولم يكن للأطفال شيء من الحقوق الشرعية، وكان للآباء إذا تبرؤا منهم علناً أن يحملوا ولاة الأمور على نفيهم من المدينة. غير أن نساء الطبقات العليا كن يحين حياة مترفة، وكان لهن من النعم ما يكاد يعدل بؤس أخواتهن الفقيرات، شأنهن في هذا شأن النساء في جميع الحضارات، فالأدهان والأصباغ والجواهر من أظهر الماديات في المقابر السومرية، وقد كشف الاستاذ "ولي" في قبر الملكة "شوب- آد" عن مدهنة صغيرة من دهنج –تشبه الزمرد– وعلى دبابيس من الذهب رؤوسها من اللازورد، كما عثر أيضاً على مثبنة عليها

قشرة من الذهب المخرم. وقد وجدت في هذه المثبنة التي لا يزيد حجمها على حجم الخنصر ملعقة صغيرة لعلها كانت تستخدم في أخذ الصبغة الحمراء من المدهنة. وكان فيها أيضـاً عصا معدنية يستعان بها على ملوسة الجلد، وملقط لعله كان يستعمل لتزجيج الحاجبين أو لنزع ما ليس مرغوباً فيه من الشعر. وكانت خواتم الملكة مصنوعة من أسلاك الذهب، وكان أحدهما مطعماً بفصوص من اللازورد، وكان عقدها من الذهب المنقوش واللازورد، وما أصدق المثل القائل: إنّه لا جديد تحت شمس وإن الفرق بين المرأة الأولى والمرأة الأخيرة ليتسع له سم الخياط.(١)

هذا ولقد كانت منزلة المرأة في المدن السومرية أعلى مما وصلت إليه فيما بعد، فقد كانت المرأة تعمل في خدمة المعبد في عدّة أنشطة ليس ككاهنة فحسب أو عاهرة من عاهرات المعبد من اللواتي كن يتقاضين إعانات مالية من المعبد كالرجال، وقد حصلت زوجات الحكام مثلاً زوجة "لوغالاندا ويوروكاغينا" على مناصب غاية في الأهمية، ولكن لا ينبغي التأكيد على ذلك لأننا من الممكن أن نرى أحوالاً معاكسة لدى بعض الملوك الآشوريين عندما ضعف نفوذ المرأة، وهناك تلميحات تشير أن وضع المرأة في بداية نشوء المجتمع السومري كان أعلى وأفضل من وضعها في ذروة الحضارة السومرية. وسبب هذا يكمن في ذلك الوضع البارز الممتاز في الدين السومري الذين كانت تحتله الآلهات اللواتي أختفين أخيراً من حياة بعض الآلهة سوى عشتار.(٢)

---

(١) قصة الحضارة: وول ديورانت، ترجمة د. زكي نجيب محمود، نشر دار الفكر، بيروت، ط١، بدون سنة طبع، ج٢، ص٣٢- ٣٣.

(٢) عظمة بابل: مصدر سابق؛ ص٢٠٧.

المرأة في المجتمع البابلي

كانت السيادة في العهد البابلي في البيت للرجل، وسلطته على زوجته وأولاده غير محدودة، وقد نظمت الشرائع أحوال الأسرة، ونال هذا الأمر في شريعة حمورابي عناية وحيزاً كبيرين، هذا ولا يعتبر الزواج شرعياً إلّا وثّق بعقد وشهود، وكذلك أمر الطلاق على شرط أن يدفع الزوج لمطلقته مبلغاً من المال، وكان هناك ثلاث دفعات تدفع في الزواج، واحدة تسمى (ترخانو) يدفعها الزوج لأسرة الزوجة وهو المهر وتكون ملك الزوجة، وثانية تسمى (شيرتقو) وهي هدية من أسرة الزوجة للزوج، وهي ايضاً ملك الزوجة وإن كان يسمح للزوج بالتصرف بها على أن يرجعها الى الزوجة في حالة الطلاق، والثالثة تسمى (نودنو) وهي هدية من الزوج للزوجة، ولا يتم الزواج إلّا برضاء الأبوين، وقد وجد على نقوش بابلية عبارات تحدد المهر من شقل الى نصف منا من الفضة، والمنا نصف كيلو غرام، والشقل واحد من ستين من المنا.(1)

ويمكن لنا القول بوجه عام إن مركز المرأة في بابل كان أقل منه في مصر وفي روما، ولكنه مع ذلك لم يكن أقل من مركزها عند اليونان الأقدمين أو عند الأوربيين في العصور الوسطى، وكان لابد لها لكي تؤدي أعمالها الكثيرة من ولادة الأبناء وتربيتهم، ونقل الماء من النهر أو الآبار العامة، وطحن الحبوب، والطهو، وغزل الخيوط ونسجها، وتنظيف دارها -كان لابد لها لكي تؤدي هذه الأعمال أن تكون حرّة في غدوها ورواحها بين الناس لا تكاد تفترق من هذه الناحية عن الرجل في شيء. وكان من حقها أن تمتلك الثروة وتستمتع بدخلها،

---

(١) تاريخ الجنس العربي: محمد عزة دروزة، نشر المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٣٧٩هـ -١٩٥٩م: ج٣، ص٢٢٥ وما بعدها بتصرف

وتتصرف فيها بالبيع والشراء وأن ترث وتورّث. ومن النساء من كانت لهن حوانيت، يتجرن فيها، بل إن منهن من كن كاتبات، وفي هذا دليل على أن البنات كن يتعلمن كالصبيان، غير أن التقاليد السامية التي تمنح أكبر ذكور الأسرة سلطة لا تكاد تقف عند حد كانت تحول دون ما عساه أن يكون باقياً في أرض الجزيرة من أزمنة ما قبل التاريخ من نزعة لتغليب سلطان الأم. وكان من العادات المتبعة عند الطبقات العليا عادة أن يكون للنساء جناح خاص أو أجنحة خاصة في المنزل وكن إذا خرجن صحبهن رقباء من الخصيان والخدم، أما الطبقات السفلى فلم تكن نساؤها أكثر من آلات لصنع الأطفال، وإذا لم تكن لهن بائنات كانت مكانتهن لا تكاد تفترق عن مكانة الإماء. وتشير عبادة عشتار الى أن المرأة والأمومة كان لهما قسط من التبجيل في بلاد بابل، كما تشير عبادة مريم العذراء في العصور الوسطى الى ما كان لها من التبجيل وقتئذ. ولما دخل الفرس بلاد بابل وقضوا بذلك على عزتهم النفسية، تحرروا أيضاً من جميع القيود الخلقية، وسرت عادات العاهرات، الى جميع الأوساط، وأضحت نساء الأسر الكبيرة يرين أن اظهار محاسنهن أياً كانت ليستمتع بها أعظم استمتاع أكبر عدد مستطاع، أصبحن لا يرين في هذا شيئاً أكثر من مجاملة عادية. وإذا جاز لنا أن نصدق هيروديت فإن (كل رجل من عامة الشعب إذا عضه الفقر عرض بناته للدعارة طلباً للمال).[1]

كما إنّ النصوص المسمارية تعطينا شهادات عديدة عن التناقض الظاهري، لكن الإحاطة بالشرط السنوي تُصبح أسهل بكثير في بابل في عصر توحيد الإمبراطورية (بداية الألف الثاني ق. م) فإلى ذلك العصر يعود مصدر معلومات قانون حمورابي، وهو أضخم مجموعة نصوص قانونية وصلت قبل النصوص

---

(١) قصة الحضارة: مصدر سابق: ج٢؛ ص٢٣٣ وما بعدها بتصرف.

الرومانية، وقد نقش على الحجر، النسخة الأصلية في متحف اللوفر.[1]

وجاء في قانون حمورابي فيما يخص النساء: (إذا أتهمت المرأة بالزنى، طلب إليهما أن يقفزا الى نهر الفرات، وكانت الآلهة على الدوام في جانب أقدر المتهمين على السباحة، فإذا نجت المرأة من الغرق كانت نجاتها برهاناً على براءتها.

- إذا ضرب إنسان بنتاً وماتت لم يحكم بالموت على الضارب بل حكم به على ابنته.

- وكانت جرائم كثيرة يعاقب عليها بالموت منها هتك العرض، والفسق بالأهل، وتسبب المرأة في قتل زوجها لتتزوج بغيره، ودخول كاهنة خمارة أو فتحها إياها، وإهمال الزوجة شؤون بيتها أو سوء تدبيرها.

- وخص قانون الوراثة ابناء الرجل بتركته دون زوجته، فإذا مات رجل عن زوجته كان لها الحق في مهرها وفي هدية عرسها، وظلت ربة البيت ما دامت على قيد الحياة).[2]

ومن المميز بالنصوص التشريعية البابلية أنْ حظيت المرأة البابلية ببعض الوظائف والمهن المفتّحة أبوابها، حتى شغلت منصب قاضية وكهنوتية .. الخ. ومن ذلك يتميز التشريع البابلي عن المصري بتلك الحقبة، وبنفحة من الليبرالية الذي أتاح للمرأة: أ- الأرملة، ب- المطلقة: أن تتمتع بإستقلالها الإقتصادي، كما يسَّرَ مشاركة الزوجين، وتساويهما في إدارة الثروة الزوجية. ومن خلال تشريع

---

(١) المرأة عبر التاريخ البشري: د. عبد المنعم جبري، نشر صفحات للدراسات، دمشق، ط٣، ٢٠١٤: ص٦٧

(٢) قصة الحضارة، مصدر سابق: ج١، ص٢٠٨.

الإمبراطورية البابلية الموحّدة نلمس مساومة بين التقاليد السومرية الأكثر ليبرالية إزاء المرأة، والتقاليد الساميّة الأكثر إرتياباً وحذراً اتجاهها. والى التقاليد الساميّة تنسب- على الأرجح- سمتان حظيتا فيما بعد بتكريس مذهل النزعة الى:

١ – حَجْر المرأة في مكان معزول من البيت.

٢ – لبس الحجاب.(١)

وتعتبر حضارة بابل أرحم الحضارات الأسرية القديمة بالمرأة سواء نظرنا الى حكم التشريع أو حكم التقاليد المرعية، وإن الحرية التي بلغتها المرأة عند البابليين في طلب الزواج هي التي جعلت عشتار تطلب يد جلجامش.(٢)

المرأة في المجتمع الآشوري

استناداً الى البقايا التي وجدت من قانون يرتقي الى الألف الثاني قبل الميلاد تظهر الأسرة عند الآشوريين أقل تماسكاً، فيذكر مثلاً بأنه بإستطاعة الزوجة أن تعيش في البيت الوالدي، حيث يزورها زوجها ويقدم لها كل ما تحتاج إليه. ولكن الفرق الأساسي هو أن للمرأة أهلية مدنية أقل مدى. فلا نراها فقط إلّا في القرنين الثامن والسابع- أيام سلالة السرجونيين- فريقاً في عقود البيع أو أفعال مماثلة، وذلك بصورة أكثر ندرة مما هو الحال في بلاد بابل. ويعاقب القانون كل من يقرضها حتى وإن كان غريباً عن الأسرة ويجهل بأنها متزوجة. ويمكن طلاقها دون تعويض أو لجوء الى المحاكم.ويجبرها القانون بعد موت بعلها، على الزواج

(١) المرأة عبر التاريخ البشري، مصدر سابق: ص٦٨ وما بعدها.

(٢) أثر الفكر الغربي على المرأة المسلمة: د. عبد الهادي فريح القيسي، نشر بيت الحكمة، بغداد، ط١، ٢٠١٢: ص٣٧.

من أخيه أو من أحد الأولاد الذين أنجبهم من زواجه الأول. ويحق للزوج أن يتخذ خليلة أو خليلات عدّة، ويرفعهن الى مرتبة الزوجات.

إن قانون حمورابي سبق بقرون عدّة التشريع الآشوري، ومع هذا فهو يعبر بصورة جازمة عن حالة إجتماعية قد يعتبرها المرء أكثر تطوراً، ولكن في هذا المجال يجب إعتبار الطبع القومي، فلا عجب من ثم إذا بقيت المرأة في مستوى قانوني دون مستوى الرجل عند شعب حربي كالشعب الآشوري.[1]

ولم يخطر للآشوريين أن يظهروا المرأة في رسومهم كاسية أو عارية. وما وجد منها، وهو في حكم النادر، قد كان دميم الصورة، أشوَه الخلقة، مما يبعث على الإعتقاد أن المثّال الذي صنعها لم تكن لديه أية خبرة في صنع الرسوم أو التماثيل النسائية. ثم أن بعض التماثيل الصغيرة لآلهة الشهوة إستار (Istar)، التي لقبوها (بمتعة الرجال والأرباب) فينوس الشرق، لم تعرف عند العثور عليها إلّا لأنها عارية، ولكن يا لسماجة ذوق الصانع الذي صنع هذه الدمى، وما أوسع الفرق بين قسمات جسمها الثقيل البشع وجسم الملكة المصرية البديعة التكوين (طايا) " Taia "[2].

وكانت آشور تشجع الإكثار من النسل بقوانينها الأخلاقية وبما تسنّه من الشرائع شأنها في هذا الشأن جميع الدول العسكرية. فكان الإجهاض عندهم جريمة يعاقب عليها بالإعدام، وكانت المرأة التي تجهض نفسها، وحتى المرأة

(١) تاريخ الحضارات العام: إشراف موريس كروزيه، نقله الى العربية فريدم داغر وآخرون، نشر دار عويدات، بيروت، ط١، ٢٠٠٦:ج١، ص١٥٤.

(٢) حضارة بابل وآشور: غوستاف لوبون، ترجمة محمود خيرت المحامي، نشر دار الرافدين، بيروت، ط٢، ٢٠١٧م: ص١٦٩.

التي تموت وهي تحاول إجهاض نفسها، تحرق بعد موتها. وكانت منزلة النساء في آشور أقل منها في بابل، وإن كان منهن من بلغن منزلة سامية بالزواج والدسائس. وكانت تفرض عليهن عقوبات صارمة إذا ضربن أزواجهن، ولم يكن يسمح للمتزوجات أن يخرجن الى الطريق العام بغير حجاب، وكان يطلب إليهن أن يكن جد أمينات على أعراضهن- وإن كان يسمح لأزواجهن بأن يتخذوا لهم ما يشاؤون من السراري- وكان البغاء يعد في عرفهم أمراً لابد منه وتنظمه القوانين. وكان للملك عدد من النساء يعشن معيشة العزلة ويقضين أوقاتهن في الرقص والغناء والنزاع والتطريز والتآمر. وإذا قتل الذي يزنى بإمراته الزاني وهو متلبس بجريمته عُد ذلك من حقه، وقد بقيت هذه العادة بعد أن زالت كثير من الشرائع التي كانت تبيحها. أما فيما عدا هذا فقد كانت قوانين الزواج في آشور مثلها في بابل خلا أمراً واحداً وهو أن الزواج كان في كثير من الأحيان شراءً بسيطاً، وأن الزوجة كثيراً ما كانت تعيش في منزل أبيها ويزورها من حين الى حين.[1]

وكانت العائلة عند الآشوريين أبوية بالنسبة لكل المظاهر القانونية والإجتماعية، وكانت حالات النسب والوراثة مختصة بالأب، وكان الأبن الذكر في العائلة هو صاحب السلطة، وكان مدى السلطة الأبوية واسعاً لدرجة أن الزوج يستطيع في بعض الظروف إعدام زوجته بينما يستطيع أبو الزوج (الحمو) الزواج من كنته الأرملة، وكان هذا طبقاً للمبدأ الذي يقول: إن المرأة تظل تحت سلطة الذكر رئيس العائلة.[2]

---

(١) قصة الحضارة، مصدر سابق؛ ج٢، ص٢٨١.

(٢) عظمة آشور: هاري ساغز، ترجمة خالد أسعد عيسى، نشر دار ارسلان، دمشق، ط١، ٢٠١١م؛ ص١٩٥.

وكان الحجاب من أشرف الأوضاع، فمن جهة ينبغي أن تلبسه المرأة المتزوجة علنًا أمام الجمهور، بينما كانت العاهرات ممنوعات منعًا باتًا من الحجاب، فإذا اكتشف أن إحدى العاهرات كانت تسير وهي محتجبة فإنها تتعرض لعقوبات شديدة بما فيه خمسين جلدة بالعصا وصب القطران على رأسها.[1]

(١) المصدر نفسه: ص١٩٦.

المرأة في الحضارة المصرية

احتلت مصر مكانة مميزة بين شعوب الشرق الأدنى المتوسط فوجود نهر النيل الذي فرض وحدة مصر الجغرافية أتاح تحقق نمط معين من الحضارة المنغلقة على ذاتها نسبيـاً، بحيث حافظت على إستمرارها طيلة ثلاثة آلاف عام. ولا ريب أن الشرق الأوسط النسوي قد تعرض لتقلبات عدّة خلال أكثر من ثلاثين قرنـاً من الزمن قبل الميلاد. ويمكن استشفاف هذه التقلبات من إيقاعات التاريخ المصري بالذات؛ ثلاثة عصور ملكيّة ليبرالية بشكل عام، تتخللها عصوراً إقطاعية بتشنج واضح، وهي:

١- الإمبراطورية القديمة: من ٣٠٠٠ تقريبـاً الى ٢٢٥٥ ق. م عصر الإقطاع الأول.

٢- الإمبراطورية الوسطى: من ٢١٠٠ تقريبـاً الى ١٦٥٠ ق. م عصر الإقطاع الثاني/ غزو الهكسوس.

٣- الإمبراطورية الجديدة: ١٥٥٠ تقريبـاً الى ١٠٥٠ ق. م عصر الإقطاع الثالث.

٤- حقبة ملكية متأخرة: من ٦٦٣ تقريبـاً الى ٥٢٦ ق. م حقبة سائيسية.

فالأنظمة الإقطاعية بطابعها العسكري، وبناها المنتظمة هرميّاً نادراً ما تكون مؤاتية للمرأة، وإن تراجع وضعها في العصر الإقطاعي الأول، خلال تفكك الإمبراطورية القديمة- أشار عليه الفن- تصوير الزوجة في حجم صغير الى جانب الزوج الأكبر بكثير. وهي شهادة لم تعبر عن فن مراتبي وجمودي إلّا عن مرحلة بضعة قرون في تاريخ طويل. أما العصر الإقطاعي الثاني كان أقل تعسفاً، المهم أنه

عندما أعاد العمل بحق البكوريّة، اعتبره ساري المفعول على الفتاة أيضاً. وإذا ما وضعنا هذه المعترضات الإقطاعية جانباً- علماً بأنها لم تؤثر في معظم الأحيان على شرط المرأة في الوسط المدني، ولاسيما في مدن الدلتا- فإننا نستطيع أن نرسم صورة أولية للوضع العام للمرأة المصرية، وذلك رغم الثغرات العديدة التي تشكو منها المراجع بهذا الصدد.(١)

هذا ويبدو أن الأسرة المصرية موسومة بأعراف تحل المرأة في مركز مرموق بل في مركز الصدارة أحياناً، فغالباً ما إنتسب الأبناء الى أمهاتهم انتسابهم الى آبائهم. وإذا ما توفي زوج، وليس من ابنائه من بلغ سن الرشد، انتقلت سلطته الى امرأته حتى في علائق الأسرة بالدولة. وقد عرفت رسمياً لاسيّما بعد الأمومة، (بسيدة البيت) متمتعة بكل ما في هذا التعبير من مدلول قانوني، وذلك بالرغم من أن البيت مصدره الزوج، ولكن الشك لا يزال يحوم حول تحديد ذلك في الزمن أو التعريف عنه بوضوح. والأدلة على ما يعارض ذلك ليست بقليلة. ويبدو أنه قد عمل أحياناً بعقد زواجي يحدد مساهمة كل من الزوجين المادية، ويحتفظ لكل منهما بملكية ما يقدمه. وقد سمح بتعدد الزوجات الذي درجت عليه دون شك بعض طبقات المجتمع المتنعمة بالغنى التي تستطيع تحمل ما يجر ذلك من نفقات. فقد رزق رعمسيس الثاني مثلاً أكثر من مائة وستين ولداً. ولعل مركزاً شرفياً مرموقاً أعطي لأحدى الزوجات التي نعجز عن تعيينها بالضبط. وبالإضافة الى هذه الزوجات الشرعيات أتيح للرجل أن يحتفظ لنفسه في منزله ببعض السراري. وعلى نقيض ذلك كان تعدد الأزواج محرماً على المرأة التي يؤدي بها زناها الى القتل حتى ولو لم يقبض عليها بالجرم المشهود. ولكننا نجهل ما إذا

(١) المرأة عبر التاريخ، مصدر سابق: ص٩١ وما بعدها بتصرف.

كان على المحاكم أن تتدخل دائماً في هذه الحالات. أجل أن في الأدب الخيالي الكثير الكثير من الروايات التي تلعب فيها المرأة دوراً شديد البعد عن الفضيلة، وهي إمّا لوازع اصطلاحية وإمّا إنتقام الحقيقة والواقع من تشريع ظالم أعوج. ولنعترف هنا أيضاً بجهلنا، لاسيما ونحن نرى بإزاء هذه الروايات، التماثيل العديدة لزوجين جالسين أو واقفين جنباً الى جنب وقد تشابكت أيديهما أو ألقيت يد المرأة منهما على كتف الزوج، مما يدلّ على أنّ الموت نفسه لا يفصل بينهما. غير أن للفن، وللفن المدفني بنوع خاص ما للأدب نفسه من مصطلحات.

وهنا إشارة من دون التعميم والشمول، أن نلفت الإنتباه الى الدور السياسي الذي لعبته في بعض الظروف نساء معينة من السلالة المالكة، أشهرهن على الإطلاق الملكة (حتشبسوت) في أواسط الألف الثاني. وكذلك في القرن الثامن قبل الميلاد، خلفت بعض (عابدات آمون) في السلطة الروحية والزمنية على السواء، رؤساء كهنة آمون الذين لم يتح لزوجاتهم معهم، لأجيال وأجيال، أن يحتلن مركزاً يذكر، فيمكن القول، على وجه التأكيد، أن مصر القديمة لم تنظر، مبدئياً الى المرأة نظرتها الى كائن أدنى، ولعل عزوفها النسبي عن الأمور العسكرية وعدم إهتمامها بها يفسر لنا خير تفسير هذه الغرابة الخاصة.(1)

ومن هذا يفهم إجمالاً بأنه كان للمرأة مركز محترم في المجتمع المصري القديم. يدل عليه ما شغلته من حيز في مجال الألوهية والملك. حيث كانت الآلهة (إيزيس السرمدية) وكانت أسمى مقاماً من زوجها (أوزيروس). وكانت (نوت أونيت) آلهة السماء حتى سميت في وقت ما ملكة المعبودات. وكان إله الحق

---

(١) تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق؛ ج١، ص٧٣ وما بعدها بتصرف.

والعدل امرأة وهي (ماعت). وإله الموتى امرأة وهي (نفتيش). وإله دور الكتب امرأة وهي (سنفخ). وكثيراً ما تولت المرأة الملك بالإشتراك أو الإنفراد. وكان حقها في وراثة الملك قوياً ثابتاً حتى لقد كان المتغلبون يجتهدون في تزوج بنت الملك السابق أو زوجته لجعل ملكه شرعياً. وكثيراً ما كان من النساء كاهنات وسادنات للآلهة. ومنهن من شغلن منصب الكاهن الأكبر لآمون الذي كان يخول صاحبه أن يكون ذا سلطان دنيوي في طيبه بالإضافة الى سلطانه الديني العظيم. وكان الزواج يتم بموجب عقود كتابة على ما عرف من عقود كثيرة عثر عليها وإن كانت من المحتمل أن يكون ذلك قد صار يجري في وقت متأخر .. . ومما أثر من نصائح حكمائهم (إذا تزوجت فلا تكن بخيلاً واجعل زوجتك مسرورة وإلزم بيتك وأحبب زوجتك ولاطفها وأعطها ما تشتهي من الطيبات واجذبها باللين دون الشراسة.(١)

وكان في الشعر المصري يدعو الشاب حبيبته (اختي)، كما تدعوه هي بدورها (أخي). ودرج على ذلك كل من الزوج والزوجة. فهل يستنتج ان القاعدة كانت في زواج الشقيق من شقيقته؟ انقسمت الآراء حول هذا الموضوع. فالذين يرتأون الإيجاب يستندون الى أوزيريس وايزيس في الميثولوجيا المصرية والى اقدام الملوك، في بعض السلالات على الأقل، على التزوج بالفعل من شقيقاتهم. أما القائلون بالنفي فيجيبون أن الحرص على نقاوة الدم في اسرة إلهية قد يبرر مثل هذه العادة الغريبة وان التسميات المجازية واردة في جميع اللغات.(٢) وذهب البعض

---

(١) تاريخ الجنس العربي، مصدر سابق؛ ج٢، ص٣١٣ وما بعدها.

(٢) تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق؛ ج١، ص٧٣.

الى أن دعوة الزوجة بالأخت أسلوب للتحبب.[1]

ولم يكن للمرأة من نفوذ أو تأثير إلّا إذا كانت كاهنة أو عاهرة، فالثقافة معدومة، أو تكاد إلّا لبنات الأسر الكريمة ينلنَ نصيبهن من الثقافة المرهفة؛ فن، شعر، موسيقى، رقص، وكنّ يتعلمن القراءة، لكن نادراً ما كنّ يجدن الكتابة، وهكذا لم يظهر إسم نسوي واحد في عالم الأدب، فكاتبات بلاد ما بين النهرين لا يجدن في مصر الفرعونية زميلات لهنّ.

وفي البعد السياسي قد مارس المحيط النسوي الفرعوني نفوذه بقوّة، وعلى نحو مألوف حتى في العهود التي لم تكن فيها الملكة حاكمة أو وصية على العرش. فالمصريون لم يعارضوا قط، حتى من عهود غابرة، مبدأ اعتلاء المرأة سدّة السلطة، وعلى سبيل المثال، نشير الى بعض العهود النسوية الكبرى.

١ – نيتوكريس الأسطورة وكليوبترا، عصر البطليمي الشهير.

٢ – عهد سبكنفروري، في الإمبراطورية الوسطى.

٣ – حتشبسوت، بداية الإمبراطورية الجديدة، والذي دام عشرين عاماً.

٤ – مساهمة الملكات القوية والفعالة في مقاومة الهكسوس، وفي استرداد الاستقلال المفقود في القرن السادس قبل الميلاد.

وفي البعد الإجتماعي فقد كانت تقف طبقتان كبيرتان من النساء هما:

١ – نساء طبقة الفلاحين.

---

(١) ينظر: تاريخ وحضارة مصر الفرعونية، د. محمود عبد الحميد أحمد، دمشق، ط١، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م؛ ص٢٠.

٢ – نساء طبقة الخادمات العاملات.

أ- في البيوت الخاصة.

ب- في أملاك الدولة.

وأما المرأة المصرية التي وجدت في سلك الكهنوت فعديدات الكاهنات اللواتي كن يخدمن الآلهة (آمون)، أو الآلهات (هثور، إيزيس، موت، ...) ويضاف إليهن العازفات والراقصات المقدسات اللواتي كنّ ملحقات بخدمة المعبد.

ولقد كانت الملكة كبيرة الكاهنات تؤدي الطقوس الدينية؛ أمّا بمفردها، وإمّا بصحبة الفرعون، وفي هذه الحال- أي عندما كانت تشارك الفرعون تأدية الطقوس الدينية- كانت تقف في صف واحد مع زوجها الملكي، وكانت تهيمن على الكهنوت النسوي، وتشرف على إدارة إيراداته وعائداته. وكان الكهنوت النسوي شأن الكهنوت الذكوري يشكل طبقة مغلقة متراتبة هرميّاً ذات امتيازات وثروات.[1]

هذا وقد ذهب بعض علماء الإجتماع الى أن المرأة المصرية كانت هي والرجل على مستوى واحد في الحرية والمساواة، فقال بيبل Bebel أن اليونان وبينهم أهل اثينا هم البادئون في تمييز حقوق الرجل. بيد انه اذا دققنا في التاريخ نجد ان المساواة المطلقة ربما لم توجد في العالم قط بين الجنسين. فهذه المرأة

(١) المرأة عبر التاريخ البشري، مصدر سابق؛ ص٩٥ وما بعدها بتصرف. وينظر: تاريخ الحضارات العام، ج١، ص٧٣ وما بعدها وتاريخ الجنس العربي لمحمد عزة دروزة، ج٢، ص٣١٣ وما بعدها، وينظر: المرأة في التاريخ والشرائع لمحمد جميل بيهم، ص١٣ وما بعدها.

المصرية مع حفظها المنزلة الشريفة التي خصصتها بها الطبيعة، ومع انها كانت مصدر النسب، ما برحت تحت سلطة الرجل، فقد شوهد بين نقوش المقابر ان احترام النساء كان بنسبة تقديسهن للحقوق الزوجية وامانتهن لأزواجهن. على أن ما وصل إلينا من الآثار التي تحكي بعض الوصايا للرجال بأن يعاملوا زوجاتهم المعاملة اللينة يشير ضمناً الى ان هذه المعاملة كانت غير مرعية غالباً. ومما يضعف فكرة المساواة على اطلاقها، نظامهم في وراثة العرش فإنه وإن كان للمرأة عندهم حق التاج إلّا أن ذلك الحق ما كان ليتم لها إلّا متى فقد الوارث من الذكور، ومع ان هذا النظام سن قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة حسب رواية ديودور، فإن جدول ملوك مصر لم يذكر غير خمس ملكات ازاء اربعمائة وسبعين ملكاً. هذا ومن أدلة ميزة الرجل عندهم أيضاً، ان المرأة ولو ارتقت الى العرش كانت تشعر بأنها في مقام هو للرجل وليس لها، فإن الملكة (حتشبسوت) التي حكمت قبل ١٥٥٠ سنة من المسيح كانت مجبرة على لبس ثياب الرجال مراعاة للرأي العام.[1]

ويستفاد من تاريخ البشر الإجتماعي أنه كان للجماعات الاولى في كل مكان، رمز ديني يسمى (طوطماً). وهو غالباً حيوان تعبده تلك الأمم وتنتسب إليه، وتظن بأنها من نسله فتعرف به. وعلى هذه القاعدة جرى المصريون في اصول عبادتهم وتشكيل جماعاتهم، ولكن نظامهم الإجتماعي، لم يلبث أن تبدل تدريجاً، وانتقل النسب للوالدة فصار الأولاد ينتسبون لأمهم. وقد دام ذلك كل عصور الحضارة المصرية الى أن استولى عليهم البطالسة، وحكموهم منذ سنة

---

(١) المرأة في التاريخ والشرائع: محمد جميل بيهم، بيروت، ط١، ١٣٣٩هـ-١٩٢١م: ص١٨وص١٩.

(٣٢٣ الى ٣٠ ق. م) فبثوا فيهم التمدن اليوناني، الذي حور وغير في شريعة مصر وتقاليدها. بيد أنه مع ذلك، فإن عادة نقش اسماء الموتى على القبور بالخط الهيروغليفي، ونسبتهم الى امهاتهم لبثت موجودة ولو نادراً حتى في عصر مصر اليوناني. وتحول الدين أيضًا، من عبادة الحيوان، الى عبادة الإنسان، فصار المصريون يدينون لبعض اعاظم رجالهم. ويستفاد من قراءة صحيفة (بابيروس انسطازي) انه كان لهم في البداية ثلاثة آلهة فقط: (عمون) المخفي و(بتاك) الدائم و(را) باني المدن. ثم اندمج هؤلاء الثلاثة في (أوزيريس) وعدّوا أقانيم له. فأوموا الى هذا العاهل القديم المصري بأنه رمز النور والشمس، وكانت اخته (إيزيس) التي هي زوجته شريكة له في شرف الألوهية، وطلبًا للحبل كان النساء والرجال يأتون هيكل (أوزيريس) في منف ويجتمعون فيه جهاراً. على انه كان لدى المصريون آلهة أخرى، لها مقام أسمى من إيزيس في هيكل المصريين، وهي (نيت Neith) النازلة في الشمس، والمرموز إليها بأنها مصدر الطبيعة. فبناءً على ان الدين هو صورة أخلاق الأمة، فأن تأليه المصريين الجنس اللطيف اسوة بالجنس القوي، فضلاً عن منحه إياه حق المساعدة، في وظائف خدمة الآلهة، اشارة الى اعتبار المرأة بحضارتهم، في درجة حسنة.(١)

(١) المصدر نفسه، ص١٣ وما بعدها. وينظر: تاريخ الحضارات العام، أندريه إيمار، ج١، ص٩١ وما بعدها. وينظر: تاريخ الجنس العربي، محمد عزة دروزة، ج٢، ص٣٣٥ وما بعدها

المرأة في الحضارة الصينية

نرى أنّ حضارة الصين تبرز على نحو ملحوظ الإيقاع بثلاث مراحل في واقع التاريخ النسوي ففي:

١- العصور القديمة كانت المرأة تتمتع بمكانة مرموقة.

٢- مرحلة العبودية المتفاوتة الطّول.

٣- مرحلة الإنعتاق المتدرج الحتمي، بعد مرحلة العبودية الطويلة.

ففي الصين القديمة وفي قلب مجتمعاتها القائمة على الزراعة في قرون قبل الميلاد كان- وما يزال- البيت الريفي شيئاً نسوياً، فالرجل نادراً ما كان يدخل إليه، لأن أثاث البيت مكّون من مهر المرأة، والقرية ذاتها ملك للنساء، والآلهة التي كانت ترعاها وتحميها كانت أم الضيعة، والنساء كنّ يبقين الحبوب في البيت لمقدرتهن على التخزين.[1]

وكانت العفة تعد من الفضائل السامية، وكان الآباء يحرصون عليها أشد الحرص في بناتهم، وقد نجحوا في غرس هذه الفضيلة في البنات نجاحاً منقطع النظير، يدل عليه أن البنات الصينيات كن في بعض الأحيان يقتلن أنفسهن إذا اعتقدن أن شرفهن قد تلوث بان مسهن رجل مصادفة. غير أنهم لم يبذلوا أي مجهود يرمى الى أن يحتفظ الرجل غير المتزوج بعفته، بل كان يعد من الأمور العادية المشروعة أن يتردد على المواخير، وكان الزنا عند الرجال من الشهوات المألوفة الواسعة الإنتشار ... وكان إعداد النساء لإشباع هذه الشهوات من النظم

---

(١) المرأة عبر التاريخ البشري، مصدر سابق: ص١٢١.

المقررة في الصين من زمن بعيد. من ذلك أن الوزير الشهير (جوان جونج) وزير ولاية (تشي) أعدّ مقراً للقوادات تؤخذ فيه من التجار القادمين من الولايات الأخرى مكاسبهم قبل أن يعودوا الى أوطانهم... ونشأت فيما بعد طائفة خاصة من الفاتنات يعرفن (بالبنات المغنيات) مهنتهن أن يتحدثن حديثاً مهذباً الى الشبان إذا أرادوا أو يستخدمن في بيوت الأزواج لتسلية الضيوف. وكثيراً ما تكون هؤلاء الفتيات من البارعات في الأدب والفلسفة، وممن يجدن الموسيقى والرقص. وقد كان الرجال يستمتعون بحرية واسعة في صلاتهم بالنساء قبل الزواج، كما كانت صلاة النساء المحترمات بالرجال قبل الزواج مقيدة بأشد القيود.[1]

وإذا بحثنا عن الزواج في الشريعة الصينية نجدها قد اجازت من جهة تعدد الزوجات، وان حظرته من جهة أخرى، فقد سمحت للرجل بالتسري بأربع زيادة على زوجته التي لا يسمح له بالإقتران بسواها. فالسراري وإن كن لديهن بمنزلة الخدم، غير أن اولادهن ينسبن للزوجة الشرعية ويساوون أولادها.[2]

وكان النبلاء في الصين يرون ضرورة استمرار الطبقة وعبادة الجدود. لذا فإن الزواج عمل ديني يخضع لضمانات محددة. وتعدد الزوجات هو القاعدة، ولكن لا يستطيع النبيل أن يتزوج إلّا مرة واحدة. لذا يعقد قرانه في الحفلة نفسها على امرأته الاساسية وعلى نسائه الثانويات. ويحرم على الزوج أن ينتخب نساءه من اسرته. ويختلف عددهن تبعاً لمقامه. فله الحق بإمرأتين إن لم يكن صاحب مركز مرموق، وبثلاث نساء إن كان قائداً، وبتسع إن كان أميراً. وللملك الحق بإتخاذ

---

(١) قصة الحضارة، مصدر سابق: ج٤، ص٢٦٨.

(٢) المرأة في التاريخ والشرائع، مصدر سابق: ص٣٩، بتصرف.

اثنتي عشر زوجة. ويضاف الى هؤلاء عدد من الخليلات إن كان الزوج غنيّاً واستطاع أن يبتاعهن.(١)

وكثيراً ما كان يحدث أن الزوجات اللاتي يرغبن في أن يحتفظن بأزواجهن داخل بيوتهن يطلب إليهم أن يتزوجوا بالمحاظي اللاتي يؤثرونهن بالعناية وبالصلات الجنسية، وأن يأتوا بهن الى منازلهم ويتخذونهن فيها زوجات من الدرجة الثانية. ومن أجل ذلك نرى القصص والأخبار الصينية تثني على زوجة الإمبراطور (جوانج- تشو) أطيب الثناء، لأنها قالت: (لم أكف قط عن إرسال الرسل الى المدن المجاورة للبحث عن النساء الجميلات لأجعلهن خليلات لمولاي.)(٢)

وكان الفقراء يكتفون بزوجة واحدة، ولكن حرص الصينيون على إنجاب أبناء أقوياء كان من القوة بحيث يجعلهم يسمحون للقادرين منهم بأن يتخذوا لهم سراري أو (زوجات في الدرجة الثانية). أما تعدد الزوجات فكان في نظرهم وسيلة لتحسين النسل، وحجتهم في هذا أن من يستطيعون القيام بنفقاته منهم هم في العادة أكثر أهل العشيرة قدرة على إنجاب الأبناء. وكانت الزوجة الأولى إذا ظلت عاقراً تحث زوجها على أن يتخذ له زوجة ثانية، وكثيراً ما كانت هي نفسها تتبنى ابن إحدى المحاظي.(٣)

ولم يكن للزواج صلة بالحب، ولما كان الغرض من الزواج هو ربط زوجين اصحاء بعضهما ببعض لكي تنشأ من ارتباطهما أسرة كبيرة، فإن هذه الرابطة لم

---

(١) تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق: ج١، ص٥٩٤.

(٢) قصة الحضارة، وول ديورانت، مصدر سابق: ج٤، ص٢٧٠.

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

يكن يصح في اعتقاد الصينيين أن تترك لحكم العواطف القائم على غير أساس العقل.(١)

وكانت الزوجة تعيش بعد الزواج مع زوجها في بيت أبيه أو بالقرب منه، حيث تكدح كدحاً في خدمة زوجها وأمّه حتى يحين الوقت الذي يحررها فيه الموت من هذا الإسترقاق، ويتركها على استعداد لأن تفرضه هي نفسها على زوجات أبنائها.(٢)

وكان من أشد أسباب المذّلة للأمهات ألّا يكون لهن أبناء ذكور لأن هؤلاء أقدر من البنات على العمل في الحقول وأثبت منهن جناناً في ميدان القتال، وكان من الشرائع المتبعة في البلاد ألّا يسمح لغير الذكور بتقريب القربان إلى الآباء والأسلاف. وكانت البنات تعد عبئاً على الآباء، لأنهم يربونهن ويصبرون على تربيتهن ولا ينالهم من ذلك إلّا أن يبعثوا بهن متى كبرن إلى بيوت أزواجهن ليعملن فيها ويلدن أبناء يكدون لأسر غير أسرهم. وإذا ولد للأسرة بنات أكثر من حاجتها، وصادفت الأسرة الصعاب في إعالتهن تركتهن في الحقول ليقضي عليهن صقيع الليل أو الحيوانات الضارية دون أن تشعر بشيء من وخز الضمير.(٣)

هذا وقد أعتبرت الشريعة الصينية المرأة من الأشياء التي تكاد تكون مخلوقة خصيصاً لاستكمال لذة الرجل وخدمته. ولذلك منحت الرجل حق التصرف بها مثل تصرفه ببقية الأشياء سواء كانت ابنة، أو زوجة، أو أرملة، أو ايما.

---

(١) المصدر نفسه: ج٤، ص٢٦٨.

(٢) المصدر نفسه: ج٤، ص٢٦٩.

(٣) المصدر نفسه: ج٤، ص٢٦٦.

هذا وقد قال كونفوشيوس: (٥٥١- ٤٧٩ق. م) وهو أشهر فلاسفة الدين الصيني وصاحب المذهب الأخلاقي (الرجل رئيس فعليه أن يأمر، والمرأة تابعة فعليها الطاعة. ومن المقتضى أن تكون اعمالها مثل أعمال السماء والأرض متممة لبعضها تعاونـاً على حفظ نظام الكون. والمرأة في المجتمع مديونة لزوجها بكل ما هي عليه).[1]

وقد تدهور حق المرأة الصينية بسبب تفوق الفلّاح الصيني على الحائكة المدنية الصينية وتوجّه الأخوة الذكور نحو الإهتمامات السياسية. فتطورت ايدلوجية دينية ذكورية في ماهيتها. ثم جاءت البنى الإقطاعية والتنظيم الأبوي يفرضان

١ – ترتيباً تسلسلياً.

٢ – قواعد قسريّة.

يعني سلطة ربّ الأسرة المطلقة؛ أي بمعنى: له الحق في رفض ذريته بقتلها، أو التخلي عنها عند الولادة، أو المبيع.[2]

هذا ويعزي صاحب كتاب (المرأة في التاريخ والشرائع) اسباب استعباد المرأة الصينية الى:

أولاً: اتساع نطاق الفكرة الحربية الذي كان من نتيجته ترتيب طبقات الهيئة الإجتماعية والتملك والإستقلال.

(١) المرأة في التاريخ والشرائع، مصدر سابق: ص٣٩.

(٢) المرأة عبر التاريخ البشري، مصدر سابق: ص١٢٢.

وثانياً: لما حصل من حاجة البشر الى الزراعة والصناعة والتجارة التي أدت الى تقديس القوى الجسمية والعقلية الراجحة بالرجل، وناهيك بما كان لتأثير حصر الثروة بيد الرجل على إخضاع المرأة واعتبارها متاعاً له.(١)

ولعل قيام نظام الاقطاع في الصين قد قلل من منزلة المرأة السياسية والإقتصادية في تلك البلاد، وجاء معه بنمط صارم من الأسرة الأبوية. ذلك أن الأبناء الذكور هم وزوجاتهم واطفالهم كانوا يعيشون في العادة مع أكبر رجال الأسرة. ومع أن الأسرة كلها كانت تمتلك أرضها امتلاكاً مشتركاً فإنها كانت تعترف للأب بالسلطان الكامل على الأسرة وعلى أملاكها. فلما أن حل عهد كنفوشيوس كان سلطان الأب يكاد أن يكون سلطاناً مطلقاً في جميع الأمور، فكان في وسعه أن يبيع زوجته وأبناءه ليكونوا عبيداً، وإن لم يفعل هذا إلا إذا ألجأته إليه الضرورة القصوى.(٢)

وكان الرجل لا يفكر في زوجته إلا بوصفها أم أبنائه ولا يكرمها لجمالها أو لثقافتها، بل لخصوبتها وجدّها وطاعتها. يشهد بذلك ما كتبته السيدة (پان هو-پان) إحدى بنات الطبقة العليا في رسالة ذائعة الصيت بعبارات غاية في التواضع والخضوع تصف فيها المكانة الحقة للمرأة: نشغل نحن النساء آخر مكان في الجنس البشري، ونحن أضعف قسم من بني الإنسان، ويجب أن يكون من نصيبنا أحقر الأعمال وما أعدل ما يقوله في حقنا كتاب قوانين الجنسين وأصدقه: (إذا كان للمرأة زوج يرتضيه قلبها وجب أن تبقى معه طيلة حياتها، وإذا كان للمرأة

(١) ينظر المرأة في التاريخ والشرائع، مصدر سابق: ص٣٨.

(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت، مصدر سابق: ج٤، ص٢٧٢، وينظر: المرأة في التاريخ والشرائع، ص٣٨ وما بعدها، وينظر: المرأة عبر التاريخ البشري، ص١٢٢ وما بعدها.

زوج لا يرتضيه قلبها، وجب أن تبقى معه أيضاً طيلة حياتها).[١]

ويكمل صاحب كتاب المرأة عبر التاريخ ما كتبته (پان هو- پان): (هذه حقيقة يلزم أن تتمثل لنا دائماً، إذ من الضروري ان تؤثر على مسلكنا وان تكون مصدر سعادتنا. فإذا عرفت الصبايا مقامهن الحقيقي فلا يبقى لهن مجال للتكبر ويقفن عند الحد الذي وضعته لهن الطبيعة. ومتى انتقلت الفتاة الى دار زوجها تفقد كلّ شيء حتى اسمها ومالها وحتى شخصها، فيصبح كل ذلك ملكاً له. فالزوجة كما قال (نيو هيم شو) يجب ان تكون في البيت كمجرد الظل والصدى، فالظل ليس له شكل سوى شكل الجسم. والصدى لا يردد شيئاً غير الصوت الملفوظ. وعلى المرأة أن لا تعاكس الآخرين كما عليها أن تستعد لتكون مجال المعاكسات).[٢]

ويغني (فوشوان) قائلاً:

ألا ما أتعس حظ المرأة!

ليس في العالم كلّه شيء أقل قيمة منها.

إن الاولاد يقفون متكئين على الأبواب،

كأنهم آلهة سقطوا من السماء،

تتحدى قلوبهم البحار الأربعة،

والرياح والتراب آلاف الأميال،

(١) المصدر نفسه: ج٤، ص٢٧٣.

(٢) المرأة عبر التاريخ البشري، مصدر سابق؛ ص٤١.

أما البنت فإن أحداً لا يسرّ بمولدها،

ولا تدخر الأسرة من ورائها شيئاً،

وإذا كبرت اختبأت في حجرتها،

تخشى أن تنظر الى وجه إنسان،

ولا يبكيها أحد إذا اختفت من منزلها،

على حين غفلة كما تختفي السحب بعد هطول الأمطار،

وهي تطأطئ رأسها وتجمّل وجهها.

وتعض بأسنانها على شفتيها،

وتنحني وتركع مراراً يخطئها الحصر.(١)

ومما يذكر عن المرأة الصينية في الكتب الدينية القديمة بانها سميت بالمياه المؤلمة التي تغسل السعادة والمال. ولقد عرفت المرأة في الأدب الصيني بأنها مزلّة من الرجل دائماً، وليس لها أي حق من الحقوق، وبإمكان الرجل دائماً متى شاء أن يسلب شخصية زوجته وبيعها كالجارية. وأما المرأة المترملة كانت تصبح كجزء من الثروة المتعلقة بعائلة زوجها، ولم يكن لها أي حق من التزوج مرة ثانية! ومع هذا كله كانت تعامل كالرقيق، وليس لها حق في الحياة من نفسها، وكان للزوج حق بدفنها وهي حيّة بدون أي اعتراض من أي جهة كانت، وحتى سنة ١٩٣٧ كان يوجد في الصين ثلاثة ملايين جارية. وإن أعجب من كل ما ذكر

---

(١) قصة الحضارة، مصدر سابق: ج٤، ص٢٧٣.

وأفجع، هو أنه لغاية السنين القريبة الماضية كانوا يصنعون للبنات الصينيات أحذية مخصوصة حتى تبقى أرجلهم صغيرة لكي لا تصل الى رشدها ونموها الطبيعي.(١)

وفي كتاب قصة الحضارة يقول وول ديورانت: وقد يكون في هذه المقتبسات ظلم للبيت الصيني، نعم قد كان فيه خضوع ومذلّة، وكثيراً ما قام فيه النزاع بين الرجل والمرأة وبين بعض الأطفال، ولكن كان في البيت أيضـاً كثير من الحب والحنان، وكثير من التعاون والتآزر في الأعمال المنزلية، مما يجعل البيت مكانـاً طبيعياً ومستقراً صالحـاً للأسرة. وكانت المرأة رغم خضوعها للرجل من الناحية الاقتصادية تستمتع بكامل حقها في استخدام لسانها، وكان في وسعها أن تؤنب الرجل حتى يرهبها أو يفر من وجهها.(٢)

---

(١) تطور المرأة عبر التاريخ: باسمة كيال، نشر مؤسسة عز الدين، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ-١٩٨١م؛ ص٤٢.

(٢) قصة الحضارة، مصدر سابق: ج٤، ص٢٧٤.

المرأة في الحضارة الهندية

لم تعرف المرأة الهندية الاستقلال أو الحرية لا في بيت أهلها ولا في منزل زوجها.[1] وفي شريعة (مانو) في الهند لم تكن تعرف للمرأة حقاً مستقلاً عن حق أبيها أو زوجها أو ولدها في حالة وفاة الأب والزوج فإذا انقطع هؤلاء جميعاً وجب أن تنتمي الى رجل من أقارب زوجها في النسب ولم تستقل بأمر نفسها في حالة من الأحوال. وأشد من نكران حقها في معاملات المعيشة نكران حقها في الحياة المستقلة عن حياة الزوج فإنها تقضي عليها بأن تموت يوم موت زوجها وأن تحرق معه على موقد واحد وقد دامت هذه العادة العتيقة من أبعد عصور الحضارة البرهمية الى القرن السابع عشر وأبطلت بعد ذلك على كره من اصحاب الشعائر الدينية.[2]

والمرأة عموماً في المجتمع الهندي كانت مرتبطة بالرجل إرتباطاً مطلقاً، فقد كانت محرومة من أية ثقافة تذكر.[3]

ومن المعروف إن التشريع الخلقي في هذه البلاد قد إرتبط بنظام الطبقات إرتباطاً يكاد لا يكون له إنفصام، ولكل مكان من ذلك النظام إلتزاماته وقيوده وحقوقه، وفي ذلك يقول مؤرخ إنجليزي: (يستحيل تصور المجتمع الهندي بغير نظام الطبقات).[4]

---

(١) تطور المرأة عبر التاريخ، مصدر سابق: ص٤٣.

(٢) فلسفة المرأة: عباس محمود العقاد، نشر دار فوارس، القاهرة، ط١، ٢٠١٦؛ ص٢١٢.

(٣) التربية عبر التاريخ: د. عبد الله عبد الدائم، نشر دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨١: ص٢٨.

(٤) قصة الحضارة، مصدر سابق: ج٣، ص١٧١.

وكان الزواج- في النظام الهندي- إجباري للجميع، والرجل الأعزب طريد الطبقات، وكذلك بالنسبة للفتاة إن طال بها الأمد عذراء بغير زواج، فذلك عار أي عار. على أن الزواج لم يكن يترك لأهواء الفرد يختار من يشاء، أو لدفعة الحب تدفع العاشق إلى زواج من يهوى، بل كان الزواج عندهم أمراً حيوياً تهتم له الجماعة كلها والجنس كله، فيستحيل أن يوكل أمره إلى العاطفة بما لها من قصر النظر بعواقب الأمور. فلابد أن يتولى الوالدان أمر زواج الوليد قبل أن تستولي عليه حمّى الرغبة الجنسية فتقذف به إلى زواج مصيره- في نظر الهنود- إلى خيبة الرجاء واليأس المرير... ولقد آثر الهنود لأنفسهم زواج الأطفال على اعتبار أنه أهون الشرّين، وحاولوا أن يخففوا من أخطاره بأن يجعلوا بين الزواج وبين إثماره فترة تبقى فيها العروس مع والديها حتى يتم نضجها، هذا عندهم نظام اجتماعي قديم، ومن قدمه جاءت قداسته، وإنما نبتت جذوره بادئ ذي بدء من رغبة الناس في منع التزاوج بين الطبقات تزاوجاً قد تسببه مجرد الجاذبية الجنسية العابرة، ثم ازداد في نفوس الناس قوّة فيما بعد، وأخيراً اتخذ النظام شكله الجامد الذي جعله تصميماً عند الأبوين على وقاية ابنتهما من استثارة الذكور لحساسيتها الجنسية... ولا يجوز لنا أن نفرض بأن الحساسية الجنسية عند الهنود قد انتهت بهم إلى إباحية أكثر من الحد المألوف عند غيرهم، فقد أقام زواج الأطفال سدّاً في وجه العلاقات الجنسية السابقة للزواج، وكان الزنا في الأعم الأغلب مقصوراً على المعابد، ففي الأصقاع الجنوبية كانت رغبات الرجل الشهواني تشبعها له من كن يطلق عليهن (خادمات الله)، وما خادمات الله- أو (دفاداس) كما يسمونهن- إلّا العاهرات- وأكسب الزمان هذه العادة صبغة الجلال، فلم ير فيها أحد ما يتنافى مع الأخلاق، حتى أن السيدات المحترمات كن آناً بعد آن يهبن إبنة إلى مهنة العهر في

المعابد، بنفس الروح التي يوهب بها الابن إلى الكهنوت.(١)

ومن المؤكد على هضم حقوق المرأة الهندية القديمة هي عقيدة (نيوك) التي هي في الواقع نوع من الإهانة لطهارة المرأة، وهذه الإهانة والتحقير كانت بصورة حيث تعذب روح وضمير المفكرين الهنود. إن ما يقوله المؤيدون لعقيدة نيوك القائلة: (تتمكن المرأة أن تضطجع مع رجل أجنبي من أجل إنجاب الأولاد إذا لم يكن عندها ولد). وأن العادات المتبعة في الزواج بين الهنود القدامى على صورة (أسورا) لا تعبر بأي شكل من الأشكال بغير بيع البنت بواسطة الأب، وبالسبب الذي لا يلحق النساء أي سهم من الإرث، ولم يوجد أي قانون في ذلك الزمان حتى يتمكن من أخذ حقوقهن بواسطته.(٢)

وفي شريعة (ماني) فإنها تقضي على الأرملة بأن تبقى عزباء متقشفة حزينة، ويجوز لها أيضاً أن تحرق نفسها... على أن بعض العلماء خالفوا ما قيل بان شريعة (مانو) تقضي باستعباد المرأة، ... فلذلك يترجح لنا ان الشريعة المذكورة مع احتقارها مقام المرأة لم تستعبدها كما تستعبدها عوائدهم الإجتماعية، بل أوصت بها خيراً كبقية الأديان. والذي لا يختلف فيه اثنان هو احتفاظهم بكرامة الأم، فقد منحت حق مراقبة نيران الأضاحي الدينية، وتوزيع الاحسان واستقبال الضيوف، تكريماً لها. ولا يمكن طلاقها بسهولة، اللهم إلّا أن تبقى عشر سنوات من غير ولادة ذكر.(٣)

ولم تعترف الشرائع الهندية بحق المرأة منفرداً عن حق أبيها وزوجها أو

---

(١) المصدر نفسه، ج٣، ص١٧٢ وما بعدها بتصرف.

(٢) تطور المرأة عبر التاريخ، مصدر سابق: ص٤٣.

(٣) المرأة في التاريخ والشرائع، مصدر سابق: ص٣٣.

ولدها في حالة وفاة الأب أو الزوج، فإذا انقطع هؤلاء جميعاً وجب أن تنتمي الى رجل من أقارب زوجها في النسب ولم تستقل بأمر نفسها في أي حال من الأحوال، بل حرمت من حق التصرف والإختيار، ولم تكن لها حقوق مساوية للرجل، ولكنها عدت من فصيلة الإماء أو الصبيان، وجعلت مصدر العار والعناء في الحياة. وجاء في شرائعهم: (أن الوباء والموت والجحيم والسم والأفاعي والنار خير من المرأة).(١)

في هذه الظروف التي يسودها عهر المعابد وزواج الأطفال، لم يبق أمام ما نسميه (بالحب الشعري) إلّا أضيق الفرص، ... ولكن أمثال هذه الأهواء المتقلبة لم يركن إليها إلّا نادراً في تقرير الزواج في الهند، ولقد أباح (مانو) ثمانية صنوف من الزواج، كان أدناها في القيمة الخلقية هو الزواج (بالإغتصاب) والزواج (بالحب)، وأما الزواج (بالشراء) فهو الصورة المقبولة على أنها الطريقة المعقولة لتدبير الزواج بين رجل وامرأة، فالمشرع الهندي من رأيه أن صور الزواج التي تنبني على أسس اقتصادية هي في نهاية الأمر أسلم الصنوف عاقبة، وفي أيام (دبْوا) كانت العبارة الهندية التي تعني (يتزوج)، والعبارة التي تعني (يشتري زوجة) (عبارتين مترادفتين).(٢)

ولم يكن نساء الهند يتلقين تعليماً، إلّا إن كن من سيدات الطبقة الراقية أو من زانيات المعبد، ففن القراءة كان في عرفهم لا يليق بامرأة، ذلك لأن سلطانها على الرجال لا يقوى به، ثم هو يؤدي إلى نقص فتنتها، يقول (طاغور) على لسان

(١) حقوق المرأة في الديانات والمعتقدات: اعمال مؤتمر الأديان الثالث لسنة ٢٠١١ بإشراف، د. شمران العجلي، نشر بيت الحكمة، بغداد، ط١، ٢٠١٣م: ص٣٣٦.

(٢) قصة الحضارات، مصدر سابق:ج٣، ص١٧٦ بتصرف.

(شِتْرا) في إحدى مسرحياته: (إن المرأة يسعدها أن تكون امرأة فقط، أن تلف نفسها حول قلوب الرجال بابتسامتها وتنهداتها وخدماتها وملاطفاتها، فماذا يجدي عليها العلم وجليل الأعمال)؟ وليس من حقها أن تلم بكتب الفيدا، ففي (الماهابهاراتا): (إذا درست المرأة كتب الفيدا كانت هذه علامة الفساد في المملكة). ويروي (المجسطي) عن أيام (شاندرا جوبتا): (إن البراهمة يحولون بين زوجاتهم- ولهم زوجات كثيرات- وبين دراسة الفلسفة، لأن النساء إن عرفن كيف ينظرن إلى اللذة والألم، والحياة والموت، نظرة فلسفية، أصابهن مسٌّ من جنون، أو أبيْنَ بعد ذلك أن يظلَلْن على خضوعهن).[1]

وهناك فريق من الكتاب الأوروبيين وبعض الهنود على السواء، ذهبوا إلى أن الحجاب لم يكن معروفاً في الهند قبل الفتح الإسلامي، وأن الهندوس قد نقلوه عن المسلمين عندما استوطن المسلمون بلادهم واختلطوا بهم. ومع ذلك فإن دراسة كتب الفقه الديني القديمة والآثار الأدبية التي تعود الى القرن الرابع والثالث قبل الميلاد تكشف بما لا يدع مجالاً للشك عن حدوث تطور في هذا الموقف نحو تقييد المرأة في الإتصال بالرجال. فقد ظهر في الفقه الديني أن الإبن يؤول في العالم الآخر إلى والده الحقيقي سواء كان زوجاً لأمه أو لم يكن. وإن القرابين التي يقدمها الإبن لا يفيد منها سوى هذا الوالد. ولذلك نجد الفقهاء على مر العصور يحثون الأزواج على بذل أكبر قدر من الاهتمام في مراقبة سلوك زوجاتهم حتى يحولوا دونهن والاتصال برجال آخرين لكي لا يكون إنجابهن أولاداً عديم الفائدة بالنسبة لهم... ويروى بأن الفقيه (منو) يقول: (لا يمكن لأي رجل أن يحرس النساء حراسة كاملة بالقوة، لكن من الممكن حراستهن باستخدام

(١) المصدر نفسه:ج٣، ص١٧٩.

الوسائل التالية: ليشغل الزوج زوجته في جمع وإنفاق ثروته، وفي إبقاء كل شيء نظيفاً، وفي إداء الواجبات الدينية، وفي إعداد طعامه والعناية بالأدوات المنزلية). ومما يؤكد بوجوب الحجاب في هذه الفترة من الزمن ما ورد في أحد النصوص الأدبية من أن الملك (راما) خرج يوماً من قصره مع زوجته (سيا) فوجد أن رعاياه ينتظروهما أمام باب القصر بفارغ الصبر لإلقاء نظرة عليهما ولما شاهد الملك هذا الجمهور الذي يرنو إليه بلهفة، التفت إلى زوجته وقال: إرفعي يا سيدة حجابك! ثم توجه إلى الحشود وقال لهم تطلعوا ومتعوا أنظاركم بهذا الوجه الجميل، فلا غضاضة من النظر إلى وجوه النساء عند التضحية وأثناء حفلات الزفاف، وأثناء المصيبة، وعندما يكن في الغابات.[1]

وعلى كل حال فانحطاط المرأة في الهيئة الإجتماعية (البرهمية) قديم حتى لم تعد شيئاً مذكوراً، فهي عبدة للرجل، ولا يجوز لها أن تكلمه إلّا باحترام، ولا أن تؤاكله على مائدة، بل ولا تجرأ أن تلفظ إسمه. وبلغ الإفراط في امتهانها أنهم صاروا يحتقرون الرجل الذي يحادث زوجته محادثة عائلية، والنساء انفسهن بتن يمتهن بعلاً كهذا. بل بلغ منهن ان الأرامل استسلمت لعادة هي من ضروب الجنون، لبث حزنهن على فقد بعولتهن وهي الإحتراق عمداً بالنار بعد موتهم ... وقد شوهد في القرن الماضي انه لما مات أميران في إمارة (مارافا) تاركاً أحدهما سبع عشرة إمرأة، والأخر ثلاث عشرة، استسلمن كلهن للنار مع جثتي زوجيهن، ما عدا احداهن التي كانت حبلى فإنها بعد الولادة التحقت بصاحباتها.[2]

(١) تطور المرأة عبر التاريخ، مصدر سابق: ص٤٥.

(٢) المرأة في التاريخ والشرائع، مصدر سابق: ص٣٤.

المرأة في الحضارة الإغريقية

كانت المرأة في المجتمع الكريتي تتمتع بمركز وبحرية لم تعرفهما في ذاك الزمن نفسه، في أي مكان آخر، وسيقتضي لها وقت طويل جداً حتى تبلغهما، فسواد الآلهة من الإناث، وللكاهنات الدور الأول في الإحتفالات، وغالباً ما تظهر الرسوم نساءً خارج بيوتهن، في الساحة العامة والمسرح وحلبة الملعب.[1]

وكان الأب في المجتمع الكريتي- المينوي- أساس الأسرة وله مطلق السلطة، ولقد صورت لنا المكتشفات الأثرية في قصر كنوسوس في منازلها المتناثرة صوراً للأب والأم ومدى العلاقة بينهم في العمل والتعاون وإحترام رب الأسرة الذي كان عماد وشكل المجتمع. وكانت النساء ترتدي أثواباً تشابه الاثواب المعاصرة- تنورات طويلة – مزركشة بأشرطة وصدريات مفتوحة من الأمام، ويتزين بالقبعات والمجوهرات لدرجة أن بعض علماء الآثار، أطلقوا على صورة امرأة كريتية عثر عليها على أحد جدران القصر إسم (الباريسية) لفرط أناقتها وجمالها.

والمرأة الكريتية كانت تتمتع بمكانة إجتماعية مساوية للرجل، إن لم تكن اعلى منه، وكانت تقوم بالأعمال المنزلية كنسج الثياب وطحن القمح وعجن الخبز، وتشارك زوجها في أعمال الحقل وصناعة الخزف وغير ذلك من المهن، ويتبين من الرسوم الكثيرة المكتشفة في القصور، أن المرأة كانت تخرج الى الصيد وتركب عجلات السباق وتشترك في الألعاب البهلوانية، وكانت المقاعد الأمامية

(١) تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق: ج١، ص٢٤٤، بتصرف.

في المسارح والملاعب تخصص للنساء.[١]

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن وفرة الرسوم النسائية، والميل الملموس الى إبراز الكشحين وتعرية الثديين بوضع اليدين متشابكتين عليهما أحياناً، وإشراك هذه الرسوم برسم الشجرة والحيّة التي هي حيوان ما تحت الأرض الأول، كل ذلك يحدو بنا الى الإعتقاد بوجود عبادة أولى تتجه الى ما يمكن أن نسميه (بالأم الكبيرة) أعني بها آلهة الأرض والإخصاب. والإله الذكر المفروض وجوده الى جانبها لا يتمتع إلّا بمركز ثانوي.[٢]

هذا ويستخلص من رسوم (الإفرسك) التي وجدت على جدران قصر كنوسوس، كثير من صور الرقصات الشعائرية التي تقوم بها النساء، مما يعطينا صورة حقيقية عن الدور الهام الذي كنّ يقمن به في الديانة المينوية.[٣]

وكانت الأسرة في المجتمع الميكيني (١٦٠٠- ١١٠٠ق. م) الأب هو عمادها، وله حق التصرف في شؤونها وتدبير أمورها، بما في ذلك الأبناء وأبناء الأبناء، وللأب الحق في توزيع الثروات الخاصة بالأسرة... وإن كان الإبن الأكبر له أفضلية وحق إرث ممتلكات الأسرة بعد وفاة الوالد... وربما تعطينا المصادر صورة واضحة عن ضعف شخصية المرأة الى جانب الرجل، وربما وجد من صور ونقوش على قصور وجدران الميكينيين ما يعطينا دليلاً على ذلك.[٤]

---

(١) تاريخ الإغريق: د. خليل سارة، نشر جامعة دمشق، سورية، ط١، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٦م: ص١٥٩و ١٦٠.

(٢) تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق:ج١، ص٢٤٤.

(٣) تاريخ الإغريق، مصدر سابق: ص١٦٦.

(٤) المصدر نفسه؛ ص١٨٧.

وبتأسيس مدينة اسبارطة (١١٥٠ق. م) وبتاريخها الحافل بالتناقضات والمفارقات وبسبب سياسة الإنعزال فقد كان لها الكثير من الغرائب في أمورها السياسية والإقتصادية والإجتماعية، فكان من الطبيعي أن يكون لهذا الوضع تأثيراً على المرأة، فقد كانت الفتيات بالرغم من بقائهن في البيوت يخضعن أيضاً لمراقبة الحكومة وتعليماتها، وكان يفرض عليهن أن يشتركن في الألعاب الرياضية والمباريات من ركض وصراع ورمي ورقص ليصبحن أقوياء يتمتعن بصحة جيدة ويقمن بوظيفة الأمومة على أحسن وجه، ويفرض عليهن أن يسرن في مواكب الإحتفالات والرقص وهنّ عاريات الجسم ولو كان ذلك على مرأى من العامة، حتى يضطررن الى العناية بأجسامهن، إذ يقول (بلوتارخوس) في هذا الخصوص: (إن الإسبرطيين لم يكونوا يجدون في عري الفتيات أي شيء يدعو الى الخجل). وكانت الفتيات ينشدن أثناء الرقص قصائد في تمجيد الشجعان الذين يخوضون غمار الحرب، بينما تسخر هذه القصائد من الجبناء الذين يهربون من المعركة. وكان الإسبرطيون يسمحون لشبّانهم بمقدار كبير من الحرية في المسائل الجنسية قبل الزواج، ولذلك لم يكن هناك أثر للبغاء عندهم، ولم يكن يسمح للفتاة المريضة بالزواج، لأن النسل لابد أن يكون يأتي مكتمل الصحة، إذ كان على الفتاة المريضة أن تحجم هي نفسها عن الزواج. والأمر نفسه كان يطبق على الفتيات القصيرات والضئيلات في الحجم.[1]

وكانت إسبرطة دائماً غريبة الأطوار وسابقة لعصرها أيضاً، فقد كانت المدينة الدولة الوحيدة التي استعادت فيها المرأة، خلال عصر التوسع الهليني فيما وراء البحار، بعض ما يشبه ذلك الوضع الاجتماعي الذي كانت تتمتع به في

(١) ينظر: تاريخ الإغريق، مصدر سابق؛ ص٣٦١.

جميع البلاد إبان عصر البربرية والفوضى السابق على العصر الهليني. وقد جاء هذا الكسب الذي نالته، نتيجة لهبوط ذلك الثقل الكبير لنظام (ليكورجوس)(١) على كواهل المواطنين الإسبرطيين الذكور. وكانت الفتيات الإسبرطيات يخضعن للتجنيد أيضاً، غير أن النسوة المسنات كن يعفون من ذلك في سهولة ويسر. وفي هذا الصدد ، جاء أرسطو بتعقيب لاذع حكيم، إذ قال إن الشعوب النزاعة إلى القتال والحرب من دأبها أن تقع فريسة: (لنظام تجنيد النساء الرهيب).(٢)

وكان الزواج يمهد له عادة من قبل الأبوين، ولم يكن يدفع شيء من المهر، على أنه بعد إتفاق الأسرتين كان يُنتظر من الشاب أن يخطف خطيبته بالقوة، وأن تبدي هذه من جهتها أشد المقاومة، وكان اللفظ الذي يعبر عن هذا الزواج هو

(١) ليكورجوس: هو صاحب القوانين والتشريعات الإسبارطية، وهي بالحقيقة ترجع الى عصر أقدم من ذلك بكثير، وهي عبارة عن مجموعة من قواعد العرف والتقاليد الموروثة التي نقحها ((ليكورجوس)) ووضعت في شكل قوانين، فأطلق عليها إسم الشخص الذي تولى جمعها وقام بترتيبها وكتابتها، وهي على غرار ملحمتي الإلياذة والأوديسة- عندما نسب المؤرخون تأليفها الى الشاعر هوميروس- ويذكر أيضاً المؤرخون الإغريق، أن ليكورجوس عندما زار جزيرة كريت أبدى إعجابه بقوانينها ومؤسساتها وقرر أن يقتبس بعضها وينقله الى إسبارطة. وقد قبل الملوك والقسم الأعظم من النبلاء قوانين ليكورجوس لإدراكهم بإنه لا غنى عنها في سبيل مصلحتهم وسلامتهم هم أنفسهم، إذ أن تلك القوانين ضمنت للبلاد القوة العسكرية والعظمة والسيادة. ينظر تاريخ الإغريق: ص٣٤٨.

(٢) تاريخ الحضارة الهلينية: أرنولد توينبي، ترجمة رمزي جرجيس، نشر مكتبة الأسرة، مصر، ط١، ٢٠٠٣م: ص١٠٢.

الإغتصاب. وإذا لم يتم بهذا الشكل، فإنهم كانوا يجمعون عدداً من الرجال غير المتزوجين ومثلهم من النساء ويدفعونهم جميعاً الى غرفة مظلمة ليخطف كل واحد زوجة له. والطلاق كان نادراً وغير مستحب، وقد عوقب القائد الإسبرطي المشهور (ليساندر) لأنه ترك زوجته وأراد الإقتران بامرأة أجمل منها، والجمع بين الزوجات كان ممنوعاً أيضاً إلّا لظروف استثنائية ونادرة جداً.(١)

وكانت إسبارطة أوسع حرية من أثينا من جهة تربية البنات، لأن البنات فيها كن ينشأن مثل نشأة الفتيان فيشاركنهم في مزاولة الألعاب الرياضية والرقص والموسيقى، بالمعنى الواسع الذي كان اليونان يعنون بكلمة الموسيقى. وأما من حيث العلم فلم تختلف إسبارطة عن أثينا، كما يفيد ذلك أرسطو حيث قال: (أقام الشارع في إسبارطة دور العلم العامة على أن ينشأ الرجال حسب استعداداتهم، في حين أن النساء يبقين مهملات، فيعشن بين ذلك الشعب الحرب في حياة السفه.(٢)

ولم يقتصر عمل المرأة الإسبرطية على أعمال المنزل، بل كانت تخرج الى الأسواق وتعمل بالتجارة، ولما كان الكثيرون من الإسبرطيين الذين يحصلون بمختلف الوسائل غير المشروعة على ثروات طائلة، ويخافون من إفتضاح أمرهم، كانوا يودعون أموالهم عند الرهبان ويسجلون أملاكهم بإسم زوجاتهم، وكان النساء هنّ اللواتي يقمن بشراء هذه الأراضي أو بيعها واستثمارها، ولذلك يقول أرسطو: (أن النساء في إسبارطة كن يملكن على وجه التقريب خمسي البلاد).(٣)

---

(١) تاريخ الإغريق، مصدر سابق: ص١٦٢.

(٢) المرأة في التاريخ والشرائع، مصدر سابق: ص٧٤ و٧٥.

(٣) تاريخ الإغريق، مصدر سابق: ص٣٦٢.

منحت المرأة في إسبرطة بعض الحقوق المدنية المتعلقة بالبائنة والإرث وأهلية التعامل مع المجتمع الذي تعيش فيه، ولم تكن هذه الميزة للمرأة الإسبرطية وليدة تشاريع أو نصوص قانونية، وإنما كانت بسبب وضع المدينة الحربي حيث شغف الرجال بخوض المعارك مما أفسح المجال أمام المرأة لتخرج من عزلتها في بيتها لشراء حاجاتها أثناء غياب زوجها، لذلك يمكن أن نعتبرها أفضل من المرأة التي كانت تعيش في أثينا وبقية البلدان اليونانية الأخرى.(١)

ولكن مع ذلك فإننا لا نجد مركزاً مرموقاً للمرأة في المجتمع الأسبرطي الذي اسقط عنها كل مظاهر الأنثى فعلّمها الخشونة والقسوة، والفظاظة حتى مع أبنائها وزوجها بحيث لا يبقى فيها شيء من المرأة سوى مهمة الإنجاب وتحسين النسل.(٢)

وأما المرأة في المجتمع الأثيني فهو كأغلب المجتمعات القديمة يميل الى إنجاب الذكور عن الإناث. وحتى السابعة من عمره كان الطفل يربى في حضانة النساء بالمنزل، وفي الثامنة كان يسلم الى عبد يطلق عليه (بيد أجوجوس) أي (المربي) يصاحبه في ذهابه وإيابه من المدرسة ويسهر عليه ويراقب تصرفاته وأخلاقه. وفي نفس الوقت الذي يبدأ فيه الطفل الذكر ممارسة حياته المستقبلية خارج المنزل تبدأ الأنثى في سلوك طريق آخر، فبعدما كانت تشارك أقرانها من الجنسين في ألعابهم تبدأ تدريجياً في الإنفصال عنهم فقد بدأت تنمو وتتعرف على المسموحات والممنوعات، فيحظر عليها أن تظهر في إحتفال ديني أو طقس

(١) تطور المرأة عبر التاريخ، مصدر سابق: ص٣٣.

(٢) أفلاطون والمرأة: د. إمام عبد الفتاح إمام، نشر مؤسسة الإسراء، القاهرة، ط٢، ١٩٩٦م: ص٥٦.

جنائزي أو لزيارة معابد الآلهة.[1]

وما يلفت النظر بأن أثينا وأغلب بلاد اليونان قد فرضت الحجاب على النساء الحرائر، ورفعته عن الإماء والبغايا. ففي بيوت الحريم على سبيل المثال كانت المرأة أو الفتاة التي لم تتزوج بعد، تقبع في ركن الحريم لا تغادره حتى زواجها حيث يتم نقلها إلى بيت الزوجية، ولم يكن الزوجان يرى أحدهما الآخر إلّا ليلة الزفاف. ولم يكن الزواج يخول للمرأة حرية الاختلاط بالرجال ولا حرية الخروج من المنزل. فلم تكن المرأة تستقبل في دارها سوى النساء أو أقاربها الأقربين من الذكور... ولم يكن يسمح للمرأة أن تخرج من دارها إلّا بإذن زوجها، ولم يكن ذلك عادة إلّا لسبب وجيه، كزيارة قريبة أو عيادة مريض ، أو أداء واجب العزاء. وفي الحالات التي كان يسمح فيها للمرأة بالخروج كانت التقاليد تلزمها بوضع حجاب يخفي معالم وجهها.[2]

ولم يكن في أثينا مدارس للبنات، بل كانت فتيات الأغنياء يقتصرن على تلقن القراءة والكتابة في دورهم. وأما الفقيرات و المتوسطات فكن يتلقين بعض معلومات دينية عن والداتهن الجاهلات في اثناء اهتمامهن بممارسة خدمة المنزل. وبالإجمال فقد كانت الإبنة في اثينا تكاد تكون متحجبة فلا تختلط بالذكور، بل لا تجتمع بفتيات الّا في اثناء الاحتفالات الدينية الرسمية. وكان وليها يبادر لتزويجها

(١) اليونان، دراسات في تاريخ الحضارات القديمة، د. حسين الشيخ، مصر، ط١، ١٩٩٢م: ص٩٧.

(٢) تطور المرأة عبر التاريخ، مصدر سابق: ص٣٥ وينظر: تاريخ الإغريق، ص٥٠٩وما بعدها.

متى بلغت الخامسة عشر من عمرها، تاركاً لبعلها اكمال تربيتها وفقاً لرغبته.[١]

هذا ويلخص (يوروبيدس) وضع المرأة الإجتماعي الأدنى من الرجل الأثيني على لسان (فايدرا) في مسرحية (هيبوليت) في مونولوج طويل، توضح فيه (فايدرا)، أن الشق من هذه المشكلة يتمثل في التواضع الزائد للمرأة الأثينية، والذي يجعلها غير مناسبة لأي شيء عدا بيتها، أمّا الشق الثاني فهو الخوف مما قد يقوله الرجل أو يفعله. وهذا الخوف هو الذي يمنع المرأة من عمل ما تظن أنه صواب. هذا الخطأ والإحساس الذي لازم المرأة الأثينية تعترف به (فايدرا) نفسها حين تقول: (لقد تعلمت أن أعرف جيداً إني لست إلّا امرأة، شيء لا يكترث به العالم). وفيما بعد كررت (إفيجينيا) نفس المعنى حين قالت في مسرحية (إفيجينيا بين التاوريين): (إن فقدان رجل لهو شيء تشعر به أسرته تماماً، بينما فقدان المرأة شيء غير ذي بال)... ويفهم أيضاً من النصوص الأدبية، أن مكان المرأة الطبيعي هو البيت حيث كان عليها أن تربي الأطفال وتطهو الطعام وتغزل الصوف وتنسج الملابس وتشرف على شؤون البيت الأخرى. ويبدو أن الأثيني كان لا يطمئن الى خروجها بمفردها الى السوق.[٢]

علماً أن مركز المرأة الأثينية لم يكن كمّاً مهملاً، ومن يستعرض الصور المنحوتة في إفريز (البارثون) يلمس مدى بروز العنصر الأنثوي وأهمية المرأة في الحياة الدينية حيث إتخذوا من الربة (أثينة) راعية لمدينتهم، وحامية لها ورمزاً.

(١) المرأة في التاريخ والشرائع، مصدر سابق: ص٧٤.

(٢) تاريخ الإغريق، مصدر سابق: ص٥١١ وص٥١٢، وينظر: المرأة في التاريخ والشرائع: ص٧١ وما بعدها. وينظر: تطور المرأة عبر التاريخ: ص٣٢ وما بعدها. وينظر: اليونان، دراسات في تاريخ الحضارات القديمة: ص٩٧ وما بعدها.

وكذلك الأمر كانت المرأة هي المكلفة بالسهر على ألّا ينطفئ نار الموقد، وهي على الأخص التي يجب عليها أن تكون متيقظة الى بقائه طاهراً، وهي التي تقدم له القرابين، فلها إذن سدانته، وحيث لا توجد الزوجة تكون العبادة المنزلية ناقصة وغير وافية، إنها لمصيبة كبرى للأثيني أن يكون له موقد محروم من الزوجة، وتدلنا الصيغ الدينية الإغريقية، على أنه إذا لم تكن في المنزل مساواة في السلطة، فقد كانت فيه على الأقل مساواة في الكرامة.[1]

ولكن للدكتور (فوستيل دي كولانج) قول آخر بيّنه في كتابه (المدينة العتيقة) جاء فيه:

تتكون الأسرة من أب وأم وأطفال وأرقاء. ولابد أن يكون لهذه المجموعة نظامها مهما كانت صغيرة، فلمن إذن السلطة الأولى؟ أَ للوالد؟ كلا. ففي كل منزل شيء هو فوق الوالد ذاته: ألا وهو الديانة المنزلية، ألا وهو ذلك الإله الذي يسميه الإغريق (الموقد السيد)... أو بعبارة أخرى الاعتقاد الكائن في النفس البشرية، ذلك هو السلطة التي يقلُّ الجدل فيها عن سواها، وهي التي ستعين المراتب في الأسرة. والأب هو الأول بجوار الموقد، فهو الذي يوقده ويرعاه وهو حبره الأعظم وهو الذي يشغل أعلا الوظائف في جميع الأعمال الدينية. فهو الذي يذبح الأضحية. وفمه يتلو صيغة الدعاء الذي يجلب له ولذريته حماية الآلهة. وبه تستمر الأسرة والعبادة. وهو وحده الذي يمثل سلسلة الذرية كلها وعليه تعتمد العبادة المنزلية، ويكاد يستطيع أن يقول كما يقول الهندي: إنني أنا الإله. وعندما يوافيه الموت يصبح كائناً إلهياً تضرع له ذريته.

(١) تاريخ الإغريق، مصدر سابق: ص٥١٧.

لم تضع الديانة المرأة في منزلة لها مثل هذا السمو. حقاً إنها تساهم في الأعمال الدينية لكنها ليست ربة الموقد لأنها لم تتلق ديانتها من مولدها وإنما لقنها الزواج إياها. لقد تعلمت من زوجها الدعاء الذي تتلوه. وهي لا تمثل الأسلاف لأنها لم تنحدر منهم ولن تصبح هي ذاتها سلفاً.[1]

وأما عن وضعها القانوني فإن المشرع لم يقصد بإخضاعها لوصاية الأب والزوج أو أقرب الأقارب إلّا لحمايتها، وأما القانون الذي يرغم الإبنة الورثية التي مات أبوها دون وصية على الزواج من أقرب أقاربها، فإن هذا القانون يتفق وإتجاه المشرّع الإغريقي بكل ما يتصل بمهر الزوجة أو دوطتها (المهر أو الدوطة هو ما تنقله المرأة الى بيت الزوجية سواء في شكل جهاز منزلي أو ثروّة عقارية) الى الاحتفاظ بهذه الممتلكات في يد أسرتها بقدر المستطاع بغية الحيلولة دون إنقراض الأسرة وتوقف ممارستها للشعائر الدينية.

إذن فالزوجة الأثينية هي أم الأطفال، ومديرة شؤون المنزل، وهي التي كانت تحظى بأعمق تقدير ومحبة من الزوج الأثيني، ولكن العرف وقف حاجزاً أمام عواطف الرجل الأثيني، وحتم عليه كتمانها وعدم إظهارها على مرأى من الناس. وأيـاً كان الرأي في المجتمع الإغريقي، فلا مناص من التسليم بأنه كان في جوهره مجتمعاً رجولياً.[2]

---

(١) المدينة العتيقة: فوستيل دي كولانج، ترجمة عباس بيومي بك، نشر المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م: ص١١٢.

(٢) تاريخ الإغريق، مصدر سابق: ص٥١٨ و ص٥١٩.

المرأة في الحضارة الرومانية

كانت السلطة المنزلية مطلقة للأب، وكانت الطاعة له عمياء. وثانيها دور الأم في الأسرة، إذ كانت المرأة في روما أعظم منزلة منها في أثينا، وكانت مساوية للرجل تقريباً وحامية الأسرة ومربية الأولاد. وتتبين هذه المنزلة الكبرى التي كانت تشغلها إذا ذكرنا أن كوريولان (قائد روماني شهير في القرن الخامس ق. م) بعد أن عزم على الإيقاع بوطنه (روما) وأخذ الثأر منها، لم يثنه عن العزم إلّا دموع أمّه (فيتوريا) وزوجه (فولومينا).(١)

وكان الرومانيون يشمئزون من ولادة البنت ويكرهونها لغاية أباحوا قتلها أحياناً كاليونانيين، وكان لإستبداد الأب أن يتصرف بها حسبما يشاء بيعاً أو هبة أو قتلاً، والممتلكات التي تأتي بها الى بيت الزوجية تصبح ملكاً لزوجها بمجرد الوصول إليه. كما أن القانون الروماني يعد الأنوثة سبباً أساسياً من أسباب انعدام الأهلية كالصغر والجنون. وعدم قبول شهادة المرأة أو إيصائها بشيء لغيرها، كما لم يكن من حقها الإرث.(٢)

وكان للمرأة الرومانية الحق في الخروج من المنزل للقيام بالزيارات ولمشتريات حاجاتها المنزلية من الأسواق دون أن تتعرض لأي رقابة أو حراسة. فهي حرّة بأن تتجول في المكان الذي تحتاج الى التجول فيه لقضاء حاجاتها، بشرط أن تأخذ أذناً مسبقاً من زوجها إذا كانت متزوجة أو من ولي أمرها إذا

---

(١) التربية عبر التاريخ: د. عبد الله عبد الدائم، نشر دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨١م: ص٨٦.

(٢) حقوق المرأة في الديانات والمعتقدات، مصدر سابق: ص٢٥٩.

كانت عزباء. وهنا نرى أن من الطبيعي أن تفقد المرأة بعض حقوقها إذا لم يسمح لها زوجها، أو ولي أمرها بالخروج، وهذا دليل واضح على أن المرأة الرومانية لم تكن تتمتع بكامل شخصيتها القانونية، نظراً لخضوعها لصاحب السلطة عليها الذي يمكنه أن يحدد نشاطها أو أي عمل تقوم به.(١)

وهناك من قَسَّم تاريخ الرومان الى قسمين:

١ – عصر الرومانية الحديدي

٢ – عصر الرومانية الذهبي

ففي عصر الرومانية الحديدي كان الرومان يقدسون سلطة الفرد فقد منحوا الأب الذي هو كاهن البيت السلطة المطلقة على عائلته الى حد أنه كان إذا شاء طلق امرأته أو طرد اولاده او باعهم او زوجهم مرغمين، أو استولى على مقتنياتهم وثمرة اعمالهم، وهو الذي يعاقبهم على الذنوب والجنايات. وليس للحكومة أو لقضاتها شأن في ذلك، ولإعتبارهم البنات بمثابة ملك ابيهن... و بالنظر لإمتهان الرومان المرأة، واعتبارها انها مخلوقة للدار، فلم يهتموا بتعليم وتثقيف بناتهم، وإنّما كانوا يدربونهن في بيوتهم على الخدمة والغزل والنسج، حتى أن الإمبراطور (أوكست) نفسه أراد أن يكون مثالاً صالحاً لأمته بهذا الشأن، فأقتصر على ان يلبس من الثياب المحاكة من بناته وحفيداته. ولكن مع كل ذلك فالمرأة الرومانية بالعصر الحديدي وإن كانت على شاكلة اليونانية في وضاعة المكانة العائلية والإجتماعية، إلّا أنها كانت أوفر حرية منها. فكانت تخرج سافرة فتشهد الحفلات والولائم ومعاهد التمثيل. وأما في عصر الرومانية الذهبي، فكانت المرأة في نظر

(١) تطور المرأة عبر التاريخ، مصدر سابق: ص٣٧ بتصرف.

المجتمع شرّاً يجتنب، ومخلوقة لملذة وخدمة الرجل من جملة المخلوقات. بيد انه لما صارت بلدة روما الحقيرة، قاعدة لدولة كبيرة، ومدينة تجارية صناعية فخمة، جمعت فيها انموذجات العالم المتمدن، تبدل نظر اهلها إلى المرأة، وتبدلت منزلتها عندهم، فمن الإستعباد المحض أفلتت الى الإطلاق المطلق، بل إرتفعت الى السيادة النافذة. و بتأثير عادة البائنة (الدوطة) وما منحت الشريعة الرومانية فيما بعد المرأة من استقلالها في ملكها، وحرية التصرف في شؤونها الخاصة، مثَّل الغنيات أدوار الرجال باستعباد الأزواج، و بتأثير الرخاء والفساد والعبودية للجمال، والإستسلام للعواطف، استوى على عرش كل قلب روماني امرأة. فأمسى الرجال رعية النساء. وما أوفر رعية ملكات القلوب بين الرومان المسترسلين في الملذات... ولبث حال النساء يتحسن في الشريعة الرومانية تبعاً لتحسنه في نظر الرجال، حتى انه بعد الإمبراطور (ديو كلتين ٢٨٤- ٣٠٥م) لم يبق أثر من وصايا الآباء والأزواج الشديدة. كما أن الزواج صار من شأنه ان يؤيد استقلال المرأة الغنية، واستمر ذلك الى ان كاد المتشرعون في حكم (بوستنيان ٥٢٧- ٥٦٥م) أن يضعوها على مستوى المساواة التامة مع الرجل في الحقوق. هذا فضلاً عن العائلة فقد صار للنساء منزلة حسنة في الهيئة الإجتماعية فقد قال السير جمس دونالمدسن: (انهن ابدين في عهد الإمبراطورية، لاسيما آسيا الصغرى نشاطاً عاماً و حظين بالإحترام التام، وأنهن كن ينتخبن لأعلى المناصب. وقد بلغ كثيرات منهن أرفع المراتب الدينية في آسيا. وهي ربما أسمى كل علامات الشرف) وناهيك بما منحته بيزنطة الجنس اللطيف من الحق في العرش.[1]

---

(١) ينظر: المرأة في التاريخ والشرائع، مصدر سابق: ص٨١ وما بعدها.

وأما وضع المرأة الرومانية الديني فلم يمنح الدين الروماني المرأة مكانة مماثلة لتلك التي خصتها بها ديانات اليونان أو مصر، وقد أتى كاتون بذكر السبب الأساسي لذلك عندما قال عن العبادة البيتية: (على رب البيت أن يقوم على الشؤون الدينية بالنيابة عن الأسرة برّمتها، والحق أنّ ممارسة الدين كانت تتم عن طريق وكالة الذكور). لذا نزعت روما الى تخصيص معشر النساء بعبادات موقوفة عليهن، تاركة لهن الممارسات السريّة لعبادات الإخصاب القديمة، ومنها عبادة الآلهة الطَّيِّبة، التي كان الإحتفال بأسرارها يتيح للنساء ولمرة واحدة خلال العام كلّه فرصة شرب الخمر... وفي شهر شباط كانت تقام الأعياد تكريماً للإله لوبيركوس، شفيع القطعان والحقول، فكان الرجال المشاركون في موكب الإله يجلدون النساء بقبضاتهم، ليمنحوا نعمة الإخصاب للعواقر من بينهن.[1]

وكان هناك تحرر يتيح للمرأة في بعض الأحيان أن تقوم بنصيبها من العمل كما هي الحال في هذه الأيام، فمنهن من كنّ يعملن في الحوانيت أو المصانع وخاصة في الحرف المتصلة بالنسيج، ومنهن من أصبحن محاميات أو طبيبات وأصبح لبعضهن سلطان سياسي قوي، وكانت زوجات حُكّام الأقاليم يستعرضن الجند ويخطبنهم. وكانت العذارى الفستية[2] يتوسطن لأصدقائهن في الحصول

(١) المرأة عبر التاريخ البشري، مصدر سابق: ص١٤٤.

(٢) العذارى الفستية: هنّ كاهنات الآلهة (فستا العذراء) المكلفات بالحفاظ على بقاء النار المقدسة مشتعلة بحسب الأساطير الرومانية، تتراوح أعمار المبتدئات بين ست سنوات وعشر سنوات، ومن شروط انتسابهن أن يكنّ خاليات من أية عاهة جسدية أو نفسية، وأن يتحدرن من أبوين حرّين، وخدمتهن تدوم ثلاثين سنة، وفي السنوات العشر الأولى تتعلم المبتدئات قوانين الخدمة من القديمات. ومن ثم يقمن بالخدمة الفعلية عشر سنوات، وفي السنوات العشر الأخيرة يصبح دورهن في تعليم الجدد مبدأ الخدمة. وخلال

على المناصب السياسية، وكانت بعض النساء ينقشن على الجدران أسماء من يفضلن من الرجال لتولي هذه المناصب. وكان المحافظون يبدون الألم والشماتة حين ظهر لهم أن قد وقع ما حذّرهم منه (كاتو) حين قال: (إن النساء إذا ما تساوين بالرجال سيحولن هذه المساواة إلى سيادة لهن)، وكان هناك من نساء رومانية ممثلات ورياضيات ومصارعات وشاعرات وكان قسم منهن يصارعن الوحوش، كما وصفهن (مارتيال) المجتلد (مارتيال) وينقل (استاتيوس) عن نساء قتلن في هذه المصارعات. وكانت النساء ينتقلن في الشوارع محمولات في الهوادج- يعرضن أنفسهن من كل ناحية للناظرين- وكن يتحدثن إلى الرجال في الأروقة والمتنزهات والحدائق، وساحات المعابد، ويرافقنهم إلى المآدب العامة والخاصة وإلى المدرجات ودور التمثيل. وكانت نساء الطبقات الراقية في فصل الربيع يملأن القوارب والشواطئ والبيوت الريفية ذات الحدائق في (بابي) وغيرها من المصايف تعج بضحكهن، ويعرضن فيها جمالهن، ومغامرات عشقهن، ودسائسهن السياسية. وكانت النساء الطائشات أو الفاسدات يؤلفن وقتئذ أقلية ظاهرة تقع عليها الأعين في كل مكان. وكان ثمة عدد يماثلهن- وإن لم يكن على الدوام ظاهرات مثلهن- من النساء اللائي يعشقن الفن أو الدين أو الأدب، فقد

خدمتهن للهيكل يجب على كاهنة الإلهة (فستا) أن تحافظ على بتوليتها وبكارتها وإلّا عرّضت حياتها للهلاك. أما خدمة الكاهنات خلال الثلاثين عاماً فتقوم على حراسة النار المقدسة، بحيث تظل مشتعلة دائماً، وعلى الكاهنات أيضاً تقديم القرابين (لفستا) وأن يعبئن الماء في قدس الأقداس بالمياه النقية كل صباح، وأن يقرأن كل نهار الصلوات المختصة (بفستا)، وأن يحافظن على الذخائر المقدسة ضمن الهيكل، حتى تحافظ (فيستا) على الإمبراطورية الرومانية. وبعد إنتهاء الثلاثين سنة يمكن للكاهنة أن تترك الهيكل وتعود للحياة الدنيوية.

كان الرومان يرون أن شعر (سلبيشيا) جدير بأن يتناقله الناس كشعر (تيبلس) سواء بسواء. وكانت (ثيوفيلا) فيلسوفة، متمكنة من مبادئ الرواقيين والأبيقوريين، وكانت بعض النساء يشغلن وقتهن في الأعمال الخيرية والخدمات الإجتماعية، ومنهن من أنشأن في مدنهن المعابد ودور التمثيل، والأروقة ذات العمد، وكان في روما ناد للسيدات.[1]

(١) قصة الحضارة، مصدر سابق: ص٣١٥ وما بعدها بتصرف.

المرأة في الحضارة الفارسية

أورد الأب روسلر النمساوي أنه كان للفرس في عهدهم الأول اعتقاد مذهبي عال جداً وعوائد طاهرة ايما طهارة، ولكن لما خضع الماديون والفرس لجارتيهما أشور وبابل في القرن الثالث عشر ق. م. اقتبسا منهما بعض عقائدهما وتقاليدهما بحكم أن الناس على دين ملوكهم... ولما كانت الدنيا دار دول لم يلبث أن صار المغلوب غالباً. ومع ذلك فلم يستقل الفرس عن المدنية الكلدانية. فقد تغلب الماديون على آشور سنة ٦٢٧ ق. م ثم صار الملك للفرس في حكم قورش سنة ٥٥٩ ق. م فجمع لدولته امصار آشور و بابل وغيرها ولهذا السبب تم إقتباس قومه من بعد، ما اهملوه من تقاليد الكلدان، وصار شأن الفارسية مثل حال المرأة الآشورية في اواخر دولة آشور على إنحطاط تام حتى قيل بأن الفارسي له حق التصرف بها كأنها سلعة وأن يحكم عليها بالموت. ويؤيد هذا أن كزينوفون الذي بحث عن التعليم في فارس لم يذكر كلمة عن تربية البنات، لإهمالهم العناية بتربيتهن التربية الإجتماعية بالنظر لقرارهن محتجبات في البيوت. وكان شأن المرأة الفارسية وقتئذ شبيهاً كل الشبه بالهندية والصينية معاصرتيها من حيث الإستعباد.(١)

وكان للمرأة في بلاد الفرس مقام سام في أيام زردشت كما هي عادة القدماء، فقد كانت تسير بين الناس بكامل حريتها سافرة الوجه، وكانت تمتلك العقار وتصرّف شؤونه، وكان في وسعها أن تدير شؤون زوجها بإسمه أو بتوكيل منه. ثم انحطت منزلتها بعد (دارا)، وخاصة بين الأغنياء، وأما المرأة الفقيرة فقد احتفظت بحريتها في التنقل لإضطرارها إلى العمل، وأما غير الفقيرات فقد كانت العزلة

(١) المرأة في التاريخ والشرائع، مصدر سابق: ص٢٥ و٢٦.

المفروضة عليهن في أيام حيضهن على الدوام تمتد حتى تشمل جميع حياتهن الإجتماعية. ولم تكن نساء الطبقات العليا يجرؤن على الخروج من بيوتهن إلّا في هوادج مسجفة، ولم يكن يسمح لهن بالإختلاط بالرجال علناً، وحرّم على المتزوجات منهن أن يرين أحداً من الرجال ولو كانوا أقرب الناس إليهن كآبائهن أو إخوتهن. ولم تذكر النساء قط أو يرسمن في النقوش أو التماثيل العامة في بلاد الفرس القديمة. أمّا السراري فكن أكثر من غيرهن حرية، إذ كان يستعان بهن على تسلية ضيوف اسيادهن. وقد كان للنساء في جميع الأوقات سلطان قوى في بلاط الملوك حتى في العهود الأخيرة. وكن ينافسن الخصيان في تدبير المؤامرات، والملوك في تمحيص وسائل التعذيب. وكان الأبناء كما كان الزواج من الشروط الأساسية للإجلال والإكبار، فالذكور منهم ذوو فائدة اقتصادية لآبائهم وحربية لملوكهم، أما البنات فلم يكن يرغب فيهن، لأنهن كن ينشأن لغير بيوتهن، وليستفيد منهن غير آبائهن. ومن أقوال الفرس في هذا المعنى: (إن الرجال لا يدعون الله أن يرزقهم بنات، والملائكة لا تحسبهن من النعم التي أُنعم بها على بني الإنسان) وكان الملك في كل عام يرسل الهدايا إلى الآباء الكثيري الأبناء، كأن هذه الهدايا ثمناً لدمائهم يدفع مقدماً.[1]

(١) قصة الحضارة، مصدر سابق: ج٢، ص٤٤١ وما بعدها.

المرأة عند العرب قبل الإسلام

كان المجتمع البدوي يندرج تحت نظام الأبوة Patriomonial system حيث السيادة والسلطة للرجل على البيت وعلى المرأة وعلى الأولاد حتى يدخلوا سن البلوغ أو الرشد .. لكن ذلك لم ينقص من أهمية المرأة فقد ظلت هي المرأة الأم والزوجة والحبيبة والبنت والأخت.. وظل الشعراء يتغنون بالمرأة يفتتحون بها قصائدهم ومعلقاتهم.. لخولة أطلال ببرقة ثهمد.. ويوم الخدر خدر عنيزة.. ألا يا سلمى يا دار سلمى على البلى.. وأنّي لتعروني لذكراك هزة.. آذنتنا ببينها أسماء.. بانت سعاد فقلبي اليوم متبول.. يا دار عبلة بالجواء تكلمي.. وكثيرة كثيرة هي أسماء النساء التي افتتحت بها القصائد وكثيرات هنّ النساء اللاتي كان لهن دور كبير في حياة القبيلة.. الخنساء بنت عمرو السلمي.. دختنوس إبنة حاجب بن زرارة، ليلى العفيفة، زرقاء اليمامة، زنوبيا ملكة تدمر، بلقيس ملكة سبأ، شموس التي قادت مظاهرة نسوية محرضة ضد الملك الجائر الذي كان يدخل كل فتاة ليلة عرسها قبل زواجها. وكانت المرأة فعالة في حروب القبيلة، تضمد الجرحى، وتزود المقاتلين بالماء والطعام، وتحرض وتشجع وتقاتل.[1]

وتدلنا النصوص التاريخية القديمة والتي تتحدث عن المجتمعات القبلية، أو بالأحرى عن المجتمعات التي تعيش في ظل ظروفها الأصلية التي لم تتأثر معتقداتها وتقاليدها بتعاليم دين معين، أو حضارة معينة. ولم تعرف المجتمعات العربية بصورة خاصة في العصر الجاهلي نظام الفصل بين الجنسين، بل كانت العلاقة بين الرجال والنساء طبيعية، لا تخضع لتلك القيود الثقيلة التي تفرضها

---

(١) موسوعة تاريخ العرب: عبد عون الرضوان، نشر الدار الأهلية، المملكة الأردنية، عمّان، ط٣، ٢٠٠٩م: ج١، ص٣٠.

بعض المجتمعات في ذلك العهد، وخاصة ما يتعلق منها بسلوك المرأة الإجتماعي وتبيان بعض حقوقها وواجباتها المتعلقة بالأسرة والإرث والحرية، لأن المرأة العربية كانت تخضع خضوعاً تاماً لنظام الأسرة القبلي الذي كان سائداً في العصر الجاهلي، حيث كانت تتكون القبيلة من الأسرة أو العشيرة بمعناها الواسع، وتضم جميع الأقارب ومن تربطهم صلة الدم أو القربى أو علاقة الولاء.(١)

وكان للمرأة حقوق غير قليلة، فكان لها الحق أن تمتلك أملاكاً خاصة.. خديجة بنت خويلد، تلك المرأة التي كانت تقف جنباً الى جنب أخيها الرجل، تتاجر بأموالها وتربح وتكوّن ثروة كبيرة، وجليلة أخت زيد الخيل، كان لها غنم يرعاها أخوها زيد. والمرأة العربية لا تخسر هذه الحقوق حتى بعد الزواج، فعقد الزواج لا يبيح للزوج تملك المرأة تملكاً خاصاً.. بل يبيح له حق الحياة معها، والغالب أن المرأة لا تتزوج إلّا بعد أخذ موافقتها، ولها الحق في رفض من لا تريده ممن يطلب يدها، كما أنها تظل مرتبطة بقبيلة أهلها التي تحميها وتدافع عنها، وكان لبعضهن حق طلاق الزوج، وتستطيع تطليق زوجها بمجرد تغيير خبائها أو أن تضع عليه حجاباً، ولذلك فهي تشعر بشخصيتها التي لا تخسرها بعد الزواج.(٢)

وكان العربي قديماً وحديثاً يهتم بإختيار الزوجة، وكان يهدف أن تكون زوجته من النجيبات اللاتي يتمتعن بالذكاء والجمال.. لتنجب له أولاداً صالحين أذكياء نجباء يكون لهم دورهم الرائد في صناعة المجد للقبيلة والأمّة. وكان للرجل كما يتضح من قصائد الشعراء مواصفات خاصة يريدها أن تكون في المرأة

(١) تطور المرأة عبر التاريخ، مصدر سابق: ص٥٤.

(٢) موسوعة تاريخ العرب، مصدر سابق: ج١، ص٣٠٠.

التي يهواها قلبه.. بعيدة مهوى القرط.. أي طويلة الرقبة.(١)

وكان الرجل هو القائم بأمر الأسرة، وصاحب المنزلة الممتازة فيها والمسئول عن اسباب الحياة والمعيشة والحماية لها، وهو الذي يعول الأهل والمحارم، وهو المسئول عن حفظ كيان الأسرة، أما المرأة فهي ثانوية المكانة، عليها القيام بخدمة البيت وربة أولاده، ولم تكن حالتها حسنة ولا حقوقها مصانة إلّا قليلاً، وكانت مغبونة في المواريث والحقوق والمكانة قال تعالى: (وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ) الانعام: ١٣٩. وقال تعالى: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) سورة النحل: ٥٨- ٥٩. وفي القرآن والشعر الجاهلي شواهد تبرهن عن سوء حالة المرأة وعلى وأد البنات وحرمانهن حقوقهن في الحياة والمال والمكانة على أن هذا لا يمنع من بروز بعض النوابغ منهن ممن أوتين بسطة في العقل والجسم، ففرضن إحترامهن على الرجال ولمع اسمهن في البيئة العربية من الحكيمات والشواعر والنبيلات.(٢)

وكان الزواج في الجاهلية على أنواع عديدة ومختلفة وكما يأتي:

١ – زواج الصداق أو البعولة: وهو أن يخطب الرجل من الرجل ابنته، فيصدقها بصداق يحدد مقداره ثم يعقد عليها.

---

(١) المصدر نفسه: ج١، ص٣٠٠.

(٢) تاريخ العرب: د. محمد أسعد طلس، نشر دار الأندلس، بيروت، بدون سنة طبع، ج١، ص٨٨.

٢ – زواج المتعة: وهو تزويج المرأة الى أجل، فإذا إنقضى افترقت عنه من غير طلاق، وفيه يقدم الزوج صداقاً معيناً، ولا ميراث فيها ولا يشترط لصحة العقد شهود، بل تصح من غير شهود ومن غير إعلان، ولا حاجة فيها الى طلاق.

٣ – زواج الإستبضاع: وهو أن يرسل الرجل امرأته، إذا طهرت من طمثها الى رجل آخر يقول لها استبضعي منه ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل، وإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وذلك رغبة نجابة الولد، وعلى الصفة التي يرغب بها المرسل.

٤ – زواج الرهط (زواج المشاركة): يتجمع ما دون العشرة من الرجال فيدخلون على المرأة يصيبها كلهم، فإذا حملت ووضعت، ترسل إليهم فيأتون إليها، فتسمي هذا الإبن لمن تحبه بإسمه فيلتحق به ولدها ولا يقدر أن يمتنع.

٥ – زواج البغاء: وهو أن يجتمع ناس كثيرون فيدخلون على المرأة، لا تمنع من جاءها، وهن البغايا وينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً لمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها وأعدوا لها القافة[1] ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فلتاطه[2] ودعي ابنه ولا يمتنع من ذلك.

٦ – زواج الشغار: وهو تبادل رجلين ابنتيهما أو أختيهما من غير مهر.

٧ – زواج الموارثة (المقت): وهو إذا مات الزوج كان على الإبن أن يتزوج زوجته، إن لم تكن أمّه، وإذا لم يتزوجها فينتقل حقه الى إخوته أو الى

(١) القافة: جمع قائف، وهو الذي يعرف شبه الولد بالوالد بالآثار الخفيفة.

(٢) فلتاطه: أي استلحقه به، وأصل اللوط بفتح اللام اللصوق.

العصبات الأقرب فالأقرب، وإذا لم يكن له أخ فأقرب الرجال إليه. وكذلك له الحق أن يزوجها من يشاء ويأخذ مهرها أو يمتنع من تزويجها حتى تموت فيرثها.

٨ - نكاح البدل: وهو أن يقول الرجل للرجل: إنزل لي عن امرأتك أنزل لك عن امرأتي وأزيدك.

٩ - زواج السبي: وهو أن يتزوج الرجل المحارب من إحدى النساء اللائي وقعن سبياً، ولا يشترط في هذا الزواج أن يدفع الزوج صداقاً.

١٠ - زواج الإماء: وكان من حق العربي أن يتزوج من أمته، فإذا أنجب منها ابناء لا يحق لهم أن يلحقوا بنسبه، بل يظلوا عبيداً له، وقد يعتقهم إذا رغب في ذلك.(١)

وتم تسجيل بعض الفروقات التي تختلف ما بين العصر الجاهلي وبعض الحضارات والديانات السابقة ومن هذه الإختلافات ما يأتي:

١ - العرب لم يضربوا اللعنة قط على المرأة في جاهليتهم الأولى على العكس من الديانات السابقة، التي عدّت سبب الخطيئة التي انحدرت بآدم، ومع أن شأنها ضئيل في العصر الجاهلي إلّا أن له مميزات تختلف عن غيره من العصور

(١) أثر الفكر الغربي على المرأة المسلمة، مصدر سابق: ص٨٢ وما بعدها. وينظر: تاريخ العرب، د. محمد أسعد طلس، ج١، ص٨٨، وموسوعة تاريخ العرب لعبد عون الرضوان، ج١ ، ص٣١٠، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، للدكتور جواد علي، ج٥ ، ص٤٢٠ وما بعدها، وتاريخ العرب في عصر الجاهلية، د. عبد العزيز سالم، ص٤٤٦.

الماضية.

٢ – لم يعرفوا التشريع الموضوع الذي يحكم عليها بالإستعباد والخطة المتفق عليها في المنزلة الإجتماعية، وإنّما عرف هذا واشباهه عند الرومان قبل الإيمان بالخطيئة، وقبل الإيمان بالدين.

٣ – من فرط الغيرة العربية على البنات، أنهم جعلوا الموت أهون على البنت من العار، الذي يصيب المرأة في ذلك العصر. ولذلك فهم يئدون البنات أنفة من العار، على العكس من الحضارات والديانات السابقة فهم يعدّونها متاعاً يستلذون به لا يدركون العار الذي يصيبهم، وهذا حال المجتمعات الغربية في هذا العصر، كما كان في العصور الغابرة

٤ – عامل العرب المرأة معاملة الضعفاء وأعطوها من الحقوق ما يعطاه الضعفاء، إذ كانت سجيتهم وعاداتهم ومأثوراتهم تدل على تلك المعاملة، علماً أن العرب لم يكونوا أول من إبتكر تلك المعاملة، وإنما قلدوا فيها غيرهم من الأمم.[1]

وكانت المرأة العربية في القرنين السادس والسابع للمسيح أهنأ حالاً وأقرب إلى الإحترام في الجملة من المرأة في بقية الأمم حتى المتحضرة منها كالرومان، مع هذا لا نجد محيصاً عن ذكر الحيف الذي عانته بعد شرح الرعاية لها. فبينما كان للروماني وغيره قبل النصرانية الحق في أن يقتل زوجته، كما له الحق في قتل

---

(١) أثر الفكر الغربي على المرأة المسلمة، مصدر سابق: ص٩٩ وما بعدها. نقلاً عن حقوق المرأة بين الإسلام والديانات الأخرى، عبد الحميد محمد ابراهيم، ص٢٤، وينظر: الإسلام والمرأة، لسعيد الأفغاني، ص٢١ وما بعدها.

عبيده، وبينما نرى الأمم الأوربية، حتى بعد النصرانية بقرون تدأب على إزدراء المرأة والإنحطاط بها عن مستوى البشر، واعتبارها مصدر الشرور والآثام وأنها مخلوق لا يستحق غير اللعنة ... إلى أمور أخرى يعرف تفصيلها كل من ألم بالتاريخ العام ... ، بينما كان ذلك كله، رأينا العربي قد سما بفطرته في بعض الحالات، فمجد المرأة في جاهليته، وناجاها في سرّه وعلنه، و نظر إليها فوضعها في منزلة تسامي منزلة الرجل في كثير من الأحيان. والظاهر أن هذا لم يقع إلّا بعد أن شاع في العرب في زمن متقادم امتهان المرأة وقتاً يسيراً، حتى اضطرت حكمتهم أن تصحح خطيئتهم تلك فتقول: (المرأة من المرء، وكل أدماء من آدم) وهذا أقدم مثل قالته العرب على ما زعم الميداني في (مجمع الأمثال).(١)

وكانت المرأة في الجاهلية من المخدرات المعتزلات الرجال، ويتطلب منها الأخلاق الذي تحصل عن تأثير مثل هذا الإعتزال؛ من حياء ودلال وتأنث، بالرغم من خشونة البداوة، وإن من يرجع الى ما جاء في أقوال العرب في وصف النساء، يرَ أنهم كانوا متفقين على استحسان هذه الأخلاق فيهن: اعتبر ذلك فيما ورد في حديث العجفاء بنت علقمة، ورفيقاتها، فقد قالت احداهن: (خيرهن ذات الغناء، وطيب الثناء، وشدّة الحياء) وكذلك في حديث جمعة وهند بنت الخس، حيث قالت الأولى بوصف المرأة الممتازة (ذات الجمال والبهاء، والستر والحياء الخ).(٢)

---

(١) الإسلام والمرأة: سعيد الأفغاني، نشر دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٣٨٩هـ- ١٩٧٠م: ص١٣ و١٤.

(٢) المرأة في التاريخ والشرائع، مصدر سابق: ص١٥٨.

وقد تمتعت المرأة العربية في بعض القبائل بمكانة عالية وشأن مرتفع، بل أن البعض منهن فقن الرجال في مجالات عديدة وتمتعن بمنزلة رفيعة في القبيلة، في حين كانت نساء قبائل أخرى في الجزيرة العربية يتبعن الرجال ويخضعن لسيطرتهم وكان الأب أو الزوج عادة ما يسمى بالبعل (قمر، شمس) أي السيد في حين كانت النساء مسلوبات الإرادة، سبايا لاسيما وأن أبرز دوافع الغزو عند عرب ما قبل الإسلام ظاهرة سبي النساء لتأمين العنصر النسائي في وسط يصعب فيه بناء وضع عائلي مستقر يمارس فيه وأد البنات. وهنا لابد من التأكيد على أن مكانة المرأة في شبه الجزيرة العربية كانت تعتمد على مكانة القبيلة أو العشيرة التي تنتمي إليها المرأة.(١)

وكانت العرب تئد البنات، خوفاً من لحوق العار بهم من أجلهن، كما يشير إليه قوله تعالى: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ) سورة النحل:٥٩.(٢)

ولذا كان أحدهم عندما تولد له أنثى يشعر بالعيب والعار والخزي، فيريد أن يستر هذا العيب، فيسارع إلى دفنها في التراب بلا غسل ولا كفن ولا لحد، بل تدفن

(١) المرأة وصناعة القرار: د. رجاء محمد قاسم، نشر بيت الحكمة، بغداد، ط١، ٢٠١٥م: ص١٤٣.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٣، ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م: ج٢٠، ص٢١٤.

وهي حيّة حتى تموت.(١)

وهناك رأي للسيد الشهيد محمد الصدر حول مسألة الوأد وكونها مشهورة بكثرة في المجتمع الجاهلي، مما قد تؤدي بالتالي الى زوال المجتمع، على اعتبار أن المرأة هي الأساس في بقاء الحياة، فيقول:

أن الظاهر أن هذه المسألة لم تكن عامة، بل كانت سائدة في ضمن طبقة من المتعصبين، إضافة إلى أن عدداً غير قليل من النساء كانت له أهمية بدرجة معينة.

لكن مع ذلك نحاول الإجابة عن أسباب بقاء المجتمع وعدم زواله على فرض انتشار هذه الظاهرة. وإليك الإشارة إلى هذه الأسباب:

الأول: عدم إيمان البعض بفكرة الوئد والإعتقاد بفسادها.

الثاني: عدم الإيمان بالعار، لأن الأنثى ليست عاراً أصلاً ، والوئد فرع كونها عاراً. الثالث: الإيمان بشرف المولودة، كما لو كانت البنت من أسرة شريفة، فالشريف لا يئد بنته، ولم نسمع بذلك، بل السفلة من الناس كانوا يفعلون ذلك.

الرابع : غلبة العاطفة على هذه الظاهرة، ولذلك تقول الآية الشريفة (أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ) سورة النحل: ٥٩، فكأنّما تسيطر عليه العاطفة.

الخامس: غلبة الناحية الإنسانية، والإعتقاد بأن هذه البنت كإنسانة لا ذنب لها. السادس: الإيمان بالأديان السابقة على الإسلام كالحنيفية كما كان عند عبد

(١) منة المنان في الدفاع عن القرآن: آية الله العظمى السيد الشهيد محمد الصدر (قدس سره)، تقرير مؤسسة المنتظر لإحياء تراث آل الصدر، نشر دار المحبين، قم، ط١، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م: ج٥، ص٣٥.

المطلب واليهودية والنصرانية وإن تعرضت للتحريف، إلّا أنها جميعاً كانت ترفض فكرة الوئد.

السابع: ما نسميه بالعقل العملي في الاصطلاح المتأخر، أعني: أنهم كانوا يدركون بعقولهم أن هذا عمل ظالم مما لا ينبغي فعله.[1]

(١) المصدر نفسه: ج٥، ص٣٥ و٣٦.

الفصل الثاني

المجتمع الأمومي

و

المجتمع الذكوري

هل سبق المجتمع الأمومي
مجتمع الذكورة وسلطة الأب؟

نظرية (باخوفن) و(مايك لينان) و(أنجلز):

يدور بين علماء الإجتماع بأن هناك نظامين يملكان الأسرة هما:

الأول: نظام الأبّوة patriarchate ويكون الإنتساب فيه الى الأب، بحيث تكون له السلطة على الزوجة والأبناء.

الثاني: نظام الأمومة Matriarchate ويكون الإنتساب فيه الى الأم، بحيث تكون هي السيدة، وصاحبة القرار، والمالكة، والمعلمة، وهي التي تورِّث أبناءها.

والحقيقة أول من تكلم عن وجود نظام النسل الأمومي ولفت الإنتباه إليه هو العالم القانوني (باخوفين Bachofen) حيث قال إنه موجود عند شعوب قديمة عديدة. وقد أثار ذلك في أحد كتبه، المتضمنة معرفة عميقة بالتاريخ والمطبوع عام ١٨٦١م تحت عنوان (الأمومة أو حقوق الأم)، وبإعتماده على وصف مباشر لكتّاب قدماء من جهة، وعلى خرافات وأساطير من جهة أخرى.

فقد توصل الى نفس النتيجة القائلة بأن نظاماً مماثلاً قد وجد في جميع أنحاء العالم، وقد سبق ما يسمى بنظام النسل الأبوي. فأحدث بذلك انقلاباً كلياً في تاريخ العائلة وآراء العلماء عن هذا الموضوع، وذلك أن علماء أوروبا وغيرهم كانوا يعتقدون قبل ظهور هذا الكتاب أن الأبوة أقدم نوع في تاريخ العائلة، فهي والعائلة العصرية سيّان. نعم إن نكاح المشاركة وتعدد الأزواج والزوجات كانت

معروفة عند العلماء وغيرهم، قبل ظهور تأليف (باخوفن) إلّا أن هذه الأنواع لم تكن مرتبطة فيما بينها برباط تاريخي أو منطقي، ليستنتج منها الاستنتاجات التي طرحها (باخوفن).

ويقول العالم (جورج ألكسندر) بهذا الصدد: من المسائل العلمية التي استلفتت حديثاً أنظار العلماء مسألة (الأمومة) ويراد بهذه الكلمة في عرف علماء علم الإشتراك القرابة من طرف الأم، كما يراد بالأبوة القرابة من طرف الأب، بمعنى أن الولد في الحالة الأولى ينتسب إلى أمه وفي الثانية الى أبيه.[1]

ولكن بعد عدّة سنوات من نزول كتاب (باخوفن)، وبشكل مستقل تماماً عما جاء في هذا الكتاب، صاغ العالم (مايك لينان) النظرية نفسها معتمداً على وقائع إتنوغرافية. ولكن في الوقت الذي كان فيه (باخوفن) يبين أن النسل الأمومي- أو الإنتساب الى الأم- ناتج عن تفوق النساء على الرجال، ذهب (لينان) الى جعل ما كان يسميه (القرابة عن طريق النساء) أي (النسل الأمومي) ناتجاً طبيعياً لعدم معرفَة الأب، وهذا نفسه ناتج عن الإباحية وتعدد الأزواج.

وقد ذكر (مايك لينان) أن عدم التأكد من معرفة الأب هو الذي منع الإعتراف بصلة القربى عن طريق الذكورة فترة طويلة، ويمكن أن يستنتج في هذه الحالة أن الإباحية التي كانت منتشرة بين الجنسين كانت القاعدة، وكانت هي التي تحول دون التأكد من معرفة الأب.[2]

---

(١) الأمومة عند العرب: جورج ألكسندر ويلكن، ترجمة بندلي صليبا الجوزي، نشر مؤسسة هنداوي، ط١، ٢٠١٧م: ص١١

(٢) موسوعة تاريخ الزواج: إدوار ويستر مارك، ترجمة، د. مصباح الصمد وآخرون، نشر المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م: ص٢٤٠

وقد كان عمل (باخوفن) موازياً مثالياً لعمل (لويس مورجان Lewis Morgan) في مجال الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا الذي بحث في المجتمعات الأمومية عند قبائل (الإيروكو) في زمنه سنة ١٨٥١م والسنوات ما بين (١٨٧١ و ١٩٧٧م)، ولكن قوبلت أعمال كل من الباحثين بتقييم مختلف جداً. وتلقي هذه الإختلافات الضوء على أن موضوع المجتمع الأمومي هو محض شأن سياسي في قلب المجتمع الأبوي.

والحقيقة أن الآراء التي أبداها (باخوفن) والتي أيّدها ببراهين وشواهد لا تحصى، أخذ أكثرها عن مؤلفات الأمم القديمة عموماً، واليونان خصوصاً. ولكن يعترض على (باخوفن) أنّه بنى تقدم العائلة ونموها التدريجي على تقدم آراء اليونان الدينية، بحيث يصح أن يقال إن تاريخ العائلة عند اليونان ليس هو على زعم (باخوفن)، إلّا عبارة إنعكاس آرائهم الدينية على عقولهم، وليس عبارة عن تقدم شروط معيشتهم وحياتهم الإجتماعية، ولهذا ترى (باخوفن) ينظر الى قصة (أورست) التي ورد ذكرها في أشعار (إسخيل) نظرة إلى نزاع حقيقي بين الأمومة والأبوة أو حقوق الأم وحقوق الأب. أما خلاصة الخرافة فهي أن (كليتمنسترا) قتلت زوجها (أغاممنون) بعد رجوعه من حرب (ترويا) حُبّاً بمعشوقها (أغسفا)، فلمّا اطّلع على ذلك ابنها (أورست) من (أغاممنون) قتلها أخذاً بثأر أبيه، فغضبت عليه الأرينيون (آلهة العذاب) التي عهد إليهن المحافظة على حقوق الأم، وأخذت في اضطهاده، وكدّن يحكمن عليه بالقتل لولا مساعدة (أبولون) و (أثينا) اللذين عهد إليهما أمر المحافظة على نظام العائلة الجديدة، أي الأبّوة وعضّدها إياه في المحكمة التي إلتأمت تحت رئاسة الآلهة أثينا. وذلك أن (أورست) رفع إلى المحكمة المذكورة شكواه ضد آلهة الإضطهاد، وبيّن أنّ أمّه اقترفت إثماً أعظم من إثمه، فهي بالتالي مخطئة أكثر منه، لكنه مع ذلك لا يزال

مضطهداً من الأرينين، فما سبب ذلك يا ترى؟ فأجابوه بأن لم تكن أمّه وأبيه الذي قتلته شُجنة رحم أو قرابة دموية، وهذا جواب غريب.

لا ريب أن تأويل هذه الخرافة اليونانية، الذي أتينا عليه من أبدع وأصحّ التأويلات التي عرضت حتى الآن، لكنه يدل في الوقت نفسه على أن باخوفن يعتقد بوجود الآلهة المذكورة، وأنهم هم الذين أبدلوا الأمومة بالأبوة، وأحدثوا هذا الإنقلاب الغريب، مما ينتج عنه أن الديانة هي محور التاريخ الأساسي، وهذا يؤدي لاريب الى التصوف المحض.(١)

وأما (أنجلز) فيسرد تاريخ المرأة في كتابه (أصل الأسرة- أو أصل العائلة) ويظهر أن تاريخ المرأة مرتبط إرتباطاً أساسياً بتاريخ (التكنيك). ففي العصر الحجري، لما كانت الأرض مشاعاً بين أفراد القبيلة، كانت قوّة المرأة كافية للعمل في البساتين، فكان هناك تقسيم متساو للأعمال بين الرجل والمرأة. الرجل يصطاد والمرأة تبقى في المنزل حيث تقوم ببعض الأعمال الإنتاجية كالنسيج والبستنة وغيرها. وبالتالي كان لها دور كبير في الحياة الإقتصادية. ولما اكتشفت المعادن واخترع المحراث واتسع نطاق الإستثمار الزراعي وازدادت صعوبته ظهرت الملكية الفردية، فصار بإمكان الرجل أن يصبح سيداً للعبيد والأرض، وأصبح أيضاً مالكاً للمرأة.

ذلك هو الإنكسار التاريخي الكبير للجنس النسائي. وإنه ليفسر بالثورة التي طرأت على تقسيم العمل نتيجة لإختراع وسائل جديدة. فإن العمل المنزلي الذي كان يضمن للمرأة استقلالها في السابق، صار ضمن سيطرة الرجل، لأن العمل

---

(١) ينظر: مقدمة كتاب الأمومة عند العرب، مصدر سابق: ص٧.

المنزلي لم تعد له سوى قيمة ثانوية جداً أمام عمل الرجل المنتج، حينئذ حلّ الحق الأبوي محل حق الأم، وظهرت الأسرة الأبوية القائمة على الملكية الفردية.(١)

وعن أصل العائلة يقول (أنجلز): أننا لا نعرف شيئاً مؤكداً عن العائلة و المجموعات الإجتماعية الأخرى لدى الحيوانات الشبيهة بالإنسان، فإن المعلومات في هذا الشأن متضاربة ولا غرابة في ذلك، فإن ما لدينا من معلومات عن القبائل الإنسانية نفسها في المرحلة الوحشية متضارب وعرضة لنقد علمي كثير، ولا شك أن مجتمعات الحيوانات الشبيهة بالإنسان أكثر صعوبة في دراستها من المجتمعات الإنسانية، ولذلك يجب علينا أن نستبعد كل نتيجة تأتي إلينا من مثل تلك المعلومات التي لا يعتمد عليها. (٢)

وعندما يتكلم عن الإنكسار التاريخي للنساء كما يسميه، فعنده أن المرأة في العائلة اصبحت مضطهدة. أما الرجل المتربع على عرش السيادة، فقد أباح لنفسه التلذذ والتمتع بالإماء، وحينما تتيح الأعراف تنتقم المرأة بالخيانة. هذه وسيلة المقاومة الوحيدة ضد عبوديتها المنزلية، وما الإضطهاد الإجتماعي الذي يحيق بها إلّا نتيجة استعبادها الإقتصادي. ولا يمكن للمرأة أن تتحرر إلّا حينما تستطيع الإسهام الى حد بعيد في الإنتاج، ولا يستدعيها العمل المنزلي إلّا بصورة طفيفة، وهذا لم يصبح ممكناً إلّا ضمن مجتمعات الصناعة الكبرى الحديثة التي لا تفسح

---

(١) الجنس الآخر: سيمون دي بوفوار، ترجمة ندى حداد، نشر دار الأهلية، المملكة الأردنية الهاشمية، ط١، ٢٠٠٨م: ص٢٦.

(٢) أصل العائلة: فردريك انجلز، ترجمة أحمد عز العرب، نشر دار الطباعة الحديثة، القاهرة، ط١: ص٢٥.

المجال لعمل المرأة فحسب، بل تتطلبه بصورة ملحّة.(١)

وإذا كان تحليل انجلز يشكل خطوة الى الأمام، فهو قد أهمل كثير من النقاط المهمة، فإذا اعتبر محور التاريخ كله هو الإنتقال من نظام المشاع القديم الى الملكية الفردية، دون أن يقال لنا كيف حدث هذا الإنتقال، بل إنّ أنجلز يعترف بـ(أننا لا نعرف شيئاً حتى الآن) فهو لا يجهل تفصيلات التاريخ فقط، بل لا يوحي بأي تفسير له. كما أنه ليس واضحاً أن الملكية الفردية أدت حتماً إلى عبودية المرأة. إن المادية التاريخية تعتبر الأشياء التي ينبغي تفسيرها، أموراً مفروغاً منها، فهي تضع دون نقاش، صلة المصلحة التي تربط الإنسان بالملكية، ولكن ما هو منشأ هذه المصلحة التي منها تنبع المؤسسات الإجتماعية؟ هكذا تبقى دعوى أنجلز ناقصة وتبدو الحقائق التي يكتشفها محتملة، لأنه لا يمكن التعمق فيها دون تجاوز المادية التاريخية التي لا يمكنها تقديم الحلول للمسائل التي عيّناها، لأنها مسائل تهم الإنسان بأكمله، وليس مفهوم (إنسان الإقتصاد) التجريدي.(٢)

(١) الجنس الآخر، مصدر سابق: ص٢٧.

(٢) ينظر: الجنس الآخر: ص٢٧

نقد النظريات الثلاث

والآن نحن نقف أمام ثلاث نظريات بيّنت كلّ منها وجهة نظرها حول العائلة، ونشأة المجتمع الأموي، يقدّمها كل من (باخوفن) و (مايك لينان) و (أنجلز).

- يذهب (باخوفن) الى أن النسل الأمومي - الإنتساب الى الأم - ناتج عن تفوق النساء على الرجال.

- بينما يذهب (لينان) الى جعل ما كان يسميه (القرابة عن طريق النساء) - أي النسل الأمومي - ناتجاً طبيعياً لعدم معرفة الأب، الذي ينتج عن الإباحية وتعدد الأزواج.

- أمّا (أنجلز) فيذهب الى أن حق الأم، ووجود الأسرة الأمومية نتيجة التقسيم المتساو للأعمال بين الرجل والمرأة.

أمّا (باخوفن) فبعد أن اعتبر الأنثى هي الأصل، وأنها تتماثل مع الطبيعة والأرض، فهي حينئذ أصل الخصوبة وإنتاج الحياة، فالزراعة قامت بفضل المجتمعات الأمومية، وذلك لأن الأنثى تقلد الأرض، والزواج يمثل علاقة زراعية بين الأم والأب. وهذا هو الذي رفع الأنثى الى رمز مقدس، وبذلك انتصرت على قوّة الرجل الفسيولوجية والبيولوجية.

بإعتبار أن الزراعة تمثل أهم طفرة في التاريخ البشري - حتى مائتي العام الأخيرة على الأقل - وهي من ابتكار النساء. والأرجح أنها رفعت مقام النساء في كثير من المجتمعات التي حدث فيها هذا الأمر. فقد كان الصيادون وجامعوا الثمار في العصر الحجري القديم مضطرين الى الإعتماد على ما قد تزودهم به الطبيعة، فلما اخترعت الزراعة، خطا البشر أول خطواتهم الجبارة نحو السيطرة

على الطبيعة، فالنساء اللواتي يقضين أيامهن في إلتقاط الفواكه والجوز والحبوب البرية تعلمن غرس بعض هذه البذور في التربة، وبذلك حصلن على أكثر مما قد تجود به الطبيعة. وحوالي ذلك الوقت الذي تعلمن فيه النساء تدجين عالم النبات الطبيعي والتحكم فيه، تعلم الرجال وسائل استئناس الحيوانات والتحكم فيها والسيطرة عليها بعد أن كانوا يطاردونها من قبل.

وقع هذان الحادثان – تدجين النباتات واستئناس الحيوانات – لأول مرة منذ نحو عشرة آلاف سنة في أنحاء الشرق الأوسط والهند والصين، ثم في أنحاء أخرى من العالم بعد ذلك بقليل. وما وافى عام ١٥٠٠ق.م حتى كان ٩٩٪ من سكان العالم يعيشون في هذا العصر النيوليثي – أي حياة العصر الحجري الحديث – وكان ابتكار الزراعة في المراحل الأولى من الحقبة النيوليثي، أخطر من استئناس الحيوان. والأرجح أن النساء لم يتراجعن الى مرتبة ثانوية في المجتمع إلّا بعد أن تمكن الرجال (مستعينين بحيواناتهم) من القيام بمعظم الأعمال الزراعية. ولقد كانت النساء هن اللاتي ابتكرن الزراعة. فقد كنّ – نظراً لقيامهن بجمع الثمار – أكثر شعوراً بعالم النباتات، فعرفن السائغ من السام، وأسهل النباتات زراعة وأوفرها غلّة. ولقد كنّ مزودات أيضاً بأقدم أداة بشرية، وهي عصا الحفر، التي يمكن استخدامها في غرس البذور، ثم في جني المحصول واجتثاث الجذور... ولقد خلقت الزراعة أول شكل من إقتصاد الوفرة؛ فهي أول إقتصاد يتوفر فيه للناس من الطعام ما يفيض عن حاجاتهم. وما كان هذا ليحقق لولا الإدخار والتدبير... فكانت ثورة العصر الحجري الحديث أكثر من ابتكار الفلاحة، فقد كانت نظاماً شاملاً من الإختراعات المتداخلة التي جعلت الفلاحة على مستوى عال من الكفاءة، وزادت من منافع المحصول؛ وكان معظم هذا من

عمل النساء.[١]

والحقيقة إن مثل هذه المبالغة في إعطاء صورة إنفعالية بتلك القدرة والقوة للمرأة، بحيث تجعل منها سيدة لمجتمع ويسجل عهداً بإسمها، كالنسب الأمومي أو النظام الأمومي أو المجتمع الأمومي، لا يمكن الركون والإطمئنان إليها، لأن في العصور الأولى، سواء في العصر الحجري القديم أو الحديث الذي يسمى النيوليثي، فالصور مبهمة، وحتى الذي وجد في الأحفريات من تماثيل للمرأة سواء كانت تمثل تعبيرات عن الآلهة الأنثى أو كقيمة إجتماعية، لم تكن تمثل المرآة العاكسة لذلك المجتمع، وذلك لوجود الأسباب التالية:

الأول: إن الصورة الذهنية وعمق الوعي والفكر لم يصل بعد الى القدرة وإمكانية التعبير الكامل عن المقاصد، ومن ضمن ذلك علاقات الرجل بالمرأة، فإنها إن لم تترك للفطرة أو الصدفة، فإنها قاصرة عن التعبير الفعلي، لكشف الواقع الإجتماعي الذي يظهر حال المرأة بتلك الصورة التي توحي على سيادتها.

الثاني: إن المرأة منذ وجدت مع الرجل وهي تشكل له بالتالي عنصر الأنوثة والجمال، حتى ولو كانت قد ساهمت معه في بعض الأعمال الضرورية لإستمرار الحياة. ولكن بالتالي لازال الوجه الجميل والجسد والصوت الأنثوي تشكل عناصر تجلب الرجل وتشدّه إليها، مهما كانت الظروف قاسية في ذلك التاريخ السحيق ولذلك إن وجدت تماثيل وآثار للمرأة، وبأشكال وأنماط مختلفة، فهذا لا يدل على تسيدها وسيطرتها أو حتى ربوبيتها وجعلها آلهة. وإنّما وجدت تلك

(١) ينظر: النظام الأمومي والنظام الأبوي: كافين رايلي، ترجمة د. عبد الوهاب المسيري ود. هدى عبد السميع حجازي، نشر عالم المعرفة، الكويت.

الأحفوريات والآثار بسبب إظهار جانب الحب والإعتزاز بالأشياء الجميلة والعزيزة للرجل.

وذلك لأننا نعرف بأن الأشياء الثمينة والرقيقة والجميلة، تكون عزيزة على قلب الرجل، ولها حظوة وتعامل وتصرف خاص. وبما أنّ الرجل في تلك الحقب الأولى لبدء البشرية، لم يكن يمتلك وسائل متطورة للتعبير عن شعوره تجاه المرأة، فيعمد حينها ولإظهار إهتمامه بالمرأة أو إنجذابه إليها من خلال الترميز أو إظهارها بصور وتماثيل الآلهة التي تدر عليه بالعطاء والبركة، وعندما يفعل ذلك فهو غير غافل بأنه عن طريقها يتم إحتضان الجنين تلك المدة من الزمن ومن ثم تتم الولادة بواسطتها، فهي في تلك اللحظات تمثل له عنصر تستمر من خلاله الحياة.

وهذا لا يعني بأنها كانت هي السيدة وهي الحاكمة والمسيطرة، أو هي الآلهة الفعلية، كما تصورها التماثيل والأحفريات، وإنّما هذه الأمور وجدت نتيجة تعلق الرجل بها وحبّه للمرأة، وبإعتبار هو الراعي والمسؤول عن حمايتها، والحاضن لذلك الوجود الجميل، الذي يسكن إليه وتسكن إليه، فيحاول أن يعبر عن هذا الحب والإعتزاز بإظهارها بتلك الهيئة والصورة لتبقى عالقة في ذهنه، ومن ثم ليخبر الأجيال القادمة بهذا التعلق والإحتياج، ولتكون خير تعبير له عن ما يكنّه لها من حب وتقدير.

وهذا الأمر يجب الإلتفات إليه إذ من غير المعقول أن توجد بين أيدينا آثار تمثل الزمن البدئي للبشرية، ثم نقوم بإعطاء تفسيرات متأثرة بإسقاطاتنا الذهنية والعقلية والثقافية والتي نعيشها الآن، أي نأتي ونفسر حادثة قد وقعت قبل آلاف السنين بعقلية العصر الحاضر وثقافته ووعيه الإجتماعي. فهذا غبن وظلم في نفس

الوقت يقع على الحقيقة نفسها. هذا مع العلم إن في ذلك الزمن كان عنصر القوّة هو الذي يحرك الأشياء بالإتجاه الذي يرغبه صاحب القوة، وبما ان الرجل هو الأقوى من الناحية الجسدية، فهو في هذه الحالة لا يختلف عن عناصر الطبيعة الأخرى التي تنصاع للأقوى وما يولده من تأثير. وفي هذا السياق يقول العالم فوستيل دي كولانج في كتابه المدينة العتيقة: (لمعرفة حقيقة الشعوب الماضية تقضي الحكمة بدراستها دون أن نفكر في أنفسنا، كما لو كانت غريبة عنّا تماماً، وبنفس عدم التحيز وحرية الفكر).[1]

هذا ولا يمكننا أن نستدل من العثور على تماثيل صغيرة نسائية عائدة الى العصر الحجري القديم، على عدم وجود عبادات لكائن إلهي مذكّر، لأنه تم العثور على بقايا أضاحي في مناطق اعتدنا أن نرى فيها ذبائح لآلهة سماوية مذكّرة، تعود الى زمن أبعد، وبالتحديد في كهوف (ويلد كير كلي) و (ويلد نسلوك) و (دراكنلوك) في جبال الألب السويسرية.[2]

الثالث: الى هذه اللحظة لم يجزم علماء الإركيولوجيا، بأنهم عرفوا كلّ شيء عن التاريخ، وإن الذي وصل إليهم منه نسبة قليلة جداً، والذي وجدوه من الآثار والأحفريات، لا يمثل إلّا مقداراً ضئيلاً منها، ولا نزال نحتاج للوصول الى الحقيقة الكاملة الى كشف الكثير منها. وهذا يستدعي بالتالي بأنه قد توجد تماثيل للرجل في نفس المرحلة التاريخية التي وجدت فيها تماثيل للمرأة لم يتم العثور

---

(١) المدينة العتيقة: فوستيل دي كولانج، ترجمة عباس بيومي بك، نشر المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م: ص٢٤.

(٢) الأساطير والأحلام والأسرار: ميرسيا إلياد، ترجمة حسيب كاسوحة، نشر وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، ط١، ٢٠٠٤م: ص٢٦٦.

عليها بعد، ولعله قد تكون أكثر دلالة على هيمنة الذكور في تلك الأزمنة.

وأمّا إذا كانت القوّة لدى المرأة من ناحية الخصب والولادة وأنها شبيهة الأرض، وما يخرج منها، فهذا الأمر إن نظرنا له بشيء من التجرد، فهو أيضاً لا ينهض بهذه الرواية للوصول الى هذه النظرية ودعمها من البعض بإفراط، فالرجل بالأصل الطبيعي والبيولوجي هو من يمتلك كفة الترجيح بإمتلاك عناصر القوّة، كونه مؤهل من نواحي كثيرة بهذا الإتجاه، فهو الأقوى جسدياً، وكانت كل الرسالات السماوية أصحابها رجال، مما يدل على أن القوى الروحية والإستعداد لتحمل المسؤولية الكبرى، كانت من نصيبهم، وليس من نصيب النساء، مضافاً الى أن القرى والتجمعات، وفيما بعد الإمبراطوريات والممالك والدول، كان الذي يرأسها ويدير شؤونها الرجال، وإن وجدت نساء، فإنهن قليلات ولا يكاد يكون لهن نسبة تذكر قبال الرجال على طول خط التاريخ الموجود بين أيدينا. وشيء آخر مهم حتى وإن تم لدينا أمر قيامهن بالزراعة، فهذا لا يأخذنا الى التصور، بأنهن الوحيدات اللواتي يقمن بهذا الدور، من دون مشاركة الرجال معهن، بل من الراجح إنّ الذي يقوم بحراثة الأرض وشق الجداول والأنهر لابد أن تكون يد الرجل هي من لها الحصة الكبرى في ذلك، مضافاً الى بذر الأرض، وهنا لن تنفرد المرأة في الزراعة لكي تؤهل للتسيد، وإنّما هناك من يشاركها بهذا الفعل. وقد يبدأ دورهن عندما يحين موعد الحصاد وجمع الحبوب وما ينتج من الزرع، ومن ثم قيامهن بخزن الحبوب والطحن وما شابه ذلك.

إذن يفهم من ذلك إن مقومات القوّة عند الرجل هي الأوفر حظاً من المرأة، حيث أنّه:

١. الأقوى جسدياً.

٢. شاركها في الزراعة.

٣. قام بدور الصيد وتدجين الحيوانات.

٤. قام بدور الحماية من الأخطار.

فكل هذه الأمور تجعل منه رئيساً ومسؤولاً قد هيأته الطبيعة لهذا الأمر.

أما بخصوص ما ذهب إليه (لينان) من أن النسل الأمومي أو المجتمع الأمومي ناتجاً طبيعياً لعدم معرفة الأب الناتج عن الإباحية وتعدد الأزواج، فهذا الأمر لا يمكن التصديق به والتسليم الفكري له، هكذا بدون إمتلاك الحجة التامة على وجوده. فلا يمكن أن نستخدم وجود نظام (الإنتساب الأمومي) عند شعوب بدائية كثيرة دليلاً على صحة الفكرة الذاهبة الى أن الإباحية كانت مرحلة بدائية من مراحل التطور البشري، على الرغم من معرفتنا بأن الإنتساب الأمومي، ناتج عن عدم معرفة الأب. وإن صحة ذلك لا تسمح لنا أن نستنتج أن الإباحية كانت شرطاً ملزماً للشعوب التي اعتمدت الإنتساب الأمومي، ولا تثبت أن البدائيين عرفوا حالة الإباحة.[1]

ثم أننا لا يحق لنا أن نعزو وجود الإنتساب الأمومي الى مجرد عدم معرفة الأب، حيث يقول الباحث سيدني هارتلاند: إن الإنتساب الأمومي موجود في حالة الشك بحقيقة الأب، وموجود في حالة إمكانية معرفة الأب، وفي حال عدم معرفته على حد سواء، وهناك حالات نعرف من خلالها بشكل يقيني ان الأب الشرعي غير الأب الفعلي، وفوق ذلك نجد المؤسسات الخاصة بالإنتساب الأبوي تطالب

(١) موسوعة تاريخ الزواج: إدوار ويستر مارك، ترجمة د. مصباح الصمد وآخرون، نشر المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م: ص٤٧.

أحياناً بأن يتم إنجاب الاطفال الذين ينتسبون الى أبيهم الشرعي، عن طريق رجال آخرين، وأحياناً تكتفي هذه المؤسسات بأن تعد ذلك أمراً مسموحاً به. ومن خلال ذلك نستطيع الإستنتاج بأن عدم معرفة الأب لا يمكن أن يكون هو السبب التاريخي لوجود نظام الإنتساب الى الأم.(١)

وإذا فرضنا وجود مثل هذه المرحلة في التاريخ فهي أيضاً لا تصلح كمبرر وسبب فاعل في إيجاد المجتمع الأمومي، فقد ذكر في التاريخ وجود المشاعية في النساء بعد أن تشكلت وهيمنت المجتمعات الأبوية - البطريركية - عند مجتمعات مثل إسبرطة وأثينا وفي غيرها من الشعوب، ولكنها بالتالي لم تؤدي الى إيجاد المجتمع الأمومي وإعادة إنتاجه من جديد، وعلى أقل التقادير في تلك المجتمعات التي تحدث فيها مثل هذه المشاعية.

فقد كان اليونان القدماء على حالة الفوضية والشيوع في النساء، وقد روي عن بلوتارك أن شريعة ليكورك Lycurgues مشرع إسبارطة قبل نحو تسعة قرون من الميلاد، كانت تجوز الفوضية بالنساء وتسمح للزوجة أن تستبيح نفسها من صاحبها بإذن بعلها، مثلما فعلت (تيمة) امرأة (أجيس) ملك اسبارطة مع حبيبها (ألسيبياد) كما أنها تخول الزوج أن يدفع زوجته للإستبضاع من آخر، على ان يكون الولد للزوج نفسه، وناهيك في سماح تلك الشريعة لمن يستحسن امرأة أن يطلبها من ر بَلها.(٢)

ولكن هنا ستواجهنا مشكلة وهي، في حالة وجود نظام الإنتساب الأمومي ولم

---

(١) المصدر نفسه: ص٢٤٧

(٢) المرأة في التاريخ والشرائع: محمد جميل بيهم، بيروت، ط١، ١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م:ص٧٢

تكن أسباب وجوده عائدة الى السبب المذكور آنفـاً، فكيف نستطيع تفسيره؟ وهنا يقول صاحب كتاب موسوعة تاريخ الزواج محاولاً إيجاد سبباً آخر غير الذي ذكروه وهو: كانت الشعوب البدائية تجهل أن ولادة الأطفال تأتي ناتجاً للعلاقة بين رجل وامرأة، فكان جهل هذه الحقيقة سبباً في نشوء الإنتساب الأمومي من غير شك.

ويؤكد ذلك (هنري مين) بقوله: (الأبوة إفتراض بينما الأمومة حقيقة ملموسة). ولذلك كان طبيعياً أن مشاركة الأب في الإنجاب لم تحظ بإعتراف مبكر، مثلما حصل لمشاركة الأم.(١)

وفي هذا الصدد قال صاحب كتاب الجنس الآخر: الّا أن أكثر الأقوام البدائية كانت تجهل دور الأب في الإنجاب، فالأولاد بالنسبة إليهم ينحدرون من روح الأجداد المتقمصة في جسم المرأة. أمّا المرأة فضرورية للإنجاب لذلك أخذت تلعب دوراً أولياً. وكثيراً ما كان الأولاد يتبعون عشيرة أمّهم وأخذت الملكية الجماعية تنتقل من خلال النساء، بل إن النظام القائم على الأم يتميز بتشبيه المرأة بالأرض والربط بينهما. إذ عن طريقهما تدوم الحياة.

وفي هذه المرحلة لم يكن الرجل يشعر بقوته، بل يحس بنفسه سلبياً معلقاً بالطبيعة التي تهب الموت والحياة. مثل هذه المعتقدات لا تزال سائدة حتى يومنا هذا عن بعض القبائل المتأخرة.(٢)

ويقول محمد جميل بيهم: ففي عهد الأمومة الوحشي، ذهب علماء الإجتماع

---

(١) موسوعة تاريخ الزواج، مصدر سابق: ص٢٤٨.

(٢) الجنس الآخر، مصدر سابق: ص٣٥.

الى أن الإنسان لم يكن يدرك معنى الرابطة الزوجية، كما أنه لم يكن يفهم سر التوالد، بل كان مدفوعاً للتزاوج بدافع الشهوة فحسب، ويتوهم بأن الولادة شيء عادي، تأتيه المرأة من طبيعة جسمها، من غير ما علاقة للرجل فيه.»[١]

عرضنا هذه الآراء حول مسألة الإباحية وعدم معرفة الرجال بأن لهم دوراً وعلاقة مباشرة بعملية تكون الطفل، ولنا حول هذا الذي عرضناه بعض التعليقات والبيان:

أما مسألة الإباحية والزواج الجماعي فهي إن وجدت فلا يمكن أن تعمم، بحيث تمثل ظاهرة إجتماعية عاشت تحت ظلها البشرية عهود من الزمن، فرضت من خلالها ذلك النظام الأمومي السائد، وإنّما من الممكن أن توجد على نطاق ضيق جداً وضمن قبائل لا يكاد أن يكون لها وزنها في التأثير لتشكل نمط من أنماط العائلة الأمومية، ليكون بالتالي حالها حال ما هو موجود الآن من أنماط سلوكية وإجتماعية عند بعض قبائل أفريقيا وأمريكا واستراليا التي تخالف المعايير الإجتماعية والسلوكية التي وصلتها شعوب العالم، وعلى هذا فلا يمكن أن يعمم سلوكها ليكون حكمنا على الشعوب وطبائعها من خلال النظر الى تلك الشعوب الإستثنائية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإننا لا يمكن لنا أن نحكم على أن علاقات الرجل بالمرأة كانت متروكة الى الصدفة كما يقول المؤرخ (هيروديت) بحيث يذهب الى أنها لا تفترق عمّا يشاهد بين الأنعام، ومن ثم بناء نتائج مركزية حول هذا الأمر.

فهؤلاء الذين ينزلون الرجل والمرأة بمنزلة البهيمية والوحشية، لم يتفطنوا الى

---

(١) المرأة في التاريخ، مصدر سابق: ص٢.

الخاصية التي امتلكها الإنسان من الفارق الأزلي والطبيعي في تكوينه البايولوجي وإمتلاكه للعقل الذي يسير من خلاله في خطوات يفترق فيها عن الحيوان، ليكمل طريقه وحده متميزاً عن الحيوان. فإذا كان قد شاركه بالإستعداد الفطري ثم في صور المحسوسات المحفوظة عنده، وكذلك في قوّة الوهم الذي يدرك بواسطتها المعاني الجزئية، فهو يفترق عنه بقوّة العقل والفكر التي لا حدّ لها ولا نهاية، فبها الإنسان يميز الصحيح من الفاسد والقبيح من الحسن، وينتزع بها المعاني الكلية من الجزئيات التي يدركها في خط حياته اليومي، ولذلك أصبح الإنسان إنساناً.

ثم إنّ الأمر إن عمّم على أساس وجود مرحلة من الإباحية قد سادت في ذلك العالم فهذا يعني رفض العائلة وعدم وجود أية رابطة أسرية في ذلك العهد الإباحي، وذلك لعدم وجود أي شعور بالمسؤولية من قبل الرجل نحو المرأة أو ما تنجبه من أطفال، بسبب ذلك المشهد العبثي والفوضوي في استخدام المرأة واعتبارها عامل مشترك للجميع.

وهذا الأمر لا يتصور إلّا من خلال نظرة أصالة الفرد، وتبعية العائلة، وعلى هذا الأساس، يكون في مقابل النظرية التي تقول؛ إنّ العلاقة الزوجية هي علاقة طبيعية، ثمة نظرية أخرى تعتبر العائلة ظاهرة تاريخية، واستناداً الى هذا فإن العائلة تمثل مجرد مؤسسة عقدية يتم تأسيسها وفقاً للإحتياجات والظروف القائمة في وقت معين وبأشكال مختلفة ومتفاوتة.[1]

فقد ظهرت في الوقت الحالي أو في العصور المتأخرة عناوين غير الأسرة

---

(١) ينظر: المرأة في الإسلام: فريبا علا سوند، ترجمة أحمد الموسوي وعباس جواد، نشر مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، بيروت،ط١، ٢٠١٧م: ص٢٤١

الممتدة أو ما يسمى بالأسرة النووية، فمثلاً ظهرت زيجات كزواج المساكنة Cohabition nonmarital family أو الأسرة الإحادية الزوج Single parenthood أو الأسرة الثنائية المعيل Worker family- dual أو الأسرة التي تقام على أساس عدم الإنجاب والأسرة الإشتراكية والمشاركة الجنسية المماثلة homosexualism، وبصرف النظر عن أفضلية نمط أو رجحان آخر فإن مؤيدي هذه الفكرة يرون أن الأسرة تمتلك واقعاً متطوراً ولا يؤمنون بوجود الأسرة المثالية أو النموذجية pattern وأن الحديث عن الأسرة كواقع حقيقي إنّما هو حديث مضلل.[1]

والحقيقة إنّ أصحاب هذه الرؤية يتعمدون إغفال أمر مهم جداً، ألا وهو ثبات العائلة بالرغم من تغيرات المحيط الخارجي، والإنتقال المتفاوت وإختلاف الأنماط الإجتماعية والتقدم العلمي والفكري على حد سواء. وهذا الأمر يكون واضحاً عندما نرى ثبات العائلة وثبات قيمتها، وعدم القدرة على إيجاد أي بعد تغييري آخر لها، بحيث يصلح أن يطلق عليه إسم هذا الإجتماع، بالرغم من ظهور بعض الحالات النشاز التي دائماً ما ترفض من قبل المجتمعات ولا تتقبلها بحال، وكذلك سعي بعض حكومات الغرب بأن تعطي لها بعض الحدود من الشرعية عندما تقّرها قوانينهم ودساتيرهم، ظنّاً منهم بأنهم يستطيعون اعطاء عمقاً لذلك المعنى الذي يريد أن يبرهن بأن العائلة ما وجدت إلّا لتساير الوجود الدنيوي بمقدار ما يحتاجه منها، ولتختلف بالتالي نظمها وعاداتها، بل حتى قيمتها المحترمة. ولتعبر بالتالي قدسيتها ولتتأطر بإطار الرغبة فقط، ولا شيء غير ذلك. وبالتالي فهم لا ينشدون ويطلبون هدفاً حيوياً وأخلاقياً وجمالياً في إستمرار هذه

---

(١) المصدر نفسه: ص٢٤١.

الحياة، وإنّما اللذة الآنية التي تنحصر ضمن رؤى آيديولوجية وأبعاد سياسية خاصة جداً، لا تمثل رأي الشعوب بشكل كامل، وإنّما غالباً ما تفرض عليها فرضاً قسرياً، ليكسر إرادتهم بجرأة تعبر عن الإصرار على إحداث ذلك التغيير المزعوم.

وفي هذا السياق يلخص الدكتور علي شريعتي آراء بعض المفكرين في قضية المرأة استناداً الى بعض الإحصائيات والأقوال وتتلخص هذه الآراء: في أنّ تركيز الغرب على حرية المرأة وكمالها وقيمها الإنسانية يصبّ في مسار أصالتها الفردية، بمعنى أنه يخرج المرأة من البيت ويعترف لها بحقوق خاصة وأصيلة. وهذا ما ينتهي تلقائياً الى القول بأصالة الفرد. ومن الطبيعي أن النزعة الفردية والقول بأصالة الفرد في العالم الغربي زعزعت المجتمع بصفته كياناً كاملاً ومتلاحماً، حتى أن روح المجتمع القديم التي كانت روحاً واحداً في مجتمع واحد، استحالت اليوم الى روح متداعية والى نزاعات فردية مفككة.

وهي الحالة التي طرحها دور كهايم في نظريته التي يغالي فيها بتمجيد المجتمع والفرد، بل وأدّى هذا الإتجاه الى زعزعة كيان الأسرة، لأن القول بالأصالة الفردية للمرأة أسقط عضويتها من كيان الأسرة وأبرزها الى المجتمع كفرد مستقل بذاته.

إن الفارق بين الإسلام الذي يقول بأصالة الأسرة، والغرب الذي يدعو الى الأصالة الفردية للمرأة، هو أن الغرب ينظر الى الزواج المتعارف بصيغته الحالية، وكأنه علاقة مشاركة في تدبير شؤون البيت، وليس إقتراناً وتقارباً بين الرجل والمرأة، وينظر إليهما وكأنّهما موجودان مستقلان يعيشان سوية تحت سقف الأسرة. في حين ينظر الإسلام في ضوء تقديسه لإصالة الأسرة الى الرجل والمرأة

وكأنهما نصفان يكمل أحدهما الآخر.(١)

ثم إنّ المرأة عندما تصبح مشاعاً بين الرجال، فما هو مصير الأولاد الذين سوف تنجبهم من ذكور أو أناث، وعندما يكبرون وينضجون هل سيتزوج الأخ من الأخت، على إعتبار أنه لا توجد ضابطة تقنن قبول هذا الزواج أو رفضه، لأنه أساساً لا توجد موازين تضبط إلتزام المرأة برجل واحد، فعلى هذا الكلام يكون ناتج ذلك هي الفوضى العارمة وعدم التقيد بأي إلتزام.

إذن كيف وجد فيما بعد تحريم زواج الأخ من الأخت أو قل عدم قبول مثل هكذا زواج ورفضه بالمطلق، دون العودة الى مراجعة أو تريث في هذا الشأن. فهنا لابد لنا من أن نقر بأحد أمرين:

الأول: وجود ديانة سماوية قد حّرمت هذا الأمر لما يسببه من إضرار نفسية وجسدية وإجتماعية.

الثاني: هو الرقي في المنظور العقلي والفكري لدى إنسان تلك المرحلة بحيث شعر بخطأ هذا الفعل، ولذلك حرّمه فيما بعد.

والأول؛ هو إقرار بأن هناك لهذا الكون خالق ومدبر هو الذي أدرى بمصالح البشر، بل كل المخلوقات، وعليه فإن الضرر الذي يحدثه مثل هذا الزواج هو قائم وموجود منذ بداية وجود آدم، فعليه يجب أن يكون أمر التحريم هذا منذ بداية وجود البشرية ولا تحتاج الى أن تعيش مثل هذه التجربة البهيمية ومن ثم تحرّم.

---

(١) مسؤولية المرأة: د. علي شريعتي، ترجمة خليل الهنداوي، نشر دار الأمير، بيروت، ط٢، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م: ص٦٥ وما بعدها.

والأمر الثاني؛ وهو محال أن يصل من لم يشعر بمسؤوليته، الى معرفة خطر المشاعية في المرأة ثم يقرر أمر تحريم زواج الأخ من الأخت، بإعتباره أمراً مدنياً وتقنيناً حضارياً، يناسب قيمة الإنسان في هذه الدنيا، وعليه أن يسعى الى إيجاد حل لمنع مثل تلك المشاعية ومن ثم يمنع زواج الأخ من الأخت، وهذا لم يحدث، ولا يوجد أي أثر أركيولوجي دالاّ عليه ولو بالإشارة أو الرمز.

فإذا برر أنجلز في كتابه (أصل العائلة) منع الزواج بين الأقارب في الدم ومنع إستمرار المعاشرة الجنسية بين الأخوة والأخوات بسبب القبلية، فإنه لم يبين لنا ما هي آليات هذا المنع، وما الدواعي التي دعت تلك المجتمعات البدائية، التي تعيش حالة الرضا والتلذذ بالإباحية، الى إنقلاب مفاجئ وإنكسار في عادات وطبائع مرسّخة عندهم كما يقولون.

ففي هذا الجانب قد ظهر عجزه، واضطر الى تقديم صور استقاها من عدّة باحثين على رأسهم الأنثربولوجي الأمريكي (لويس مورجان) الذي عاش تجربة مع احدى قبائل (الإيروكيوس) في أمريكا، بعد أن تبنته إحدى هذه القبائل ليعطي بعدها الكثير من آرائه حول العائلة بالإعتماد على تلك التجربة. وقد توصل مع أغلبية زملائه الى مرحلة بدائية حدث عندها تغير أولي في القبيلة، بحيث أصبحت كل امرأة مملوكة بالتساوي لكل رجل وبالعكس. ولا أدري هل حدث أيضاً تغير بعد التغير الأولي في القبيلة ليعودوا ويمنعوا مثل هكذا نكاح وزواج؟!.

فهم في الحقيقة يطرحون لنا مجرد أفكار وتأملات، هي أقرب ما تكون لأحاسيسهم ومشاعرهم الداخلية ولما يريدون أن يتبنوه من بعد فكري. وعندما يعجزون عن الوصول الى الحقائق الملموسة لما ذهبوا إليه، ولكي يبرهنوا على صدق بحوثهم، يضطرون لإختيار تجارب في زمننا الحاضر على بعض القبائل

البعيدة عن التحضر، كعيّنة لتدخل المختبر. وعلى ضوء النتائج التي ستخرج سيجعلونها قواعد كلية، وتعمم على كل المجتمعات البدائية للبشر، وهذا العمل يعتبر تجاهل وإغفال للحقيقة، التي تظهر من خلال خطوط أخرى، هم لا يريدون النظر إليها، ومن ثم يقعوا في الغلو في أفكارهم التي تفتقر الى الميزان العلمي الموصل للإطمئنان .

وعليه لا يمكن لنا الإطمئنان بهكذا طرح، وقبول مثل هذا الأمر وإنتشاره على مستوى البشرية الموجودة في ذلك الزمن. وفي هذا الصدد يقول صاحب كتاب موسوعة تاريخ الزواج: (أن فرضية وجود مرحلة عالمية من الإباحية الجنسية ليست فقط مفتقرة الى الوقائع الحقيقية، بل هي مناقضة تماماً لكل ما هو معروف عن ظروف حياة البشر البدائيين).[١]

وأما مسألة عدم معرفة الرجال بأنّ لهم دوراً وعلاقة مباشرة بعملية تكوين الطفل وأن الدور كله منوطاً بالمرأة، مما ساهم أيضاً وبلور قضية العهد الأمومي، أو الإنتساب الأمومي، فهي أيضاً لا يمكن أن تستند على أمر ذي بال، وذلك لوجود عدّة أسباب منها:

أولاً: إن مسألة عدم إنجاب المرأة للأولاد مع عدم وجود علاقة بينها وبين الرجل، من المفروض أن يكون ملتفتاً إليها من قبل الإثنين، بإعتبار ملاحظة المرأة، أنها لا تحمل حتى يقربها الرجل، فإن لم يقربها فلا وجود لأي حمل أو إنجاب. وهذا ينبغي أن يكون بديهياً، لأنه لا يحتاج الى كثير من العناء لمعرفته، ولا يحتاج الى تطور في الفكر البشري، فهو يكاد يكون أقرب للفطرة التي لا

(١) موسوعة تاريخ الزواج، مصدر سابق: ص٤٠

تحتاج البحث والتقصي.

ثانياً: ان اصحاب القول بالعهد الأمومي أو الإنتساب الأمومي يقرّون بأنه لم يكن قليل الأمد ولا يقاس بالأيام والليالي، وإنّما استمر لعصور طويلة، وهم يقولون بأن هذا العهد بدأ منذ بدء البشرية الى أن وصل الى العهد الذكوري. وهنا يكون التساؤل؛ هل هناك مبرر يقبل بوجود تلك الفترة الطويلة من العهد الأمومي، تكون فيه حقيقة دور الرجل في حمل المرأة غائبة عن الرجل أو المرأة على حد سواء، بالرغم من وجود تلك العلاقة بشكل مستمر، ولم تنقطع يوماً بين الجنسين، وكلما زادت العلاقة تبرز أمور قد تغيب في البدء، لكنها لابد أن تظهر بعد فترة من الزمن لتصبح حقيقة ساطعة وإن كانت شيئاً فشيئاً، وحينها لن تحتاج الى هذا الإنقلاب الذكوري، وكأنه إكتشاف تاريخي، خارج حدود العادة، لتتقرر على ضوئه آثار إجتماعية وسلوكيات قيادة جديدة.

ثالثاً: ماذا يقول أصحاب هذا الرأي عن الزواج الكوني المقدس الذي انتشر كأسطورة في ذلك التاريخ. فهم يعتقدون ان هناك زواج كوني مقدس بين السماء والأرض، وهو اسطورة واسعة الإنتشار للغاية، تتحدث عن الخلق الكوني، فهناك (أورانوس) إله السماء يرتبط بإلهة الأرض (جيا) وينجم عن قران الزوجين الإلهيين إنجاب آلهة وكائنات مائية بعين واحدة. وكائنات أخرى غريبة تبعث الرعب والهول.[1]

فإذن كيف تشكلت هذه الأسطورة، بالصورة الذكرية المتمثلة بإله السماء والصورة الأنثوية بإلهة الأرض؟ إن لم يكونوا يعرفوا بأن لا وجود لأية عملية

(١) ينظر: الأساطير والأحلام والأسرار، مصدر سابق: ص٢٦٤.

انجاب وولادة بدون هذا العمل الثنائي المقدس بين الذكر الإلهي والأنثى الآلهة؟.

وعلى هذا تكون المعرفة راسخة عندهم، بأن لا عملية حمل ولا ولادة تتم للمرأة من دون إجتماع الرجل معها.

وفي هذا الصدد يقول عالم الأديان ميرسيا إلياد: وفي الفترة التي لعبت فيها النساء دوراً مهماً في تأهيل النباتات، فقد اصبحت خصوبة الأرض هي أيضاً متضامنة بالخصوبة النسوية، وبالنتيجة فإن النسوة أصبحت مسؤولات عن وفرة المحاصيل، لأنهن يعرفنَ سرّ الخلق، إنّه يتعلق بسرّ ديني، لأنه يحكم أصل الحياة، الغذاء والموت. فالحقل مُثّل بالمرأة مؤخراً، وبعد اكتشاف المحراث أصبح العمل الزراعي يمثل العمل الجنسي.[1]

وفي نفس هذا السياق هناك نظرية يقدمها نفس العالم يبين من خلالها السبب في غياب الزواج المقدس في ديانات الأزمنة القديمة، يقول فيها: كانت الكائنات العظمى خنثى، وإن الواحد منها هو في الوقت ذاته، ذكر وأنثى، سماء وأرض، وعلى هذا الأساس يغدو الزواج المقدس، عندها لا جدوى منه، من أجل الخلق، لأن الكائن من الألوهة الأولية، يشكل في ذاته زواجاً مقدساً.

ثم يقول: إن ظاهرة الخنوثة هي صنيعة وجودية تغوص في سحيق الزمان، وذات إنتشار شامل. إنها تعبر عن كلية وتطابق بين الأضداد، بالإمكان القول إن الخنوثة هي أكثر من وضع دال على التمام والإمتلاء، وعلى الكفاية الجنسية. إنها

---

(١) تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية: ميرسيا إلياد، ترجمة عبد الهادي عباس المحامي، نشر دار دمشق، دمشق، ط١، ١٩٨٧م: ج١،ص٥٩.

ترمز أيضاً الى الكمال، والى حالة أولية غير مشروطة، لهذا السبب لا تقف هذه الظاهرة عند حدوث الكائنات العظمى. ذلك إن العمالقة الكونيين، وكذا الأجداد الأسطوريين للبشرية هم بدورهم خنثيون. آدم على سبيل المثال يعتبر بمثابة خنثى. يقال أنه؛ (كان من الجهة اليمنى رجلاً، ومن الجهة اليسرى امرأة، ثم فلقه الى نصفين).(١)

ولعل هذه الأساطير كانت هي السبب الرئيس في إيجاد صورة خلق حواء من ضلع آدم الأيسر في التوراة، ومن ثم إنتقال ذلك الى بعض الروايات الإسلامية التي اعتمدت على الإسرائيليات، لتتفق مع الأساطير وتحريفات التوراة في كيفية خلق المرأة من ضلع آدم الأيسر، فإنها تتفق ظاهراً لما أوردته أسطورة خنثوية آدم والكائنات العظمى؛ فأنظر لما جاء في التوراة حول مسألة خلق المرأة:

(وهكذا أطلق آدم أسماء على كل الطيور والحيوانات والبهائم. غير أنّه لم يجد لنفسه معيناً نظيره. فأوقع الربّ الإله آدم في نوم عميق. ثم تناول ضلعاً من أضلاعه وسدّ مكانها باللحم، وعمل من هذه الضلع امرأة أحضرها الى آدم. فقال آدم: ((هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي، فهي تدعي امرأة لأنها من أمري)) . لهذا فإن الرجل يترك أباه وأمّه ويلتصق بامرأته، ويصيران جسداً واحداً).(٢)

والمهم من ذكر ذلك هو من أجل أن تعرف ان مسألة الحمل والولادة مرتبطة بذهنية البشر منذ بدء البشرية، على أنها عملية ثنائية تقوم بمباشرة الذكر للأنثى،

---

(١) الأساطير والأحلام والأسرار، مصدر سابق: ص٢٦٧.

(٢) التكوين ٢ : ٢١- ٢٤.

ولذلك كانت حتى أساطيرهم ترمز الى هذا الشيء، بل إنّهم لم يستطيعوا أن يتخيلوا بأن يوجد كائن أولي قد عاش بمفرده، ولذلك حتى يبرروا وجود عملية التكاثر لجأوا الى إسطورة أن يكون هذا الكائن خنثى، حتى يستطيع أن يسد ذلك النقص في خلقته، وليتمكن من عملية الإنجاب والتكاثر.

هذا وبعد ان ناقشنا ما طرحه (باخوفن) من مسألة تفوق النساء على الرجال، وكذلك مسألة أنّ النسل الأمومي ناتجًا عن الإباحية وتعدد الأزواج، كما طرحه (لينان) وغيره، أود أن أعرض رأيًا لميرسيا إلياد بهذا الشأن قال فيه: فنحن نجهل إذا شكل نظام سلطة الأم حلقة ثقافية مستقلة، وبتعبير آخر إذا اتصفت إحدى المراحل من تاريخ الإنسانية بتفوق مطلق للأم، وبديانة معينة حصراً بشأن المرأة. من الأفضل الحديث عن اتجاهات أو عن تدابير سابقة في نظام سلطة الأم، تظهر في بعض الأشكال الدينية والإجتماعية. من الصحيح القول إن بعض البنى الإجتماعية – نذكر منها على سبيل المثال: نسب الأولاد الى امهاتهم، مساكنة الزوج للزوجة في بيت يخصها، تأكيد سلطة الأم – إنّما تعبر عن الأهمية المعطاة للمرأة في الميدان الإجتماعي والحقوقي والديني. لكن تلك الأهمية لا تعني السيطرة المطلقة. ومهما يكن من أمر بشأن وجود أو عدم وجود نظام سلطة الأم، فإن علماء الأعراق البشرية هم على إتفاق حول النقطة المحددة التالية: لا يمكن للنظام القائم على سلطة الأم أن يكون ظاهرة أولية بدأتها الإنسانية. لم يكن بمقدوره أن يوجد إلّا بعد اكتشاف زراعة النباتات. وإعتماد مبدأ تملك الأراضي القابلة للزراعة. غير أن ذلك الإكتشاف لم يكن له أن يتم إلّا بعد انقضاء مرحلة أولى من الحضارة؛ هي مرحلة ما قبل الزراعة. الموصوفة بقطف الثمار وبالصيد

الخفيف.[١]

ويقول صاحب كتاب موسوعة تاريخ الزواج: وإذا كان الإنتساب الى الأم قد سبق الإنتساب الى الأب بمراحل، يجب أن نعثر على هذا الإنتساب عند البدائيين الأقل حضارة بشكل خاص. وهذا ليس حقيقياً، فالأقزام الذين نعرف عنهم الآن كثيراً من المعلومات، لا يعتمدون إلّا نظام الإنتساب الأبوي، بحسب ما لاحظه شميدث.

وعند قبائل أووان Auin وهي جزء من البوثيمان في كالاهاري، تورث ثروة الرجل ذي المكانة المرموقة الى ابنه الأكبر، والأولاد الذكور يرثون آباءهم لدى قبائل الأقزام في أفريقيا الوسطى. ولم أجد أي أثر للإنتساب الأمومي لدى القبائل البدائية في شبه الجزيرة الماليزية، ويذكر (جاك مورغان) أن قبائل السكايس تعتمد النظام الأبوي، والعائلة تخضع الى سلطة الأب، الذي يملك حقوقاً تخوله أن يفعل بأولاده ما يشاء، بإسثناء قتلهم. ويذكر (شاد نبيرغ) أن العائلة لدى قبائل (النغريتو) في الفيليبين منظمة على أساس الإنتساب للأب الذي يملك سلطة مطلقة على جميع أفراد العائلة، وعند قبائل (الكوبو) في سومطرة الجنوبية يرث الزوج من زوجته، ويحدث العكس، ويرث الأطفال من كلا الأبوين. ويذكر (سيليغمان) أن لدى قبائل (الفيدا) انتساباً للأم في بعض المناطق، وإنتساباً للأب في مناطق أخرى، كما نجد في المنطقة نفسها تغييرات في نظام الإنتساب، إذ ينتسب الأولاد الى الأب في فترة، وينتسبون الى الأم في فترة أخرى... ويذكر (بول سارازان) أن التحدث عن حق أمومي وحق أبوي عند قبائل الفيدا بشكل قطعي أمر مستحيل، ولكن إذا لم يكن بدّ من إختيار التوصيف، فالإختيار سيكون

---

(١) الأساطير والأحلام والأسرار، مصدر سابق: ص٢٧١.

لمصلحة الحق الأبوي. وفي استراليا نلاحظ أن المنطقة التي تسكنها القبائل ذات الإنتساب المزدوج مقسمة بشكل متساو بين النظامين الأبوي والأمومي بحسب (ن.و. توماس) ويشمل ذلك كل المناطق المكتشفة في استراليا، بإستثناء منطقة ساحلية صغيرة، وهذه المنطقة هي الوحيدة التي يشيع فيها النظام الأمومي.»[1]

ثم يقول: وقد أشرت سابقاً الى أن العادات الكثيرة المرافقة للنظام الأمومي ليست وقفاً عليه. ويجب أيضاً ألّا نجعل أهمية الخال لدى الشعوب ذات النظام الأبوي دليلاً على أنها عرفت نظاماً أمومياً سابقاً. إن اعتماد الإنتساب للأم أو الأب لا يعني نفي صلة القرابة من جهة الطرف الآخر بالضرورة.

إن الإنتساب الى الأم (حق الأم) (الأمومية) نظام شائع جداً عند الشعوب البدائية، والأمر نفسه فيما يتعلق بالإنتساب الى الأب (حق الأبوّة). وقد ذهب (هارتاند) الى أن البحوث الإثنوغرافية في نصف القرن الماضي أثبتت صحة هذه النظرية، وعلى الرغم من ذلك، أعتقد شخصياً، أن النظرية الذاهبة الى أن النظام الأمومي قد شمل العالم في مرحلة من مراحل التطور الإنساني، قد بدأت تفقد كثيراً من مصداقيتها ودرجة إقناعها... وقد ذكر (سيدني هارتلاند): نستطيع الذهاب بدون أن نخشى أية معارضة الى عدم وجود حالة معروفة سبق فيها النظام الأبوي النظام الأمومي، والملاحظ هو عكس ذلك في جميع أنحاء الكرة الأرضية. ويمكن أن نجد قبائل تعتمد النظام الأبوي وحده، بحيث لا نعثر لديها على أي أثر للنظام الأمومي، ولكن وجود مثل هذه الحالات لا ينفي وجود نظام أمومي في مرحلة سابقة. (فلا يمكن رفض الحقيقة المطلقة). وأعتقد أن إثبات هذه الحقيقة المطلقة يقع على عاتق الذي يؤكد وجود أمر سابق لأمر غير موجود حالياً، وليس

(١) ينظر: موسوعة تاريخ الزواج، مصدر سابق: ص٤٣ وما بعدها.

على عاتق الذي يعترف بجهله للماضي. وإلّا فإنّ أية قصة خيالية يمكن أن نعدّها حقيقة مطلقة حين لا نتمكن من إثبات بطلانها بشكل مباشر.[1]

(١) المصدر نفسه: ص٢٤٢.

نظام الأمومة عند العرب

يذهب محمد محمود جمعة في كتابه (النظم الإجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية) الى القول أنه على الرغم من أن نظام الأبوة هو الذي كان متفشياً بين الساميين منذ العصور التاريخية، فثم ما يدل على أنهم عرفوا نظام الإنتساب الى الأم Matritineal derscent، وأنهم مارسوا ذلك في مرحلة متقدمة من المراحل الإجتماعية ويستدل الباحثون على ذلك من معاينة آثار نظام الأمومة في اللغة العربية، ومن هذه الدلائل أن كلمة (رحم) هي أكثر الكلمات ذيوعاً، للدلالة على القربى عند الساميين، فالرحم أصل القرابة والنسب، وقد وردت بهذا المعنى القديم في المعاجم العربية والعبرية وهي تدل على أن الفكرة البدائية عند الساميين أنهم كانوا يحسبون أنسابهم عن طريق الرحم، وكانوا يعبرون عن القطيعة بقولهم (أرحام تشقق) ومن ثم نرى العلاقة بين كلمة الرحم والرحمة إذ يبدو أن الأخيرة كانت في الأصل تدل على صلة الأم بولدها وحنوها عليه، ثم امتدت الى صلة ذوي

القربى وعطف بعضهم على بعض واستعملت بعد ذلك في الشفقة على الإطلاق).[1]

وإن الساميين ظلوا قروناً طويلة يحتفظون بحق المرأة في تسمية أبنائها وإنتسابهم لها، وان أول حالة أنتساب الى الأب كانت في القرن الثامن قبل الميلاد. ويبدو أن حق العشيرة في تسمية أبناء بناتها وإنتسابهم إليها ظلّ موجوداً في جزيرة

(١) موسوعة تاريخ العرب: عبد عون الروضان، نشر الدار الأهلية، المملكة الأردنية، عمّان، ط٣، ٢٠٠٩م: ج١، ص٣١٣.

العرب الى قبيل ظهور الإسلام، فيروي ابن عبد ربه في العقد الفريد أن عوف بن محلم شرط على عمرو بن حجر عندما خطب هذا أم إياس بنت عوف أن أزوجكها على أن أسمي بنيها وأزواج بناتها، فقال عمرو بن حجر أما بنونا فنسميهم بأسمائنا وأسماء آبائنا وعمومتنا، وأما بناتنا فينكحهن اكفّاؤهن من الملوك، ومن هنا نرى أن طلب عوف ابن محلم هو صدى لنظام قديم من الأمومة كان شائعـاً في عشيرته، وكان رفض عمرو بن حجر ذلك دليلاً على أن نظام الأبوّة كان هو السائد يومذاك وقبله بدليل أنه قال أسماء عمومتنا ولم يقل أسماء خؤولتنا.(١)

والحقيقة ان الاستدلال بهذه الرواية على أن النظام الأمومي قد سبق النظام الأبوي لهو استدلال يحمل ضعفه وهشاشته معه، إذ هو بالمباشر حذف جميع الأسباب المحتملة لهذا الطلب الذي قدّمه عوف من أجل الموافقة على زواج إبنته أم أياس من عمرو بن حجر، وتمسك بسبب محتمل واحد لأنه أقرب لما يتبناه، بينما قد تكون هناك أسباب هي أقرب للواقع من السبب الذي إختاره، فقد يكون السبب هو إن ابنته كانت عزيزة عليه ولم يرد أن يزوجها، فطلب مثل هذا الطلب الذي ما كان معهوداً عند العرب. أو قد تكون أم إياس هذه بالغة الجمال أو الذكاء، فأراد أن يعطي شروطـاً صعبة، يجعل لها في المقابل هيبة وقيمة عند من يريد أن يتزوجها. أو قد يكون أباها من حبّه المفرط لها، وشدّة تعلقه بها أراد أن يكون له أثر وكلمة على ابنته وعلى أولادها بعد زواجها، ليشعر بأنها لازالت تحت أوامره ونواهيه، ولم يستطع زوجها وأهله التأثير عليها وسلبها من أبيها وعائلتها، إذ كان معروفـاً عند العرب بأن المرأة عندما تتزوج، فإن تأثير أهلها سوف يقّل

(١) المصدر نفسه: ج١، ص٣١٤.

عليها، ولن يتدخلوا في حياتها وهي تعيش مع زوجها في بيتها الجديد. هذا مضافاً الى وجود اسباب محتملة أخرى لا داعي لذكرها ففي ما ذكرناه كفاية على ابطال ذلك الاستدلال.

ويخلص الباحثون الى أن نظام الأمومة كان سائداً عند الساميين والعرب ثم جرى التحول عنه الى نظام الأبوة، واستدل (روبرتسن سميث) على ذلك من عادة العقيقة حيث يقول أنها ليست عقيقة بدائية قديمة، وهي في الأصل الشاة التي كانت تذبح عند حلق شعر المولود قرباناً لإله الشعيرة. وهو يرى أن هذه العادة لابد أن تكون قد نشأت في مرحلة الإنتقال من نظام الأمومة الى نظام الأبوة وأن الغرض منها كان توكيد الجانب الأبوي في النسب، ويستدل من كتب الأنساب على العرب كانوا ينسبون الى الأم في مرحلة من مراحل حياتهم في تاريخهم القديم، فيروى أنهم كانوا يطلقون على ولد الياس بن مضر بن نزار وهم مدركة وطابخة وقمعة إسم خندف نسبة الى أمهم التي اطلق عليها لقب خندف وهو مأخوذ من الخندفة أي التبختر، وإليه تنسب بطون عدّة كمزينة والرباب وضبة وصوفة، وكان الياس نفسه يتسمى بإسم امرأته خندف.

وكان يقال لمالك بن خزيمة بن مدركة (عائدة) نسبة الى أم ولده عائدة بنت الحُمس بن قحافة، وأطلقت (مزينة) بنت كلب اسمها على ولد عمرو بن أد بن طابخة، وكان الحارث بن عدي بن الحارث بن مرّة يدعى (عاملة) نسبة الى أم ولده عاملة بنت مالك، ويقول بعض علماء الأنساب كان لمعد بن عدنان امرأة جرهمية إسمها قضاعة، وقد اطلقت إسمها على ولدها.

وتسمى عدد من علّية القوم بأسماء أمهاتهم نذكر منهم عمرو بن هند ملك الحيرة المشهور، وهناك عدد كبير من الشعراء الذين يتسمون بأسماء أمهاتهم مثل

السليك ابن السلكة وعمرو بن الغامدية وعبد المسيح بن عسلة ومرّة بن الرواع الأسدي وكان يسمى بإبن الرواع الأسدي وأخوه كعب بن الرواع وابن الدمينة وشبيب بن البرصاء ومعتق بن حوراء وابن طاعة الشيباني وعنترة بن عكبرة وابن براقة الهمداني والمسيب ابن عسلة وأخوه حرملة والقعقاع بن درماء (جدته لأمّه) وعجلان بن خليدة الهذلي وغيرهم.

وهناك ملاحظة جديرة بالأخذ بها وهي أن أسماء الأعلام العربية الخاصة بالرجال فيها الكثير من الأسماء التي تدل على المؤنث وهي منتهية بالتاء المدورة علامة التأنيث وهي لا شك تدل على رغبة موغلة في القدم ومترسبة في اللاشعور الجمعي للتعلق بالأم وهو ما يؤيد أن العرب مرّوا بمرحلة نظام الأمومة قبل أن يتحولوا الى نظام الأبوة. ومن هذه الأسماء، سهلة، عميرة، قبيصة، وعلّة، سلمة، ناجية، ملحة، شحنة... بينما لا نجد نسوة يتسمين بأسماء مذكرة إلّا قليلاً مثل خندف. كما نلاحظ أن العرب يعتمدون صيغة مؤنثة للمبالغة في صفة الرجال فهم يقولون علّامة وفهّامة ونابغة. وكان بعض العرب يكنون بأسماء بناتهم لا أولادهم مثل حاتم الطائي وكنيته أبو سفانة، كما أن أغلب الأشياء المهمة في الحياة مؤنثة كالشمس والأرض والسماء والحياة والدنيا والآخرة والجنة وغيرها كثير.[1]

وهنا يعترض الدكتور صالح أحمد العلي على هذا الرأي ويقول إن الأدلة التي يسوقها (ولكن وسميث) غير كافية لإثبات وجود نظام الأمومة عند العرب، ويرى أن هناك دلائل تنقض ذلك منها أن المجتمع السامي كان يعتبر الأب هو رأس الأسرة، والبعل أو الزوج هو السيد، والقبائل المنسوبة الى أمها قليلة جداً إذا قورنت بمن انتسب الى الأب، كما أن أصلها قد يكون سبب الزواج بأكثر من امرأة

(١) المصدر نفسه: ج١، ص٣١٤ وما بعدها.

مما يجعل الأولاد ينسبون لأمهاتهم لكي يتميزوا.[١]

ويقوم نظام الأمومة على أن الأم هي صاحبة السلطان والنفوذ في الأسرة، والخال هو رئيس الأسرة، أما الزوج فلا، إذ هو رئيس أسرة أخته بصفته خالاً إن كانت له أخت وكان هو كبير الأخوة، والإنتساب في هذه الحالة للأم لا للأب، وكان يعتقد أن أغلب صفات الولد تورث من خاله، فالعرب تقول نزعه عرق الخال... ويستند القائلون بأن العرب كانت تتبع في الأزمنة القديمة نظام الأمومة الى ان المجتمع العربي البدوي يمتهن أهله الرعي والصيد حيث يقضي الرجال معظم أوقاتهم خارج البيت، وهذا ما يقوله روبرتسن سميث في كتابه (القرابة والزواج).[٢]

ومسألة الأمومة والنظام الأمومي من الأبحاث التي حدثت في أواسط القرن الماضي بعد شيوع مذهب الإرتقاء، وأول من استلفت الأنظار إليها وكما اشرنا لذلك في الصفحات السابقة هو عالم ألماني إسمه (باخوفن) في كتاب نشره سنة ١٨٦١، فأهتم علماء العمران لإختلافه عمّا تعودوه من نظام العائلة المألوف. ومرجع بحثه أن الأمومة سابقة في تاريخ العائلة للأبوة، فعنده أن الزواج كان عند الأقدمين فوضى بلا شرط، وهو زواج المشاركة، فإذا ولدت بعض النساء غلاماً لا يمكن تعيين والده، وهو ملازم أمّه للرضاعة فينتسب إليها ويعرف بها، فيصير الإنتساب الى الأمهات قاعدة عامة، فأصبح للمرأة المقام الأول في الهيئة الإجتماعية وهي صاحبة النفوذ، كما هو حال الرجال اليوم.

(١) المصدر نفسه: ج١، ص٣١٦.

(٢) المصدر نفسه: ج١، ص٣١٦.

ثم ظهر كتاب (مكلينان) الانجليزي في الزواج عند القدماء Primitive marriage نشره سنة ١٨٦٥ فذهب في الأمومة مذهباً جعل أساسه الزواج الخارجي ، أي تزوج الرجال ببنات من غير قبيلتهم بالغزو لقلّة البنات عندهم بالوأد (على زعمه) فنشأ عن ذلك في اعتقاده زيادة عدد الرجال، فاضطر كل جماعة منهم الى الإكتفاء بإمرأة واحدة وهو تعدد الأزواج، وانحصر النسب في الأم وعلت منزلتها. وهو قول ضعيف الإسناد متناقض المعنى، كيف يمكن حفظ النسب بالأمهات وكل منهن مجلوبة من الخارج ولها نسب خاص؟ على أن مذهب (مكلينان) في أصل العائلة ما لبث أن سقط بما كتب فيه المنتقدون، وخصوصاً مورجان العالم الأمريكي صاحب كتاب (نظام الإجتماع عند القدماء)، فقد برهن ان الزواج الداخلي لا ينافي الأمومة. وكتب في الأمومة ونظام العائلة غير واحد من علماء الإجتماع الألمان والفرنسيين والانجليز والروس وغيرهم، مثل باجيهوت ودارجون وأميرا وويلكن وستارك وبريد وجير وسميث ووسترمارك وغيرهم مما يطول بنا تعداده، فنكتفي بآخر من خاض هذا العباب وهو الاستاذ (ويلكن) المستشرق في كلية ليدن، فإنه وضع كتاباً في الأمومة عند العرب على الخصوص، كتبه بعد مطالعة كتاب الاستاذ (روبرتسن سميث) في طوتمية العرب، فوافقه من وجوه وانتقده من وجوه، ولكنه يرى رأيه في أن الأمومة كانت سائدة عند العرب قبل الإسلام، وأن الأنساب التي يتناقل العرب أخبارها موضوعة.

واستشهد بقول (نولدكي) المستشرق الألماني الشهير في هذا الشأن، وخلاصة قوله أن الأنساب العربية وضعها ابن الكلبي وغيره بعد الإسلام لفقوها تلفيقاً، ولو أردنا الإتيان على أقوال الباحثين في هذا الموضوع لضاق بنا المقام، فنتقدم الى النظر في أدلة سميث التي نحن في صددها ومن قال قوله:

أدلتهم على نظام الأمومة عند العرب

ليس في أدلة سميث ولا غيره على الأمومة عند العرب قول صريح أو دليل ثابت، وإنما هي قرائن أو إشارات لو ثبتت أمومة العرب لكانت مؤيدة لها لا أن تكون هي وحدها دليلاً عليها. فإنتساب بعض القبائل أو البطون أو العشائر الى امهاتهم، وتأنيث أسماء القبائل، واشتقاق لفظ الأمة من الأم، وإطلاق لفظ الخال على أهل الأم جميعـاً، وإمتلاك بعض النساء عصمتهن بالطلاق، وغير ذلك ممّا عوّل عليه صاحبنا في إثبات قوله على ما سنبينه.. هذه كلّها -إذا فرضنا ثبوتها- لا يجوز إتخاذها دليلاً على أن العرب كانوا ينتسبون الى امهاتهم أو أن أساس العائلة عندهم المرأة. لأن وجود هذه الأحوال في جاهلية العرب لا ينافي انتسابهم الى آبائهم، بل هي تعد من قبيل الشواذ، أو أنها وقعت على سبيل الإتفاق. ولو جاز لنا أن نجعل الشواذ قواعد لفسدت احكامنا وضللنا في أقوالنا وعقائدنا. فالثابت منذ قرون عديدة أن العرب وغيرهم من الشعوب السامية كان نظام الإجتماع عندهم كما هو الآن، أي أن الرجل هو رأس العائلة وهو سيدها، ويؤيد ذلك لفظ (البعل) للزوج والسيد جميعـاً. ناهيك بشهادة التوراة، فإنها مع قدم عهدها لم يرد في نص من نصوصها فقرة تشير الى الأمومة أو تدل على وجودها أو أثر شيوعها عند الساميين أو غيرهم، ولو على سبيل النقد أو النهي او الإصلاح. ولا ورد شيء من ذلك في القرآن، ولا شوهد منقوشـاً على الآثار في مملكة من ممالك الشرق قديمـاً ولا حديثـاً، بل كل ما جاء من هذا السبيل يؤكد سيادة الأبوة عند الساميين. ولو إفترضنا وجودها لأقتضى أن يكون ذلك قبل اسفار موسى بمدة لا نعلم مقدارها، لأن هذه الأسفار لما كتبت لم يكن للأمومة أثر على الإطلاق. بل ينبغي أن تكون قد أمحت آثارها قبل موسى بعدة قرون، لأن شريعة حمورابي التي اكتشفوا نصها

مؤخراً دونت نحو القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد وكل ما جاء فيها عن الزواج والطلاق ونحوها يدل على أن نظام العائلة كان في عصر حمورابي نحو ما هو عليه الآن: الرجل رب العائلة، وليس في نص من نصوص شريعته او موادها لفظ أو عبارة أو قرينة تدل على وجود الأمومة، لا تصريحاً ولا تلميحاً، ولا اطلعنا علي ذكر الأمومة أو الإشارة إليها في كتاب من الكتب القديمة المتصلة بالخرافات، مع ما تتضمنه من أقاصيص الآلهة ونحوها. ولا اكتشف المكتشفون نقشاً من نقوش الأطلال فيه أقل إشارة الى ذلك، فكيف يجوز القول بوجودها والاستناد في اثباتها الى بعض القرائن الضعيفة."(١)

(١) ينظر: تاريخ التمدن الإسلامي: جرجي زيدان، نشر دار مكتبة الحياة، بيروت، ط١، بدون سنة طبع.: ج٢، ص٢٥١ وما بعدها.

رأي المفكر جرجي زيدان في نظام الأمومة عند العرب

وهنا أود أن أنقل ما قاله جرجي زيدان بهذا الخصوص فإنه مفيد في هذا المقام:

والظاهر إن القائلين بالأمومة عند العرب نبههم إليها ما طالعوه في كتب السياح عن وجود زواج المشاركة عند بعض القبائل المتوحشة بين هنود امريكا وأستراليا وفي بلاد التبت ونحوها، وان العرب الجاهلية كان عندهم نوع من هذا الزواج، فذهبوا الى شيوعها قبل الإسلام، وخصوصاً بعد أن قرأوا ما قاله الرحالة (استرابون) عن الزواج عند العرب في عصره، اي نحو القرن الأول قبل الميلاد، فقد جاء في الكتاب السادس عشر من رحلته ما ترجمته: (والزواج عندهم مشترك بين الأخوة، فللأخوة جميعاً امرأة واحدة، والذي يدخل منهم إليها أولاً يترك عصاه بالباب، وأما الليل فهو خاص بأكبرهم. وقد يأتون أمهاتهم، والزناة يعاقبون بالقتل، وهم الذين يتزوجون من غير قبيلتهم) فقد يتبادر الى ذهن المطالع لأول وهلة ان هذه الفقرة تؤيد الأمومة، وليس الأمر كذلك. لأن هذه القصة إنما تشير الى إشتراك الأخوة في الزواج بامرأة واحدة، وليس أهل العشيرة جميعاً. فهي تدل على وجود العائلة واستقلالها، مما يخالف شروط الأمومة، وتشير أيضاً الى تحريم الزواج الخارجي، وهو من أسس الأمومة عند أصحابها، ويقول (استرابون): أن العرب كانوا يعاقبون مرتكبه بالقتل.

وهب أن نص هذه الحكاية لا يخالف ما يريدونه بالأمومة، فتكون الأمومة شائعة عند العرب حوالي تاريخ الميلاد. وقد تقدم قول الاستاذ سميث ان العرب والعبران والآراميين كانوا في أقدم أزمانهم عائشين معاً في جزيرة العرب ثم خرج العبرانيون والآراميون وظل العرب مكانهم. وبينا قبلا أن العبرانيين لا ذكر لهذا

الزواج عندهم على الإطلاق، ولا سمعنا بمثله عند الآراميين، وإغفال حمورابي ذكره في نصوص شريعته يدل على أنه لم يكن معروفاً في عصره في بلاد ما بين النهرين أو ما يجاورهما، فكيف نصدق وجوده عند العرب نحو تاريخ الميلاد؟ فالأرجح عندنا أن يكون (استرابون) قد شاهد حادثة من هذا النوع عند بعض الناس فأطلقها على سائر العرب، أو سمعها من بعض الرواة فصدقها لغرابتها، فأوردها على علّاتها كما يفعل كثيرون أمثاله، الذين يرحلون الى بلاد الشرق فيعولون في وصف أهله وعاداتهم على ما يلقيه عليهم بعض التراجمة أو عابري السبيل، بما فيه من المبالغة أو الإختلاق، وهم أرغب في نشر الغريب استجلاباً لإعجاب قرّائهم، كما حدث في الأجيال الوسطى وما بعدها على أثر انتشار الإسلام.

ومع اشتغال الافرنج بنقل العلم عن الكتب العربية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد، وإختلاطهم بالمسلمين في قرطبة وطليطلة وغيرها، فقد ظلوا يجهلون تهجئة اسم النبي فيكتبونه تارة (مفمت Mophomet). وآونة (بمفت Bophomet) وحينا (بافون Baphon) وكانوا يظنون محمداً صنماً يعبده المسلمون. حتى يولوجيوس أحد كهنة قرطبة أحد كهنة قرطبة العلماء، مع مخالطته المسلمين في تلك العاصمة، فقد كتب عن الإسلام مفتريات لا أصل لها في كتبهم ولا في تعاليمهم، كقوله مثلاً ان النبي اعلن اصحابه أن الملائكة ستحمله الى السماء بعد موته بثلاثة أيام -زعم أنه نقل ذلك من مسودات لاتينية عثر عليها في بمبلونة- فقس عليه ما قد يختلقه غير العارفين، كما حدث كل يوم الى عهد غير بعيد. حتى الذين يقيمون بين اظهرنا اعواماً فقد ينقلون عنا الأكاذيب التي ما أنزل الله بها من سلطان، وربما رأوا حادثة غريبة ارتكبها بعض الناس عن جهل او إتفاق فيعدّونها من القواعد المرعية عند سائر أفراد الأمة. وبين يدينا رحلات عديدة

كتبت ونشرت في اثناء القرنين الماضيين عن سوريا ومصر، وفيها من المفتريات ما لا أصل له إلّا في ذهن الكاتب أو ملقنه، ولولا إنتشار الطباعة وخروج الناس الى نور العلم وتصحيح تلك المفتريات، لرسخ في أذهان أهل الغرب أن الشرقي يكدن امرأته للحراثة، وأنه يزرع القوارما (اللحم المقلي) وهو يعتقد انه سيستغل، ويزرع الفحم ليستغل عبيداً.. فكيف في عصر (استرابون) منذ نيف وتسعة عشر قرناً وهو يكتب عن قوم لا يعرف لسانهم ولا أقام بينهم؟ ويؤيد ذلك أن تتمة قوله في هذا الموضوع تدل على أنه أورده على سبيل الحكاية، ولم يغفل الإشارة الى ضعف اسناده بقوله يزعمون (on dit) فلا عبرة بما ذكره (استرابون) فيما يختص بالأمومة، وهو بظاهره أصرح أدلة صاحب طوتمية العرب.

وأما سائر أدلته فإنما هي قرائن ضعيفة لا يصح الاعتماد عليها. وحتى لا يقال أننا لم ننصفه نأتي بتلك الأدلة وننظر في كل منها على حدة وهي:

١. الإنتساب الى الأمهات.

كقولهم بنو خندف وبنو ظاعنة وكلاهما إسم إمرأة نسبت القبيلة إليها.. ولو نقبنا المئات من أسماء القبائل والبطون والأفخاذ ما وجدنا بينها من ينسب الى أمهم إلّا بضعة قليلة. فأيّ غرابة في ذلك وبين العائلات اليوم نحو عشرة في المئة ينسبون الى الأمهات، كآل ظريفة وآل نقلا وآل نور وآل نائلة وآل مارية، وقس عليه أهل اللغات الأخرى؟ فهل يجوز الذهاب الى أن هذه الأسماء من آثار الأمومة عند أسلافنا؟ أم نأتي على تعليلها من الطريق الأقرب، وهي أن بعض هذه العائلات نسبت الى امرأة هي جدتهم العليا، لأن جدهم مات وهي كفلتهم وربتهم فعرفوا بإسمها. وقد يكون الأب مجهولاً لحصول الحمل من السفاح مما يحدث في الجاهلية وغيرها، فيولد الولد لا يعرف أباه فينسبونه الى أمه، كما وقع لزياد ابن

أبيه الصحابي الداهية، فقد كان يعرف بأمه سمّية فيقال زياد بن سمية، ولولا استلحاق معاوية إياه بنسبه لعرف أعقابه بآل سمية، ولو تقاوم عهد هذه العائلة وتنوسي خبر أمها لأضافها صاحبنا الى أسماء أمهات القبائل وعدّها من بقايا الأمومة.

ويكثر الإنتساب الى الأمهات على الخصوص في الأمم التي يتزوج رجالها امرأتين فأكثر، فيولد للرجال ولدان من والدتين يسميهما بإسم واحد، فينسب كلّ منها الى أمّه فضلاً عن إنتسابه لأبيه تمييزاً له عن ابن الأم الأخرى، وقد يشتهر بنسبته الى أمه دون أبيه، وأمثلة ذلك كثيرة قبل الإسلام وبعده. فقد كان لعلي بن أبي طالب غير امرأة، ولد له منهن عدّة أولاد من جملتهم ثلاثة كل منهم اسمه محمد، فنسب أحدهم محمد الأكبر الى أمّه خولة بنتَ جعفر من بني حنيفة فسماه محمد بن الحنفية، فلو عاش هذا في الجاهلية لعرف اعقابه ببني الحنفية بطن من هاشم أو من قريش، كما عرف بنو العدوية نسبة الى أمهم من قبيلة عدي.

وقد يشتهر الرجل بإسم أمّه وإن لم يكن له سمي من إخوته، وإنما يقع ذلك لشهرة والدته. فمحمد الأمين بن هارون الرشيد اشتهر بإبن زبيدة، لفضل أمّه على سائر امهات الخلفاء وشهرتها، وقس عليه. فهل يجوز أن تؤخذ هذه الحوادث أدلة على الأمومة؟ وزد على ذلك أن القبائل العربية التي تنسب الى إمرأة ترجع أخيراً الى النسب الأبوي، وهو العام الشامل. فبنو ظاعنة مثلاً نسبوا الى أمهم ظاعنة وهم ينتسبون أيضاً الى أبيهم، فيقال لهم بنو ثعلبة بن مراد بن اد. وبنو خندف هم أيضاً بنو الياس بن مضر، وقد نسبوا الى أمّهم امرأة الياس واسمها خندف، وبنو طهية نسبوا الى أمهم، وهم بنو سود بن مالك، وقس عليه.

٢. تأنيث أسماء القبائل.

أي أن العرب تقول: جاءت مضر وسطت قيس الخ، ولا يقولون جاء مضر، وسطى قيس، فلا ندري العلاقة بين تأنيث الإسم والأمومة، والتأنيث والتذكير في العربية لا قياس لهما، ولو صحت الأمومة لما ضرّها أن تكو أسماء القبائل مذكرة، كما ان تأنيثها لا يثبت وجود الأمومة. على أن لتأنيث القبائل سبباً مبنياً على قاعدة من قواعد اللغة، وهو تقدير لفظ (القبيلة) قبل كل اسم، فقولنا (مضر) يراد به (قبيلة مضر)، وقولنا (قيس) يراد به (قبيلة قيس) فالتأنيث للفظ القبيلة المحذوف، والحكمة في ذلك دفع الإلتباس بين أن يكون المراد بالفاعل رجلاً إسمه قيس أو مضر أو القبيلة. فإذا كان الفعل مؤنثاً انصرف الذهن الى القبيلة. وعلى هذا المبدأ يؤنثون اسماء المدن وإن لم يكن لفظها مؤنثاً، فنقول: فتحت بغداد وعمّرت مصر أو الشام بتقدير لفظ (مدينة). ونحن نقول اليوم: روت المقطم، وذكرت المؤيد، وقالت الهلال، فنؤنث الفعل، والفاعل المذكر لفظاً ومعنى، وإنّما نقدر قبله كلمة الصحيفة أو المجلة.

٣. التعبير عن القرابة بالبطن.

فيزعم أن تسمية القبيلة بالبطن يؤيد اعتماد العرب على قرابة الأم، والواقع ان البطن فرع من فروع القبيلة على سبيل التشعب كالشجرة، وإنما جعلوا اسماءها شبيهة بأسماء أجزاء البدن بالنظر الى علاقتها بعضها ببعض، أو تفرعها بعضها عن بعض، فالمجموع الأكبر عندهم (الحي) كناية عن الإنسان كلّه، ويراد به الجماعة النازلون بمربع وهو ينقسم الى (الشعوب) أي الفروع، والشعبان النصفان، كأنهم أرادوا إنقسام الجسم الى شطرين متساويين: أيمن وأيسر. ويليها (القبائل) وهي قطع عظم الرأس المشعوب بعضها من بعض. ثم (العمارة) كناية عن الصدر، ثم

(البطن)، وبعده (الفخذ) وأخيراً (الفصائل). فترى استخدام البطن للقبيلة أو بعض فروعها لا علاقة له بالأمومة. وإنما هو فرع من فروع النسب لما يقابله من اعضاء الجسد. وإذا عدلنا عن هذا التعليل واعتبرنا كل إسم مستقلاً، وقبلنا التعليل الذي تبادر الى ذهن حضرته، لأقتضى أن يدلوا بالبطن على العائلة التي هي من بطن واحد، ولكنهم يريدون به القبيل المؤلف من عائلات.

٤. اشتقاق لفظ الأمة من الأم.

وهو عنده دليل على أن الأصل في النسب الأم، وخصوصاً لأن الأم في العبرانية تدل على القبيلة أو الجماعة، ولكن هذا التعبير إنما هو من قبيل المجاز، مما لا يخفى على العارف بأساليب اللغة العربية، كقولهم أم القرى، وأم المدائن، والأمهات للعناصر، وعندهم الأم الأصل، فأم كل شيء أصله وعماده، وكل شيء انضمت إليه أشياء فهو أم لها. والأصل في هذه المعاني اتباع الأطفال أمهم، لأنها هي المكلفة بتربيتهم في طفولتهم، فيتبعونها وينقادون لأمرها لا لأنها أصل النسب، ولهذا السبب قالوا أم الكتاب أصله، وأم القرى مكة، وأم الدنيا مصر لكثرة أهلها، وأما إشتقاق الأمة من الأم، فيعلل بنفس هذه الكيفية، لإستعارة الأمومة للرئاسة أو من التوليد لظهور ذلك في النساء دون الرجال، لأن المرأة تضع النسل وهي تتولى الحضانة والتربية. فإذا ذكرنا الولادة سبق الى أذهاننا الأم، ولذلك غلب التعبير عن القرابة بعضو التوليد بالنساء كالبطن أو الرحم، وليس لأن الأم أصل القرابة. ولو تتبعت معاني ما يقابل لفظ الأمة في سائر اللغات لرأيت لها نفس هذا المعنى فلفظ nation في اللغات الافرنجية معناه الأمة وهو مشتق من فعل في اللاتينية بمعنى (ولد) والإنجليز يقولون Motherland ويريدون بها وطن الأبوين مع ان اللفظ يقتضي ان تكون وطن الأم فقط. فعلى تعليل صاحبنا تكون هذه اللفظة

دليلاً على شيوع الأمومة عند الانجليز الآن!

٥. الخال والعم والكنة.

وذلك ان لفظ (الخال) بالعربية لا يراد به أخو الأم على الخصوص، ولكنه يطلق على كل رجل من أهلها. وكذلك لفظ (العم) وأن هذه اللفظة اصل معناها (الشعب)، وذلك هو مؤداها في العبرانية الى الآن. وعليه فلا تكون عند العرب عائلة خصوصية وإنما الولد يكون ابن الجماعة أو القبيلة على ما تقتضيه الأمومة أو الطوتمية، وهو قول غريب اذا صح الإعتماد عليه تشوشت احكامنا في أنساب الإنجليز والفرنسيين وغيرهم، لأنك ترى عندهم نفس هذا الإطلاق أو الإشتراك، فلفظ Gousin في ألسنتهم يدل على كل قرابة عصبية أبعد من الأخوة، فهو ابن العم، وإبنة العم، وإبنة العمة، وإبن الخال، وإبنة الخال، وإبن الخالة، وإبنة الخالة، وإبن إبن العم، وإبن إبن الخال الخ... مما لا مثيل له في العربية. والأصل فيه ابن الخالة لأنه منحوت من Consobrinus في اللاتينية أي إبن أخت الأم. فهل يفيدنا اطلاقه على كل الأقرباء، ان الأصل في القرابة الأم؟ وقس على ذلك لفظ uncle في الإنجليزية وما يقابلها في اللغات الإفرنجية الأخرى، فإنها تدل عل العم أو الخال وأصلها avunculus في اللاتينية ومعناها الخال ثم اطلقت على العم. والحقيقة أن لا عبرة في هذا الإختلاف فيما يختص بالأمومة، فإن اللغات تختلف في طرق الدلالة بما لا قياس له، وخصوصاً من حيث درجات القرابة ففي بعض اللغات لفظ يدل على قرابة لا يعبر عنها في لغة أخرى إلّا بعدة ألفاظ: فالصهر في العربية لا يمكن التعبير عنه في اللغة الإنجليزية إلا بثلاثة ألفاظ brather- in- law وكذلك الحمو فهو عندهم father- in- law، والجد يعبر عنه في اللغة الإنجليزية بلفظين grand father، وكذلك حفيد Grand

son وبعكس ذلك لفظ Nephew في الإنجليزية فلا يمكن التعبير عنه في العربية إلّا بلفظين: ابن الأخ أو ابن الأخت، ومثلها Niece بنت الأخ أو بنت الأخت، فدلالة كل من هذين اللفظين على أولاد الأخ والأخت معاً قد يتخذها اصحاب رأي الأمومة من جملة الأدلة عليها.

ولفظ (الكنة) في العربية يراد به في اللغات السامية الكنة والزوجة على السواء، فاستدل صاحبنا بذلك على أن الرجل كان يتزوج كنته (أي امرأة ابنه أو امرأة أخيه) فلا رابط للزواج بين الرجل وامرأته. والجواب على ذلك يدخل فيما تقدم بيانه من إختلاف معاني الألفاظ توسعاً ومجازاً. ومثلها لفظ (صهر) يراد بها زوج بنت الرجل وزوج إخته، ويراد بالصهر أيضاً القرابة على العموم، والأصهار أهل بيت المرأة، ومنهم من يجعل الصهر من الأحماء، فهل يصح الإعتماد على هذا التوسع في اثبات مبدأ أو رأي؟.

٦. زواج المتعة.

وهو الزواج الوقتي، أي أن يعقد الرجل على امرأة عقد زواج الى أجل مسمى فمتى انقضى الأجل بطل الزواج، فيرى صاحبنا أن هذا الزواج كان شائعاً عند ظهور الإسلام، وهو يحسبه يؤيد رأيه في الأمومة، وهي تقتضي إباحة نساء القبيلة لأهل القبيلة بلا عقد ولا شرط، والمتعة لا تكون بدون عقد فهي تناقض ما أراد إثباته، فالمتعة ضرب من ضروب الزواج التي كانت شائعة في الجاهلية، وكلها تنفي الأمومة لأن الرجل فيها صاحب السيادة وصاحب العصمة.

٧. الوأد.

يرى صاحب طوتمية العرب أن شيوع الوأد في الجاهلية قلة البنات فاضطروا

الى الإشتراك في النساء، فكان يشترك عدة رجال في امرأة واحدة يستولدونها ويكون الإنتساب اليها. وقد بالغ بعض الباحثين في مسألة الوأد وتوهموها عادة شائعة في بلاد العرب كلها، والناقد يرى انها كانت منحصرة في مكان معين وزمان معين تحت أحوال مخصوصة، وإلّا فلا يعقل أن يعمد الى دفن بناتهم ثم يضطروا الى المشاركة في الأزواج وفي طاقتهم ان يتخلصوا من ذلك الضيق. وقد ذهب بعضهم الى أن العرب كانوا يئدون بناتهم خوف الفقر، وهم في حلّ من هذا الفقر لو استبقوهن على قلة البنات لما يجدون من إقبال الأزواج عليهن بالمهر والهدايا. وقال آخرون انهم كانوا يئدون خوف العار، وإذا صحت الأمومة لم يكن ثمة عار يخافه الآباء. وخوفهم العار على بناتهم دلالة على الغيرة، وهي لا تكون في زواج المشاركة، وفي الحالتين فإن دليله في الوأد ساقط.

٨. العصمة في يد المرأة.

وقد اتخذ إمتلاك بعض نساء الجاهلية عصمتهن في الزواج والطلاق دليلاً على سيادة الأمومة، وإن المرأة هي رئيسة العائلة، فما أغرب هذا الإستنتاج وما أنقص هذا الاستقراء.. ان المرأة في الجاهلية لم تكن عصمتها في يدها إلّا في أحوال مخصوصة وحوادث نادرة، فهل نجعل الشاذ قاعدة نبني عليه، والنادر قياساً نقيس به؟ واما القاعدة في زواجهم فهي أن تكون العصمة في يد الرجل. وهب انها في يد المرأة، فلا تكون إلّا بعقد مقيد بشروط وقوانين، وليس على سبيل الإباحة والإشتراك كما يريدون بالأمومة. وقس على ذلك سائر أدلته لإثبات الأمومة، فإن مرجعها الى تأويل الألفاظ والإعتماد على الاستقراء الناقص كقوله أن الأب معناه المربي، وكاستخراجه الحي من حواء وذكره القرابة بالرضاعة أو المؤاكلة وتأويل لفظ آحاب الى أخ أب ، ونحو ذلك مما يقاس في ردّه بما قدمناه.

الخلاصة:

فالقول بشيوع الأمومة في العرب الجاهلية لا يستطاع إثباته بالقرائن الضعيفة، لأن اليقين لا يزال بالشك، إلّا إذا جاز الإعتماد على الشاذ وإغفال القواعد العامة، فقد رأيت في شروط الأمومة أن يكون الزواج من الخارج بالغزو أو السبي، لأن بنات القبيلة في زعمهم تقل بالوأد أو بغيره، وأن تكون المرأة زوجاً لعدة رجال معاً واولادها ينسبون إليها، فلم نفهم كيف يكون الزواج بالغزو، وكيف يمكن الرجوع بالأنساب في القبيلة الواحدة الى الأم، ولماذا تقل البنات حتى تضطر القبيلة ان تغزو غيرها للحصول على النساء. والقاعدة الطبيعية في تاريخ الإنسان في أدواره الأولى أن يكثر النساء حتى يتزوج الرجل عدة منهن. على ان الحصول على النساء بالغزو يبعث على الرجوع الى النسب الأبوي، لأن الآباء يبقون في القبيلة. ويشبه ذلك ما كان من كثرة السبايا والجواري في صدر الإسلام، فإنهن تكاثرن حتى إختص الرجل بعشرة أو عشرات منهن، وظل النسب في الرجال ولا يمكن غير ذلك كما يظهر للمتأمل. ولو فرض ان النساء يحاربن القبائل للحصول على الأزواج بالسبي، لكان ذلك أقرب الى حفظ النسب فيهن، أي الإنتساب اليهن أو الى قبيلتهن.

فالقول بتسلط الأمومة على الإجمال يفتقر الى اثبات أو تعديل، لآن وجودها على هذه الكيفية غير معقول ولا يوافق قواعد العمران، أو هو لا يوافقها على الأقل عند العرب، لأن القاعدة في الزواج عندهم وعند سائر الساميين أن تكون داخل القبيلة، وإذا جنح أحدهم الى الخارج فلسبب طارئ.

هذا هو حالهم في أقدم ما نعلمه من أخبارهم في التوراة وغيرها، والعربي يسمي امرأته ابنة عمه وإن لم تكن كذلك، لأن الغالب في الزواج عندهم أن يكون

بين ابناء العم على تقارب درجات العمومة. واليهود أكثر الأمم محافظة على انسابهم ويمنعون الزواج من غير قبائلهم، ويعاقبون من يخرج عن ذلك عقاباً صارماً. وإذا تزوج اسرائيلي بغير اسرائيلية فزواجه سفاح، ويسمون المولود من ذلك الزواج (نغلاً) كما يسميه العرب (هجيناً) أي لئيماً، فكيف نزعم مع ذلك ان العرب القدماء كانوا يتزوجون من الخارج بالغزو، وإذا فرضنا انهم كانوا كذلك فمتى انتقل الزواج الى الداخل، وكيف انتقلت الأمومة الى الأبوة أو البعولة، ومتى؟ كلها مسائل مهمة لا يمكن الجواب عليها، واصحاب مذهب الأمومة أنفسهم يعترفون بعجزهم عن ذلك، فما أغفلنا عن الذهاب إليه. ومن يطالع تاريخ الزواج من أول أحوال العمران الى الآن لا يرى فيه إلّا ما ينقض الأمومة.»[1]

(١) تاريخ التمدن الإسلامي: جرجي زيدان، نشر دار مكتبة الحياة، بيروت، ط١، بدون سنة طبع: ج٢، ص٢٥٤ وما بعدها.

أدلة جديدة تضعّف من وجود العهد الأمومي

والآن يمكن لنا أن نضيف بعض الأدلة الأخرى التي تدعم عدم وجود العهد الأمومي بشكل عام، والتي لم يلتفت اليها من قبل:

الدليل الأول:

إذا كان مثل هذا العهد موجوداً فلابد أن يكون قد دام لفترة طويلة من الزمن، فإنه متى ما وجد بإعتبار المقومات التي ذكرها المؤيدون لوجوده، فإنها إن أُخذ بها وأقرّت فستكون لها القابلية على الإستمرار لفترة طويلة من الزمن، ولكنها لم تستمر وأنقطع ذكرها وأثرها، ولم تذكر مبررات وأسباب زولها.

ثم هناك أمر آخر وهو فيما إذا كان هناك وجوداً للعهد أو النظام الأمومي، فإنه يتوجب أن تتحرك المرأة لأعلى رمز يمثل الهيمنة والأهمية، ألا وهو الرئاسة والسلطة العليا للمجتمعات، والتي تتمثل بالملوكية والسلطنة والإمارة أو رئاسة الإمبراطوريات، وهذا كان من المفروض أن يجري على أساس ما يطرحه المؤيدون لهذا الدور من أهمية للمرأة، وعلى رأس تلك الإمتيازات بأنها تمثل الخصوبة والمانحة للحياة بسبب ما تطرحه من ولادة التي لولاها ما أستمرت الحياة. ولذلك فإنها ستكون هي صاحبة الحق لأن تترأس اعلى سلطة في المجتمع. لأن من يهب الحياة أو يكون سببا رئيسياً في إستمرارها، يكون الأولى في إدارة شؤون المجتمع ومعرفة ما يصلحه وما يضّره، وخصوصاً إنهم يذكرون بأنها هي التي اكتشفت الزراعة وإنّها هي من حصدت الحبوب وثم ادّخرتها، وهي مدبرة شؤون المنزل.

وأمّا ما ذكر من اسماء لملكات قد حكمن بعض البلاد كحتشبسوت التي

حكمت مصر قديماً وكبلقيس ملكة سبأ التي حكمت اليمن القديم، وكليوباترا التي حكمت في مصر، وزنوبيا التي حكمت في تدمر احدى مدن الشام، فمثل هذه الأسماء لا تعني شيئاً، ولا يكون لها نسبة أصلاً إذا ما قيست مع الملوك الرجال الذين حكموا في هذه الأرض، وبمختلف الحضارات والقارات، فإننا نجد أسماء الرجال في كل الأحوال هي المتصدرة للمشهد الرئاسي أو الملوكي أو الإمبراطوري وغيره. ولو لم يكن العهد الذكوري أو الأبوي العهد الوحيد الذي عرفته البشرية، لكان هناك أسماء ملكات كثير جداً، وهذا مما لم نجده يذكر في التاريخ. هذا علماً إن الملكة حتشبسون التي هي من أذكى النساء اللواتي حكمن مصر، نجدها قد لقبت نفسها بألقاب الرجال، بل أنها لبست ملابسهم وتشبهت بهم، واستطاعت بحكمتها أن تتصدى للمشاكل الشعبية الرافضة لحكم المرأة. وهذا يدل على غرابة هذا النوع من الحكم، والتعود على الحكم الذكوري، ولذلك كانت هي تقرّ بهذا الأمر، فلبست لباس الرجال وتلقبت بألقابهم، تمشياً مع رغبة الشعب في ذلك، مضافاً كونها تشعر بأن النساء لا يناسبها مثل هذا الدور، ولن تستطيع أن تثبت حكمها إلّا من خلال التشبه بهم لأنهم هم المعنيون في هذا الأمر.

هذا من جانب ومن جانب آخر فإن تلك الأسماء من الملكات التي ذكرناها قد حكمت في فترة العهد الذكوري، لا العهد الأمومي، مما يدل على ندرة هذا النوع من حكم المرأة. أمّا إن قال قائل بأن النظام الأمومي كان هو الأصل في بدء البشرية، ولم يتعدى هذا العهد، ولذلك لم توجد أسماء لامعة ومميزة لنساء ذلك العهد، فهذا يدلّ على شيئين، علينا الإلتفات إليهما بجدية وهما:

الأول: إن ذلك العهد بما إنّه كان بدائياً فإنه لا يوجد تمايز بين الرجل والمرأة

ولا يوجد أمر ذا بال للنساء من أجل أن يذكرن من أجله، فالأمر معلق ولا يمكن أن ينسب الى جنس معين، وذلك لعدم وجود المسوغ لذلك، ولو وجد لأستدعى ذلك بروز عدّة أسماء نسائية تستحق الذكر لعظم الدور المؤدّى من قبلهن.

الثاني: لو تنزلنا وقلنا بأن في ذلك الزمن البدئي للبشرية، كانت السيادة للنساء وإن العهد عهدهن، ولكن لم تصل الحضارة بعد حتى تبرز أسماء لنساء حكمن مدن أو قرى معينة، ففي هذا الفرض سنقع في إشكال له دلالة على عدم قدرة المرأة من الوصول أو تحقيق مستوى حضاري يتمكنّ من خلاله أن يكون لهن ذكر يخلده التاريخ. وذلك كونهن لم يتمكن بعد من تشكيل قرى أو مدن ودول كبيرة يكون لها القدرة على إثبات واقعها الحضاري، وذلك بتشكيل نمط من أنماط المعرفة التي يحفظ من خلالها إرثها الفكري والقيادي والإجتماعي، وما كان ذلك إلّا لقصور فيهن عن إدراك مثل هذا الأمر المهم.

ولذلك لم توجد مثل هذه المدن والدول والإمبراطوريات، إلّا بعد أن تحرك الرجال وأزاحوا النساء عن سيادة ذلك العهد بعد أن أثبتن عدم قدرتهن على إنشاء مثل هكذا حضارات كبيرة، فأثبتوا قدرتهم الواقعية في السير بالبشرية خطوات كبيرة نحو الأمام، حتى تمكنوا من أن يكونوا قادة وملوك وأمراء، فقدموا للإنسانية خدمات ما كانت لترى النور فيما لو كانت السيادة للمرأة.

والدليل على ذلك بأن عصر التدوين وبداية التاريخ لم يذكر شيئاً عن ملوكية النساء، وإنما ابتدأ بالعهد الملوكي الذكوري، وهذا الأمر هو الملموس لوجود المدونات والأحفريات الدالة على ذلك، بينما يبقى أمر النظام الأمومي لا يستطيع الخروج من طوق الفرضية والإحتمال الذي لا يزال يعيش مرحلة الترنح والسقوط بالرغم مما بذله اصحاب الرأي الداعم لهذا الأمر.

الدليل الثاني:

هناك أمر يحتاج الى أن يتوقف المرء قباله يخص هذا الشأن وهو: قد يقال أن أمر السلطة والملوكية والأمور العسكرية وما شابه ذلك تحتاج الى الرجال وقوتهم البدنية، والنساء بطبيعتهن لا يملكن ذلك البناء الجسدي القوي الذي يتحمل نائبات الدهر، ولكن لماذا لم يحدثنا التاريخ أو يبرز لنا نساءً أو أمرأة واحدة على مستوى الرسالة والنبوة، وها هو الرصد الديني حاضر أمامنا وهو فارغ تماماً من أي إسم لامرأة، بل حتى الديانات الوضعية ومناشئها البشرية خلت من أسماء النساء، فلماذا هذا الجفاء والبعد بين هذه الوظيفة وبين النساء، فإن كانت الرسالة والنبوات من جهة سماوية حقة، أو من جهة أرضية تدّعي قدرتها على فلسفة هذا الوجود وابعاده الكونية قد اتفقنا على عدم صلاحية المرأة على مثل هكذا أمور، فهل هذا الإتفاق هو نتيجة تصالح بينهما، وهو محال. أم نتيجة تلك الفطرة الإنسانية التي يظهرها سلوك كل من الرجل والمرأة، كل حسب طبيعته وتكوينه البيولوجي؟

فإذا كان الأمر كذلك، فكيف تسنى للمرأة أن تتسيد عهداً بشرياً بحيث يصبح عهداً ونظاماً أمومياً هي صاحبة الشأن الأول فيه، وكل الأمور ترجع إليها بإعتبارها أصل ومنبع للحياة.

الدليل الثالث:

إذا كان النظام الأمومي قد قام نتيجة لعدم معرفة الأب الناتج عن الإباحية وتعدد الأزواج كما يقول العالم لينان، لضاعت الأنساب وأصبحنا في تيه كامل بـهذا الإتـجاه، وبالتالي لن نتمكن مـن معـرفة أي إرتباط نسبي بين الأجيال، ولكن

الأمر خلاف ذلك، فقد استطاع المجتمع الإنساني أن يحافظ على التسلسل النسبي والإرتباط بالأجداد، بل نستطيع القول بأن القبيلة لم تتشكل وتكبر إلّا على أساس هذا المبدأ والإلتزام المتشدد بالإرتباط النسبي، فكان هو العمود الفقري في استمرار القبيلة وإتساعها ومن ثم توالد القرى والمدن منها.

ويمكن لنا أن نرى ذلك بأوضح صورة له من خلال ما وصلنا من معرفة بالإرتباط النسبي للأنبياء والذي يصل الى آدم عليه السلام، ويمكن حصر ذلك الإنتساب بدقة لا يشوبها الشك، وكذلك الأمر مع الشخصيات العظيمة الأخرى التي ينصع نسبها في التاريخ، وهذه المعرفة الدقيقة بالأنساب التي لا يمسها التردد إلّا في حالات نادرة التي لا يكاد أن يكون لها تأثير لخير دليل على بالغ الإهتمام لمسألة معرفة الأب والإنتساب إليه.

الفصل الثالث

المرأة في الشرائع الكبرى اليهودية-النصرانية-الإسلام

خلق المرأة في الديانة اليهودية

تحت هذا العنوان نريد أن ننظر لأهم الخطوط العريضة للمرأة اليهودية وفي سياقات مختلفة لشريعتهم، وبحسب الأزمنة والأمكنة التي تأخرت فيها صورة ووضعية المرأة اليهودية.

فالتوراة بإعتبارها كتاب اليهود المقدس، تعكس مواقف ثقافية راسخة حول مكانة المرأة. (١) وعندما نتناول المرأة في الفكر الديني اليهودي، لابد لنا من أن ننطلق من التوراة، لأنها مصدر أحكامهم، وهي كتاب الله الذي أنزل على نبيه موسى. إنها بصورتها وصيغتها الحالية، وكما هو بين أيدينا –وحي السماء لليهود– وعلينا أن نسبق العرض التاريخي ونشير الى أنها وكما أكدت الدراسات التاريخية، ليست إلّا كتاباً تاريخياً وضعه الحاخامات اليهود بعد أن أخفوا التوراة الحقيقية. (٢)

وانّ من الأمور الثابتة لدى الباحث في مجال تاريخ الديانة اليهودية أن أحبار الدين اليهودي أثناء تدوينهم لمبادئه الروحية في دفتي التوراة تقصدوا عدم التقيد بالترتيب الزمني للأحداث التاريخية التي مرت بها المنطقة العربية قديماً، وذلك من أجل تشويش القارئ لصفحات التوراة. ومن أهم السبل والطرق التي انتهجها كتبة التوراة في تدوينهم هو تركيزهم على جسد المرأة للتلذذ بمفاتنه ولكونه

---

(١) ينظر صورة المرأة اليهودية بين الشريعة والواقع: جمال صوالحين، نشر دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ط١، ٢٠١٦: ص٧.

(٢) المرأة عبر التاريخ البشري: د. عبد المنعم جبري، نشر دار صفحات، دمشق، ط٣، ٢٠١٤م: ص٧٢.

سلاحـاً في إغواء الرجال وكسب ودّهم أو للتخلص منهم.[١]

والحقيقة فقد تعامل اليهود مع المرأة بإتجاهين متضادين، لا تكاد تجد له منفذ تبريري يقرر أحدهما في التعامل دون الآخر، إلّا أن يكون هناك تزاحم في أمراض النفس وإنحياز عن المفاهيم الإنسانية التي ينظر من خلالها الى المرأة ككائن بشري له حقوق وعليه واجبات، ففي اتجاه كان يتعامل مع المرأة على أنها شرّ وبسببها أُخرج آدم من الجنة، وبإتجاه آخر استخدامها استخدام ذرائعي، وفق مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، وذلك للوصول الى أهدافهم وغاياتهم المخطط لها مسبقاً. وبذلك يكون كتبة التوراة أول من ابتدع المبدأ الغائي الذي يجب على معتنقي اليهودية منذ ذلك الوقت التقيد به في حياتهم اليومية، هذا المبدأ الذي ينسب في وقتنا الحالي الى (ميكا فيللي) كمشرع له من خلال كتابه (الأمير) الذي يقول فيه متحدثاً عن إنطباعه عن البشر المتمسكين بالمادة على حساب أهوائهم وعواطفهم وتقاليدهم الإجتماعية ما يلي:

(وقد يقال عن الناس بصورة عامة، إنهم ناكرون للجميل، متقلبون، مراؤون، ميالون الى تجنب الأخطار، شديدو الطمع، وهم الى جانبك طالما أنك تفيدهم، فيبذلون لك دماءهم وحياتهم وأطفالهم وكل ما يملكون... إذ أنّ الصداقة التي تقوم على أساس الثراء، لا على اساس نبل الروح وعظمتها، هي صداقة زائفة تشترى بالمال ولا تكون أمينة موثوقة، وهي عرضة لأن تجدها في خدمتك في أول مناسبة، ولا يتردد الناس في الإساءة الى من يخافونه، إذ أن الحب يرتبط بسلسلة من الإلتزام، التي قد تتحطم بالنظر الى أنانية عندما يخدم تحطيمها مصالحهم،

(١) المرأة في أسفار التوراة : د. علي عبد الله الجباوي، نشر دار التكوين، دمشق، ط١، ٢٠٠٩م: ص١٣.

بينما يرتكز الخوف على الخشية من العقاب وهي خشية قلما تعنى بالفشل)، فمن خلال قول ميكيا فيللي هذا يظهر أنه متأثر بما جاء في تعاليم التوراة... فالإنسان بنظره هو أناني ينظر الى مصلحته المادية أولاً الى حد يعدها أساساً في علاقته مع بقية الناس.(١)

قصة خلق المرأة:

والآن لنرى كيفية الرؤية اليهودية للمرأة أي في كيفية خلقها وما قيمة وجودها وما هو دورها الإجتماعي في سياق النص التوراتي الذي ينقله العهد القديم لنا:

(وقال الله: لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا، وليتسلط على سمك البحر وطير السماء والبهائم وجميع وحوش الأرض وكل ما يدب على الأرض. فخلق الإنسان على صورته، على صورة الله خلق البشر، ذكراً وأنثى خلقهم، وباركهم الله، فقال لهم: (أنمو وأكثروا واملأوا الأرض، واخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وطير السماء وجميع الحيوانات الذي يدبّ على الأرض) سفر التكوين، الاصحاح الأول: ٢٦ – ٢٨.

(وأخذ الربّ الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليفلحها ويعتني بها. وأمر الربّ الإله آدم قائلاً: ((كل ما تشاء من جميع أشجار الجنة، ولكن إياك أن تأكل من شجرة معرفة الخير والشرّ لأنك حين تأكل منها حتماً تموت)) ثم قال الربّ الإله: ((ليس مستحسناً أن يبقى آدم وحيدا. سأصنع له معينا نظيره)) وكان الربّ الإله قد جَبَل من التراب كل وحوش البريّة وطيور الفضاء وأحضرها الى آدم ليرى بأي أسماء يدعوها، فصار كلّ اسم أطلقه آدم على كلّ مخلوق حيّ اسماً له.

(١) المصدر نفسه: ص١٤.

وهكذا اطلق آدم اسماءً على كل الطيور والحيوانات والبهائم. غير انه لم يجد لنفسه معيناً نظيره، فأوقع الربّ الإله آدم في نوم عميق، ثم تناول ضلعاً من أضلاعه وسدّ مكانها باللحم، وعمل من هذه الضلع امرأة أحضرها الى آدم. فقال آدم: ((هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي. فهي تدعى امرأة لأنها من امرئ أُخذت. لهذا، فإن الرجل يترك أباه وأمّه ويلتصق بامرأته، ويصيران جسداً واحداً. وكان آدم وامرأته عريانين، ولم يعترهما الخجل) سفر التكوين: الإصحاح الثاني: ١٥-٢٥.

والآن لو أتينا الى هذا النص التوراتي وتدبرناه، فإننا سنجد أموراً تستدعي الإلتفات والإنتباه إليها، بإعتبارها تعطي تأسيساً أولياً في تشخيص دور المرأة، وما هي درجة أهميتها الوجودية بصفتها شريكة للرجل في هذه الدنيا.

يفهم من هذا النص التوراتي بأن الله تعالى قد خلق آدم في بادئ الأمر وما خلق حواء إلا بالتبع، وذلك لتخليص آدم من وحدته، ولو كان لأمر آخر لتم ذكره في هذا السياق.

وما كان هذا الأمر ليتم لو أنهم وجدوا وسيلة أخرى أو علقة إرتباط تشد المرأة للرجل، ولذلك هم اختلقوا قصة الضلع المأخوذ من آدم ليخلق منه حواء. وبالتالي ليحتّموا على المرأة التبعية والخضوع للمخلوق الرجولي الأول. ولذلك تعتبر رواية أو فكرة خلق المرأة الأولى من ذلك الضلع الآدمي ما هي إلّا توظيف إجتماعي مقصود، ومن ثم صبّه في قالب الإضطرار للقبول بالواقع الخلقي ولابدّية ذلك الوجود الانثوي الذي أراده الله تعالى أن يكون كنوع من التسلية للرجل، ودفع وحشة الغربة التي تنتاب الفرد عندما يعرض أمامه طريق طويل ولا يعلم ما ستخبئه له الأقدار.

إذن يحكم من خلال هذا التصور للمرأة على أن المرأة ما هي إلّا مخلوق بالعارض وما وجودها إلّا وجوداً ثانويـاً إحتاج إليه آدم في لحظة من لحظات وجوده لمعالجة أسلوب معيشته الفردي، الذي يحتم عليه الوحشة مما أدّى بالتالي ليتجاوز هذا الأمر، أن خلق الله له المرأة أولاً، ومن ثم نوعية الإختيار وحتمية التبعية في هذا الإختيار ثانيـاً.

ولعل مسألة خلق امرأة من أحد أضلاع آدم تلقت إسم حواء بالعبرية Hawah وهي كلمة مرتبطة اشتقاقاً بعبارة تعني (الحياة) قد جاءت نتيجة التأثر بفكرة-الكائنات العظمى الخنثى- التي الواحد منها هو في الوقت ذاته ذكر وأنثى، وعلى هذا الأساس يغدو الزواج المقدس عندها لا جدوى منه من أجل الخلق، لأن الكائن من الألوهية الأوليّة، يشكّل في ذاته زواجـاً مقدسـاً.

ففيما يتعلق بفكرة وجود الإنسان الأول لتكون هي الأساس تبدو نفسها بدءاً بالسومريين الى مصر القديمة واليونان وحتى الشعوب البدائية وهي بأن الإنسان تشكل من مادة أولية (أرض، خشب، عظم) وأنه أعطي الحياة بنفس الخالق، وفي كثير من الحالات يكون هناك اعتقاد بأن شكل الإنسان هو ذات شكل خالقه. وكما مذكور في أسطورة سومرية إن الإنسان بشكله وبحياته يشاطر بنوع ما شرط الخالق. ولا ينتمي الى المادة سوى جسده، وإن خلق المرأة من ضلع أستل من آدم يمكن تفسيره كدليل على خنثوية الرجل الأول. وإن المفاهيم المماثلة تأكد في تقاليد أخرى، بما في ذلك تلك التقاليد المنقولة من قبل بعض (الميدراشيم Midra shim)(*)، وان أسطورة الخنثى تبرز معتقداً منتشراً جداً، فكمال البشرية

(*) الميدرا شيم: إسم عبري من الفعل (درش) أي (درس)، وجمع ميدراش، ميدراشيم. وهو شروحات للأسفار المقدسة.

المتماهية في الجد الأسطوري تستوجب وحدة وهي ذات الوقت جماعية.(١)

وأحد أسباب غياب اسطورة الزواج المقدس(*)، وكما يذكرها (ميرسيا إلياد) هو الحالة الكلية والجمع بين جنس الذكر والأنثى فيقدم نظرية يقول فيها: إن غياب الزواج المقدس في ديانات الأزمنة القديمة، هو لأن الكائنات العظمى كانت خنثى، وإن الواحد منها هو في الوقت ذاته، ذكر وأنثى، سماء وأرض. على هذا الأساس يغدو الزواج المقدس، عندها لا جدوى منه من أجل الخلق، لأن الكائن من الألوهة الأولية، يشكل في ذاته زواجاً مقدساً.

وليس لنا أن نرفض هذه النظرية بصورة مسبقة نحن على علم، بأن بعضاً من الكائنات العظمى عند شعوب من الأزمنة القديمة، كان يجمع بين خصائص الذكر والأنثى. لكن ظاهرة خنوثة الآلهة هي غاية في التعقيد. إنها تعني أكثر من تعايش، أو على الأغلب، أكثر من تحالف في الوجود، بين جنسين يلتقيان في كائن إلهي واحد. إن ظاهرة الخنوثة هي صيغة وجودية تغوص في سحيق الزمان، وذات إنتشار شامل. إنها تعبّر عن الكلية وعن تطابق بين الأضداد. بالإمكان القول إن الخنوثة هي أكثر من وضع دال على التمام والإمتلاء، وعلى الكفاية الجنسية، إنها

(١) تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية: ميرسيا إلياد، ترجمة عبد الهادي عباس، نشر دار دمشق، دمشق، ط١، ١٩٨٧م: ج١، ص٢٠٦.

(*) (هي اسطورة زواج كوني مقدس بين السماء والأرض، وهي اسطورة واسعة الإنتشار للغاية، تتحدث عن الخلق الكوني، نصادفها على وجه الخصوص في أوقيانوسيا وكذلك في آسيا وفي أفريقيا وفي الأمريكيتين، وتشبه الى حد ما، اسطورة يحدثنا عنها هزيود في كتابه عن (ولادة الآلهة).

ترمز أيضـاً الى الكمال، والى حالة أولية غير مشروطة. لهذا السبب لا تقف هذه الظاهرة عند حدود الكائنات العظمى، ذلك أن العمالقة الكونيين، وكذا الأجداد الأسطوريين للبشرية هم بدورهم خنثويون.

آدم على سبيل المثال، يعتبر خنثى. يقال أنه (كان مـن الجهـة اليمنى رجلاً، ومـن الجهة اليسرى امرأة، ثم فلقه الى نصفين) إن الجد الأسطوري ليرمز الى بداية نمط جديد من الوجود، وكل بداية تتم وتنطلق من إمتلاء الكائن ومن تمامه، نضيف أيضـاً أن الآلهة العظمى للبنات، وبصورة عامة للخصوبة كانت تجمع في الوقت ذاته جنس الذكر والأنثى وكذلك نعثر على آثار ظاهرة الخنوثة عند آلهة من مثل (أتيس Attis)[1] و (أدونيس)[2] و (ديونيزوس)[3]، وعلى حد سواء، عند آلهات من مثل (سيبيل Cybele)[4]، هذا الأمر نفهمه جيداً. ذلك أن الحياة تنطلق

---

(١) أتيس: هو إله الخصب في آسيا الصغرى، وقد عبده الاغريق ايضـاً، وتتراوح عبادته بين الحزن الشديد والفرح المفرط، لهذا تمت بصلة الى عبادة أدونيس.

(٢) أدونيس: إله فينيقي، تعتبر مدينة جبيل مهد عبادته. وتقع جبيل على مصب نهر أدونيس، كان أدونيس، موضع إحترام في العالم اليوناني والروماني. ويعد من الرموز النباتية، لأنه ينتقل في الشتاء الى العالم السفلي حيث يمكث مع (برسفونة) ثم يبعث في الربيع ليكون الى جانب (أفروديت). إن أدونيس يمثل الموت والبعث المستمرين في الطبيعة. تقام الأفراح والأعياد عند بعثه، ويقام الحداد وتسود الأحزان عند موته.

(٣) ديونيزوس: عند اليونان هو إبن الإله زوس والحسناء الآدمية (سميلي)، يماثله عند الرومان باخوس هو (إله الكرمة والخمرة) يسود في اعياده المرح والمجون. ويتم فيها تضحية التيوس، ويكون فيها للكاهنات المعروفة بإسم الباخاتات أو الميناذات دور هام.

(٤) سيبيل: آلهة الشرق الأدنى العظيمة. إرتبطت عبادتها بعبادة أتيس، وتحوي شعائرها على طقوس سرية. كان لها انتشار في العالم اليوناني والروماني في القرن الثالث ق.م.

من فيض وامتلاء، ومن الكلية. وينبغي أن نضيف مباشرة أن الحياة هي تجلّ للقداسة، بالنسبة لأتباع الثقافات التراثية القديمة، وأنّ الخلق على جميع الأصعدة الكونيّة، يفترض تدخل قدرة مقدسة.

وبالتالي، فإن آلهة الحياة والخصوبة، تمثّل ينابيع قداسة وقدرة تؤكد الخنوثة دورهما. إن الخنوثة لتتجلى، بأوضح صورها عند الآلهة المذكرة والآلهة المؤنثة، ونفهم من ذلك أنها تغدو صيغة عامة تدل على الإستقلالية، وعلى القوّة والكلية. وإن القول عن إله إنه خنثى إنّما يوازي قولنا أنه الكائن المطلق، والواقع النهائي. بهذا الإعتبار ندرك لماذا لا يمكن لهذه الظاهرة عند كائن أعظم، أن تكون معبرة عن علامة خاصة ومميزة، لأن الأمر يتعلق من جهة أولى، بنموذج أول له إنتشار عالمي، ومن جهة ثانية، لأن الخنوثة تصير في نهاية الأمر، صفة من صفات الآلهة، وليس بمقدورها أن تكشف شيئاً عن البنية الداخلية للإله. إن إلهاً مذكراً بكل معنى الكلمة، يمكن أن يكون خنثى تماماً مثلما تكون الآلهة الأم. وبالتالي إذا قلنا إن الكائنات العظمى عند البدائيين هي -أو كانت- خنثى، فهذا الكلام لا يستبعد على الإطلاق، ذكورتها أو أنوثتها.»(١)

والذي يدل ويؤكد على هذا الشيء هو أن مسألة خلق المرأة من أحد أضلاع آدم لم تطرح بالنسبة للشرائع السماوية الكبرى إلّا عند اليهود في توراتهم، بعد أن عاشوا تجربة إعادة كتابة التوراة بعد ما يقارب الألف سنة من بعد موسى عليه السلام، ولذلك تأثروا بالبعد الطقوسي الذي كانت تطرحه الأساطير، وهي تمجد تلك الآلهة المتعددة، وفي رسمها لصور الكائنات العظمى وهي تتحرك ضمن

---

(١) الأساطير والأحلام والأسرار: ميرسيا إلياد، ترجمة حسيب كاسوحة، نشر وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، ط١، ٢٠٠٤م: ص٢٦٧ وما بعدها.

إطارها وبعدها اللاهوتي، فيتحرك الخلق مع أي تحرك لها، سواء كان تحركاً إيجابياً أو سلبياً.

وفي هذا الصدد يقول صموئيل كريمر في كتابه (من ألواح سومر): وتلك لعل أهم نتيجة توصلنا إليها من تحليلنا المقارن، ذلك التفسير الذي تقدمه لنا القصيدة السومرية لتلك الفكرة التوراتية التي تعد من أشد الأمور المحيّرة في قصة الفردوس الواردة في التوراة. ونعني بذلك العبارة المشهورة التي تصف خلق حوّاء (أم جميع البشر) من ضِلَع آدم فلماذا خلقت من الضلع؟ وما الذي دفع القصّاص العبراني أن يختار الضِلَع دون سائر أعضاء الجسم الأخرى لتخلق منه امرأة، التي يعني اسمها (حوّاء) بحسب تفسير التوراة له (تلك التي تحيي أي تسبب الحياة). إن سبب ذلك يكون واضحاً إذا افترضنا أن أساساً أدبياً سومرياً كالذي تقدمه لنا قصيدة (دلمون) هو الذي استندت إليه قصة الفردوس في التوراة. ففي هذه القصيدة السومرية كان أحد أعضاء الآلهة (أنكي) الذي أصابه المرض هو (الضِلَع) والكلمة السومرية للضلع هي (تي) ((Ti))، ودعيت الآلهة التي خلقت من أجل أن تشفي (ضلع) أنكي بإسم (نن – تي) أي (سيدة الضِلَع). ولكن الكلمة السومرية (تي) تعني أيضاً (أحيا) أو (جعله يحيا). وعلى هذا فيعني إسم الآلهة (نن – تي) السيدة التي تحيي، أو (سيدة الضِلَع).

وهكذا صارت (سيدة الضلع) في الأدب السومري تعني أو تطابق بطريق التورية والتلاعب بالألفاظ أيضاً (السيدة التي تحيي). فكانت هذه التورية التي تُعدّ أقدم تورية أدبية من نوعها قد نقلت وخلّدت في قصة الفردوس التوراتية، على الرغم من أنّ هذه التورية أو الجناس يفقد صلاحيته في استعمال التوراة، لأن الكلمة العبرانية للضِلَع والكلمة التي تعني (من يحيي) لا تتشابهان، أي غير

مشتركتين في اللفظ.[1]

ثم ينقل لنا عدّة اقتباسات مهمة لكي يوضح روح تلك القصيدة، نذكر منها هذا الإقتباس:

أجلست (ننخرساج) ((أنكي)) في حضنها،

ما يؤلمك يا أخي؟

إن الـ... هو الذي يؤلمني،

لقد عملت على ولادة الإله ((أبو)) من أجلك،

-يا أخي ما علتك التي تؤلمك؟

-إنّ فكي هو الذي يؤلمني،

-لقد أولدت من أجلك الإله ((نن – تلّا))

-يا أخي ما يوجعك؟،

-إن سنّي هي التي توجعني،

-لقد أولدت من أجلك الإله ((نن – سوتو))،

-يا أخي ما يؤلمك؟

---

(١) من ألواح سومر: صموئيل كريمر، ترجمة طه باقر، نشر دار الورّاق، بيروت، ط١، ٢٠١٠م: ص٢٥٧.

-إنّه فمي هو الذي يؤلمني،

-لقد أولدت من أجلك الإلهة ((نن - كاسي))،

-يا أخي ما يؤلمك؟

-إنّ... هو الذي يؤلمني،

-لقد أولدت الإلهة ((نازي)) من أجلك،

-يا أخي ما يؤلمك؟

-إنّ ذراعي هي التي تؤلمني،

-لقد أولدت من أجلك الإلهة ((آزيمو))،

-يا أخي ما يؤلمك؟

-إن ضلعي هي التي تؤلمني،

-لقد أولدت من أجلك الإلهة ((نن تي)) (أي سيدة الضلع) أو (السيدة التي تحيي)،

-يا أخي ما يؤلمك؟

-إنه الـ... هو الذي يؤلمني،

-لقد أولدت من أجلك الإله ((أين - شاج)).[1]

(١) المصدر نفسه: ص٢٦١ و ص٢٦٢.

ولذلك ظنّ اليهود بانهم سيتمكنون من الإحاطة بمسألة الخلق الأولى لإنتاج بعداً بشرياً جديداً يتمكنوا من خلاله من جعل المرأة تتنزل عن كثير من حقوقها نتيجة رضوخها التام للرجل بسبب ذلك الإقتطاع الذي حصل لآدم من أجل خلق ذلك الرفيق الأنثوي الذي سيكون لصيقاً به وتابعاً له. وليكون بالتالي مبرراً مقبولاً لرسم خطوط عامة للمرأة لا يمكن لها أن تتعداها.

خلق المرأة في الإسلام

وأمّا ما جاء في الإسلام حول مسألة خلق المرأة من ضلع آدم، فالحقيقة انّ القرآن الكريم لم يذكر آية واحدة يبين فيها بأن المرأة قد خلقت من ضلع آدم أو من فضلة طين آدم عليه السلام، بل على العكس كانت آياته بخصوص خلق الرجل والمرأة، تبين مسألة التساوي في مرتبة الخلق ولم يذكر بأن لكل فرد منهما نوعية وماهية تختلف عن الآخر، بل قال تعالى:

- (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً...) سورة النساء: ١.

- (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا...) سورة الروم: ٢١

- (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا) سورة الأعراف: ١٨٩

-(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ) سورة السجدة: ٧

فقد جاء في تفسير الميزان بخصوص مسألة الخلق من نفس واحدة:

وظاهر السياق المراد بالنفس الواحدة آدم عليه السلام، ومن زوجها زوجته، وهما أبوا هذا النسل الموجود الذي نحن منه وإليهما ننتهي جميعاً على ما هو ظاهر القرآن الكريم كما في قوله تعالى: (خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) سورة الزمر: ٦، وقوله تعالى: (يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ) سورة الأعراف: ٢٧، وقوله تعالى حكاية عن ابليس: (لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا) سورة الاسراء: ٦٢، وظاهر

الجملة أعني قوله: (وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) أنها بيان لكون زوجها من نوعها بالتماثل وأن هؤلاء المبثوثين مرجعهم جميعـاً الى فردين متماثلين متشابهين فلفظة من نشوئية والآية في مساق قوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً) سورة الروم: ٢١، وقوله تعالى: (وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً) سورة النحل: ٢٧، وقوله تعالى: (فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ) سورة الشورى: ١١، ونظيرها قوله: (وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ) سورة الذاريات: ٤٩، فما في بعض التفاسير: أن المراد بالآية كون هذه النفس مشتقة منها وخلقها من بعضها وفاقاً لما في بعض الأخبار: أن الله خلق زوجة آدم من ضِلَع من أضلاعه مما لا دليل عليه.(١)

ويقول صاحب تفسير الأمثل: ثم أنّ قوله تعالى: (وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) قد فهم منها بعض المفسرين أن حواء قد خلقت من جسم آدم وأستشهدوا لذلك بروايات وأحاديث غير معتبرة تقول: إنّ حواء خلقت من أضلاع آدم. لكن مع ملاحظة سائر الآيات القرآنية يرتفع كلّ إبهام حول تفسير هـذه الآية، ويتضح أن المراد منها هو أنّ الله سبحانه خلق زوجة آدم من جنسه (أي من جنس البشر) ففي الآية (٢١) من سورة الروم نقرأ (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا) كما نقرأ: في الآية (٧٢) من سورة النحل (وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا)، ومن الواضح أنّ معنى قوله تعالى: (خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا) هو أنه خلقهم

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٤، ص١٣٦.

من جنسكم لا أنه خلقهن من أعضاء جسمكم.(١)

وجاء في تفسير مواهب الرحمن عند تفسير قوله تعالى: (الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ) أن الآية المباركة تدل على أن الإنسان خلق من نفس واحدة، وهي المادة الأولى لجميع أفراد الناس، وهذه قضية ثابتة اتفقت عليها جميع الأديان السماوية وأثبتت بالأدلّة القطعية فيكون للإنسان أصل واحد وهو الحقيقة الإنسانية يتحد فيها جميع الأفراد وكل السلالات والأقوام والمجتمعات بلا تفاوت بينها فهم كأعضاء نفس واحدة متفقون في الفطرة، ومشتركون في القيم والسير التكاملي، وبذلك ينفي نظرية التطور التي نادى بها بعض الفلاسفة الطبيعيون، فالإنسان نسيج وحده، وهو أصل منفرد قد خلقه الله تعالى ابتداءً ومباشرة بنفسه الأقدس وبين عّز وجلّ كيفية خلقه عدّة مواضع من القرآن الكريم قال تعالى: (وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ* ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ) سورة السجدة: ٧-٨، وقال تعالى: (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ)(٢) سورة ص: ٧١. ثم يقول: ان المراد بالنفس هي تلك الحقيقة التي يمتاز بها الإنسان عن غيره، وما به يكون الإنسان إنسانًا وهو الذي تعلق به الخلق كما أن المراد بالوحدة، الوحدة الفردية الشخصية وهي آدم عليه السلام أبو البشر، لا الوحدة النوعية كما ذكرها بعض المفسرين لكونها خلاف ظواهر الآيات الكريمة والسنّة المقدسة الشارحة لها، وحينئذ لابد أن يراد بالخلق في قوله تعالى: (وَخَلَقَ

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: الفقيه الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، نشر دار احياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م: ج٣، ص٥٦.

(٢) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: آية الله العظمى السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري، مطبعة الديواني، بغداد، ط١، ١٩٨٩م: ج٧، ص٢٢٩.

مِنْهَا زَوْجَهَا) الخلق التقديري لا الفعلي من كل جهة، لفرض كون الخلق قبل خلق الروح، فيصير المعنى انكم تنتهون الى نفس واحدة كأنتهاء الصور الكثيرة الى المادة الأولية والهيولي الأولي.(١)

ثم يذكر ثلاث وجوه في تفسير قوله (وخلق منها زوجها) فينفي منهم الأول والثاني ويثبت الثالث، وهذه الوجوه هي:

الأول: أن يكون خلق الزوج بعد تمامية خلق آدم (عليه السلام) وتعلق الروح به بأن يكون قد انفصل جزء من الحي فصار إنساناً آخر.

الثاني: أن يكون الخلق بمعنى التقدير بأن يكون المعنى: خلق من نوعها وعلى طبعها زوجها ولو بعد حين، فلا يكون انفصالاً.

الثالث: انها خلقت من الطينة الزائدة التي خلق منها آدم (عليه السلام) قبل تعلق الروح بهما فيكون آدم عليه السلام وحواء موجودين مختلفين ولكنهما متحدان في أصل الطينة.

والأولان لا وجه لهما، فيتعين الأخير، ويشهد لذلك أمور: منها: تكرار كلمة الخلق في الآية المباركة (وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) وهو يدل على تفاوت الخلقتين.

ومنها: التراخي في قوله تعالى في سورة الزمر: (خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) سورة الزمر: ٦.

ومنها: الأحاديث الكثيرة المعتبرة التي تنص على أنّ حواء عليها السلام

---

(١) المصدر نفسه: ج٧، ص٢٣٠

خلقت من فاضل طينة آدم عليه السلام، وأما ما نقل من أن حواء خلقت من الضلع الأيسر من آدم عليه السلام فهو مما لا دليل له يصح الإعتماد عليه، اللهم إلّا أن يراد من ذلك أن الطينة الفاضلة من خلق آدم عليه السلام لو جعلت في بدن آدم عليه السلام لكان موضعها الضلع الأيسر."(١)

هذا ويؤيد الفخر الرازي في تفسيره الكبير ما ذهب إليه أبو مسلم الأصفهاني بأن المراد من قوله: (وخلق منها زوجها) أي من جنسها وهو كقوله تعالى: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا) سورة النحل:٧٢، وكقوله: (إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ) سورة آل عمران: ١٦٤، وقوله: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ) سورة التوبة: ١٢٨.

ثم يعترض على القاضي عندما ذهب الى القول بخلق حواء من ضلع آدم الأيسر لكي يصح عنده قوله تعالى: (خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ) إذ لو كانت حواء مخلوقة ابتداءً لكان الناس مخلوقين من نفسين، لا من نفس واحدة، فيجيبه الرازي: بأن كلمة (من) لإبتداء الغاية، فلما كان ابتداء التخليق والإيجاد وقع بآدم عليه السلام صح أن يقال: خلقكم من نفس واحدة، وأيضاً فلما ثبت أنه تعالى قادر على خلق آدم من تراب كان قادراً أيضاً على خلق حواء من التراب، وإذا كان الأمر كذلك، فأي فائدة في خلقها من ضلع من أضلاع آدم."(٢)

---

(١) المصدر نفسه: ج٧، ص٢٣١.

(٢) ينظر التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن ابن علي التميمي البكري الرازي الشافعي (٥٤٤- ٦٠٤هـ)، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه، عماد زكي البارودي، نشر المكتبة التوفيقية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م: ج٩، ص١٤٧.

مع فراس السواح ومتوازياته

وفي هذا الصدد لم يوفق الباحث فراس السواح عندما حاول أن يجعل من قصة خلق آدم والمرأة القرآنية بأن تكون متوازية مع قصة الخلق التوراتية لآدم وحواء. حيث ينقل كيف خلق الله المرأة من جسد آدم بحسب ما جاء في التوراة: (فأوقع الربّ الإله سباتاً على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً، وبنى الربّ الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها الى آدم) التكوين ٢: ٢-٢٢، (ودعا آدم اسم امرأته: حواء. لأنها أم كلّ حي) التكوين ٣: ٢٠.

ثم ينقل النصّ القرآني الذي جعله موازياً للنص التوراتي: (خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا...) سورة الزمر: ٦، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً...) سورة النساء: ١.

ثم يقول: وكما نلاحظ هنا فإن القرآن الكريم لا يتعرض لعنصر الضلع الذي أخذ من آدم، ويكتفي بالقول بأن المرأة قد خلقت من الرجل، كما إنه لا يشير اليإسم المرأة الأولى.(١)

فهو هنا من جهة يعترف بعدم ذكر القرآن الكريم لمسألة خلق المرأة من ضلع آدم، ولكنه يصرّ على أنّ المرأة، قد خلقت من الرجل، إصراراً منه على إيقاع التشابه والتوازي بين النصّ التوراتي والقرآني وبالتالي ليكون ما كان اسطورياً وقد

---

(١) القصص القرآني ومتوازياته التوراتية: فراس السواح، نشر دار التكوين، دمشق، ط٢، ٢٠١٦م: ص١٩٠.

مسته يد التحريف في التوراة هو عينه قد انتقل لكثير من الآيات القرآنية. وما ذلك إلّا أنه وقع في شبهة فهم معنى النص القرآني القائل: (خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا...) سورة الزمر: ٦. (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا...) سورة النساء: ١، معتبراً (ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) و (خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) ذلك البعض المادي الذي أقتطع من جسد آدم وتحديداً من أحد اضلاعه ليوجد تلك المرأة التي ستلازمه في هذا الوجود الدنيوي.

والحقيقة هو ما وصل الى هذا الإستنتاج إلّا من خلال عدّة عوامل قد تبنّاها في كتابه والتي منها:

أولاً:

إنّه وإن كان يخاطب العقل العربي إلّا أنّه ظل متشبثاً في بحثه باستخدام أدوات ومناهج البحث الغربي، بالرغم من إدّعائه إنّه حريص على الإضافة الى مساحة البحث على المستوى العالمي.[1] ومعروف ما للمنهج البحثي الغربي من اعتماد كلي على البعد الحسي، الذي يعجز في كثير من الأحيان عن تقديم تفسيرات لوقائع خرجت عن هذا البعد، فأصبح عاجزاً أمامها.
ثانياً:

عنده الأديان تنشأ في بيئة ثقافية معينة، هي التي تقدم له الخلفية الإعتقادية والميثولوجية، والتي يشيد بنيته الجديدة انطلاقاً من نقدها وتجاوزها، ولكن مع الإبقاء على بعض آثار تلك الخلفية القديمة. فالعلاقة عنده بين القديم والجديد

---

(١) ينظر: القصص القرآني ومتوازياته التوراتية، مصدر سابق: ص٥.

علاقة جدلية، يتبادل الإثنان فيها التأثر والتأثير وصولاً لحالة من الإستقرار يلتقي عندها الإثنان في تركيب لا يشبه أياً منهما - وهو هنا يقصد بالتركيب الدين-.

فبالرغم من قوله: (وهكذا نكون أمام نظريتين في تفسير تشابك الكتب المقدسة: الأولى تنظر الى الدين بإعتباره ظاهرة ثقافية ينطبق على بقية ظواهر الثقافة الإنسانية من نشوء وتطور وتأثر وتأثير. والثانية تنظر الى الدين بإعتباره نتاج وحي إلهي مباشر، ألقي في قلب النبي= (القرآن الكريم)، أو بإعتباره نتاج إلهام من الروح القدس خطته يد بشرية= (التوراة والإنجيل).[1]

إلّا إننا نجد من خلال طرحه في هذا الكتاب قد إنحاز بشكل واضح الى النظرية الأولى، على الرغم من قوله بأنّه لا ينطلق في دراسته من موقف مسبق من مسألة التشابه بين القصص القرآني والقصص التوراتي، وإنّما من موقف باحث يعتمد منهج علم الأديان المقارن.[2]

ثالثاً:

هو تعامل مع الأديان الثلاثة على مسافة واحدة من تأثرها بالأسطورة وتأثير العادات والأبعاد الإجتماعية عليها، وبالتالي مدخليتها في كتابة النص، متأثراً بما حدث للتوراة من تدوين على يد محررين مختلفين، وبفترات زمنية متباعدة. وقد بدأ عزرا الكاهن والكاتب اليهودي الذي بينه وبين موسى أكثر من ثمانية الكتابة أيام السبي البابلي في عهد نبو خذ نصر الذي هزم المملكة الجنوبية لليهود قرون،

(١) ينظر: المصدر السابق: ص٩ وص١٠.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ص١٠.

- مملكة يهوذا- سنة ٥٨٦ ق.م، ونقل من بقي فيها من اليهود أسرى الى بابل.(١)

ثم ان نسخة عزرا وما دوّنه لا يعلم على التحقيق مصيرها، وإنّما بعد ذلك بما يقارب قرنين من الزمن كتبت النسخة السبعينية، في زمن الحاكم اليوناني بطليموس الثاني (٢٨٢ - ٢٤٧ ق.م).

ثم أن اليهود فقدوا المقدرة على فهم اللغة العبرية المدوّنة القديمة بعد اختلاطهم بالأمم، وذلك لأن اللغة العبرية في أصلها بدون نقط ولا حركات، وهذا يسبب أخطاء كثيرة في القراءة، فاهتدوا الى وسيلة لإزالة هذا اللبس بإدخال النقط والحركات والفواصل، واستمر هذا العمل من القرن السابع الميلادي الى القرن العاشر الميلادي، فأخرجوا نسخة من التوراة باللغة العبرية عن هذا النمط تسمى (النسخة الماسورية)، انتهوا منها في القرن العاشر الميلادي، وعن هذه النسخة - أي العبرية- المعدلة نسخت جميع النسخ العبرية والمترجمة عنها.(٢)

وبالتالي عندما نأتي ونعمل دراسة مقارنة بين ما موجود بالتوراة التي تأثرت بالصور الميثولوجية التي كانت سائدة في تلك المرحلة مع ما جاء في القرآن الكريم، هنا تكون المقارنة على شكل القياس مع الفارق، بإعتبار أن التوراة، قد كتبت بمفهوم بشري وأبدت ما تريده هي عن الله، وبين نص إلهي لا دخل لليد البشرية في كتابته. وهذا الأمر في الحقيقة هو ما حاول الغرب من جرّنا إليه، وبحجة البحث الموضوعي عن الدراسات المقارنة للأديان، على أن توضع كلّها على مائدة النقد والفحص، وبالتالي إبداء الملاحظات، والمقارنة بين ما هو اسطوري

(١) الدولة العادلة يوتوبيا أم واقع: علي الزيدي، نشر دار سحر القلم، بيروت، ط١، ١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م: ص٤٩٤.

(٢) ينظر المصدر نفسه: ص١٤٣.

المنشأ، كما في بعض كتابات التوراة وبين ما هو إلهي، والفهم السطحي لكثير من آيات القرآن التي تحتاج الى تخصص في فهم مطالبها، إذ هناك فرق واضح بين أن تفهم وتحلل كلام بشري، وبين أن تدقق وتحلل وتحاول الوصول الى فهم الكلام الإلهي، فلا يمكن المقارنة والمقايسة بين الإثنين، فلكل مجاله ودائرة فهمه. ولذلك لا يمكن لنا أن نورد اشكالاً على ما هو بشري، ومن ثم نعمم نفس الإشكال عل ما هو إلهي سماوي. وبالتالي يقع هنا الخلط في إرجاع كلا الأمرين الى بشرية الأديان وتأثرها بالمحيط والبيئة الإنسانية بشكل عام. وهذا في الواقع خطأ، علينا الإلتفات إليه ومعالجة الأمور بعد التصحيح، لا ان نبقى مستمرين في التعامل النمطي معه.

كيف تأثرت بعض الروايات الإسلامية بالإسرائيليات؟

وأمّا ما ذكر عند المسلمين من الروايات حول مسألة خلق المرأة من ضلع آدم، فقد كانت متباينة، وقد تأثر قسم منها بالإسرائيليات وبالمنهج التوراتي في طرح هذه المسألة.

فقد سكن اليهود والنصارى شبه جزيرة العرب، قبل مئات السنين من ظهور الإسلام، وفي هذا الصدد يقول المؤرخ اليعقوبي: ثم دخل قوم من العرب في دين اليهود، وفارقوا هذا الدين، ودخل آخرون في النصرانية، وتزندق(*) منهم قوم، فقالوا بالثنوية(**)، فأمّا من تهود منهم، فاليمن بأسرها، كان تبّع حمل حبرين من أحبار اليهود الى اليمن، فأبطل الأوثان، وتهّود من باليمن، وتهّود قوم من الأوس والخزرج، بعد خروجهم من اليمن، لمجاورتهم يهود خيبر، وقريضة، والنضير، وتهّود قوم من بني الحارث بن كعب، وقوم من غسان، وقوم من جذام.

وأمّا من تنصّر من أحياء العرب، فقوم من قريش من بني أسد بن عبد العُزّى، منهم؛ عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزّى، وورقة بن نوفل بن أسد، ومن بني تميم بنو أمرئ القيس بن زيد مناة، ومن ربيعة بنو تغلب، ومن اليمن طيّ، ومذحج، وبهراء، وسَليح، وتنوخ، وغسّان، ولخم.(١)

(*) تزندق: اعتنق الزندقة واتصف بها. والزندقة هي الكفر باطناً مع التظاهر بالإيمان.

(**)الثنوية: مذهب (ماني) وأتباعه، يقولون بوجود مبدأين أساسين متضادين، لا ينفكان في عراك أبدي؛ مبدأ النور والخير ومبدأ الظلمة والشرّ.

(١) تاريخ اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي، تحقيق عبد الأمير مهنا، نشر شركة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م: ج١، ص٣١٠ وما بعدها.

وهذا الوجود اليهودي في شبه الجزيرة كان له بالطبع أثر ثقافي على العرب فيما قبل الإسلام، كما كان للعرب في الجاهلية رحلاتهم شرقاً وغرباً، وسجل القرآن الكريم إحداها، وهي رحلة قريش شتاءً الى اليمن، وصيفاً الى الشام، وفي كل من اليمن والشام تمركز أهل الكتاب وبخاصة اليهود منهم، ولا شك أن كانت هناك اتصالات ولقاءات مختلفة بين العرب وهؤلاء، مما يفتح أبواب التأثر والتلقي حتى وإن كان ذلك بصورة محدودة. فلما جاء الإسلام، كان من الطبيعي أن تكون هناك حوادث ومجادلات بين النبي صلى الله عليه وآله وبين أهل الكتاب من أجل عرض هذا الدين الجديد عليهم ودعوتهم إليه، وقد سجلت السور المدنية في القرآن الكريم جوانب عديدة من تلك المناظرات التي تمت بين الجانبين. وما كان يدور فيها من عرض الآراء، وتصديق أو تفنيد، وكان نتيجة ذلك أن أسلم من عامة أهل الكتاب وأحبارهم ورهبانهم، منهم من حسن إسلامه، ومنهم من دخل فيه نفاقاً بغية الهدم والتخريب.

ويتضح مما سبق وجود العوامل المهيئة للتأثير بعامة، وتسرب الإسرائيليات الى التراث الإسلامي بخاصة. فالتعايش بين المسلمين وأهل الكتاب، وإسلام العامة والخاصة من اليهود والنصارى، وظاهرة النفاق ومحاولة الدس والتخريب، وإتفاق القرآن مع الكتب السابقة في العديد من القضايا لكونها جميعاً من مصدر واحد، وحكمة القرآن وأسلوبه البليغ في تفضيل بعض الأمور وإنجاز البعض الآخر، كلّ ذلك ساعد على إمكانية أن ينقل المسلمون عن بيئتهم آنذاك بعض الملامح الثقافية السائدة والتي تمثلت في جوانب من تراث أهل الكتاب.[1]

---

(١) الإسرائيليات في تفسير الطبري: د. آمال عبد الرحمن ربيع، نشر دار الثقافة العربية، القاهرة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م: ص٢٨.

ولقد تسربت الإسرائيليات في المرحلتين -الرواية والتدوين- ففي مرحلة الرواية، كانت نفوس الصحابة تتوجه الى معرف تفاصيل بعض القصص المجمل في القرآن، والذي لم يُسأل النبي فيه، فكانوا لا يتحرجون في سؤال أهل الكتاب من جيرانهم فيما يتعلق بهذه التفاصيل التي لا تتعلق بحكم أو تشريع، وإنّما هي تشبع حالة الفضول الإنساني الى المزيد من المعرفة. وفي عصر التابعين، حيث دخل كثير من أهل الكتاب في الإسلام، مع إتساع التواجد الإسلامي وتمدده، وحيث التساهل الذي ميز هذه المرحلة، زادت رواية الإسرائيليات، نتيجة محاولات بعض المفسرين آنذاك سد الثغرات فيما لا يعرفونه من تفاصيل، وكأنهم تحرجوا من الإجمال والإختصار في الوقت الذي تتسم فيه كتب اليهود والنصارى بالتفاصيل. وبعد التابعين جاء عصر لم يفرق فيه أصحابه بين الغث والسمين، ولم يقتصروا على رواية الإسرائيليات، بل راحوا يروون الخرافات والأساطير التي لا سند لها من كتاب أو صحائف.[1]

وفي هذا الصدد ذكر ابن خلدون، وهو يتكلم عن التفسير النقلي المستند الى الآثار المنقولة عن السلف: وهي معرفة الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ومقاصد الآي. وكل ذلك لا يعرف إلّا بالنقل عن الصحابة والتابعين. وقد جمع المتقدمون في ذلك وأَعَوا، إلّا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغثّ والسمين والمقبول والمردود. والسببُ في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنّما غلبت عليهم البداوة والأمّية. فإذا تشوّقوا الى معرفة شيء مما تتشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكوّنات، وبدء الخليقة، وأسرار الوجود، فإنّما يسألون عن أهل الكتاب قبلهم ويستفيدون منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن

(١) المصدر نفسه: ص٢٩.

تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم، ولا يعرفون من ذلك إلّا ما تعرفه العامّة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حِمير الذين أخذوا بدين اليهودية. فلمّا أسلموا بقوا على ما كان عندهم، مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها، مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع الى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك. وهؤلاء مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم. ما امتلأت التفاسير من المنقولات عندهم، في أمثال هذه الأغراض، أخبار موقوفة عليهم، وليست مما يرجع الى الأحكام فيتحرى في الصحة التي يجب بها العمل. وتساهل المفسرون في مثل ذلك وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات. وأصلها كما قلناه عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية، ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك، إلّا أنّهم بعد صيتهم وعظمت أقدامهم، لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملّة، فتلقيت بالقبول من يومئذ.(١)

هذا ويمكن إعطاء سبباً آخر يفسر لنا عملية النقل من الموروث الروائي التوراتي، وهو؛ أن اليهود والنصارى يمتلكون رصيداً كبيراً في عملية نقل النصوص الروائية وتحويلها الى نصوص مقدسة تمثل البعد العقدي عندهم، بحيث شكلت بالتالي ثقلاً كبيراً في تواجدها مع التوراة الواقعية أو الإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام، حتى اختلط بالتالي الصحيح مع المحّرف، أو إضافة ما حّرف لسد فراغات ما حذف من كتابي التوراة والإنجيل.

هذا الأمر أعطى قوّة وخبرة عالية في وضع وصياغة الروايات بشكل متقن

(١) المقدّمة: العلّامة ابن خلدون، نشر دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م: ص٧٨٧.

وخصوصاً ما يناسب تلك المرحلة التي قلّ فيها التمحيص والتدقيق من جانب مسلمي الجزيرة العربية، وبالخصوص مسلمي مجتمع المدينة والمجتمع المكي. وذلك لقلة خبرتهم في هذا الجانب وعدم ممارستهم لهذا البعد الروائي أولاً، وعدم تحركهم لسؤال الرسول صلى الله عليه وآله عن تلك الأمور التفصيلية ليبينها لهم ثانياً، بإعتبار حداثة الإسلام ولا توجد الخبرة اللازمة لإستظهار مثل تلك الأخبار من الرسول صلى الله عليه وآله. بل انشغلوا بأمور أخرى ضرورية، ولعلها كانت في الغالب الأسئلة والإستفسارات حول الأحكام ومعرفة مسائل الحلال والحرام، مضافاً الى توجههم الى السؤال عن فقه الحروب والمرأة ومعرفة أحوال الجنّة والنار، والى غيرها من الأمور التي تم التركيز عليها في القرآن الكريم.[١]

ممّا أدّى الى عدم إلتفاتهم الى معرفة تلك الأمور التفصيلية عن عملية الخلق أو سيرة من سبق الرسول محمد صلى الله عليه وآله من الأنبياء والصالحين بشكل دقيق ومفصل. مما اضطرهم بالتالي الى أن يتوجهوا الى مصدر آخر من مصادر الأخبار عندهم، وهم اليهود والنصارى بإعتبارهم أهل كتاب، ومن ثم الوثوق بهم وبإخباراتهم الروائية، وخصوصاً بعد أن عرفنا بأن بعضاً من علمائهم واحبارهم قد أعلن إسلامه ظاهراً، كأمثال عبد الله بن سلام ووهب بن منبه وغيرهم، فأصبح الطريق معبداً وسالكاً لإستلام ما يقولونه برحابة صدر ودون أي تدقيق أو حذر، معتبرينها أموراً ثانوية لا تؤثر على حالة المسلم في علاقته مع ربّه ومع الآخرين. هذا بالتالي سبّب الى أن ينفتح باباً واسعاً لدخول الكثير من أشباه تلك الروايات التي استندت في جذرها على البعد الروائي التوراتي.

والآن لنأتي ونتعرف الى ذكر نماذج من تلك الروايات الإسلامية التي ذكر

فيها مسألة خلق المرأة من ضلع آدم الأيسر بشكل صريح وبلا تحرج، والتي ذكرت مسألة خلق المرأة من فضلة طينة آدم دون أن تذكر الضلع. ومن جهة أخرى وردت روايات وخصوصاً عند الشيعة استهجنت هذه المسألة، فطرحت مفهوماً آخر مغايراً لذلك المفهوم الذي تأثر بالموروث الروائي التوراتي. وسنذكر الآن نماذج مختلفة من تلك الروايات الإسلامية المتعلقة بهذا الأمر:

- عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضِلَع، وإنّ اعوج شيء في الضِلَع اعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فأستوصوا بالنساء.)[1]

- عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن المرأة خلقت من ضِلَع لَنْ تستقيم لك على طريقة فإن استمتعت بها استمتعت بها، وبها عوج وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرُها طلاقها.)[2]

- عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا شهد أمراً فليتكلم بخير أو ليسكت واستوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضِلَعٍ، وإنّ أعوج شيء في الضلع اعلاهُ إن ذهبتَ تقيمه كسرته وإن

(١) صحيح البخاري: أبي عبد الله بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، ترقيم وترتيب الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دار ألفا، مصر، ط١، ٢٠٠٨م/ ١٤٢٩هـ: باب خلق آدم عليه السلام، ح٣٣٣١، ص٤٠٢.

(٢) صحيح مسلم: أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦- ٢٦١هـ)، ترتيب الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دار ألفا، مصر، ط١، ٢٠٠٨م/ ١٤٢٩هـ: ص٤٠٠١.

تركته لم يزل اعوجَ، استوصوا بالنساء خيراً.[1]

- وجاء في كتاب الكافي: إن الله خلق آدم عليه السلام من الماء والطين فهمّة ابن آدم في الماء والطين وخلق حواء من آدم فهمّة النساء في الرجال فحصنوهنّ في البيوت.[2]

- وجاء في كتاب قصص الأنبياء للراوندي: (وإنّما سمّي آدم لأنّه أخذ من أديم الأرض. وقال: انّ الله تعالى خلق آدم من الطين وخلق حواء من آدم، فهمّة الرجال الأرض وهمّة النساء الرجال...).[3]

ويقول صاحب كتاب من لا يحضره الفقيه: والخبر الذي روى أن حواء خلقت من ضِلَع آدم الأيسر صحيح ومعناه من الطينة التي فضلت من ضلعه الأيسر فلذلك صارت أضلاع الرجل أنقص من أضلاع النساء بضلع.[4]

وفي تفسير العياشي وردت رواية عن عمرو بن أبي المقدام عن أبيه قال: سألت أبا جعفر عليه السلام من أي شيء خلق الله حواء؟ فقال: أي شيء يقول هذا الخلق؟ قلت: يقولون: إنّ الله خلقها من ضلع من أضلاع آدم، فقال: كذبوا، أكان يعجزه أن يخلقها من غير ضلعه؟ فقلت: جعلت فداك يا بن رسول الله: من أي شيء خلقها؟

---

(١) المصدر نفسه: باب استحباب نكاح البكر، حديث ٦٠، ص٤٠١.

(٢) الكافي: ثقة الإسلام ابي جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني الرازي (ت ٣٢٨/ ٣٢٩هـ)، نشر دار الكتب الإسلامية، قم، ط٣، ١٣٦٧ ش: ج٥، ص٣٣٧.

(٣) قصص الأنبياء: قطب الدين سعيد بن هبة الله الراوندي، اعداد وتنظيم السيد حسين الحسيني، نشر دار المحبين، قم، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م: ص٢٣.

(٤) من لا يحضره الفقيه: أبي جعفر الصدوق محمد بن علي الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ)، نشر دار الكتب، قم، ط٦، ١٣٨٣هـ: ج٣، ص٢٤٠، باب بدء النكاح.

فقال: أخبرني أبي عن آبائه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الله تبارك وتعالى قبض قبضة من طين فخلطها بيمينه، وكلتا يديه يمين، فخلق منها آدم، وفضلت فضلة من الطين فخلق منها حواء.»(١)

وعن زرارة بن أعين أنه قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام عن خلق حواء، وقيل له: إنّ أناساً عندنا يقولون: إنّ الله عزّ وجلّ خلق حواء من ضِلَع آدم الأيسر الأقصى. فقال: سبحان الله وتعالى عن ذلك علواً كبيرا، أيقول من يقول هذا إنّ الله تبارك وتعالى لم يكن له من القدرة ما يخلق لآدم زوجة من غير ضلعه!! ويجعل للمتكلم من أهل التشنيع سبيلاً الى الكلام أن يقول: إنّ آدم كان ينكح بعضه بعضاً، إذا كانت من ضِلَعه، ما لهؤلاء حَكَمَ الله بيننا وبينهم؟! ثم قال عليه السلام: إنّ الله تبارك وتعالى لما خلق آدم عليه السلام من طين وأمر الملائكة فسجدوا له ألقى عليه السبات ثم ابتدع له حواء.»(٢)

ومن خلال عرض هذه الروايات يمكن أن نقسم مسألة خلق حواء الى ثلاثة أقسام وهي:

الأول: إنّ حواء قد خلقت من ضلع آدم الأيسر.

الثاني: إنّ الله تعالى قد ابتدع حواء لآدم، بعد أن خلق آدم عليه السلام من الطين.

---

(١) تفسير العياشي: المحدث الجليل أبي النصر محمد بن مسعود ابن عيّاش السَلَمي السمرقندي المعروف بالعياشي، تصحيح وتعليق السيد هاشم الرسولي المحلاتي، نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٢، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م: ج١، ص٢٤٢.

(٢) من لا يحضره الفقيه، مصدر سابق: ج٣، ص٢٣٩ باب بدء النكاح.

الثالث: إنّ حواء قد خلقت من الطينة التي فضلت من آدم بعد تمامية خلقه.

والآن لو جئنا الى روايات القسم الأول للنظر فيها، ولنرى مدى قبولها أو رفضها، ضمن الضوابط التي ينبع منها العدل الإلهي والمساواة في الخلقة، فهنا يمكن أن يعترض عليها ضمن عدّة أمور منها:

أولاً: من ناحية المفسرين، ففي هذا السياق يقول صاحب الميزان في تفسير آية (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا..) وهذا المعنى- أي خلق حواء من ضلع آدم- وإن لم يستلزم في نفسه محالاً، إلّا أن الآيات القرآنية خالية عن الدلالة عليها.[1]

ويقول صاحب تفسير الفرقان: فـ(خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ) تنهي خلق الناس كلهم الى هذه النفس الواحدة، ولكن (وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) تضيف إليها زوجها المخلوق منها في انتسال الناس منها، والواو -بطبيعة الحال- هنا حالية تعني (خَلَقَكُم...)

والحال إنه خلق منها زوجها ليخلقكم كلكم من ذكر وأنثى، كما في آية أخرى: (إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ) سورة الحجرات: ١٣، فالذكر هو تلك النفس الواحدة وزوجها هي التي خلقت منها، فخلقنا من نفس واحدة -وخلق منها زوجها- يختلف عن خلق زوجها منها، فإنها دون توالد متعود، ونحن خلقنا منها بتوالد بين الذكر وأنثى، فلأن زوجها خلق منها يصح أننا خلقنا منها، أي منها وزوجها المخلوق منها، اللهم إلّا في عيسى المخلوق من أم دون أب ولكن أمّه مخلوقة كسائر الناس من ذكر وأنثى و (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٤، ص١٤٧.

تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) سورة آل عمران: ٥٩.

وقد تكون الواو بيانية تبين كيف (خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ) ولابدّ في خلق النسل الإنساني من نفسين، فالجواب (وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) التي لابدّ منها في ذلك الخلق المتنسل، ثم (وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً)، ولكنها -إذاً- بيان الحال أو حال البيان.[1]

وجاء في تفسير مواهب الرحمن عند قوله تعالى: (وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا)، الزوج اسم لكل واحد من القرينين سواء كانا من الحيوانات المتزاوجة، أو ما يقترن بآخر مماثلاً أو مضاداً. والمراد بها هنا. أي: وخلق من تلك النفس الواحدة زوجها، وهي منشأها فتفيد من نوع تلك النفس الواحدة وجنسها، وان الزوجين متماثلان في أصل الإنسانية وقيمها ومتحدان في العبودية لله تعالى وجميع الأحكام، إلّا ما يختص طبع كل جنس ببعض الحقوق والواجبات.

ونظير هذه الآية الشريفة قوله تعالى: (خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) سورة الزمر: ٦، وعلى هذا لا فرق بين أن تكون (من) نشوية أو تبعيضية، فإن كل واحدة منهما ترجع الى الأخرى.[2]

هذا وقد ذكرنا في الأوراق السابقة آراء لمفسرين كبار استبعدوا خلق حواء من ضلع آدم، كالفخر الرازي والشيخ ناصر مكارم الشيرازي والسيد الطباطبائي والسيد عبد الأعلى السبزواري قدست أسرارهم فراجع ولا حاجة للتكرار.

(١) الفرقان في تفسير القرآن: د. محمد الصادقي، نشر دار الأميرة، بيروت، ط١، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م: ج٦، ص١١ و١٢.

(٢) مواهب الرحمن في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٧، ص٢٣٠.

هذا وقد تكلف كثيراً الآلوسي في تفسيره روح المعاني من أجل أن يثبت بأن حواء خلقت من أحد أضلاع آدم، ومن ضمن ما أشكل عليه هو قول القائل: (بأنه أية فائدة في خلقها -أي حواء- من ضلع والله تعالى قادر على أن يخلقها من تراب؟) فقال: إن فائدة ذلك سوى الحكمة التي خفيت عن إظهار أنه سبحانه قادر على أن يخلق حيّاً من حيّ، لا على سبيل التوالد -كما أنه قادر على أن يخلق حيّاً من جماد كذلك -ولو كانت القدرة على الخلق من التراب مانعة عن الخلق من غيره لعدم الفائدة لخلق الجميع من التراب بلا واسطة لأنه سبحانه -كما أنه قادر على خلق آدم من تراب- هو قادر على خلق سائر أفراد الإنسانية منه أيضاً، فما هو جوابكم عن خلق الناس بعضهم من بعض مع القدرة على خلقهم كخلق آدم عليه السلام، فهو جوابنا عن خلق حواء من آدم مع القدرة على خلقها من تراب...).(١)

والحقيقة أن الأمر لا يتعلق بالقدرة الإلهية، فموضوع أن الله تعالى قادر على كلّ شيء هذا أمر مفروغ منه بين المسلمين، ولا يحتاج الى إثباته لهذا التكلف والعناء، فمعلوم (أَنَّ اللهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) سورة البقرة: ١٠٦ و (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) سورة الأنبياء: ٢٣، وإنّما عندما يطرح مثل هذا الأمر الرافض لمسألة خلق المرأة من الضِلَع يطرح لا على نحو عدم قدرة الله على فعله، وإنما من أجل إثبات شيئاً آخر يعتمد على مفردات أساسية تبين عدالة الله ولطفه، وإنّ

(١) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: العلّامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي (ت ١٢٧٠هـ)، تعليق محمد أحمد الأمد وعمر عبد السلام، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م: ج٤، ص٥٣٣.

الله قد أوجد في هذا الكون قوانين سوف يسير عليها هذا الوجود، وستبقى كل الموجودات توجد وتنمو وتتحرك ضمن أسباب وقوانين لا يمكن تخطيها.

ثم إنّ الذي حرّك قسماً من العلماء سواء أهل التفسير أو أهل الحديث الى رفض مثل هذه التصورات والأحاديث، هو من أجل إثبات مسألة تساوي الرجل والمرأة في الخلقة، وأنّ الله تعالى قد وعد الإثنين بالثواب أو العقاب، وأملى على الطرفين الإتيان بتكاليف العبادة والطاعة، ولذلك قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) سورة الحجرات: ١٣، ثم إنّ الإصرار على مسألة خلق المرأة من ضلع أعوج فهذا دليل على أن الذين يذهبون الى هذا القول يصّرون على عدم أحقية المرأة بأن تدّعي التكامل أو أن تسعى الى التكامل، بإعتبارها بالأصل هي معوّجة، ولذلك لن تقدر على الإستقامة، فيجب أن تكون دائماً تحت رحمة الرجل.

ليس هذا فقط فهم يذهبون برواياتهم على أنها لم تُخلق من أضلاع آدم التي في يمينه، وإنما يعلقون الأمر على أنها خلقت من ضلعه الأيسر، بإعتبار شرفية جهة اليمين ولو من الناحية المعنوية، وكما يتوضح ذلك من خلال الآيات القرآنية والتي منها:

- (يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا) سورة الإسراء: ٧١.
- (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ) سورة الحاقة: ١٩
- (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ) سورة الحاقة: ٢٥

- (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ...) سورة الواقعة: ٢٧، ٢٨

- (وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ...) سورة الواقعة: ٤١، ٤٢

ثم إننا لا يمكن أن نغفل بعض المرجحات التي تظهر وتعلو على ما ذهب إليه أصحاب القول بخلق المرأة من ضلع آدم الأيسر الأعوج ومنها:

١. وجود الروايات التي تعارض مسألة خلق المرأة من ضلع آدم الأيسر، والتي ذكرنا بعضاً منها في الأوراق السابقة.

٢. عدم وجود النص القرآني الذي يصرّح بمسألة خلق المرأة من أحد أضلاع آدم. وهذا دليل جداً معتبر على عدم صلاحية تلك الروايات.

٣. ان الروايات التي تقول بأن حواء خلقت من ضلع آدم، معنى ذلك أنّها تؤكد على أنها خلقت من البدن –بدن آدم- بينما القرآن يقول أنّها خلقت من النفس، ولا توجد آية واحدة تقول أنها قد خلقت من البدن. وكما هو واضح من الآيات التالية وغيرها:

- (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) سورة النساء: ١

- (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) سورة الاعراف: ١٨٩

- (خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) سورة الزمر: ٦

- (جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا...) سورة الشورى: ١١

وعلى هذا يكون للمرأة شرفية، لأنها خلقت من النفس، وليس من المادة.

أما إذا أتينا للروايات التي في القسم الثاني، والتي جاء فيها بأن الله تعالى قد ابتدع حواء لآدم بعد أن خلق آدم عليه السلام من الطين، كما ينقلها الصدوق في كتاب من لا يحضره الفقيه، فمعنى ذلك: إنّ الله تعالى بعد أن خلق آدم من الطين إبتدع له خلقاً، فجعل هذا الخلق امرأة لآدم ليأنس بها، وليكونا الأصل الذي يوجد بسببه كل رجل وامرأة فيما بعد.

ولو جئنا وأردنا أن نحدد معنى كلمة (ابتدع) فنجدها في المعاجم اللغوية:

البَدْعُ: إحداث شيء لم يكن له من قبل خلق ولا ذكر ولا معرفة. والله بديع السماوات والأرض ابتدعها، ولم يكونا قبل ذلك شيئاً يتوهمهما متوهم، وبدع الخلق.

وابتدعت: جئت بأمر مختلف لم يعرف ذلك.(١)

وقال صاحب كتاب التحقيق في كلمات القرآن الكريم في مادة بدع:

إنّ الأصل الواحد في هذه المادة: هو إيجاد شيء وإنشاؤه على خصوصية لم يسبقه فيها غيره. والفرق بين الخلق والإبداء والإبداع: أنّ الخلق هو إيجاد شيء بالكيفية المخصوصة من دون توجّه الى خصوصية أخرى، والإبداء هو الإنشاء والإيجاد ابتداءً وفي أول مرة. والإبداع هو الإيجاد بكيفية مخصوصة لم يسبقها

---

(١) كتاب العين: ابي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠ – ١٧٥هـ) نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م: ص٦٠.

شيء آخر.(١)

وهنا فإن المقصود بالإبداع بهذه الرواية وغيرها، بأن الله تعالى قد إبتدع حواء من نفس الطينة التي خلق منها آدم عليه السلام، وليس من شيء آخر مباين له، فيكون المعنى المفهوم بأن الله تعالى قد أوجد خلقاً من طينة آدم، لم يكن قد خلق مثله من قبل، فهذه المرأة التي ابتدعت لها خصوصية غير مسبوقة بمثلها، وهنا ستكون مخلوقة مبتدعة، وإن كانت من نفس الطينة التي خلق منها آدم عليه السلام، لكنها قد حملت بعداً أنثوياً يختلف عن آدم الذكر، وهو غير مسبوق بمثل تلك الهيئة. وعلى هذا يصدق قول الفراهيدي على إبتداع المرأة، حينما قال عن البدع: هو إحداث شيء لم يكن له قبل خلق ولا ذكر ولا معرفة. ففعلاً إنّ حواء لم تكن قد خلقت قبل آدم، وكذلك لا يوجد لها ذكر بإعتبار عدم وجودها الخلقي الدنيوي، وكذلك لم يكن قد سبق لأحدٍ معرفة بأنها ستوجد على هذه الأرض، بإعتبار أن الله تعالى قد أخبر الملائكة، على أنه سيوجد آدماً يستخلفه في الأرض (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) ولم يخبر الملائكة عن وجود انثوي سيكون معه ليشاركه في تلك المهمة، وهذه التفاته سنقف عندها في البحوث القادمة إن شاء الله تعالى.

وعلى هذا الأساس، فلا يوجد تعارض في البين، فإن الطينة هي واحدة والنفس واحدة، ولكن كان أمر الإبتداع مرهوناً بآدم وحواء، إذ كلّ منهما قد ابتدع إبتداعاً، فكان آدم الذكر، وكانت حواء الأنثى، ليشكل هذا الإبداع خطاً حياتياً تستمر من خلاله البشرية ما شاء الله أن تستمر.

---

(١) التحقيق في كلمات القرآن الكريم: المحقق المفسر العلّامة المصطفوي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٩م: ج١، ص٢٥٠.

والآن بعد أن وضحت الفكرة والمعنى من هذه الرواية، فسيكون قبولها وارداً، ولا يتعارض مع ما نريد إثباته.

أمّا إذا جئنا الى الروايات من القسم الثالث التي تخبرنا على أن حواء قد خلقت من الطينة التي فضلت من آدم بعد خلقه، فالحقيقة إن التعبير بأنها خلقت من فضلة الطين ليس للإستهانة بهذه الطينة، وبالتالي يرجع الأمر للتقليل من قيمة المرأة وأهميتها، فالله جل جلاله حكيم وقادر ولطيف، فلا توجد عنده زيادة وبقية بعد تمامية عمله، لتكون فضلة، ثم يرتأي ان يصنع منها امرأة. فهذا محال ولا يمكن ان يتعلق هذا الأمر بالذات المقدسة، وإنما يمكن لنا أن نفهم من هذا التعبير ببقية تلك الفضلة عدة أمور منها:

أولاً: الترتيب الزمني والسبق الوجودي لآدم عليه السلام، حيث وجدت الطينة فبدأ أولاً بخلق آدم من جزء من تلك الطينة، وثم خلقت حواء من الجزء الآخر المتبقي.

ثانيا: إنّ ذكر مسألة خلق المرأة من نفس طينة آدم، لكي يغلق الباب وتسكت الأصوات التي تبحث عن وجود طينة أخرى للنساء، تختلف عن طينة الرجال، والتي يتم على ضوئها القياس والمفاضلة، ومن ثم الوصول الى نتائج تنتزع إنتزاعاً من هذا الفرق. ولتثبيت هذه الحقيقة نزلت عدّة آيات بهذا الشأن منها قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) سورة الأعراف: ١٨٩.

خلق المرأة عند النصارى

أما مسألة كيفية خلق المرأة عند النصارى، فلم يتعرض لها في الأناجيل الأربعة المعروفة ولكن طرحت في أعمال الرسل، وتحديداً في رسائل بولس، فقد جاء في رسالته الى مؤمني كورنثوس: (فإن الرجل لم يؤخذ من المرأة، بل المرأة أخذت من الرجل، والرجل لم يوجد لأجل المرأة، بل المرأة وجدت لأجل الرجل. لذا يجب على المرأة أن تضع على رأسها علامة الخضوع) الإصحاح ١١ : ٨-١٠ وكذلك (غير أنه في الربّ ليست المرأة دون الرجل، ولا الرجل من دون المرأة. فكما المرأة أخذت من الرجل، فإن الرجل يكتمل بالمرأة).[١]

والحقيقة إنّ الإيمان اليهودي الكامل بمعصية المرأة كان السبب الأساسي في احتقارها، حتى وصفها آباء الكنيسة بأنها (إبريق مليء بالقاذورات وفمها مليء بالدم، ومع ذلك يجري وراءها الجميع)، وإنها مصدر الغواية والإغراء.[٢]

بينما تطرح التوراة مسألة عقوبة حواء بعد أن قدمت التفاحة لآدم وأغرته بأكلها، والإشارة الى حادثة الولادة بإعتبارها عقاباً للمرأة، فهي آخر إشارة قد تفادى الإنجيل ذكرها كلية، فيما اعتبرها القرآن نعمة الخلق ذاته ومدح المرأة من أجلها.[٣]

---

(١) الرسالة الأولى الى مؤمني كورنثوس، الإصحاح ١١: ١١-١٢.

(٢) المرأة في اليهودية والمسيحية والإسلام: زكي علي السيد أبو غضة، نشر دار الوفاء، مصر، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م: ص٢٤.

(٣) ينظر الحديث عن المرأة والديانات: الصادق النيهوم، نشر دار الإنشاء العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م: ص٨.

عموماً تلك كانت الأرض التي عملت عليها المسيحية عند ظهورها: التراث الروماني الذي هو استمرار للتراث اليوناني، والذي يحمل نفس الكراهية للمرأة من ناحية، والتراث اليهودي الذي يضفي على هذه النظرة صبغة دينية من ناحية أخرى. وهما نظرتان تعبران في الواقع عن منفعة الرجل، ومصلحته وتطلعه للسيطرة على المرأة –ولاسيما زوجته- حتى يضمن سلالة نقية ليس فيها دماء غريبة ترث ما يملك من ثروة.

ومن العجيب حقاً أن يطغى هذا التراث الروماني –اليهودي على الفكر المسيحي ويسيطر حتى تختفي مواقف السيد المسيح تماماً، وتعود النظرة الدونية للمرأة للظهور من جديد، إبتداء من أقوال القديس بولس، حتى يقوم فلاسفة المسيحية بتنظيرها والبرهنة على صحتها، مستخدمين العقل ومستعينين بآيات الكتاب المقدس، ولاسيّما العهد القديم، دون أن يذكر أحد مواقف السيد المسيح، وكلماته، ونظرته الجديدة المنصفة للمرأة.(١)

وهنا تقول داعية حقوق المرأة في أمريكا في أواخر القرن التاسع عشر: إنّ النظرة الدونية للمرأة لدى اليهود ثم المسيحيين هي بسبب التعاليم التي أتت بها الكتب المقدسة كالتوراة والإنجيل، وأنّ الإنجيل وضع المرأة في مرتبة دون الرجل لقرون طويلة وكان عليها الحمل والولادة والإذعان لزوجها.(٢)

أما المصلح مارتن لوثر كنج فيقول: إنّ آدم خلق سيداً للكائنات، ولكن حواء

---

(١) الفيلسوف المسيحي والمرأة: د. إمام عبد الفتاح إمام، نشر مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م: ص٣٨.

(٢) حقوق المرأة في الديانات والمعتقدات: اعمال مؤتمر الأديان السنوي لسنة ٢٠١١م بإشراف د. شمران العجلي، نشر دار الحكمة بغداد، ط١، ٢٠١٣:ص١٣٨.

أفسدت هذه الميزة، ولذا عليها البقاء في البيت للحمل والقيام بأعباء البيت.

أما القس جيري فالويل فيقول: إننا ضد قانون الحقوق المتساوية للمرأة مع الرجل، لأن المسيح يقود الرجل، والرجل يقود المرأة، والمطالبات بهذه المساواة مريضات نفسياً

وقد تبنى القديس بولس جهاراً مبدأ الهيمنة الذكورية: (وأريد أن تعلموا أن رأس كل رجل هو المسيح ورأس المرأة هو الرجل) كما جاء في رسالته الى أهل كورنش (منطقة في فرنسا)، كما تتسلط فكرة حواء المغوية على آباء الكنيسة مثل ترتو ليانس TERTULIEN الذي عبر عن رأيه بصراحة قاسية تجاه اللواتي يحملن -في نظره- خاتم الخطيئة الأدبية: ما زال حكم الله على هذا الجنس حياً حتى يومنا هذا، فليبق حيا. ينبغي أن تتبقى هذه الجريمة عاراً أبدياً. يا امرأة! أنتِ الباب الذي دخل منه ابليس الى الدنيا. أنتِ أول من اكتشف الشجرة، وخالفت الشريعة الإلهية. أنتِ التي أغويت ذلك الذي لم يؤت ابليس الشجاعة لمهاجمته وجهاً لوجه. لقد حطمتِ الرجل بلا جهد ولا تعب.[1]

وعلى الرغم من أنّه لم يرد ذكر تفاصيل واضحة للتفاوت الطبيعي بين المرأة والرجل في كتب ورسائل العهد الجديد، غير أنّ الإعتقاد بالتفاوت الطبيعي، والإختلاف في الأحوال والأوضاع، يعد موضوعاً بديهياً بين القادة والزعماء المسيحيين، في القرون الأولى والقرون الوسطى، وما بعد عصر النهضة، وعلى سبيل المثال، شاع بين علماء المسيحية في القرون الأولى أنّ المرأة تمتلك استعداداً خاصاً للتحدث وقابلية كبيرة للتكلم، فذكروا أنّه نزلت من السماء الى

(١) المصدر نفسه: ص١٣٩.

الأرض عشرة مقادير من الكلام، فكان نصيب المرأة منها تسعة مقادير، والرجل مقداراً واحداً... كما أن أوغسطين Augustine الفيلسوف المسيحي البارز في القرن الخامس، ومن أكبر زعماء الكنيسة في القرون الوسطى، اعتبر المرأة ضعيفة البنية، وأكثر عرضة للخداع من الرجل."(١)

ولقد أقرّ الكتّاب وعلماء اللاهوت المسيحيون طوال قرون من عمر المسيحية وفي عصورها المختلفة بالأهمية الكبيرة لرواية خلق حواء في العهد القديم. وعندما تلفَّق رواية حواء وتركب مع رواية الهبوط، فإنهم يقدمون شواهد -لا يمكن بلا شك انكارها- على أن الشأن العقلي والأخلاقي للنساء أقل فطرياً من مثيله عند الرجال، وقد بررت المسيحية على طول التاريخ ما لديها من تقاليد معادية للنساء بالإستناد الى روايتي خلق حواء والهبوط الى حد كبير، خاصة إذا لاحظنا أن هاتين الروايتين لم يكن ينظر الى أيّ منهما على أنها اسطورية الى وقت قريب، وإنما كانتا تعدّان من الوقائع التاريخية التي لا مراء فيها ولا تقبل الشك. يقول ريك Reik ،وهو واحد من الباحثين المشهورين ومن المحققين الجادين أيضاً في أمور الكتاب المقدس: (إنّ قصة الكتاب المقدس حول ولادة حواء أكبر خدعة واحتيال في التاريخ).

وإن الميول والإتجاهات المعادية للمرأة في الثقافة الغربية لها جذور في معاداة اليونانيين العميقة للنساء، وقد إستمر هذا العداء بوضوح أيضاً في العهد القديم ثم في العهد الجديد. وساعد إستمراره في العهد الجديد على تقوية هذه الميول والإتجاهات المعادية للنساء. ولسنا في حاجة الى القول إن للعهد الجديد أهمية

---

(١) ينظر: المرأة هويتها الجنسية وأدوارها الإجتماعية: محمد رضا زيبائي، ترجمة رعد حجاج، نشر مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٣: ص٤٣.

أكبر من العهد القديم عند المسيحيين. ومن المؤكد أن أكثر النصوص التي تحتوي على عداء للنساء في العهد الجديد نراها في رسائل بولس. لقد كان القديس بولس يهتم أشد الإهتمام بالنظام والإنضباط على مستوى المجتمع وعلى مستوى إجتماعات المسيحيين في الصدر الأول للمسيحية أيضاً، وكان من المهم بالنسبة إليه ألّا يكون للنساء في الاجتماعات المسيحية مكانة مهيمنة أو موقع متميز.[١]

عموماً لقد كانت الديانة المسيحية مشابهة في العديد من قيمها ونظراتها التي سادت حول المرأة في الديانة اليهودية، إذ تم ممارسة العنف ضدها بالرغم من أنّ المسيح رفض هذا التعامل القسري، وكمثال على هذا رفضه رجم الزانية، بل العفو عنها، لقناعته أن جميع الناس قد يخطئون، أمّا من جاء بعده فقد أعادها الى تعامل اليهود وقسوتهم.[٢]

وهنا نلاحظ كيفية تأثر رجال الدين المسيحيين بالرؤية اليهودية عن المرأة، معتبرين التفاوت بين المرأة والرجل في الخصائص التكوينية، وفي الأوضاع والأدوار، وفي التعليم والأحكام من المسلمات، بل قد يذهبون الى أبعد من ذلك، فينقلون التفاوت الى المكانة الإنسانية والأخلاقية بين الجنسين.[٣]

وبذلك تناسى رجال الدين النصارى ما جاء به عيسى، ونظرته الجديدة المنصفة للمرأة، وكيفية تعامله معها. وهذا ما بينته الأناجيل، وهي تتناول ذكر ما قاله عيسى عنها وطريقة التصرف معها بمواقف مختلفة، تدل دلالة واضحة على

---

(١) المرأة خلقها ودورها الإجتماعي: مجموعة مؤلفين، ترجمة أحمد حسين بكر، نشر مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠١٦م: ص٨١.

(٢) حقوق المرأة في الديانات والمعتقدات، مصدر سابق: ص١٥٦.

(٣) ينظر: المرأة هويتها الجنسية وأدوارها الإجتماعية، مصدر سابق: ص٤١.

اعطاء بعد قيمي وإنساني عال للمرأة، لا يمكن أن يشم منه ذلك التفاوت العقلي أو وجود إشارة للدونية من ناحية التعامل معها.

فبينما كانت التوراة تهين المرأة وتحتقرها وتحاول استغلال جسدها وجمالها لأغراضهم الدنيئة، حتى أن الرجل منهم يقول في صلاته: (أحمدك يا رب أنك لم تخلقني امرأة).(*) ويقول صاحب سفر الجامعة: (فوجدت أن المرأة أمرُّ من الموت لأن قلبها مصيدة وشبكة ويداها قيود. الصالح أمام الله ينجو منها، أمّا الخاطئ فيعلق بها) الإصحاح السابع: ٢٦.

والشيء الملفت للنظر ان الأمور التي طرحت بها نظرة الدونية للمرأة وجدت في أعمال الرسل، وبرسائلهم التي بعثوا بها الى الأماكن المختلفة ولم يرد شيء يحط من المرأة في أناجيل (متي و مرقس و لوقا و يوحنا).

ففي إنجيل متي نرى كيف يعظم عيسى عليه السلام إيمان تلك المرأة الكنعانية التي رآها في نواحي صور وصيدا، عندما قال لها: (ما أعظم إيمانك يا امرأة! فليكن لكِ ماتريدين) الإصحاح ١٥: ٢٨، فشفيت ابنتها من تلك الساعة. ثم بين التساوي بين الرجل والمرأة، وكيف انهما يعتبران كجسد واحد، وذلك عندما سأله بعض الفريسيين عن طلاق الرجل للمرأة (ودنا إليه بعض الفريسيين وسألوه ليحرجوه: أيحل للرجل أن يطلق امرأته لأي سبب كان؟ فأجابهم: أما قرأتم أن الخالق من البدء جعلهما ذكراً وانثى وقال: لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويتحد بامرأته، فيصير الإثنان جسداً واحداً؟ فلا يكونان اثنين، جسد واحد. وما جمعه الله لا يفرقه الإنسان) انجيل متي: الإصحاح ١٩: ٣-٦.

(*) وهي عبارة تروى في التراث الفلسفي اليوناني، ويقال إنها وردت على لسان سقراط الذي كان يحمد الله كثيراً لأنه خلقه (أثينياً وليس بربرياً، حراً وليس عبداً، رجلاً وليس امرأة).

وكذلك لنرى تدخل عيسى عليه السلام، عندما دافع عن المرأة وإيمانها، ضد ملاحظة تلاميذه القاسية، التي لا تنم عن وعي وفهم لتحركات عيسى، حيث يخبرنا إنجيل متي: (وبينما يسوع في بيت عينا عند سمعان الأبرص، دنت منه امرأة تحمل قارورة طيب غالي الثمن، فسكبته على رأسه وهو يتناول الطعام. فلما رأى التلاميذ ما عملت، استاؤوا، وقالوا: ما هذا الإسراف؟ كان يمكن أن يباع غالياً ويوزع ثمنه على الفقراء! فعرف يسوع وقال لهم: لماذا تزعجون هذه المرأة؟ فهي عملت لي عملاً صالحاً. فالفقراء عندكم في كلّ حين، وأمّا أنا فلا أكون في كل حين عندكم. وإذا كانت سكبت هذا الطيب على جسدي، فلتهيئه للدفن. الحق أقول لكم: أينما تعلن هذه البشارة في العالم كلّه، يحدث أيضاً بعملها هذا إحياءً لذكرها) الإصحاح ٢٦: ٦-١٣.

كما أن عيسى عليه السلام لم يظهر بعد صلبه، كما تقول الأناجيل، إلّا لامرأتين هما مريم المجدلية ومريم الأخرى، عندما جاءتا لزيارة قبره فجر يوم الأحد، وهاتان المرأتان طلب منهما عيسى عليه السلام إخبار حواريه بأنه قد قام من بين الأموات، وسيسبقكم الى الجليل وهناك يرونه، وحينما رأوه شكّوا به ولم يصدّقوه. كما يخبرنا متي في إنجيله: (ولما مضى السبت وطلع فجر الأحد، جاءت مريم المجدلية ومريم الأخرى لزيارة القبر، وفجأة وقع زلزال عظيم، حين نزل ملاك الربّ من السماء ودحرج الحجر عن باب القبر وجلس عليه. وكان منظره كالبرق وثوبه أبيض كالثلج. فأرتعب الحرس لما رأوه وصاروا مثل الأموات.

فقال الملاك للمرأتين: لا تخافا أنا أعرف انكما تطلبان يسوع المصلوب، ما هو هنا، لأنّه قام. كما قال: تقدما وانظرا المكان الذي كان موضوعاً فيه. واذهبا في الحال الى تلاميذه وقولا لهم: قام من بين الأموات، وها هو يسبقكم الى الجليل،

وهناك ترونه. ها أنا قلت لكما.

فتركت المرأتان القبر مسرعتين وهما في خوف وفرح عظيمين، وذهبتا تحملان الخبر الى التلاميذ، فلاقاهما يسوع وقال: السلام عليكما فتقدمتا وامسكتا بقدميه وسجدتا له. فقال لهما يسوع: لا تخافا! إذهبا وقولا لإخوتي أن يمضوا الى الجليل، فهناك يرونني) متي الإصحاح ٢٨: ١-١٠.

(أما التلاميذ الأحد عشر، فذهبوا الى الجليل، الى الجبل، مثلما أمرهم يسوع، فلما رأوه سجدوا له، ولكن بعضهم شكّوا..) متي: الإصحاح ٢٨: ١٦-١٨.

وهنا لنا وقفة تظهر فيها دلالات كثيرة نذكر منها:

أولاً:

إهتمام كبير من قبل عيسى عليه السلام بالمرأة وإختيار بعض النساء لتكون من ضمن قائمة المخلصات اللواتي يقضن له العديد من الحاجات التي تفيد في عملية هداية الآخرين.

ثانياً:

استخدام الرأفة والرحمة، مقابل أخطاء المرأة وعدم استخدام القسوة معها بإعتبار أن الكل معرض للخطأ رجلاً أو امرأة، ولم يحمل الخطيئة على المرأة فقط، كما فعل مع تلك المرأة الزانية، وكيف إلتفت الى الحضور قائلاً: من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بأول حجر، ولكنهم خرجوا الواحد بعد الآخر، وبقي عيسى عليه السلام وحده، وقال لها اذهبي ولا تعودي للخطيئة مرة أخرى، فاتحاً

لها باب التوبة والإنابة على مصراعيه.

ثالثـاً:

إن الأناجيل قد بينت لنا أمراً مهمـاً، والظاهر أن الذين كتبوا الأناجيل لم يلتفتوا إليه إطلاقـاً، وهذا الأمر في الواقع يعطي أهمية كبيرة جداً لدور المرأة في الإحاطة بالنبّوة، ومن ثم الحفاظ عليها ضمن الضوابط والطبائع الإجتماعية في تلك المرحلة التي وجد فيها عيسى عليه السلام. وكان يفترض على رجال الدين النصارى أن ينتبهوا لهذا الأمر، وأن يعطوا المكانة اللائقة للمرأة، وبحسب معطيات الأناجيل التي بيّنا قسمـاً منها، فضلاً عمّا سنذكره الآن، ولكنهم واقعـاً، لم يعبئوا لهذا الشيء، وارتكزت في خلجات أنفسهم، ما طرحته وجاءت به التوراة، وما دار مدار المصاديق الإجتماعية التي كانت سائدة عندهم، بحيث فضلها رجال الدين النصارى على ما دوّنته أناجيلهم.

عمومـاً فهذا الأمر الذي وددت أن أبيّنه، هو أننا لو دققنا النظر في الأناجيل، فإننا سنرى بأن هناك بدايات ونهايات لعيسى عليه السلام هذه البدايات وهذه النهايات كانت مرتبطة إرتباطـاً وثيقـاً بالمرأة دون الرجل:

البدايات المرتبطة بالمرأة مع السيد المسيح

فالبدايات: كان إرتباط سبب وجود عيسى عليه السلام متعلقاً بوجود مريم عليها السلام، وهذا ما بينه القرآن الكريم أيضاً، وهي التي ولدته دون أي تدخل للرجل في ذلك، بل كانت ولادة بسبب انثوي، وبتدخل إلهي مباشر، لإتمام هذا الأمر الذي خالف كلّ نواميس الطبيعة، بحيث شكل بالتالي حالة فريدة في هذا الوجود، كانت بطلتها امرأة. وهذه نقطة بلا شك تحسب للمرأة في تشكيل خريطة للهداية لها طرقها ورمزيتها الخاصة بها، لتجعل لها بصمة في هذا الوجود، لا يمكن أن ينكرها الآخرون، وإن جدّوا واجتهدوا في إخفاء هذا الأمر.

ومن هذا الأمر يمكن لنا أن نظفر بعلّة جديدة لتكنية فاطمة الزهراء عليها السلام بـ(أم أبيها) من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله وهي: كما أن مريم العذراء قد أحاطت عيسى عليه السلام بعناية خاصة، كانت مراحل النبوّة عندما تتكامل تحتاج الى إشراك الأنثى في هذا التكامل، فلابد من إيجاد تلك البصمة الأنثوية لتشارك الذكورة في إكمال تلك المرحلة الإنسانية الطويلة، وبالتالي لإتمامها على أكمل وجه.

وإلّا ففي الحقيقة لا يمكن حصر علّة وجود مريم لتكون هي السبب في ولادة عيسى من دون أب، على أنها فقط للإعجاز وإلفات نظر الناس إليها. وذلك بإعتبار وجود عدّة إعجازات قد تحققت على هذه الأرض كانت في إطارها العام هي خارجة عن نواميس الطبيعة، وقد تكون أعمق أثراً مما جاءت به مريم عليها السلام، بل كان من الممكن أن يأتي عيسى بالأسباب الطبيعية، ومن ثم ليؤدي دوره الرسالي على أكمل وجه، كما حدث مع يحيى عليه السلام أو غيره من الرسل عليهم السلام. ولذلك يمكن لنا أن نفهم من ولادة عيسى عليه السلام من

خلال امرأة من دون تدخل الرجل هو لبيان أثر المرأة في مشاركة الرسل وتقديم خدمات لهم، لا يؤديها إلّا المرأة. وقد حان الأوان لإبراز هذا الدور، وبما أن مريم عليها السلام قد أدت بعدها التربوي مع عيسى عليه السلام، بإعتبار أهمية وجود الأنثى مع الرسالة، فلذلك إحتاج رسول الله صلى الله عليه وآله لمن يؤدي دور الأنثى، لدعم وإتمام رسالته، لذلك كانت فاطمة عليها السلام هي من أدت هـذا الدور. فكان وصفها بأم أبيها، هـي لكونها قد أدت لمحمد صلى الله عليه وآله دوراً لا يكتمل إلّا من خلال الأمومة، لما تبثه من معاني ومداليل لا يمكن أن تستحصل بغير هذا اللقب والكنية ومن هذه الأشياء:

بما أن الأمّ لها الفضل في إيجاد الفرد -نقصد به الرسول- وخروجه الى الدنيا، فهو أيضـاً يحتاج الى أن تستمر رسالته بعد وفاته، وهنا يحتاج الى إيجاد أخوّة إيمانية رسالية هي التي تتكفل بهذا الأمر، وبما أن فاطمة الزهراء عليها السلام كان عن طريقها ولادة الأئمة الأحد عشر، فهي والحال هذه شُبّهت بالأم لمحمد صلى الله عليه وآله لأنها ولدت أخوة له، لأنهم يقعون في نفس المساحة الرسالية، وهم يؤدون دور الحفاظ عليها من الضياع أو الإنحراف فمثلوا أخوّة معنوية لرسول الله صلى الله عليه وآله، وإن كان هو جدّهم بالواقع. كما أن هناك كلمات صدرت من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله تشير الى أخوّة باقي الأنبياء له، فقد روي عنه صلى الله عليه وآله انه قال: (يرحم الله أخي يوسف لقد كان صابراً حليمـاً...)(١)

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م: ج١١، ص٣٧١

وكذلك قوله صلى الله عليه وآله: (رحم الله أخي موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر)[١]

فالرسول صلى الله عليه وآله كما أشار الى أخوّة يوسف وموسى، وهو يقصد بها الأخوّة الرسالية والعقائدية، فكذلك أراد بقوله لفاطمة بأنها أم أبيها؛ لكونها ولدت له أئمة سيكونون له أخوة في الرسالة والعقيدة والدين، تستمر بهم رسالته الخالدة.

ويمكن أن نلاحظ أمر الإهتمام بالمرأة، وبيان دورها مع الأنبياء والحفاظ عليهم ومن ثم مشاركتهم في الحفاظ على من تتم على يديه منابع الهداية في ثلاثة مواقف حدثت مع الأنبياء من أولي العزم وهي:

الأول: موقف أم موسى عليها السلام ودورها المشهود في الحفاظ على النبي موسى بعد أن أوصى لها الله تعالى أن تلقي موسى في اليم ليردّه إليها: (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) سورة القصص: ٧. وقد فعلت بالرغم من خطورة الموقف وقبولها بالمجازفة بولدها ووضعه في اليم، وما كانت أن تفعل ذلك لولا إيمانها المطلق بالله ومن ثم استحقاقها مرحلة الوحي –بغض النظر عن نوعيته وماهيته–.

الثاني: موقف مريم عند ولادة عيسى عليه السلام، وما شكلته بالتالي من إعطاء بعد روحي عالي تقوده المرأة وتكافح به من أجل ولادة نبي يمثل مصدراً للهداية في ذلك العمق الزمني، وكذلك يمثل سنداً إلهياً يعين به الإمام المهدي في

(١) النوافح العطرة: محمد جار الله الصعدي: ص١٥٤.

ظهوره المبارك لتخليص العالم من الظلم والفساد.

الثالث: فاطمة الزهراء عليها السلام وإعتراف النبي صلى الله عليه وآله بإمومتها له، وأنها (أم أبيها) بإعتبار الحفاظ على خط ونهج الرسالة القويم، وذلك لأنها ولدت منها بداية سلسلة الأئمة الذين بهم تحفظ وتصان النبوّة، وبذلك يكونوا كالأخوة المشتركين في الهدف الإيماني المشترك، وكما بيّناه سالفاً.(١)

ومن هذه المواقف الثلاثة يمكن أن نصل الى مطلب يدعم ما ذهبنا إليه من عدم وجود المجتمع الأنثوي، وسيطرة الأنثى فيه، بإعتبار أن أصدق حوادث التاريخ ما ينقلها لنا القرآن الكريم، وذلك متى ما غابت الحقيقة عنّا، وخصوصاً عندما لا تعيننا أدوات البحث الحسيّة للوصول الى الحقائق، فهنا علينا أن نلتجئ الى مصدر معرفي واقعي لا تشوبه الشكوك والظنون، ألا وهو الكتاب الإلهي المتمثل بالقرآن، ونعتمد على ما يخبرنا به إعتماداً كلياً. ولكن للأسف أخذنا نعتمد على ما يطرحه الغرب للوصول للحقائق، تاركين دلائل ومعارف القرآن وراء ظهورنا غير مبالين بها.

عموماً فقد أراد الله تعالى أن يعطي دوراً مميزاً للمرأة، ويثير الإنتباه حولها، بعد ما كانت محرومة من أبسط حقوقها، ولا تثير أي إهتمام، إلّا بالنزر اليسير، ففي الحالات التي كان يرى لها تحرك إجتماعي معين، وعلى نحو بسيط، كان نادراً ما يثير الإنتباه حوله. فأستخدم التدريج في هذا الأمر لعدم تقبل المجتمعات في تلك المرحلة من الزمن الأمور الدفعية والمباشرة لبيان أهمية المرأة ودورها في

(١) للاستفادة والزيادة في بحث كنية فاطمة بأم أبيها، يراجع كتابنا (مفاهيم عصرية عن فاطمة الزهراء)، من ص٦٣ الى ص١٠٢ فهناك تجد البحث مفصلاً.

بناء المجتمع، بل في الحفاظ على أعلى قيمة إنسانية والمتمثلة بالنبوّة. فابتدأ بأم نبي الله اسماعيل زوجة إبراهيم عليهم السلام، وكيفية تحملها لأداء ذلك الدور المصيري في زرع التوحيد في ذلك المكان الموحش الذي وصفه الله تعالى: (بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ) سورة إبراهيم: ٣٧، بحيث لم تكلف بالبقاء هناك فقط، وإنّما لتحافظ وتربي وليدها الذي سيحمل ثقل الرسالة بعد أبيه إبراهيم عليه السلام، ولو تمعنا بهذا الموقف لرأيناه كم كان عظيماً ومصيرياً يعجز عن القيام به أكابر الرجال. ولكن تلك المرأة المؤمنة أدّته بقلب مطمئن بالإيمان، وعارف بثقل الأمانة الملقاة عليه لأدائها.

- ثم جاء دور أم موسى عليهما السلام وكيفية إختيار الله تعالى لها، لأن تكون تلك المرأة التقية هي السبب في الحفاظ على موسى عليه السلام دون غيرها من النساء والرجال، وفي ذلك إلتفاتة مهمة، بأن تكون هناك أدوار مصيرية لا تؤديها إلّا المرأة. ومن ثم تدرج الأمر ليكون بصورة أوضح وأكثر أهمية تعلو من خلاله المرأة الى رتبة أعلى، وعلى المجتمع أن يغير نظرته السابقة عن المرأة، فالمرأة ليست مجرد عنوان لقضاء الشهوة والإثارة والفتن والرجس، كما يذهب كتّاب التوراة، وإنما هي متى ما تكاملت وطهرت تستطيع أن تحمل أثقل الأمانات، وأن تؤدي أخطر الأدوار التي لا يستطيع الرجال أن يؤدوها، ولذلك اختيرت مريم عليها السلام تلك المرأة العفيفة العابدة، لكي تربط بأعظم مهمة اعجازية بعد آدم عليه السلام لتكون رمزاً يولد من خلاله ولد بلا أب لتهتز كهنة اليهود وليبعدوا عن منصة استعباد الناس، ولتعطيهم مريم عليها السلام درساً بليغاً يضادّ ويعارض ما ذهبوا إليه في نظرتهم للمرأة، فهم بعد أن رسموا سياسة التعامل مع المرأة على أنها أداة مطيعة بأيديهم يستخدموها لتحقيق أغراضهم الدنيئة، ها هي المرأة المتمثلة

بمريم عليها السلام كيف ترغمهم على إتباع ما أتت به بين يديها، لتخبرهم بولادة النبي الجديد، وعليهم أن يتركوا ما كانوا عليه ويتبعوه.

وهذه تعتبر نقلة وخطوة جديدة في عالم المرأة، ما كانت تحلم بأن تصل لها عن طريق الكد والسعي الإجتماعي ولكن الله تعالى أراد أن يكمل المسير التعريفي بالمرأة وأهميتها وأن يصعد بها طوراً بعد طور، والى أن وصل دور المرأة في العلو وعظم مسؤوليتها في تثبيت الهداية والدفاع عن الرسالة، الى فاطمة الزهراء عليها السلام لتتحمل مهام إيمانية وهدايتية صعبة، استحقت أن يغدق عليها رسول الله صلى الله عليه وآله الكثير من الألقاب والكنى التي ما نال أحد بمثلها أو مشابه لها، وبالتالي وصل الأمر بأن تؤدي دوراً يتم به حماية علي بن أبي طالب عليه السلام والذي يمثل رأس الإمامة الكبرى، من أن تمسّه يد القتل، بعد أزمة السقيفة، ومما أدّى بالتالي الى أن يكسر ضلعها، وهي تمنع القوم من الدخول على علي عليه السلام، حتى نالت الشهادة بسبب آثار ذلك الفعل.

فكل هذه الأمور بينت وهم وبطلان ما يتعاطاه ويتداوله اليهود في توراتهم ضد المرأة ومحاولاتهم المكثفة للتحقير والتقليل من شأن المرأة.

النهايات المرتبطة بالمرأة مع السيد المسيح

أما نهاية عيسى عليه السلام التي تم بعدها صلبه كما يصورها لنا كتّاب الأناجيل، فهي أيضــًا، تخبرنا بأنها كانت نهاية قد ختمت بلقاء عيسى بالمرأة وظهوره لها عند صلبه ودفنه، وخروجه في فجر يوم الأحد ليظهر لمريم المجدلية تاركـًا طلّابه بلا لقاء، إلّا بعد أن تخبرهم مريم المجدلية عن طلب عيسى للقاء بهم وبالرغم من ذلك فإن بعضهم قد شك بعيسى بعد أن رآه وكما يخبرنا بذلك إنجيل يوحنا: (ويوم الأحد جاءت مريم المجدلية الى القبر باكراً، وكان الظلام بعد فرأت الحجر مرفوعـًا عن القبر. فأقبلت مسرعة الى سمعان بطرس والتلميذ الآخر الذي أحبّه يسوع، وقالت لهما: ((أخذوا الربّ من القبر ولا نعرف أين وضعوه)) فخرج بطرس والتلميذ الآخر الى القبر، يسرعان السير معـًا، ولكن التلميذ الآخر سبق بطرس، فوصل قبله الى القبر. وانحنى من دون أن يدخل، فرأى الأكفان على الأرض. ولحقه سمعان بطرس، فدخل القبر، ورأى الأكفان على الأرض، والمنديل الذي كان على رأس يسوع ملفوفـًا في مكان على حدة، لا ملقى مع الأكفان. ودخل التلميذ الآخر الذي سبق بطرس الى القبر، فرأى وآمن، لأنهما كانا بعد لا يفهمان ما جاء في الكتاب وهو أن يسوع يجب أن يقوم من بين الأموات. ثم رجع التلميذان الى منزلهما.

أما مريم المجدلية، فوقفت عند القبر تبكي. وانحنت نحو القبر وهي تبكي، فرأت ملاكين في ثياب بيضاء جالسين حيث كان جسد يسوع، أحدهما عند الرأس والآخر عند القدمين.

فقال لها الملاكان: ((لماذا تبكين يا امرأة)) أجابت: ((أخذوا ربي ولا أعرف أين وضعوه!)) قالت هذا وألتفتت وراءها فرأت يسوع واقفـًا، وما عرفت أنه

يسوع. فقال لها يسوع: ((لماذا تبكين يا امرأة؟ ومن تطلبين؟)) فظنت أنه البستاني، فقالت له: ((إذا كنت أخذته يا سيدي، فقل لي أين وضعته حتى آخذه)). فقال لها يسوع: ((يا مريم)). فعرفته وقالت له بالعبرية: ((ربّوني)) ((أي يا معلم)).

فقال لها يسوع: ((لاتمسكيني، لأني ما صعدت بعد الى الأب، بل إذهبي الى إخوتي وقولي لهم: أنا صاعد الى أبي وأبيكم، إلهي وإلهكم))

فرجعت مريم المجدلية وأخبرت التلاميذ بأنها رأت الربّ وأنه قال لها هذا الكلام) يوحنا: الإصحاح ٢٠: ١-١٨.

وفي إنجيل لوقا يظهر شك التلاميذ وهم يرون عيسى بعد قيامه (وبينما التلميذان يتكلمان، ظهر هو نفسه بينهم وقال لهم: ((سلام عليكم)) فخافوا وارتعبوا، وظنوا أنهم يرون شبحاً. فقال لهم: ((ما بالكم مضطربين، ولماذا ثارت الشكوك في نفوسكم؟ انظروا الى يديَّ ورجليّ، أنا هو إلمسوني وتحققوا. الشبح لا يكون له لحم وعظم كما ترون لي) انجيل لوقا: الإصحاح ٢٤: ٣٦-٣٩.

فهذه الإخبارات التي يصورها لنا إنجيل يوحنا واضحة في بعدها الدلالي في توضيح الرؤية نحو المرأة وإظهار قدرتها على تأدية أدوار لم تكن تحسب وتتصور، إلّا للرجال، حسب الرؤية الذكورية التي صيغت بيد كتبّة التوراة.

فبينما لم يحضر ويرابط قرب القبر المزعوم لعيسى عليه السلام بعد صلبه أحدٌ من تلاميذه، بالرغم من ملازمتهم له وعشرتهم الطويلة معه وتلقي تعاليمه وتوصياته بالمباشر، نرى كيف أن مريم المجدلية تلك المرأة المؤمنة قد رابطت وإلتزمت بالحضور والتواجد بقرب القبر تنتظر تحقيق ما أُخبر به عيسى عن قيامته بعد ثلاثة أيام من صلبه، هذا الأمر الذي قد غاب عن ذاكرة تلاميذه، ولم يكن له

أثر يحركهم تجاهه: (وكان التلاميذ مجتمعين في الجليل، فقال لهم يسوع: سيسلم ابن الإنسان الى أيدي الناس، فيقتلونه، وفي اليوم الثالث يقوم من بين الأموات. فحزن التلاميذ كثيراً.) متي: الإصحاح ١٧: ٢٢- ٢٣.

ومن ثم تقوم بإخبار كل من سمعان بطرس والتلميذ الآخر ليحضرا مكان القبر وليشاهدا بأعينهم ما حدث، ولكنهم بالرغم من ذلك، قد رحلا أيضاً، ولم يلازما مكانهما، عسى أن تتم لهما رؤية عيسى عليه السلام، كما أخبر هو عن نفسه، فبقيت تلك المرأة المؤمنة والمتيقنة برؤية عيسى، ملازمة للقبر وهي تبكي من حرارة الحزن والشوق لنبيها عيسى المفقود، حتى ظهر لها فعلاً بعد أن تيقن من صدق إيمانها، وقوّة عقيدتها وتصديقها به، وبالتالي لتكون هي الوسيطة بينه وبين تلاميذه ولولاها لما كان للتلاميذ أي نصيب معه.

وهكذا نرى كيف إنّ حياة عيسى أوجدتها امرأة لوحدها بقدرة الله تعالى وكيف أنها قد خُتِمت أيضاً بإمرأة، لتكون هي الرسالة الأخيرة التي يرسل بواسطتها عيسى لتلاميذه مبتغاه الأخير.

وفي هذا السياق، بينما يذهب فراس السواح الى استقراء وجود مريم عليها السلام من زاوية ضيقة جداً، وضمن مجال صامت يبتعد شيئاً فشيئاً عن تحديد الرؤية المثالية للمرأة على أرض الواقع، وبعبارة أدق فهو يريد أن يرسم صورة رمزية ويصّر على تأطيرها ببعد أسطوري لن تستطيع أية امرأة أن تستفيد منه في إثبات وجودها الكوني، وأثره المباشر في الحياة الدنيا وهي تساير الرجل جنباً الى جنب لتحقيق ما وجدا من أجله، فيقول: (ولكن التقاليد المسيحية ما تلبث أن تعيد للأم الكبرى سابق مجدها وسلطانها، وتبدأ مريم العذراء رحلتها من أم يهودية تقية، كما تبدو في الأناجيل، الى أمّ كونية ووالدة للإله الذي إقترب من

البشر بدخوله في تاريخهم وتجسده في عالمهم، ومروره عبر جسد الأم الكبرى طفلاً لها. فمريم العذراء التي ظهرت في فلسطين وعاشت هناك عدداً من السنين ليست إلّا تجليّاً في المكان للأم الكبرى مريم الموجودة قبل الزمان وقبل المكان والتي ستبقى بعد فناء المكان وتوقف جريان الزمان).[١]

ثم يستشهد بأقوال بعض رجال الكنيسة فيقول: وهناك بعض عظات الكنيسة نقرأ فيها: (إن من بنى السموات واحتواها، والذي صنع الكون وما وراء الكون، الذي لا مقر له، قد جعل نفسه فيها طفلاً صغيراً، وجعل منها مقر إلوهيته الفسيح الذي يملأ كل شيء وحيداً، ولا حدّ له، تجمع فيها دون أن يتصاغر).

ثم ينقل قولاً للقديس جرمانوس بطريرك القسطنطينية في القرن الخامس الميلادي في شرحه لعقيدة انتقال مريم الى السماء: (لقد كان مستحيلاً أن يبقى ذلك الجسد الطاهر محجوزاً عليه داخل قبر الأموات، ذلك الإناء الذي إحتوى الله بالذات، ذلك الهيكل الذي مدّه بالحياة، الإناء الذي امتلأ الله الذي حمل الله. كنت ايتها العذراء المجيدة الجسد الذي إستراح فيه هو).[٢]

فهو يريد هنا أن يحول نص الإنجيل الى مجموعة من التقاليد ويعزلها عن النص التوراتي، الذي لا يرى أية أهمية للمرأة حسب نظرته الدونية لها، ومن ثم يحصرها برؤية لا تختلف عن الرؤية التي تتوجه صوب الآلهة الأنثى لدى الإغريق واليونان والحضارات القديمة الأخرى حيث تصاغ حولها الأساطير بأطر لا يعرف منها إلّا التشابك والتداخل، ومن ثم ليأتي أصحاب الأركيولوجيا ليملأوا

---

(١) لغز عشتار: فراس السواح، نشر دار التكوين، دمشق، ط٥، ٢٠١٧م: ص٦٠.

(٢) المصدر نفسه: ص٦٠.

التاريخ البشري بإرث مفتعل وليفرضوه على الإنسانية فرضاً مقيتاً، وكلما أوغلوا فيه ابتعدوا عن الحقيقة اشواطاً واشواط. وبذلك سوف تحرم البشرية عن نيل المعارف الحقيقية في تلك الأزمات الغابرة، لأنها سوف تتلهى بأضغاث أحلام، وبموروثات وآثار بشرية كانت ضد الدين، وضد الحقائق والهداية التي تأتي بها النبوّة من السماء، والتي دائماً ما تكون ضد أهواء ومطامع من يتركون لنا تلك الآثار المقصودة في إثارة الشك والريبة، لكي تلفت الأنظار حولها وتشد طالبي البحث وكشف الحقائق نحوها دون غيرها، بإعتبار توفرها، وكثرة إنتاجها الأحفري الذي خلفوه لنا.

فتعامل مع النص الديني وطهورية مريم عليها السلام بالمنظور الميثولوجي وإعتباره فرع من أصول الديانات الخرافية القديمة، التي عاشت زمن الرمز الذي دأب عليه في كتاباته، ليجعل منه دليلاً على أن الدين ما هو إلّا نتاج ذهن بشري خالص، يمثل تصوراتهم نحو الكون والحياة. تلك التصورات التي تنبعث من الخوف والإحتياج تارة، والى البقاء والخلود تارة أخرى. فبدلاً من أن يبحث عن قراءات أكثر عمقاً، وأصدق قولاً، وأكثر وضوحاً نحو الولادة المريمية، كما وجدت في القرآن الكريم، بإعتبار هناك نقطة إلتقاء وإستمرار بنفس المدلول بآية مريم عليها السلام وهي تهب البشرية تلك الولادة الاستثنائية والإعجازية، بالمعنى العميق لهذا اللفظ، لتشكل بالتالي مرحلة من مراحل الوضوح والبيان الديني لمفردة قد أحاطت بها بعض الشبهات والضبابية لطول الزمن، وقصور ذات اليد عن تناولها بالشكل الذي وجدت به واقعاً. لينتقل إنتقالة غير موفقة، وهو يحاول أن يلوي عنق النّص عنّوة ليجعله متصلاً أو مكملاً أو معوّضاً عن نصوص ميثولوجية الآلهة الأنثى وسيطرتها على مخيلة كثير من بشر العصور القديمة وإنبهارهم بما تهبه لهم من ولادات يعجز العنصر الذكوري عن تقديمه.

بينما الحقيقة واضحة وتتجلى بأقل تركيز، بأن النص الإنجيلي ما ذكر مريم عليها السلام، إلّا ليعطي دوراً مهماً للمرأة، وليحرك فيها الطموح نحو الرقي والتكامل الإنساني، بحيث تصل الى أعلى المراحل فيه وليس هذا فقط، بل ليحولها بالتالي الى أن تكون في بعض الأحيان ذات بعد استثنائي، بحيث لا يتحقق هذا البعد إلّا بها وبمفردها، لتترك الرجل بعيداً عنها في هذا الأمر، وفي ذلك إشارة واضحة لتلك القيمة الأنثوية في مسيرها البشري.

وهنا بدلاً من أن يبحث عن قرائن وأدلّة أكثر وثوقاً وإعتماداً، ليعمق هذا المعنى ومداليله، ذهب باحثاً في أساطير الأولين لتكون له الملجأ والمعتمد فيما وصل إليه، تاركاً ذلك التوثيق للتأريخ الذي يُعنى بإمومة مريم لعيسى عليهما السلام، وذلك الإصطفاء الإلهي لها لتكون أمّاً بلا رجل. وبدلاً من أن يستفاد من هذا المحرك لتحرير المرأة من كثير من المظالم التي وقعت عليها. ذهب بمنظور سلبي جامد ليبقى في المخزون الذهني لا يتحرك إلّا أن تثيره ذاكرة القصّاصين والكتّاب، وحكايا المتطفلين على ميراث الأنبياء، من دون أن يقدم أية خطوة إيجابية تكون المرأة بأمس الحاجة لها، مكتفياً بالتنظير والتهويل لا غير.

إذن نفهم من ذلك أن مريم عليها السلام اكتسبت قيمتها القدسية من ناحيتين هما:

١. أنها حملت من غير أن يمسها بشر.

٢. أنّها أنجبت رسولاً من أولي العزم وهو عيسى عليه السلام.

وهنا لو تساءلنا، لماذا استدعت نبوّة عيسى أن تبدأ رحلتها الوجودية من امرأة تقية ورعة، لم يمسسها بشر قط، ليكون عيسى عليه السلام رسولاً يطأ هذه الدنيا

من غير أب؟ فإذا أردنا أن نذكر سبباً من الأسباب المؤدية لذلك، فلابد لنا من ذكر سبباً يتعلق بالسياق العام الذي نطرحه وهو: إنّ اليهود قد تمادوا كثيراً في إمتهان المرأة، وعرضها كبضاعة للإغراء والغواية، وقد استشرى هذا الأمر كثيراً في المجتمع اليهودي أين ما حلّوا. وبذلك ساهم هذا الفعل بإمتهان المرأة لنفسها، وبالتالي أصبحت عندها قناعة كاملة، بأنّها وجدت لتؤدي ما يطلب منها من أعمال غواية وزنا وغيرها من الأمور التسافلية على أكمل وجه، دون أن يكون لها رأياً بالضد، فبمجرد أن يقال لها بأن ذلك يؤدي الى تقديم خدمة لليهود، وجلب المصالح لهم، وانها لا تتم إلّا من خلال تلك الأفعال المشينة، هبت للإستجابة دون أن تراجع الأمر!.

فظهرت مريم القديسة لتغير هذا المفهوم، وتقلب الطاولة على رؤوس الكهنة، وما جاء زوراً في التوراة بحقها، لتصحح بالتالي مسار ذلك النهج المنحرف في نظرته الدونية للمرأة. وحولتها من شيطان وشرّ مستطير، وجسد نجس، الى طهارة وعفة، بل أكثر من ذلك، فإذا كانت المرأة عند اليهود لا تستخدم إلّا كجسد للمتعة، فها هو جسدها لم يمسه بشر قط، لتؤدي دوراً خالياً عن أي مسمى للمتعة، ومن ثم لترتقي في علوها وتطرح للإنسانية أعظم رجل في ذلك الزمن، ليستحق أن يكون هو الرسول المنتظر، لينقذ اليهود من ضلالة التيه وحيرة الجهل والعمى.

فكانت مريم عليها السلام هي الشاهد على تلك الأكاذيب والمفتريات التوراتية بخصوص المرأة، وها هي إختيار الله تعالى لتكون أمّاً لعيسى من غير أب. وبذلك قد تحدت اليهود، بأي شيء سيجيبون عن وضاعة المرأة في توراتهم، وها هي تأتي حاملة معها وسيلة صدقها، التي ما كانت لتتم لولا تكلم عيسى عليه

السلام في المهد صبياً، لتطمر بعدها أحلام اليهود في الاستمرار بتطبيق تلك الأكاذيب، وعندما اصطدموا بهذا الأمر، فامّا أن يصدّقوا بعيسى وامّه، ويتركوا جميع ما كان قد قدّم من قبلهم كقراءة للتوراة، وامّا أن يكذّبوا بنبوة عيسى وطهارة مريم، من أجل الإستمرار بالذي خطط له من قبلهم. وهكذا فقد كذّبوا بعيسى عليه السلام ولم يؤمن به إلّا القليل، بل الأكثر من ذلك سعوا للوشاية به عند الحاكم الروماني بيلاطس، ممّا تسببوا فيما بعد بصلبه، ولولا تقدير الله تعالى بأن ينقذه بإلقاء الشبه على الخائن يهوذا الأسخريوطي ليصلب مكانه، لكان موت عيسى عليه السلام محققا لا محال.

وحينئذ فإن المرأة التي تدّعون بأنّها هي السبب في إرتكاب آدم للمعصية، ومن ثم هبوطه الى الأرض، وعاش ما عاش من ظروف الكد والسعي المرهق بسببها، فها هي قد أختيرت من قبل الله تعالى لتكون طريقاً للصعود الى عالم الجنان والرضا الإلهي، بسبب عيسى الذي قدّمته لعالم الدنيا ليكون ذلك المنار، وذاك الصراط المستقيم الذي من سار على نهجه أعيد الى عالم الخلق بأحسن تقويم، صعوداً على سلّم التكامل، ليكون لمريم عليها السلام فضلاً مع كل خطوة إيمان يسير بها الوجود بعد عيسى عليه السلام.

وبعد كل هذا الذي ذكر في الأناجيل حول المرأة، ولكن مع كل أسف فإن رجال الدين المسيحيين قد أغفلوا هذا الأمر، واستمروا في نهجهم الذي طرحه اليهود في تعاملهم مع المرأة، فلم يتعرضوا الى وضع نظام تكفل من خلاله المرأة حقوقها الخاصة والعامة، وإعطاء حريتها التي كفلتها لها الإنسانية، ولم يترك التشريع المسيحي أثراً محسوساً في البعد الإجتماعي والأخلاقي، تظهر فيه محاسن وجمالية المرأة، وإنّما رضوا بأن يتشكلوا بالشكل الذي طرحته الأخلاق

والطبائع السابقة في تعاملهم مع المرأة. وهذا الأمر يبدو واضحاً في كتاباتهم وتصوراتهم عن المرأة، وكما بيّناه في الصفحات السابقة.

خطيئة حواء

والآن لنأتي ونرى مَنْ مِن الأديان طرح هذه المسألة وجّذر لها بشكل واضح وجلي؟ والحقيقة اننا لن نبالغ إذا ما قلنا بأن النصيب الأوفر في هذا الأمر سيكون لليهود، وما كتبوه في توراتهم عن خطيئة حواء وما سببته بالتالي من جر آدم ليشاركها الخطيئة الى أن تم غضب الربّ عليها، مما زاد في الضغط عليها في عالم الدنيا من ناحية الجسد ومن ناحية التعامل معها، أي قل زيادة الضغوط المادية والمعنوية عليها دون الرجل، ولنقرأ بعضاً من تلك النصوص التوراتية:

- (وكانت الحيّة أمكر وحوش البريّة التي صنعها الربّ الإله، فسألت المرأة: أحقّاً أمركما الله ألّا تأكلا من جميع شجر الجنة؟ فأجابت المرأة: يمكننا أن نأكل من ثمر الجنة كلها، ماعدا ثمر الشجرة التي في وسطها، فقد قال الله: لا تأكلا منه ولا تلمساه لكي لا تموتا. فقالت الحيّة للمرأة: لن تموتا، بلْ إنّ الله يعرف أنّه حين تأكلان من ثمر هذه الشجرة تنفتح أعينكما فتصيران مثله، قادرين على التمييز بين الخير والشر. وعندما شاهدت المرأة أن الشجرة لذيذة للمأكل وشهيّة للعيون، ومثيرة للنظر قطفت من ثمرها وأكلت، ثم أعطت زوجها أيضاً فأكل معها، فانفتحت للحال أعينهما، وأدركا أنهما عريانان، فخاطا لأنفسهما مآزر من أوراق التين. ثم سمع الزوجان صوت الربّ الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار، فأختبئا من حضرة الربّ الإله بين شجر الجنّة. فنادى الربّ الإله آدم: أين أنت فأجاب: سمعت صوتك في الجنّة فاختبأت خشية منك لأني عريان، فسأله: من قال لك إنك عريان؟ هل أكلت من ثمر الشجرة التي نهيتك عنها؟ فأجاب آدم: إنها المرأة التي جعلتها رفيقة لي. هي التي أطعمتني من ثمر الشجرة، فأكلت. فسأل الربّ الإله المرأة: ماذا فعلت؟ فأجابت: أغوتني الحيّة فأكلت. فقال الربّ الإله

للحيّة: لأنك فعلت هذا، ملعونة أنت من بين جميع البهائم ومن جميع وحوش البريّة، على بطنك تسعين، ومن التراب تأكلين طوال حياتك، وأثير عداوة دائمة بينك وبين المرأة، وكذلك بين نسليكما. هو يسحق رأسك وأنت تلدغين عقبه.

ثم قال للمرأة: أكثر تكثيراً أوجاع مخاضك فتنجبين بالآلام أولاداً، وإلى زوجك يكون اشتياقك، وهو يتسلط عليك. وقال لآدم: لأنك أذعنت لقول امرأتك، وأكلت من الشجرة التي نهيتك عنها، فالأرض ملعونة بسببك وبالمشقة تقتات منها طوال عمرك. شوكاً وحسكاً تنبت لك، وأنت تأكل عشب الحقل. بعرق جبينك تكسب عيشك حتى تعود إلى الأرض، فمن تراب أخذت، وإلى التراب تعود. وسمّى آدم زوجته (حواء) لأنها أمّ كلّ حيّ. وكسا الربّ الإله آدم وزوجته رداءين من جلد صنعها لهما.

ثم قال الربّ الإله: ها الإنسان قد صار كواحد منّا، يميز بين الخير والشّر. وقد يمد يده ويتناول من شجرة الحياة ويأكل، فيحيا إلى الأبد. فأخرجه من جنّة عدن ليفلح الأرض التي أُخذ من ترابها. وهكذا طرد الله الإنسان من جنّة عدن، وأقام ملائكة الكروبيم، وسيفاً نارياً متقلباً شرقي الجنّة لحراسة الطريق المفضية إلى (شجرة الحياة) سفر التكوين: الإصحاح الثالث.

نلاحظ من خلال هذا النص التوراتي، بأن الخطيئة الأولى التي تسببت بخروج آدم من الجنّة كانت هي حواء مع وجود عدّة أخطاء أخرى قد ارتكبتها حواء تسببت بالتالي بزيادة آلامها وتعدد عقوباتها، فقد جاء بالنص:

١ - أكلها من ثمر الشجرة التي منعها الله تعالى من الإقتراب منها ولمسها والأكل منها.

٢- تصديقها بالشيطان بعد أن تمثل بالحيّة، حيث قالت لها: (لن تموتا، بلْ إنّ الله يعرف أنّه حين تأكلان من ثمر هذه الشجرة تنفتح أعينكما فتصيران مثله، قادرين على التمييز بين الخير والشر) ونسيت في نفس الوقت النهي الصادر من قبل الله لها ولآدم من الإقتراب من الشجرة وأكل ثمرها، لأنه سيتسبب بموتهما.

٣- لم تكتف هي بالخطيئة لوحدها، وإنّما أعطت لزوجها آدم فأغوته فأكل منها، وذلك بإعتراف آدم نفسه، حين سأله الله عن سبب أكله من تلك الشجرة، حين أجاب: إنها المرأة التي جعلتها رفيقة لي، هي التي أطعمتني من ثمر الشجرة.

٤- بسبب خطيئتها قال لها الربّ: أكثر تكثيراً أوجاع مخاضك فتنجبين بالآلام أولاداً.

٥- تسلط زوجها عليها.

٦- تسببت بمشقة آدم وأنه سيشقى طول عمره.

وبملاحظة تلك النقاط، نرى كيف أنّ حواء قد سمحت للشيطان أن يتلاعب، ويغير قناعاتها، التي كان من المفروض أن تكون ثابتة، ومن ثم تصرفت بإندفاع دون أن ترجع وتشاور شريكها في الحياة، بإعتبار أن أي تصرف من أحدهما سوف يؤثر على الآخر. ثم انها لم تكتفي بأن تخطئ هي وتتحمل نتائج خطئها، وإنّما تحركت وجعلت زوجها يشاركها في خطيئتها، حتى تسببت في إخراجهما من الجنّة. هذا مضافاً الى ما كتب عليها من تحمّل الآلام والنقص في القيمة المعنوية لها أمام الرجل.

وفي هذا السياق يوجد رأي يقول: إن ما جاء في رواية التوراة حول خطيئة حواء يشير الى عدّة نقاط، كما إنها متخمة بالرمزية وقابلة للتفسيرات المختلفة. إن

سفر التكوين لا يرى فقط أن الانخداع من الشيطان، وخداع آدم أيضا من عمل حواء، وإنما يقدم حواء في صورة من لديه الاستعداد الكامل والرغبة في عصيان الأمر الإلهي، وتفسير ذلك أن انخداع حواء يتم بسرعة وسهولة، حتى إن قارئ الكتاب المقدس يشك أصلاً في أن فكرة العصيان لله تعالى تتعلق بالشيطان حصراً، وأن حواء نفسها لم تكن تفكر في مثل هذه الفكرة. ويكفي من أجل إثبات هذا الإدّعاء ان نقارن بين أمر الله الصادر لآدم والشرح الذي تقدمه حواء للشيطان عن هذا الأمر، ونرى اي فرق يوجد بين الامر وشرحه. إننا نقرأ أمر الله في سفر التكوين في الاصحاح الثاني: (واوصى الرب الإله آدم قائلاً من جميع شجر الجنة تأكل اكلاً. وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت). لكننا نقرأ في الاصحاح الثالث: (وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله، فقالت للمرأة أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة. فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل. وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنّة فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا). ومواقع الإختلاف بين الأمر الالهي والرواية التي تقدمها حواء عن هذا الأمر هي على النحو الآتي:

أمر الله الأصلي	رواية حواء لهذا الأمر
١- أوصى الربّ الإله آدم قائلاً	١- فقال الله
٢- من جميع شجر الجنة تأكل	٢- من ثمر شجر الجنة تأكل
٣- شجرة معرفة الخير والشر	٣- الشجرة التي في وسط الجنّة
٤- أنت	٤- أنتما
٥- فلا تأكل منها	٥- لا تأكلا منه ولا تمسّاه
٦- لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت	٦- لئلا تموتا

ان مواضع الإختلاف هذه تنتهي بنا في الحقيقة الى التقليل من قوة الولاية الإلهية (الموضع الاول)، وتحول السخاء الى نوع من الإذن الطائش (الموضع الثاني)، والتقليل من أهمية الشجرة وتحويلها الى أهمية مكانية (في وسط الجنّة)، وكأن الشجرة نفسها لا قيمة لها (الموضع الثالث)، والتدخل والتصرف في نطاق أمر الله، وهو عمل لا يليق، لأن العهد القديم جاء فيه: (لا تزد على كلماته- كلمات الرب - لئلا يوبخك فتكذب) و (ولا تزيدوا على الكلام الذي أنا أوصيكم به ولا تنقصوا منه لكي تحفظوا وصايا الربّ إلهكم التي أنا أوصيكم بها) (الموضع الرابع والخامس)، والتخفيف من صلابة الأمر وقوته (الموضع السادس)، إن هذه التغيرات وما صاحبها من حذف أو إضافة محسوبة ومهمة الى حد أنه لا يمكن أن تكون من قبل المصادفة، أو من نوع التغييرات الطفيفة التي تحدث عند الإقتباس من أحد والنقل عنه: إنها تشير الى قبول الإيحاء، بل حتى الى الإستعداد للموافقة الذي يتضح من جانب حواء في مقابل الحيّة (الشيطان). ولو كانت المسألة تقتصر على انخداع حواء من الشيطان فقط لوجب أن يكون حواء شخصاً طاهراً لا يضمر سوء النية قبل أن يبدأ الشيطان إغواءه ووسوسته لها، وكان يجب عليها على الأقل أن تنقل إليه أمر الربّ كما هو، لا أن تقلل من أهميته وصلابته وقيمته بشتى الصور. لقد مهدت حواء السبيل للشيطان قبل أن يغويها، وفتّح الأخير براعم الاستعداد عند حواء نفسها.(١)

---

(١) ينظر: المرأة خلقها ودورها الإجتماعي، مصدر سابق: ص٧٦ وما بعدها نقلاً عن:
Reuvan Kimelman ((The Seduction of Eve and the Exegetical Politics of Gender)) p244-245.

وبملاحظه تلك الامور التي ثبتها كتبة التوراة ونحلوها الى حواء، يتبين لنا الى أي مدى كان كاتب التوراة متأثراً بعدّة أبعاد منها:

أولاً: المحيط الإجتماعي وما كانت تمثله المرأة في ذلك المحيط، بشكل عام، والمحيط الخاص بالمجتمع اليهودي الذي كان لا يزال يعاني من آثار السبي البابلي وما يمثله من إنتهاك لكثير من الأمور الخاصة بالفرد اليهودي لاسيما المرأة منهم.

ثانياً: الإسقاطات النفسية لكاتب التوراة نحو المرأة، فهو بتلك الحال لن يبخل في إلصاق أمر مشين بها ليحملّها تبعات ذلك الأمر حتى يبقي السيادة والتحكم بيد الرجل.

ثالثاً: كان لكاتب التوراة مآرب خاصة، و هو يطرح المرأة بتلك الصورة، ومن أهم تلك المآرب تحقيق ما يطمح إليه اليهود من خلال استخدام النساء كسلاح مهم في إحداث الفساد والتغيير، وحتى التأثير على الرأي العام السائد في ذلك الحين.

رابعاً: والذي ساعد كاتب التوراة على إظهار المرأة بهذا الشكل من إرتكاب الخطايا، هو ما وجده في بعض الحضارات وما رافقتها من أساطير والتي سبقت كتابة التوراة، وهي تعرض علاقة المرأة بالرجل. وكمثال على ذلك؛ إذا أتينا الى ملحمة جلجامش، وجدنا في (إنكيدو) صورة عن الإنسان الأول الذي تم خلقه من طين، وعاش في الطبيعة حياة حرة طليقة قبل أن يلتقي بالمرأة التي نقلته، بعد الفعل الجنسي، من حياة البداءة والحرية الحيوانية المفرغة من المضمون، إلى حياة الجماعة والحرية ذات المضمون. ووجدنا في آدم الأول تكراراً لإنكيدو.

فآدم قد خلق من طين وعاش في الطبيعة. يأكل من حيث شاء رغداً، إلى أن جاءت حواء وأطعمته من ثمرة الجنس المحرّم ، وخرجت به من عالم حرية الطبيعة الى الحرية الانسانية ذات الهدف والمضمون، فشكلا وأولادهما الجماعة البشرية الأولى التي تعمل وتكد وتلاقي الموت من أجل استمرار الحضارة التي ابتدأت معهما. وتشكل العلاقة مع المرأة في كلا القصتين، نوعـًا من طقس العبور، أو التعدية initiation الذي نقلهما من السذاجة الأولى إلى المعرفة. ففي سفر التكوين يغدو آدم وحواء عارفين بالخير والشر، و(تنفتح أعينهما) عقب المباشرة الجنسية. ثم يخرجان من جنة عدن، عالم الطبيعة الحيوانية، الى الأرض عالم الطبيعة الإنسانية، ليعملا ويكدّا مبتدئين الفعل الحضاري الخلّاق الأول، في دنيا الإختيار والحرية الإنسانية ذات المضمون والغاية. وكذلك الأمر في ملحمة جلجامش حيث:

تعثر إنكيدو في جريه، صار غير الذي كان

لكنه غدا عارفـًا، واسع الفهم

ثم تقوده المرأة إلى مساكن الرعاة، حيث يبدأ بممارسة حريته الملتزمة، فيحرس قطعان الماشية، ويطارد الأسود، ليكفي الرعاة شرّها. وبعدها ينتقل الى حياة المدينة حيث يقود جلجامش حملته الكبرى ضد رمز الشر. وكما كانت الحية مسؤولة في ملحمة جلجامش عن خسارته للنبتة التي تجدد الشباب، كذلك كانت في قصة آدم وحواء التوراتية، مسؤولة عن خسارتهما للحياة الخالدة في جنة عدن. وجنة عدن التي أعدت للخالدين، في التصور التوراتي هي المكان الذي تصدر منه الأنهار: (وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة، ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس) التكوين2: 8- 14، وكذلك الأمر في المكان الذي أسكنت

به الآلهة أوتنابشتم وزوجته الخالدين، إذ تصفه الملحمة في أكثر من موضع بأنه يقع حيث فم الأنهار.(١)

وكما يوضحه هذا المقطع من اللوح الأول من ملحمة جلجامش:

أما إنكيدو الذي كان مولده في التلال (السهوب)

والذي يأكل العشب مع الظباء، ويرد الماء مع الحيوان

ويفرح لبه مع حيوان البرّ عند الماء

فان البغي رأته، رأت الرجل الوحش

أبصرت المارد الآتي من اعماق البراري (السهوب)

(فأسر اليها الصياد): (هذا هو يا بغي فأُكشفي عن نهديك

اكشفي عن ... لكي يتمتع بمفاتن جسمك)

لا تحجمي، بل راوديه وابعثي فيه الهيام

فانه متى رآك وقع في حبائلك

أنضي عنك ثيابك لينجذب إليك

علمي الوحش الغر فن وظيفة المرأة

---

(١) ينظر: جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة: فراس السواح، نشر دار التكوين، دمشق، ط١، ٢٠١٦م: ص٢٧٢ و ٢٧٣.

ستنكره حيواناته التي ربيت معه في البرية

إذا انعطف إليك وتعلق بك

فأسفرت البغي عن صدرها وكشفت عن ...

فتمتع بمفاتن جسمها

نضت ثيابها فوقع عليها

وعلّمت الوحش الغر فن المرأة، فانجذب إليها و تعلق بها

ولبث إنكيدو يتصل بالبغي ستة أيام وسبع ليال

وبعد أن قضى وطره منها

وجه وجهه إلى الفه من حيوان البر

فما أن رأت الظباء (إنكيدو) حتى ولت عنه هاربة

وهرب من قربه حيوان البرّ

هم (إنكيدو) أن يلحق بها ولكن شلّ جسمه

لقد خذلته ركبتاه لما اراد اللحاق بحيواناته

أضحى انكيدو خائر القوى لا يستطيع أن يعدو كما كان يفعل من قبل

ولكنه صار فطناً واسع الحس والفهم.

رجع وقعد عند قدمي البغي

وصار يطيل النظر إلى وجهها ولما كلمته أصاغ بالسمع إليها

كلمت البغي (انكيدو) وقالت له:

(إنك حكيم يا انكيدو، وانت مثل إله

فعلّام تجول في البرية مع الحيوان؟

تعال آخذك بيدك إلى (اوروك) الحمى والسرور

إلى (البيت) المشرق، مسكن (آنو) و (عشتار)

حيث يعيش جلجامش المكتمل الحول والقوّة

المتسلط على الناس كالثور الوحشي[1]

والآن لو تمعنا بالنص الملحمي والنص التوراتي لوجدنا التأثر واضحاً بالنسبة لكتبة التوراة بالنص الملحمي أو بغيره، لأنهم وجدوه مناسباً لتحميل المرأة تبعات ما عملت، وبالتالي عليها أن تدفع ثمن ذلك غالياً، ولا يهم بعدها من الإملاء عليها ما يشبه العقوبات القاسية.

والشيء الملفت للنظر أن التوراة الحقيقية التي أنزلت على موسى عليه السلام قد كتبت في عهده، ولكنهم لم يعتمدوا عليها، لأنها إختفت دون معرفة الأسباب، فاليهود قد ذكروا بأن موسى قبيل وفاته كتب التوراة واعطاها لحاملي التابوت وفي هذا قالوا في سفر التثنية (٩-٣١): (وكتب موسى هذه التوراة وسلّمها

(١) ملحمة كلكامش: طه باقر، نشر وزارة الإعلام في الجمهورية العراقية، ط١، ١٩٧٥م: اللوح الأول ص٤٢ وما بعدها.

للكهنة من بني لاوي حاملي تابوت عهد الربّ، ولجميع شيوخ إسرائيل وأمرهم موسى قائلاً: في نهاية السبع السنين في ميعاد سنّة البراء في عيد المظال حينها يجيء جميع إسرائيل لكي يظهروا أمام الربّ، إلهك في المكان الذي يختاره، تقرأ هذه التوراة، أمام كل إسرائيل في مسامعكم).

ثم ذكر اليهود في خاتمة هذا السفر السبب الذي لأجله دوّن موسى عليه السلام التوراة، فقالوا في سفر التثنية (٢٤ -٣١): (فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب إلى تمامها، أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الربّ قائلاً: خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الربّ إلهكم، ليكون شاهداً عليكم، لأني أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة. هو ذا وأنا بعد حي معكم اليوم قد صرتم تقاومون الربّ فكم بالحريّ بعد موتي).

وذكر اليهود في سفر يشوع (يوشع) كتب التوراة مرة أخرى على أحجار المذبح حسب وصية موسى عليه السلام ، وفي هذا قالوا : (حينئذ بنى يشوع مذبحاً للربّ إله إسرائيل في جبل عيبال ... وكتب هناك على الحجارة نسخة توراة موسى التي كتبها أمام بني إسرائيل ... وبعد ذلك قرأ جميع كلام التوراة البركة واللعنة حسب كل ما كتب في سفر التوراة).(١)

وهنا يوجد شيء مهم أود التعرض له وهو؛ إن في هذا الوجود أمور ثابتة ولها صفة تكوينية وأخلاقية لا يتدخل التشريع في تغييرها وإعطاء بدائل عنها، كما يحدث في نسخ الأحكام وإعطاء البدائل عنها أو رفعها بالكلية دون بديل، لتكون

---

(١) للزيادة في هذا الموضوع، ينظر: الدولة العادلة يوتوبيا أم واقع، للمؤلف: ص١٤٢ وما بعدها.

فاعلة في زمن ما، وفي زمن آخر تزال أهمية وجودها، ومن هذه الأمور مسألة الإخبار عن كيفية خلق آدم وحواء، إذ لا يمكن أن يأتي دين ويقرر كيفية معينة لخلقهما مبينـاً العناصر الرئيسية فيه، ثم يظهر دين لاحق ليغير من هذه الحقيقة، ويحولها الى بعد آخر بعناصر مختلفة عن الأولى. هذا بإعتبار أن الدين واحد في إخباره عن الخلق تكوينـاً، لأن مسألة كيفية خلق آدم عليه السلام لا يمكن أن تتغير عبر التاريخ، ومهما تبدل الزمان أو المكان، فالطينة هي الطينة والنفس هي النفس وآدم هو آدم، لذلك ستصدق كل الأديان في طرحها وتناولها لمثل هذه المسألة، نعم قد يكون التفاوت في القيمة الإخبارية بحسب السعة والتبيان المفصل أو المجمل فيما بينها.

ومن هذه الأمور الثابتة أيضـاً هي مسألة الأخلاق وبعدها القيمي، فلا يمكن للدين أن يهين وينتقص من كرامة الإنسان- المرأة والرجل على حد سواء- أو يتذبذب في تعامله معه، بحيث يكرمه مرّة ويهينه مرة أخرى، فهذا الأمر محال، فالدين من محاوره الرئيسية في هذا الوجود هو الإنسان، وما نزل الدين إلّا من أجله، وبيان أنجع الأمور لتربيته وكماله، فالإنسان له قيمة، إن شعر بها وسار للوصول الى أعاليها، فاق كل الموجودات، وصعد علواً حتى فوق الملائكة.

فإذا كان اليهود قد تعمدوا إخفاء حقيقة المرأة ومدى البعد الاخلاقي في التعامل معها، بحسب ما جاءت به توراة موسى عليه السلام، فإن القرآن الكريم تكفل ببيان وإظهار حقيقة خلقة المرأة وتساويها مع الرجل، مع فرض بعداً أخلاقيـاً يجللها بالوقار والإحترام، ليكون إمتداداً، يُبرز ما كان قد خفي من أصل التوراة أو الإنجيل. وذلك بإعتبار وحدة وترابط الدين في الأمور التكوينية والأخلاقية.

وقد زادت الميثولوجيا الأثينية أيضاً في مسألة خلق المرأة والشرور التي ولدت معها، مما دعم كتبة التوراة بهذا الموضوع الذي ارتأوا صياغته في توراتهم، ففي كيفية خلق الآلهة للإنسان، يروي (هزيود) في (الأعمال والأيام) (أبيات 54-105) وأنساب الآلهة (512- 616) أن برومثيوس Prometheus، (والكلمة تعني حرفياً المتبصر أو المتروي) هو الذي خلق الرجل (خلق رجالاً كثيرين وجلس على أكمة عالية يشرف على عبادة الصالحين .. ثم فكر في نعمة يسبغها عليهم .. فسرق النار المقدسة في غفلة . من (زيوس) فغضب كبير الآلهة وعاقبه بتكبيله بالأغلال ... الخ.

أما الرجال فكان لابد من عقابهم أيضاً، فخلق لهم الأنثى وأعطتها أفروديت بعضاً من جمالها، وعلّمتها أثينا أعمال المنزل وغزل الصوف، وهذه المرأة الأولى هي (بندورا Pandora) (والكلمة تعني حرفياً العطايا أو الهبات الشاملة) وتروي الأسطورة أن (هرمز) رسول الآلهة حملها إلى برومثيوس، لكنه رفضها لأنه (متبصر) وتزوجها شقيقه (إبيمتوس Epimetheus) (أي المتهور أو العجول). وهكذا نجد أن (هزيود) يجعل من الإله المتروي -برومثوس - خالقاً للرجل، وهيفاستوس الأعرج الشائه خالقاً للمرأة.(*)

ويذهب هزيود أيضاً إلى أن الرجل كان يعيش في جنّة دانية القطوف لا يعمل ولا تصيبه أمراض، وهذا هو العصر الذهبي الذي يشبه الأيام التي قضاها آدم في الجنّة قبل أن يعرف حواء. وبعد سرقة النار خلق (زيوس) الفصول الأربعة، فلم

(*) الأسطورة تكشف على مدى الكراهية المتأصلة في التراث اليوناني للمرأة، فخالقها هو إله شأنه، جاء إلى الدنيا بقدمين معكوستين، أصابعهما في الخلف، وعقبهما إلى الأمام، وأنجبته (هيرا) وهي في حالة غضب من (زيوس) ووضعته قبل ميعاد ولادته.

يعد الزمان ربيعاً دائماً، كما كان فأنتقل الرجل إلى العصر الفضي، لكن بمجيء المرأة (بندورا) إلى الأرض بدأ العصر النحاسي بسبب تلك الأشباح التي جلبتها معها، المرض والعلل وآفات الفقر التي انطلقت من الصندوق[١]. فملأت الأرض بمختلف أنواع الشدائد، ثم كثرت المصائب، فانتقل إلى العصر الحديدي حيث تغلغلت الخطيئة في نفوس الناس يتكالبون على الأرزاق ويقتل بعضهم بعضاً. ويلخص هزيود رأيه في المرأة بقوله: (إن جنس النساء اللطيف جاء من بندورا هذا الجنس الخبيث الذي هو شر مستطير يتلبس الرجال، فالمرأة ليست رفيقة حياة تشارك زوجها الفقر والألم ، وإنما بالطعام والثياب، ولا يقف نهمها عند حد، هكذا خلق زيوس المرأة مصدر شر وفساد.[٢]

عموماً فإنهم بالتالي عملوا على تعميق شعور المرأة اليهودية بدونيتها، وبأنها هي المسبب في عقوبة آدم مما أوجدوا عندها هاجساً بالذنب والخوف، ويدعم ذلك ما رافق المرأة من تشريعات قاسية جداً أيام حيضها وما تضيفه لها من نحاسة وشؤم، فقد جاء في العهد القديم:

(وإذا حاضت المرأة فسبعة أيام تكون في طمثها، وكل من يلمسها يكون نجساً إلى المساء. كل ما تنام عليه في أثناء حيضها أو تجلس عليه يكون نجساً، وكلّ من يلمس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى المساء. وكلّ من مسّ متاعاً تجلس عليه، يغسل ثيابه ويستحم بماء، ويكون نجساً إلى المساء.

(١) هو الصندوق الذي أرسله زيوس هدية إلى بندورا بمناسبة زواجها، وكان يحوي جميع المصائب والشرور.

(٢) افلاطون والمرأة: د. إمام عبد الفتاح إمام، نشر مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٦م: ص٢٧ وما بعدها.

وكل من يلمس شيئاً كان موجوداً على الفراش أو على المتاع الذي تجلس عليه يكون نجساً إلى المساء. وإن عاشرها رجل وأصابه شيء من طمثها، يكون نجساً سبعة أيام. وكل فراش ينام عليه يصبح نجساً.

إذا نزف دم امرأة فترة طويلة في غير أوان طمثها، أو إستمر الحيض بعد موعده، تكون كل أيام نزفها نجسة كما في أثناء طمثها. كل ما تنام عليه في أثناء نزفها يكون نجساً كفراش طمثها، وكل ما تجلس عليه من متاع يكون نجساً كنجاسة طمثها. وأي شخص يلمسهن يكون نجساً، فيغسل ثيابه ويستحم بماء، ويكون نجساً إلى المساء. وإذا برئت من نزفها فلتمكث سبعة أيام ثم تطهر، وفي اليوم الثامن تجيء بيمامتين أو فرخي حمام إلى الكاهن إلى مدخل خيمة الاجتماع، فيقدم الكاهن أحدهما ذبيحة خطيئة، والآخر محرقة. ويكفر الكاهن عنها في حضرة الربّ من نزف نجاستها.) سفر اللاويين، الإصحاح١٥: ١٩- ٣٣.

وجاء في التلمود: ((الحمد لك يا رب يا ملك الدنيا، يا من لم تخلقني أنثى))

((وا حسرتاه لمن كانت ذريته إناثا))

((أصلح النساء مشعوذات))

((النساء ارواحهن تافهة))

((النساء لسن حكيمات ولا يعتمد عليهن))

((نزلت الى العالم عشرة أنصبة من الثرثرة أخذت النساء منها تسعاً))

((لا توجد إلّا للجمال، لا توجد إمرأة إلّا لإنجاب الأولاد))

((كل من يمشي وراء مشورة امرأة يسقط في جهنم))

كل هذا سيجعل المرأة تعمل كل شيء من أجل إرضاء الرجل، عسى أن تمحي جزءاً مما راود الفكر عند الرجال حولهن وحول خلقهن، وما تسببن فيه من طرد لآدم من الجنة.

رؤية جديدة لفهم أسباب استغلال اليهود للنساء

ولذلك نستطيع الآن ان نقدم فهماً جديداً نستطيع من خلاله أن نعلل ظاهرة استغلال نساء اليهود بأبشع وأخس التصرفات، التي منها تقديم أجسادهن وجمالهن كعنصر رئيس في عملية جذب الآخرين، ومن ثم الوصول الى أهدافهم التي يمكنهم من خلالها البقاء والتسيد، وذلك بدعم دينهم وما تبنوه بكل وسيلة تفيد هذا الغرض.

كل ذلك ليكون كفارة أو تعويضاً عمّا بدر من أمهن حواء، وما تسببت به من آلام وأتعاب لآدم، بعد أن أطاعها في أمر هو منهي عنه من قبل الربّ الإله.

ويمكن ملاحظة ذلك من خلال استخدامهم في رواية التوراة لعدّة شخصيات ورموز من النساء، من أجل تعزيز هذا الغرض الذي ملأ كل حيز تفكيرهم، الذي ظل يشاطر وجودهم بين الأقوام التي عاشوا معها نتيجة حلّهم وترحالهم، فكان استخدام سلاح النساء هو البديل الذي يمكن الوصول من خلاله الى غاياتهم وأهوائهم، مع قدرة إيجاد الأعذار والمبررات التي يطرحوها لجعل ما تقدم به نساؤهم ورضى رجالهم به أمراً مستساغاً، لا غرابة ولا دهشة حوله.

ولذلك سمحوا لأنفسهم بأن يتعرضوا لأعلى الشخصيات والرموز الإنسانية

كإبراهيم ولوط وسليمان وداود عليهم السلام ليجعلوا منهم شركاء في هذا المنهج اللاأخلاقي ليبرروا كل الأفعال الدونية التي تظهر منهم، بإعتبار ان أكابر أنبيائهم قد أدّوا هذا الدور من قبلهم.

العرض النسائي في الرواية التوراتية

يمكن لنا أن نعرض الآن بعض السبل التي عرضتها الرواية التوراتية في هذا الشأن:

الأولى: عرض سارة زوج إبراهيم عليه السلام لفرعون مصر على اعتبار أنها اخته.

الثانية: استخدام أستير لحماية اليهود في بلاد فارس.

عرض سارة زوجة إبراهيم عليه السلام لفرعون

جاء في رواية التوراة في سفر التكوين: (ولما اقترب أبرام من مصر استرعى جمال ساراي أنظار المصريين، وشاهدها أيضاً رؤساء فرعون فأشادوا أمامه. فأُخذت المرأة إلى بيت فرعون. فأحسن إلى أبرام بسببها وأجزل له العطاء من الغنم والبقر والحمير والعبيد والإماء والأُتُن والجمال. ولكنّ الربّ ابتلى فرعون وأهله ببلايا عظيمة بسبب ساراي زوجة أبرام. فاستدعى فرعون أبرام وسأله: «ماذا فعلت بي؟ لماذا لم تخبرني أنها زوجتك؟ ولماذا ادّعيت أنّها أختك حتى أخذتُها لتكون زوجة لي؟ والآن ها هي زوجتك، خذها وامض في طريقك) سفر التكوين، الاصحاح١٢: ١٤- ١٩.

وفي هذا الصدد يقول الدكتور علي عبد الله الجباوي: والشيء الأكثر غرابة

والأبعد تقبلاً للعقل يكمن بما يلي:

هل دخول أبرام وزوجته سارة وماشيتهما الى أرض مصر نتيجة جدب في الأرض التي أنتقل منها، كان من الأهمية آنذاك كي تصل أخباره الى كبير القوم فرعون؟ إن هذا لا يكون صحيحاً، إلّا إذا كان أبرام قد دخل مصر غازياً على رأس جيش يريد إنتهاك حرمة الأراضي التابعة لفرعون، وأن هذا الأمر لم تحدثنا عنه الكتابات المصرية التي لم تترك شيئاً إلّا وذكرته على جدران القبور والمعابد.(١)

ومن أهم الحقائق التي تؤكد زيف وإختلاف ما جاء بحق أبرام وزوجته ساراي مع فرعون مصر هو موقف المصريين القدماء القائم على الإحتقار والدونية للنمط المعيشي الرَعَوي ولأتباعه، وقد بلغ الإحتقار بهم، حد نعتهم لرعاة الماشية بالنجاسة والدنس، وهذا مما يجعل الفرد المصري، آنذاك يأنف الجلوس الى مائدة الطعام مع أناس يعيشون على الماشية من أمثال أبرام وزوجته ساراي لكونهما رعاة ماشية.(٢)

وما يؤكد هذا الأمر هو ما جاء في سفر التكوين: (وخاطب يوسف إخوته وبيت أبيه: أنا ماض الآن إلى فرعون لأخبره أن إخوتي وبيت أبي المقيمين في أرض كنعان قد قدموا إليّ. رعاة غنم، وحرفتهم رعاية المواشي، لذلك أحضروا معهم غنمهم وكلّ مالهم. فإذا دعاكم وسألكم ما حرفتكم؟ قولوا: حرفتنا رعاية المواشي منذ صبانا إلى الآن، كذلك نحن وهكذا آباؤنا جميعاً. لكي تقيموا في

(١) المرأة في أسفار التوراة: د. علي عبد الله الجباوي، نشر دار التكوين، دمشق، ط١، ٢٠٠٩م: ص١٨

(٢) المصدر نفسه: ص٢١.

أرض جاسان؛ لأن كل راعي غنم نجس لدى المصريين) سفر التكوين٤٦: ٣١-٣٤.

والحقيقة لو توقفنا وتأملنا قليلاً، فإننا لا يمكن أن نحصر سبب قدوم إبراهيم عليه السلام الى مصر بهذين السببين اللذين ذكرهما الدكتور وهما:

١- سبب جدب الأرض التي أنتقل منها الى مصر.

٢- إنّ إبراهيم عليه السلام قد دخل مصر غازياً.

فكلا الأمرين قد يكونا غير متحققين عند إبراهيم عليه السلام حتى يدخل مصر. وإنما قد يكون الأمر متعلقاً بالهداية والدعوة الى التوحيد، وهو الأقرب للواقع الفكري والحركي لإبراهيم عليه السلام، وكان هذا الأمر يشّده الى إيصال كلمة الحق ببعدها الرسالي الى كل مراكز المعمورة، وخصوصاً التي تمثل البؤر الحضارية الرئيسية مثل مصر في تلك الحقبة السحيقة من الزمن، والذي يساعد أيضاً للقيام بتلك الرحلة هو رفض قومه لدعوته وعدم الإستجابة له، حتى أقدموا على قتله حرقاً بالنار، بحيث أعدوا لذلك محرقة كبرى نادراً ما يشهد بمثلها التاريخ، ولكن الله أنجاه بأعجوبة وخلّصه من أيدي الظالمين، إذ قال تعالى: (قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ) سورة الأنبياء: ٦٨ – ٦٩، وحينئذ يكون المسّوغ للرحيل من بلاده متوجهاً الى بلاد أخرى هو المتعين، مضافاً الى أمر الإستمرار بنشر رسالة

التوحيد يبقى سارياً للإنتقال والوصول الى البلدان الأخرى.(١)

فإذا كان الأمر كذلك فسوف يبطل ما ادّعاه كاتب التوراة فيما يخص ابراهيم وزوجته سارة لعدّة أسباب نذكر منها:

١- انّ نفس التوراة تقول بأن إبراهيم عليه السلام عندما رحل من أور، بأمر الربّ كان عمره في الخامسة والسبعين: (فأرتحل أبرام كما أمره الربّ، ورافقه لوط. وكان أبرام في الخامسة والسبعين من عمره عندما غادر حاران) سفر التكوين١٢: ٤، وهذا العمر يدلنا على أن زوجته سارة لم تكن شابة وإنّما كانت عجوزاً، فأيّ جمال هذا الذي يتكلم عنه كاتب التوراة حتى يبدو منها لتسحر عيون المصريين وخصوصاً الفرعون منهم؟! وما يؤيد هذا الكلام هو ما جاء في القرآن الكريم: (قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ) سورة هود: ٧٢.

٢- الذي أقدم على الموت من أجل رسالته وقضيته، عندما حاولوا حرقه، والذي واجه عتاة قومه بشجاعة فائقة، بعد أن كسّر أصنامهم، إذ قال تعالى: (فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ * قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ * وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ) سورة الصافات: ٨٨ – ٩٩. وكذلك حوارياته مع النمرود: (أَلَمْ

(١) وهنا لا ينتقل ذهن القارئ الكريم بأن إبراهيم عليه السلام قد رحل في بادئ الأمر من أور الى أرض كنعان ولم يتوجه مباشرة الى أرض مصر، كما تنقل ذلك التوراة (أنظر سفر التكوين الإصحاح١٢: ٥- ٦) فالأمر سيّان فيما اعطيناه من أسباب.

تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) سورة البقرة: ٢٥٨. فهذه كلها تدل على صلابة في المبدأ والعقيدة، والإقتناع التام بأحقية ما بعث من أجله، وإن رسالته تستحق أن يضحي من أجلها بنفسه وبكل ما يملك. فكيف يقدم على أمر لا يقوم به أي فرد عادي، يمتلك قليلاً من الغيرة والشرف ليقدّم زوجته جسداً ينتهب من قبل اعدائه لأجل الحفاظ على حياته؟!.

وقد كرر كاتب التوراة نفس الموقف لإبراهيم عليه السلام مع الملك العربي (أبي مالك) ملك (جرار) إذ قدّم إبراهيم زوجته ساراي الى الملك على أنها أخته لينال بها خيراً، إذ جاء في رواية التوراة: (وارتحل إبراهيم من هناك إلى أرض النقب، وأقام بين قادش وشور، وتغرّب في جَرار. وهناك قال إبراهيم عن سارة زوجته: (هي أختي). فأرسل أبيمالك ملك جَرار وأحضر سارة إليه. ولكن الله تجلى لأبيمالك في حلم في الليل وقال له: إنك ستموت بسبب المرأة التي أخذتها، فإنها متزوجة. ولم يكن أبيمالك قد مسّها بعد، فقال للربّ: أتميت أمّة بريئة؟ ألم يقل لي إنها أختي وهي نفسها أدّعت أنه أخوها) سفر التكوين الإصحاح ٢٠: ١-٥.

ثم يتكرر هذا الفعل من قبل اسحاق بن إبراهيم مع نفس الملك أبي مالك، حيث يقدم زوجته رفقة إبنة ناحور أخي إبرام على أنها أخته خوفاً من القتل. حيث جاء في سفر التكوين: (وعندما سأله أهل المدينة عن زوجته قال: هي (أختي) لأنه خاف أن يقول: هي زوجتي لئلا يقتله أهل المدينة من أجل رفقة، لأنها كانت رائعة

الجمال، وحدث بعد أن طال مكوثه هناك، أن أبيمالك ملك الفلسطينيين أطلّ من النافذة، فشاهد إسحاق يداعب امرأته رفقة. فاستدعاه إليه وقال: إنها بالحقيقة زوجتك، فكيف قلت هي أختي؟ فأجاب إسحاق: لأني قلت: لعلي أُقتل بسببها. فقال أبي مالك: ما هذا الذي فعلت بنا؟ لقد كان يسيراً على أي واحد من الشعب أن يضطجع مع زوجتك فتجلب بذلك علينا إثماً).سفر التكوين٢٦: ٧- ١٠.

إنّ كاتب التوراة كان يهدف من خلال هذا التصوير أموراً كثيرة تستفاد من نفس السياق الدرامي للقصة، ومنها:

الأول:

إنّ المرأة كمخلوق هي حتى عند أكابر الأنبياء والمرسلين يبقى وجودها متدني ويمكن استخدامها كواسطة لتنفيذ المخططات أو الأهداف الإلهية، كما يدّعون والتي هي في الواقع لا تمثل إلّا طموحاتهم الشخصية وتطلعاتهم المستقبلية.

وحينئذ فإن الشخصية اليهودية ستعيش، أو قل ستقبل حالة التطبع لمثل هكذا أمور، بل وزيادة بإعتبار أن أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام قد فتح لهم باباً لمثل هكذا أفعال على مصراعيه، وعليهم أن يستفادوا من أمثال تلك الخطوات التي يثيرها الكهنة والأحبار على أساس أنها من صلب الشريعة، بل هي من دعائم انتشار الديانة اليهودية. وذلك بإعتبارين؛ الأول منهما هو التعويض وسد ذلك النقص الذي تمثل في الخلق من ضلع آدم لتكون خادمة له ويستخدمها كيف يشاء، وعلى أساس عودة الجزء الى الكل، والثاني هو ذلك التصرف الخاطئ من قبل حواء، وامتثالها لطلب الحيّة في الأكل من تلك الشجرة، ومن ثم توريط آدم

وإيقاعه بنفس الخطأ الذي وقعت به مما تسبب بالتالي الى إنزال عقوبة الطرد من الجنة لينزلا في أرض الشقاء والبلاء.

الثاني:

نلاحظ أن سارة لم تبدي أية ممانعة لما طلب منها إبراهيم عليه السلام ذلك الطلب، بل امتثلت أمره، وهي التي أكدت قول إبراهيم أمام أبي مالك حينما قال: (وهي نفسها ادّعت أنه أخوها). وهنا يريد الكاتب أن يعطي صورة بأن سارة كانت على أتم الإستعداد لأن تكون إمرأة فرعون وملك جَرار. وبدت وكأنها قد امتثلت لتنفيذ أمراً إلهياً، وسوف تنال من خلاله تمام الرضا الإلهي، حتى ولو كان بتلك الطريقة اللاأخلاقية. وكاد هذا الأمر أن يتم، كما خطط له، لولا تدخل الربّ ومنع حدوث تلك الجريمة.

وبذلك فإن كاتب التوراة أراد أن يوصل عدّة رسائل من ذكر هذه القصة منها: انه على كل فرد من اليهود مهما كان مركزه الديني أو الإجتماعي عالياً، فعليه أن يدع في خلجات نفسه إنه متى ما وضع في موضع تكون فيه الديانة اليهودية مهددة، أو قد يكون هناك خطراً على شخصية مهمة من الشخصيات اليهودية، فهنا عليهم أن يبادروا بإنقاذه، حتى لو استدعى أن يقدّموا نساءهم، لإغواء جهة الخطر أو تفتيت قواها. وعلى كل فرد يهودي أن لا يعارض هذا العمل، مادام بالتالي يصب في خدمة الديانة اليهودية. والرسالة الأخرى؛ أن تكون المرأة اليهودية على أتم الإستعداد لأداء مثل هذه الأدوار لتكون لها كفارة، أو تعويضاً للنقص الذاتي الموجود فيها.

الثالث:

شعر كتّاب التوراة واقعاً بأهمية المرأة، ولا يمكن أن يتغاضوا عن هذه الأهمية، فهنا إحتاجوا للوصول الى الكيفية التي يمكن من خلالها استغلال هذه الأهمية والقوّة التي تمتلكها المرأة من خلال انوثتها في التأثير على الآخرين، ولكي لا تصبح هذه القوّة عصية عليهم وغير منقادة لرغباتهم، عَمدوا الى التقليل من أهمية المرأة عن طريق الدين واللاهوت، معتمدين على قضايا ميثولوجية تسند ما ذهبوا إليه. وكان أول البوادر لذلك هو إختلاقهم لقضية خلق المرأة من ضلع آدم، فكان نقصاً تكوينياً لها، ثم عمدوا الى أيجاد نقص عملي آخر وهو تسبيبها في هبوط آدم من الجنة. ولن يستطيعوا بغير طريق الدين والشريعة من زرع بوادر الدونية والشعور بالنقص الذاتي للمرأة. حتى أن لشدّة تثبيت هذا المعتقد والتمسك به، أخذ دوره الواضح عند النصارى، وكذلك تأثر به بعض الرواة المسلمين، فأخذ كمعتقد لهم في كيفية خلق حواء.

وعندما صدّقت المرأة اليهودية ما قيل عنها في كيفية خلقها، وكذلك تسببها في غواية آدم وهبوطه من الجنّة، نتيجة ما طرحته لها الشريعة، وبقلم ولسان طقسي، سعت الى إرضاء رجال الدين لما أرادوه منها وبشكل تصاعدي، وبأتساع اكبر وتأثير اقوى.

إستخدام (أستير) الجميلة لحماية اليهود في بلاد فارس

يتضح لنا مما سبق أن التعاليم اليهودية لا تقف حجر عثرة عند من يؤمن بها في امتهان الدعارة والعهر عن طريق النساء اليهوديات اللواتي يقدمن أنفسهن واجسادهن في سبيل تحقيق غاية معينة، وصولاً الى هدف قد حدّد لهن. فنلاحظ في سِفر (أستير) كيف يبدي كاتب التوراة تأثير جمال المرأة وأنوثتها على الملك الفارسي (أحشويروش) بحيث يشكل محوراً اساسياً في عملية انقاذ الشعب اليهودي، وبالتالي ليعطي صورة عن مدى أهمية المرأة وجمالها في إغواء اصحاب القرار، وإيداع الشعب اليهودي في منطقة الأمان وخلاصه من العذاب والضغوط الإجتماعية بسبب الأسر أو غيره. فقد أظهر كاتب التوراة بأن هناك ظلماً قد وقع على اليهود، حتى اصدر الملك (أحشويروش) مرسوماً ملكياً بإبادتهم، بحيث صرف نحو ثلاث مئة ألف كيلوغرام من الفضة من أجل تنفيذ هذا المرسوم، الى غيرها من المظالم التي كان يعيشها اليهود في ظل الأسر الفارسي، وفيما سبق الأسر البابلي على عهد نبوخذ نصر. هذا ما يقوله كاتب التوراة، ولكن الحقيقة تبدو خلاف ذلك، فتبدأ قصة (أستير) في عام ٤٨٣ ق. م بعد مرور مائة سنة وثلاث سنوات على سبي نبوخذ نصر لليهود، وبعد قيادة (زربابل) سمح لأول مجموعة من المسبيين في العودة الى أورشليم حيث تخبرنا التوراة في سفر عزرا: ١: ٢ (بعد انقضاء سبعين عاماً في المنفى، سمح للمسبيين من يهوذا بالرجوع الى وطنهم، وقام بهذه الرحلة ما يقرب من خمسين ألف شخص. وعند وصولهم شرعوا في إعادة بناء الهيكل) ولكن فضّل كثير من اليهود البقاء في فارس، عن العودة الى وطنهم، وكانت السجلات الفارسية تدل على أن كثير من اليهود في فارس اقتنوا الثروات الضخمة، فكانت العودة الى أورشليم تعني التخلي عن كل ما يمتلكون

والبدء من جديد. ولم يستطع الكثير إقناع انفسهم بعمل ذلك، اذ فضلّوا الثروة والأمن والحرية على التضحية التي يستلزمها عمل الله.(١)

عاشت (أستير) في مملكة فارس التي استولت على بابل عام ٥٣٩ ق. م. ولابد أن والدي أستير كانا من بين المسبيين الذين لم يرغبوا في العودة الى أورشليم، رغم أن الملك كورش كان قد أصدر مرسوماً يسمح لهم بذلك.

ولذلك فان مسألة استخدام أستير للوصول الى الملك، والتأثير عليه من أجل رفع الظلم عنهم. مسألة غير مقبولة وغير مقنعة، إلّا اللهم كان عمل (مردخاي) المخطط له بعمق من أجل ان يوصل أستير الى الملك مستخدماً جمالها وأنوثتها مستغلاً يتمها، ليصل الى أهداف وأطماع لم يذكرها كاتب التوراة، لأنها قد تكون اهدافاً دنيئة او عنصرية. ثم إنه لو فرضنا أنه كان هناك ظلماً وحيفاً قد وقع على اليهود المسبيين في فارس. أما كان الأجدر بهم، إن لم يتمكنوا من الثورة والمقاومة، بأن يرحلوا من بلاد فارس، ويعودوا الى أورشليم، مقر سكناهم كما يدّعون فارين بسلامتهم وحريتهم، مضافاً الى تحقيق حلمهم بالعودة الى القدس؟!.

إذن فلماذا هذا اللف والدوران، إن لم يكن كاتب التوراة لا زال يخطط ويخطط لجعل المرأة في أحط المواقف وعليها ان تقبل كل الظروف من أجل تحقيق أحلامهم وأفكارهم الخبيثة، ولننظر كيف يصور لنا المرأة في هذا السِفر ويصرّ على إحتقارها وإمتهانها. لينقل لنا مشهداً دراميـاً بعيداً عن الذوق والأخلاق من أجل تمرير ذلك البعد الصوري الدوني للمرأة:

---

(١) ينظر التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، عند شرح الفقرة (١:٦) في سِفر عزرا.

(وفي اليوم السابع عندما دارت الخمر برأس الملك، أمر خصيانه السبعة مهومان وبزثا وحربونا وبغثا وأبغثا وزيثار وكركس الذين كانوا يخدمون في حضرته، أن يأتوا بالملكة (وشتي) لتمثل في حضرته، وعلى رأسها تاج الملك، ليرى الحاضرون من الشعب والعظماء جمالها، لأنها كانت رائعة الفتنة. فأبت الملكة أن تطيع أمرَ الملك الذي نقله إليها الخصيان. فاستشاط الملك غيظاً واشتعل غضبه في داخله. وكانت عادة الملك أن يستشير الحكماء العارفين بالأزمنة والشرائع والقوانين، فسأل كرشنا وشيثار وأدماثا وترشيش ومَرَس ومرسنا ومموكان، وهم سبعة حكماء مقربون إليه من رؤساء مادي وفارس، ممن يمثلون دائماً أمام الملك، ويحتلون المراتب الأولى في المملكة: أي شيء تعاقب به الملكة، حسب نص القانون، لأنها لم تصدع لأمر الملك الذي نقله إليها الخصيان؟ فأجابه مموكان في حضرة العظماء: إن الملكة وشتي لم تذنب في حق الملك وحده، بل أساءت إلى جميع الرؤساء والأمم المقيمين في تخوم الملك أحشويروش، فما أن يذيع خبر تصرّف الملكة بين جميع النساء، حتى يحتقرن أزواجهن، إذ يقلن: إنّ الملك أحشويروش أمر أن تمثل الملكة وشتي أمامه ولكنها لم تصدع بأمره. فتحذو في هذا اليوم سيدات فارس ومادي، اللواتي بلغهن خبر الملكة، حذوها، مع جميع رؤساء الملك. ومثل هذا يثير كثرة من الإحتقار والغضب. فإذا راق للملك فليصدر أمراً ملكياً، يسجل ضمن مراسيم مادي وفارس التي لا تتغير، يحظر فيه على وشتي المثول في حضرة الملك أحشويروش. ولينعم الملك بملكها على من هي خير منها. وهكذا يذيع أمر الملك الصادر عنه في كل أرجاء مملكته الشاسعة، فتعامل جميع النساء أزواجهن صغاراً وكباراً بإحترام. فاستصوب الملك وعظماؤه هذا الرأي، وعمل بمشورة مموكان، فبعث رسائل إلى كل أرجاء المملكة، مكتوبة بلغة أقاليمها وبلهجة

شعوبها، يأمر فيها أن يكون كل رجل السيد المطاع في بيته، وأوصى أن يذاع هذا الأمر حسب لغة كل شعب) سِفر أستير ١: ١٠- ٢٢.

ثم ينقل لنا كاتب التوراة مشهداً آخر حول مسابقة ملكة جمال فارس:

وبعد حين سكن غضب الملك أحشويروش وتذكر وشتي وما فعلت وما حكم به عليها، فقال له ندماؤه المقربون إليه: ليأمر الملك فيختار له فتيات عذارى حسان المنظر، وليقم وكلاء في جميع أقاليم مملكته ليجمعوا الفتيات الحسان المنظر إلى دار النساء في شوشن العاصمة، تحت سلطة هيجاي خصيّ الملك وحارس النساء، وليعطهن لوازم الزينة، والفتاة التي تعجب الملك يستبدلها بوشتي. فأستحسن الملك هذه المشورة وعمل بها. وكان في شوشن العاصمة رجل يهودي اسمه مردخاي بن يائير بن شمعي بن قيش من عشيرة بنيامين. وكان في جملة المسبيين من أورشليم بمعية يكنيا ملك يهوذا الذي سباه نبوخذ نصر ملك بابل. وكان مربياً لهدَّسه التي هي أستير ابنة عمّه، لأنها فقدت أباها وأمها، وكانت رائعة الجمال، مات أبوها وأمها فتبناها مُرْدخاي. فلما أذيع أمر الملك وجمعت فتيات كثيرات إلى شوشن العاصمة تحت سلطة هيجاي حارس النساء، إختار هيجاي أستير وأدخلها بيت الملك فأعجبت الفتاة الملك وحظيت برضاه، فعجّل بإعطائها ما يلزمها من الزينة ووجبات الطعام، وخصّها بسبع فتيات اختارهن من بيت الملك ونقلها معهنّ إلى أحسن محلّ في دار النساء. وعملاً بوصية مُردخاي لم تخبر أستير شعبها وأقاربها بالأمر.

وكان مردخاي يتمشى كل يوم أمام دار النساء ليستعلم عن سلامة أستير وما يحدث لها. وكانت كل فتاة تدخل في الوقت المعين لها على الملك أحشويروش، وذلك بعد أن تقضي أثني عشر شهراً في دار النساء بحسب التقليد المتبع، فتتعطر

ستة أشهر بزيت المرّ وستة أشهر بأطياب وأدهان خاصة بالنساء، وحين كانت تذهب من دار النساء إلى دار الملك يعطى لها كل ما تطلب. كانت تذهب في المساء وترجع في الصباح إلى دار النساء الثانية بـعهد شعشغار، خصيّ الملك وحارس جواريه، ثم لا تعود تدخل على الملك إلّا بإرادة الملك فتدعى بإسمها.

فلما جاء وقت دخول أستير على الملك لم تطلب شيئاً إلا ما قاله هيجاي خصيّ الملك وحارس النساء، لأنها كانت تنال إعجاب كل من رآها. فأخذت أستير إلى الملك أحشويروش في دار ملكه، في الشهر العاشر الذي هو شهر طيبيت، في السنة السابعة من ملكه. فأحبّ الملك أستير على جميع النساء وحظيت برضاه وعطفه أكثر من جميع العذارى، فوضع التاج الملك على رأسها وجعلها ملكة مكان وشتي) سفر أستير٢: ١١ - ١٧.

انظر هنا الى كاتب التوراة كيف يجعل من طرد أحشويروش لزوجته وشتي مشكلة كبيرة يقلق الملك بها، ولا يهدأ له بال، وكأن أمر المملكة اصبح متعلقاً بإيجاد بديلاً لوشتي ليس إلّا. وهنا ينتقل خيال كاتب التوراة الى مساحة من دراما الجسد للإيقاع ببعده الأنثوي الخلّاب، وجمال الوجه الأخّاذ، بقلب الملك، وحل عقده النفسية تلك، التي سببها فراق وشتي الجميلة، وهو لا زال ينتقل بنفس المفردة، ليسبك من وقع قصته التي أوردها في سِفره. فهو بعد أن يجعل من جمال وشتي ركناً يشارك الملك في مملكته، يضع له بديلاً بعد حين، بنفس البعد الإغرائي والمقياس الجمالي الأنثوي، ليوحي به للآخرين بأنه ركن أساسي لا يمكن التخلي عنه في اي زمان ومكان.

ثم ينتقل الى مشهد فيه الإثارة تكون أكثر، وإبراز المرأة في مشهد أكثر إيحائية على أنها خالية من الفعالية والتأثير، إن لم تكن صاحبة جمال ومفاتن انثوية كاملة.

فعمل على إيجاد شخصاً مقرباً للملك يشير عليه بجمع النساء الحسان في بلاد فارس، ثم يجري لهن مسابقة لاختيار أجملهن وأكثرهن حُسْناً ليختارها ويأنس بها لتكون له محظية او زوجة، وكأن الأمر لا يتم للملك بإختيار المرأة المناسبة له، إلّا من خلال هذا التصرف.

ثم يأتي المؤرخ اليهودي (يوسيفوس) ليؤكد هذا الأمر ويضفي عليه صفة من الواقعية لزيادة إقناع من يطلع على هذا السفر فيقول: أن أربع مئة فتاة شاركن في هذه المنافسة الرائعة الى حد بعيد. اذ اتيحت لهنّ سنة كاملة فيها يصقلن كل فن من فنون الإغراء، ويعززن جمالهن بتبديل أجسامهن، ويستعملن كل وسيلة من وسائل التجميل والتزيين. وكان مقصوداً في الأخير أن تتجلى لديهن الأناقة والفتنة وجمال الجسد والإغراء المثير، ثم تقضي كل منهن ليلة مع الملك.[1]

ويأتي كاتب آخر اسمه سي أف كايل، وضمن تفاسير كايل وديليتش، ليعضد آراء من سبقه في الكتابة لتأصيل هذا الإتجاه فيقول: (إن هذه الكلمات-اي ما جاء في التوراة في مسألة إختيار أجمل امرأة - تعني (الفرك والصقل، وتدل على التنظيف والتزيين بكل نوع من الأدهان والمراهم الثمينة، وبعبارة أخرى فان القيّمين قضوا سنة واحدة وهم يعدّون هؤلاء النساء، صاقلين منظرهن الخارجي لتعزيز جمالهن الجسماني، امر مثير للإهتمام. أليس كذلك؟ ففي مدّة من الزمان قصيرة نسبياً يمكن تعزيز جمال الإنسان الخارجي.[2]

فإذا كان الأمر في التعامل مع المرأة يتم بهذا الشكل لإظهار أهميتها من خلال

(١) أستير: تشارلز. سو يندل، ترجمة سعيد باز، نشر دار منهل الحياة، بيروت، ط١، ٢٠١٤: ص٦٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٦١.

جمال وشدّة انوثتها، بحيث تظهر بالتالي كعلامات قد اعدّت مسبقاً لها من أجل تعويض نقصها الخلقي من ذلك الضلع، ومعصيتها التي تسببت في هبوط آدم من الجنّة، لتتحمل بالتالي قبول أرذل وأخس المواقف الأخلاقية، من أجل تحقيق هدف لليهود قد يكون سبباً لتنال به الغفران المقدس، الذي تتمكن به من إزالة أي دنس خلقي أو معنوي.

هذا من جهة، وإذا ما رجعنا الى مراجعة ذلك النصّ من سِفر أستير الذي يبين حالة (وشتي) وكيف أنها تحملت طرد الملك لها وافتراقه عنها، بسبب رفضها لذلك الطلب من قبل أحشويروش لكي تخرج عن الناس عارضة جمالها ومحاسنها لهم، بالرغم من أن تلك لم تكن عادة المجتمع الفارسي، لكن كاتب هذا السِفر، لكي يجعل روايته متقنة ويفعّل السبب الذي من أجله أمر الملك من جلب جميلات فارس وإجراء مسابقة لإختيار أجملهن وأكملهن أنوثة، إختار ذلك المشهد ليبدو مقنعاً للقارئ والمتلقي، وليبقى بالتالي في نفس السياق الذي يريد أن يعطي من خلاله المبرر للمرأة بالتنازل عن شرفها وكرامتها، متى ما استدعت الظروف الى ذلك، من أجل أن تحافظ على أسرتها أو مجتمعها أو أبناء دينها.

ولعل هذه المبادرة تعتبر الأولى التي شجعت الى التحرك وإيجاد مسابقة ملكة جمال العالم أو ملكة جمال الكون أو ملكة الحسن الفائق وغيرها من أمثال هذه المسابقات التي تقام في عصرنا الحالي، والتي هي واقعاً تسخر من قضية وجود المرأة الرسالي لتحوله الى وجود لإستعراض المفاتن والإغواء الذي يستتبع ذلك الكثير من الفساد والتفسخ.

عموماً وكذلك من الرسائل المهمة التي أراد كاتب التوراة أن يوصلها

للآخرين، بأن اليهود لا يمكن إقصاؤهم عن المراكز العليا، مهما كانت العوائق والأسباب، فهم شعب الله المختار، ولابد أن يكون لهم صوتاً حاضراً وتأثيراً على القرارات العليا، حتى وان خفيت عناوينهم، فها هي أستير كانت من السبي اليهودي، وجيء بها الى بلد أجنبي، وهي فوق ذلك يتيمة، ولم يكن لها مدخلية أو أية علاقة مع أشراف الفرس، ولكن بمجرد ان تدخل (مردخاي)- الذي يمثل الوجه الديني لليهود، كما يريد أن يقدمه كاتب التوراة، الذي يعرف كيف يحرك المفردات والتلاعب بها -تمكن من استغلال أستير، واضعاً جمالها وسرّ أنوثتها المفتاح الذي سيوصل من خلاله لفتح بلاط الملك، ومشاركته بإتخاذ القرارات.

وبذلك ستكون الإشارة واضحة على أن اليهود، لا يمكن استصغارهم أو محاولة الإضرار بهم، فإن الله قد حماهم، وقد هيأ سبل وأسباب تلك الحماية التي تحرك الأشخاص لتأدية أدوار تحقق هذا الهدف المزعوم.

والآن لنكتفي بهذا الاستعراض والنقد للنص الروائي التوراتي من سِفر أستير، ولنترك نتائج هذه المسرحية التي أدت الى نجاة الشعب اليهودي من المؤامرة التي اعدّها لهم هامان الفارسي، بسبب ما خطط له المتدين اليهودي (مردخاي) بإستخدام تلك اليتيمة التي اسمها (أستير) لنطوي كشحاً عن ذلك النصر المزعوم، الذي تحقق نتيجة استغلال جمال وحسن المرأة.

هذا وقد كان اليهود يسوغون جرائمهم وفضائحهم، فنسبوها للأنبياء جميعهم، بإلصاق وتشويه أفعالهم بإتهام النبي لوط ومضاجعته لإبنتيه، فها هن بنات العجوز لوط يقدمن على مضاجعة أبيهن بعد تقديم الخمر له.[1]

---

(١) ينظر: سِفر التكوين، الإصحاح١٩: ٣٣- ٣٨.

وتشويه أفعالهم بإتهام النبي داود بقتل جاره أوريا الحثّي من أجل أن يضطجع مع زوجته الجميلة ومن ثم ليتزوجها.[1] وغيرها من الأمثال الكثيرة الواردة في التوراة، وما ذلك إلّا لإمتهان أعراضهم في متعهم الجنسية الإباحية، حتى يقولوا هكذا انبياؤنا، فما لنا نحن؟[2]

هذا ولم يكتف كتبة سفر التكوين بإبتداع قصص خيالية بعيدة عن متناول العقل ليغرسوها في عقول قارئيها من اتباع الدين اليهودي القائم على مبدأ سنّوه، يقوم على إستخدام السبل كافة، بما فيه الرذيلة البعيدة عن الطباع الإنسانية المهذبة، وفي مقدمتها تقديم المرأة لمن لهم مصلحة عنده، ليتمتع بجسدها في الوقت الذي أضمروا فيه إبتزازه أو تغيير مواقفه المعادية لهم أو لتحقيق مصالحهم المادية، بل نجد أن تعاليم التوراة لم تغفل العامل النفسي عند المرأة عندما يستغل جسدها كسلعة من أجل الهدف الذي وضع للوصول إليه، إذ عليها أن تتقبل هذا السلوك طواعية دون ترغيب أو تهديد من أحد، لا بل ينبغي أن تكون هي المبادرة لممارسة الدعارة وإبتزاز الرجال من غير اليهود ولإيقاعهم في مستنقع الرذيلة بغية تجريدهم من الخصائص الأخلاقية كافة، ناظرة الى أن عملها الطوعي هذا هو جزء من عبادتها الدينية من أجل إرضاء الإله يَهْوَه الذي أختصوه لهم واختص لهم.[3]

---

(١) ينظر: سِفر صموئيل، الإصحاح١١: ٢- ٤.

(٢) ينظر: المرأة عبر التاريخ البشري: د. عبد المنعم جبري، نشر دار صفحات، دمشق، ط٣، ٢٠١٤م: ص٧٦.

(٣) المرأة في أسفار التوراة: د. علي عبد الله الجباوي، نشر دار التكوين، دمشق، ط١، ٢٠٠٩م: ص٤٢

هل حواء هي سبب المعصية بالرؤية الاسلامية؟

في هذا الموضوع طرحت المسألة، وقد تم القول الفصل فيها، بما جاء في القرآن الكريم من آيات بيّنت بوضوح تام وبيان ناصع، بأن المسؤولية تخص الإثنين، ولكن يعتبر المسؤول الأول هو آدم عليه السلام ولم تكن حواء بإعتبار ما جاء من أمرهما في الآيات التالية:

- (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ* فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ* فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) سورة البقرة: ٣٥– ٣٧، ويظهر من هذه الآية الأخيرة انّ المسبب الرئيس هو آدم عليه السلام، بإعتبار نزول التوبة عليه، وسميت بإسمه دون التعرض لحواء، وهذا يوحي الى أنّ آدم عليه السلام كان هو المتحرك الأول نحو الشجرة وليس حواء، وإنما هي كانت تابعة له وممتثلة لما يريده.

- (وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ* وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ *

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) سورة الأعراف: ١٩ – ٢٣.

- (فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى) سورة طه: ١١٧ – ١٢٣.

فمن خلال هذه الآيات يظهر لنا كيف أن الإثنين آدم وحواء عليهما السلام قد خوطبا بعدم الإقتراب من تلك الشجرة وأيضاً تبين الآيات بأنهما أشتركا في المعصية، ولكن أيضاً بين الخطاب الإلهي في تلك الآيات بأن الذي يتحمل المسؤولية الأولى هو آدم، وأمّا حواء فمعصيتها كانت نتيجة إتباعها وطاعتها لآدم، ولذلك جاء في الآية: (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) وكذلك: (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى) فتظهر هذه الآية إن الخطاب من قبل ابليس كان موجهاً لآدم وليس حواء. وكذلك بيان المعصية وتعلقها بآدم بشكل مباشر (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) ثم يأتي الخطاب المباشر بعدها: (ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى).

ثـم هناك شيء مهم علينا الإلتفات إليه وعدم إهماله، وهو إن الله تعالى أراد أن يكـون آدم مخلـوقـاً يسكن الأرض، ولو خلق لغير هذا الأمر، لوجد لا محال فـي ذلك الشيء، ولـن تقـدر الظـروف أو تتهيأ لغيـر هذا المطلب. وعلى هذا كانت

مسألة الجنة مع إسجاد الملائكة له، ووجود إبليس، هي كلها طرق معبّدة لإستقرار آدم عليه السلام على الأرض، وليؤكد الله تعالى هذه الحقيقة بقوله: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) سورة البقرة: ٣٠، فهذا الجعل لم يأت على نحو الصدفة أو له قابلية النسخ والتبديل سواء في الأمور التشريعية أو التكوينية، وهو جعل لآدم قبل أن تدب رجلاه على الأرض أو في الجنّة. ولذلك فهو قد فُضّل على الملائكة لإثبات مسألة خلافته في الأرض. ليس ذلك فقط، بل أُمر بالسجود له، وهنا يقول العلّامة الطباطبائي قدس سره:

وآخر العوامل للإستقرار في الأرض، و إنتخاب الحياة الدنيوية ظهور السوأة، وهي العورة بقرينة قوله تعالى: (وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ) فهو التمايل الحيواني، ويستلزم التغذي والنمو أيضاً، فما كان لإبليس همّ إلّا إبداء سوآتهما، وآدم وزوجته و إن كانا قد سواهما الله تعالى تسوية أرضية بشرية، ثم أدخلهما الجنّة لم يمكثا بعد التسوية، ولم يمهلا كثيراً، ليتم في الدنيا إدراكهما لسوآتهما ولا لغيرها من لوازم الحياة الدنيا واحتياجاتها حتى أدخلهما الله الجنة، وأنّه إنما أدخلهما الله الجنّة حين أدخلهما، ولما ينفصلا ولما ينقطع إدراكهما عن عالم الروح والملائكة، والدليل على ذلك قوله تعالى: (لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا) ولم يقل ما كان ووري عنهما، وهو مشعر بأن مواراة السوأة ما كانت ممكنة في الحياة الدنيا إستدامة، وإنما تمشت دفعة ما واستعقب ذلك إسكان الجنّة، فظهور السوأة كان مقضياً محتوماً في الحياة الأرضية، ومع أكل الشجرة، ولذلك قال تعالى: (فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى)، وقال تعالى: (فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ) وأيضاً هو تعالى غفر خطيئتهما بعد ما تابا ولم يرجعهما إلى الجنّة، بل أهبطهما إلى الدنيا ليحييا فيها، ولو لم تكن الحياة الأرضية مع أكل الشجرة وظهور السوأة حتماً مقضياً، والرجوع إلى الجنّة مع ذلك محالاً، لرجعا إليها بعد

حط الخطيئة، فالعامل في خروجهما من الجنة و هبوطهما هو الأكل من الشجرة و ظهور السوأة، و كان ذلك بوسوسة الشيطان اللعين.[١]

إذن يفهم من ذلك أن الأمر في المنظور الإسلامي عن الذي كان سبباً في خروج آدم من الجنّة لم يكن متعلقاً بحواء، ولم يكن لها حتى دور بسيط في ذلك، وإنّما جاءت بعض المرويات في الموروث الإسلامي هي التي اشارت الى ذلك، وهي بدورها كانت متأثرة بالروايات الإسرائيلية التي كانت منتشرة في شبه الجزيرة العربية، كما أوضحنا ذلك في الصفحات السابقة.

ففي صحيح البخاري عن ابي هريرة: (لولا بني إسرائيل لم يخْنَزِ اللحمُ، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها).[٢]

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة: (لولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر).[٣]

وعن ماهية هذه الخيانة قال القاضي عياض: يعني أنها أمهن فأشبهنها بالولادة ونزع العرق، لما جرى لها في قصة الشجرة مع ابليس، وأن ابليس إنما بدأ بحواء تأكل الشجرة ثم أتت آدم فقالت له مثل ذلك حتى أكل أيضاً هو.[٤]

وكذلك قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: فيه إشارة إلى ما وقع من حواء في تزيينها لآدم الأكل من الشجرة حتى وقع في ذلك، فمعنى خيانتها أنها قبلت ما

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج١، ص١٢٧.

(٢) صحيح البخاري، مصدر سابق: باب خلق آدم، ح٣٣٣٠.

(٣) صحيح مسلم، مصدر سابق: باب لولا حواء لم تخن انثى زوجها الدهر.

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم: الحافظ أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (ت٥٤٤هـ) تحقيق د. يحيى اسماعيل، مصر، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م: ج١، ص٦٨٢.

زين لها إبليس، حتى زينته لآدم، ولما كانت هي أم بنات آدم أشبهنها بالولادة ونزع العرق، فلا تكاد امرأة تسلم من خيانة زوجها بالفعل أو بالقول، وليس المراد بالخيانة هنا ارتكاب الفواحش حاشا وكلا، ولكن لما مالت إلى شهوة النفس من أكل الشجرة وحسّنت ذلك لآدم، عدّ ذلك خيانة له، وأمّا من جاء بعدها من النساء فخيانة كل واحدة منهن بحسبها.»[١]

وفي تفسير المنار للعلّامة محمد رشيد رضا: نسي آدم عهد ربّه، ولم يكن له من العزم ما يصرفه من متابعة امرأته، ويعتصم به من تأثير شيطانه، كما قال تعالى: (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا).»[٢]

وجاءت رواية في مستدرك الوسائل للنوري عن أبي بصير، في خبر طويل في خلقة آدم وحواء، ودخولهما الجنة وخروجهما منها، إلى أن قال: قال ابن عباس: فنوديت ياحواء ومن الذي صرف عنك الخيرات التي كنت فيها، والزينة التي كنت عليها؟ قالت حواء: إلهي وسيدي ذلك خطيئتي، وقد خدعني إبليس بغروره وأغواني، وأقسم لي بحقك وعزتك أنه لمن الناصحين لي، وما ظننت أن عبداً يحلف بك كاذباً، قال: الآن أخرجي أبداً فقد جعلتك ناقصة العقل والدين والميراث والشهادة والذكر ومعوجة الخلقة شاخصة البصر، وجعلتك أسيرة أيام حياتك، وأحرمتك أفضل الأشياء، الجمعة والجماعة والسلام والتحية، وقضيت

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ): ج٦، ص٣٦٨.

(٢) تفسير المنار: محمد رشيد رضا: ج٨، ص٣١١

عليك بالطمث وهو الدم وجهة الحبل والطلق والولادة، فلا تلدين حتى تذوقين طعم الموت، فأنت أكثر حزنـاً، وأكسر قلبا وأكثر دمعة، وجعلتك دائمة الأحزان، ولم أجعل منكن حاكمـاً، ولا أبعث منكن نبيـاً، الخبر.(١)

عمومـاً ان الآيات القرآنية كافية جداً بعدم إيكال تبعات خروج آدم وزوجه من الجنة الى حواء. وإنّما كان المسؤول عن ذلك الهبوط هو آدم عليه السلام بالدرجة الأولى، وإن كانت حواء قد طاوعته، ولذلك كانت خطابات النسيان والغواية والتوبة موجهة إليه مباشرة كما بيّنا ذلك في الأوراق السابقة.

وفي هذا المقام يطرح العلّامة عبد الله الجوادي الآملي سؤالاً ويجيب عليه:

وهو لماذا قد جُعل آدم أصلاً في الخطاب؟ وهل يمكن أن يستفاد من ذلك تبعية جنس المرأة لجنس الرجل بنحو عام؟

والجواب الصحيح هو أن حواء عليها السلام كانت تحت تدبير آدم عليه السلام ومع غض النظر عن الزوجية، فإن آدم كان إمام حواء ونبيّها المستقبلي. ولولم يتأثر آدم من الوسوسة لبقيت حواء سليمة ولم تصب بشيء، فآدم عليه السلام كان المحور والأساس سواء من جهة الفضيلة أو من جهة الوسوسة والخروج من الجنة، وبهذا اللحاظ جعل آدم اصلاً في الكثير من الخطابات والتعابير.

والحق أنّ مثل هذه الخطابات ليس فيها أيّة دلالة على تبعية جنس المرأة وكونها فرعـاً بالنسبة إلى جنس الرجل، وكل ما لدى الإنسان من أنواع الكمال

---

(١) مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل: الحاج ميرزا حسين النوري الطبرسي (ت١٣٢٠هـ)، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام: ج٤، ص٢٨٦، كتاب النكاح.

ترتبط بإنسانيته وإنسانية الإنسان بنفسه، لا بكونه رجلاً أو أمرأة، لأنّ الذكورة والأنوثة لا مجال لها في الروح الإنسانية المجردة، وإنّما هي ترتبط ببدنه و تركيبة جسمه.[1]

الروايات الإسلامية والإنتقاص من عقل المرأة وإيمانها

في هذا السياق هناك أمراً دائماً ما يتطرق له وتثار من خلاله عدّة اشكالات حول الإسلام ونظرته للمرأة، فقد جاء في بعض المصادر الإسلامية أحاديث وروايات يبدو من ظاهرها الإنتقاص من عقل المرأة وإيمانها، ومن بين هذه الروايات ما نسب الى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الخطبة الثمانين من نهج البلاغة، فقد وصف النساء فيها بنواقص الإيمان والعقل، وقد قالها بعد رجوعه من حرب الجمل، وهي أكثر شهرة من الروايات الأخرى،[2] حيث قال: (معاشر النّاس، إنّ النّساء نواقص الإيمان، نواقص الحظوظ، نواقص العقول: فأمّا نقصان إيمانهنّ فقعودهنّ عن الصّلاة و الصّيام في أيّام حيضهنّ، وأمّا نقصان حظوظهنّ فمواريثهنّ على الأنصاف من مواريث الرجال، وأمّا نقصان عقولهنّ فشهادة امرأتين كشهادة الرجل الواحد، فاتّقوا شرار النّساء، و كونوا من خيارهنّ على حذر، ولا تطيعوهنّ في المعروف حتّى لا يطمعن في المنكر.[3]

(١) تسنيم في تفسير القرآن: العلّامة الشيخ عبد الله جوادي الطبري الآملي، نشر دار الإسراء، بيروت، ط٢/ ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م: ج٣، ص٣٩٦.

(٢) ينظر الكافي: ج٥، ص٣٩، ح٤، ووسائل الشيعة: ج٧، ح٣٣٧٥٦، وبحار الأنوار: ج٨، ص١٧٩.

(٣) نهج البلاغة: تعليق آية الله السيد محمد الحسيني الشيرازي، نشر دار العلوم، بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

وللوهلة الأولى يمكن الإستدلال على ضعف الأحاديث الواردة في نهج البلاغة بفقدان السند فيها أساساً، فيكون الحديث أيضاً فاقداً للإعتبار اللازم، خاصة وأنّه وارد في مجال القضايا العقدية. إلّا أن اشكالاً من هذا القبيل لا يبدو وجيهاً، لأنه لو فرض عدم صدور هذه الرواية بالخصوص عن الإمام علي عليه السلام، لكن أحاديث نقصان العقل وردت بكثرة في المصادر الشيعية والسنّية، الى درجة عدم إمكان إنكار صدورها من حيث المجموع، والقول بكونها جميعاً موضوعة، وإن كلّ منها موسوماً بالضعف السندي، لاسيّما مع وجود معظم تلك الأحاديث في أمهات الكتب الموثوقة، نحو (الكافي) و (من لا يحضره الفقيه) ولا يخفى أن بعض الأحاديث أشارت الى هذا التفاوت بصراحة، وبتعابير من قبيل (نواقص العقول) (ناقصات العقول)، وبعضها أشار الى أمور ملازمة الى نقصان العقل.(١)

هذا وقد حاول بعض المفكرين والباحثين إيجاد مخارج وتأويلات لما جاء في رواية النهج وغيرها، ليبينوا المقصود الواقعي من تلك الروايات وعدم الإعتماد على ما يظهر منها للوهلة الأولى.

ثم أنّ البحث في موضوعة المرأة في كلام الإمام علي عليه السلام هو من السهل الممتنع. فالمنسوب الى الإمام في نهج البلاغة وسائر النصوص التاريخية والروائية، تظهر عليه لغة اللوم والإنقاص من قدر المرأة، وهذا الأمر أدّى الى فتح الباب أمام جدل واسع والخروج بأحكام متناقضة، إنّ البحث عن مكانة المرأة عند الإمام علي عليه السلام يتوقف على تتبع كلام الإمام كلّه، وما يرتبط به من قضايا تاريخية، والإطلاع الواسع على الظروف التاريخية والإجتماعية المهيمنة في

---

(١) المرأة هويتها الجنسية وأدوارها الإجتماعية، مصدر سابق: ص١٠٢.

ذلك العصر. وكذلك يتوقف على سند الروايات والنصوص المنقولة، سواء من ناحية جهة الصدور أم جهة المتن.»[1]

وفي صدد الإجابة عن هذه الشبهة يقول الشيخ جوادي آملي:

أحياناً يتعرض الأشخاص في حادثة ما، وتتعرض ظروف وعلل وأسباب تلك الحادثة، كمكانها وزمانها، إلى ذم أو مدح بسبب مجموعة وقائع تاريخية، أن معنى ذم أو مدح بعض الحوادث أو الأمور الجانبية لتلك الحادثة ليس لأن أساس طبيعة ذلك الشيء قابل للذم أو المدح، بل إنّ تلك الأرضية الخاصة سببت هذا المدح أو الذم، أحياناً تمدح قبيلة من القبائل وذلك بسبب ظهور صالحين من هذه القبيلة في ذلك العصر، ثم لا تمر فترة طويلة حتى يتغير الوضع، حيث يظهر أشخاص آخرون من هذه القبيلة يتعرضون للذم، وأحياناً بالعكس. ... هذا الذم والتوبيخ ليس ملازماً لتلك المنطقة الى الأبد، بل هو مرحلي. ودليله هو أن الرأي يمكن أن يتراجع بتحول فكري ومسألة عقائدية. كما حصل ذلك، وإذا كان هناك ذم للمرأة في نهج البلاغة، فيظهر أن بعض ذلك الذم يعود الى قضية حرب الجمل، كما ذمت البصرة والكوفة وغيرهما مع أنّ البصرة خرجت رجال علم كثيرين، وقدمت الكوفة رجالاً ثواراً كثيرين للإسلام، وكثير من الذين قاموا بالمطالبة بدم سيد الشهداء عليه السلام كانوا من الكوفة ... ولا يمكن القول: إنّ البصرة والكوفة سيئتان الى الأبد وتستحقان الذم لأنهما ذمتا سابقاً. إنّ قضايا تاريخية في مرحلة حساسة تؤدي الى الذم أو المدح ثم مع مرور تلك المرحلة ينتفي المدح أو

---

(١) مسألة المرأة: مهدي مهريزي، ترجمة علي الموسوي، نشر مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م: ص٢١٣.

الذم أيضاً.[1]

ثم يقول: الرواية التي وردت في نهج البلاغة لم تطرح بوصفها قضية حقيقية، فهي تقريباً تشبه قضية شخصية أو قضية خارجية.[2] أساس القضية هي أن عائشة

---

(١) جمال المرأة وجلالها: الشيخ جوادي آملي، نشر دار الكاتب العربي، بيروت، ط١، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م: ص٣١٨ و٣١٩ بتصرف.

(٢) القضية الخارجية: وهي القضية التي يكون موضوعها في عالم الخارج، بحيث يكون النظر والتوجه الى أفراد الموضوع الموجودة فعلاً في أحد الأزمنة الثلاثة، سواء الآن أو المستقبل أو الماضي.

أمثلتها:

(كل جندي في المعسكر مدرب على حمل السلاح، بعض الدور الماثلة للإنهدام في البلد هدّمت، كل طالب في المدرسة مجدّ، السمك غالي الثمن).

كل هذه القضايا قضايا خارجية، بمعنى أن موضوعها قد لوحظ فيها الأفراد الموجودة والمحققة في الخارج لا الذهن، وهذا لا يعني أننا لا نتصور الموضوع أصلاً، بل لابد من التصور حيث لا يمكن الإسناد من غير تصور، ولكن التصور بخصوص القضية الخارجية، يختلف تماماً عنه في الذهنية، هنا يمكن النظر كل النظر الى الأفراد المتواجدين في الخارج لا الذهن.

ثم إن مؤلف القضية الخارجية قد يعبر عن الموضوع بعنوان كلي إلّا أن غرضه من ذلك هو ما يصدق عليه هذا العنوان من أفراد، فموضوع القضية روحاً هي الأفراد وإنّما جاء بالعنوان الكلي لغرض التعبير به عن الأفراد في الخارج، وقد يذكر الأفراد التي هي موضوع القضية الخارجية إبتداءً.

مثال: أولاد زيد علماء: مؤلف القضية بعد أن تحقق من وجود أولاد زيد وأحصاهم حكم عليهم بأنهم علماء، وبدلاً من أن يعدد أسماءهم توسّل عوضاً عن ذلك بذكر عنوان كلي يصدق عليهم، وهذا العنوان ليس مقصوداً بنفسه، وإنّما هو لغرض الإشارة الى موضوع القضية واقعاً، وهم الأفراد الموجودة والذين يجمعهم عنوان أولاد زيد،

والحكم المذكور لا يشمل غير الموجودين حين تأليف القضية، فلو ولد لزيد ولد آخر، فإنه لا يكون مشمولاً للحكم، لأن موضوع القضية واقعاً ليس هو عنوان أولاد زيد وإنّما هو خالد وبكر وعامر مثلاً، غايته أن المؤلف للقضية استعاض عن تعداد اسمائهم بذكر عنوان يجمعهم.

القضية الحقيقية:

وهي ما إذا كان وجود الموضوع في نفس الأمر والواقع، بمعنى أن الحكم قد ورد على الموضوع، بما هو موضوع، فشمل أفراده جميعاً المحققة الوجود والمقدّرة الوجود؛ فالحكم غير مستند الى الأفراد المتواجدين في الخارج فعلاً، بل نحكم على حقيقة الفرد، فكلّ ما تصدق عليه تلك الحقيقة وينطبق عليه ذلك المفهوم وإن لم يوجد اصلاً فهو داخل في الموضوع، ولهذا يقع مقسماً للموجود والمعدوم، ويصحّ أن يقال كل فرد من الطبيعة إمّا موجود او معدوم، بلا مجازية ولا تأويل، فيشمله الحكم كطبيعة مثل قولنا: (كل مثلث موجود زواياه يساوي قائمتين)، فالموضوع في هذه القضية هو (المثلث)، ولا ننظر الى المثلث المرسوم فعلاً، بل الميزان في كونه مثلثاً.

ومقتضى القضية الحقيقية هو ثبوت الحكم لكل فرد مشمول للموضوع، اتفق له الوجود خارجاً أم لا، وبذلك تختلف القضية الحقيقية عن القضية الخارجية، فالقضية الخارجية يكون فيها الموضوع محقق الوجود، ولذلك لو استجد فرد يصدق عليه عنوان الموضوع فإنه لا يكون مشمولاً لحكم القضية الخارجية. وأمّا القضية الحقيقية فإن موضوعها لما كان مقدر الوجود، فإن ذلك يقتضي ثبوت الحكم في القضية الحقيقية لكل فرد صدق عليه الموضوع، حتى لو لم يكن موجوداً حين تأليف القضية.

والسرّ في ذلك، أننا ضمن بياننا للموضوع، وذكرنا السبب والعلّة، فعندما نقول: (كل مثلث مجموع زواياه تساوي قائمتين)، كأننا قلنا إنّ العلّة والسبب في كون زوايا المثلث تساوي قائمتين هو كونه مثلثاً، وعليه كلما توفرت هذه العلّة جاء بعدها المعلول- لا محالة- من غير تحديد لزمان أو مكان.

وعلى ضوئه نقول: القوانين المجعولة سواء في الشريعة او العُرف، لابدّ وأن تكون بنحو القضايا الحقيقية، لتشمل جميع الموارد التي ينطبق عليها الموضوع، ومن هنا صحّ إطلاق القانون عليها، لأن القانون سواء كان طبيعياً او شرعياً او عرفياً، هو القضية الحقيقية بعينها، لا فرق بين المفهومين اصلاً.

شنت هذه الحرب، والجميع يؤيد أنها كانت السبب والمحرك. وبعد أن ركبت عائشة جملاً في قضية معركة الجمل وحرّكت طلحة والزبير أيضاً، وسقطت دماء كثيرة، وأخيراً انكسروا، كتب أمير المؤمنين عليه السلام رسالة إلى معاوية في الشام، نذكر الآن بعض من جمل الرسالة الموجودة في نهج البلاغة حتى يتضح أن هذه المسألة تتعلق بقضية حرب الجمل، في خطبة نهج البلاغة قال في ذم أهل البصرة بعد وقعة الجمل: (كنتم جند المرأة واتباع البهيمة) ثم يذكر أنهم قاموا بعمل غير مدروس، وفي الخطبة ١٤ ذم أيضاً هذه الفئة وذم البصرة.

أن مسألة اتباع البهيمة أي اتباع الجمل، وذم اتباع الجمل، ليس لأن الجمل سيئ، بل لأن راكبه عمل عملاً سيئاً في هذه الحادثة، وإلا فالنبي صلى الله عليه وآله ركب ناقة وفي قضية الهجرة، جاء من مكة إلى المدينة ولما دخل المدينة قال: (خلّوا سبيلها فإنها مأمورة)، كلّ شخص اقترح على النبي صلى الله عليه وآله أن

وكمثال على القضية الحقيقية:

(كلّ حديد يتمدد بالحرارة) فلا نحكم على خصوص الحديد الموجود فعلاً، بل نعمم الحكم على كلّ ما يطلق عليه الحديد- سواء كان موجوداً في الزمن الماضي أو في الحال وحتى الذي سيوجد في المستقبل- فما دام الحديدُ حديداً، وإن وجد في كوكب آخر غير الأرض، يشمله حكم التمدد بالحرارة.

ولذلك فالقضايا الذهنية والخارجية ليس لها اعتبار في العلوم، وأما الحقيقة فهي التي تستعمل فيها جميعاً، وذلك لأن العلوم تتطرق الى مفاهيم عامة وقوانين شاملة تستوعب الأزمنة والأمكنة المختلفة، بل هي أعلى مستوى من الزمان والمكان، ولهذا سمّيت مسائلها علمية، لأن الميزان في العلم هو الشمولية والإستيعاب. (الضوابط المنطقية: الشيخ عباس الموسى، نشر مؤسسة الراضي لإحياء التراث، بيروت، ط١، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م: ص٢٧٧ وما بعدها بتصرف.

ينزل في داره، النبي قال حسب هذه الرواية أن يخلوا سبيلها، فإن لديها مأمورية إلهية، وإنه سينزل في المكان الذي تقف وتبرك وتنام فيه تلك الناقة، ووقفت الناقة في منزل أبي أيوب الأنصاري الذي كان من أفقر أهل المدينة.

فالذهاب وراء الجمل أو ركوب الجمل أو العمل على أساس حركة الجمل، ليس فيه مذّمة، فلو أنّ أمير المؤمنين عليه السلام ركب جملاً أو فرساً أو بغلة، وتحرك عدد من الأشخاص على أثره، فهل يمكن القول أن أتباع الجمل مذمومون أو أن أتباع الفرس والبغلة مذمومون؟.(١)

هذا وقد اعترض بعضهم على تفسير رأي الإمام علي عليه السلام في المرأة بكراهية عائشة، وخروجها عليه بحرب الجمل، مما يستوجب أن يكون رأيه في الرجل تماماً كرأيه في المرأة، لأن طلحة والزبير ومعاوية وابن العاص ومن لفّ لفّهم فعلوا ما فعلت عائشة وزيادة.(٢)

وسنجيب على الإعتراض بالشكل التالي:

إن مسألة خروج عائشة على أمير المؤمنين عليه السلام في حرب الجمل، قد فعلها غيرها من الرجال، وقد ظلموا علياً أيضاً مثل معاوية وغيره، فيكون حالهم في هذا الخروج حال عائشة، وحينئذ سيكون الرجال أيضاً ناقصي العقول، وحالهم حال النساء في خروجهم ضد الحق.

والحقيقة أن المسألة لا تقاس بهذا الشكل للأسباب:

---

(١) جمال المرأة وجلالها، مصدر سابق: ص٣٢٠ وما بعدها بتصرف.

(٢) مسألة المرأة، مصدر سابق: ص٢٣٠.

أولاً: إن مسألة صراع الحق مع الباطل مسألة إرتبطت منذ بداية الوجود الدنيوي للإنسان، وما انفك الشيطان يتحرك ضمن هذه الرؤية لمنع الحق من الوصول الى التحكم بالقرار وبالتالي لتسود العدالة وتتحقق بأعلى مراتبها. وهذا الأمر قد إرتبط بالرجال غالباً، فنرى الصراعات على السلطة، منذ بدء البشرية تتمحور بهذا الإتجاه، لذلك نشبت الحروب وكثر القتل فيما بينهم دون النساء، حتى أصبح هذا الأمر معروفاً، بل هو من البديهيات وأوضح الواضحات، ولذلك عندما تأتي امرأة لتمارس دوراً عسكرياً وقتالياً، ومن أعلى مستوى قيادي لتواجه بهذا الإعداد والتهيؤ العسكري جهة الحق بالمباشر، فهذا مما لم يحدث قط، لا في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ولا في عهد الخليفة الأول والثاني والثالث، ولا في المجتمع الإسلامي بشكل عام، إلّا ما وقع مع أمير المؤمنين عليه السلام في خلافته عندما خرجت عائشة تحشد الناس عليه، ومن ثم تقود ذلك الجيش الكبير، لتنتهي المعركة مخلّفة الآلاف من القتلى، ولذلك حاولت أن تؤسس لنقطة مفصلية وحساسة في البعد السياسي لحركة الوجود الإسلامي لم تسبق بمثلها من قبل، حتى في الدائرة الأوسع من ذلك الوجود. بإعتبار إنّ صراع الرجال فيما بينهم كان صراعاً مألوفاً ودارجاً، بحسب المصالح والأطماع السائدة في كل زمان ومكان.

فلا حاجة بعد لأن يذكر علي عليه السلام هذا الأمر المتعلق بنقصان العقل، كون أنّ كل من الطرفين المتصارعين من الرجال، يرى أنّه الأولى والأرجح بهذا الأمر من غيره، ولأن الأعراف والتقاليد المتبعة هي سائرة بهذا الإتجاه.

أما عندما تأتي المرأة، وتحشر نفسها في هذا الأمر، الذي ليس لها فيه ناقة ولا جمل، وضمن ضوابط تلك المرحلة من التاريخ، بما يحمله من إرتكاز ديني

وعقائدي، فهذا يدلّ على نقصان عقلها وورعها ودينها، وذلك لأنّها قد خالفت العادات والتقاليد والأعراف، فضلاً عن الدين والشريعة. وبهذا الإعتبار سيسقط الإشكال أو الإعتراض أصلاً، ولن يبقى مبرر لوجوده، متى ما التفتنا الى هذا الأمر بدقة وتركيز بعيد عن العاطفة والميول.

ثانياً: هناك طاقة عند النساء، وهذه الطاقة كبيرة وكامنة بين جوانحهن، لا تتحرك ولا تظهر الى الخارج إلّا تحت تأثير الظروف الخارجية الواقعة في المنطقة، وكأن الله تعالى قد جعل هذه القوّة للمرأة تستخدم في الظروف الطارئة، التي تستدعي تحركها وإنطلاقها نحو هدفها المقصود، وبغض النظر عن صحة أو خطأ تصورها واعتقادها، وخطأ هدفها أو صوابه، فهذا الأمر يتحقق بإتباعها وإنقيادها للجهة التي تحتضنها والتي تنجذب لطبائعها وغاياتها.

فإذا كانت أهداف تلك الجهة شيطانية، خرجت تلك القوّة والطاقة لتكتمل في أعلى نقطة لها بوجود عائشة. والتي هيأت لها بدايات ذلك التحرك هي هند زوجة أبي سفيان، لتكون هي الشاخص الأنثوي الذي تحرك بظرف طارئ واستثنائي، لتؤدي دوراً ما كان من المفروض عليها أن تؤديه، وهي تسير ضمن ضوابط خلقية وتربوية حددت لها كأنثى.

وأمّا إذا كانت أهداف تلك الجهة رحمانية وتنبع من الإيمان كلّه، خرجت تلك القوّة لتكتمل في أعلى نقطة لها بوجود زينب عليها السلام، والتي هيأت لها بدايات ذلك التحرك أمّها فاطمة الزهراء عليها السلام، لتكون هي الشاخص الأنثوي الذي يتحرك بالظرف والمكان والمناسب تحت ضغط الظروف الطارئة والعصيبة، التي تستوجب منها ذلك التحرك الذي يجعل منها طاقة كبيرة ومحيرة، لتعبر من خلالها محيط الأنثى الدنيوي، ولتنتقل الى دائرة الوجود الأوسع، الى

ذلك البعد السماوي لتتجرد فيه الروح عن تعلقاتها الجسمانية وقالبها الدنيوي الذي حَددّ لها بعدها الحركي.

وأمّا في مسألة شهادة المرأة والنسيان فيقول العلّامة جوادي آملي:

تعليل الإمام عليه السلام في مسألة نقصان العقل هو أن شهادة امرأتين هي في حكم شهادة رجل واحد، جاء في القرآن : (فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ) سورة البقرة: ٢٨٢، ولكن هذا لا يعود إلى مسألة التفكير والعقل، فالقرآن يذكر نكتة ذلك ويقول: (أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى). امرأتان من أجل أن يكون لكليهما حضور في الحادثة، وهذا يعود إلى ضعف الذاكرة وليس إلى ضعف العقل.[١]

ويرد على هذا الرأي:

أولاً: إنّ استعمال لفظ العقل في معنى الحافظة غير معهود.

ثانياً: إن بعض الروايات عدّت الحفظ من أجناد العقل.[٢]

ويمكن أن نضيف ردّاً آخر:

بعد أن علّل آية الله جوادي آملي سبب شهادة المرأتين الى ضعف الذاكرة، وليس الى ضعف العقل، قال: لأن المرأة مشغولة بأعمال البيت وتربية الطفل، ومشكلات الأمومة، لذا من الممكن أن تنسى تلك الحادثة التي رأتها. بناءً على

(١) جمال المرأة وجلالها، مصدر سابق: ص٣٢٤.

(٢) ينظر: المرأة هويتها الجنسية وادوارها الإجتماعية، مصدر سابق: ص١٠٤.

هذا تحضر امرأتان في هذه القضية حتى تذكر أحداهما الأخرى.[١]

ولكن إنّ ما يحصل من ضعف للذاكرة بخصوص المرأة نتيجة بعض الأعمال والمسؤوليات اليومية، فهو عينه يحصل للرجل، بل فاعلية أعماله ومسؤولياته والواجبات المتعلقة به أزاء أسرته وإرتباطه بالمجتمع وما يفرزه من تداخل في العلاقات الإجتماعية، هي أكبر وأعقد من مشاكل ومسؤوليات المرأة، مضافاً الى ما يعانيه من مواجهات قاسية وصعبة، وهو يؤدي عمله المعيشي من أجل الحصول على الكسب والرزق المناسب، فضلاً عمّا إذا حدثت المواجهات العسكرية والقتالية، نتيجة الأزمات التي تحدث بين الفينة والأخرى. فهذه كلّها مواجهات لمشاكل وأزمات متعددة الصور، ومختلفة المباني الفكرية للمواجهة، وبعضها قد يكون مصيرياً، ويحتاج الى إتخاذ قرارات آنية، إن أخطأ بها قد يؤدي الى هلاكه وهلاك غيره، فتؤدي بالتالي الى ضغوط شديدة تشتت من خلالها الذاكرة، وقد تضعف ويصعب استحضار المعلومات والمشاهد السابقة لدى الرجل. هذا بعكس المرأة التي طالما كانت أعمالها ومشاكلها تنصب في قالب واحد، أو عدّة قوالب تكون في الأغلب متشابهة أو متقاربة، كواجبات الأمومة وأعمال البيت. فكل هذه الأشياء يمكن أن تحصر وتصبح في الغالب نمطية ومتكررة لدى المرأة.

وهناك من قال: أنّ كلمة (نقص) تستعمل في كثير من الأحيان مقابل السعة أو الزيادة وهي تدلّ على النقص المادي وليس (العيب). وفي بعض الأحيان تستعمل هذه الكلمة من حيث القيمة الواقعية في العيوب ومنها العيوب الظاهرية مثل نقص عضو. فالنقص بالمعنى الأول يوجد في جميع الموجودات عندما يقاس بعضها

---

(١) جمال المرأة وجلالها، مصدر سابق: ص٣٢٤.

ببعضها الآخر. وعلى سبيل المثال، فإن كثيراً من الحيوانات لها إحساس أقوى من الإنسان ويعتبر الإنسان بالمقارنة معها ناقصاً. مثلما الإنسان له الأفضلية على الموجودات الأخرى من حيث التدبير والعقل. ومثلما قلنا، فإن النقص لا يمكن اعتباره بهذا المعنى بمنزلة العيب. فكل موجود من الموجودات يقوم في إطار جغرافياه التكوينية بدوره على أساس المسؤولية التي تقع على عاتقه. وقد تزود هذا الموجود بإمكانيات حسب نفس المسؤولية، مع وجود هذا التحليل، فإنه يمكن اعتبار الموجود معيباً عندما لا تتوفر الأدوات والإمكانيات اللازمة للقيام بالمسؤوليات المنوطة به.

فكلمة (العقل) تحتاج إلى دراسة من حيث المفهوم. فالمفهوم اللغوي لهذه الكلمة يعني في الأصل الحبس والمنع، ولهذا فإن الحبل الذي يربط به ركبة الجمل حتى لا يهرب يسمى عقال، وبهذا التعريف فالعاقل هو الذي يمنع نفسه من السير وفق هواه وارتكاب الأخطاء. ففي بعض الأحيان يأتي العقل بمعنى التعقل، أي استخدام قوّة العقل، لأن الكثير من الأشخاص يتمتعون بموهبة العقل، ولكنهم لا يستخدمونها.[1]

أقسام العقل من الناحية الوظيفية

هنا لابد أن نشير الى شيء له أهمية في موضوعنا هذا، وهو العقل وإمكانية تقسيمه من الناحية الوظيفية، حسب رأي الفلاسفة أو كما تفيده بعض الروايات الإسلامية، فقد أكد الفلاسفة المسلمون منذ عصر ابن سينا على وجود وظيفتين

(١) شخصية المرأة: محمد تقي سبحاني، تعريب علي بيضون، نشر مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م: ص٢٤٤.

للقوة العاملة وهما:

العقل النظري:

فقد تكون وظيفة العقل إدراك حقائق الأشياء، وإطلاق الأحكام حول هل أن للمعنى الفلاني حقيقة أم لا؟ وما حقيقة الشيء الفلاني؟ وهل لهذا الشيء هذه الخصوصية أم لا؟ وهو الأساس في العلوم الطبيعية والعلوم الرياضية والفلسفية والإلهية.

فهو القوّة التي تتكفل بإدراك الإنسان لعالم الواقع، ومن ضمنها إدراك البديهيات وترتيب المقدمات لإستنتاج الأمور النظرية.

العقل العملي:

وأمّا الوظيفة الأخرى للعقل فهي الحكم فيما ينبغي وما لا ينبغي فعله، والامور والقيم الأخلاقية، فما يجري الحكم به في العقل العملي هو حسن العمل وقبحه، ولذا تطرح هنا مفاهيم من قبيل: الحسن، والقبح، وما ينبغي، وما لا ينبغي، والجميل، والقبيح، والأمر، والنهي، وما شاكل. كما إنّ العقل العملي يعدّ المعيار في علم الأخلاق، وتدبير المنازل، وسياسة المدن، وهو من يحدد مسار السعادة في الحياة.

فهو إذن المعني بإدراك حسن الأشياء وقبحها، فبمساعدة العقل يمكن تشخيص الخير من الشرّ. وفي تعريف آخر فإنّ العقل قوّة تتولى التشجيع على الأعمال الخيرة، والإبتعاد عن الأعمال القبيحة بالإضافة الى إدراك الحسن

والقبح[1]

العقل الأداتي (العقل الآلي):

طرح فلاسفة الغرب، ومنذ عصر (هيوم) وظيفة جديدة للعقل، واستخدموا مصطلح (العقل الآلي) أو (الأداتي) بمعنى قدرة التخطيط وإتخاذ أفضل السبل وأنجح الوسائل لبلوغ الهدف. ومن هنا، فالمنظمات والمؤسسات والتكنلوجيا الحديثة من أبرز المظاهر في مجال وظائف العقل الآلي، ولا ينبغي الخلط بين العقل الآلي والعقل العملي، أو اعتبارهما شيئاً واحداً، ذلك أن وظيفة العقل العملي كانت عرضة للنقد والمناقشة في الفكر الإنساني الحديث، ولا يشخص العقل العملي من وجهة نظره القيم الأخلاقية، وعلى العكس من ذلك، يعين العقل الآلي الإنسان على تحقيق طموحاته وأمنياته، وبلوغ مراميه وأهدافه. بناءً على ذلك، يمكن دراسة وظيفة العقل الآلي سواء افترض استناد الأهداف الى الأحكام العقلية العملية، أم أفترض القول بعدم مرجعية العقل العملي في إختيار ما ينبغي وما لا ينبغي فعله، وانتخاب الأهداف.[2]

وفي هذا الصدد يذكر الباحث محمد تقي سبحاني ثلاث وجهات نظر بخصوص بيان معنى العقل الذي ورد في رواية النهج والروايات الأخرى الواردة بهذا الشأن وهي:

النظرية الأولى:

ترى أن المرأة والرجل متساويان في التمتع بالقوى العقلية، وكذلك المقدرة

---

(١) ينظر: المرأة هويتها الجنسية، مصدر سابق: ص٩٩، وشخصية المرأة: ص٢٤٤.

(٢) المصدر نفسه: ص١٠٠.

على استخدام هذه القوى في المعاني الثلاثة المذكورة- العقل العملي -العقل النظري -العقل الآلي - ومع ذلك، وحيث إنّ النسوة من خلال العلاقات الإجتماعية وعن كثير من المسؤوليات والاهتمامات، فإنهن ضعفن تدريجياً. عن استخدام هذه القوى، وفي النهاية، حرمن من قدرة التدبير والإستنتاج. وعلى هذا فإن نقص العقل في النساء ظاهرة إجتماعية وثقافية، وليست ظاهرة تكوينية، ومن هنا قيل إنّ الرجال كان لهم دور ظالم في توفير أجواء غير ملائمة من أجل نمو عقل النساء. وعلى هذا، فإن تغيير الظروف والعلاقات الإجتماعية يمكن أن تسدَّ هذا النقص. والنتيجة أن نقص عقل النساء في كلام الإمام علي عليه السلام ظاهرة ترتبط بظروف إجتماعية خاصة، وليس بخصائص عامة للنساء، وربما تواجه النساء في العصر الحديث ظروفاً بحيث يجعلهن يتمتعن بنمو عقلي يضاهين فيه الرجال.

وقد قالوا في توضيح وجهة النظر هذه: إنه في المجتمعات البدوية التي كانت المنتوجات الزراعية متوفرة حول بيوتها، كان بإمكان المرأة والرجل جمع المواد الغذائية بصورة مشتركة، وحيث إنّ المرأة كانت تتولى مسؤولية الولادة وتربية الأولاد، فإنها لم تتمكن من الإبتعاد عن منزلها للقيام إلى جانب زوجها بمهنة الصيد. فالحاجة إلى الصيد بصورة أكبر جعل الرجال يقومون بالبحث عن أدوات للقيام بهذه المهمة، وبذلك تم تقسيم العمل بصورة تدريجية في الحياة العائلية والإجتماعية. فالمرأة انصرفت لوظيفتها الخطيرة والحساسة والبناءة، ولكن الرجل تعلم أساليب جديدة تتضمن الخديعة في زحمة المجتمع، كما تعلم المكر والإحتيال، وحيث إنّ المرأة كانت قليلة الحضور في داخل المجتمع والسوق والحرب، فإنها بالمقارنة مع الرجل كانت أقل إطلاعاً. إذن فبعيد عن المنطق

اعتبار هذا دليلاً على ضعف قدرة عقل المرأة.(١)

ومن الذين تبنوا هذا الرأي قاسم أمين حيث قال: إنّ المرأة إنسان مثل الرجل، لا تختلف عنه في الأعضاء ووظائفها، ولا في الإحساس، ولا في الفكر، ولا في كلّ ما تقتضيه حقيقة الإنسان من حيث هو إنسان، اللهم إلّا بقدر ما يستدعيه اختلافهما في الصنف.

فإذا فاق الرجل المرأة في القوّة البدنية والعقلية، فذلك إنما: لأنه اشتغل بالعمل والفكر أجيالاً طويلة كانت المرأة فيها محرومة من استعمال القوتين المذكورتين، ومقهورة على لزوم حالة من الإنحطاط تختلف في الشدّة والضعف على حسب الأوقات والأماكن.(٢)

هذا وقد اعترض الباحث على وجهة النظر هذه بعدّة اعتراضات منها:

١- نتيجة الكلام المتقدم، هي نقص المعلومات الإجتماعية وعدم معرفة تعقيدات العلاقات الاجتماعية، ومن الواضح أن هذا المعنى يختلف عن نقصان العقل. وقد قلنا، إن نقصان العقل في المباحث الإجتماعية يعني أن الشخص يملك قدرة أقل على التدبير الإجتماعي وليس لأنه يملك معلومات اجتماعية أقل. وعلى هذا، فإن هذه النظرة لا يمكنها أن تفسر مفهوم نقص العقل وأن الشاهد الوحيد على النقص هو معلومات المرأة.

٢- إذا قبلنا جدلاً بأن المرأة والرجل ليس لديهما اختلاف في القابليات، ويعود كل التفاوت بين الجنسين إلى التأثيرات الإجتماعية، لكان على الشريعة

(١) شخصية المرأة، مصدر سابق: ص٢٤٦.

(٢) تحرير المرأة: قاسم أمين، نشر دار المعارف، القاهرة، ط١، ٢٠١٧م: ص٤٨.

الإسلامية أن تقترح حلولاً لإصلاح هذه الحالة والإرتقاء بالمرأة إلى وضع متساو مع الرجال، لكي يزول هذا الانحراف التاريخي وليس إصدار أحكام وقرارات تؤكد هذا الوضع، ومن ذلك التمييز بين المرأة والرجل في الشهادة والقضاء، وتكليف الرجل بالجهاد الإبتدائي دون المرأة، وغير ذلك مما يؤكد الاختلاف التكويني بين المرأة والرجل، ويرتب عليه الإختلاف التشريعي المطلوب.(١)

ويضيف صاحب كتاب (المرأة هويتها الجنسية وأدوارها الإجتماعية) اعتراضاً آخر على أصحاب هذا الرأي فيقول: أنّ الشهادة التي يتحدث عنها الشارع شهادة حسيّة، تتأتى عن طريق رؤية البصر وسماع الأذن، وليس المقصود منها الاستظهارات الحدسية. وما تفقده المرأة جّراء قلّة مشاركتها في المجالات الإجتماعية هو النضج الإجتماعي، لا الضعف في وظيفة القوى الحسيّة في المجالات الإجتماعية.

وعليه، كان من الأفضل صياغة هذا الرأي بالتقرير التالي:

نتيجة قلّة الحضور النسوي في الأصعدة الإجتماعية المختلفة، يتضاءل التركيز لدى المرأة في مثل هذه الأمور، وقد أثبتت التجارب أنّ الإنسان أكثر نسياناً في المجالات التي تقلّ فيها ارتباطاته الذهنية، وينحسر فيها تركيزه وتوجّهه.

وفي مقام الردّ على هذا المدّعى، يجب القول: إنّ تأثير التركيز على قوّة الحافظة وإن بدا صحيحاً، لكن هذا الأمر لا يمكن أن يكون ملاكاً لعدم قبول

---

(١) شخصية المرأة، مصدر سابق: ص٢٤٨.

شهادة النساء، إذ كما إن حضور المرأة في بعض المجالات الخاصة، حتى لا يستهويه التركيز في دقائق كثير من الأمور الجزئية، الى درجة أنّه شاع بين علماء النفس أن النساء أكثر خوضاً في القضايا الجزئية وتركيزاً عليها. ومع ذلك لم يتمخض عن هذا التفاوت إلغاء شهادة الرجال في أمور من قبيل الرضاع مثلاً، أو قلّة التعويل عليها، بل إن مفاد الروايات هو أن شهادة النساء في بعض الموارد، كالرضاع، غير مقبولة، ولا يكتفي بها، إلّا في ما لا يستطيع الرجال النظر إليه، وذلك من قبيل الحيض، ووضع المولود الذكر.[1]

النظرية الثانية:

حاصل هذه النظرية أن المرأة والرجل متساويان في قوّة العقل، ولكن بسبب غلبة العواطف الضرورية للحياة الزوجية والقيام بدور الأم والزوجة، فإن مجال التعقل عند المرأة هو أقل فعالية بالمقارنة مع الرجل. وعلى هذا، فإن المرأة والرجل يتمتعان بالعقل بصورة متساوية، ولكن العواطف القوية للمرأة تمنعها في بعض الأحيان من استخدامها للعقل. في هذا المجال، وفي قضية شهادة المرأة، فإنه بسبب اعتماد المرأة على العاطفة كثيراً، وذلك يمكن أن يمنع المرأة من اتخاذ موقف صحيح فإن انضمام شاهد آخر يؤدي إلى الاطمئنان. وطبقاً لوجهة النظر هذه، لو أن المرأة تمكنت من كبح عواطفها، فإنها سوف تستخدم قوّاها العقلية بصورة متساوية مع الرجل. وجهة النظر هذه تختلف عن الأولى القائمة على تفاوت المرأة والرجل في التكوين وتؤيدها، وتعتقد أن الوضع الطبيعي للمرأة والرجل يؤدي إلى تأثير العواطف عند المرأة على نشاطها العقلي.[2]

(١) المرأة هويتها الجنسية وأدوارها الإجتماعية، مصدر سابق: ص١٠٦.

(٢) شخصية المرأة، مصدر سابق: ص٢٤٨.

وفي هذا الصدد يقول آية الله محمد تقي مصباح اليزدي:

أن المشاعر والعواطف والإنفعالات الطبيعية للمرأة تجعلها سريعة التأثر، وهو ما يدفع بها الى ممارسة الضحك أو البكاء أو باقي الإنفعالات أسرع من الرجل. كما أنّ العاطفة القوية لديها تثبت قدرتها في المجالات التي تحتاج الى مزيد من المشاعر والأحاسيس، وذلك في سياق المحبة والرقة والعطف والحنّو الملازمة لصفة الأمومة، على أنّ غلبة الأحاسيس والعواطف يقلل من القدرة على التفكر وممارسة القضاء وإعمال النظر البعيد عند المرأة، فتعمل روحها الإنفعالية على إضعاف سيطرة العقل وإشرافه على الأمور، ولهذا السبب، غالباً ما يكون قضاء المرأة سطحياً ومجانباً للواقع. بناءً على ذلك، لا دليل ولا شاهد يثبت بشكل قطعي نقص المرأة من حيث الاستعداد العقلي، بل إنّ تفوّق الرجال في القدرة على التعقل معلول لضعف القوى المناوئة له عندهم.(١)

النظرية الثالثة:

المرأة والرجل ليسا متساويين في القدرات العقلية. وحيث إنّ المرأة قد أُختيرت للقيام بنشاطات خاصة طبقاً لمقتضيات الحكمة، فإنّها ليست بحاجة إلى الإستفادة من قابليات عقلية مساوية، فإن التفاوت العقليّ بين المرأة والرجل قابل للتصور في ثلاثة مراتب العقل الأداتي والعقل النظري والعقل العملي، ويجب

(١) المرأة هويتها الجنسية، مصدر سابق: ص١٠٨، نقلاً عن محمد تقي مصباح اليزدي، پرسش هاو پاسخ ها، ج٥، ص٢٠- ٢٤.

دراسة كل منها على حدة.[1]

إذن على مبنى هذه النظرية يكون التفاوت العقلي بين المرأة والرجل ذو منشأ طبيعي، وهناك تباين في مدى الفائدة من القوّة العقلية، ومن الذين يذهبون الى هذه النظرية العلّامة الطباطبائي فهو يقول: مع وجود العوامل المشتركة المذكورة في وجودها تختلف مع الرجال من جهة أخرى، فإن المتوسطة من النساء تتأخر عن المتوسط من الرجال في الخصوصيات الكمالية من بنيتها كالدماغ والقلب والشرايين والأعصاب والقامة والوزن على ما شرحه فن وظائف الأعضاء، واستوجب ذلك أن جسمها ألطف وأنعم، كما أن جسم الرجل أخشن وأصلب، وأن الإحساسات اللطيفة كالحب ورقة القلب والميل إلى الجمال والزينة أغلب عليها من الرجل، كما أن التعقل أغلب عليه من المرأة، فحياتها حياة إحساسية، كما أن حياة الرجل حياة تعقلية.[2]

وهناك رأي للشيخ محمد عبده في هذه الرؤية إذ يقول: خلق الله النساء، وحملهن على ثقل الولادة وتربية الأطفال الى سن معينة، لا تكاد تنتهي حتى تستعد لحمل وولادة، وهكذا فلا يكدن يفرغن من الولادة والتربية. فكأنهن قد خصصن لتدبير أمر المنزل وملازمته، وهو دائرة محدودة يقوم عليهن فيها أزواجهن، فخلق إليهن من العقول بقدر ما يحتجن إليه في هذا، وجاء الشرع مطابقاً للفطرة، فكن- في أحكامه - غير لاحقات للرجال، لا في العبادة، ولا

---

(١) شخصية المرأة، مصدر سابق: ص٢٤٩، نقلاً عن الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٨، ص١٨، ومحمد تقي جعفري، ترجمة وشرح نهج البلاغة، ج١١، ص٢٩٠-٢٩٩، عبد الله جوادي آملي، المرأة في مرآة الجلال والجمال، ص١٨٥.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٢، ص٢٧٥.

الشهادة ولا الميراث.[1]

وهنا يقول صاحب كتاب (مسألة المرأة): لقد شغلت الروايات المذكورة ذهن المفكرين والباحثين والشرّاح وقدّموا في سبيل حل ذلك تحليلات وتوجيهات متناقضة. ويمكننا تقسيمها بنظرة عامة إلى مجموعات ثلاث:

أ- القبول مطلقاً:

اعتبرت هذه المجموعة أن كلام الإمام هذا يشكل أساساً للتعامل مع المرأة، وذكروا نماذج ملموسة للدفاع عن هذا الأساس، واعتبروا أنّ التحدث بهذه الحقائق هو من المصاديق البارزة لصراحة الإمام علي عليه السلام. ثم يذكر آراء من ذهب الى تأييد هذا القول ومنهم ابن ميثم في شرحه لنهج البلاغة، والشيخ محمد عبده أيضاً في شرحه للخطبة الثمانين من النهج، وكذلك الشيخ محمد جواد مغنية وآخرون.

ب- الرفض المطلق:

يتجه بعضهم إلى اعتبار هذا الكلام ظلماً للمرأة وتجنّ في حق الإمام علي عليه السلام. نعم يرى أن الظروف التاريخية هي السبب في صدور هذا الكلام، ويعتبر أن معركة الجمل هي السبب في صدوره، وذكر أيضاً أن هذا الكلام هو من الآراء الشخصية للإمام علي عليه السلام ولا يمكن أن يشكل ذلك مدركاً للأحكام الشرعية أو لتكوين صورة عن المرأة.

---

(١) نهج البلاغة: شرح الشيخ محمد عبده، تحقيق عبد العزيز سيد الأهل، نشر مكتبة التحرير: ص١٣٣.

ولذا فإن عمر فروخ يرفض هذا الحكم على المرأة بشكل مطلق:

((نرى مما تقدم أن الإمام علياً قد ظلم المرأة وحمل عليها حمله شديدة، ولكننا في الوقت نفسه نرى سبب ذلك واضحاً بيناً، ولكن العجيب أنه لم ير فيها خيراً البتة، ولا ذكرها بحسنةٍ ولا أشار إليها بمعروف. وعلى هذا تحمل آراء نهج البلاغة على أنها رأي سياسي شخصيّ، لا رأي إجتماعي عام تبنى عليه الأحكام التي تعرف بها المنزلة الحقيقية للمرأة وفي تاريخ الفكر الإنساني))

ج- التوجيه والتأويل:

اتجهت جماعة لتأويل هذا الكلام وتوجيهه، فهؤلاء لم يكن أمامهم مفرّ من التسليم الظاهري بنسبة هذا الكلام إلى الإمام علي عليه السلام من جهة، مع أنهم من جهة أخرى يرون الإمام عليه السلام في مقام أعلى من أن يصدر منه حكم ظالم سواء كان بحق المرأة أم الرجل. ولذا اتجهوا لتأويل وتوجيه هذه الكلمات. وهذه التأويلات والتوجيهات ليست على مستوى واحد من الإتقان والدقة. فقد يتعرض هؤلاء أحياناً للظروف التاريخية، وأخرى يجعلون ذلك مقابل امرأة هي عائشة، أو يجعلونه خاضعاً لتأثير التفكير الجاهلي وغير الديني.[1]

ونحن الآن لن نتعرض الى نقد هذه النظريات أو توجيهها أو الجري معها، وسنتركه الى الأوراق القادمة إن شاء الله تعالى لنبين هذا الأمر. ومن ثم إعطاء نظرية جديدة نفكك من خلالها، هذا اللغز المحيّر، حول العقل عند كل من الرجل والمرأة.

---

(١) مسألة المرأة، مصدر سابق: ص٢٢٥ وما بعدها بتصرف.

الفصل الرابع

النساء و النبوة

نبوة المرأة في التوراة والإنجيل

مسألة نبوة النساء لم يكن لها أثر خارجي تتحرك من خلالها أدواته نتيجة ما تتركه من آثار أو ما يتعلق بها من أبعاد لها تأثيرها المباشر أو غير المباشر على الرجل والمرأة على حدٍ سواء.

وإنّما تعتبر مثل هذه المسألة من المسائل التي لا جدوى من إثارتها والتطرق لها. لأنها تبدو في أحسن حالاتها هي من أجل دعم مسألة المساواة بين المرأة والرجل لا غير.

والحقيقة في البدء لم يكن بودي مناقشة هذا الأمر والتطرق له بإعتبار أن هذا الأمر مفروغ منه، وإن بيانه متعلق بخصوص الدين وشرائعه، وهو الذي بين مساحة النبوة والرسالة وكيفية تعلق الأمر بالرجل دون المرأة. ولكن هذا لا يمنع من عرض مسألة النبوة وتحققها عند الرجال دون النساء، على طاولة المحاورة والبحث، وبيان إمكانية إنجاز هذا الأمر بالمرأة أو عدمه. وذلك لما تمثله من بعد مهم من الأبعاد العملية حين النظر والبحث في الفروق بين المرأة والرجل. وخصوصاً إذا ما لاحظنا أن التوراة وإنجيل لوقا وأعمال الرسل قد ذكرت بعض النساء ونعتتهن بالنبوة، ونذكر منهن:

١- مريم بنت عمران: وهي ليست أم عيسى عليه السلام، وإنّما تذكر التوراة أخت هارون؛ (وأخذت مريم النبيّة أخت هارون دفّاً في يدها، وخرجت النساء كلهن وراءها بدفوف ورقص. فغنت لهن مريم. ((أنشدوا للربّ جلّ جلاله. الخيل وفرسانها رماهم في البحر)). الخروج١٥: ٢٠- ٢١.

٢- دَبورة: (وما كانت دبورة النبية، زوجة لفيدون قاضية لبني إسرائيل ذلك الزمان) القضاة٤: ٤

٣- خَلْدَة: (فذهب حلقيا الكاهن، وأخيقام وعكبور وشافان وعسايا الى خلدة النبيّة امرأة شلّوم بن تقوة بن حرحس، حافظ الثياب في الهيكل، وكانت مقيمة في الحيّ الجديد بأورشليم وسألوها عما يفعلون) الملوك الثاني٢٢: ١٤.

(فذهب حلقيا والآخرون، كما أمرهم الملك، الى خلدة النبيّة زوجة شلّوم بن توقهة بن حسرة حافظ أردية الهيكل، وكانت مقيمة في القسم الثاني بأورشليم وكلّموها بالأمر) أخبار الأيام الثاني٣٤: ٢٢.

٤- حَنّة: (وكانت هناك نبيّة كبيرة في السن، إسمها حنّة ابنة فنوئيل، من عشيرة آشير، تزوجت وهي بكر وعاشت مع زوجها سبع سنوات، ثم بقيت أرملة، فبلغت الرابعة والثمانين من عمرها، لا تفارق الهيكل متعبدة بالصوم والصلاة ليل نهار) لوقا٢: ٣٦- ٣٧.

٥- بنات فيلبس الأربع: (وسرنا في الغد الى قيصرية. فدخلنا بيت فيلبس المبشر وهو أحد السبعة ونزلنا عنده، وكان له أربع بنات عذارى يتنبأن) أعمال الرسل٢١: ٨- ٩.

ولكن هنا علينا أن نفهم أمر في غاية الأهمية، وعلينا الإلتفات إليه، وهو أن النبوة في الكتاب المقدس تعني معنى يختلف عن معنى النبوة في الفكر الإسلامي، إذ المراد بها في الأول التنبؤ بالغيب والإخبار عن المستقبل من نصر أو هزيمة

وغيرها من الأمور،[1] ولا يعني الدعوة برسالة سماوية وإنزال شريعة.

ويمكن أن نلاحظ هذا المعنى جلياً في الحوارية التي ذكرتها التوارة بين دبّورة النبيّة وبين القائد باراق الذي رفض أن يذهب الى الحرب إن لم تمض معه دبّورة (فدعت باراق بن أبينوعم من قادش نفتالي وقالت له: ((الربّ إله إسرائيل أمرك، فأذهب الى جبل تابور، وخذ معك عشرة آلاف رجل من بني نفتالي ومن بني زبولون، فآتي إليك بسيسرا قائد جيش يابين ومركباته وجنده الى نهر قيشون واسلمه الى يدك)). فقال لها باراق: ((إذا ذهبت معي ذهبتُ، وإلّا فلا)) فقالت له: ((اذهب معك، لكن لن يكون لك فخر في هذه المهمة، لأن الربّ يرمي سيسرا في يد امرأة) القضاة٤ : ٦ - ٩.

فنلاحظ من خلال هذه الرواية بأن القائد باراق لم يكن ينظر الى دبّورة على أنها نبيّة من الله تعالى، وإنّما كان يعتبرها من الذين يتنبأون بالحوادث ويخبرون عن المستقبل، ولذلك هو أصرّ على ذهابها معه ليرى مدى صدق ما تنبأت به من النصر وقتل سيسرا، وإلّا لو كانت هي نبيّة، بالإعتبار الذي ذكرناه لذهب بمجرد أن طلبت منه الذهاب الى جبل تابور من أجل الحرب، كون أمرها رباني، وهو من المؤمنين بها، وحينئذ فما عليه إلّا الطاعة وتنفيذ الأمر بلا جدال، ولكن ما جرى يدلّ على أنّها كانت بين اليهود قاضية وتتنبأ بالحوادث والإخبار عن المستقبل.

هذا علماً أن كتاب التوراة يصور لنا المرأة وهي أكثر عرضة للإنخداع من الرجال، ولذا كانت محطاً لإهتمام الشيطان، وربما كان ذلك هو السبب وراء

---

(١) ينظر: المرأة هويتها الجنسية وأدوارها الإجتماعية: محمد رضا زيبائي، ترجمة رعد الحجاج، نشر مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠١٣م: ص٤١.

تكليفها بقبول تسيد الرجل عليها. وعلى مرّ التاريخ كانت رؤية أئمة اليهود والنصارى قرينة نوعاً ما على هذا التوجّه، فاعتبروا التفاوت بين المرأة والرجل، في الخصائص التكوينية، وفي الأوضاع والأدوار، وفي التعليم والأحكام، من المسلمات، بل قد يذهبون الى أبعد من ذلك، فينقلون التفاوت الى المكانة الإنسانية والأخلاقية بين الجنسين. فعلى سبيل المثال، تؤكد الأحكام الدينية لليهود على أن المرأة، إذا حبلت وولدت ذكراً تكون نجسة سبعة أيام، وإن ولدت أنثى تكون نجسة أسبوعين.[1] (سفر اللاويين١٢: ٢- ٥).

وكذلك تذكر التوراة أن (بين ألف رجل وجدتُ واحداً صالحاً ولم أجد امرأة صالحة بين ألف) سفر الجامعة٧: ٢٨. وكيف يبعث الربّ امرأة نبيّة وصفتها في التوراة: (فوجدت المرأة أمرّ من الموت، المرأة التي هي شباك وقلبها إشراك ويداها قيود. الصالح قدّام الله ينجو منها. أمّا الخاطئ فيؤخذ بها) الجامعة٧: ٢٦. هذا الى غيرها من الأمور التي ذكرت في التوراة والإنجيل حول المرأة والتي ذكرنا بعضاً منها في الصفحات السابقة.

وهنا يمكن لنا أن نذكر بعضاً من الملاحظات التي تنافي نبوة المرأة التي أشير إليها في التوراة والإنجيل ومن نفس الكتاب المقدس:

أولاً:

يقول بولس: (أيتها النساء، إخضعن لأزواجكن كما تخضعن للربّ، لأن الرجل رأس المرأة كما أن المسيح رأس الكنيسة، وهو مخلّص الكنيسة وهي جسده. وكما تخضع الكنيسة للمسيح فلتخضع النساء لأزواجهن في كل شيء)

---

(١) ينظر المصدر نفسه: ص٤١.

أفسس٥: ٢٢- ٢٤. وفي رسالة بولس الى أهالي كورنثوس: (لكني أريد أن تعرفوا أن المسيح رأس الرجل والرجل رأس المرأة، والله رأس المسيح) كورنثوس الأولى١١: ٣ (فما الرجل من المرأة، بل المرأة من الرجل، وما خلق الله الرجل من أجل المرأة، بل خلق المرأة من أجل الرجل) كورنثوس الأولى١١: ٨- ٩. فإذا كان الأمر بهذه الصورة فكيف تمنح للمرأة القيادة وتكون راعية ومعلمة للرجال كونها نبيّة وقد تقلدت لباس الكهنوت، بحيث تحمل كل مهام ذلك الأمر الصعب. ثم المطلوب منها بعد ذلك أن تخضع لزوجها في كل شيء!.

ثانيـًا:

يقول بولس: (لتتعلم المرأة بسكوت في كل خضوع، ولكن لست آذن للمرأة ان تعلّم ولا تتسلط على الرجل، بل تكون في سكوت. لأن آدم جبل أولاً ثم حواء. وآدم لم يغو لكن المرأة أغويت فحصلت في التعدي. ولكنها ستخلص بولادة الأولاد إن ثبتن في الإيمان والمحبة والقداسة مع التعقل) تيموثاوس الأولى٢: ١١- ١٤. ونلاحظ هنا أن بولس لم يثبت هذا الأمر على أساس الأثر الإجتماعي السائد في ذلك الزمن ولا لخصوصية تحكمت بالكنيسة، التي كانت برعاية تيموثاوس، وإنّما تعرض لأمور تخص الرجل والمرأة في أصل الخلقة، فإذا كان الأمر كذلك، وعلمنا بأن المرأة لا يجب أن تتعلم في الكنيسة، فيكون من باب أولى أن لا تتسلم أو تمنح درجة من درجات الكهنوت العالية، وذلك لما هو معلوم بما يناط بتلك الدرجات من المسؤولية والتعلم.

ثالثـًا:

في بشارات الأنبياء التي ذكرت في الكتاب المقدس لم يبشروا مجتمعاتهم

وأقوامهم بخروج نبيّة أو رسولة لتقودهم وتخلّصهم من نير الظلم والعبودية والضلال، وإنّما كانت البشارات كلّها منصبّة على الرسل والأنبياء الرجال، فعلى سبيل المثال جاء في الكتاب المقدس:

لأنه يولد لنا ولد ويعطى لنا ابن

وتكون الرئاسة على كتفه

يسمى بإسم عجيب،

ويكون مشيراً وإلهـاً قديراً

وأبـاً أبديـاً ورئيس السلام

سلطانه يزداد قوّة،

ومملكته في سلام دائم (إشعيا٩: ٥- ٦)

وحتى النساء كنّ إذا طلبن مولوداً ارادنه ذكراً، وينذرن نذراً بأن يكرسنّ كلّ حياته للربّ، فها هي التوراة تخبر عن امرأة اسمها حنّة وكيف أنها طلبت ولداً ذكراً من الربّ، ولم تطلب انثى، ليكون بعد ولادته نبيـاً إسمه صموئيل حيث قالت: (أيها الرب القدير، إذا نظرت الى شقاء أمتك وذكرتني وما نسيتني، بل رزقتني مولوداً ذكراً، فأنا أكرسه لك كل حياته دون أن يقص شعر رأسه) صموئيل الأول١: ١١. (واستجاب الربّ صلاتها، فحبلت في تلك السنة وولدت إبنـاً ودعته صموئيل لأنها قالت: (من الربّ طلبته)) صموئيل الأول١: ١٩- ٢٠. (وكبر صموئيل وكان الربّ معه، ولم يهمل شيئـاً من جميع مـا كلّمه به وعلم بنو إسرائيل من دان الى بئر سبع، أنّ الربّ أختار صموئيل نبيـاً. وعاد الربّ يتراءى في

شيلوه، لأنه تجلى لصموئيل هناك وكلّمه) صموئيل الأول٣: ١٩- ٢١.

وهذا الأمر كان محفوراً في هاجس كل من الرجل والمرأة، والذي ساهم في إيجاده هو البعد الحركي للنبوة الإلهية، التي أنيطت بالرجل دون المرأة، وهذا بدوره يشكل الإختيار الكوني للأكفأ في أداء هذا الدور. فمثلما تمثل المرأة الدور الأكمل في حضانة الطفل في الأشهر الأولى للولادة، فكذلك الرجل في مسألة النبوة وأصداء الرسالة ولذلك تجد الكتب السماوية توضح هذا الأمر بأجلى صوره، وبالتالي أصبح حافزاً يحرك أحاسيس الأمهات بتمني الحصول على الذكور دون الاناث لأنهن يأملن بوصول الرجل الى درجة من درجات النبوة والرسالة. ولم نجد ذكر لأي امرأة أو رجل قد تمنى الحصول على امرأة، وهو يطلب من الله أن يرزقه الذريّة.

رابعـاً:

بالرغم من القيمة والمكانة العالية لمريم عليها السلام بإعتبارها قد كانت مصطفاة من بين النساء لحمل عيسى عليه السلام من دون أن يمسسها بشر. ولكنها لم تذكر في الأناجيل على أنها قد مارست أي دور كهنوتي أو رسالي. بالرغم من ذلك لم تتجاوز في الإنجيل دورها الطبيعي كأم، بل لم تطالب هي ذاتها بأي دور كهنوتي إطلاقاً.

نبوة المرأة في الإسلام

النبوة: هي الإخبار عن الله تعالى.(١)

والنبي: هو الإنسان المخبر عن الله بغير واسطة بشر، أعمّ من أن يكون له شريعة كمحمد صلى الله عليه وآله، أو ليس له شريعة كيحيى عليه السلام، قيل سمي نبياً لأنه أنبأ من الله تعالى، أي أخبر. وقيل النبوة والبناوة لما إرتفع من الأرض. والمعنى انه ارتفع وشرّف على سائر الخلق.(٢)

وقيل النبي: هو الطريق، ويقال للرسل: أنبياء الله، لكونهم طرق الهداية إليه،...والإعتقاد بالنبوة والأنبياء من أصول الدين المبين، ومما يلزم إعتقاده بالإستدلال واليقين. والخلق بأجمعهم محتاجون الى النبيين، ومضطرون الى المرسلين، ليكونوا وسائط بينهم وبين الله ربّ العالمين، وطرقاً لمعرفة وظائفهم، ووسائل لعرفان مسائلهم، وحججاً على جميع بريّته، ومصباحاً لهداية خليقته.(٣)

وإن لفظة (الرسول) بمعنى (حامل الرسالة)، ولفظة (النبي) إذا كانت مشتقة من مادة (نبأ) فالنبيُّ بمعنى (صاحب الخبر المهم)، وإذا كانت مشتقة من مادة (نبو) فهو بمعنى: (صاحب المقام الرفيع والشريف). واعتقد البعض أن مفهوم النبي أعمّ من مفهوم الرسول، وذلك لأن النبي هو الذي نزل عليه الوحي من الله،

(١) العقائد الحقة: السيد علي الحسيني الصدر، نشر دار العلوم، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م: ص٢٠٥.

(٢) مجمع البحرين: فخر الدين الطريحي (ت١٠٨٥هـ)، تحقيق أحمد الحسيني، نشر مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط٢، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م: ج١، ص٢٤٩.

(٣) العقائد الحقة، مصدر سابق: ص٢٠٥.

سواء كان مأموراً بالإبلاغ للآخرين أم لم يكن، بينما الرسول هو المأمور بإبلاغ الوحي أيضاً.

ولكن هذا التفسير غير صحيح، وذلك لأنه ذكرت في بعض الآيات الكريمة صفة (النبيّ) بعد صفة (الرسول)، مع انه وفق التفسير المذكور، يلزم أن تذكر الصفة التي تتضمن المفهوم العام وهي (النبي) قبل ذكر الصفة (الرسول) اضافة الى عدم وجود دليل على إختصاص الأمر بإبلاغ الوحيّ بالرسل.

وورد في بعض الروايات، أن مقتضى مقام النبوّة أن يرى صاحبها مَلك الوحي في النوم، وأن يسمع صوته فحسب في اليقظة، بينما صاحب مقام الرسالة يشاهد ملك الوحي في اليقظة أيضاً.

ولكن هذا الفرق لا يمكن حمله على مفهوم اللفظ، وعلى كلّ حال فالذي يمكن تقبّله أنّ النبي من حيث المصداق (لا المفهوم) أعمّ من الرسول، أي أنّ الأنبياء جميعاً كانوا يملكون مقام النبوّة. وأمّا مقام الرسالة فهو مختص بجماعة منهم، وعدد الرسل وفق الرواية (ثلاثمائة وثلاثة عشر) وبطبيعة الحال يكون مقامهم أسمى من مقام سائر الأنبياء، كما أن الرسل لم يكونوا متساوين من حيث الدرجة والفضيلة، وقد نال بعضهم مقام الإمامة أيضاً.[1]

إذن النبوة منصب إلهي يؤتيه الله من يشاء من أفراد الإنسان بلا حيثية نيابية، يتمكن صاحبه من سماع الوحي بقذفه في القلب أو صوت الملك أو رؤيته في المنام دون معاينته في اليقظة حين التحدث معه.

(١) دروس في العقيدة الإسلامية: محمد تقي مصباح اليرزدي، نشر مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١؛ ص٢٢٨و ص٢٢٩.

فقولنا: (منصب) بمنزلة الجنس يشمل رتبة الأنبياء والرسل والأوصياء وبعض الملائكة والعلماء. وقولنا: (من أفراد الإنسان) كالفصل يخرج به منصب الملائكة، كما يخرج بقولنا: (بلا حيثية نيابية) درجة الأوصياء والخلفاء والعلماء فإنها نيابة عن النبي. وأما قولنا: (رؤيته في المنام) فهو يميز النبوّة عن الإمامة بناء على تأصلها ومغايرتها مع الخلافة كما هو الصحيح، فإن الإمام وان يسمع صوت الملك لكنّه لا يراه في منامه، وقولنا: (من دون معاينة) إشارة إلى افتراق النبوّة عن الرسالة، فإن الرسول يعاين شخص الملك في اليقظة، وقولنا: (حين التحدث معه) ناظر إلى ما في بعض الروايات من أن النبي ربما رأى الشخص ولكن لا يسمع كلامه، فيكون عدم الرؤية- إن صحت الرواية سنداً- مختصاً بحين المكالمة والوحي.

وينبثق من هدي هذا البيان: أن النبي هو الإنسان الواجد لذلك المنصب الإلهي بلا جهة نيابية في منصبه، سواء بلغ الناس من ربّه أم لا، كان له كتاب وشريعة أم لا، وأمّا الرسول فهو الإنسان الواجد للدرجة الممكنة لمعاينة الملك والمخبر من قبل الله تعالى للمكلفين.

فمدار الفرق بين النبوّة والرسالة نقطتان: معاينة الملك وعدمها، وإعتبار التبليغ وعدمه.[1]

وليس معنى العبارة أن النبي لم يوظف بإبلاغ الوحي الى الناس، فإن معظمهم أرسلوا الى الناس، كما يستفاد من القرآن المجيد كقوله تعالى: (وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن

---

(١) صراط الحق: محمد آصف الحسيني، نشر دار ذوي القربى، قم، ط١، ١٤٢٨هـ: ج٣، ص١١.

نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ) سورة الزخرف: ٦ وقوله تعالى: (فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) سورة البقرة: ٢١٣، بل المراد عدم اعتبار الإبلاغ، لا اعتبار عدمه.

هذا وقد ذكروا فروقاً بين النبي والرسول منها:

١- إن الرسول من جمع إلى المعجزة، الكتاب المنزل عليه، والنبي غير الرسول من لم ينزّل عليه كتاب، وإنّما يدعو إلى كتاب من قبله. ويمكن أن يستدل له بقوله تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ) سورة الحديد: ٢٥ لكنه مع عدم نفيه إنزال الكتاب على النبي، لا يدل على نزول الكتاب على كلّ رسول كما لا يخفى، وهذا القول لا يسانده دليل، بل الدليل على خلافه، فإنّ عدد الرسل لعلّه أكثر من عدد الكتب المنزلة. ألا ترى أن هارون عليه السلام كان رسولاً ولم يكن له كتاب.

٢- إنّ من كان صاحب المعجزة وصاحب الكتاب، ونسخ شرع من قبله فهو الرسول، ومن لم يكن مستجمعاً لهذه الخصال فهو النبي غير الرسول. وإظهار المعجزة لابد لكل مبعوث إلى قوم لم ينصّ نبي آخر عليه، سواء كان نبيّاً أو رسولاً، ونزول الكتاب قد عرفت الحال فيه، وأمّا نسخ الشريعة فإنه غير لازم لكل رسول، ولذا كان هارون رسولاً ولم ينسخ أية شريعة، فضعف هذا القول واضح.

٣- إنّ الرسول صاحب الوحي بواسطة الملك، والنبي هو المخبر عن الله بكتاب، أو إلهام، أو تنبيه في المنام.

٤- إنّ النبي من أوحي إليه بشرع، وإن لم يؤمر بتبليغه، فإن أمر بذلك فرسول أيضاً. وهذا قول جماعة منهم الشيخ المفيد في (النكت الاعتقادية) المنسوبة

إليه. والحق أن يقال: الرسول من عاين الملك حين الوحي والإخبار من الله تعالى وكان مأموراً بالتبليغ إلى الناس، والنبي من يسمع صوت الملك ولا يرى شخصه حين التحدث والوحي، أو يرى الحكم في المنام سواء كان مأموراً بإبلاغ الناس أم لا.

أمّا كون الرسول مأموراً بالتبليغ فيدعمه قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) سورة ابراهيم: ٤، ويدل عليه أيضاً نفس لفظة الرسول كما هو ظاهر. وأمّا معاينته الملك حين التحدث والوحي دون النبي، فهو كما في عدّة روايات منها ما جاء في صحيحة زرارة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّوجل: (وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا) ما الرسول وما النبي؟ قال: النبي الذي يرى في منامه، ويسمع الصوت ولا يعاين الملك، والرسول الذي يسمع الصوت ويرى في المنام ويعاين الملك.[1]

وقال صاحب مجمع البحرين: وفرّق بينه وبين الرسول، لأن الرسول هو المخبر عن الله بغير واسطة أحد من البشر، وله شريعة مبتدأة كآدم عليه السلام أو ناسخة كمحمد صلى الله عليه وآله، وبأن النبي هو الذي يرى في منامه ويسمع الصوت ولا يعاين الملك، والرسول؛ هو الذي يسمع الصوت ويرى في المنام ويعاين، وبأن الرسول قد يكون من الملائكة بخلاف النبي.[2]

ويقول العلّامة حسن المصطفوي: وأمّا الفرق بين الرسول والنبي من الإنسان؛ فانّ النبي من له مقام تكويني ومنزلة إلهية ومرتبة روحانية معنويّة فوق

---

(١) المصدر نفسه: ص٤٧ وما بعدها بتصرف.

(٢) مجمع البحرين، مصدر سابق: ج١، ص٢٤٩.

المراتب المتداولة، وهذا المقام هو المعدّ لإعطاء منصب الرسالة، فكلّ رسول لابدّ وأن يكون قبل نبيّاً، وأمّا النبي فقد لا يكون رسولاً.

وكلمة النبي مأخوذة من النبوّة واويّة، بمعنى الرفعة والعلوّ، وليست من مادة النبأ بمعنى الخبر، و قد اشتبه عليهم هذا الأمر وتشابهت اللغات.(١)

وعلى هذا يكون مقام النبوّة هو إرتفاع وإعتلاء في شأن إنسان من جهة الروحانية والمعنوية، ذاتية واكتسابية، مع كونه على فطرة بشر كسائر أفراد الإنسان. ومن لوازم هذا الاعتلاء؛ الإحاطة على مراتب عالم المادة والطبيعة والإرتباط بعوالم ما وراء المحسوس والظاهر، ونزول الوحي من جانب اللّه عزّ وجلّ إليه، والإشراف على المعارف والحقائق.

(يا أَيُّهَا النَّبِيُ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً) سورة الأحزاب: ٤٥

(إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا) سورة مريم: ٣٠

فانّ الشّهادة على القوم و تحقّق النبّوة في سنّ الصبا، ليست من آثار النبوء مهموزاً، بل هي من لوازم اعتلاء الذات وإرتفاع المقام الروحاني.... وإنّ مقام النبوّة والخلافة يحتاج الى ثلاث امتيازات، إمتياز تكويني وإرتفاع معنوي ذاتي، وإمتياز خاصّ في المجاهدة والعمل حتّى تتحقّق حقيقة العبوديّة والفناء، وإمتياز إعطاء المنصب والمأموريّة من جانب اللّه المتعال إليه، حتى يتم مقام النبوة والخلافة.(٢)

---

(١) التحقيق في كلمات القرآن الكريم: المحقق المفسر العلّامة المصطفوي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٩م/ ١٤٣٠ هـ: ج٤، ص١٣٩.

(٢) المصدر نفسه: ج١٢، ص١٥.

أمهات ثلاث ودورهن في الحفاظ على النبوة

نريد أن نناقش الآن أمومة كل من هاجر أم إسماعيل عليهما السلام وأم موسى عليهما السلام وأم عيسى عليهما السلام، ونبحث عن العوامل التي أدت الى إيجاد هذا الدور الأمومي الذي ساهم بشكل مباشر بالحفاظ على أنبياء لهم الشأن العظيم الذي لا يخفى على العالمين.

ثم لماذا هذا الدور أنيط بتلك النساء، بالخصوص؟ وتركت الأسباب الأخرى التي لو حدثت لأدت نفس الدور، إن لم يكن الظاهر منها أنها الأسلم، وأفضل مما قد يثار من إشكالات وإعتراضات، كما حدث مع حمل مريم بعيسى عليهما السلام بدون أب، فلو كان قد ولد من أب وأم، لما وجدت وتشكلت تلك الإعتراضات التي تبدو للوهلة الأولى إعتراضات مقبولة، وستحاط بالتالي حولها الكثير من الشبهات والشكوك التي من المفروض أن يكون من تلقى عليه تلك الأحداث والرسالة في غنى عنها أو بعيداً كل البعد.

والحقيقة أن هذا الدور المناط بتلك النساء العظيمات، لم يكن دور يمكن أن يؤدى بأفراد آخرين أو بأسباب غير تلك الأسباب التي أدت الى حفظ أولئك الأنبياء عليهم السلام، فأن الله تعالى لا يأتي بفعل أو يمهد لسبب ما لم يكن هو الأنسب والأتم فيما لو قورن بغيره من الأسباب المحتملة التي يطرحها العقل أو الذهن البشري. ولذلك تأتي تلك الأفعال والأسباب بالنتائج المراد تحقيقها بلا تخلف أو إختلاف، وهي على العكس من الآراء التي يطرحها العقل بإعتبار أنها لم تحط بالحقيقة وآثارها بشكل كامل، ولا تجتاز بحال ذلك المحيط الحيوي الذي عاشته ومارست فعالياتها فيه، واحتفظت بالتجارب التي أولدتها تلك الزحمة من الأحداث وتكاثر البشر وإختلاف المصالح والأهداف.

ولو إلتفتنا الى الأدوار المهمة والمفصلية التي قامت بها تلك النساء الثلاثة ونلاحظ كيفية انحصار النجاح بالمرأة دون الرجل، فهنا نحتاج الى التوقف والتأمل في تلك القصص القرآنية التي نقلت لنا مرحلة من مراحل الإحتياج البشري للنبوّة، لم تكن لتتم لولا وجود المرأة، وربط ذلك الوجود المصيري بها.

وهذا بالتأكيد لم يكن على نحو الصدفة، وإنما لحاجة هذا البقاء الدنيوي لعنصر الأنثى، لتكون بالتالي هي شريكة في العطاء الهدايتي الذي يصدر من بعثة الأنبياء. وبذلك سيكون لها الدور الفاعل، وهي تمارس وجودها الإيجابي في هذه الدنيا. وحينئذ سنصل الى نتيجة مهمة، وهي عدم الإحتياج الى نبوّة النساء، والإكتفاء فقط بنبوّة الرجال، بإعتبار أن لكل منهما دور فيمن يكون نبيّاً، ومن له قابلية الحفاظ على النبوة، أو أن يكون مصدراً منفرداً لولادة الأنبياء.

ثم إنّ الأمهات الثلاث قد مثلن ثلاثة خطوط يتحرك الوجود من خلالها، بل هي الضابطة التي توجد العلل والأسباب والنتائج وهي: الإختيار، والإضطرار، والتكوين- كن فيكون- .

خط الإختيار: (أم إسماعيل عليهما السلام)

فهاجر أم إسماعيل عليهما السلام؛ قد مثلت خط الإختيار الإبراهيمي، بأن يسكنها هي وإبنها في تلك المنطقة الخالية من البشر والزرع والماء، كما قال تعالى: (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) سورة إبراهيم: ٣٧، فيعتبر والحال هذه أن إبراهيم عليه السلام هو الباذر الأول وناشر النبوة في أهم بقاع الأرض في تلك الفترة من الزمن، حيث

تحرك في أكثر من بقعة من بقاع الأرض ليترك في كل منها مفردة من مفردات النبوّة يستكمل من خلالها البناء الإنساني، فمن أرض بابل في العراق الى الشام وصولاً الى مصر، وهو في كلّ منها يترك أثراً من آثار الهداية والتشريع وحسن التصرف والتدبير.

وهنا عندما نقول إنّ سكن هاجر وإبنها إسماعيل عليهما السلام في ذلك الوادي غير ذي زرع، فهو وإن تم بأمر الله تعالى، لكن كان المنفذ والقائم بالأمر عن رضا كامل هو إبراهيم عليه السلام، فمثّل هذا الإنتقال والتحرك الإختيار عن قناعة وطيب خاطر من قبل إبراهيم، مضافاً الى وجود خط الإختيار الثاني، وقلما يلتفت إليه وهو الذي تم من قبل زوجته هاجر عليها السلام، فقد كان بإمكانها رفض طلب إبراهيم عليه السلام وعدم طاعته في تنفيذ هذا الأمر، ومن ثم الإلتجاء الى وسائل أخرى تستخدمها للتخلص منه، كأن تطلب الفراق والإنفصال عن إبراهيم، أو أن تطلب السكن في مكان آخر يكون آهلاً بالسكان والحياة، أو العودة الى أهلها أو ما شابه ذلك. وخصوصاً إذا ما علمنا أنّ السكن في ذلك المكان الذي اختاره إبراهيم عليه السلام، كان يمثل الموت والإنتحار بعينه، ولعدّة اسباب منها:

١- يمثل المكان بحد ذاته، وبالمواصفات التي ذكرت على لسان إبراهيم، الخطر المتعدد العناوين، فمن خطر الجوع وخطر العطش وخطر وجود وحوش الأرض من البشر والحيوانات.

٢- إنّ المرأة برقتها ولينها، تمثل الضعف بعينه، في مثل تلك الأماكن الجرداء، فهي لا تملك القدرة على معايشة الظروف القاسية التي تطرحها صحراء شبه

الجزيرة العربية، هذا مضافاً الى وجود إبنها الصغير النبي إسماعيل عليه السلام وصعوبة إتمام تربيته والحفاظ عليه.

ولكن كل هذا لم يحدث وفضلت البقاء مع إبراهيم عليه السلام وتنفيذ ما يطلب منها بدقة متناهية، وهذا إن دلّ على شيء فيدل على عدّة أمور منها:

أولاً: شعرت أنها صاحبة هدف، تساهم به متى ما أنجز بالحفاظ على النبوّة من جهة، ومن جهة أخرى إهداء تلك المنطقة البذور الأولى لأن تثمر لهم بالنتيجة ساعة بعثة الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله.

ثانياً: إن إبراهيم عليه السلام قبل أن يعيش تجربة الطاعة في ذبح إبنه إسماعيل قد عاش تلك التجربة عندما ضحى بامرأته وإبنه عندما كان رضيعاً، وهو يتركهم في تلك الأرض التي لا يوجد أي مَعْلَم ظاهري فيها للنجاة، فكما قال إسماعيل لإبيه؛ إفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين، وهو بتلك الحالة كان يمثل نفسه، ولكن هنا هاجر وفي تلك اللحظة قد مثلت نفسها وقبلت التضحية بها، وكذلك قبلت التضحية بطفلها الرضيع الذي يمثل فلذة كبدها وإمتداد وجودها الممنوح لها بعد العناء الطويل، حتى حظيت به وليداً يسدّ لها ذلك الفراغ الطويل من عدم الحمل، حتى كأنها قالت لزوجها إفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين.

خط الإضطرار: (أم موسى عليهما السلام)

وأمّا خط الإضطرار الذي مورس في إختيار المرأة للحفاظ على النبوّة، فخير مثال على ذلك هو ما حصل مع أم موسى عليهما السلام، وكيف انّ الإضطرار أوكل بالمرأة لأداء الحفاظ على نبي الله موسى عليه السلام من بطش فرعون

مصر، وأمره بقتل جميع المولودين من الذكور لبني إسرائيل وبدون إستثناء، وكيف أدت تلك المرأة العظيمة، هذا الدور على أكمل وجه، وخصوصاً بأن القرائن وواقع أحداث القصة تشير بعدم وجود عمران والد موسى اثناء ولادة موسى، لأنه قد يكون توفي قبل الولادة، أو أنه كان حياً ولكنه لم يكن موجوداً في تلك الأحداث لسبب ما. وهذا الأمر نجده واضحاً من خلال الخطاب القرآني مع أم موسى في قوله تعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) سورة القصص: ٧. فلو كان عمران عليه السلام موجوداً مع زوجته لكان الخطاب القرآني؛ (إنّا رادّوه إليكما) وليس (إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ) بصيغة المفرد، وكذلك قوله تعالى: (فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ) سورة طه: ٤٠، فقد جاء الخطاب فقط الى الأم دون الأب، ولو كان موجوداً لشمله الخطاب. ولذلك فإن الذي تكفل بقضية الحفاظ على هذا المولود المبارك هي الأم دون الأب، وكونها هي الوحيدة القادرة على تأدية هذا الدور على أكمل وجه دون غيرها، فأصبحت صورة الإضطرار لأم موسى واضحة، وفي ذلك المشهد القصصي الذي يبيّنه القرآن الكريم في أبهى صورة من صور العرض الواقعي ليظهر لنا أمراً لابد من بيانه:

إنّ من أوضح أشكال الوحي للناس من غير الأنبياء والذي ذكر في القرآن الكريم، هو الوحي الذي حصل مع أم موسى أولاً وبشكل فردي، ولا يوجد أي ذكر لأي وحي فردي آخر قد ذكره القرآن الكريم. والوحي الآخر الذي حصل لغير الأنبياء هو ذلك الوحي الجماعي لحواريّ عيسى عليه السلام وكما قال تعالى: (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ) سورة المائدة: ١١١، وفي هذا إشعار وإخبار على أن أول من أوحي اليه

من البشر دون الأنبياء، كانت امرأة، ولولا خطورة الموقف والإحتياج الضروري لمنع ما كان قد يحدث، لما اختيرت للقيام بهذا الدور، وفي ذلك دلالة على قدرة تلك المرأة على تحمل هذا الوحي والإتيان بما ألقاه في القلب على أكمل وجه.

علماً إنّ الوحي: هو إلقاء أمر في باطن غيره، سواء كان الإلقاء بالتكوين أو بإيراد في القلب، وسواء كان الأمر علماً أو ايماناً أو نوراً أو وسوسة أو غيرها، وسواء كان إنساناً أو ملكاً أو غيرها، وسواء كان بواسطة أو بغير واسطة ويفيد العلم واليقين.[1]

ويذكر العلاّمة المحقق المصطفوي أربعة عشر قسماً من أقسام الوحي منها:

- الوحي في التكوين(*)، والوحي للحيوان والملائكة، وهناك وحي للشياطين(**)، والوحي للأنبياء والمرسلين، وأخيراً الوحي للأفراد المختلفة غير الأولياء، كما في:

- (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا) سورة المائدة: ١١١.

- (إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ) سورة طه: ٣٨ – ٣٩.

---

(١) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مصدر سابق: ج١٣، ص٥٩.

(*)كما في قوله تعالى: (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا) سورة فصلت: ١٢. وقوله تعالى: (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا) سورة الزلزلة: ٤ – ٥.

(**) (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ) سورة الأنعام: ١٢١.

- (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ) سورة القصص: ٧.

والوحي إن كان في مورد إبلاغ الأحكام والحقائق الإلهية، فلابد أن يتحقق بوسيلة رسول أمين طاهر، لا ينطق عن الهوى، ولا يتمايل الى جانب خلاف الحق، ليكون حجة تامة من الله تعالى.

وأمّا في موارد شخصية أو عرفية إجتماعية، فلا إشكال في تحققه بوسائط مختلفة، إذا أريد منه هدايتهم الى ما فيه صلاحهم، وهذا لطف منه تعالى في مورد عباده المتوجهين إليه المتوقعين منه.[١]

عموماً هناك شيء ملفت للنظر بخصوص عوامل وأسباب الوحي لأم موسى وعوامل وأسباب الوحي الى الحواريين، علينا التوقف عندها،لأنها تثير مسألة مهمة، تستوجب منّا البيان والتوضيح وما دمنا نتكلم عن خط الإضطرار الذي أدّى لإختيار أمّ موسى لتنفيذ تلك المهمة التي يتم الحفاظ بها على نبي الله موسى عليه السلام، فنحن لا زلنا نتعامل بالإضطرار مع الوحي الآخر الذي حصل مع الحواريين، ولكن مع وجود فارق جوهري بينهما لا يمكن التغاضي عنه أو تجاهله، ألا وهو؛ انه إختيار ولو بالإضطرار لأداء مهمة كبيرة يكون الفرد مؤهلاً لأدائها دون غيره بحسب الاستحقاق، وما وصل إليه من درجات الكمال واليقين وهو معبأ بالكامل لأداء الدور بدون تردد، وقد يكون الوحي قد أتى كعامل مساعد لأمر قد بيتته أمّ موسى مسبقاً، ألا وهو وضع موسى عليه السلام في صندوق خشبي وإلقاءه في اليم لأنه السبيل الوحيد لخلاصه من فرعون وجلاوزته، ومن ثم ليأخذه الماء الى أي مكان بعيداً عن فرعون، ولعله يعيش وينجو من القتل، فتكون

(١) المصدر نفسه: ج٣، ص٥٩ وما بعدها.

قد قبلت بالبعد والفراق مقابل نجاة وليدها، وهنا جاء الوحي الإلهي بأمرين مهمين وهما:

١- تثبيت قلب أمّ موسى وأن تمضي في أمر إلقاء موسى عليه السلام في اليّم دون تردد.

٢- بشارة أم موسى بأن الله تعالى سوف يرد لها موسى عليه السلام سالماً.

أمّا مسألة الوحي مع الحواريين فالأمر مختلف، فالظاهر إنهم كانوا في البدء يشكون في مسألة نبوّة عيسى عليه السلام، فلم يؤمنوا به بالمباشر، ولولا أن الله تعالى قد أوحى اليهم بأن يؤمنوا به وبرسوله عيسى لم يكونوا ليقدموا على هذا الأمر، ويكتفوا بما تقدمه القرائن الخارجية للتصديق بنبوّة عيسى عليه السلام، وهذا واقعاً أمر يحسب عليهم لا لهم، إذ كان من المفروض بهم التصديق برسالة ونبوة عيسى، لأن مقدمات الإيمان بذلك كانت موجودة للمتدبر وللمؤمن الواعي، وللباحث عن الإعتقاد الصحيح، بإعتبار أنّ لله الحجّة البالغة في بيان كل المقدمات والأسباب التي تدعو الى الإيمان بشيء أو الكفر والإبتعاد عن ذلك الشيء، وهذا يعطي دلالة على التصور بقلة يقين الحواريين من اصحاب عيسى، وقرينة ذلك هو ما يخبرنا به القرآن الكريم عنهم، إذا بعد ن بيّن الله تعالى كيف أنّه قد أوحى لهم ليؤمنوا به وبرسوله، طلبوا من عيسى عليه السلام أن ينزل عليهم ربهم مائدة من السماء، كما يخبرنا القرآن عن ذلك: ({إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ) سورة المائدة: ١١٢ - ١١٣، والقرينة الأخرى أن واحداً منهم- وهو يهوذا الأسخريوطي- قد وشى بعيسى وسلّمه الى الجنود الرومانيين

بمساعدة الكهنة اليهود، والآخرون بعضهم من أنكر معرفته بعيسى عليه السلام كبطرس، ومنهم من فرّ عنه، لا بل حتى لم يواسوه ويبقوا معه في محنته، وخصوصاً في تلك الليلة التي ألقي القبض فيها عليه، كأولاد زبدي. وليس هذا فقط فإن الذي أخبرهم بقيامة المسيح، وكما تذكر ذلك الأناجيل هي (مريم المجدلية) وحتى عندما أخبرتهم، شكّوا في هذا الخبر، كما بيّنا ذلك في الأوراق السابقة فراجع.

ثلاث نساء حافظن على موسى عليه السلام:

وأنت تطالع قصة موسى عليه السلام التي يرويها القرآن الكريم تجد هناك شيء عجيب وغريب، يوحي لك بالتناسق في إيجاد ثلاثة عناوين انثوية تتحرك لتضع للقصة منهجية جديدة في بيان سبل الحفاظ على أثمن الأشياء، وإبعادها عن عيون أشرّ الناس وأخطرهم فتكاً على الإنسانية. وبالتالي ليعطن صورة بأن للمرأة دور مهم في هذه الدنيا لا يمكن نكرانه أو تجاهله.

دور قد عجز رجال بني إسرائيل عن ادائه أو حتى الإنتفاض على فرعون وجنده، وعلى أقل التقادير ليكسروا ذلك القرار الجائر القاضي بقتل المواليد الذكور من بني إسرائيل، والإبقاء على الإناث لإستحيائهن. موقف صعب مرّ به بنو إسرائيل، ولكنهم لم يحركوا تجاهه أي ساكن، ولم ينتفضوا لهذا الموقف من الظلم الذي أحاطهم به الفرعون. وما دام لا يوجد فيهم من له قابلية الثورة والإصلاح أراد الله تعالى أن يأتي بهذا المصلح ليشق طريقه الإصلاحي ويبدأ به من الصفر. فالقوم يبدو أنهم أضاعوا المواثيق ونسوا العهود، ولم تبق لديهم جذوة من الإيمان تمدهم بالشجاعة التي تحركهم لرفض الواقع الخارجي، فكان أمر فرعون بقتل الذكور من مواليدهم كجزء من العقوبة التي يستحقها بنو إسرائيل.

ويبدو كجزء من العقوبة أيضاً أن يبعد الله في تلك المرحلة الرجال من أن يكون لهم دور في احتضان وحماية موسى عليه السلام، وكتعبير عن عدم الرضا عنهم أوكل حماية ورعاية موسى الى النساء، من دون أن يكون للرجال أي دور في ذلك، فأختيرت النساء الثلاثة، وكانت كل واحدة منهن قد أوكلت بمهمة تختلف عن الأخرى ليتم ذلك الأمر الإلهي الذي خطط له بتلك الصورة، التي لا يمكن تصديقها، إلّا أن تكون الإرادة الإلهية هي المخططة والمنفذة لإستكمال تلك القصة الفريدة والعجيبة.

وكانت مهمتهن موزعة كالآتي:

الأولى: أوكلت المهمة الأولى لأم موسى، فهي التي أوحي إليها بأن تلقي موسى عليه السلام في اليّم، وفعلاً قامت بإلقاء وليدها بعد أن عملت له صندوقاً من الخشب ووضعته فيه وتركته في الماء يسري بعين الله. فتأخذها الحسرة وشدّة الحزن على فراق ذلك المولود المبارك، وليتخلل ذلك أملاً يعصف قلبها عصفاً، ليظهر منه هاجساً يسامر خاطرها، فيتحول يقيناً تسمع به وحي الله؛ لا تخافي ولا تحزني إنّا رادّوه إليكِ. وهكذا أدت مهمتها على أكمل وجه.

الثانية: المهمة الثانية أوكلت الى زوجة فرعون- آسيا بنت مزاحم- بعد أن جاء اليّم بموسى الى قصر فرعون، فألتقطوه وربّوه لينفعهم أو يتخذونه ولداً (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) سورة القصص: ٨ – ٩، وهنا استمع فرعون لامرأته وأبقى الصبي بعد أن ألقى الله محبته في قلبه، والظاهر أن الذي قام بالدور الكبير في إقناع فرعون بعدم قتل الطفل وابقائه عندهم لتربيته هو لتلك المرأة الجليلة المؤمنة

التي شعرت بأهمية هذا الطفل، وعليها أن تتحرك وتساهم في الحفاظ والبقاء على حياته، ولم يكن حينها بيتاً آمناً له إلّا بيت الفرعون نفسه، وبالتالي قد دفعت ثمن إيمانها بموسى عليه السلام أن استشهدت على يدي فرعون نفسه.

الثالثة: المهمة الثالثة أوكلت الى أخت موسى وكان دورها أن تجد موسى عليه السلام وتعود به الى أمّه لكي تقرّ عيناً، ولكي تبدأ المرحلة الثانية في الحفاظ على موسى عليه السلام، قال تعالى: (وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) سورة القصص: ١١ – ١٣، فذهبت والأمر من أمّها فذهبت ورأت أخاها عند آل فرعون، فنظرته نظرة جانبية كأنها لا تريده بالذات، وآل فرعون لا يعلمون قصدها، وأنها أخت هذا الصبي الذي التقطوه من اليم.

وبعد أن بقي موسى عليه السلام في بيت فرعون، أمر بالبحث عن مرضعة تكفله وترعاه، ولكن الله تعالى قال: (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ) فسيقت إليه المراضع من هنا وهناك، وكل واحدة تود لو يقبل ثديها لتنال المنزلة عند فرعون، ولكنه ترك الجميع ونفر منهن قبل مجيء أمّه، ولما رأت أخت موسى حيرة آل فرعون في أمر الصبي عرضت عليهم أن ترشدهم الى من يقبل ثديها من دون النساء، وتهتم بشأنه، ولا تقصر في رعايته[١]، وهكذا تم أمر عودته الى حضن أمه للعناية به وإرضاعه.

---

(١) التفسير الكاشف: محمد جواد مغنية، نشر دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٧٠م: ج٦، ص٥٣.

وفي هذا الفعل من قبل ثلاث نساء دون وجود لأي رجل معهن والذي ساهم بالمباشر بالحفاظ على أحد الأنبياء من اولي العزم يشير الى دلالات منها:

١- بإمكان المرأة الوقوف بوجه الشر- بالرغم من لطافتها ورقتها- والذي كان يحركه رجل أمتلأ حقداً وطاغوتية وتكبراً، وهو فرعون مصر الذي عجز الرجال من الوقوف بوجهه وردعه عن المظالم التي كان يقوم بها على بني إسرائيل بالخصوص. بينما تمكنت نساء ثلاث من تشكيل دور بطولي، وكأن مصر قد أصبحت مسرحاً كبيراً، وكتب الله تعالى الأدوار فيه، فأسند دور البطولة فيه الى تلك النساء اللواتي امتزن بمؤهلات ومواهب افتقدها جميع من كان موجوداً في أرض مصر، فأبدعن في أداء أدوارهن دون أي تلكؤ أو خطأ، بالرغم من خطورة الموقف والظروف الصعبة التي كانت تحيط بذلك المجتمع حينها.

٢- إنّ في القرآن الكريم صوراً مشرقة بخصوص المرأة، ولم يغبن حقها في هذا الجانب، ولكن نحن المسلمون غافلون عن إظهار تلك الأدوار المهمة والمميزة للمرأة، وأي أمر أجلّ وأعظم من التعرض للمرأة وهي تؤدي دورها في حماية نبي من أنبياء الله قد عجز الرجال من تأدية هذا الدور. ولذلك كم نحتاج الى الكثير من العمل في سبيل إظهار وتركيز مثل هذه المفاهيم المتعلقة بالمرأة، من أجل الإنتقال من تلك النظرة الدونية التي يفرض الجهل التمسك بها وعدم مغادرتها، وبالتالي تقع الملامة على الدين، بالرغم من براءة الدين منها.

خط التكوين: (كن فيكون)

وأمّا الخط الثالث فهو الخط الخاص بالبعد التكويني وإيجاد وخلق الأشياء، ففي هذا الخط قد حدث تغيير في السنن الكونية، والتي منها ولادة إنسان من امرأة فقط بلا أي إجتماع أو إقتراب من رجل، وهذه الحالة بالرغم من أنها حالة فريدة، لم تسبق بشبيه لها من قبل، ولن تتكرر مرة أخرى، إلّا أن كثير من اليهود لم يهتدوا بها ولم يجعلوا منها نقطة مفصلية في الخط الإيماني الطويل الذي وجد وتماشى مع ما تقدمه له معاجز الأنبياء، من أجل الحفاظ على الثلّة المؤمنة بمنهج الرسل، حتى تتقوى وتنشط فيما لو مسّها الخمول أو تجافى عنها المد الرسالي لطول المدّة بين بعث الرسل والأنبياء.

ولو تساءلنا عن السبب الذي دعا لأن يُبعث رسولٌ قد أتى الى الدنيا بواسطة إمرأة من دون أن يقربها رجل قط، وما الحكمة في ذلك، وهل لو أتى من امرأة ورجل لكان يحقق نفس الهدف الذي يراد من الخلق الأول؟ والجواب الواقعي والمصلحة الواقعية تبقى في المكنون والسر الإلهي بلا شك، فهو علّام الغيوب، وهو الذي يفعل ما يريد، وهو أدرى بالمصلحة الكاملة، فيما لو حصل أحدهما دون الآخر. ولكن هذا لا يمنع من أن يتبادر الى الذهن بعض المصالح والأسباب الظاهرة، على أقل تقدير والتي من الممكن أن توجد في حالة الولادة من دون أب والإكتفاء بالأم فقط، ويمكن أن نذكر ما يلي:

أولاً:

إن مريم عليها السلام قد مثلت الأمومة التي لابد منها لإيجاد عيسى عليه السلام، وحينئذ ستمثل المرأة الأصل الذي يتوالد منه البشر، ولو أننا لاحظنا في

مسألة هاجر أم إسماعيل عليه السلام كان الإختيار الذي يتبادر الى الذهن أن من الممكن أن يكون هناك بديلاً عنها في تأدية هذا الدور وخصوصاً إذا ما لاحظنا وتوقفنا عند مسألة إختيار إبراهيم عليه السلام لهاجر حتى تؤدي هذه المهمة، وكذلك في مسألة أم موسى وإن كان الأمر قد تعلق بالإضطرار لأن تكون أم موسى هي المؤدية لهذا الدور لكن هذا لا يمنع فيما لو كان والد موسى على سبيل المثال موجوداً لكان من الممكن أن يقوم بهذا الدور. ولكن هنا في مسألة إختيار مريم عليها السلام لأن تكون هي الأم التي يأتي من خلالها عيسى من دون أن يمسسها بشر، فهذا الدور يجب الوقوف عنده وذلك لأنه دوراً لا يمكن أن يكون له بديلاً يحمل عنوان الذكورة، إذ سيبقى الدور منوطاً ومنحصراً بالمرأة لا غير. وذلك لأنه من غير الممكن ن يوجد رجل ينفخ فيه فيكون حاملاً بمولود معين، وذلك لأن طبيعة الرجل لا تقبل أن تكون وعاءً للحمل، وتكوينه البيولوجي غير مهيأ للقيام بهذا الدور، فهو تكويناً غير قادر على ذلك، لأن طبيعته الإلقاء، وليس التلقي. وهذا خلاف المرأة، فهي مُعدّة لأن تكون وعاءً حاضناً ولها رحم مهيأة لإستقبال ما يؤدي الى الحمل وبمجرد أن استدعت الأسباب والظروف المحيطة في تلك المرحلة، أن تكون عملية النفخ فيها من روح الله هي المسببة للحمل كلازم لإيجاد المولود الرسول، تحقق الأمر وحينها لن تحتاج الى أي رجل لإتمامه. وتلك ميزة ظفرت بها المرأة دون الرجل، فلولاها لما وجد عيسى عليه السلام بتلك الصورة من الخلق، وبطرف بشري واحد قد مثلته الأنثى دون الذكر.

وبذلك نرى هنا أن الرجل قد تنحى عن مثل هذا الدور بالمطلق، وبقيت المرأة هي التي من الممكن لها القيام بهذا الدور، وهنا تسجل ميزة لها، كما أن النبوّة إنحصرت بالرجال فقط، فإن مسألة الإتيان بمولود رسالي من خلال فرد بشري واحد، منحصرة بالمرأة دون الرجل، وبذلك يظهر التوازن الكوني، وميزان

الإعتدال في الأدوار، فكما توجد أمور يمكن أن تؤدى من قبل الرجل والمرأة على حدٍ سواء، أو حتى في حالة الإضطرار، فهناك أمور لا يمكن أن يؤديها الرجل بدلاً عن المرأة ولا المرأة بدلاً عن الرجل حتى في حالة الإضطرار.

وهنا يمكن لنا أن نخرج بأمر مهم، ألا وهو أهمية المرأة لان تكون لها مشاركة في عملية التكوين وكأحد الأسباب في ولادة البشر، وتبقى الأمومة لها ميزة ضرورية لتكامل البشر حتى الأنبياء، بينما قد ينحسر دور الرجل كأب عن تأدية هذا الدور، وقد يتم الاستغناء عنه في بعض الحالات، ويكون خارجاً عن المنظومة التي يتم من خلالها الولادة. بل حتى قد لا يحتاج له كمربي. ولذلك لم نجد نبيّاً، لا أقلّه ظاهراً قد حرم من الأمّ، ولكننا نجد هناك أكثر من نبي حرم من وجود الأب كموسى وعيسى عليهما السلام ولعله يقع في هذا السياق، تكنية الرسول محمد صلى الله عليه وآله لإبنته فاطمة الزهراء عليها السلام بأنها أم أبيها، بإعتبار إحتياج الرسول الى نوع معين من علاقة الأم بولدها، يوجد بسببها نوع من التكامل لا ينال إلّا بتلك العلاقة. وعلى هذا يمكن أن يضاف هذا الإستنتاج الى ما ذكرناه في الفصل الثالث، حول اسباب تكنية الرسول صلى الله عليه وآله لفاطمة عليها السلام بأم أبيها فراجع.

ثانياً:

لابد أن نتذكر أن هناك خلق لآدم بلا أب ولا أم، وقد تم، دون أن يشهد أحدٌ من الخلق على هذا الإنسان الأول، ولذلك قد تثار الشكوك حول خلقه وطريقة وجوده في هذه الدنيا من دون الأسباب المتعارف عليها بتوالد الإنسان، وعلى أقل التقادير تثار الأسئلة والإستفسارات حتى وإن لم يكن شك في مسألة الخلقة، لكن الاستغراب والتعجب موجود عند كثير من البشر، لا بل حتى من ناحية الفضول

ومعرفة كل شيء بالتفصيل وعدم الإكتفاء بالإجمال، لذلك كانت مسألة ولادة عيسى حاضرة ويعيشها أفراد كثيرون من قبل الناس، والذي يقوم بهذا الدور ويجسده خير تجسيد تلك المرأة التي لها مقدمات عالية تكون مؤهلة لإبعاد أية شبهة ممكن أن تثار حولها فهي:

١- من أسرة عريقة ومعروفة بالتدين والطهارة والتقوى، ولها أس في النبوات والرسالة، وكما بين القرآن الكريم هذا الأمر: (يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا) سورة مريم: ٢٨.

٢- إنّ الذي كفلها زكريا عليه السلام وهو الذي أشرف على تربيتها ومراعاة ما تحتاج إليه من الأمور. هذا وقد رأى زكريا بعينه الرزق المعطى لها من قبل الله تعالى: (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) سورة آل عمران: ٣٧.

٣- إنّها كانت مصطفاة على نساء عالمها: (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) سورة آل عمران: ٤٢، ومعلوم ما لهذا الإصطفاء والتطهير من آثار في الخارج يحس بها الآخرون بشكل واضح وعلى أقل التقادير اولئك الذين من الممكن أن يرونها.

٤- والأهم من هذا هو الإتيان بالمعجز الثاني الذي يثبت المعجز الأول- وهو الولادة من غير أب- وهو تكلم عيسى وهو في المهد صبياً، حيث قال كما يبين ذلك قوله تعالى: (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ

وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا) سورة مريم: ٢٩ - ٣٣. وكذلك قوله تعالى: (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ) سورة آل عمران: ٤٦، المهم فإن ولادة مريم عليها السلام من دون رجل تحمل مقدمات صدقها معها، ولا تحتاج الى المكابرة والعناد أو سوء الظن، إلّا إذا أراد الفرد أن يتقصد في مخالفة ذلك الأمر، الذي هو أبين من الشمس ليبحث عن إثارة الشك والريبة، كما حصل عند بعض اليهود.

ولادة مريم ومحاولة إرجاعها الى الميثولوجيا المتطورة

ولكن بالرغم من وضوح هذا الأمر وثبوت ذلك الإعجاز ترى بعض الكتّاب المحدثين والمتخصصين في علم الأديان والأساطير يحاولون إثارة الشكوك حول عذرية مريم بإثبات أساطير قد سبقت الوجود المريمي كانت تشير الى وجود حمل للمرأة إذا إقتربت من بعض الأشياء في الطبيعة، ولا حاجة لها بعد الى الرجل، محاولة منهم لكي يجعلوا مسألة مريم وما حدث لها من حمل، ما هو إلّا نتاج ذلك التأثر بالأساطير، وإن لم يذكروا ذلك بشكل واضح وعلني، ولكنهم يستبطنون ذلك المعنى.

ففي هذا الصدد يقول عالم الأديان مرسيا إلياد: ثمة معتقدات يتعذر حصرها تعلمنا أنّ المرأة في قديم الزمان، تصير حُبلى عندما تدنو من بعض الأشياء أو الأماكن، كالصخور، والمغاور، والأشجار، والأنهار. عندها تدخل روح الطفل أحشاء المرأة فتغدو حاملاً. وأيّاً كان هذا الشرط الذي يحكم أرواح الأطفال، وسواء كانت أرواح أجداد أو لم تكن، فإن أمراً واحداً يبقى مؤكداً نعبّر عنه بالقول: حتى تدخل الأرواح أجساد النساء يكون عليها أن تتريث وأن تنتظر

متوارية في مكان ما؛ في أقلام الفلاحة، في المستنقعات، في الأخاديد والشقوق، في الغابات، وكأنها بذلك الفعل تحيا نوعاً من الوجود الجنيني في أحشاء الأرض، أمّها الحقيقية. ومن هناك يأتي الأطفال. من هناك، بحسب معتقدات سادت في أوروبا حتى القرن التاسع عشر، تأتي بتلك الأرواح بعض الأحياء المائية من مثل الأسماك والضفادع، وخصوصاً الإوز.

ومما لا شك فيه أن هذه الذكرى الغامضة لما قبل الوجود الراهن الذي عاشه المرء في أحضان الأرض، كان لها نتائج هامة للغاية. لقد أوجدت عند الإنسان شعوراً بالقرابة الكونية مع الوسط المحيط. بل بوسعنا القول: كان شعور الإنسان في تلك الحقبة، بانتمائه إلى النوع البشري أقلّ من شعوره بمشاركته الكونية البيولوجية في الوسط الطبيعي والحيوي الذي فيه يحيا.[1]

ثم يقول في مكان آخر: هنالك ملامح كحالة الحبل من دون زواج ولقاح، عند الأرض الأم تستمر في الميثولوجيا المتطورة، بوجه خاص كما في الميثولوجيا اليونانية، يشار على سبيل المثال، إلى الآلهة هيرا[*]، التي تحبل من تلقاء نفسها، وبدون صلة بالذكر، وتلد الآلهة (تيفاون Typhaon) و (هيفايستوس[**]

(١) الأساطير والأحلام والأسرار، مصدر سابق: ص٢٥٤.

(*) هيرا: بحسب الميثولوجيا اليونانية تزوجت أخاها زوس كبير الآلهة. اعتبرها الإغريق حامية الزواج والخصوبة والأمومة. يماثلها عند الرومان جونون Junon، يخصص لها من الحيوانات: الطاووس، والغراب، و النبات، الرمان كرمز للخصوبة.

(**) هيفايستوس: هو عند اليونان، إله النار، ويعنى بصهر المعادن.

Hephaistos) و(آريس(*) Ares). إن الأرض الأم تجسد نموذج الزواج المقدس، المانح للخصوبة والعامل على الخلق غير المحدود. ولهذا نلمح عندها ميل إلى تمثل خصائص وأساطير آلهة أخرى للخصوبة، سواء كانت من مجال القمر، أو المياه أو الزراعة."(١)

ثم يعطينا في كتاب (المقدس والعادي) تبريراً في كيفية فهم اللغز الديني، وذلك بالإعتماد على الأساطير، لأن من شأنها مساعدة الإنسان على حل تلك الألغاز، وهو يريد أن يحيلنا بالواقع الى مراجعة النص الإسطوري والإعتماد عليه في التعامل مع النص الديني، بعد أن يخضع للإسطورة، فهو يقول: ولكن ثمة جانباً آخر مهماً يجدر بنا أن نشير إليه: إنه البنية الكونية لطقس الزواج ولسلوك البشر الجنسي، ومن العسير على الإنسان اللامتدين في المجتمعات الحديثة أن يفهم هذا البعد الكوني والمقدس معاً للزواج الإنساني. بيد أن من الواجب ألّا ننسى أن العالم في نظر المجتمعات الغابرة الديني، يبدو مثقلاً بالرسالات. وهذه الرسالات ألغاز في بعض الأحيان، ولذا فإن من شأن الأساطير أن تساعد الإنسان على حلّ ألغازها."(٢)

ولفراس السواح رأي في نفس هذا السياق حيث يقول: وهنا لابد من الإشارة

(*) آريس: هو إله الحرب عند اليونان. وابن زوس وهيرا، إنه إله يعتد بنفسه ويتطاول على سائر الآلهة. لم يخضع إلّا لسحر أفروديت، التي أحبها وأحبته. يماثله عند الرومان الإله مارس.

(١) الأساطير والأحلام والأسرار، مصدر سابق: ص٢٨١.

(٢) المقدس والعادي: مرسيا إلياد، ترجمة عادل العوا، نشر دار التنوير، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م: ص١٧٥.

الى أن قصة البشارة والميلاد قد وردت عند متي ولوقا، وغابت تماماً عند مرقس ويوحنا. فهذان الإنجيلان يبدآن روايتهما باللقاء الذي تم بين يسوع ويوحنا المعمدان عند نهر الأردن عندما كان يسوع في نحو الثلاثين من عمره. وهما لا يشيران ولو من بعيد بعد ذلك الى قصة الميلاد العذري، حتى يبدو أنهما لم يسمعا بها، ولم يكن لديهما أي معلومات عن السيدة مريم وعن أسرتها وحياتها السابقة قبل الميلاد. وفي الواقع، فإن غياب قصة الميلاد عن إنجيلي مرقس ويوحنا، وورودها بشكل مختلف تماماً في إنجيلي متي ولوقا، قد دعا بعض الباحثين في العهد الجديد الى اعتبارها قصة مقحمة على هذين النصين، جرت إضافتهما لاحقاً لأسباب تتعلق بنشوء وتطور فكرة الميلاد العذري التي كانت غائبة في مرحلة تدوين الأناجيل.[1]

والحقيقة انّ الباحث هنا هو الذي أقحم نفسه في موضوع أراد أن ينفي فيه عذرية مريم، وتلك الولادة المباركة، ولذلك فهو قد ألقى بنفسه فيما وراء المحيط- دائرة الحدث ودراسته- ليحاول أن يزيح ذلك الأثر الفريد في الواقع، ومن ثم يأتي بما يبينه الدين من حقائق تعين التاريخ بأن يبدو ناصعاً بيّناً للباحثين، ليساويه بالإسطورة والخرافة، ولتتم المقارنة بينهما، بعد أن يضعهما على طاولة واحدة من الرؤية، وهذا هو الجانب غير الموضوعي في رؤية الأشياء والمقارنة بينها. دون أن يلتفت الى أن ما يطرحه الإنسان وما يصل إليه من رؤية، تختلف عن الأعمال والأحداث التي يصنعها ويأتي بها الله. هذا وخصوصاً عندما بدا له بأن مرقس ويوحنا لم يسمعا بقصة الولادة العذرية، ثم قفز ليبحث عن مخرج يتكئ عليه في دعم ما بدا له، عندما استدل بأن بعض الباحثين في العهد الجديد، اعتبروا

---

(١) الإنجيل برواية القرآن: فراس السواح، نشر دار التكوين، دمشق، ط٣، ٢٠١٧م: ص٩١.

قصة مريم وولادتها العذرية، هي قصة مقحمة على النصين اللذين وردا في متي ولوقا، وقد تم إضافتهما لاحقاً بعد أن كانت غائبة في مرحلة تدوين الأناجيل. وهنا قد غفل عن أن البؤرة الأساسية في الديانة المسيحية، والتي أوجدت بعداً قدسياً للسيد المسيح هي مسألة الميلاد العذري للسيدة مريم عليها السلام، والذي افتتحت به رسالة عيسى عليه السلام، ولم يكن أي شيء آخر يمكن وضعه في موازاتها، ولولا ذلك لما سنح لعيسى عليه السلام من أن ينطلق بالرسالة الإلهية الى الناس، أي يمكن لنا أن نقول: كانت تلك الولادة بمثابة الدرع الحامي للرسالة العيسوية، ولو طرح عيسى عليه السلام بغير هذه الطريقة التي أتى بها الى الدنيا، لتم تكذيبه وقتله بالمباشر من قبل اليهود أنفسهم، ولم يضطروا الى الوشاية به بعد حين عند الحاكم الروماني (بيلاطس). وهذا يدل على أنهم بقوا لفترة طويلة يعانون الأمرين من مسألة ولادة عيسى دون أب، فهو بهذه الميزة يصبح مُصَدّقاً في القول والفعل، ولن يرضى بكل تأكيد عن أعمالهم الإنحرافية والتي تحدث بموافقة ومباركة الأحبار والكهنة.

وأمر الله تعالى لمريم عليها السلام بتحمل مسؤولية الإنجاب، بطريقة المعجزة من دون زوج، إحدى مقتضيات نبوّة عيسى وشريعته المباركة. فحجيتها عليها السلام كونها المبلغ الأول لبعثة النبي عيسى وشريعته المسيحية، حيث أنها أمرت من قبل الله تعالى بتحمل مسؤولية الإنجاب بطريقة المعجزة من دون بعل، ليمهد الطريق لبيان المعجزة لنبوة عيسى وشريعته، ثم أمرت من قبله تعالى بحمله والمجيء به إلى بني اسرائيل، وأن لا تكلمهم وأن تشير إليه ليستنطقوه فيتكلم في المهد. فهي قد قامت بكل هذه المسؤوليات الموظفة من قبله تعالى لها لتبليغ واظهار المعجزة الأولى على نبوة عيسى عليه السلام وكان ذلك عن اعتقاد منها بنبوّة عيسى بتوسط ما أوحي لها من دون وساطة النبي زكريا أو غيره من الأنبياء في

زمانه، فهي ابتدأت بإبلاغ شريعة جديدة من دون أخذ هذا الأمر الإلهي ذي الشأن العظيم الخطير من نبي ولا رسول ولا بوساطة النبي عيسى أيضاً، وهذا ما تعنيه الآية الكريمة ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ فلولا حجية مريم وحجية ما يوحى إليها، لكان بإمكانها إبطال المعجزة الإلهية وهي ولادة عيسى من دون أب، بأن تدّعي- والعياذ بالله- أنه لقيط وجدته في الطريق، أو أنها ولدته عن زوج غائب أو ما شابه ذلك، فانظر إلى مقام كمال حجيتها ودورها في إبلاغ الرسالة في قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ فهذا النمط من المجاهدة والمخاطرة بالعِرض بأمر من الله تعالى وتعيين منه، فهو حكمة بالغة من الله تعالى في إختيار هذا النمط من الجهاد، بحيث لا يتأدى إقامة الدين إلّا بذلك، من دون تدنس وابتذال في العرض ولا زوال لطهارته وعصمة مناعته.[1]

ولشدّة وضوح هذا الأمر بين العامة والخاصة، لا يمكن إخفاء مثل هذا الحدث أو تناسيه أو التنكر له، وخصوصاً إن الإنجيلين اللذين لم يذكرا حادثة الولادة العذرية، أن صاحبيها مرقس ويوحنا، أحدهما قد رافق بولس في رحلته التبشيرية الأولى، وهو صاحب إنجيل مرقس الذي سجل في إنجيله من المعجزات أكثر مما سجل أي إنجيل آخر. ولكنه لم يسجل ولادة مريم من غير أب، بالرغم من أنها أهم وأدق في المعنى من جميع المعجزات التي ذكرهن. فكأن قصد الإخفاء والتجاهل يبدو واضحاً للمتتبع والمدقق في هذا الأمر. وقد يكون لبولس تأثيراً عليه، بإعتبار أنه لم يكن أصلاً تلميذاً من التلاميذ الإثنى عشر الذين

---

(١) ينظر: مقامات فاطمة الزهراء في الكتاب والسنّة: محاضرات الشيخ محمد السند، بقلم السيد محمد علي الحلو، نشر دار الهادي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م: ص٥٣ وما بعدها بتصرف.

رافقوا عيسى عليه السلام وأصبحوا من حواريه.

وأمّا الآخر يوحنا فهو أخو يعقوب أولاد زبدي، فهو بالرغم من أنّه قد قدّم كرستولوجيا- دراسة عن يسوع المسيح- تشدد على لاهوت المسيح لكنه ابتعد عن ذكر حدث الولادة العذرية، مع العلم أنه تميز عن سائر الأناجيل الأخرى بأنه قد ذكر معجزتين لا تذكرهما الأناجيل الباقية، وهما ما حصل في عرس قانا الجليل، وإقامة لَعازر من بين الأموات. وهذا في الواقع شيء غريب، على أقل التقادير، إنه كتب إنجيله بعد رفع عيسى عليه السلام بما يقارب المئة سنة، فيكون من المفروض قد قرأ الأناجيل الأخرى أو سمع بها، وهي تذكر الولادة العذرية لمريم عليها السلام، فكيف تجاهلها أو أنه لم يسمع بها، كما ذكر الباحث عندما أبدى رأيه.

هذا مضافاً الى تناسي الباحث مكر اليهود وغدرهم، بحيث كان قتل الأنبياء قد أصبح عندهم من الأمور الروتينية في حياتهم اليومية كما أخبرنا بذلك القرآن الكريم: (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا) سورة النساء: ١٥٥، يعملون ذلك ولا يجدون فيه بأساً، مما أستدعى بأن يكون ذلك أحد الأسباب لأن يبعث لهم نبيٌ بهذه الصورة والهيئة، عسى أن يؤثر فيهم ويصعقهم ليتم التصديق به والتوجه إليه، ولو لم تكن تلك الولادة قد تمت بهذا الشكل الذي أراده الله، لما آمن به من أمن، فهو بالرغم من تلك الولادة الفريدة وتكلمه في المهد صبياً، ولكن تجد كما بيّنا سابقاً حتى الحواريين لم يؤمنوا به إلّا بعد أن أوحى الله إليهم: (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي) سورة المائدة : ١١١

ولم تكن حتى هذه القرينة دافعاً مباشراً وذاتياً للتصديق بنبوّة عيسى عليه

السلام.

مضافاً الى أنه قد غفل أنّ الأناجيل لم تكتب زمن عيسى عليه السلام، وإنّما كتبت بعده بعشرات السنين، وكانت تقريباً على هذا الترتيب الزمني:

١- إنجيل (متي) كتب حوالي: ٦٠- ٦٥م.

٢- إنجيل (مرقس) كتب حوالي: ٥٥- ٦٥م.

٣- إنجيل (لوقا) كتب نحو: ٦٠م.

٤- إنجيل (يوحنا) حوالي: ٨٥- ٩٠م.

وهذا الأمر سيوفر مجالاً لإدخال أمور مقصودة، لم تكن قد أنزلت على عيسى عليه السلام، وكذلك الى حذف أخرى، سواء كان عن عمد وقصد، حسب مقتضيات المصلحة الدافعة للكاتب، أو سواء كان الكاتب قد أغفل أو نسي أو نقل بحسب فهمه غير متعمد، وهنا سوف تضيع الحقيقة أو جزء مهم منها في أقل التقادير، فإذا كان الحال كذلك، فلا يمكن الإعتماد على إنجيلين قد كتبا بعد عيسى عليه السلام لتكون دليلاً على عدم الولادة العذرية لمريم عليها السلام، لأنهما لم يذكراها، بالرغم من أن الكاتبين الآخرين قد ذكرا هذه الولادة.

وهناك أمر مهم بهذا الخصوص وهو: لا يمكن لنا عندما نجد ذكر معين في اسطورة أو حكاية خرافية أو في أي معتقد من معتقدات البشرية الكثيرة أن نتهم الدين بأنه قد تأثر بتلك الأساطير والحكايات، فأدرجها في صحائفه، فهذا الأمر لا يمكن قبوله أو غض الطرف عنه، لأنه إتهام يفتقد الى الدليل الموضوعي. بل ربما ما نقرأه ويأتينا عن طريق الأساطير والحكايات الخرافية، هناك قسم كبير منها قد

تأثر بالدين وما تطرحه المنظومة العقائدية له، وليس العكس. ولكون بعض الحوادث التي تحدث خلاف ما تألفه الطبيعة والتي تَعَود عليها الإنسان، وعندما يتم ذكرها وتدوينها في الأديان على أنها أحداث قد جرت كعقوبات للبشرية المتمردة على خالقها. أو كأحداث داعمة وساندة لمن يمثلون برسل الله، فعندما يتحرك الماديون والإلحاديون والزنادقة ومنذ قديم الزمان وينسبوها الى الأساطير والحكايات الخرافية. كل ذلك لأنهم يؤمنون بالحس والعالم المشهود لا غير. وكلّ ما وجد خلاف تلك الطبائع فإنه ينسب الى الاسطورة والخيال والأحلام. وكمثال على ذلك، نرى كيف أن الأساطير في تصوراتها تعتمد على ما تأتي به الأديان، هو ما يذكره العالم (يونج) الذي اشتغل زمناً طويلاً بالأساطير والحكايات الخرافية، عندما يتكلم عن (الطفل الإله) فيقول: نحن نعرف عن كثير من الآلهة امثال (زيوس، وهرمس، وديونيسوس) تصورات لأفعال خاصة من سن الطفولة، وهذا النموذج للطفل الإلهي، الذي قد يبدو كذلك في صورة المسيح للطفل الذي يحمله (كريستوفورس)[1]، وفي صورة الأقزام وأنصاف الآلهة، له ما يشبهه من اشكال في علم الأمراض النفسية، وربما كان من المألوف لدى النسوة المريضات بعقولهن أن ينظرن الى الطفل المنتظر على أنه المسيح. وربما ظهر هذا بخاصة عند معالجة الأمراض العصبية في عملية نضوج الشخصية التي تستثار

(١) لفظ اغريقي معناه حامل المسيح، وهو طبقاً للأسطورة مارد حمل المسيح الطفل عبر بحر واسع، ثم عمّد المسيح الطفل. وتحتفل الكنيسة الكاثوليكية بذكرى هذا في الخامس والعشرين من شهر يونيو. هذا وقد تركت هذه الأسطورة أثرها في أعمال النحت والتصوير.

عن طريق تحليل اللاشعور، أي عن طريق عملية التفرد.(١)

ففي الواقع لم تكن الميثولوجيا يوماً ما قد سبقت الدين في وجودها، حتى تتعامل معها البشرية بذلك البعد التخيلي، الذي يحاول أن يسد حاجة من حاجات الإنسان كالخوف من الموت، أو كيفية الخلاص من الخطر، أو تعويض آلام ومخاوف الحياة بأحلام يحاولون أن يجدوا فيها ما افتقدوه في وجودهم، فكل هذه الأشياء ما كان ليعرف لها وجود، لولا أن هناك جانب معرفي قبلي أثريت بسببه الأسطورة، وهي تتلقف منه الكلمات والمفاهيم المجردة التي تداولت وأثرت في الإنسان.

هذا الجانب هو الدين الذي جاء بمفاهيم جديدة، لم تكن حاضرة في المتعارف اليومي، فهو الذي أخبر عن وجود الإله، وهو الذي أخبر عن قدرته وتصرفه في هذا الكون، وهو الذي أخبرهم عن العالم الآخر، وعن الجنان التي سوف يحيى بها الإنسان بعد موته ورحيله عن هذه الدنيا، وسوف يهنأ هناك حيث المقر والمستقر. فمثل هذه الأشياء كانت حاضرة لوجود الدين والرسول المبعوث من قبل الله تعالى. ولذلك كان الدين أسبق، إذا ما قيس بالترتيب الكرونولوجي للزمن.

ولكي يستمر خط الشيطان مع خط الرحمن في وجوده، اضطر الى إيجاد الأسطورة لتشكل بعداً متوازياً مع خط الدين، فيتحرك بحراك دقيق مع أي ثابت من ثوابت الدين، لينتقل به من الواقعية التي تخدم به البشرية، متى ما تعاملت معه

(١) ينظر: الحكاية الخرافية: فردريش فون ديرلاين، ترجمة د. نبيلة إبراهيم، نشر دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٧٣م: ص٦٠.

التعامل الذي يدلي به الرسول المبعوث، وهو يمس مفردات الرسالة السماوية ليقدمها كمنهج عملي في حياة البشرية، ليأخذ بذلك الثابت، ويؤطره بإطار الخيال والإنفتاح، بعد أن يضيف إليه عناصر غريبة عن تركيبته الأصلية، ليجعل بالتالي حيرة البشر معه أمر لا مفر منه، وهو يسير مع الميثولوجيا التي تشاكس الدين دائماً، بحيث أخذ كثير من الناس يأنسون بها وهم على قناعة تامة بأنه لن يأتي اليوم الذي تتحقق فيه مفردة من مفرداتها على أرض الواقع.

ولأنها تتناغم مع قوّة المخيلة لدى الإنسان في بعدها المفتوح، فسوف تميل النفس إليها لتتخذها مغنماً للترفيه عمّا يجول في ذاتها من هموم وضغوط، يفرضه الروتين اليومي للحياة. ومن ثم جعلت كمقابل ضد الدين، بحيث يتم الحكم عليه بنفس حكم العقل على الأسطورة، بعد تغيير الواقع والإصرار على تثبيت الأسطورة كسابقة على الدين، أو حتى اعتبارها هي الأصل الذي حاكته وعاشته حضارات العالم القديمة. ولعل هذا الأمر قد ساعد على التركيز عليه، وجعله بؤرة معرفية تتعامل معها الشعوب، هم قادة تلك الحضارات وطواغيت البلاد، الذين طالما كانوا أعداءً للمصلحين من الأنبياء والرسل. فوجدوا خير ما يضربون به الدين هو سلاح الأسطورة، ولذلك مُلأت أحفورياتهم بتلك الترّهات والأساطير، حتى جعلوا منها ثقافة شعبية يتعامل معها يومياً. وبالطرف الآخر يحاولون قهر المصلحين ودثر مفردات الدين وإصلاحاته.

وهذا الأمر قد تأثر به كثير من العلماء والباحثين، حتى حكموا على النص الديني بالتبعية، وأنّه نصّاً مقدساً مغلقاً، بينما الميثولوجيا تتمتع بالإنفتاح الدائم وحرية التعامل مع المفردة ومتخيلها. حتى أنهم نعتوا الأيديولوجيا وخصوصاً الماركسية، ليوسعوا من دائرة النقد، بإشراك أكبر عناوين فيها، وجعلها تقف على

مسار واحد من التاريخ ومعطياته، فقالوا عنها بأنها حاولت أن تكون منفتحة- الآيديولوجية الماركسية- على التطورات والحاجات الجديدة فما أفلحت. فهي والحال هذه أقرب الى النصوص المقدسة المغلقة.

بينما الميثولوجيا بعيدة كلّ البعد عن الإنغلاق، وهم بذلك يضعون كل من الدين والأيديولوجيا البشرية والميثولوجيا على عتبة واحدة من الميقاتية والتراتبية وجعلها من نتاج بشري خالص، وهي تتفاوت فيما بينها بحسب معطيات السبق والضرورة والإحتياج، تلك المعطيات الثلاث التي تتحكم بمصير الشعوب. ولذلك فهم حكموا على النص الديني بأنه مغلق، وعلى الأسطورة بالإنفتاح، ليعطوا بعداً عقلياً بأن معرفة التاريخ وحوادثه، وفكر البشرية منذ البدايات ، لابد أن يرتكز على الدراسات الميثولوجية، لأنها غير منغلقة، وما دامت هي مفتوحة، فلها قدرة الشمولية والإبداع، وبالتالي ليتحرروا من النص وإنغلاقاته المقصودة، والخلاص من الضوابط المركزية فيه.

اللاهوت المسيحي والنظرة الكريستولوجية حول مريم العذراء

وعلى النقيض من هذه الرؤية التي تبعد الحمل العذري عن مريم عليها السلام، نجد هناك في الطرف الآخر نوعاً من التطرف والمغالاة حول مريم. فبالرغم من أن معظم آباء الكنيسة يتحدثون بإجلال عن السيدة مريم العذراء، فمنذ بداية عصر الآباء والجميع ينظرون إلى مريم على أنّها حوّاء جديدة. واول ما ظهر هذا المفهوم بإنجيل (جيمس الأصلي Proto - Gospel of James) والذي يرجع إلى القرن الثاني الميلادي، فكما أطاعت حواء الشيطان، فقد أطاعت مريم العذراء أمر ربّها بخشوع كامل وتركت نفسها لتصبح الوسيلة التي بها حفظ الربّ البشر جميعاً. وكثيراً ما يتم الربط بين ظهور هذه النظرة وبين نشأة علم اللاهوت

المسيحي وخاصة ما يعرف (بالكريستولوجيا Christology) وكانت بؤرة التركيز في هذا اللاهوت على اللوغوس- الابن- وبشكل أكثر على مريم أم المسيح. فقد ثارت المناقشات بين الآباء، خاصة آباء القرن الرابع الميلادي حول وضع السيدة العذراء في خطة الرب لفداء الجنس البشري حتى انتهى النقاش إلى مجمع أفسوس عام ٤٣٠م فأقر هذا المجمع بان مريم هي (أمّ الربّ) أو (حاملة للإله) لذا وجب أن تكون مريم طاهرة بلا إثم إلى الأبد.

وأثنى كل آباء الكنيسة على طاعة السيدة مريم لربها بشكل بالغ، إذ كانت طاعتها طاعة كاملة. فتجد أبيفانوس Epiphanius يصف مريم العذراء بانها الوسيلة officinal التي أنقذ الله من خلالها الجنس البشري كلّه. في حين وصف كيريلوس السكندري Cyrillus of Alexandria السيدة مريم بانّها معبد الله، لأن الوجود الإلهي إتخذها معبداً له.(١)

وظهر كتيب سري إسمه (معراج مريم) وهو يتحدث عن موت السيدة مريم عليها السلام، ويتخيل عروجها إلى السماء، وينسب إليها عجائب ومعجزات جاءت بها على الأرض، ومع أن الأناجيل الأربعة التي اعتمدتها الكنيسة رسمياً لا تفي مريم عليها السلام حقها، بل تكاد توهم بأنها أقلّ تفضلاً من أتباع المسيح، وأنها كانت امرأة عادية أنكر عليها السيد المسيح فضل أمومتها وأشاح بوجهه عنها متسائلاً: من هي أمّي؟ فإن كاتب هذا المعراج ينسب إليها أفعال الألوهة، ويضفي عليها صفات الآلهة الوثنية في حضارات الشرق الأوسط القديمة.

---

(١) ينظر: تاريخ النساء الفلاسفة: اشراف ماري إيلين ويث، ترجمة د. محمد مراد ، نشر دار الوفاء، الاسكندرية، ط١: ص٢٧٧ وما بعدها.

ومعراج مريم، ويسمى أحياناً بإنجيل مريم مكتوب باليونانية، ومنه نسخة باللاتينية. وتقول الموسوعة اللاهوتية التي نشرها الأب مينيه عام ١٨٥٦ (المجلد الثالث والعشرون) أن هناك نسخة بالعربية، وأن النص اليوناني يعود إلى القرن الثالث الميلادي، أو الرابع.

وكان لهذا المعراج أو الإنجيل تأثير كبير على كنائس الشرق والغرب، كما أنه سجل خطياً ديانة عبادة العذراء على طريقة ديانات الحضارات الشرق أوسطية القديمة، برغم أن الأناجيل الأربعة كما ذكرنا لا تشير إلى موت مريم. وليس هناك من ذكر إلى عروجها إلى السماء. ومع انتشار هذا الإنجيل بين البسطاء من المسيحيين وتأصل أفكاره بين كثير من المؤمنين، اضطرت البابوية إلى أن تضيف عقيدة عبادة العذراء إلى بقية عقائدها وعباداتها، وصارت أسطورة عروج السيدة مريم إلى السماء ركناً من أركان الإيمان.(١)

وهناك نص يذكر معراج مريم- إنجيل مريم- يقرر فيه رسل المسيح أو حواريه في روما إكرام ذكرى مريم عليها السلام في ثلاث مناسبات وثنية حيث جاء فيه: (وقال الحواريون: إننا نريد أن نكرم ذكراها ثلاث مرات في السنة لأننا نعرف أن الملائكة جميعاً تحيي عيدها وتسعد به، ولأن الأرض ستعرف خلاصها بها.

وقرر الحواريون أن يحيوا ذكرى مريم أول مرة في اليوم الثاني لولادة المسيح وذلك من أجل أن يبيد الجراد المختبئ في الأرض وتخصب المواسم، ومن أجل أن تحمي الملوك وتقيهم التحارب والتقاتل، وقرروا أن يحتفلوا بذكراها ثانية في

---

(١) ينظر: الأصول الوثنية للمسيحية: إدغار ويند وآخرون، ترجمة سميرة عزمي الزين، نشر المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م: ص١٥١ وما بعدها.

منتصف آيار لكي لا تظهر حشرات الأرض وتفني الزرع والضرع، وحتى تبعد شبح المجاعة القاتلة. وأتفقوا أن يحيوا ثالث ذكراها في الخامس عشر من آب، وهو اليوم الذي رحلت فيه مريم عن هذا العالم، وعرجت إلى السماء ، ولأنه كذلك اليوم الذي أتت فيه بالمعجزات والذي تينع فيه الثمار على أشجارها.[١]

هذا وقد خصصت الكنيسة الكاثوليكية يوم ١٥آب عيداً رسمياً تحتفل به بصعود مريم عليها السلام. وكان البابا بيوس الثاني عشر قد تبنى هذه العقيدة رسمياً في ١ تشرين الثاني ١٩٥٠م، لكنه ميز بين تبني عقيدة صعود مريم إلى السماء المستمدة من هذا (الإنجيل)، وبين الإنجيل نفسه الذي ما زالت الكنيسة ترفضه وتعتبره من نصوص الهرطقة.[٢]

(١) المصدر نفسه: ص١٥٤.

(٢) المصدر نفسه: ص١٥٢.

علماء المسلمين ومسألة نبوّة النساء

والآن لنأتي ونرى رأي العلماء المسلمين في مسألة نبوّة النساء عامة ونبوّة مريم خاصّة، فهناك شبه إجماع بين علماء ومفسري المسلمين الكلاسيكيين والمحدثين في مسألة حصر النبوّة بالرجال دون النساء، إلّا القليل الذي توقف أو شذ عن هذا الإجماع، نذكر منهم المفسرين ابن حزم، والقرطبي وكلاهما من المغاربة الأندلسيين، ولربما يكون هناك تأثير عليهما، وكذلك على موقف ابن رشد الفلسفي المنفتح على المرأة، نتيجة الإنفتاح التي تمتعت به المرأة في البيئة الأندلسية وأجوائها الثقافية والإجتماعية الخاصة. والتي إختلفت عن بيئة الشرق الإسلامي في أبعاد كثيرة.

رأي ابن حزم الأندلسي والرد عليه

وسنعرض الآن رأي كل منهما في هذه المسألة ثم بعدها نناقش كلا الرأيين، فقد قال ابن حزم: هذا فصل لا نعلمه حدث التنازع العظيم فيه، إلّا عندنا بقرطبة وفي زماننا فإن طائفة ذهبت إلى إبطال كون النبوّة في النساء جملة، وبدّعت من قال ذلك، وذهب طائفة إلى القول بأنه قد كانت في النساء نبوّة، وذهبت طائفة إلى التوقف في ذلك.

ثم قال: وما نعلم للمانعين من ذلك حجة أصلاً إلّا أن بعضهم نازع في ذلك بقول الله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ). وهذا أمر لا ينازعون فيه ولم يدّع أحد أن الله تعالى أرسل امرأة، وإنّما الكلام في النبوّة دون الرسالة فوجب طلب الحق في ذلك بأن ينظر في معنى لفظة النبوّة في اللغة التي

خاطبنا الله بها عزّ وجل، فوجدنا هذه اللفظة مأخوذة من الإنباء وهو الإعلام. فمن أعلمه الله عزّ وجل بما يكون قبل أن يكون أو أوحى إليه منبئاً له بأمر ما فهو نبي بلا شك، وليس هذا من باب الإلهام الذي هو طبيعة كقول الله تعالى: (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) ولا من باب الظن والتوهم الذي لا يقطع بحقيقته إلّا المجنون ولا من باب الكهانة التي هي من إستراق الشياطين السمع من السماء فيرمون بالشهب الثواقب وفيه يقول الله عزّ وجل: (شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا) وقد انقطعت الكهانة بمجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من باب النجوم التي هي تجارب تتعلم ولا من باب الرؤيا التي لا يدرى أصدقت أم كذبت، بل الوحي الذي هو النبوّة قصد من الله تعالى إلى إعلام من يوحيٰ إليه بما يعلمه به، ويكون عند الوحي به إليه حقيقة خارجة عن الوجوه المذكورة، يحدث الله عز وجل لمن أوحى به إليه علماً ضرورياً بصحة ما أوحى به كعلمه بما أدرك بحواسه وبديهة عقله سواء لا مجال للشك في شيء منه، أمّا بمجيء الملك به إليه وإمّا بخطاب يخاطب به في نفسه، وهو تعليم من الله تعالى لمن يعلمه دون وساطة معلم فإن أنكروا أن يكون هذا هو معنى النبوّة فليعرفونا ما معناها، فإنهم لا يأتون بشيء أصلاً، فإذ ذلك كذلك فقد جاء القرآن بأن الله عزّ وجلّ أرسل ملائكة إلى نساء فأخبروهن بوحي حق من الله تعالى فبشروا أم إسحاق بإسحاق عن الله تعالى، قال عزّ وجلّ: (وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۝ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ) فهذا خطاب الملائكة لأم إسحاق عن الله عزّ وجلّ بالبشارة لها بإسحاق ثم يعقوب ثم بقولهم لها أتعجبين من أمر الله ولا يمكن البتة أن يكون هذا الخطاب من ملك لغير نبي بوجه من الوجوه، ووجدناه تعالى قد أرسل جبريل

إلى مريم أم عيسى عليهما السلام يخاطبها وقال لها: (قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا) فهذه نبوّة صحيحة بوحي صحيح ورسالة من الله تعالى إليها، وكان زكريا عليه السلام يجد عندها من الله تعالى رزقاً وارداً تمنى من أجله ولداً فاضلاً. ووجدنا أم موسى عليهما الصلاة والسلام قد أوحى الله إليها بإلقاء ولدها في اليم وأعلمها أنه سيردّه إليها ويجعله نبيّاً مرسلاً فهذه نبوّة لا شك فيها وبضرورة العقل يدرى كل ذي تمييز صحيح أنها لو لم تكن واثقة بنبوّة الله عزّ وجلّ لها لكانت بإلقائها ولدها في اليم برؤيا تراها أو بما يقع في نفسها أو قام في هاجسها في غاية الجنون والمرار الهائج ولو فعل ذلك أحدنا لكان في غاية الفسق أو في غاية الجنون، لا يشك في هذا أحد، فصح يقيناً أن الوحي الذي ورد لها في إلقاء ولدها في اليم كالوحي الوارد على إبراهيم في الرؤيا في ذبح ولده، فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لو لم يكن نبيّاً واثقاً بصحة الوحي والنبوّة الوارد عليه من ذبح ولده، لكنه ذبح ولده لرؤيا رآها أو ظن وقع في نفسه لكان بلا شك فاعل ذلك من غير الأنبياء فاسقاً في نهاية الفسق أو مجنوناً في غاية الجنون، هذا ما لا يشك فيه أحد من الناس فصحت نبوتهن بيقين. ووجدنا الله تعالى قد قال وقد ذكر من الأنبياء عليهم السلام في سورة كهيعص ذكر مريم في جملتهم ثم قال عزّ وجلّ: (أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ) وهذا هو عموم لها معهم لا يجوز تخصيصها من جملتهم وليس قوله عزّ وجلّ وأمّه صدّيقة بمانع من أن تكون نبيّة، فقد قال تعالى: (يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ) وهو مع ذلك نبي رسول.(١)

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل: أبي محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الأندلسي الظاهري (ت ٤٥٦هـ)، وضع حواشيه أحمد شمس الدين، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ج٤، ص١٢ وما بعدها.

وهنا ابن حزم قد ركز على مسألتين في إثبات النبوّة للنساء وهما:

الأولى: يقول أنه لم يدّع أحد أن الله أرسل امرأة، وإنّما الكلام في النبوّة دون الرسالة. وإنّ النبوّة مأخوذة من لفظة الإنباء وهو الإعلام، فمن أعلمه الله عزّ وجل بما يكون قبل أن يكون أو أوحى إليه منبئاً له بأمر ما فهو نبي بلا شك.

الثانية: لقد جاء في القرآن أنّ الله عزّ وجلّ قد أرسل ملائكة إلى النساء، فأخبروهن بوحي حق من الله تعالى، ولا يمكن البتة أن يكون هذا الخطاب من ملك لغير نبي بوجه من الوجوه. وهكذا فقد أرسل جبريل إلى مريم أم عيسى عليهما السلام يخاطبها: (إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا) فهذه نبوّة صحيحة بوحي صحيح ورسالة من الله تعالى إليها. وكذلك إحتج بأم موسى عليهما السلام عندما أوحى الله إليها بإلقاء ولدها في اليم وأعلمها أنه سيردّه إليها، فهي أيضاً نبوّة لا شك فيها، وبضرورة العقل فأنها لو لم تكن واثقة بنبوّة الله عزّ وجلّ لها لكانت بإلقائها ولدها في اليم برؤيا تراها، أو بما يقع في نفسها في غاية الجنون، ولو فعل أحدنا لكان في غاية الفسق أو في غاية الجنون.

ولمناقشة هاتين المسألتين نبيّن ما يلي:

أمّا بالنسبة للمسألة الأولى: فقد وقع ابن حزم في شبهة، وهي حصر مفهوم النبوّة بالإنباء أو الإعلام بما يكون قبل أن يكون وهذا المعنى إذا كانت النبوّة مشتقة من مادة نبأ، وأمّا إذا كانت مشتقة من مادة (نبو) فهو بمعنى (صاحب المقام الرفيع والشريف) كما بيّنا ذلك في الصفحات السابقة. فهو يذهب الى حصر وظيفة النبوّة بتلك الميزة دون غيرها. وقد تناسا بأن لفظ النبوّة يرتبط بعدّة أمور على صاحبها القيام بها على أكمل وجه. وليس الأمر منوطاً بالإعلام والإخبار

فقط، فإذا كان الأمر كما يذهب إليه، فما أسهله وما أهون التلبس بهكذا لفظ.

فالنبي هو الإنسان المخبر عن الله تعالى بغير واسطة أحد من البشر، أعمّ من أن يكون له شريعة كمحمد صلى الله عليه وآله- أو ليس له شريعة كيحيى عليه السلام- مأموراً من الله تعالى بتبليغ الأوامر والنواهي الى قوم أم لا.

والرسول هو الإنسان المخبر عن الله تعالى بغير واسطة من البشر وله شريعة، أما مبتدئة كآدم عليه السلام أو تكملة لما قبلها كمحمد صلى الله عليه وآله مأمور من الله بتبليغ الأوامر والنواهي الى قوم.(١)

والأنبياء مهماتهم كثيرة، فشأنهم كبير وفاعل في المكان الذي يتواجدون فيه، ولا يمكن حصره في الإخبار والإنباء عن الأمور المستقبلية، فما ذكر عنهم في القرآن الكريم يضفي عليهم مهام كثيرة كانت تستدعي مواجهتهم من قبل الكافرين والمنافقين وكما قال تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ) سورة الفرقان: ٣١، وقوله تعالى: (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) سورة الزخرف: ٧، وقوله تعالى: (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ) سورة الأنفال: ٦٧. فإذا كانت مهمة النبي تقتصر على الإنباء والإعلام، فلماذا يعاديه هذا الكم من العناوين، بحيث يصل الأمر الى أن يكون له أسرى نتيجة الحروب؟.

فالحقيقة أن الأنبياء مهمتهم هي هداية الناس، ويقدّمون للبشرية خدمات

(١) النكت الإعتقادية: الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان ابن المعلم ابي عبد الله العكبري البغدادي (٣٣٦- ٤١٣هـ)، تحقيق رضا المختاري، نشر المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، قم، ط١، ١٤١٣هـ: ص٣٤.

يكون لها بالغ الأثر في إصلاح مجتمعاتهم وأقوامهم، وكان لهم دورٌ يزيحون من خلاله الحجب عن بعض الحقائق المجهولة وأسرار الطبيعة، وكذلك تقديم الحلول للكثير من المشاكل الإجتماعية وحسن التدبير لأمورهم، فهم والحال هذه يعيشون ضمن المجتمع ويشاركون افراده مآسيهم وأفراحهم، ولا يبخلون بشيء يساهم في تحقيق هذا الأمر، فهم وإن لم تنزل عليهم شريعة خاصة بهم، لكنهم يعملون بشريعة من سبقهم من الرسل أو من عاصرهم، فيجّدون في تطبيقها. مضافاً الى أمر في غاية الأهمية، ألا وهو تقوية أسس التوحيد، ومحاربة الكفر والشرك، وكذلك لهم دور في الفصل في الخصومات وحل الخلافات كما قال تعالى: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ) سورة البقرة: ٢١٣، فهل كان هذا الشيء موجوداً لدى مريم عليها السلام، أو غيرها من النساء، وهل مارست دوراً واحداً من أدوار النبوّة؟

ثم هناك شيء آخر مهم، يمكننا طرحه الآن، ألا وهو إنّ مريم عليها السلام لم تخبرنا قصص الأناجيل، ولا آيات القرآن الكريم التي ذكرت فيها مريم عليها السلام مقطعاً قصصياً يعلمنا فيه بأن العذراء مريم قد مارست دوراً أنبأت فيه عن حوادث سوف تحدث في المستقبل، لكي ينطبق عليها تعريف النبوّة الذي طرحه ابن حزم الأندلسي وهو؛ الإنباء بما يكون قبل أن يكون! أو أنها أنذرت قومها أو طلبت منهم الثبات والإلتزام بشريعة ما أو غيرها من واجبات النبوّة.

والآن سنعرض بعضاً مما ورد في الأناجيل بشأن مريم عليها السلام، وكذلك نعرض بعض الآيات القرآنية في شأنها، لنعرف دورها الذي وجدت فيه وهي في هـذه الدنيا، ونـحاول أن نـوازيه بأدوار النبوّة بأي دور مـن أدوارها التـي طرحت في

تعاريف بعض المفسرين، وهل سنجد مفهوماً واحداً يرتبط إرتباطاً وثيقاً بمريم عليها السلام كي يمكن أن تكون نبيّة.

مريم عليها السلام في الأناجيل:

من الصعب أن نجد في مريم عليها السلام مواصفات النبوّة وواجباتها من خلال ما ذكرت فيه، سواء في الأناجيل أو في القرآن الكريم، الذي بيّنا فيه بعضاً من أوضاعها وشؤونها البارزة والمؤثرة في نقطة محورية قد أعتمد عليها عيسى عليه السلام في اثبات نبوته وخطورة رسالته. فكل ما ذكر حولها في كتب الأناجيل ما يقارب (١٩) مرّة، بالرغم من أن أسفار العهد الجديد قد بلغت ٢٧ سفراً، مقابل ما ذكر في القرآن الكريم نحو (٤٣) مرّة، لم نجد آية واحدة ذكرت محوراً من محاور النبوّة فيها. ولنذكر على سبيل المثال ما جاء حول مريم عليها السلام في الأناجيل:

١- (أمّا يسوع المسيح فقد تمت ولادته هكذا: كانت أمّه مريم مخطوبة ليوسف، وقبل أن يجتمعا معاً، وجدت حبلى من الروح القدس. وإذ كان يوسف خطيبها بارّاً، ولم يرد أن يشهّر بها، قرر أن يتركها سرّاً. وبينما كان يفكر في الأمر، إذا ملاك من الربّ قد ظهر له في حلم يقول: ((يا يوسف ابن داود! لا تخف أن تأتي بمريم عروسك إلى بيتك، لأن الذي هي حبلى به إنّما هو الروح القدس. فستلد ابناً، وأنت تسميه يسوع، لأنه هو الذي يخلّص شعبه من خطاياهم))). متي ١: ١٨- ٢١.

٢- (وجاء إخوته وأمّه، فوقفوا خارج البيت وأرسلوا إليه من يدعونه. وكان قد جلس حوله جمع كبير، فقالوا له: ((ها إن أمّك وإخوتك في الخارج يطلبونك)) فأجابهم: ((من أمّي وإخوتي؟)) ثم أدار نظره في الجالسين حوله

وقال: ((هؤلاء هم أمّي وإخوتي، لأن من يعمل بإرادة الله هو أخي وأختي وأمّي!))) مرقس٣: ٣١-٣٥.

٣- (فلمّا رأياه دهشا وقالت له أمّه: «يا بني، لماذا عملت بنا هكذا؟ فقد كنّا، أبوك وأنا، نبحث عنك متضايقين!» فأجابهما: «لماذا كنتما تبحثان عنّي؟ ألم تعلما أن عليّ أن أكون في ما يخصّ أبي؟» فلم يفهما ما قاله لهما. ثم نزل معهما ورجع إلى الناصرة، وكان خاضعاً لهما. وكانت أمّه تحفظ هذه الأمور كلها في قلبها) لوقا٢: ٤٨- ٥١.

٤- (أرسل الملاك جبرائيل من قبل الله إلى مدينة بالجليل اسمها الناصرة، إلى عذراء مخطوبة لرجل اسمه يوسف، من بيت داود، وإسم العذراء مريم. فدخل الملاك وقال لها: «سلام، أيتّها المنعم عليها! الربّ معك: مباركة أنت بين النساء». فاضطربت لكلام الملاك، وساءلت نفسها: «ما عسى أن تكون هذه التحية!» فقال لها الملاك: «لا تخافي يا مريم، فإنك قد نلت نعمة عند الله! وها أنت ستحبلين وتلدين إبناً وتسمينه يسوع. إنه يكون عظيماً، وابن العلي يدعى، ويمنحه الربّ الإله عرش داود أبيه، فيملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولن يكون لملكه نهاية.

فقالت مريم للملاك: «كيف يحدث هذا، وأنا لست أعرف رجلاً؟» فأجابها الملاك: «الروح القدس يحلّ عليك، وقدرة العليّ تظللك) لوقا١: ٢٦- ٣٥.

٥-(فقالت مريم: «ها أنا عبدةُ الربّ. ليكن لي كما تقول!» ثم انصرف الملاك من عندها. وفي تلك الأيام، قامت مريم وذهبت مسرعة إلى الجبال، قاصدة إلى مدينة من مدن يهوذا. فدخلت بيت زكريا وسلّمت على أليصابات. ولما

سمعت أليصابات سلام مريم، قفز الجنين داخل بطنها. وامتلأت أليصابات من الروح القدس، وهتفت بصوت عال قائلة: «مباركة أنت بين النساء! ومباركة ثمرة بطنك! فمن أين لي هذا: أن تأتي إلي أم ربّي؟ فإنّه ما إن وقع صوت سلامك في أذني حتى قفز الجنين ابتهاجاً في بطني: فطوبى للتي آمنت أنه سيتم ما قيل لها من قبل الربّ) لوقا١: ٣٨- .٤٥

٦- (فقالت مريم: «تعظم نفسي الربّ، وتبتهج روحي بالله مخلّصي. فإنه نظر إلى تواضع أمته، وها إن جميع الأجيال من الآن فصاعداً سوف تطوّبني، فإن القدير قد فعل بي أموراً عظيمة، قدوس اسمه، ورحمته للذين يتقونه جيلاً بعد جيل. فعمل بذراعه قوّة، شتت المتكبرين في نيات قلوبهم. أنزل المقتدرين عن عروشهم، ورفع المتواضعين. أشبع الجياع خيرات، وصرف الأغنياء فارغين. أعان إسرائيل فتاه، فتذكر الرحمة، كما تكلم إلى آبائنا، لإبراهيم ونسله إلى الأبد». وأقامت مريم عند أليصابات نحو ثلاثة أشهر، ثم رجعت إلى بيتها) لوقا١: ٤٦- .٥٦

٧- (فباركهما سمعان، وقال لمريم أم الطفل: «ها إن هذا الطفل قد جعل لسقوط كثيرين وقيام كثيرين في إسرائيل، وآية تقاوم حتى أنت سيخترق نفسك سيف لكي تنكشف نيات قلوب كثيرة) لوقا٢: ٣٤- .٣٥

٨- (ولما انصرف الملائكة عن الرعاة إلى السماء، قال بعضهم لبعض: «لنذهب إذن إلى بيت لحم، وننظر هذا الأمر الذي حدث وقد أعلمنا به الربّ» وجاءوا مسرعين، فوجدوا مريم ويوسف، والطفل نائماً في المذود. فلما رأوا ذلك، أخذوا يخبرون بما قيل لهم بخصوص هذا الطفل. وجميع الذين سمعوا بذلك دهشوا مما قاله لهم الرعاة. وأمّا مريم، فكانت تحفظ هذه الأمور

جميعـًا، وتتأملها في قلبها. ثم رجع الرعاة يمجدون الله ويسبحونه على كل ما سمعوه ورأوه كما قيل لهم) لوقا٢: ١٥- ٢٠.

مريم عليها السلام في القرآن

١- (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) سورة آل عمران: ٣٧.

٢- (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) سورة آل عمران: ٤٢.

٣- (يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ) سورة آل عمران: ٤٣.

٤- (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) سورة آل عمران: ٤٤.

٥- (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) سورة آل عمران: ٤٥.

٦- (قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) سورة آل عمران: ٤٧.

٧- (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ...) سورة النساء: ١٧١.

٨- (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا) سورة مريم: ١٦.

٩- (فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا) سورة مريم: ١٧.

١٠- (قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا) سورة مريم: ١٨.

١١- (قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا) سورة مريم: ٢٠.

١٢- (فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا) سورة مريم: ٢٢.

١٣- (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا) سورة مريم: ٢٣.

١٤- (فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا) سورة مريم: ٢٤.

١٥- (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا) سورة مريم: ٢٥.

١٦- (فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا) سورة مريم: ٢٦.

١٧- (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا) سورة مريم: ٢٧.

١٨- (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا) سورة مريم: ٢٩.

١٩- (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ) سورة المؤمنون: ٥٠.

٢٠- (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ) سورة التحريم: ١٢.

ونحن نرى هنا أن ما جاء في الأناجيل وفي آيات القرآن الكريم لم يظهرا لنا مريم عليها السلام بصفة النبوّة، وتحمّل آثارها الإجتماعية، ومواقفها العقائدية التي تستدعي المواجهة وقد تصل الى حد القتال، والتي من الممكن أن نلاحظ بعضاً من جهاتها من خلال الآيات المباركة بشأن النبوّة:

١- (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا) سورة الفرقان: .٣١

٢- (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) سورة الأنعام: .١١٢

٣- (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) سورة آل عمران: ١٦١. وفي هذه الآية المباركة لنا وقفة لابد منها؛ فكلمة الغلّ التي وردت في الآية لها عدّة معان منها:

الغلّ: الحقد الكامن، والمغلُّ: الخائن، والغُلولُ: خيانة الفيء، وفي الحديث: (لا إسلالَ ولا إغلالَ) أي: لا خيانة ولا سرقة.[1]

وقد ذكر صاحب كتاب الميزان في تفسير قوله تعالى: (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ)،

(١) كتاب العين: أبي عبد الله الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠- ١٧٥هـ)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م: مادة غلّ.

الغلّ هو الخيانة، وفي هذا السياق معناه تنزيه ساحة النبي عن السوء والفحشاء بطهارته، والمعنى: حاشا أن يغلّ ويخون النبي ربّه أو الناس (وهو أيضـاً من الخيانة لله) والحال أن الخائن يلقى ربّه بخيانته ثم توفّى نفسه ما كسبت.(١)

فالآية هنا لها دور طليق بالنسبة لمطلق الخيانة عن ساحة النبوّة، فتشمل كافة الشؤون لنزولها وسواها مما لم تحصل، إجتثاثاً للغلول عن هذه الساحة السامية عن بكرته وبكرتها، سواء أكانت خيانة في الرسالة، أم في الغنائم الحربية إختصاصاً بنفسه أم في تقسيمها أم في قبولها أم في السكوت عنها، ومن قوله صلى الله عليه وآله: (اجتنبوا الغلول فإنّه عار وشنار ونار).(٢)

وهذا يعني أن هناك علاقة وتفاعل بين النبي وبين الناس، ولذلك يستدعي هذا التعامل وجود نوع من الأحداث أو الظروف التي يتواجه فيها النبي معهم، وينتج عن طريق تلك المواجهة نوع من التعاملات والمواقف، قد يساء الفهم أو يثار الشك لدى المنافقين والشكاكين ضد النبي نتيجة موقف ما، ولذلك نبّه الله تعالى من كان يشك بالنبوّة وأفعالها وصدقها، بأنّه لا يوجد نبي على وجه الإطلاق يعرف معنى الخيانة أو أن يتعلق هذا المسمى به ولو بلمح البصر.

فأين هذه المواقف والتعاملات مع مريم عليها السلام، فلم يحدث مثل هذا الشيء معها إطلاقاً، بل الأكثر من ذلك ذهب صاحب التحرير والتنوير الى

(١) الميزان في تفسير القرآن: العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٣، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م: ج٤، ص٥٧.

(٢) ينظر: الفرقان في تفسير القرآن: الدكتور محمد الصادقي، نشر دار الأميرة، بيروت، ط١، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م: ج٥، ص٢٩١.

أن المقصود بهذا الخطاب ليس النبي، وإنّما أمته هي المعنية بعدم الغلّ حيث يقول: نبهوا- أي جيش المسلمين- إلى شيء يستخف به الجيش في الغزوات، وهو الغلول ليعلموا أن ذلك لا يرضي الله تعالى فيحذروه ويكونوا مما هو أدعى لغضب الله أشدّ حذراً فهذه مناسبة التحذير من الغلول، ويعضّد ذلك أن سبب هزيمتهم يوم أحد هو تعجلهم إلى أخذ الغنائم.

والغلول: تعجّل بأخذ شيء من غال الغنيمة. ولا تجد غير هذا يصلح لأن يكون مناسباً لتعقيب آية النصر بآية الغلول، فإن غزوة أحد التي أتت السورة على قصتها لم يقع فيها غلول ولا كائن للمسلمين فيها غنيمة، وما ذكره بعض المفسرين من قضية غلول وقعت يوم بدر في قطيفة حمراء أو في سيف لا يستقيم هنا لبعد ما بين غزوة بدر وغزوة أحد، فضلاً على ما ذكره بعضهم من نزول هذه الآية في حرص الأعراب على قسمة الغنائم يوم حنين الواقع بعد غزوة أُحد بخمس سنين.(١)

فإذا كان الأمر كذلك فهذا يعني أن لكل نبي أمة وجماعة يتبعونه، وما دام يطيعون وينقادون للنبي المرتبط بالسماء فعليهم أن لا يخونوا أو يفعلوا ما يشين هذا الإتباع، وليت عمري من أين لمريم عليها السلام هذا الإتباع والإنقياد من قبل قومها؟!.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) سورة

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (المعروف بتفسير ابن عاشور): الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، نشر مؤسسة التاريخ، بيروت، ط١ بدون سنة طبع: ج٣، ص٢٧٤.

الأنفال: ٦٧، ولعلها تكون أشدّ وضوحاً مما قد يتعلق بواجبات النبوّة من أجل إثبات الحق والعمل بشريعة الله، مما قد يستدعي الحروب والبأس الشديد في سوح الوغى، وهو يواجه اعداء الله، حتى يصل الأمر الى أخذ الأسرى وغيرها من لوازم الحروب.

والآن أيضاً نتساءل هل حصل مثل هذا مع مريم عليها السلام. وحتى إن لم يحصل واقعاً، فهل كانت هي مستعدة للقيام بهذا الدور فيما لو فرض حدوثه؟.

٤- قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ) سورة الأعراف: ٩٤.

٥- (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ) سورة آل عمران: ٧٩.

ومحصل الكلام في هذه الآية أن البشر الذي هذا شأنه إنّما يدعوكم إلى التلبس بالإيمان واليقين بما في الكتاب الذي تعلمونه وتدرسونه من أصول المعارف الإلهية، والإتصاف والتحقق بالملكات والأخلاق الفاضلة التي يشتمل عليها، والعمل بالصالحات التي تدعون الناس إليها حتى تنقطعوا بذلك إلى ربكم، وتكونوا به علماء ربانيين.[1]

فهل قالوا عن مريم عليها السلام ظلماً أو جهلاً بأنها هي الربّ، بحيث يوجه

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٣، ص٢٧٦.

لهم هذا الخطاب الإلهي الكاشف عن غيّهم وقولهم على الأنبياء بغير الحق. ثم علينا أن نفهم أن ما حدث مع مريم عليها السلام، كان على وجه الكرامة لتلك السيدة العظيمة ولم يحدث على وجه المعجزة، فهناك فرق بين المعجزة والكرامة. فإن الإتيان بالعمل الخارق للعادة الذي يقترن مع دعوى النبوّة، ويتفق مع الادعاء، يسمى معجزة، وأمّا إذا صدر العمل الخارق للعادة من عبد لله صالح لم يدّع النبوة سُمي كرامة.

ومما يشهد بأن عباد الله الصالحين من غير الأنبياء قادرون أيضاً على الإتيان بالأعمال الخارقة للعادة، نزول الطعام السماوي على السيدة مريم، وانتقال عرش بلقيس ملكة سبأ في سرعة خاطفة من اليمن إلى القدس على يد فرد بارز من أنصار النبي سليمان وهو (آصف بن برخيا)، وقد أخبر القرآن الكريم بكلا الحدثين، اذ قال تعالى في شأن مريم عليها السلام: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ سورة آل عمران: ٣٧، وقال تعالى حول حادثة عرش بلقيس: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾(١) سورة النمل: ٤٠.

ثم نحن نعتقد بعصمة جميع الأنبياء، ولكن لا نرى أن العصمة تلازم النبوّة ، أي أننا لا نرى أن كل معصوم هو نبي بالضرورة، وإنْ كان كلّ نبي معصوم بالضرورة، فربّ إنسان معصوم، ولكنه ليس بنبي، فها هو القرآن الكريم يقول عن

(١) العقيدة الإسلامية: العلّامة المحقق جعفر السبحاني، نقله الى العربية جعفر الهادي، نشر مؤسسة الإمام الصادق، قم، ط٣، ١٤٢٨هـ: ص١٢٣. وينظر: دروس في العقيدة الإسلامية: محمد تقي مصباح اليزدي: ص٢١٦ وصراط الحق لمحمد آصف الحسني: ج٣، ص٤٢.

السيدة مريم عليها السلام: (يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) سورة آل عمران: ٤٢، فإن استخدام القرآن الكريم للفظة الاصطفاء في شأن السيدة مريم يدل على عصمتها، لأن نفس هذه اللفظة (الإصطفاء) استخدمت في شأن الأنبياء سلام الله عليهم أيضاً: (إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ) سورة آل عمران: ٣٣، بل الأكثر من ذلك فإن الإصطفاء الإلهي لم ينحصر بالأنبياء والأولياء فقط، وإنّما الله تعالى قد صرّح بكتابه الكريم بأنه اصطفى غير الأنبياء ومن غير الأولياء الكمّل، حيث قال تبارك وتعالى: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ) سورة فاطر: ٣٢.

هذا مضافاً إلى أن الآية قد تحدثث حول طهارة السيدة مريم عليها السلام، والمقصود هو طهارتها من أي نوع من أنواع الرجس والمعصية، وليست هذه الطهارة والبراءة، هو براءتها من الذنب الذي رمتها اليهودية في مجال ولادة عيسى عليه السلام منها بدون أب، لأن تبرئة مريم من هذه المعصية ثبتت في الأيام الأولى لولادة عيسى عليه السلام بتكلمه، فلم تعد حاجة إلى بيان ذلك مجدداً.

أضف إلى ذلك أن الآية تتحدث عن مريم قبل أن تحمل بالمسيح، حيث جاء حديث حملها له عبر هذه الآية فلاحظ.(١)

أما الرد على ما يخص المسألة الثانية التي أثارها ابن حزم الأندلسي لإثبات نبوّة مريم عليها السلام عندما قال: أنّ الله عزّ وجلّ قد أرسل ملائكة إلى النساء، فأخبروهن بوحي حق من الله تعالى، ولا يمكن أن يكون هذا الخطاب من ملك

---

(١) العقيدة الإسلامية، مصدر سابق: ص١٣٩.

لغير نبي بوجه من الوجوه. وهكذا فقد أرسل جبريل إلى مريم أم عيسى عليهما السلام يخاطبها: (إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا) فهذه نبوّة صحيحة ورسالة من الله تعالى إليها. وكذلك إحتج بأم موسى عليهما السلام عندما أوحى الله إليها بإلقاء ولدها في اليم، فهي أيضاً نبوّة لا شك فيها، وبضرورة العقل فأنها لو لم تكن واثقة بنبوّة الله عزّ وجلّ لها لكانت بإلقائها ولدها في اليم برؤيا تراها، أو بما يقع في نفسها في غاية الجنون والفسق.

فهنا أيضاً يرد عليه، لأنه وقع أيضاً في شبهة، فالوحي من الله تعالى الى عباده لا يقتصر على الأنبياء والرسل فقط- هذا فضلاً عن وجود الوحي الخاص بالحيوان والموجودات الكونية الأخرى- وإنّما يشمل غيرهم من البشر، فماذا يقول عن الوحي الذي حصل لحواريّ عيسى عليه السلام، فهل نقول عنهم، أو نسّميهم أنبياء، بمجرد أن أوحى الله إليهم وكما جاء في القرآن الكريم: (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ) سورة المائدة: ١١١.

ثم انّ للوحي في القرآن معنى واسعاً لا ينحصر في الوحي الذي ينزل على الأنبياء، بل أن الإلهام الذي ينزل على قلوب الناس يعتبر من مصاديقه أيضاً، لذلك جاء هذا المعنى في الآية (٧) من سورة القصص بشأن أم موسى التي أوحي إليها إذ قال تعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) سورة القصص: ٧، بل إن الكلمة تطلق في القرآن حتى على الغرائز التكوينية عند

الحيوان، كالنحل.[1]

والوحي إن كان في مورد إبلاغ الأحكام والحقائق الإلهية، فلابد من أن يتحقق بوسيلة رسول أمين طاهر لا ينطق عن الهوى، ولا يتمايل الى جانب خلاف الحق، فيكون حجة تامة من الله تعالى.

وأمّا في موارد شخصية أو عرفية إجتماعية، فلا إشكال في تحققه بوسائط مختلفة، إذا أريد منه هدايتهم الى ما فيه صلاحهم، وهذا لطف منه تعالى في مورد عباده المتوجهين إليه المتوقعين منه. هذا وقد ذكر العلّامة المصطفوي أربعة عشر قسماً من أقسام الوحي ذكرنا قسماً منها في الأورق السابقة فراجع.

ومما يدل أيضاً على أن ليس كل من خاطبته الملائكة فهو نبي، ما جاء في صحيح مسلم حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله: (أنّ رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد الله تعالى على مَدْرجته مَلكاً ، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تربها عليه؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله تعالى، قال: فإنّي رسول الله إليك بأن الله أحبك كما أحببته فيه).

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: العلّامة الفقيه ناصر مكارم الشيرازي، نشر دار احياء التراث العربي، بيروت،ط٢، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م:ج٤، ص١٨٩.

رأي القرطبي والرد عليه

أما المفسر الثاني الذي ذهب الى القول بنبوّة مريم عليها السلام فهو القرطبي ففي تفسير قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) سورة آل عمران: ٤٢، فيقول: قوله تعالى: (إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ) أي اختارك و(طَهَّرَكِ) أي من الكفر، عن مجاهد والحسن. الزجاج: من سائر الأدناس، من الحيض والنفاس وغيرهما، واصطفاك لولادة عيسى. (عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) يعني: عالمي زمانها، عن الحسن وابن جريح وغيرهما، وقيل: (عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) أجمع إلى يوم الصّور، وهو الصحيح على ما نبيّنه، وهو قول الزجّاج وغيره. وكرر الإصطفاء لأن معنى الأول: الإصطفاء لعبادته، ومعنى الثاني: لولادة عيسى. وروى مسلم عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران، وآسيا امرأة فرعون، وإن فضل عائشة على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام).

ثم يقول قال علماؤنا رحمة الله عليهم: الكمال هو التناهي والتمام؛ ويقال في ماضيه: (كمل) بفتح الميم وضمها، و(يكمل) في مضارعة بالضم، وكمال كل شيء بحسبه، والكمال المطلق إنما هو لله تعالى خاصة. ولا شك أن أكمل نوع الإنسان الأنبياء، ثم يليهم الأولياء من الصّدّيقين والشهداء والصالحين. وإذا تقرر هذا فقد قيل: إن الكمال المذكور في الحديث يعني به النبوّة، فيلزم عليه أن تكون مريم عليها السلام وآسية نبيتين، وقد قيل بذلك. والصحيح أن مريم نبيّة، لأن الله تعالى أوحى إليها بواسطة الملك كما أوحى إلى سائر النبيين حسب ما تقدم، ويأتي بيانه أيضاً في (مريم). وأمّا آسيا فلم يرد ما يدل على نبوتها دلالة واضحة، بل

على صدّيقيّتها وفضلها. وروي من طرق صحيحة أنه عليه الصلاة والسلام قال فيما رواه عنه أبو هريرة: خير نساء العالمين أربع: مريم بنتُ عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد. ومن حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم: (أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسيا بنت مزاحم امرأة فرعون، وفي طريق آخر عنه: (سيدة نساء أهل الجنة بعد مريم فاطمة وخديجة) فظاهر القرآن والأحاديث يقتضي أن مريم أفضل من جميع نساء العالم، من حواء إلى آخر امرأة تقوم عليها الساعة، فإن الملائكة قد بلّغتها الوحي عن الله عزّ وجلّ بالتكليف والإخبار والبشارة، كما بلّغت سائر الأنبياء، فهي إذن نبيّة، والنبي أفضل من الولي، فهي أفضل من كل النساء؛ الأولين والآخرين مطلقاً، ثم بعدها في الفضيلة فاطمة، ثم خديجة، ثم آسية. وكذلك رواه موسى بن عقبة، عن كريب عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سيدة نساء العالمين مريم، ثم فاطمة، ثم خديجة، ثم آسيا). ... وقد خص الله مريم بما لم يؤته أحداً من النساء، وذلك أن روح القدس كلّمها وظهر لها ونفخ في درعها ودنا منها للنفخة، فليس هذا لأحد من النساء. وصدّقت بكلمات ربّها، ولم تسأل آية عندما بشّرت كما سأل زكريا عليه السلام من الآية، ولذلك سمّاها الله في تنزيله صدّيقة، فقال: (وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ) المائدة: ٧٥، وقال: (وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ) التحريم :١٢، فشهد لها بالصدّيقية، وشهد لها بالتصديق لكلمات البشرى، وشهد لها بالقنوت.

وإنّما بشر زكريا بغلام، فلحظ إلى كبر سنه وعقامة رحم امرأته، فقال: أنّى يكون لي غلام وامرأتي عاقر، فسأل آية، وبشرت مريم بغلام، فلحظت أنها بكر ولم يمسسها بشر فقيل لها: (كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ) مريم: ٢١، فاقتصرت على ذلك،

وصدّقت بكلمات ربّها، ولم تسأل آية ممن يعلم كنه هذا الأمر. ومن أين لإمرأة في جميع نساء العالمين من بنات آدم ما لها من هذه المناقب؟!. ولذلك روي أنّها سبقت السابقين مع الرسل إلى الجنّة، جاء في الخبر عنه صلى الله عليه وسلم: (لو أقسمتُ لبررت لا يدخل الجنّة قبل سابقي أمتي، إلّا بضعة عشر رجلاً، منهم إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وموسى، وعيسى، ومريم ابنة عمران). وكان يحق على من انتحل علم الظاهر، واستدل بالأشياء الظاهرة على الأشياء الباطنة، أن يعرف قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) وقوله حيث يقول: (لواء الحمد يوم القيامة بيدي، ومفاتيح الكرم بيدي، وأنا أوّل خطيب وأول شفيع، وأول مبشر، وأول وأول). فلم ينل هذا السؤدد في الدنيا على الرسل إلّا لأمر عظيم في الباطن. وكذلك شأن مريم لم تنل شهادة الله في التنزيل بالصدّيقية والتصديق بالكلمات إلّا لمرتبة قريبة دانية.

ومن قال: لم تكن نبيّة، قال: إن رؤيتها للملك كما رؤي جبريل عليه السلام في صفة دحية الكلبي حين سؤاله عن الإسلام والإيمان، ولم تكن الصحابة بذلك أنبياء، والأول أظهر وعليه الأكثر.(١)

إذن بعد أن عرضنا رأي القرطبي عن نبوّة مريم عليها السلام، نراه قد تعرّض الى عدّة مسائل أهمها ما يلي:

الأولى: إنّه فهم من الكمال المذكور في حديث: (كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران، وآسيا امرأة فرعون...) هو كمال النبوّة.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (٦٧١هـ)، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م: ج٥، ص١٢٦ وما بعدها.

الثانية: قال إن ظاهر القرآن والأحاديث يقتضي أن مريم أفضل من جميع نساء العالم، من حواء إلى آخر امرأة تقوم عليها الساعة، لأن الملائكة قد بلّغتها الوحي عن الله عزّ وجلّ بالتكليف والإخبار والبشارة، كما بلّغت سائر الأنبياء، فهي على هذا الأساس نبيّة.

الثالثة: قد خص الله مريم بما لم يؤته أحداً من النساء. وذلك أن روح القدس كلّمها وظهر لها ونفخ في درعها ودنا منها للنفخة، فليس هذا لأحدٍ من النساء. وصدّقت بكلمات ربّها، ولم تسأل آية عندما بشّرت كما سأل زكريا عليه السلام.

أما المسألة الأولى:

فإن الكمال المذكور في الحديث الذي استشهد به، لم يكن يتعرض الى كمال النبوّة، وإنّما كان يبيّن علو شأن تلك الأسماء التي ذكرت في سيرهن التكاملي الذي هو ما دون النبوّة، بإعتبار إشتراك نساء أخريات وجدت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وبعده، وخصوصاً أنّ الأحاديث الصحيحة والموثوقة السند من كتب العامة والشيعة كانت تؤكد على أربعة نساء وهن فاطمة الزهراء وخديجة ومريم وآسيا زوجة فرعون، ولكن لا ندري لماذا غفل القرطبي أو تناسى الأسماء الأخريات.

ثم أن الكمال يطلق هنا لتمام الشيء وتناهيه في بابه، فالمراد بلوغ النساء الكاملات النهاية في جميع فضائل النساء، وعلى ذلك يكون الكمال الوارد في الحديث غير الكمال الخاص بالأنبياء.

علماً أنّ الحديث أو الرواية التي يذكر فيها كمال وأفضلية (فاطمة، وخديجة، ومريم، وآسية) يرويه جملة من العلماء منهم الطبري بسنده عن أبي موسى

الاشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلّا مريم، وآسيا امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله. وكذلك ذكر هذا الحديث الزمخشري في الكشّاف في تفسير قوله تعالى: (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا) في سورة التحريم، وذكره العسقلاني أيضـاً في فتح الباري ج٧، ص٢٥٨، وقال أخرجه الثعلبي في تفسيره.[1]

وانّك لتشعر بضعف الحديث الذي ذكره القرطبي والذي جاء فيه (ذكر فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام) عندما تجد آخره لا يناسب ما ابتدأ به، فهو يتكلم بدءاً عن الكمال عند النساء وذكر إسمين ثم قال (... وإن فضل عائشة على النساء ...)، فضعف هذا الحديث واضح من ألفاظه، ولا يحتاج الى كثير عناء وجهد لمعرفة ذلك وخصوصـاً عندما توجد أحاديث أمتن سنداً وأبين مدلولاً منه، كالذي ذكرناه، مضافـاً الى ما سنذكره من الأحاديث الأخرى وهي في نفس هذا السياق والتي تبيّن أفضلية وكمال تلك النساء الأربعة:

- (إن الله اصطفى على نساء العالمين أربعـاً: آسية بنت مزاحم، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم).[2]

---

(١) فضائل الخمسة من الصحاح الستة: السيد مرتضى الحسيني الفيروز آبادي، تحقيق المجمع العالمي لأهل البيت، نشر المعاونية الثقافية لأهل البيت، بيروت، ط٢، ١٤٢٨هـ:ج٣، ص١٧٥.

(٢) المصدر نفسه: ج٣، ص١٧٥ نقلاً عن السيوطي في الدر المنثور، في ذيل تفسير قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ).

- (عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: خير نساء العالمين أربع، مريم بنت عمران، وآسيا بنت مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم).(١)

- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (حسبك من نساء العالمين مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ،وآسية امرأة فرعون).(٢)

- عن عائشة قالت لفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أبشرك أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: سيدات نساء أهل الجنّة أربع مريم بنت عمران، وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخديجة بنت خويلد، وآسية.(٣)

- عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أربع نسوة سيدات سادات عالمهن، مريم بنت عمران، وآسيا بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم، وأفضلهن عالماً فاطمة سلام الله عليها.(٤)

ونكتفي بهذا القدر من الأحاديث. فإذا كان الأمر بهذه الصورة، وعلى مبنى

---

(١) المصدر نفسه: ج٣، ص١٧٣ نقلاً عن تفسير ابن جرير ج٣، ص١٨٠، والإستيعاب لابن عبد البر ج٢، ص٧٢٠.

(٢) المصدر نفسه: ج٣، ص١٧٣ نقلاً عن صحيح الترمذي ج١، ص٣١، وكذلك رواه الحاكم في مستدرك الصحيحين ج٣، ص١٥٧.

(٣) المصدر نفسه: ج٣، ص١٧٠ نقلاً عن مستدرك الصحيحين ج٣، ص١٨٥.

(٤) المصدر نفسه: ج٣، ص١٧٠ نقلاً عن ذخائر العقبى، ص٤٤.

القرطبي علينا أن نعتبر كلًّا من أسية بنت مزاحم نبيّة، وخديجة بنت خويلد نبيّة، وفاطمة الزهراء نبيّة. وهذا مما لا يقول به أحد من المسلمين!.

وأمّا المسألة الثانية:

وهي بخصوص مسألة أن الله تعالى قد خصّ مريم عليها السلام بما لم يؤته أحداً من النساء، بإعتبار أن روح القدس كلّمها وظهر لها، ونفخ في درعها.

وهنا علينا أن نلتفت بأن الله تعالى أراد أن يوجد النبي عيسى عليه السلام من غير أب، فقط من امرأة، وهنا تكمن إرادة جديدة لله تعالى في خلقه وكيفية التصرف في الإيجاد والعدم- بامرأة تقية وعدم مطلق للرجل- ولكن بالرغم من ذلك يأتي منها عيسى عليه السلام نبياً ليمارس دوره الرسالي مع بني إسرائيل، فالأمر الملفت للنظر، والذي علينا التركيز عليه، هو ذلك الإيجاد من غير أب، وإلّا رحم المرأة التقية والصالحة موجود، وإن انحصر في مريم عليها السلام لشدّة عبادتها وعفتها، ولكنه على كل حال موجود، وهذا ليس محل الغرابة في ولادة عيسى عليه السلام، وإنّما محل الإستغراب والتعجب، هو أنه كيف يولد مولود من غير أب، وتخرج من خلاله نبوّة استثنائية، بل يتفرد بها ذلك الشخص الرسالي دون غيره من الرسل والأنبياء. فهنا النقطة المفصلية، وهنا يجب التوقف، والبحث عن الأسباب التي دعت الى إيجاد مثل تلك الولادة، ولم يكن شأن التعجب والإستغراب يتعلق بمريم عليها السلام، كلا ففي الواقع أن دور مريم هو دور معدّ مسبقاً للولادة، متى ما سنحت الظروف المؤاتية لذلك. وحينئذ حتى تكتمل حادثة ولادة عيسى عليه السلام، كان يجب أن تخبر بأداء هذا الدور، فكان لزاماً على الملائكة أن تؤدي مهمة التكلم مع مريم عليها السلام.

وفي هذا السياق يقول السيد الطباطبائي في تفسير قوله تعالى: (وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) إن الإصطفاء المتعدي بـ (على) يفيد معنى التقدم، وأنه غير الإصطفاء المطلق الذي يفيد معنى التسليم، وعلى هذا فاصطفائها على نساء العالمين تقديم لها عليهن.

وهل هذا التقديم تقديم من جميع الجهات، أو من بعضها؟ ظاهر قوله تعالى فيما بعد الآية: (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ) الآية، وقوله تعالى: (وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ) الأنبياء: ٩١ وقوله تعالى: (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ) التحريم: ١٢، حيث لم تشتمل مما تختص بها من بين النساء إلّا على شأنها العجيب في ولادة المسيح عليه السلام، أن هذا هو وجه إصطفائها وتقديمها على النساء من العالمين.

وأمّا ما اشتملت عليه الآيات في قصتها من التطهير والتصديق بكلمات الله وكتبه، والقنوت وكونها محدّثة، فهي أمور لا تختص بها، بل يوجد في غيرها، وأمّا ما قيل: إنها مصطفاة على نساء عالم عصرها، فإطلاق الآية يدفعه.(١)

هذا مضافاً الى أن هناك أمر مهم آخر، ألا وهو أن نفس الملك الذي تمثل لها بشراً سوياً، وعدّ ذلك القرطبي من إمارات النبوّة، فإن نفس الملك قد أخبر مريم عن مهمته التي أرسل لتنفيذها، وهي أن يهب لها غلاماً زكياً، رسولاً الى بني إسرائيل، ولم يخبرها بأن الله يبشرها بأنّها قد أصبحت نبيّة، ولم يشر الملك الى ذلك، لا من بعيد أو قريب، حيث يخبرنا القرآن الكريم بالذي ارسل من أجله

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٣، ص٢١٨.

الملك، إذ قال تعالى: (قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا) مريم: ١٨ – ١٩، وكذلك قوله تعالى: (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ* وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) سورة آل عمران: ٤٥ – ٤٩.

إثبات الولاية ومقام الحجية للنساء

هناك مقام في الشرائع السماوية لنماذج بشرية ليسوا برسل، وليسوا بأنبياء، وليسوا بأئمة، فالحجج الإلهية يمكن تقسيمها الى خمسة أقسام هي:

القسم الأول: مقام الرسل.

القسم الثاني: مقام الأنبياء.

القسم الثالث: مقام الإمامة.

القسم الرابع: مقام الحجة-الإصطفاء- وهو الذي ليس برسول ولا نبي ولا إمام، وهو من يكون حجة نتيجة الإصطفاء والإنتخاب، وما هو برسول ولا إ مام، نظير ما ورد في السيدة مريم عليها السلام، فهي حجة مصطفاة (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) فـ (على) هنا يعني أنها حجّة مع انّ مريم ليست من الأقسام الثلاثة الأولى، ولكن أفعالها حجة، فكل ما فعلته وأدلت به هو حجة، (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩)) ، فقد بعثت بمهمة إلهية (فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا)، فهي كانت مأمورة من قبل السماء بوصايا إلهية في ظل نبوّة عيسى عليه السلام وتبع لنبوّته مع انها لم تكن نبيّة ولا برسول ولا إمام.

وهناك قسم خامس هو: مقام الحكمة والتعلم، مثل مقام لقمان الحكيم وآسيا بنت مزاحم.

علماً إنّ بعض المقامات الإلهية لازالت البوابة فيها مفتوحة، وأمّا النبوّة والرسالة والإمامة، بل حتى الإصطفاء ليست هي مقامات إكتسابية بل هي مقامات إصطفائية محضة، على طبق مؤهلات وقابليات في الشخص المختار بتعيين من إرادة إلهية. وبعبارة أخرى بإختيار من الله عزّ وجلّ سابق لذوات بشرية علي وفق ما علم منهم بعلم سابق أنهم سيكونون على طاعة متميزة من بين البشر، فيصطفيهم إبتداءً ويمتحنهم بقاءً، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾(١) سورة القصص: ٦٨.

أمّا عن إثبات الولاية للنساء، فنحن هنا لا نتكلم عن الولاية التشريعية التي هي بمعنى إبلاغ الرسالة، فإنّها مختصة بالأنبياء- الرجال- ولكننا نريد أن نتكلم عن دائرة الولاية التكوينية فهي كما نعلم أوسع من الولاية التشريعية، بل هي شاملة لكل الأفراد، وإنّما كل إنسان يعيش بالولاية التكوينية.

وفي هذا الصدد يقول الشيخ جوادي آملي: أن كل إنسان إنّما يعيش بالولاية التكوينية، فتحريك الإنسان بدنه أي وقت شاء وتمديده في الفراش حينما يرغب، ومن ثم تخفيف علاقته به إلى درجة حياة الأعشاب، أو إلى درجة أضعف من حياة الحيوان، ومن ثم سفره إلى عالم الرؤيا وإتيانه تجليات من ذلك العالم أيضاً بحسب درجة الصلاح التي هو فيها، فتارة بصورة حسنة وأخرى بشكل أضغاث أحلام أو سائر التصرفات اليومية التي يقوم بها كل فرد في بدنه هذه كلّها نتيجة للولاية التكوينية للروح. إذ أنه وإن كانت تصرفاتنا العادية في الأمور الخارجية

(١) ينظر: زينب عليها السلام سر من أسرار أهل الكساء: تقرير لمحاضرات آية الله المحقق الشيخ محمد السند، بقلم ابراهيم حسين البغدادي، نشر دار النور، النجف، ط٢، ١٤٣٤هـ: ص٢٧.

بواسطة الأجزاء والأعضاء البدنية، لكن هذه التصرفات في أعضاء البدن تكون بواسطة الفكر والإرادة اللذين هما من شؤون العقل العملي والفطري. أنسنا بهذا الحد من الولاية التكوينية كمثل أنس السمك بالماء، لذا فكما أن السمك غافل عن الماء، فنحن كذلك نكون غافلين عن الولاية التكوينية للروح بالنسبة للبدن. وأرقى من هذا الحد من الولاية التصرفات التي تقوم بها الروح في خارج البدن."(١)

ومن نماذج النساء من أهل الولاية السيدة مريم عليها السلام (إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) سورة آل عمران :٣٥ – ٣٧.

بعد أن صار زكريا كفيلاً لمريم عليهما السلام من قبل الله، وبعد أن بلغت الرشد تحت كفالته، كلما دخل عليها زكريا شاهد عندها طعاماً. من غير الموسم، مما استوجب أن يسألها أنّى لك هذا؟ فقالت مريم مجيبة: هو من عند الله. وهذا الجواب كان لزكريا عليه السلام بشكل يجعله يصدقه دون توقف ودون أن يكون في حاجة للتحقيق حوله.

وفي آخر الآية تقول: (إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) وهذه الجملة ليست

---

(١) ولاية الإنسان في القرآن: آية الله جوادي آملي، نشر دار الصفوة، بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٩م: ص٢٣٠.

بمعنى أن عطاء الله لا حساب له، وذلك لأن (الحسيب) من أسماء الله، كما إنه تعالى يقول في القرآن: (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) سورة الرعد: ٨، ويقول أيضـاً: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) سورة القمر: ٤٩. وإنّما المراد من هذه الجملة أن كيفية أو كمية عطاء الله كثيراً لا يحسب. أي أن الله تعالى يرزق بشكل لا يعد ولا يحسب، أو أن كيفية رزق الله بشكل لا يمكن لآخر أن يفهمه بواسطة الحساب. وعلى أية حال فهذا بنفسه نحو من الولاية، بأن يصل إنسان ليس بنبي إلى أن يعطيه الله سبحانه رزقاً كريماً بشكل لا يستطيع الآخرون فهمه.

هذا المقام الشامخ من الولاية الذي قد ظهر في مريم سلام الله عليها صار سبباً لدعاء زكريا لنيل ولد صالح كيحيى عليه السلام. إذ أن زكريا بعد أن شاهد فضيلة مريم أحب أن يعطيه الله إبناً بهذا الشكل (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ) سورة آل عمران: ٣٨، ولذا أعطى الله سبحانه يحيى لزكريا عليهما السلام ليتمتع هو ايضـاً من الرزق الكريم بغير حساب. طبعـاً يحيى عليه السلام وصل إلى مقام النبوّة وصار صاحب ولاية تشريعية. أما مريم سلام الله عليها فقد كانت تتمتع بالولاية التكوينية فحسب.

والشاهد الآخر على الولاية التكوينية لمريم سلام الله عليها عدا عن تصرفها العملي في نظام التكوين، هو التصرف العملي الذي تمتلكه بصفة تنبأ عن المعجزة الآتية، وذلك حيث يقول تعالى: (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ* وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ) سورة آل عمران: ٤٥-٤٦. هذا التنبؤ هو في الواقع ظهور لمعجزة عيسى سلام الله عليه قد تحقق في والدته، إذ يقول تعالى في الآية ١١٠ من سورة المائدة عندما يبين قصة عيسى سلام الله عليه:

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا)، بعض المفسرين إستنتج من هذا الكلام أن في هذه الآية إعلام غيبي بأن عيسى سلام الله عليه لن يصل إلى الشيخوخة، إذ أنه قد تكلم فيها عن تكلمه في الطفولة والكهولة، والكهولة هي سني ما بين الشباب والشيخوخة أي فترة ما بعد سن الأربعين مثلاً.

وبالنسبة للتنبؤ بالمعجزة المستقبلية الذي هو في الواقع ظهور لمعجزة عيسى عليه السلام في أمّه، بل بالنسبة لإرتباط مريم وعيسى عليهما السلام، فقد ورد كلام في عدّة موارد من القرآن الكريم. في بيان القرآن الكريم أن عيسى ومريم عليهما السلام في الحقيقة واقعية واحدة ظهرت بصورة أم وابن إذ أنه عدا عن أنه قد عبر عن هذين الإثنين بعنوان آية واحدة، فتارة إسم مريم مقدم على إسم عيسى مثل قوله تعالى: (وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ) سورة الأنبياء: ٩١، وتارة بالعكس (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً) سورة المؤمنون: ٥٠.

والشاهد الثالث هو تمثل روح الله لمريم سلام الله عليها أثناء صيرورتها أمّاً، يقول القرآن الكريم في هذا المجال: (فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا* قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا) سورة مريم: ١٧-٢١. عندما أراد الله عز وجل أن تصبح مريم أمّاً أرسل لها روح الله، وتمثل ذلك الملاك لمريم سلام الله عليها بصورة إنسان مستوي الخلقة، عندما لاقت مريم ذلك الملاك في نشأة المثال لأول مرة قالت: أعوذ بالله منك. عندها بشرها الملاك المتمثل بالولد ومريم ولكونها

إمرأة من دون زوج تعجبت من صيرورتها أمّاً فقال ذلك الملاك: إن إرادة الله قد تعلقت في أن تصير أمّاً دونما إتصال بزوج.(١)

تفرد لا تسيد

إذن ما دام لمريم عليها السلام مقامات عالية كمقام الحجية، وعندها الولاية التكوينية، بحيث لا يدانيها على ذلك إلّا افراد قلائل منتجبين، وهي بالتأكيد كذلك، فما الداعي بعد الى أن نصرّ على أن تكون نبيّة، فهذا الأمر لن يزيدها علوّاً، فإن لمقام النبوّة أعمال وتكاليف، ولمقامها التي وصلت إليه أعمال وتكاليف. فإذا الفرد أنيط به القيام بأمر ما، وكان هو الفرد المناسب للقيام به، خصوصاً بمثل أشخاص كُمَّل كمريم عليها السلام فستكون بكل تأكيد راضية وسعيدة بالقيام بذلك الأمر، من دون النظر الى أعمال وتكاليف الآخرين، لأن أمثال أولئك العباد أو العابدات لا يهمهم من وجودهم إلّا الرضا الإلهي، فإذا تحصل الرضا بتنفيذ الأعمال المكلفين بها،فهذا هو المنى، ولن يتمنوا مقامات لم يرزقهم الله بها، لأنهم يعلمون بأن الله يختار ما يشاء، وهو يعلم حيث يجعل رسالته.

ثم إذا فرضنا أن الرجال قد تكفلت أمر النبوّة وقامت به على أكمل وجه، فما الداعي الى إدخال المرأة في هذا المقام وتكليفها بمهام النبوّة، إذا كان أمرها قد كمل بالرجال ولم يحتاج الى إتمام من قبل المرأة.

وحينئذ سيكون أمر تكليف المرأة بالنبوّة زائداً وفائضاً عن الحاجة، وهذا

(١) ولاية الإنسان في القرآن، مصدر سابق: ص٢٣٠ وما بعدها.

الأمر محال عند الله تعالى، لأنه تعالى لا يفعل الأمور الفوضوية والعبثية وإنّما خلق كل شيء بقدر وميزان، واعطى لكل شيء حسب إستعداده (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) سورة القمر: ٤٩، فمريم عليها السلام قد تفردت بشيء لا يمكن لأي رجل أن يقوم به وهذه ميزة لمريم عليها السلام، لماذا غفل عنها من يريد أن يذهب الى القول بنبوّتها، مع العلم أن ميزة التفرد هذه من أهم خصائص السيدة مريم، كونها قد كلفت بمهمة لا يستطيع أن يؤديها حتى الأنبياء. وفي ذلك الكفاية لمقام السيدة العذراء.

ومثلها في مقام التفرد أم موسى عليها السلام في تأدية دور حماية النبي موسى عليه السلام، بعد أن ربط الله على قلبها، وألقت موسى في اليم، وكذلك دور هاجر زوجة ابراهيم عليه السلام، وقيامها بالحفاظ على زرع نبوّة إسماعيل في مكة، بإعتبار أنها تلقت أمر البقاء في الوادي غير ذي زرع من إبراهيم عليه السلام، وبما أن إبراهيم كان نبياً، فيكون أمره من أمر الله تعالى، فيتحقق أمر بقائها بتكليف من الله عن طريق إبراهيم عليه السلام، ولذلك سيكون الوحي قد أتاهن ثلاثتهن- مريم وأم موسى وهاجر عليهن السلام- فهل يمكننا القول عنهن بأنهن نبيات. وإنّما كل واحدة منهن قد كلّفت بدور لا يمكن الحفاظ على النبوّة إلّا من خلالهن كونهن حملن من الصفات والمؤهلات ما صعد بهن الى أن يختارهن الله تعالى لتلك المهمة.

إذن يمكن لنا أن نصل الى أمر مهم، وهو أن بين الرجل والمرأة في بعض الحالات مقام يمكن أن نطلق عليه (مقام التفرد لا التسيد) وهو أن يكون هناك أعمال وأدوار لا يمكن أن يؤديها الرجل، وهي تختص بالمرأة فقط، وهي لا تستدعي بالتالي لتفردها بتلك الأعمال أو الأدوار لتتسيد على الرجل، ولا يمكن

أن يكون لها عصر يسمى عصر الإمومة، أو وجود في مرحلة من مراحل التاريخ المجتمع الأمومي، فهذا وهم وقع فيه من وقع عن قصد وعمد أو عن غفلة وعدم التحقق الموضوعي الكامل، فاضطر الى أن يتكلف ليضع في منهجه ذلك التصور في حالة التفرد، ويجعلها حالة من التسيد، ويقول بأن هناك في المراحل الأولى من بدء البشرية كانت المرأة هي السيدة وهي صاحبة القرار، لأن هناك أدوار رئيسية كانت تقوم بها. فلم يستطع أن يفلسف تلك المرحلة، بأنّها حالة من حالات التفرد التي امتازت بها المرأة عن الرجل، وهذا التفرد لا يخرج بحال عن طبيعة المرأة ودورها في الأسرة والمجتمع الذي هيأته لها بنيتها البيولوجية وتركيبها الجسدي.

وفي الطرف الآخر للرجال أيضـاً تفرد في تأدية بعض الأمور لا يمكن أن تؤديها المرأة، وهذا لا يستدعي بدوره أن يتسيد الرجل عليها بالقهر والقوّة. وإنّما الذي جعل هذا التفرد هو أيضـاً تكوينه البيولوجي والنفسي وتركيبه الجسدي، ولذلك أيضـاً لا يمكن لنا أن نطرح مجتمعـاً من المجتمعات التي مرّت بها البشرية ونطلق عليه المجتمع الأبوي أو البطريركي، ونحاول أن نؤطر تلك المرحلة من التاريخ بهذا الأطار الذكوري الخالص، لنعطي فكرة بأن هذا المجتمع قد يكون طارئـاً، ومن الممكن أن يأتي دور من أدوار التاريخ لتتبدل الصورة بإطار آخر، قد تفرضه المرحلة أو الطبيعة أو البشرية نفسها فيتحول الى مجتمع أنثوي مرة أخرى.

فالأمر ليس بهذه الصورة من التبدل والتحول، ولا هو حالة من حالات الصيرورة لتعطينا تحولات وعناوين تتلبس بها كل مرحلة من مراحل القيادة في التاريخ، وإنّما هناك حالة من النمط الإجتماعي إمتاز فيها الرجل عن المرأة في تسيير أمور المجتمع، وهي ليست حالة طارئة ولا هي حالة من حالات التنميط

الإجتماعي والتربية المقصودة، وإنّما كل تلك الأمور تقع ضمن قابليات ومؤهلات كل من الرجل والمرأة.

فهذا الذي نقصده من حالات التفرد، فكما أن المرأة تفردت بأن تكون هي صاحبة الرحم الذي يتربى به الطفل، وهي التي تفردت بالرضاعة، وهي التي تفردت بالأنوثة والرقة والعاطفة وغيرها من الامور الخاصة بشأنها، فهذه الأشياء لا يمكن للرجل أن يقوم بها بحال أو أن يتلبس بها في لحظة من اللحظات، كذلك الرجل قدتفرد بأمور كثيرة لا يمكن للمرأة أن تشاركه فيها كالقوة والصلابة وتحمّل الصعاب والقتال، وما يوفره من حماية لأسرته. فكذلك النبوّة حالها حال الأمور التي تفرد بها الرجل دِون المرأة، ومثل هذا التفرد هو ما حصل لمريم عليها السلام، إذ تفردت بأن يؤتى منها رسول من دون أن يقربها رجل، فهذا الدور لم ولن يستطع أي رجل أن يؤديه.

وبذلك نصل الى إيجاد نظرية (التفرد لا التسيد) التي تقول: (انّ كلًّا من المرأة والرجل قد إمتاز بادوار يتفرد بها أحدهم دون الآخر، لا على نحو تؤهله لأن يتسيد، وإنّما من أجل التوافق وإيجاد المجتمع السعيد). أي أن المرأة والرجل إن حصلت لهما مميزات وأدوار تختلف فيما بينهما، هذا لا يعني التسيد والسيطرة من قبل أحدهما على الآخر، بل أن كلًّا منهما قد تفرد ببعض الأدوار، وهذا مما تفرضه الطبيعة وتكوينهما البيولوجي. وهذا التفرد والتخصص هو الذي يتحقق من خلاله التكامل والهدف المرجو من وجود كل من الرجل والمرأة، لا أن يبحث كل منهما عن تبادل الأدوار، ظنّاً منهما أن ذلك من باب التساوي والتشابه، فالأمر ليس كذلك، ولكن السعادة لا تتحقق إلّا بعد إتقان مبدأ التخصص والتفرد وتطبيقه على أرض الواقع.

إذن بعد هذا لا داعي الى أن نذهب الى البحث، هل أن مسألة نبوّة مريم عليها السلام من عدمها مرتبطة بالمفسر أو برؤيته القرآنية، أو هل هي نتاج ثقافي قائم على النسبي الذي يرتبط بالزمان والمكان، ضمن شروط تاريخية ومن ثم تلتحق الظروف الذاتية للمفسر، لتقرأ في كل عصر ضمن قراءة وتأويل يختلف عن السابق.

وكذلك فإن مسألة نبوّة مريم عليها السلام لا يمكن إعتبارها إنها قد ولدت نتيجة تساؤلات قائمة على أنها ضمن كرامة الأولياء أو معاجز الأنبياء، فالأمر لا يتعلق بهذه الصورة النمطية البسيطة، فهو أعمق من ذلك، وله دلالات سياقية تظهر من نفس مفردات القرآن الكريم التي تعرضت لمريم عليها السلام وعذريتها وما قدّمته من ولادة إستثنائية، فعلينا البحث عن تلك الدلالات الهامة في تشكيل ثنائية الذكر والأنثى، ودور كل منهما حسب مقتضيات الإحتياج الإنساني للبقاء والتمركز نحو أصل الهداية ومنبعها الذي يظهر ويتجلى حسب الظروف الإجتماعية ومفرداتها القاهرة التي تحاول أن تزيح وتبعد آثار النبوّة عن البشرية وإحتياجاتها للتكامل وتحقيق أهدافها التي وجدت من أجلها.

وعندها سيتضح جليّاً إن مفردة مقام مريم عليها السلام الذي أراد الله تعالى بيانه في كتابه الكريم، ما هو إلّا بيان لدور مهم ومكانة عظيمة قد وصلت اليها المرأة، لا يمكن للرجال الدنو منها. وهو بذلك لوحده كرامة ومنزلة لا تحتاج بعدها مريم عليها السلام لأن نطلق عليها نبيّة او هل هي نبيّة فعلاً أو لا. وذلك لأننا يجب أن ننظر الى الفعل الذي قامت به وعلى أكمل وجه، فهل هو لا يؤتى إلّا إن كانت نبيّة أم لا يمكن أن يؤتى بلا عنوان النبوّة؟ فإذا كان يتحقق بلا عنوان النبوّة، فلِمَ هذا البحث الذي لا يقوّم لنا شيئاً يحرك فيها الإمتياز، ومن ثم البحث

عن دواعي النبوّة فيها. وحينئذ سنتكلف كثيراً دون أن نجد شيئاً من تلك الدواعي في مريم عليها السلام.

فإذا كان الأمر كذلك، فإن إقصاء مريم عليها السلام من النبوّة هو ليس إقصاء للنساء من السلطة الدينية، كما يذهب البعض الى ذلك، فإننا لا نتكلم عن أية سلطة دينية هنا، والدليل إنّ مريم عليها السلام نفسها لم تمارس أية سلطة دينية، ولم يطلب منها أن تمارس ذلك في حياتها. فكيف نريد أن نستدل بنبوّة السيدة مريم على إثبات السلطة الدينية للنساء، فإن للنساء شأن آخر قد يوازي بأهميته تلك السلطة، إن لم يكن في بعض الأحيان هو المولد والموجد لصاحب هذه السلطة، بأسباب وظروف خاصة. ولذلك علينا أن لا نتّهم من يذهب الى القول بعدم نبوّة مريم الى أنّه اعتمد على حكم نابع من أعراف الإسلام الكلاسيكي البعيد عن قابلية الإسلام المعاصر الذي يتماشى مع كل متغير وبإستمرار لا يعرف التوقف.

ثم نحن لسنا بحاجة الى أن نبحث من أجل إثبات تلك النبوّة عن التماثل والتجانس بين حال النبي ودراما قصة مريم عليها السلام، كما ذهبت صاحبة كتاب (السيدة مريم في القرآن الكريم) معتمدة على الدراسة التي قدّمها عدنان المقراني في كتابه (تأملات مريمية) الى أن هناك تجانس بين عذرية مريم وأميّة محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا بالتالي يستدعي نبوّة مريم عليها السلام، فهي حملت بكلمة من الله بغلام دون أن يمسسها بشر ومحمد صلى الله عليه وسلم ضمن كلام الله وتلقى البشارة بالقرآن دون معرفة بالقراءة والكتابة. ولقد كانت مريم يتيمة كفلها زكريا، وكذلك محمد يتيماً كفله جده عبد المطلب، ويقابل تعبد مريم بالمحراب تحنث محمد صلى الله عليه وسلم في غار حرّاء، فكلاهما تحضير

روحي لتلقي البشارة بالكلمة وحملها وتحملها. مضافاً الى إنّ المبشر بالكلمة في كلتا الحالتين هو روح القدس، الملك جبريل الذي يظهر بشكل رجل.(١)

فالحقيقة أن التجانس والتماثل إن وجد بين شيئين فهذا لا يدل على الإتحاد في الحكم فيما بينهما، لأن مجرد التشابه لا يدل على وجود كل الصفات التي يحملها الفرد الأول عند الفرد الثاني، ولا العكس أيضاً. مضافاً الى أن الأحكام لا تصدر على مجرد التماثل والتجانس بين الشيئين، إذ في الغالب اذا ما وجد شيئان وإن كانا قد تشابها في بعض مفردات البنى الوظيفية لكل منهما، لكنهما من ناحية الأحكام الخاصة بهما يختلفان، وهذا من المفروض أن يكون من البديهيات في عالم الفلسفة والعقائد والفقه وحتى من الناحية الطبيعية، فإن الأحكام لا تصدر على الأشياء لمجرد التشابه والتماثل فيما بينها، ولعل كثير من الناس وقعوا في مثل هذه الأخطاء، نتيجة هذا القياس السطحي البسيط. فمثل هكذا مقاربات وتشابه يكون لها محلاً ومقاماً في الدراسات والقراءات الأدبية، فهي تعطي مجالاً للأديب بأن يدع لقريحته ووجدانياته الصورية والخيالية، بأن تحلق بعيداً في أفق الإنسانية، وكيفية أن مفرداتها الصالحة، سواء كانت من الأنبياء أو الأولياء، أنها تلتقي بكثير من المواقف وتتحدد في تحركاتها وأقوالها، كيف والله القائل (لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) لتشكل بالتالي صورة أدبية رائعة، لا يمكن للوجدان ولا الخيال ولا الواقع الإحاطة بها، مالم يخرج الفرد من دائرة ذاته الضيقة محلقاً في معراج التخلي عن متعلقات وزوائد هذا الوجود الدنيوي، ليمكن بصيرته من أن ترى الصورة الحقيقية من مفردات التشابه والتماثل بين الأولياء والأنبياء.

---

(١) ينظر: السيدة مريم في القرآن الكريم: حُسْن عبود، نشر دار الساقي، بيروت، ط١، ٢٠١٠م: ص٢٤١.

الفصل الخامس

الدراسات الجندرية حلول أم إثارة مشاكل

الدراسات الجندرية حلول أم إثارة مشاكل

الجندر/ الجنوسة، هو الآن أحد المصطلحات الأكثر تعقيداً، والأكثر تقلقلاً، في اللغة الإنكليزية، كلمة تبرز على نحو غير متوقع في كل مكان، مع أن استعمالاتها تبدو متغيرة دوماً.(١)

والجندر أو علم النوع الإجتماعي أو الجنوسة حسب بعض الترجمات في العربية- بالإنجليزية (Gender) هو علم الجنس السوسيولوجي/ الإجتماعي، ويعني المصطلح دراسة المتغيرات حول مكانة كل من المرأة والرجل في المجتمع بغض النظر حول الفروقات البيولوجية بينهما، وفقاً لدراسة الأدوار التي يقومان بها. أي أن المرأة والرجل ينبغي النظر إليهما من منطلق كونهما إنساناً بغض النظر عن جنس كلّ منهما، وهذا العلم لا يخص المرأة فحسب وإنما يعني الرجل كذلك.(٢)

وهناك تعريف للجندر ينطوي على تكريس الوعي بالتمايز بالإنتماء البيولوجي الجنسي للشخص وبين هويته الإجتماعية كرجل أو كامرأة، أي استطراداً للتفريق بين المحددات البيولوجية لجنس الإناث أو الذكور وبين المحددات الإجتماعية والثقافية للواحد منهما. إن طبيعة الرجل وطبيعة المرأة تكسب الواحد من دون الآخر صفات نفسية ومؤهلات إجتماعية ومهنية

(١) الجنوسة: ديفيد غلوفر- كورا كابلات، ترجمة عدنان حسن، نشر دار الأحرار، سورية، ط١، ٢٠٠٨م: ص٧.

(٢) علم إجتماع الجندر: د. معن خليل العمر، نشر دار الشروق، الأردن، ط١، ٢٠١٥م: ص١٧.

ومهارات وتسوّغ سلوكيات لدى أحدهما وتحظرهما عند الآخر، الى ما هنالك، والناس الذين لا يشملهم هذا الوعي لا يمكن حصرهم بفئة معينة. فالمسألة لا تتعلق بكونهم متعلمين أو غير متعلمين، من طبقة اقتصادية أو إجتماعية معينة، متأثرين بالثقافة الغربية أم لا، من الرجال أو من النساء. فالقصور عن وعي التمايز بين الهويتين البيولوجية والإجتماعية ليس تابعاً بالضرورة لمتغيرات شخصية يمكن رصدها، وشروط هذا الوعي غير بسيطة.

فالهوية الجندرية تعني قناعة الشخص الثابتة بإنتمائه لواحد من الجنسين تتشكل في زمن الطفولة – من سن السنتين الى سن الأربع سنين- بحيث يصعب التخلص من الإنطباعات الأولى المحيطة بها في هذا الصدد هذه الهوية تتشكل بالإختلاف عن الآخر، كأن يحدد الصبي نفسه بأنه عكس الأنثى -لا تبك كالصبيان، لا تفرجي فخذيك- لذلك فإن التقاطع بين السمات والأدوار وغيرها من المحددات الإجتماعية والثقافية للجنسين لدى الشخص كما هي صعبة القبول لدى الجماعة.(١)

ومع بداية التسعينات من القرن العشرين، بدأ مفهوم الجندر يدخل حيز التداول في البيئة الثقافية العربية عبر أدبيات المنظمات الدولية والمؤسسات الأهلية غير الحكومية، وعلى الرغم من غموض المصطلح وغياب التعريف الواضح لمضمونه ودلالاته حتى لدى الكثير من نشطاء هذه المنظمات أنفسهم، لكونهم جميعاً يعلمون أن كلمة (الجندر) هي المفتاح السري للحصول على الدعم والتمويل من منظمات الأمم المتحدة والدول المانحة التي تدعم ما يسمى بـ (العمل التنموي) والحقيقة إن عدم معرفة هذه المنظمات بالمعنى الدقيق لكلمة

---

(١) المصدر نفسه: ص٢٧ بتصرف.

(الجندر) لا يعود فقط الى عدم دراية العاملين فيها فقط، بل هي نتيجة لغياب تعريفات واضحة لمعنى المصطلح وحقيقة مضامينه، حيث تسعى منظمات الأمم المتحدة ذات الصلة والمنظمات الأهلية والنسوية للزج في المصطلح في ميدان التداول مع شروحات سطحية ومراوغة لمعناه ومضمونه.

ففي عام ١٩٩٤م عقد (مؤتمر القاهرة للسكان) والذي أثار اعتراضات كبيرة في حينها، وقد تكرر مصطلح الجندر في بيانه الختامي (٥١مرة)، وأمام عدم وضوح معنى هذا المصطلح الجديد فقد تمت ترجمته وتعريفه: (بأنه نوع الجنس من حيث الذكورة والأنوثة) وتم تحريره على هذا الأساس. وفي إعلان بكين الصادر عن (مؤتمر بكين للمرأة) عام ١٩٩٥م تكررت كلمة الجندر (٢٤٥مرة) مما دفع وفود الكثير من الدول للمطالبة بتعريف دقيق للمصطلح، وتم تشكيل فريق عمل لوضع ترجمة دقيقة له، لكن إصرار الدول الغربية على تمريره بمضامينه الحقيقية دون تعريفه وتعريته، أصرّت على عدم تعريفه وعلى استخدامه كما هو، فخرجت لجنة التعريف بإقرار عدم تعريفه واستخدامه كما هو كما أرادت الدول الغربية (definition of the term Gender The non) وكان ذلك يعني أن يتم استخدام المصطلح بمعناه الذي يرد في استخدامات الأمم المتحدة.

علماً ان الدول التي طالبت بتغيير مصطلح الجندر، أرادت استخدام المصطلح المتفق عليه وهو (الجنس)، فتبين بعد ذلك أن لفظ الجندر يراد به أمر آخر يخالف الفطرة البشرية السوية، لأنهم يقصدون به النوع، أي إلغاء الفوارق بين الذكر والأنثى، بحيث يكون ردّه الى النوع الإنساني، أي أن الذكورة والأنوثة عبارة عن نوع واحد، بمعنى أن الإنسان يولد كإنسان فقط.

تعريف الجندر:

مصطلح الجندر هو مصطلح غربي، ولم يعرّف حتى الآن تعريفاً دقيقاً وحاسماً، وهو على خلاف الأعراف البحثية والعلمية التي تواطأ العلماء على وضع التعريفات والبناء عليها، وسبب عدم وضع تعريف واضح لهذا المصطلح لما يحمل في داخله مضامين خطيرة وغريبة عن الطبائع البشرية.

والجندر (Gender) كلمة إنجليزية مشتقة من أصل لاتيني، وتعني لغوياً (Genus) أي (الجنس من حيث الذكورة والأنوثة). وهناك تعاريف متعددة للجندر، فيعرفه د. معن خليل العمر: (هو التمييز بين الإنتماء الجنسي البيولوجي وبين التضمينات الثقافية والإجتماعية لذلك الإنتماء. أي المحددات الثقافية/ الإجتماعية للإنتماء الجنسي البيولوجي، وذلك عبر إبراز التضمينات الإقتصادية والسياسية والقانونية ... لذلك الإنتماء).[1]

وقد عرّفته وثيقة صادرة عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي (UNIFEM) بأنه: (مصطلح النوع الإجتماعي الذي يشير الى الخواص الإجتماعية والمشاركة في النشاطات الإجتماعية كفرد في جماعة محددة. ولأن هذه الخواص هي سلوك وتصرفات يتم تعلمها، فهي قابلة للتغير، وهي تتغير بالفعل عبر الزمن، وتختلف بإختلاف الثقافات.[2]

ويوضح تعريف الموسوعة البريطانية لهذا المصطلح المعاني السابقة حيث

---

(١) المصدر نفسه: ص٢٧.

(٢) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي/ مجموعة التعلم والمعلومات، تحليل النوع الإجتماعي، كانون الثاني 2000، ص68.

يعرّف الجندر بكونه: (شعور الإنسان بنفسه كذكر أو أنثى، وفي الأعم الأغلب فإن الهوية الجندرية والخصائص العضوية تكون على إتفاق أو تكون واحدة، ولكن هناك حالات لا يرتبط فيها شعور الإنسان بخصائصه العضوية، ولا يكون هناك توافق بين الصفات العضوية وهويته الجندرية -أي شعوره الشخصي بالذكورة أو الأنوثة-) وتضيف: أن الهوية الجندرية ليست ثابتة بالولادة -ذكر أو أنثى- بل تؤثر فيها العوامل الإجتماعية كلما نما الطفل.[1]

وتواصل الموسوعة البريطانية تعريفها للجندر، كما أنه من الممكن أن تتكون هوية جندرية لاحقة أو ثانوية، لتتطور وتطغى على الهوية الجندرية الأساسية - الذكورة والأنوثة- حيث يتم اكتساب أنماط من السلوك الجنسي في وقت لاحق في الحياة، إذ أن أنماط السلوك الجنسي وغير النمطية منها، أيضاً تتطور لاحقاً حتى بين الجنسين ...!.

وقد اتفقت مجموعة الخبراء في مركز المرأة للتدريب والبحوث (كوثر) على تعريف النوع الإجتماعي (الجندر) على أنه: اختلاف الأدوار (الحقوق والواجبات والإلتزامات) والعلاقات والمسؤوليات والصور ومكانة المرأة والرجل التي يتم تحديدها إجتماعيا وثقافيا عبر التطور التاريخي لمجتمع ما وكلها قابلة للتغيير.[2]

ويعرف قاموس أوكسفورد الإنجليزي مفهوم الجندر على أنه: كناية عن

---

(١) الموسوعة البريطانية، مادة: جندر.

(٢) الذكورة والأنوثة في القرآن الكريم: د. فرح الفاضلي، نشر دار الرافدين، بيروت، ط١، ٢٠١٨م: ص٢٨ نقلاً عن (النوع الإجتماعي، لسيما عدنان، ص٦).

جنس الإنسان في استخدامه الحديث – ولاسيما من المنظور النسوي- وغالباً ما يقصد من استخدامه التشديد على الفوارق البيولوجية بين الجنسين.

أما قاموس التراث الأمريكي في طبعته الخامسة فيعرّف مفهوم الجندر بنفس الطريقة التي يعرّف فيها مفهوم الجنس البيولوجي، لكنه يضع تعريفاً آخر بالإستناد الى هوية الفرد الذي (لا يكون أنثى بالكامل أو ذكراً بالكامل).

أما إدارة الغذاء والدواء (FDA أو USFDA) وهي وكالة تابعة لوزارة الولايات المتحدة لخدمات الصحة وحقوق الإنسان، فقد اعتادت على استخدام مصطلح (الجندر) بدلاً من الجنس للإشارة الى الإختلافات الفسيولوجية بين الذكور والإناث، ولكنها عدلت عن موقفها هذا في عام ٢٠١١م، فبدأت بإستخدام مصطلح الجنس بإعتباره تصنيفاً بيولوجيا، بينما استخدمت مصطلح الجندر ليعني: (تمثيل الشخص لذاته بصفته ذكراً أو أنثى، أو كيفية تجاوب المؤسسات الإجتماعية مع هذا الشخص بناءً على تمثيله الفردي لجندره).

ويمكن الخروج من تلك التعريفات بعدّة مفاهيم منها:

أولاً:

إن الهوية الذكورية أو الأنثوية لا يمكن عدّها من الأمور الثابتة بالولادة، وإنّما تتغير بتأثير البيئة والعوامل الإجتماعية المتعلقة بالتنشئة والتربية المنمطة، وفي هذا الإتجاه تقول الكاتبة والمفكرة الوجودية (سيمون دي بيفوار): لا يمكن لأي حدث بيولوجي أو نفساني أو اقتصادي أن ينفرد بتحديد الشكل الذي ستتخذه الأنثى البشرية في قلب المجتمع، لكن مجموعة الظروف الحضارية هي التي تكوّن

هذا المنتوج المتوسط بين الذكر والخصي الذي نسبغ عليه صفة الأنوثة عند المرأة.

إن الجسد لدى البنات والصبية لا يخرج عن كونه الإشعاع الذي يعبر عن وحدة الشخصية ويميزها عن غيرها، كما أنه يشكل الأداة التي تساعد على تحسس العالم وتفهمه. إنهم يتحسسون ما يحيط بهم بواسطة العيون والأيدي، وليس بأعضائهم التناسلية، فلا فرق في ذلك بين الطفل والطفلة والفتاة والفتى.[1]

وعلى هذا الأساس، وهذا الفهم فإن مسألة الذكورة والأنوثة ليست قضية عضوية، بحيث ترتبط به بيولوجياً، وإنّما هي قضية إجتماعية رابطها الرئيس التأثر بالعادات والطبائع.

ثانياً:

هناك إحتمالية بأن تتطابق الهوية العضوية للفرد – أي كونه ذكراً أم أنثى من الناحية البيولوجية- مع ما تميل وتنزح إليه نفسه، وما يريد أن يؤديه من أدوار إجتماعية، بينما في أحيان أخرى قد لا تتطابق تلك الهوية العضوية للفرد مع طبيعته النفسية، فقد يكون ذكراً ولكن ميوله أنثوية، وقد يكون الفرد أنثى من الناحية العضوية ولكن ميولها النفسية ميولاً ذكرية.

ولذلك ميزت منظمة غلاد[2] بين الجنس والجندر في الدليل المرجعي لوسائل

---

(١) الجنس الآخر: سيمون دي بوفوار، ترجمة ندى حداد، نشر دار الأهلية، الأردن، ط١، ٢٠٠٨م: ص٦١.

(٢) منظمة غلاد: هي منظمة التحالف ضد التشهير باللوطيين والسحاقيات، وهي تقدم الدعم القانوني للمثليين وثنائي الجنس، والمتحولين جنسياً والشواذ وغيرهم.

الإعلام الذي نشرته مؤخراً: يعتبر الجنس -تصنيفاً للأشخاص على أنهم ذكوراً أم أناثاً- عند الولادة، إذ يستند مفهوم الجنس الى الخصائص الجسدية مثل الكروموسومات والهرمونات والأعضاء التناسلية الداخلية والأعضاء الجنسية، بينما تتجسد الهوية الجندرية في إحساس الفرد الداخلي بأنه رجل أو امرأة أو فتى أو فتاة. ولذلك تجزم بعض النساء الفيلسوفات، بأنه لا يمكن تحديد جندر الشخص من خلال جنسه إطلاقاً.

ثالثاً:

بما أن الجندر يمثل النوع الإجتماعي، فإنه من المفروض أن تكون العلاقات الجنسية الشاذة بين النساء أو بين الرجال – المثليين- ما هي إلّا مجرد علاقة جندر مع جندر آخر، فلماذا إذاً تلك الإعتراضات وعدم الرضا على مثل هكذا نوع من العلاقات.

وفي الحقيقة لقد كانت لفلسفة هربرت ماركيوز المسماة (النظرية النقدية) دور كبير في الإباحية والجنسانية، حيث إن من أُسسها، أنها تؤكد على انعتاق الغرائز الجنسية.[1]

ولقد استند (ماركيوز) على آراء الفلاسفة الذين دعوا الى معارضة القمع أمثال (نيتشه)، (فورييه)(*)، (فردريك فون شيلر)(**)، وقد استهدف وراء معالجته

---

(١) ينظر النظرية النقدية عند هربرت ماركيوز: د. حسن محمد حسن، نشر دار التنوير، بيروت، ط١، ١٩٩٣م: ص١٢٥.

(*) (شارل فورييه): (١٧٧٢-١٨٣٧م) فيلسوف إجتماعي فرنسي، إشتراكي المذهب.

(**) (فردريك فون شيلر): (١٧٥٩-١٨٠٥م) شاعر ألماني، وكاتب مسرحي، ومؤرخ وفيلسوف، ألّف مجموعة من الكتب والقصص والمسرحيات، من مؤسسي الأدب الألماني الحديث، ويحتل المكانة الثانية بعد (غوته) وكان معاصراً له.

لهؤلاء المفكرين الثلاثة الكشف عن الأفكار والإشارات التي تنم عن دعواتهم للإحتجاج الجنسي، وتأكيد الدفع الشهواني. ويعتبر (ماركيوز) أن التحرر الجنسي عنصر مكمل ومتمم لعملية التحرر الإجتماعي.

وتظهر كتابات الثلاثينات تعاطفاً واضحاً مع المذاهب المادية وخصوصاً مذهب اللذة Hedonism ويدعو في قضية التحرر الجنسي الى إطلاق الحرية الجنسية بلا حدود، سواء في ناحية الكم أو الكيف، ويرفض ربط الجنس بالتناسل، ويقرّ الإنحرافات الجنسية (الشذوذ) ويمجدها بإعتبارها ثورة وتمرد ضد قمع الجنس وربطه بالنسل، وضد مؤسسات القمع الجنسي، وفصّل هذه العقيدة في كتابه (إيروس والحضارة).(١)

رابعـاً:

إنّ الأنوثة والذكورة بالمعنى العضوي منفصلة عن البنية النفسية والأدوار الإجتماعية للأفراد، وأن هذه الأدوار هي مفاهيم إجتماعية مكتسبة، وليس لها علاقة بالطبيعة العضوية والفسيولوجية لكلا الجنسين، فالتربية الإجتماعية هي التي تحدد الأدوار الإجتماعية وبالتالي فالمجتمع والتربية هما العاملان الحاسمان في تكوين النفسية الأنثوية أو الذكورية بغض النظر عن الطبيعة العضوية، وبناءً عليه فإن إختلاف التربية والمفاهيم المجتمعية كفيل بإزالة الفروق كمقدمة لإعادة توزيع الأدوار الإجتماعية في كافة الميادين بما فيها الأسرة، وبما يكفل المساواة الحقيقية.

---

(١) ينظر حركات تحرير المرأة من المساواة الى الجندر: مثنى أمين الكردستاني، تقديم د. محمد عمارة، نشر دار العلم، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م: ص١٤٥.

والحقيقة أن هناك منظمات دولية تعمل بجد لجعل الجندر حالة طبيعية، بحيث يتم التعامل معها كما يتعامل مع العناصر الفيزيائية عندما تتغير وتتحول من حالة الى حالة أخرى بحسب تغير الظروف المحيطة بها ولذلك سوف يصلون الى حالة من حالات عدم الثبات، حيث لا ذكورة ولا أنوثة إلّا من الناحية العضوية، وإنما هناك فردان يمكنهما تحت ظروف معينة أن يغير كلٌ منهما من حالته البيولوجية الى ما تميل إليه نفسه وسيكون ذلك بإنسيابية لا يعترضها أي من عوامل المنع والتعارض، لأن المسألة متعلقة بالتربية والمحيط الإجتماعي ولا دخل للمظهر الخارجي بتشكيل الهوية. وبذلك سوف يغفل عن كل المقومات البيولوجية التي خرج بها الفرد في هذا العالم الفسيح.

وقد بدأت تلك المنظمات بعقد المؤتمرات وطرح إتفاقيات أرادت أن تجذر بها لهذا المصطلح، ساعية لأخذ موافقة أكبر عدد ممكن من الدول وإمضائها للمقررات التي تريد الخروج بها، أما الدول التي لا توافق على تلك المقررات، فهناك عدّة طرق يمكن اتخاذها كواجهة للضغط عليها من أجل إرغامها على التعامل مع هذا التحول الجديد، وعدم الإعتراض على أية من فقراته، وإليك الآن نظرة سريعة لأهم المؤتمرات والإتفاقيات بهذا الخصوص وهما:

١- مؤتمر السكان والتنمية في القاهرة.

٢- اتفاقية سيداو (CEDAW).

مؤتمر السكان في القاهرة

عقد مؤتمر السكان والتنمية في القاهرة (٥-١٣/ ٩/ ١٩٩٤) بدعوة من الأمم المتحدة وإشراف مباشر منها، وشارك فيه مندوبون من مختلف دول العالم، وقد كان هذا المؤتمر تتويجاً لمؤتمري السكان في بوخارست ١٩٧٤، ونيو مكسيكو ١٩٨٤، وصادف إنعقاد المؤتمر عقد الأمم المتحدة للقانون الدولي ١٩٩٠-١٩٩٩، تم التحضير للمؤتمر (٣) سنوات عقدت فيها ستة إجتماعات للخبراء، وخمس مؤتمرات إقليمية، وأدخل عليها تعديلات في نيويورك.

ومن ناحية تناول المؤتمر لموضوع المرأة بشكل أساسي فإنه يأتي في سياق مجموعة من المؤتمرات التي تناولت المرأة، ابتداء من المؤتمر العالمي الأول للمرأة وكان شعاره (رفع التمييز ضد المرأة) والذي عقد في مكسيكو ستي عام ١٩٧٥، ومروراً بمؤتمر كوبنهاكن عام ١٩٨٠/ ومؤتمر بكين للمرأة ١٩٩٥، ووصولاً الى مؤتمر الإسكان والإعمار ١٩٩٦، وكل هذه المؤتمرات تنطلق من أهداف محددة، وتحكمها فلسفة واحدة وتلتزم استراتيجية طويلة المدى في تطوير وسائلها، وتستظل بمظلة الأمم المتحدة، وحراسة النظام العالمي الجديد بكل ما يمتلك من قدرات عالية، وسلطان سياسي قاهر، قادر على أن يفرض ما يريد من مبادئ وقيم.

وكانت وثيقة المؤتمر مكونة من مائة وإحدى وعشرين صفحة من القطع الكبير موزعة على (١٦) ستة عشر فصلاً، أخذ الجنس والإجهاض والحقوق التناسلية الإباحية وتعليم الجنس للمراهقين... مائة صفحة، وبقيت الصفحات الأخرى العشرين لقضية التنمية. وفي هذا دلالة على أن جوهر المؤتمر ليس للتنمية وإنما إضافة الكلمة هذه مع صفحاتها القليلة عبارة عن خداع وتضليل

لتسويق افكار بقية الصفحات، وكلمة التنمية هذه ديكور للتجميل والجذب للدول النامية التي تبحث عن التنمية.

كان مؤتمر السكان هذا أكثر المؤتمرات الدولية مساساً بعقائد الشعوب، وتركز الخلاف في الغالب على ما جاء في الفصلين السابع والثامن، ونوقش الإجهاض مدة ثلاثة أيام دون الوصول الى إتفاق وصيغة تحظى بالإجماع. ويمكن ملاحظة ذلك من حجم وعدد التعديلات التي طرحت، حيث طرحت مصر (١١) تعديلاً وبعض الدول الإسلامية أوصلتها الى (٧٠) تعديلاً.

مؤتمر السكان هذا كان يوهم – بحسب العنوان وبعض الصياغات- الى أن المدخل لحل مشاكل زيادة السكان هو مدخل تنموي، ولكن في الحقيقة أراد التوصل الى تحديد النسل والسكان عن طريق موانع الحمل والإجهاض، والعلاقات الجنسية خارج الزواج والتثقيف الجنسي للناشئة والمراهقين.

ولقد عقد المؤتمر في (مصر) وإختيار مواقع هذه المؤتمرات لا يأتي عبثاً دون دراسة وأغلب الظن أن هذا الإختيار عنده دلالات: منها أن المقصود الأكبر بتحديد السكان ... وقيم العولمة الإجتماعية هم المسلمون والأفارقة، ومنها السعي للإستفادة من موقع مصر وسمعتها الإسلامية وريادتها الفكرية لإسباغ نوع من الشرعية والمقبولية على المؤتمر. ومنها أيضاً موقع مصر بجوار إسرائيل وفي هذا إشارة واضحة في أن ضمان أمن اسرائيل جزء من مخطط الحد من النسل، وقد شاركت منظمات إسرائيلية في المؤتمر فعلاً.

وقد نستغرب جميعاً من عقد هذه المؤتمرات تحت ظل الأمم المتحدة ولكن إذا عرف السبب بطل العجب، تقول البروفسيرة (كاثرين بالم فورث): إن

لجنة المرأة في الأمم المتحدة شكلتها امرأة اسكندنافية كانت تؤمن بالزواج المفتوح، ورفض الأسرة وكانت تعتبر الزواج قيداً وأن الحرية الشخصية لابد أن تكون مطلقة، وكانت تقول – أي كاثرين- إن المواثيق والإتفاقيات الدولية التي تخص المرأة والأسرة والسكان تصاغ الآن في وكالات ولجان تسيطر عليها فئات ثلاث:

١- الأنثوية المتطرفة.

٢- أعداء الإنجاب والسكان.

٣- الشاذين والشاذات جنسياً.

فكيف تخرج القوانين والمواثيق إذا خرجت من هذا الثالوث المرعب؟ وربما هذا يعطينا تفسيراً لغرابة القوانين ومخالفتها لكل الأديان والعقائد، ووقوف الأديان وجمعيات الأسرة والمنظمات الحقوقية، والمنظمات المضادة لأفكار الأنثوية في الغرب، والكثيرين من علماء الأخلاق وعلم الإجتماع والفلسفة... الخ، ضد المؤتمر حتى قالت منظمة ألمانية معارضة: (أوقفوا هذا المؤتمر القاتل)، ووقفت الفاتيكان والكنيسة الأرثوذكسية ومجمع الكنائس العالمي بجانب الأزهر ورابطة العالم الإسلامي والإخوان المسلمون... موقفاً واحداً في رفض وإدانة مثل هذه المؤتمرات التي تريد القضاء على البقية الباقية من قيم الأديان السماوية وسلام المجتمعات.

وتخفيفاً لحدة المعارضة، وتهدئة للأجواء الثائرة، قالت (نفيسة صادق) رئيسة المؤتمر: قد تكون هناك أخطاء في الترجمة!! ثم أن هذه وثيقة وإعلان وليست إتفاقية ملزمة، وللدول الحق في تنفيذ قوانينها المحلية).

ولكن الحقيقة خلاف ذلك تماماً لأن الترجمة قامت بها خبراء اللجنة نفسها التي قامت بصياغة الوثيقة، ثم إن الوثيقة تكلف الأمم المتحدة ووكالاتها بمتابعة بنودها، وفور انتهاء المؤتمر قامت بعض الدول والمنظمات بالمسارعة الى ربط المساعدات الإنمائية بالحد من الإنجاب الوارد في الوثيقة، فالأمر ليس بالبساطة التي تخيلتها أو تريد تصويرها السيدة رئيسة المؤتمر، لأن الأمر له ما بعده، وقضية التدرج واضحة في تسويق هذه المواثيق التي ستتحول الى قوانين ملزمة إذا مرت دون معارضة قوية.(١)

بعض المفاهيم التي وردت في بنود الوثيقة:

يتحدث الفصلان الأول والثاني عن الإطار العام لعرض قضايا المؤتمر الرئيسي والتي هي قضية النمو المطرد للسكان، ومشكلات خدمات تنظيم الأسرة، وتضمن الفصل الثالث التدابير الموصى باتخاذها لمواجهة المشكلة، أما الفصل الرابع فيتحدث عن المساواة بين الجنسين، ويتحدث الفصل الخامس عن الزواج والأسرة وتوزيع العمل فيها، ويناقش الفصل السادس قضايا استغلال الأطفال، ورعاية المسنين، والمعوقين ودمجهم في مناشط الحياة، أما الفصلان السابع والثامن فقد تناولا أكثر الأمور حساسية وإثارة للجدل وهي الحديث عن الصحة التناسلية، والإجهاض ، والصحة الإنجابية، والجنس المأمون... وتناول الفصل التاسع والعاشر موضوع الهجرة والآثار الإجتماعية لها وكذا التهجير

---

(١) ينظر: حركة تحرير المرأة من المساواة الى الجندر: مثنى أمين الكردستاني، تقديم د. محمد عمارة، نشر دار العلم، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م: ص٢٨٩ وما بعدها، وينظر عمر عبيد حسنة في مقدمة كتاب (وثيقة مؤتمر السكان والتنمية)، وينظر السياسة الدولية العدد ١٨-اكتوبر ١٩٩٤م. وقضايا دولية، العدد (٢٤٧).

القسري، والتطهير العرقي... وتناول الفصل الحادي عشر مناشدة القادة الدينيين والسياسيين والحركات النسائية للعمل على تعبئة الرأي العام لتنفيذ الوثيقة!! والفصل الذي بعده فيه حديث عن دعم تكنلوجيا متطورة لتحليل البيانات والإحصائيات المتعلقة بالسكان في الدول.

ولا شك أن هذه الوثيقة وبقية المواثيق والإتفاقات الدولية تتضمن الكثير من الأمور الجيدة والمفيدة والتي تشكل أرضية مشتركة يمكن للبشرية جميعاً أن تقف عليها سواء ما يتعلق منها بالمرأة وتحسين أوضاعها أو ما يتعلق بمشاكل المهاجرين أو البيئة وغيرها، ولكن المشكلة تكمن في خلط هذه الأمور الطيبة ببعض الأمور والآليات الخبيثة التي لا يمكن الإتفاق عليها أبداً، وقد وردت في هذه الوثيقة أمور من هذا النوع وهي لا شك انعكاس لفكر الأنثوية المتطرفة ومن يشايعها، ومنها:

١- الحديث عن المساواة المطلقة بين الجنسين، وإلغاء جميع الفوارق بينهما وهذا يعني إلغاء سنة كونية، وإلغاء خصوصية الجنسين، ووظائفها في الوجود، ولو كان هذا الإلغاء ممكنا في الواقع بأن نجعل الجنسين جنساً واحداً، لكان من المنطقي بعد ذلك سن قوانين على وفق ذلك، ولكنه مستحيل مهما غيرنا من طرق التنشئة والتربية، ثم نسأل هل من المفيد لسعادة البشرية أن نخلط أو نلغي أدوار الجنسين؟ وهل هذا هو المطلوب؟ أم المطلوب هو إنصاف المرأة وإعطائها الفرصة لتتمتع بالعدل؟ من غير تحيز ذكوري في تفسير العدل طبعاً.

فإن هذه الوثيقة تصف دور المرأة في استمرار الحياة وتربية الأجيال وتوفير الأمن الأسري والمجتمعي بالأدوار النمطية والتقليدية التي لابد من تغييرها،

وتطالب بمسؤوليات متساوية للرجل مع المرأة في رعاية الأولاد في البيت، حتى طالبت في الفصل الخامس بإعطاء ما أسمته بـ (إجازة الأسرة) للرجل مثل (إجازة الأمومة) للمرأة!! وبعض دعاة إلغاء التمييز طالبوا بضرورة وجود صورة للرجل يرضع بالزجاجة، في مقابل صورة الأم وهي ترضع (عند الحديث عن تنقية الكتب المدرسية من التمييز).

وفي مسائل المساواة أيضاً وفي الفصل الرابع هناك حديث عن المساواة بين الجنسين في حق الملكية، وفي هذا إشارة ضمنية الى موضوع المساواة في الميراث، وإذا لم تصرح هذه الوثيقة بذلك فإن (وثيقة مؤتمر بكين) قد صرحت بذلك حين ذكرت في الفقرة (٢٧٤/ د) (إزالة ما تواجهه الطفلة من غبن وعقبات فيما يتعلق بالإرث حتى يتمتع كل الأولاد بحقوقهم دون تمييز، وهذا ما دعا الكثير من الدول الإسلامية الى التحفظ على هذه الفقرة بما فيها مصر وليبيا وتونس والمغرب وأندونيسيا.

٢- تماشياً مع الرؤية الغربية في إباحة الجنس وحرية ممارسته بشرط أن يكون مأموناً، أي لا يؤدي الى إنجاب ولا الى أمراض تناسلية، لكافة الأعمار من غير فرق بين المراهق والناضج، ومن غير فرق بين المتزوج وغيره، فإن الوثيقة تتحدث عن إلغاء القوانين التي تحد من ممارسة الأفراد لنشاطهم الجنسي بحرية، وإختيار، وتتحدث عن حماية الحاملات سفاحاً، لأن ممارسة الجنس والإنجاب حرية شخصية وليست مسؤولية جماعية.

وتتحدث عن حقوق المراهقين في الجنس وممارسته بل توفير المعلومات الجنسية وما يسمى بـ (Sex Education) لهم، وعدم السماح للوالدين في أن يحولوا بينهم وبين مقدمي خدمات الرعاية الصحية والجنسية، وتقنين هذا

الأمر، والسماح للمراهقين بتعاطي حبوب المنع وغير ذلك مما يجعل الجنس مأموناً. وتقول الوثيقة في هذا: يتعين على البلدان بدعم من المجتمع الدولي، أن تحمي وتعزز حقوق المراهقين في التربية، والمعلومات، الرعاية المتصلة بالصحة الجنسية، والتناسلية. وتقول ما نصه: (يجب أن تزيل البلدان العوائق القانونية والتنظيمية والإجتماعية التي تعترض سبيل توفير المعلومات والرعاية الصحية والجنسية والتناسلية للمراهقين، كما يجب أن تضمن أن لا تحد مواقف مقدمي الرعاية الصحية من حصول المراهقين على الخدمات والمعلومات التي يحتاجونها، وفي إنجاز ذلك لابد للخدمات المقدمة الى المراهقين أن تضمن حقوقهم في الخصوصية والسرية والموافقة الواعية والاحترام).

انظر الى هذا المقدار من التقديس لنزوات المراهقين، واحترام فرديتهم بحيث تكون تصرفاتهم الجنسية مصانة بحماية قانونية، والى هذا الإفتيات على سيادة الدولة، والمجتمع، والوالدين إزاء تصرفاتهم، وهم في تلك الأعمار الخطرة.

وقد طالبت المنظمات غير الحكومية المشاركة في المؤتمر بتدريس الجنس في كافة المراحل التعليمية، بل ونشر الثقافة الجنسية عبر وسائل الإعلام، وقد قام المشرفون على المؤتمر بعرض فيلم جنسي في المؤتمر أثناء الحديث عن تعليم الجنس في المدارس، مما أثار الكثير من الحضور، وقد أعلن الإتحاد الدولي لتنظيم الأسرة – وهي جمعية استشارية لدى الأمم المتحدة – عن سعيها لتحويل مراكزها المنتشرة الى مواقع ووحدات لاستقطاب الشباب وتعليمهم كيفية التعامل مع نشاطهم الجنسي بشكل مأمون، وهذا يعني تحول

هذه الجمعية الى أوكار لانحراف الشباب ونشر الثقافة الجنسية تحت مظلة الأمم المتحدة وبدعم منها.

فالجنس عند الغربيين مطلوب لذاته وعلى الدوام وفي كل مراحل العمر ودون ضوابط، ويعتبرونه كالأكل والشرب، والشباب والشابات يسألون أنفسهم لماذا يصبرون الى وقت الزواج؟! وما الداعي الذي يحملهم على هذا الصبر على الجمر بعد زوال أثر الدين، ووازع المجتمع، وتوفير حماية القانون، وتشجيع الثقافة، ووجود الدواعي، وإمكانية السيطرة على الآثار التي تنجم عنه. بناء على هذا يتدافع الغربيون الى الجنس في هستيريا جماعية، وفي كل الأعمار، ومن كلا الجنسين، ومن غير ضوابط، ومجتمعاتهم توفر لهم هذه المتعة المنفلتة وتعتبرها أصلاً وحقاً من حقوق الإنسان الأساسية، ولكي يستطيعوا أن يتحكموا في آثارها السالبة، شرعوا قوانين تعطي للمراهق الحق في الحصول على (حبوب منع الحمل) و (الثقافة الجنسية) وإذا لم تنفع الحبوب ولا الواقي الذكري ... ولا الثقافة والتعليم فهناك (حق الإجهاض الإختياري) وشرعوا قوانين الإباحة أيضاً، وإذا ملوا من الجنس الآخر، فهناك البديل في الجنس المماثل حتى تدوم المتعة السخيفة، فشرعوا قوانين لحماية (الأسرة المثلية أو الشاذة).

ويلاحظ على جميع مواثيق واتفاقيات الأمم المتحدة إباحة هذه الأمور كلها لأنها نابعة من هذه المجتمعات المتهاوية، والتي تعطي الحق للمراهقين والمراهقات بالإستقلال عن أسرهم والحياة بعيداً عنها، والدولة توفر لهم (الدعم المالي والرعاية الإجتماعية) وتمكنهم من تمردهم، وتمنع الوالدين من أي تدخل في شؤونهم بقوانين صارمة وقاسية جداً، إذا أراد الأولاد

الاستقلال بعد (السادسة عشر) من العمر، ومن الجدير بالذكر أن تحديد عمر الاستقلال بـ (١٦سنة) ليس قديماً، وقبل فترة كان يقدر بـ (٢١سنة).

٣- أباحت الوثيقة قتل الجنين وشجعت على الإجهاض بمختلف التعبيرات والصياغات، كما ورد في الفقرة الثامنة/ ٢٥ المطالبة بوضوح بإجراء تغييرات تشريعية وسياسية مناطها معالجة ما يسمى بالإجهاض غير المأمون، وهذه الدعوى أو المطالبة ليست موجهة من الحكومات فحسب، بل من الهيئات والمنظمات غير الحكومية أيضاً، على اعتبار أن الإجهاض غير المأمون شاغل رئيسي من شواغل الصحة العامة. وتدعو الفقرة (٧/ ٤) من الوثيقة الى إنهاء الحمل، وتخفيف عواقب الإجهاض.

وهكذا استخدمت الوثيقة أساليب متنوعة كلها تؤكد تشريع الإجهاض واعتباره حق المرأة، ووسيلة من وسائل صحتها وسعادتها وتمكينها!! وجزء من صحتها الجنسية (Sexual health) وصحتها التكاثرية (Reproductive Health).

٤- الوثيقة هذه فصلت بين الزواج، والجنس، والإنجاب، واعتبرت هذه الأمور متباينة، وليست لها علاقة ضرورية وتلازم، ومعنى هذا أنه يمكن الزواج من غير إنجاب، ويمكن ممارسة الجنس من غير زواج، ويمكن الإنجاب من غير زواج، وحتى الإنجاب من غير عملية جنسية حيث تلقح المرأة بمني رجل تعرفه أو لا تعرفه، أو تستأجر رحم امرأة والتي تسمى (الأم البديلة أو البيولوجية) حتى تضع مولودها ثم تبيع المولود لصاحب الطلب أو لصاحبة الطلب.!!

أنظر الى هذه القبائح! انظر الى تجارة الرقيق في أحدث أنواعها في فترة ما بعد الحداثة، وعصر العولمة، وانفجار المعلومات، انظر الى الكذب والتزوير في جنسية المولود ونسبه وطريقة الحصول عليه بهذه البشاعة. وفي كل هذه الحالات فإن الإنجاب حق للتكاثر أو (Reproductive Rghts) وحسب تعبيرات الوثيقة ومصطلحات الأنثوية.

٥- في حديث الوثيقة عن الأسرة، سعت الى تعريفها بالمفهوم الغربي، والذي يتضمن رفض المفهوم الأساسي للأسرة كما عرفتها الأديان والمجتمعات وعندما تبدي حرصاً على تماسك الأسرة وهي في الوقت نفسه تلغي وجودها وقدسيتها بإعادة تعريفها على النمو الموجود فهو حرص زائف كاذب حيث تقول: وضع سياسات وقوانين تقدم دعماً أفضل للأسرة وتسهم في استقرارها، وتأخذ في الإعتبار تعددية أشكالها.

وورد في الوثيقة تفسير هذه التعددية بمثل زواج الجنس الواحد، والمعاشرة بدون زواج، ودعت الوثيقة الى القضاء على التمييز في السياسات والممارسات المتعلقة بالزواج، وأشكال الاقتران الأخرى.

والوثيقة بهذه الصورة تطرح على الدول أن تغير تعريفها التقليدي والنمطي (غير الحداثي) للزواج والإقتران والأسرة، وتريد أن يعترف العالم كله بما اعترفت به دول الغرب من أشكال متعددة للأسرة وهي:

١- أسرة الوالد الواحد: أي (دون أب) بحيث تعيش المرأة مع مجموعة من الأطفال أو طفل أو طفلين، سواء عرف الأب أم لم يعرف (وغالباً لا يعرف) ويشكلون أسرة مع بعض، وتشجع الأنثوية الغربية هذا النوع من الأسر لأنها

تمكن المرأة من النفوذ عليها، وإنفرادها بعملية التنشئة فيها، ولا نحتاج الى أن نفصل القول في الآثار التربوية النفسية الناجمة عن هذه الأسرة، التي يغيب فيها دور الأب ولا يعرف الأولاد من أبوهم، ولا من أين جاءت بهم والدتهم، ومن هم هؤلاء الناس الذين يعاشرون الوالدة ويتغيرون بين فترة وأخرى؟

٢- الأسرة المثلية: أو المتكونة من جنس واحد سواء من رجلين أو امرأتين، وبعض هؤلاء يتخذون لأنفسهم أولاداً أيضاً، إما بالتبني أو بالسفاح لغرض الإنجاب فقط، أو بإستئجار الأرحام.

٣- الأسرة المقترنة أو المتزاوجة: والمتكونة من النساء والرجال الذين يعاشرون البعض ويتبادلون الخدمة والمتعة الجنسية دون وجود زواج ولا عقد ولا وثيقة، وكل واحد منهم حر في الفكاك والتصرف، والأنثوية ترغب في هذا النوع من الأسر أيضاً باعتبارها تخلو من تميز للرجل وسلطة له عليها، والمرأة فيها تملك نفسها، ولكن الحقيقة خلاف ذلك فوقائع المجتمعات الغربية تشير الى سلطة واضحة للصديق على الصديقة، وتتعرض الأخيرة بإستمرار الى ما تتعرض له الزوجات من محاسبة، وضرورة تقديم الخدمة، بل العنف أيضاً والإحصائيات تشهد على ذلك.

٤- أسر المعاشرة الجماعية: وهي أسر متكونة من مجموعة من الشباب والشابات يمارسون حياة جنسية مشاعية بإشكال مختلفة.

هذه هي الأشكال المتعددة للزواج أو الإقتران، والتي تريد الوثيقة من الدول

أن تعترف بها، بل وتقننها وتلغي أي تميز ضدها.![1]

إتفاقية سيداو (CEDAW)

الاسم الانكليزي للإتفاقية هو: (Convention on Elimination and All forms of Discrimination Against women)

والمعروفة إختصاراً بـ (CEDAW) وهذه الإتفاقية متطورة من معاهدة حقوق المرأة السياسية لعام ١٩٥٢م والتي تبنتها الأمم المتحدة، ثم أعدت إعلاناً خاصاً بإزالة التمييز ضد المرأة وأجيز الإعلان في عام ١٩٦٧م، ودعا الى تغيير المفاهيم وإلغاء القوانين والعادات السائدة التي تفرق بين الرجل والمرأة، ثم بدأت المفوضية - بعد إجازة الإعلان - في إعداد معاهدة القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة في عام ١٩٧٣م وأكملت إعدادها في ١٩٧٩م واعتمدتها الأمم المتحدة في ١٨/ ١٢/ ١٩٧٩م، وأصبحت سارية المفعول في ٣/ ١٢/ ١٩٨١م بعد توقيع خمسين دولة عليها.

تتكون الإتفاقية من (٣٠) مادة، موزعة على ستة أجزاء، وتتناول كافة الشؤون المتعلقة بحياة المرأة من: مفهوم التمييز، والتدابير اللازمة لإزالتها، وما تسميه

---

(١) ينظر: حركة تحرير المرأة من المساواة الى الجندر، مصدر سابق، ص٢١٣ وما بعدها. ومجلة قضايا دولية العدد (٢٧٤)، والمرأة والعولمة والنظام العالمي الجديد، لأحمد كمال الدين ورقة مقدمة الى مركز دراسات المرأة في الخرطوم، ود. حسين سليمان، وثيقة مؤتمر السكان. وبحث عن المرأة والعولمة والهوية الثقافية لزكريا بشير إمام في مركز دراسات المرأة في الخرطوم.

بالأدوار النمطية للجنسين، ثم الحقوق السياسية والاقتصادية، والإجتماعية، والمدينة، والتعليم والصحة بما فيها الصحة الجنسية، وحقوق العمل والإستحقاقات، وقوانين الأسرة والزواج، والمرأة الريفية والى غيرها من الأمور الأخرى، وفيها مواد أخرى من (١٧-٣٠) تتعلق بكيفية متابعة الاتفاقية وتكوين اللجنة الخاصة بها وبعمل اللجنة، ومتابعة الدول، وعقد الإجتماعات ودور الوكالات المتخصصة والمنظمات الأهلية، وتعهد الدول الأطراف، وبعض الاحكام الختامية.(١)

ولزيادة الفائدة إليك عزيزي القارئ نص اتفاقية سيداو (CEDAW) التي تبنتها الأمم المتحدة:

اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة

مقدمة

في ١٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٩ اتخذت خطوة رئيسية نحو تحقيق هدف منح المرأة المساواة في الحقوق عندما اعتمدت الجمعية العامة اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة. وتضع هذه الاتفاقية المؤلفة من (30) مادة، في قالب قانوني ملزم، المبادئ والتدابير المقبولة دوليا لتحقيق المساواة في الحقوق للمرأة في كل مكان. وجاء اعتمادها تتويجـًا لمشاورات استمرت لفترة خمس سنوات والتي أجرتها أفرقة عاملة متعددة واللجنة المعنية بمركز المرأة والجمعية العامة.

(١) حركة تحرير المرأة من المساواة الى الجندر: مصدر سابق، ص٣٠١.

وتكشف هذه الاتفاقية الشاملة، بدعوتها إلى كفالة الحقوق المتساوية للمرأة، بصرف النظر عن حالتها الزوجية، في جميع الميادين - من سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ومدنية - عمق العزلة والقيود المفروضة على المرأة على أساس الجنس لا غير. وهي تدعو إلى سن تشريعات وطنية تحرم التمييز، وتوصي باتخاذ تدابير خاصة مؤقتة للتعجيل بتحقيق المساواة الحقيقية بين الرجل والمرأة، وباتخاذ خطوات تستهدف تعديل الأنماط الإجتماعية والثقافية التي تؤدي إلى إدامة هذا التمييز.

وتنص التدابير الأخرى على كفالة الحقوق المتساوية للمرأة في المجالات السياسية وفي الحياة العامة، والمساواة في الحصول على التعليم واتاحة نفس الخيارات من حيث المناهج التعليمية، وعدم التمييز في التوظيف وفي الأجر، وضمانات للأمن الوظيفي في حالات الزواج والولادة. وتشدد الاتفاقية على تساوي الرجل والمرأة في المسؤولية داخل إطار الحياة الأسرية. كما تركز أيضاً على الخدمات الإجتماعية، ولاسيما مرافق رعاية الأطفال، اللازمة للجمع بين الالتزامات الأسرية ومسؤوليات العمل والمشاركة في الحياة العامة.

وتدعو مواد أخرى في الاتفاقية إلى عدم التمييز في الخدمات الصحية التي تقدم إلى النساء، بما في ذلك الخدمات المتصلة بتخطيط الأسرة، وإلى منح المرأة أهلية قانونية مماثلة لأهلية الرجل، وتطلب أن توافق الدول الأطراف على أن كل العقود والصكوك الخاصة الأخرى التي تقيد من الأهلية القانونية للمرأة (يجب أن تعتبر لاغية وباطلة). وتولي الاتفاقية اهتماماً خاصاً لمشاكل المرأة الريفية.

وتنشئ الاتفاقية جهازاً للإشراف الدولي على الالتزامات التي تقبل بها الدول. وسوف تتولى لجنة من الخبراء، تقوم الدول الأطراف بانتخابهم ويعملون

بصفتهم الشخصية، بالنظر في التقدم المحرز. وستدخل هذه الاتفاقية، التي فتح باب التوقيع عليها في ١ آذار/ مارس ١٩٨٠، بعد موافقة 20 دولة على التقيد بأحكامها، إما عن طريق التصديق أو الانضمام.

وتتضمن الصفحات التالية النص الكامل للاتفاقية:

إن الدول الأطراف في هذه الاتفاقية،

إذ تلاحظ أن ميثاق الأمم المتحدة يؤكد من جديد الإيمان بالحقوق الأساسية للإنسان وبكرامة الفرد وقدره وبما للرجال والنساء من حقوق متساوية.

وإذ تلاحظ أن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان يؤكد مبدأ عدم جواز التمييز، ويعلن أن جميع الناس يولدون أحراراً متساوين في الكرامة والحقوق، وأن لكل إنسان حق التمتع بجميع الحقوق والحريات الواردة في هذا الإعلان، دون أي تمييز، بما في ذلك التمييز القائم على الجنس.

وإذ تلاحظ أن الدول الأطراف في العهدين الدوليين الخاصين بحقوق الإنسان عليها واجب ضمان حق الرجال والنساء في التمتع على قدم المساواة بجميع الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمدنية والسياسية، وإذ تأخذ بعين الاعتبار الاتفاقيات الدولية المعقودة برعاية الأمم المتحدة والوكالات المتخصصة، والتي تشجع المساواة في الحقوق بين الرجل والمرأة.

وإذ تلاحظ أيضاً القرارات والإعلانات والتوصيات التي اعتمدتها الأمم المتحدة والوكالات المتخصصة للنهوض بالمساواة في الحقوق بين الرجل والمرأة، وإذ يساورها القلق، مع ذلك، لأنه على الرغم من تلك الصكوك

المختلفة، لا يزال هناك تميز واسع النطاق ضد المرأة، وإذ تشير إلى أن التمييز ضد المرأة يشكل انتهاكاً لمبدأي المساواة في الحقوق واحترام كرامة الإنسان وعقبة أمام مشاركة المرأة، على قدم المساواة مع الرجل، في حياة بلدها السياسية والإجتماعية والاقتصادية والثقافية، ويعوق نمو رخاء المجتمع والأسرة، ويزيد من صعوبة التنمية الكاملة لإمكانات المرأة في خدمة بلدها والبشرية.

وإذ يساورها القلق لأنه لا تتاح للمرأة، في حالات الفقر، إلّا أقل الفرص للحصول على الغذاء والصحة والتعليم والتدريب والعمالة والحاجات الأخرى، وإقتناعاً منها بأن إقامة نظام اقتصادي دولي جديد، يستند إلى الإنصاف والعدل، سيسهم إسهاماً بارزاً في النهوض بالمساواة بين الرجل والمرأة، وإذ تشدد على أن استئصال شأفة الفصل العنصري وجميع أشكال العنصرية والتمييز العنصري والاستعمار والاستعمار الجديد والعدوان والاحتلال الأجنبي والسيطرة الأجنبية والتدخل في الشؤون الداخلية للدول أمر أساسي بالنسبة إلى تمتع الرجال والنساء بحقوقهم تمتعاً كاملاً.

وإذ تؤكد أن تعزيز السلم والأمن الدوليين، وتخفيف حدة التوتر الدولي، والتعاون المتبادل فيما بين جميع الدول بغض النظر عن نظمها الإجتماعية والاقتصادية، ونزع السلاح العام الكامل ولاسيما نزع السلاح النووي في ظل رقابة دولية صارمة وفعالة، وتوكيد مبادئ العدل والمساواة والمنفعة المتبادلة في العلاقات بين البلدان، وإعمال حق الشعوب الواقعة تحت السيطرة الأجنبية والاستعمارية والاحتلال الأجنبي في تقرير المصير والاستقلال، وكذلك احترام السيادة الوطنية والسلامة الإقليمية ستنهض بالتقدم الإجتماعي والتنمية، وستسهم نتيجة لذلك في تحقيق المساواة الكاملة بين الرجل والمرأة.

واقتناعاً منها بأن التنمية التامة والكاملة لبلد ما، ورفاهية العالم، وقضية السلم، تتطلب جميعاً أقصى مشاركة ممكنة من جانب المرأة على قدم المساواة مع الرجل في جميع الميادين.

وإذ تضع في اعتبارها إسهام المرأة العظيم في رفاه الأسرة وفي تنمية المجتمع، الذي لم يُعترف به حتى الآن على نحو كامل، والأهمية الإجتماعية للأمومة ولدور الوالدين كليهما في الأسرة وفي تنشئة الأطفال، وإذ تدرك أن دور المرأة في الإنجاب لا ينبغي أن يكون أساساً للتمييز، بل أن تنشئة الأطفال تتطلب بدلاً من ذلك تقاسم المسؤولية بين الرجل والمرأة والمجتمع ككل.

وإذ تدرك أن تحقيق المساواة الكاملة بين الرجل والمرأة يتطلب إحداث تغيير في الدور التقليدي للرجل، وكذلك في دور المرأة في المجتمع والأسرة.

وقد عقدت العزم على تنفيذ المبادئ الواردة في إعلان القضاء على التمييز ضد المرأة، وعلى أن تتخذ لذلك الغرض، التدابير اللازمة للقضاء على ذلك التمييز بجميع أشكاله ومظاهره،

وقد اتفقت على ما يلي:

الجزء الأول

المادة 1

لأغراض هذه الاتفاقية يعني مصطلح (التمييز ضد المرأة) أي تفرقة أو استبعاد أو تقييد يتم على أساس الجنس ويكون من آثاره أو أغراضه النيل من الاعتراف للمرأة، على أساس تساوي الرجل والمرأة، بحقوق الإنسان والحريات

الأساسية في الميادين السياسية والاقتصادية والإجتماعية والثقافية والمدنية أو في أي ميدان آخر، أو إبطال الاعتراف للمرأة بهذه الحقوق أو تمتعها بها وممارستها لها بغض النظر عن حالتها الزوجية.

المادة 2

تشجب الدول الأطراف جميع أشكال التمييز ضد المرأة وتوافق على أن تنتهج، بكل الوسائل المناسبة ودون إبطاء، سياسة القضاء على التمييز ضد المرأة، وتحقيقاً لذلك، تتعهد بالقيام بما يلي:

أ. تجسيد مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة في دساتيرها الوطنية أو تشريعاتها المناسبة الأخرى، إذا لم يكن هذا المبدأ قد أدمج فيها حتى الآن، وكفالة التحقيق العملي لهذا المبدأ من خلال القانون والوسائل المناسبة الأخرى.

ب. اتخاذ المناسب من التدابير التشريعية وغيرها، بما في ذلك ما يقتضيه الأمر من جزاءات، لحظر كل تمييز ضد المرأة.

ج. إقرار الحماية القانونية لحقوق المرأة على قدم المساواة مع الرجل وضمان الحماية الفعالة للمرأة، عن طريق المحاكم الوطنية ذات الاختصاص والمؤسسات العامة الأخرى، من أي عمل تمييزي.

د. الامتناع عن الاضطلاع بأي عمل أو ممارسة تمييزية ضد المرأة، وكفالة تصرف السلطات والمؤسسات العامة بما يتفق وهذا الالتزام.

هـ. اتخاذ جميع التدابير المناسبة للقضاء على التمييز ضد المرأة من جانب أي شخص أو منظمة أو مؤسسة.

و. اتخاذ جميع التدابير المناسبة، بما في ذلك التشريع، لتعديل أو إلغاء القوانين والأنظمة والأعراف والممارسات القائمة التي تشكل تمييزاً ضد المرأة.

ز. إلغاء جميع أحكام قوانين العقوبات الوطنية التي تشكل تمييزاً ضد المرأة.

المادة 3

تتخذ الدول الأطراف في جميع الميادين، ولاسيما الميادين السياسية والإجتماعية والاقتصادية والثقافية، كل التدابير المناسبة، بما في ذلك التشريع، لكفالة تطور المرأة وتقدمها الكاملين، وذلك لتضمن لها ممارسة حقوق الإنسان والحريات الأساسية والتمتع بها على أساس المساواة مع الرجل.

المادة 4

١- لا يعتبر اتخاذ الدول الأطراف تدابير خاصة مؤقتة تستهدف التعجيل بالمساواة الفعلية بين الرجل والمرأة تمييزاً كما تحدده هذه الاتفاقية، ولكنه يجب ألا يستتبع بأي حال، كنتيجة له، الإبقاء على معايير غير متكافئة أو منفصلة، كما يجب وقف العمل بهذه التدابير عندما تكون أهداف التكافؤ في الفرص والمعاملة قد تحققت.

٢- لا يعتبر اتخاذ الدول الأطراف تدابير خاصة تستهدف حماية الأمومة، بما في ذلك تلك التدابير الواردة في هذه الاتفاقية، إجراءً تمييزياً.

المادة 5

تتخذ الدول الأطراف جميع التدابير المناسبة، لتحقيق ما يلي:

أ. تعديل الأنماط الإجتماعية والثقافية لسلوك الرجل والمرأة، بهدف تحقيق القضاء على التحيزات والعادات العرفية وكل الممارسات الأخرى القائمة على فكرة دونية أو تفوق أحد الجنسين، أو على أدوار نمطية للرجل والمرأة.

ب. كفالة أن تتضمن التربية الأسرية تفهماً سليماً للأمومة بوصفها وظيفة اجتماعية والاعتراف بالمسؤولية المشتركة لكل من الرجال والنساء في تنشئة أطفالهم وتطورهم، على أن يكون مفهوماً أن مصلحة الأطفال هي الاعتبار الأساسي في جميع الحالات.

المادة 6

تتخذ الدول الأطراف جميع التدابير المناسبة، بما في ذلك التشريع لمكافحة جميع أشكال الاتجار بالمرأة واستغلال دعارة المرأة.

الجزء الثاني

المادة 7

تتخذ الدول الأطراف جميع التدابير المناسبة للقضاء على التمييز ضد المرأة في الحياة السياسية والعامة للبلد، وبوجه خاص تكفل للمرأة، على قدم المساواة مع الرجل، الحق في:

أ. التصويت في جميع الانتخابات والاستفتاءات العامة، وأهلية الانتخاب لجميع الهيئات التي ينتخب أعضاؤها بالاقتراع العام.

ب. المشاركة في صياغة سياسة الحكومة وتنفيذ هذه السياسة وفي شغل الوظائف العامة وتأدية جميع المهام العامة على جميع المستويات الحكومية.

ج. المشاركة في جميع المنظمات والجمعيات غير الحكومية التي تعنى بالحياة العامة والسياسية للبلد.

المادة 8

تتخذ الدول الأطراف جميع التدابير المناسبة لتكفل للمرأة، على قدم المساواة مع الرجل ودون أي تمييز، فرصة تمثيل حكومتها على المستوى الدولي والإشتراك في أعمال المنظمات الدولية.

المادة 9

١- تمنح الدول الأطراف المرأة حقاً مساويا لحق الرجل في اكتساب جنسيتها أو الاحتفاظ بها أو تغييرها. وتضمن بوجه خاص ألّا يترتب على الزواج من أجنبي أو تغيير جنسية الزوج أثناء الزواج، أن تتغير تلقائياً جنسية الزوجة، أو أن تصبح بلا جنسية أو أن تفرض عليها جنسية الزوج.

٢- تمنح الدول الأطراف المرأة حقاً مساوياً لحق الرجل فيما يتعلق بجنسية أطفالها.

الجزء الثالث

المادة 10

تتخذ الدول الأطراف جميع التدابير المناسبة للقضاء على التمييز ضد المرأة لكي تكفل للمرأة حقوقاً مساوية لحقوق الرجل في ميدان التعليم، وبوجه خاص لكي تكفل، على أساس تساوي الرجل والمرأة:

أ. نفس الظروف للتوجيه الوظيفي والمهني، وللوصول إلى الدراسات والحصول على الدرجات العلمية في المؤسسات التعليمية من جميع الفئات، في المناطق الريفية والحضرية على السواء، وتكون هذه المساواة مكفولة في المرحلة السابقة للالتحاق بالمدرسة وفي التعليم العام والتقني والمهني والتعليم التقني العالي، وكذلك في جميع أنواع التدريب المهني.

ب. توفر نفس المناهج الدراسية، ونفس الامتحانات وهيئات تدريسية تتمتع بمؤهلات من نفس المستوى ومبان ومعدات مدرسية من نفس النوعية.

ج. القضاء على أي مفهوم نمطي عن دور الرجل ودور المرأة على جميع مستويات التعليم وفي جميع أشكاله عن طريق تشجيع التعليم المختلط وغيره من أنواع التعليم التي تساعد في تحقيق هذا الهدف، ولاسيما عن طريق تنقيح كتب الدراسة والبرامج المدرسية وتكييف أساليب التعليم.

د. نفس الفرص للاستفادة من المنح التعليمية وغيرها من المنح الدراسية.

هـ. نفس الفرص للوصول إلى برامج التعليم المتواصل، بما في ذلك برامج تعليم الكبار ومحو الأمية الوظيفية، ولاسيما التي تهدف إلى أن تضيق، في أقرب وقت ممكن، أي فجوة في التعليم قائمة بين الرجل والمرأة.

و. خفض معدلات ترك المدرسة، قبل الأوان بين الطالبات وتنظيم برامج للفتيات والنساء اللائي تركن المدرسة قبل الأوان.

ز. نفس الفرص للمشاركة النشطة في الألعاب الرياضية والتربية البدنية.

ح. الوصول إلى معلومات تربوية محددة للمساعدة في ضمان صحة الأسر ورفاهها، بما في ذلك المعلومات والنصح عن تخطيط الأسرة.

المادة 11

1- تتخذ الدول الأطراف جميع ما يقتضي الحال اتخاذه من تدابير للقضاء على التمييز ضد المرأة في ميدان العمل لكي تكفل لها، على أساس تساوي الرجل والمرأة، نفس الحقوق ولاسيما:

أ. الحق في العمل بوصفه حقا غير قابل للتصرف لكل البشر.

ب. الحق في التمتع بنفس فرص التوظيف، بما في ذلك تطبيق معايير الاختيار نفسها في شؤون التوظيف.

ج. الحق في حرية اختيار المهنة والعمل، والحق في الترقي والأمن الوظيفي، وفي جميع مزايا وشروط الخدمة، والحق في تلقي التدريب وإعادة التدريب المهني، بما في ذلك التلمذة الصناعية والتدريب المهني المتقدم والتدريب المتكرر.

د. الحق في المساواة في الأجر، بما في ذلك الاستحقاقات، والحق في المساواة في المعاملة فيما يتعلق بالعمل المتعادل القيمة، وكذلك المساواة في المعاملة في تقييم نوعية العمل.

هـ. الحق في الضمان الاجتماعي، ولاسيما في حالات التقاعد، والبطالة، والمرض، والعجز، والشيخوخة، وأي شكل من أشكال عدم القدرة على العمل، وكذلك الحق في إجازة مدفوعة الأجر.

و. الحق في الوقاية الصحية وسلامة ظروف العمل، بما في ذلك حماية وظيفة الإنجاب.

2- توخيا لمنع التمييز ضد المرأة بسبب الزواج أو الأمومة، ولضمان حقها الفعلي في العمل، تتخذ الدول الأطراف التدابير المناسبة:

أ. لحظر الفصل من الخدمة بسبب الحمل أو إجازة الأمومة والتمييز في الفصل من العمل على أساس الحالة الزوجية، مع فرض جزاءات على المخالفين.

ب. لإدخال نظام إجازة الأمومة المدفوعة الأجر أو مع التمتع بمزايا اجتماعية مماثلة دون أن تفقد المرأة الوظيفة التي تشغلها أو أقدميتها أو العلاوات الإجتماعية.

ج. لتشجيع توفير ما يلزم من الخدمات الإجتماعية المساندة لتمكين الوالدين من الجمع بين التزاماتهما الأسرية وبين مسؤوليات العمل والمشاركة في الحياة العامة، ولاسيما عن طريق تشجيع إنشاء وتنمية شبكة من مرافق رعاية الأطفال.

د. لتوفير حماية خاصة للمرأة أثناء فترة الحمل في الأعمال التي يثبت أنها مؤذية لها.

3- يجب أن تستعرض التشريعات الوقائية المتصلة بالمسائل المشمولة بهذه المادة استعراضا دوريًا في ضوء المعرفة العلمية والتكنولوجية، وان يتم تنقيحها أو إلغاؤها أو توسيع نطاقها حسب الاقتضاء.

المادة 12

1- تتخذ الدول الأطراف جميع التدابير المناسبة للقضاء على التمييز ضد المرأة في ميدان الرعاية الصحية من أجل أن تضمن لها، على أساس تساوي الرجل والمرأة، الحصول على خدمات الرعاية الصحية، بما في ذلك الخدمات المتعلقة بتخطيط الأسرة.

2- بالرغم من أحكام الفقرة 1من هذه المادة تكفل الدول الأطراف للمرأة الخدمات المناسبة فيما يتعلق بالحمل والولادة وفترة ما بعد الولادة، وتوفر لها الخدمات المجانية عند الاقتضاء، وكذلك التغذية الكافية أثناء الحمل والرضاعة.

المادة 13

تتخذ الدول الأطراف جميع التدابير المناسبة للقضاء على التمييز ضد المرأة في المجالات الأخرى للحياة الاقتصادية والإجتماعية لكي تكفل لها، على أساس تساوي الرجل والمرأة، نفس الحقوق ولاسيما:

أ. الحق في الاستحقاقات الأسرية.

ب. الحق في الحصول على القروض المصرفية، والرهون العقارية وغير ذلك من أشكال الائتمان المالي.

ج. الحق في الاشتراك في الأنشطة الترويحية والألعاب الرياضية وفي جميع جوانب الحياة الثقافية.

المادة 14

1- تضع الدول الأطراف في اعتبارها المشاكل الخاصة التي تواجهها المرأة الريفية، والأدوار الهامة التي تؤديها في تأمين أسباب البقاء اقتصاديا لأسرتها، بما في ذلك عملها في قطاعات الاقتصاد غير النقدية، وتتخذ جميع التدابير المناسبة لضمان تطبيق أحكام هذه الاتفاقية على المرأة في المناطق الريفية.

2- تتخذ الدول الأطراف جميع التدابير المناسبة للقضاء على التمييز ضد المرأة في المناطق الريفية لكي تكفل لها، على أساس التساوي مع الرجل، المشاركة في التنمية الريفية والاستفادة منها، وتكفل للمرأة بوجه خاص الحق في:

أ. المشاركة في وضع وتنفيذ التخطيط الإنمائي على جميع المستويات.

ب. نيل تسهيلات العناية الصحية الملائمة، بما في ذلك المعلومات والنصائح والخدمات المتعلقة بتخطيط الأسرة.

ج. الاستفادة بصورة مباشرة من برامج الضمان الاجتماعي.

د. الحصول على جميع أنواع التدريب والتعليم، الرسمي وغير الرسمي، بما في ذلك ما يتصل منه بمحو الأميّة الوظيفية، والحصول كذلك في جملة أمور، على فوائد كافة الخدمات المجتمعية والإرشادية، وذلك لتحقق، زيادة كفاءتها التقنية.

هـ. تنظيم جماعات المساعدة الذاتية والتعاونيات من أجل الحصول على فرص اقتصادية متكافئة عن طريق العمل لدى الغير أو العمل لحسابهن الخاص.

و. المشاركة في جميع الأنشطة المجتمعية.

ز. فرصة الحصول على الائتمانات والقروض الزراعية، وتسهيلات التسويق والتكنولوجيا المناسبة، والمساواة في المعاملة في مشاريع إصلاح الأراضي والإصلاح الزراعي وكذلك في مشاريع التوطين الريفي.

ح. التمتع بظروف معيشية ملائمة، ولاسيما فيما يتعلق بالإسكان والإصحاح والإمداد بالكهرباء والماء، والنقل، والاتصالات.

الجزء الرابع

المادة 15

1- تمنح الدول الأطراف المرأة المساواة مع الرجل أمام القانون.

2- تمنح الدول الأطراف المرأة في الشؤون المدنية، أهلية قانونية مماثلة لأهلية الرجل، ونفس فرص ممارسة تلك الأهلية. وتكفل للمرأة، بوجه خاص، حقوقاً مساوية لحقوق الرجل في إبرام العقود وإدارة الممتلكات، وتعاملها على قدم المساواة في جميع مراحل الإجراءات المتبعة في المحاكم والهيئات القضائية.

3- توافق الدول الأطراف على اعتبار جميع العقود وسائر أنواع الصكوك الخاصة التي لها أثر قانوني يستهدف تقييد الأهلية القانونية للمرأة باطلة ولاغية.

4- تمنح الدول الأطراف الرجل والمرأة نفس الحقوق فيما يتعلق بالقانون المتصل بحركة الأشخاص وحرية اختيار محل سكناهم وإقامتهم.

المادة 16

1- تتخذ الدول الأطراف جميع التدابير المناسبة للقضاء على التمييز ضد المرأة في كافة الأمور المتعلقة بالزواج والعلاقات الأسرية، وبوجه خاص تضمن، على أساس تساوي الرجل والمرأة:

أ. نفس الحق في عقد الزواج.

ب. نفس الحق في حرية اختيار الزوج، وفي عدم عقد الزواج إلّا برضاها الحر الكامل.

ج. نفس الحقوق والمسؤوليات أثناء الزواج وعند فسخه.

د. نفس الحقوق والمسؤوليات كوالدة، بغض النظر عن حالتها الزوجية، في الأمور المتعلقة بأطفالها، وفي جميع الأحوال، تكون مصالح الأطفال هي الراجحة.

هـ. نفس الحقوق في أن تقرر بحرية وبشعور من المسؤولية عدد أطفالها والفترة بين إنجاب طفل وآخر، وفي الحصول على المعلومات والتثقيف والوسائل الكفيلة بتمكينها من ممارسة هذه الحقوق.

و. نفس الحقوق والمسؤوليات فيما يتعلق بالولاية والقوامة والوصاية على الأطفال وتبنيهم، أو ما شابه ذلك من الأنظمة المؤسسية الإجتماعية، حين توجد هذه المفاهيم في التشريع الوطني، وفي جميع الأحوال تكون مصالح الأطفال هي الراجحة.

ز. نفس الحقوق الشخصية للزوج والزوجة، بما في ذلك الحق في اختيار إسم الأسرة، والمهنة، والوظيفة.

ح. نفس الحقوق لكلا الزوجين فيما يتعلق بملكية وحيازة الممتلكات، والإشراف عليها، وإدارتها، والتمتع بها، والتصرف فيها، سواء بلا مقابل أو مقابل عوض ذي قيمة.

2- لا يكون لخطوبة الطفل أو زواجه أثر قانوني، وتتخذ جميع الإجراءات الضرورية، بما فيها التشريع، لتحديد سن أدنى للزواج ولجعل تسجيل الزواج في سجل رسمي أمراً إلزامياً.

الجزء الخامس

المادة 17

1- لغرض دراسة التقدم المحرز في تنفيذ هذه الاتفاقية، تنشأ لجنة للقضاء على التمييز ضد المرأة (يشار إليها فيما يلي باسم اللجنة) تتألف عند بدء نفاذ الاتفاقية من ثمانية عشر خبيراً وبعد تصديق الدولة الطرف الخامسة والثلاثين عليها أو انضمامها إليها من ثلاثة وعشرين خبيرا من ذوي المكانة الخلقية الرفيعة والكفاءة العالية في الميدان الذي تشمله هذه الاتفاقية، تنتخبهم الدول الأطراف من بين مواطنيها ويعملون بصفتهم الشخصية، مع إيلاء الاعتبار لمبدأ التوزيع الجغرافي العادل ولتمثيل مختلف الأشكال الحضارية وكذلك النظم القانونية الرئيسية.

2- ينتخب أعضاء اللجنة بالاقتراع السري من قائمة بالأشخاص الذين ترشحهم الدول الأطراف. ولكل دولة طرف أن ترشح شخصاً واحداً من بين مواطنيها.

3- يجرى الانتخاب الأول بعد ستة أشهر من تاريخ بدء نفاذ هذه الاتفاقية. وقبل ثلاثة أشهر على الأقل من تاريخ كل انتخاب، يوجه الأمين العام للأمم المتحدة رسالة إلى الدول الأطراف يدعوها فيها إلى تقديم ترشيحاتها في غضون فترة شهرين. ويعد الأمين العام قائمة بالترتيب الأبجدي بجميع الأشخاص المرشحين على هذا النحو، مبيناً الدول الأطراف التي رشحتهم، ويقدمها إلى الدول الأطراف.

4- تجرى انتخابات أعضاء اللجنة في اجتماع للدول الأطراف يدعو إليه الأمين العام في مقر الأمم المتحدة. وفي ذلك الاجتماع، الذي يشكل اشتراك ثلثي الدول الأطراف فيه نصاباً قانونياً له، يكون الأشخاص المنتخبون لعضوية اللجنة هم المرشحون الذين يحصلون على أكبر عدد من الأصوات وعلى أكثرية مطلقة من أصوات ممثلي الدول الأطراف الحاضرين والمصوتين.

5- ينتخب أعضاء اللجنة لفترة مدتها أربع سنوات. غير أن فترة تسعة من الأعضاء المنتخبين في الانتخاب الأول تنقضي في نهاية فترة سنتين، ويقوم رئيس اللجنة، بعد الانتخاب الأول فوراً، باختيار أسماء هؤلاء الأعضاء التسعة بالقرعة.

6- يجرى انتخاب أعضاء اللجنة الإضافيين الخمسة وفقاً لأحكام الفقرات 2 و3 و4 من هذه المادة بعد التصديق أو الانضمام الخامس والثلاثين. وتنتهي ولاية اثنين من الأعضاء الإضافيين المنتخبين بهذه المناسبة في نهاية فترة سنتين. ويتم اختيار اسميهما بالقرعة من قبل رئيس اللجنة.

7- لملء الشواغر الطارئة، تقوم الدولة الطرف التي كف خبيرها عن العمل كعضو في اللجنة بتعيين خبير آخر من بين مواطنيها، رهنا بموافقة اللجنة.

8- يتلقى أعضاء اللجنة، بموافقة الجمعية العامة، مكافآت تدفع من موارد الأمم المتحدة بالأحكام والشروط التي تحددها الجمعية، مع إيلاء الاعتبار لأهمية المسؤوليات المنوطة باللجنة.

9- يوفر الأمين العام للأمم المتحدة ما يلزم اللجنة من موظفين ومرافق للاضطلاع بصورة فعالة بالوظائف المنوطة بها بموجب هذه الاتفاقية.

المادة 18

1- تتعهد الدول الأطراف بأن تقدم إلى الأمين العام للأمم المتحدة، للنظر من قبل اللجنة، تقريراً عما اتخذته من تدابير تشريعية وقضائية وإدارية وغيرها من أجل إنفاذ أحكام هذه الاتفاقية، وعن التقدم المحرز في هذا الصدد، وذلك:

أ. في غضون سنة واحدة من بدء النفاذ بالنسبة للدولة المعنية.

ب. وبعد ذلك كل أربع سنوات على الأقل، وكذلك كلما طلبت اللجنة ذلك.

2- يجوز أن تبين التقارير العوامل والصعاب التي تؤثر على مدى الوفاء بالالتزامات المقررة في هذه الاتفاقية.

المادة 19

1- تعتمد اللجنة النظام الداخلي الخاص بها.

2- تنتخب اللجنة أعضاء مكتبها لفترة سنتين.

المادة 20

1- تجتمع اللجنة في العادة لفترة لا تزيد على أسبوعين سنوياً للنظر في التقارير المقدمة وفقاً للمادة 18 من هذه الاتفاقية.

2- تعقد اجتماعات اللجنة عادة في مقر الأمم المتحدة أو في أي مكان مناسب آخر تحدده اللجنة.

المادة 21

1- تقدم اللجنة تقريراً سنوياً إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة بواسطة المجلس الاقتصادي والإجتماعي، عن أنشطتها، ولها أن تقدم مقترحات وتوصيات عامة مبنية على دراسة التقارير والمعلومات الواردة من الدول الأطراف. وتدرج تلك المقترحات والتوصيات العامة في تقرير اللجنة مشفوعة بتعليقات الدول الأطراف، إن وجدت.

2- يحيل الأمين العام تقارير اللجنة إلى لجنة مركز المرأة، لغرض إعلامها.

المادة 22

يحق للوكالات المتخصصة أن تمثل لدى النظر في تنفيذ ما يقع في نطاق أنشطتها من أحكام هذه الاتفاقية. وللجنة أن تدعو الوكالات المتخصصة إلى تقديم تقارير عن تنفيذ الاتفاقية في المجالات التي تقع في نطاق أنشطتها.

الجزء السادس

المادة 23

ليس في هذه الاتفاقية ما يمس أي أحكام تكون أكثر تيسيراً لتحقيق المساواة بين الرجل والمرأة وتكون قد وردت:

أ. في تشريعات دولة من الدول الأطراف.

ب. أو في أية اتفاقية أو معاهدة أو اتفاق دولي آخر نافذ بالنسبة إلى تلك الدولة.

المادة 24

تتعهد الدول الأطراف باتخاذ جميع ما يلزم من تدابير على الصعيد الوطني تستهدف تحقيق الإعمال الكامل للحقوق المعترف بها في هذه الاتفاقية.

المادة 25

1- يكون باب التوقيع على هذه الاتفاقية مفتوحاً لجميع الدول.

2- يسمى الأمين العام للأمم المتحدة وديعاً لهذه الاتفاقية.

3- تخضع هذه الاتفاقية للتصديق. وتودع وثائق التصديق لدى الأمين العام للأمم المتحدة.

4- يكون باب الانضمام إلى هذه الاتفاقية مفتوحاً لجميع الدول. وينفذ الانضمام بإيداع وثيقة الانضمام لدى الأمين العام للأمم المتحدة.

المادة 26

1- يجوز لأي دولة من الدول الأطراف، في أي وقت، أن تطلب إعادة النظر في هذه الاتفاقية، وذلك عن طريق إشعار كتابي يوجه إلى الأمين العام للأمم المتحدة.

2- تقرر الجمعية العامة للأمم المتحدة ما يتخذ من خطوات، إن لزمت، فيما يتعلق بذلك الطلب.

المادة 27

1- يبدأ نفاذ هذه الاتفاقية في اليوم الثلاثين بعد تاريخ إيداع وثيقة التصديق أو الانضمام العشرين لدى الأمين العام للأمم المتحدة.

2- بالنسبة لكل دولة تصدق على هذه الاتفاقية أو تنضم إليها بعد إيداع وثيقة التصديق أو الانضمام العشرين، يبدأ نفاذ الاتفاقية في اليوم الثلاثين بعد تاريخ إيداع هذه الدولة وثيقة تصديقها أو انضمامها.

المادة 28

1- يتلقى الأمين العام للأمم المتحدة نص التحفظات التي تبديها الدول وقت التصديق أو الانضمام، ويقوم بتعميمها على جميع الدول.

2- لا يجوز إبداء أي تحفظ يكون منافياً لموضوع هذه الاتفاقية وغرضها.

3- يجوز سحب التحفظات في أي وقت بتوجيه إشعار بهذا المعنى إلى الأمين العام للأمم المتحدة، الذي يقوم عندئذ بإبلاغ جميع الدول به. ويصبح ذلك

الإشعار نافذ المفعول اعتباراً من تاريخ تلقيه.

المادة 29

1- يعرض للتحكيم أي خلاف ينشأ بين دولتين أو أكثر من الدول الأطراف حول تفسير أو تطبيق هذه الاتفاقية ولا يسوى عن طريق المفاوضات، وذلك بناء على طلب واحدة من هذه الدول. وإذا لم يتمكن الأطراف، خلال ستة أشهر من تاريخ طلب التحكيم، من الوصول إلى اتفاق على تنظيم أمر التحكيم، جاز لأي من أولئك الأطراف إحالة النزاع إلى محكمة العدل الدولية بطلب يقدم وفقاً للنظام الأساسي للمحكمة.

2- لأية دولة طرف أن تعلن لدى توقيع هذه الاتفاقية أو التصديق عليها أو الانضمام إليها أنها لا تعتبر نفسها ملزمة بالفقرة (1) من هذه المادة. ولا تكون الدول الأطراف الأخرى ملزمة بتلك الفقرة إزاء أية دولة طرف أبدت تحفظاً من هذا القبيل.

3- لأية دولة طرف أبدت تحفظاً وفقا للفقرة 2 من هذه المادة أن تسحب هذا التحفظ متى شاءت بإشعار توجهه إلى الأمين العام للأمم المتحدة.

المادة 30

تودع هذه الاتفاقية، التي تتساوى نصوصها الاسبانية والانكليزية والروسية والصينية والعربية والفرنسية في الحجية، لدى الأمين العام للأمم المتحدة.

وإثباتاً لذلك، قام الموقعون أدناه، المفوضون حسب الأصول، بتوقيع هذه الاتفاقية.

نقلنا لك عزيزي القارئ نص الإتفاقية بالكامل حتى تكتمل الصورة حولها وحول دوافعها. ولا تختلف المسائل الواردة فيها كثيراً عن الواردة في مؤتمر السكان والذي سبق أن تعرضنا له، ولكنها تزيد عليه في بعض من الأمور الخطيرة منها:

١- أنها إتفاقية دولية وأحكامها ملزمة تماماً للدول التي تدخل فيها، وتعتبر معياراً ومؤشراً لمدى التزام الدول بحقوق المرأة، وبالتالي بحقوق الإنسان.

٢- وقّع عليها عدد كبير جداً من دول العالم بما فيها (إحدى عشرة) دولة عربية وهم الأردن، الجزائر، جزر القمر، العراق، الكويت، المغرب، تونس، ليبيا، مصر، اليمن، ومن الدول الإسلامية التي وقعت: أندونيسيا، تركيا، بنغلاديش، ماليزيا، باكستان، وحسب نشرة صادرة من اليونيسيف أن (٩٧) دولة وقعت على الإتفاقية و (١٦٠) دولة صادقت عليها حتى تاريخ ٢٢/ ٧/ ١٩٩٧م.(١)

٣- تتضمن اموراً كثيرة، وفيها تفصيلات دقيقة أكثر مما هو موجود في وثيقة السكان ومصرح بها بشكل استفزازي، وخصوصاً في المذكرات التفسيرية وتوصيات اللجنة، بحيث يمكن القول بأنها مشروع راديكالي لتغيير إجتماعي عميق يقضي على خصوصيات المجتمعات البشرية، ويلاحظ أنه حتى التسمية فيها الكثير من الحدية والجذرية (مكافحة أو القضاء على جميع أشكال التمييز...).

---

(١) حركة تحرير المرأة من المساواة الى الجندر، مصدر سابق: ص٣٠٢، نقلاً عن: نشرة صادرة بالإشتراك بين (اليونيسيف) و(اليونيفام) أي صندوق الأمم المتحدة الإنمائي للمرأة، تتحدث عن الإتفاقية والدول الموقعة عليها.

٤- وجود لجنة دائمة في الأمم المتحدة لمتابعة الإتفاقية، وهذه اللجنة تستنفر مئات الخبراء والناشطين والأنثويين، ومئات المنظمات الأهلية لمتابعة الإتفاقية والضغط على الدول للتوقيع عليها وتنفيذ بنودها، وهذه اللجنة من حقها أن تطالب بالتقارير المفصلة في أي وقت شاءت من الدولة نفسها ومن الوكالات الدولية الموجودة فيها، وكذلك من المنظمات الأهلية المعنية في تلك الدول لكي تتأكد من تنفيذ الإتفاقية وصحة المعلومات الواردة في تقرير الدولة المعنية، وتستقبل هذه اللجنة حتى الشكاوى الفردية وتحقق فيها، وتطرح على مندوب أي دولة كل أنواع الأسئلة التي ترغب فيها، وتقارن بين الأجوبة وبين المعلومات التي وصلتها من طرقها الخاصة، ولها الحق بعد ذلك أن تقوم بإدانة الدولة المعنية إذا لم تنفذ كل ما يطلب منها في الإتفاقية وحتى ظلال الإتفاقية وما بين سطورها.

٥- ربط بنود الإتفاقية بكل مرافق الحياة، وبكل مشاريع الدولة المختلفة: السياسة، والإقتصاد، والجيش، والبرلمان، ومؤسسات القرار، والتعليم، والصحة، والتوظيف والتدريب والقانون... بحيث إن الدولة المنظمة لابد أن تغير من دينها وثقافاتها وأولوياتها وبرامجها حتى تستجيب لمتطلبات الإتفاقية.

٦- إلزام الدول بالعمل على إزاحة كل العقبات الثقافية والفكرية والقانونية.. التي تعترض تنفيذ الإتفاقية، بما في ذلك الدين والثقافة والهوية الخاصة، بل وتطهير مناهج التعليم ووسائل الإعلام... أيضاً من كل أثر لذلك الدين وتلك الثقافة فيما يتعلق بمخالفتها للإتفاقية، ولقد طلب من باكستان وليبيا أن

يعيدا قراءة وتفسير القرآن ليتوافق مع الإتفاقية.[١] وهذا يعني أن الإتفاقية أصل وكل الأديان والثقافات فرع يقاس عليها، فإن خالفها أمر رفض وأزيح!.

وقد طلب من الصين أن تسمح بالدعارة وتوفير لها الحماية من الاستغلال والإتجار ومخاطر الأمراض[٢] وذلك باعتبارها من حقوق الإنسان!.

٧- الإتفاقية مطاطية وفضفاضة بخلاف الإتفاقيات الدولية المعروفة، وتحمل أوجه كثيرة من التفسير، وربما أن هذا يغري البعض بالتوقيع عليها بحجة إمكانية تفسيرها محلياً، ولكن هذا من الخطأ لأن تفسيرات اللجنة المشرفة عليها ملزمة، وكما تقول البروفسيرة (كاثرين): إن التوقيع عليها يعني التوقيع على كل المواثيق والمناقشات واللوائح والمذكرات التفسيرية الجانبية المؤسسة على هذه الإتفاقية، وتقول إن معارضة الشذوذ الجنسي في بعض الدول الآن حتى ولو برسم كاريكاتيري في جريدة تعرضك للمساءلة القانونية، وهناك محاولات لمنع الوعظ الديني المخالف للشذوذ الجنسي لكونه يعارض حقوق الإنسان.[٣]

والإتفاقية الآن مفسرة فليس هناك مجال للإلتفاف عليها، وهي تعتمد على خطة العمل المطروحة في المؤتمرات الدولية الخاصة بالمرأة مثل؛ نيروبي والقاهرة، وبكين... وهذه المؤتمرات أيضاً واضحة وصريحة في كثير من أهدافها ونصوصها. ومن كثرة مطاطية الإتفاقية فإن هناك بعض الإضافات

---

(١) المصدر السابق: ص٣٠٣، نقلاً عن: (ندوة للإتحاد النسائي الإسلامي حول الإتفاقية)، بالخرطوم.

(٢) الندوة نفسها.

(٣) الندوة نفسها.

جاءت بعد (١٩) عاما من توقيع بعض الدول على الإتفاقية.[1]

٨- وقد يكون هناك مخرج في التحفظ على البنود المخالفة لديننا، كما تحفظت بعض الدول الإسلامية وكثير من الدول غير الإسلامية أيضاً على بنود متعددة من الإتفاقية، ولكن الإتفاقية تنص[2] على عدم جواز التحفظ على المواد التي تعتبر جوهر الإتفاقية وهذا القيد المطلق يجعل أغلب التحفظات التي نحتاجها نحن المسلمين لاغية وباطلة، وسوف يطلب منّا عاجلاً أم آجلاً سحب هذه التحفظات والتنازل عنها والإنقياد للإتفاقية وتفسيراتها.

٩- تمتاز هذه الإتفاقية من الإتفاقيات الدولية بأنها تحكم العلاقات بين المواطنين وهذا استثناء للقانون الدولي، لأن من شأن الإتفاقيات الدولية انها تحكم علاقات الدول مع بعض، وهذا الإستثناء يتطلب من الحكومات أن تفرض هذه التغييرات على المواطنين، وهذا يؤدي – حتى بالمنطق الغربي- الى تغول الدولة على الحياة الشخصية للناس وخصوصياتهم، وهذه الخصوصيات الثقافية لابد أن تنبع من قناعات الناس وإتفاقاتهم، ولا تفرض بنظام دولي، ولا تنبع منه، ولهذا فإن الكثير من المفكرين في العالم يتوقعون فشل مشروع العولمة الإجتماعية وحتى الاقتصادية والسياسية لأنها مشاريع متداخلة في النهاية، وهذا ما أدى بالبروفسير (ريتشارد ويلكنز) الى أن يقول: (إذا كانت الشيوعية سقطت في القرن الماضي لشموليتها، فإن العولمة لا

(١) المصدر نفسه نقلاً عن: عواطف عبد الواحد في (ندوة للإتحاد النسائي الإسلامي حول الإتفاقية).

(٢) الإتفاقية، (المادة ٢٨)

تسقط بل تتحطم لأنها تريد فرض نموذج واحد على العالم).(١)

والغريب أن ديباجة الإتفاقية تتناقض مع جوهر الإتفاقية حيث تشير الى إنهاء التدخل في الشؤون الداخلية للدول با استئصال شأفتها، وتتحدث عن إحترام السيادة الوطنية، ولكن جوهر الإتفاقية وأغلب بنودها عبارة عن تدخل في أخص شؤون البلدان وانتهاك لسيادة الدول في صيم الخصوصيات.

لجنة سيداو ونماذج من تفسيراتها وأسئلتها

اللجنة المكلفة بمتابعة الإتفاقية والمكونة من (٢٣) عضواً من مختلف الدول تقوم بين الحين والآخر بإصدار توصيات، وقد بلغت حتى عام ١٩٩٥ (٢١) توصية وتقوم بدراسة تقارير الدول وتضع ملاحظات ختامية عليه، وهذه اللجنة قامت كذلك بوضع تحليل وتفسير لمواد الإتفاقية في عام ١٩٩٤م في كتاب صدر عن الأمم المتحدة(٢)، وفيما يلي نماذج من الأسئلة والتفسيرات لما ورد في الاتفاقية مجملاً:

١- تسأل اللجنة عن أثر الدين على المساواة بين الرجال والنساء، في سياق السؤال عن القوالب الجامدة للجنسين، والجهود المبذولة لتوعية الرجال والنساء، وتسأل عن دور التعليم والإعلام، وأهمية التعليم في مكافحة الإفتراضات

(١) حركة تحرير المرأة من المساواة الى الجندر، صدر سابق: ص٣٠٥ نقلاً عن: ندوة (ويلكنز – كاثرين).

(٢) المصدر نفسه: ص٣٠٦ نقلاً عن:
The Adrancement of women 1945-1995, The United Nations Book series vol. lsBH92-1-1-100567 United nation publications (1) p.560-578

الجامدة لأدوار النوع، وعن دور المرأة في الأسرة والمجتمع.

٢- في امتداد السؤال عن التعليم، تسأل عن المفاهيم والكتب المدرسية هل تحدد أدواراً معنية للأولاد والبنات في الأسرة، وتسأل اللجنة عن وجود واستخدام إجازة الآباء لرعاية الأطفال (أي ممارسة الأب لدور الأمومة حتى تستمتع الأم خارج البيت أو لتتفرغ لعمل مأجور أهم من طفلها)، وليس غريباً على الإتفاقية التي تعرف الأمومة في المادة الخامسة فقرة (ب) بأنها وظيفة إجتماعية، ومسؤولية مشتركة، أن تسأل عن مثل هذا.

٣- بخصوص (الدعارة) تركز اللجنة على الوضع القانوني كالمنع والتجريم والمقاضاة والعقاب، وهل هو موجه لمن تمارس الدعارة لنفسها وعملائها، أم لمن يحقق ربحاً من دعارة الآخر بالإستغلال لأن الممنوع هو الشق الثاني، أو بعبارة الإتفاقية في المادة (٦): (الإتجار بالمرأة واستغلال دعارة المرأة) أما ممارسة المرأة للدعارة، وحتى إتخاذها حرفة فلا مانع بل هو حق، ولا تنسى اللجنة أن تتفقد أحوال البغايا، (فتسأل عن التدابير الصحية لتحسين الوضع الصحي للبغايا، للحماية من مرض الإيدز، وقد يتضمن ذلك برامج وقائية، كتوزيع الواقي الذكري – للزبائن المحترمين- حتى تكون ممارسة الجنس مأمونة.

٤- نعود الى التعليم حيث تسأل اللجنة عن تعليم الجنس Sex education وتنظيم النسل والترويج له، وهل هذه الأمور مدرجة في المفاهيم التعليمية؟

٥- عن العمل تؤكد اللجنة على (حرية اختيار العمل دون أي قيد مثل أخذ الأذن من الأب أو الشريك، أو أي قريب من الذكور). أنظر الى هذه الندبة والفردية

والأنانية البغيضة حتى الأب لا يستأذن!.

وفي مجال العمل أيضاً تسأل عن قوانين الحماية وتقول: (كذلك منع العمل بالليل وفي عطلات نهاية الأسبوع لأسباب مزعومة ذات العلاقة بالصحة أو الحمل لأبد أن تفحص بدقة - أي هذه الإستثناءات في عمل المرأة- لأنها يمكن أن تنتهك حق المرأة في العمل، وتطلب اللجنة توضيحاً من الدولة العضو لماذا تعتبر بعض الأعمال ضارة أو خطرة للنساء...).

٦- عند الكلام عن الصحة الإنجابية وتنظيم النسل تسأل اللجنة مجدداً عن (تعليم الجنس) وعن موانع الحمل وهل توجد إختلافات في السماح باستعمال موانع الحمل طبقاً للحالة الزوجية، والإجتماعية وفي حرية النساء في استخدامها (يلاحظ عدم اعتبار الحالة الزوجية سبباً للمنع أو عدمه) .. ماذا يعني هذا سوى أن حرية وممارسة الجنس خارج الزواج أمر مكفول؟.. وتسأل اللجنة عن الإجهاض أيضاً وهل هو مباح؟ (بإعتبار أن الإجهاض وسيلة من وسائل تنظيم الأسرة).

٧- عن المادة (١٥) والأهلية القانونية للمرأة، تسأل اللجنة عن مدى التقليل من وزن شهادتها بالمقارنة بشهادة الرجل .. وتقول (في إشارة واضحة للإسلام) إن مثل هذه القوانين والأعراف تحد من حق المرأة في متابعة قضاياها والحصول على حقوقها في الملكية، وتقلل من وضعها كعنصر مستقل مسؤول وذو قيمة في مجتمعه، ويلاحظ هنا الربط بين الشهادة والأهلية القانونية ونقصانها من جانب، وتقليل قيمة المرأة من جانب آخر، وهذا خلط وخبط كبير لأنه لا علاقة بين نقص شهادة المرأة في مجالات محددة لأسباب معروفة وكمال أهليتها القانونية والمالية، والقرآن ركز على عدم ضياع

الحقوق المالية وتوثيقها بأكمل وجه، لا بيان نقصان المرأة وسبب توثيق المعاملات المالية برجلين أو رجل وأمرأتين هو الحرص على عدم ضياع الحقوق.

٨- وعن المادة نفسها (١٥) وفي موضوع (سكن الزوجة) وحرية المرأة في إختيار السكن بعد الزواج ورد: (إن القانون الذي يجعل مسكن المرأة الدائم متوقفاً على مسكن زوجها يعتبر تمييزا).

٩- عن (تعدد الزوجات تقول (اللجنة): (كشفت تقارير الدول الأطراف عن وجود ممارسة تعدد الزوجات في عدد من الدول، وإن تعدد الزوجات يتعارض مع حقوق المرأة في المساواة بالرجل، ويمكن أن تكون له نتائج انفعالية ومادية خطيرة على المرأة وعلى من تعول، ولذا فلابد من منعه).. وتذكر اللجنة بقلق أن بعض الدول الأطراف، التي تكفل دساتيرها الحقوق المتساوية، ومع ذلك تسمح بتعدد الزوجات بموجب قوانين أحوال شخصية أو عرفية، وأن ذلك ينتهك حقوق النساء الدستورية ويخرق أحكام المادة (٥) (أ) من الإتفاقية، وتقول: (بأن العديد من الدول تعتمد في حقوق الزوجين على تطبيق مبادئ القانون العام أو القانون الديني أو العرفي بدلاً من الإذعان للإتفاقية). ويسوق هذا الكلام في معرض الإستنكار والرفض، وأن هذا لابد أن يتغير فتصبح (سيداو) هي المرجعية لا الدين ولا القوانين المحلية.

١٠- عن القوامة وفي معرض الحديث عن المادة (١٦)، ودور القوانين العرفية والدينية في الإخلال بمكانة المرأة المتساوية للرجل، وعدم إقرار المسؤولية المتساوية في الزواج، وتقول: (وكثيراً ما ينتج عن هذا التحديد أن يمنح

الرجل وضع الأسرة ومتخذ القرار الأساسي فيها، وذلك يتعارض مع أحكام الإتفاقية.

١١- وتعليقاً على المادة (١٦) أيضاً لا تنسى اللجنة أطفال الزنا وتعلق - بإستنكار-: (لا تمنح الأبوين نفس الوضع إذا كانا غير متزوجين، ولا يتمتع أطفال هذه العلاقات بنفس الوضع الذي يتمتع به الأطفال المولودون في علاقة زوجية).

١٢- تعليقاً على المادة نفسها وفي موضوع المساواة في الملكية والإستقلال الإقتصادي تقول اللجنة: (وتبعاً لذلك فإن أي قانون أو عرف يمنح الرجل نصيباً أكبر من الممتلكات عند فسخ الزواج أو اثناء الزواج، أو عند موت قريب يعتبر تمييزاً، وسيكون له أثر خطير على قدرة المرأة العملية على طلاق زوجها، أو إعالة نفسها أو اسرتها، كفرد مستقل) ولا شك أن هذا إبطال لأمر تقسيم التركة حسب فلسفة الإسلام الذي يوازي بين الحقوق والواجبات، وكذلك هدي الإسلام في تقسيم الممتلكات بعد فسخ الزواج حيث إن الإسلام لا يظلم المرأة ولكنه لا يظلم الرجل أيضاً بحرمانه من حقه وإعطائه للمرأة بعد الطلاق دون حق معلوم وتعليل منطقي، ووجود قوانين كهذا في الغرب سبب عزوفاً جماعياً عن الزواج وآثاراً خطيرة، وأي عقل يسوغ أنه بمجرد الدخول في حياة زوجية مع امرأة، ثم حصول الفراق لسبب قد يكون منطقياً جداً وقد تكون المرأة هي السبب فيه أن تأخذ المرأة المطلقة نصف ممتلكات الرجل!

ومرة أخرى تؤكد اللجنة على عدم جواز التفرقة في هذين الحكمين بين

المتزوجين والمقترنين مع بعض من غير زواج، لأنهما سواء في الحكم حسب منطق الإتفاقية.

وفي موقع آخر تؤكد اللجنة على ضرورة تقسيم الميراث بين الجنسين بالتساوي وتقول: (أن تكفل للرجال والنساء في نفس درجة القرابة للميت أنصبة متساوية في الممتلكات وفي نظام الخلافة).

١٣- يلاحظ أن الإتفاقية متشددة جداً في حق زواج البنات دون (١٨) سنة والذي حدد سنًا أدنى للزواج ويلزم به الدول الأطراف، ولكنها في حق ممارسة الجنس للمراهقين دون سن الزواج لا تبدي أي قلق، بل تدعو لعلاج آثارها فقط من خلال (تعليم الجنس والتثقيف) و (حبوب منع الحمل) و (الإجهاض).

١٤- وأخيراً تعطي هذه الإتفاقية دوراً مهمًا للمنظمات الأهلية، وتشجع على تمويلها بالملايين في جميع أنحاء العالم وتحدد لها ثلاثة أدوار بحسب ما ورد في إصدارة (يونيفام Unifem)

الأول: هو كسب التأييد لإقناع الحكومات بضرورة التوقيع.

الثاني: (بعد المصادقة) تقوم هذه المنظمات بالعمل على أن تسحب الحكومات تحفظاتها.

الثالث: تسعى هذه المنظمات لإلغاء التشريعات الوطنية المخالفة، وإدخال قوانين الإتفاقية في التشريعات الوطنية.

ولقد أشرنا الى الدور الأخطر لهذه المنظمات في رقابة الحكومات وتقديم

تقرير الظل (Shadow report) للجنة (سيداو)، وفي هذا يمكن الاستشهاد بنموذج ورد في إحدى إصدارات (يونيفام) وهو أن دولة زيمباوي رفعت تقريراً للجنة الإتفاقية، ورسمت فيه صورة جميلة لوضع حقوق المرأة بناءً على قانون كان موضوعاً منذ الثمانينات، ثم ذهب مجموعة من نساء هذه المنظمات الأهلية الى نيويورك من بينها منظمة اسمها (LAMA) وأوصلن تقريرهن الخاص وذكرن معلومات مناقضة للتي ذكرتها الحكومة، ورجعن الى بلدهن مع ضغوط دولية من اللجنة وطالبن بإجازة قانون طرحنه، ورغم معارضة بعض نواب البرلمان بحجة أن القانون سيفكك الأسرة، ولكن جهود هذه المنظمات أدت الى تشريعه وإلتزام الحكومة به.[1]

ولقد تقصدنا بنقل بنود إتفاقية (سيداو) كاملة وبعض إجابات ومقررات اللجنة المكلفة من قبل الأمم المتحدة لمتابعة تنفيذ بنود الإتفاقية، ليكون القارئ الكريم على إطلاع كامل لما يجري حوله في العالم، وكيف يسعون الى هدم المرتكزات والمباني العرفية والدينية تحت مسميات فضفاضة ومغرية ظاهرها أنها حامية لحقوق المرأة والمحافظة على إنسانيتها من الضياع، وأما باطنها الخراب والتفكيك الأسري والإجتماعي الذي ينذر بإنهيار بشري كامل إذا ما تحققت تلك التوصيات والأهداف التي تشرعن تحت غطاء المنظمات العالمية الكبرى.

---

(١) حركات تحرير المرأة من المساواة الى الجندر: مصدر سابق، ص١٠٦ وما بعدها بتصرف، وقد اعتمد على بيان تفسيرات وتوصيات اللجنة الدائمة في الأمم المتحدة الواردة في كتاب صدر عن الأمم المتحدة :

The Adrancement of women 1945-1995, The United Nations Book series vol. lsBH92-1-1-100567 United nation publications (1) p.560-578

علماً أن ٦٠٪ من أعضاء المنظمات الأنثوية في أمريكا سحاقيات... وهذه المنظمات الامريكية وأمثالها في الغرب هي المسيطرة على لجنة المرأة في الأمم المتحدة، ومن خالها فرضت وتفرض شذوذها الفكري والسلوكي على العالم أجمع، من خلال المواثيق الدولية التي تعولم تحت علم مؤتمرات المنظمة الدولية – من وثيقة مؤتمر السكان ١٩٩٤م... الى وثيقة مؤتمر بكين ١٩٩٥م... الى وثيقة مؤتمر المرأة ٢٠٠٠م... الى وثيقة الطفل... ووثيقة إلغاء كافة اشكال التمييز ضد المرأة (CEDAW)"[1].

وفي هذا الصدد تقول الاستاذة الامريكية (كاثرين فورت): إن المواثيق والإتفاقيات الدولية التي تخص المرأة والأسرة والسكان، تصاغ الآن في وكالات ولجان تسيطر عليها فئات ثلاث: (الأنثوية المتطرفة) و (أعداء الإنجاب والسكان) و (الشاذين والشاذات جنسيا) وإن لجنة المرأة في الأمم المتحدة شكلتها امرأة اسكندنافية كانت تؤمن بالزواج المفتوح، ورفض الأسرة، وكانت تعتبر الزواج قيدا، وأن الحرية الشخصية لابد أن تكون مطلقة، ولقد انعكس هذا المفهوم للحرية في المواثيق التي صدرت عن هذه اللجنة، فالتوقيع على اتفاقية (CEDAW) يجعل معارضة الشذوذ الجنسي – حتى ولو برسم كاريكاتوري- عملاً يعرض صاحبها للمساءلة القانونية، لكون هذه المعارضة معارضة لحقوق الإنسان."[2]

وبناءً على ذلك يعتبر الجندر/ الجنوسة، إجتيازاً لآخر الحواجز على طريق تحقيق العدالة بين الرجال والنساء، لأنه يشمل التحول في المواقف والممارسات

(١) حركات تحرير المرأة من المساواة الى الجندر: مصدر سابق: ص٧.

(٢) نفس المصدر: ص٧.

في كافة المجالات. ولذلك حسب نظرة الدراسات الجندرية أن المرأة هي النوع الإجتماعي الذي يحتاج الى تعديل دورها الإجتماعي.

ومما يلفت الإنتباه أن مفهوم الجندر لا يستند الى أية مقدمات علمية أو حتى نظريات علمية أو فلسفية، إنه لا يتعدى كونه مقولة انتجتها الليبرالية المتطرفة والحركة النسوية (الأنثوية، فيمينزم) في موقفها من المرأة، ويعود تاريخ الحركة النسوية إلى القرن التاسع عشر حيث برزت في إطار الثقافة البرجوازية الليبرالية في فرنسا وبريطانيا وأمريكا. وتقوم الحركة النسوية منذ بدايتها على فكرة خاطئة مفادها أن العدالة بين الرجال والنساء تتحقق بالمساواة، وهذه الفكرة- أي فكرة أن العدالة تعني وتحقق المساواة- هي من أكثر الأفكار سطحية وانتشاراً في ثقافة القرن التاسع عشر والعشرين، وقد أثبتت التجربة الشيوعية في روسيا خطأ هذه المقولة على المستوى الاجتماعي ككل، وذلك أن المساواة لا تعني ولا تحقق العدالة، كما أن المساواة بحد ذاتها ليست خيراً محضاً، وليست الفوارق شراً محضاً. وإن العلاقات بين الرجل والمرأة هي خير دليل على ذلك، إذ أن هذه العلاقة تسعى لتحقيق التكامل ومن ضرورات التكامل وجود التمايز، لأن التكامل لا يتحقق بين المتشابهين.(1)

إن القيمة الإنسانية لكل البشر هي قيمة واحدة لكن تختلف أدوارهم ومكانتهم.

وفي هذا السياق يقول الشهيد مرتضى مطهري: إن المبدأ الذي استند إليه المعترضون هو تلازم تساوي المرأة والرجل في الإنسانية مع وجوب تساويهما في

(١) من مقال في موقع الشبهات الإعلامي.

الحقوق. وهنا يجب أن نأخذ بنظر الاعتبار مبدأ فلسفياً آخر هو: ماذا يستلزم تساوي المرأة مع الرجل في الكرامة الإنسانية؟ هل يستلزم تساويهما في الحقوق بشكل ليس فيه تفضيل أو تمييز، أم أنه يستلزم أن تكون المرأة والرجل علاوة على التساوي متشابهين في الحقوق وليس بينهما تقسيم في الواجبات والأعمال؟ فنقول: إن ممّا لا شك فيه هو أن تساوي المرأة والرجل في الكرامة الإنسانية يستلزم تساويهما في الحقوق الإنسانية، أما أن يتشابها في الحقوق فذلك شيء آخر.

فإذا أردنا أن نتخلى عن التقليد الأعمى لفلسفة الغرب، وأجزنا لأنفسنا أن نتأمل في ما وصلنا منهم من أفكار وآراء فلسفية، فلننظر هل أن التساوي في الحقوق هو نفس التشابه في الحقوق أم لا؟ إن التساوي غير التشابه... فالكم غير الكيف، والتساوي غير التشابه والتماثل، فإن من المسلم به أن الإسلام لم يمنح المرأة والرجل حقوقاً من نوع واحد ولون واحد، لكنه لم يفضل الرجل على المرأة في الحقوق. فلقد راعى مبدأ المساواة في الإنسانية بين المرأة والرجل، ولكنه لا يقر التشابه بينهما.

فمن المسلمات أن الإسلام لم يضع للمرأة والرجل في المجالات حقوقاً متشابهة، كما أنه لم يضع عليها في جميع المجالات تكاليف وعقوبات متشابهة، ولكن هل معنى ذلك أن مجموع الحقوق التي منحها للمرأة أقل قيمة وأهمية من الحقوق التي منحها للرجل؟ بالطبع، لا.[1]

إن فكرة المساواة هذه هي التي قامت على أساس كل الحركة النسوية، وقد

(١) نظام حقوق المرأة في الإسلام: مرتضى مطهري، ترجمة د. ابو زهراء النجفي، تحقيق عبد الكريم الزهيري، نشر دار آينده درخشان، قم، ط٢، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م: ص١٣٢ وما بعدها بتصرف.

دخلت الحركة النسوية مرحلة هامة في تاريخها مع ولادة المنظمة الدولية التي تبنت مقولاتها وآرائها وعملت على تحقيقها. فمع بداية السبعينات من القرن العشرين قامت المنظمة الدولية بتطوير منظور المرأة في التنمية women in Development الذي يسعى للخروج بالنساء من دورهم الإنجابي الذي تم تأطيرهم فيه الى الدور الإنتاجي، وذلك عبر برامج الرعاية: (welfare) ومكافحة الفقر (Elevation povation) والتمكين الإقتصادي والإجتماعي (Empower ment) وغيرها من البرامج التي كانت تدعم المشروعات الصغيرة الخاصة بالنساء وتقدم لهم القروض الإنتاجية وغيرها بهدف تعزيز المكانة الإقتصادية للمرأة كمقدمة لتمكينها الإجتماعي وتعزيز دورها في الأسرة والمجتمع، لكن النتائج الضئيلة لهذه البرامج في تحقيق أهداف الحركة النسوية دفعت نحو تطوير مدخل جديد تم تسميته (المرأة والتنمية (women and development الذي يحتل فيه مفهوم (الجندر والتنمية Gender and development) مكانة مركزية. وقد جاءت هذه التغيرات في الإستراتيجية نتيجة المناظرات القائمة بين رواد التيارات المختلفة في حركة الفيمينزم، وإزدياد الإنتقادات المواجهة لتطبيقات مفهوم (المرأة في التنمية) وضعف النتائج الفعلية التي أفرزتها هذه الممارسة في مجتمعات العالم من خلال الدراسات التقييمية التي أظهرت أن التيار الليبرالي من الحركة النسوية لم يفلح في القضاء على تبعية النساء من خلال دفعهن للإنخراط وبقوة في الأدوار الإنتاجية داخل المجتمع، وخاصة داخل مجتمعات العالم الثالث.

لذلك بدأت التيارات الراديكالية في الحركة بتقديم مقاربة جديدة تمزج بين التأثير الإقتصادي والتغيير الثقافي، وتوصف بأنها: تنقل مقاربة الجندر والتنمية

(GAD) من التركيز على النساء الى التفكير في إعادة إنتاج شكل العلاقات بين النساء والرجال، وفي الطرق التي اعتمدت في بناء مفهوم الذكورة والأنوثة.[١]

إن مفهوم الجندر من أخطر المفاهيم التي تسعى المنظمات الدولية والأهلية لتسويقها في مجتمعاتنا، وهذه المنظمات وإن كانت لا تطرح المضمون الحقيقي لمفهوم الجندر، لكنها تكتفي بترويج المصطلح كمرحلة أولى، في حين تعمل أطراف أخرى على اعطائه قوّة قانونية من خلال زجه وإدخاله في نصوص قانونية دولية – كإتفاقية سيداو التي تكلمنا عنها سابقا- والتعديلات التي تجري على معاهدة حقوق الإنسان، بما يتناسب وضمان الحقوق القانونية لكافة أشكال الشذوذ، كما حصل على إثر القضية التي آثارها أحد الشواذ الإستراليين (نيكولاس تونون) عام ١٩٩٦م الذي ادّعى أمام لجنة حقوق الإنسان أن المعاهدة الدولية لا يوجد فيها أي إشارة الى الحقوق الجنسية، وأن القانون الاسترالي ينص على عقاب من يمارس السلوك الجنسي الشاذ، فما كان من هذه اللجنة الدولية سوى أنها قامت بتوسيع نص الإتفاقية الموقّع عليها من دول العالم بما يخالف إرادة كثير من هذه الدول، لتشمل حرية الحياة الجنسية غير النمطية، وعدم جواز تدخل الدولة – أي دولة من الدول الموقعة على المعاهدة الأساسية- في الحياة الخاصة للأفراد، تحت أي باب من الأبواب سواء المصلحة العامة أو حماية الأخلاق أو منع انتشار الأمراض.![٢]

---

(١) حول هذه المفاهيم ينظر: بريدج، الجندر والتنمية، ملخص التقرير BRIDGE 2000 CTRD معهد دراسات التنمية، تشرين الثاني 2001، ملخص التقرير العام لـ (سوبيريا أكيرا كاد)./ عن موقع الشهاب الإعلامي.

(٢) عن مقال نشر في موقع الشهاب الإعلامي.

هذا وإن تحديد موقع الجنوسة (الجندر) ضمن حقل الثقافة الكثير الجوانب قد أصبح الوسيلة الأساسية لتحدي الحتمية المفترضة لخضوع النساء، وجزءاً مما دعاه المؤرخ جوان سكوت، متطلعاً الى الوراء عبر ما يزيد على قرن من البحث النسوي، أرضية حقيقية وتفكيكاً للذكورة والأنوثة سعياً الى تقليل أو تقليص قدرة البيولوجيا البشرية على دعم (الصفة الثابتة والدائمة) بشكل زائف لهذه المصطلحات.(١)

ولقد وضع ستولر المحلل النفساني وعالم الإناسة الفارق بين الجنس والجندر/ الجنوسة، بقدر ما يمكن لأي شخص منفرد أن يفعل، على الخارطة لأجل الكتّاب والباحثين في الإنسانيات والعلوم الإجتماعية. لكن إذا كانت أفكاره الأساسية قد أصبحت شائعة بسرعة، فإنها أيضاً سرعان ما استعملت بطرق لم يكن قد تنبأ بها. فمع الإحياء الهائل للسياسة النسوية في أميركا الشمالية وأوروبا الغربية في أواخر الستينات، جاءت المحاولات المتجددة لفهم ومناقشة الظروف الاجتماعية السيئة التي مرت بها النساء وحشر فصل ستولر الجنس عن الجنوسة في الخدمة بوصفه الحد القاطع من نقد الهيمنة الذكورية.(٢)

فعندما بدأت كيت ميليت (Kate Millett) برسم الخطوط العامة لنظريتها حول البطريركية في كتاب السياسة الجنسية (1970/ 1977)، الذي كان أحد النصوص المؤسسة لنسوية الموجة الثانية، اعتمدت على عمل ستولر لإثبات حجتها أن (الذكر والأنثى هما في الواقع ثقافتان) نظراً لأن أدلته بدا أنها تلقي الشك

---

(١) الجنوسة: ديفيد غلوفر-كورا كابلان، ترجمة عدنان حسن، نشر دار الحوار، سورية، ط١، ٢٠٠٨م: ص٣٢.

(٢) نفس المصدر: ص٣١.

على (مشروعية واستمرار الهوية النفسية- الجنسية) كحقيقة من حقائق الحياة. مع ذلك، بالمراهنة على هذا الزعم، كانت ميليت تتحرك بشكل فعلي في الاتجاه المعاكس تماماً للتنظير التحليلي النفسي العالي الفردانية لستولر، لأنه، عندما أعادت صياغة تفريقه لتقرأ: (الجنس بيولوجي، الجنوسة/ الجندر سيكولوجية) وبالتالي فهي ثقافية، لم تكن تبعد سوى خطوة واحدة عن إرجاع التضاد بين الجنس والجنوسة إلى ذاك الفارق بين الطبيعة والثقافة.(١)

وهناك مقال لـ (غايل روبن Gayle Rubin) في عام ١٩٧٥م بعنوان (المتاجرة بالنساء): ملاحظات حول الإقتصاد السياسي للجنس، في تحليل نظري وعبر ثقافي واسع الطيف، جادلت روبن بأن كل مجتمع معروف يمتلك ما تدعوها (منظومة جنس/ جنوسة (جندر)، أي: (مجموعة من الترتيبات تشكل بموجبها المواد الخام البيولوجية للجنس والتناسل البشري عن طريق التدخل البشري، الإجتماعي، وتستوفي بطريقة إصطلاحية، بغض النظر عن مدى غرابة بعض الإصطلاحات.

مثلما أن الجوع يمكن إشباعه بأي عدد من الأنواع المختلفة من الطعام، كل واحد منها (يعرّف ويستحصل ثقافيا) كذلك فإن الجنس، في أي مجتمع مفترض، يتم ترشيحه (تصفيته) عبر مدونات القوانين السائدة ثقافيا التي تنظم السلوك المقبول لدى الرجال والنساء. لكن هذه المدونات تضبط ليس فقط (العلاقات الإجتماعية للجنسانية) بل تحدد أيضاً التقسيم الإجتماعي بين الجنسين، الأساس الذي يوضع عليه الرجال والنساء في (فئتين متبادلتي الاستبعاد). إن روبن، إذ تشير الى ما كانت تراه بوصفه الإعتباطية المتأصلة في هذه المناطق [جمع منطق]

---

(١) نفس المصدر: ص٣١.

التصنيفية، تلح على أن: الرجال والنساء مختلفون بالطبع، لكنهم ليسوا مختلفين كما الليل والنهار، الأرض والسماء، اليين واليانغ، الحياة والموت، في الحقيقة من وجهة نظر الطبيعة، الرجال والنساء أقرب الى بعضهما البعض من أي شيء آخر، على سبيل المثال، الجبال، حيوانات الكنغارو أو نخيل جوز الهند. إن فكرة أن الرجال والنساء هم أكثر إختلافاً عن بعضهما البعض من إختلاف اي منهما عن أي شيء آخر، لابد أن تأتي من مكان غير الطبيعة... الهوية الجنوسية الحصرية، بعيداً عن كونها تعبيراً عن إختلافات طبيعية، هي قمع للتشابهات الطبيعية. إنها تتطلب الكبت لدى الرجال، كبت أي طبيعة محلية من الصفات الانثوية، لدى النساء، كبت التعريف المحلي للصفات الذكورية، إن لإنقسام الجنسين تأثير كبت بعض الخواص المميزة للشخصية، لكل شخص على نحو إفتراضي، رجالاً ونساءً.(1)

ولكن الحقيقة هنا إن إختيار معنى الإختلاف بين الليل والنهار، والأرض والسماء، أو حتى الموت والحياة ودفع مقارنتهما بالإختلاف الموجود بين الرجل والمرأة، على إعتبار إنه إختلاف بالطبع، لم يكن إختياراً موفقاً، فإن الإختلاف بين الرجل والمرأة يمكن مقارنته بالإختلاف الموجود بين الليل والنهار أو الأرض والسماء، فنحن وإن نرى الفرق واضح بينهم، ولكن بالرغم من ذلك لا يمكن أن ينفك أحدهما عن الآخر، فهما أبداً متلازمان ومترابطان، فأنت بمجرد أن تذكر الليل في ذهنك تذكر النهار، وكذلك ما أن تذكر السماء تحضر الأرض في ذهنك، فالبرغم من اختلافهما تكويناً لكن هناك إلتقاء وترابط وثيق بينهم، لا يمكن إزاحته أو حتى تجاهله. وكأن هذا الرباط الذي بينهما هو أيضاً رباط

---

(1) نفس المصدر: ص٣٣.

مقدس كرباط الزوجية بين الرجل والمرأة، فهو يجمع بين شيئين مختلفين بالطبع وبالتكوين. لكن هناك عطاء وحياة لا تتم إلّا بهذا الترابط وعدم الإنفكاك، فكما أن الحياة لا يمكن أن تطاق من دون وجود الليل ووجود النهار، وكذلك لا تطاق لولا السماء والأرض، فكذلك لا تطاق، ولا يمكن للجنس البشري أن يدوم، لولا ذلك اللقاء والرابط المقدس بين الرجل والمرأة.

ولذلك كثيراً ما يقال بأن الليل والنهار متداخلان، وكأن أحدهما ستراً ولباساً للآخر، حتى كان ثمرة لقائهما وهو الفجر أجمل شيء في هذا الوجود، لأنه يدل على الحياة والإستمرار، وكلما أشرق فجر جديد، بدأ عهد جديد وميثاق جديد، فيه يسعد المرء أو يهان. وكذلك إرتباط السماء بالأرض، حتى مثلت السماء في أدبيات وعقائد الحضارات الأولى للإنسان الجانب الذكوري والأرض الجانب الأنثوي وكأنها الرحم الذي يولد الأشياء، فكما رحم المرأة يحتاج الى ماء الرجل ليتكون الطفل، فكذلك الأرض تحتاج الى ماء السماء لتنبت وتخرج ثمارها، التي تعين الحياة في إستمرارها بهذا الوجود.

فكذلك حال الرجل والمرأة إختلاف فيما بينهما بيولوجيا/ طبيعياً وطبعياً/ ثقافياً، ولكن لا يمكن لهما أن يفترقان ولا يمكن أن يكون لأحدهما تقييما يختلف عن الآخر، فكلاهما إنسان له قيمته الوجودية التي لا يمكن أن تؤدى من قبل غيره إطلاقاً. فهكذا هي الطبيعة أشياؤها كثيرة، وهي تختلف بعضها عن البعض الآخر، في الشكل والتكوين والأدوار، ولكنها تلتقي بعضها مع البعض الآخر على نحو التلازم، لتنتج أشياءً تعين الحياة في الإستمرار. فالإختلاف بين المرأة والرجل لا على نحو التضاد والتناقض، وإنما هو إختلاف طبعي، ولكنهما يلتقيان، ولا يمكن لهما أن يلتقيان ويمدان الوجود بالأطفال،

لولا الإختلاف الذي نحن نتكلم بصدده الآن.

فإذن الجنوسة لا كما تقول بتلر بإنها هوية يتم تكوينها على نحو غامض في سياق الزمن، وتدشن في فضاء خارجي من خلال تكرار مؤسلب للأفعال. بحيث يحدث تأثير الجنوسة من خلال أسلبة الجسد وبالتالي، يجب فهمها بوصفها الطريقة الدنيوية التي تشكل بها الإيماءات والحركات والأساليب الجسدية من مختلف الأنواع وهم ذات مجنوسة دائماً.

وكذلك لا يمكن قبول قول سيمون دي بوفوار في كتابها (Le Deuxieme Sexs): (لا يولد الإنسان امرأة، بل يصبح امرأة) وهي تشير بذلك الى إختلاف المعادلة بين الرجال والنساء في المجتمعات، لتظهر بعد ذلك الإتنولوجية (مرغريت ميد) لتنتقد وبعنف فكرة (الأنوثة الأزلية) حيث قالت أن صفات كل جنس إنما تتغير بتغير الشعوب.[1]

وسيأتي إن شاء الله الرد وبشكل أوسع على مثل هذه الآراء في الأوراق القادمة.

وفي كتابها (الجنس الآخر) تقول: إن تاريخ النساء كان من صنع الرجال، لذلك كانت مسألة المرأة دائماً مسألة رجال، فهم الذين أمسكوا دائماً بمصير المرأة بين أيديهم، ولم يقروا فيه تبعاً لمصلحتها، بل أخذوا بعين الإعتبار أهدافهم الخاصة ومخاوفهم وحاجاتهم. فلم يقدسوا –الآلهة الأم– إلّا لأنهم كانوا يخشون الطبيعة، وما أن سمحت لهم الأدوات المعدنية بتحدي هذه الطبيعة، حتى

(١) ينظر: معجم العلوم الإنسانية: إشراف جان فرنسوا دورتيه، ترجمة د. جورج كتورة، نشر المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط١، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م: ص٣١٥.

أوجدوا النظام الأبوي، إن النظام الإجتماعي القائم على الملكية الخاصة هو الذي جرّ الى الوصاية على المرأة المتزوجة، والثورة الصناعية التي حققها الرجال هي التي حررت نساء اليوم. والحركة النسائية لم تكن في يوم من الأيام حركة مستقلة، بل كانت الى حد ما أداة في يد السياسيين، والنساء لم يشكلن قط طبقة منفصلة. والحقيقة إنهن لم يحاولن مطلقاً لعب دور في التاريخ كنساء. والعقائد التي تعتبر المرأة كجسد وحياة وجمود كـ (جنس آخر) هي عقائد ذكور لا تعبر بحال من الأحوال عن المطالب النسائية. إن أغلبية النساء ترضى بحظها دون أن تقوم بأية محاولة عمل، واللواتي حاولت تغيير حظهن والتدخل في مجرى العامل، فعلن ذلك بالإتفاق مع الرجال ومن خلال وجهات نظرهم.(١)

وتقول الباحثة آمال قرامي: إن التنشئة الإجتماعية تعمل على إرساء الفروق بين الجنسين، ويحدث هذا التمييز بطريقة واعية لتحقيق أهداف محددة كالحفاظ على التراتبية الإجتماعية وتجانس عناصر المجتمع وغيرها، كما يمكن له أن يتم بشكل غير واع منبثق عن البنى الذهنية. وبدا لنا أن التنشئة قائمة على تصوّر واضح المعالم، شامل للفرد المرغوب حسب ظروف محددة منها الإجتماعي والإقتصادي والثقافي. ومعنى ذلك أن النظرة الى الخصائص المكونة للأنوثة أو للخصائص المكونة للذكورة محكومة بحاجات المجتمع ومصالحه المختلفة من عصر الى آخر. فبإمكان الجماعة في ظروف مغايرة أن تمنح الأنثى تربية تخالف جنسها، مما يبرهن على أن خصائص الذكورة أو الانوثة ليست وليدة عوامل

(١) الجنس الآخر: سيمون دي بوفوار، ترجمة ندى حداد، نشر دار الأهلية، الأردن، ط١، ٢٠٠٨م: ص٥١.

فيزيولوجية بقدر ما هي من صنع الثقافة ومحصّلة اختيارات الجماعة.[1]

ثم تقول: قادنا البحث الى تبين العلاقة الوثيقة بين التنشئة والسلطة، فالتهذيب لا ينجح في بناء الأفراد بناءً إجتماعياً ورمزياً إلّا متى تمكن من السيطرة عليهم بواسطة أعوان التنشئة الذين يجسدون السلطة. وتصدر التربية عن مركز السلطة المباشر: الأب والمؤدب والشيخ وغيرهم، وعن مركز السلطة غير مباشر ممثلاً في الأم والجدّة والحاضنة وغيرهن. وتتم التنشئة بالطابع التسلطي وتعاش أشكال هيمنتها تحت غطاء الرعاية الأسرية، وتحت شعار الحب الأبوي أو الأمومي أو الأخوي، وحسب منطق الواجب والمكروه والحرام واللائق والمألوف والطبيعي الى غير ذلك. وهو أمر يثبت أن اكتساب الخصائص الذكورية أو الأنثوية يتم في إطار الإلزام والجبر.

والتربية مؤسسة تسلط مرتكزة على الإكراه والضغط والقوة والعنف. وهي قادرة على إخضاع الفرد حتى يستجيب للأنموذج الذي حددته سواء كان ذلك للذكر أو للأنثى. فكانت صناعة البنت قائمة على التصرف في جسدها حتى يكون ناطقاً بما انبنى عليه النظام. ومستحباً للصفات التي ترضي رغبات المجتمع ومصالحه. كما كانت هذه الصناعة عاملة على تطويع فكر الفتاة حتى تكتسب المعارف المنشودة التي تريدها الجماعة، وترى أنها تلبّي احتياجاتها.

ونتيجة لذلك بدت الذات الأنثوية محاصرة بجملة من القيود التي فرضت عليها عن طريق الطقوس العنيفة، وهو عنف يبيح التحكّم في الفرد من خلال

---

(١) الإختلاف في الثقافة العربية الإسلامية: آمال قرامي، نشر دار المدار الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م: ص٣٣٧.

إحكام السيطرة على جسده."[1]

ولما كان الجماعة في حاجة الى النظام الرمزي فقد اتخذت الجسد فضاءً لتمارس من خلاله سلطتها فتكتب عليه أوامرها وقوانينها وتطلعاتها معتمدة في ذلك على العلاقات السيميائية والممارسات الإجتماعية والطقوس والخطاب الديني والخطاب الميثي. وجليّ أن كل فعل سلطوي لا يكون إلّا إذا كان فعلاً على الجسد وفي الجسد. وبذلك كانت السلطة فن صناعة الأجساد أو إعادة صنعها. وكلما استحوذت السلطة على الجسد احتفلت به، مزهوة بإمتثاله للمعايير السائدة فكان جسماً جديراً بالدمج. أما الجسد المستعصي الذي تجاوز الأوامر والنواهي وارتأى أن يختار العدول عن المألوف فقد كان مآله العزل والإقصاء والتشهير به. كما لقي الجسد الذي لم يبلغ الكمال والمصير نفسه.

ويتم ترويض الجسد بواسطة عدّة آليات منها الخطاب الصادر عن أعوان التنشئة، وهو خطاب لا يولد المعاني والدلالات فحسب، بل يفرز سلطة ويساعد على دعم كل السلطات. فأن تقول للغلام: (أنتَ رجل) معناه إقرار بإمتلاكه حق السيادة على الأنثى، واعتراف بحقه في ممارسة سلطة على النساء، مما يدعم إحساسه بشرف منزلته وعلوها، وأن تقول له: (أنت فتاة) معناه انك تستنقصه لأنه لم يكن في مستوى ما تنتظره الجماعة منه من قدرة على مدّها بالحجج والبراهين التي تخوّل لها الإعتزاز بإنتمائه إليها."[2]

وبالإضافة الى توخي الجماعة أسلوب الترغيب في فضائل الرجولة والترهيب

---

(١) المصدر نفسه: ص٣٣٨.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٣٩.

من لواحق الأنوثة تتضح لنا من خلال تفكيك الخطاب مدى رغبة المجتمع في تنميط الأجساد. إذ ليس بإمكان الفرد أن يختار الصفات التي تعجبه، بل هو إزاء نموذج واحد للأنوثة، ونموذج محدد للذكورة يخضع له الجميع. فيصبح الفرد نتيجة ذلك رهين الفعل، أو الممارسة السلطوية وإختياراتها، كما أنّه يتحول الى بؤرة تلتقي عندها علاقات القوى. ومن خلاله وبه تدرك السلطة ويتأسس الخلاف.»[1]

وبالتالي تصل قرامي الى نتيجة: ليست الأنوثة حينئذ طبيعية بقدر ما هي صناعة، إذ وقع تصنيم جسد البنت وإختزاله في بعد واحد، وهو بعد الجسد الشهواني، ثم تم إبعاد الفتاة عن أفضية السلطة، وإقصاؤها عن المركز وعن الأدوار التي تخول لها ممارسة سلطة ما، كما تم العمل على قصر دورها على الإقناع والإنجاب والرعاية والخدمة بدلالاتها المختلفة: خدمة الزوج والعيال والمجتمع والسلطة. ونتيجة لذلك لم يكن بمقدور البنت أن تمتلك جسدها. ولم يكن من حقها أن تختار طريقة عرضه على الركح الإجتماعي، لأنها مجبرة على التعبير عن رؤية المجتمع للأنوثة من خلال جسمها وبواسطته. فالفرد لا يكتسب خصاله وصفاته إلّا من خلال العلاقات التبادلية مع الآخرين وإنخراطه في النظام الرمزي.»[2]

ثم إن خوف الرجل من المرأة يثبت أن الإختلاف البيولوجي لا يعدّ أصل التفريق بين الجنسين إنّما هو الإختلاف الإجتماعي الذي أسس لهذا الإختلاف. فجوهر الذكورة ليس أصلياً وفطرياً مثلما تزعم الثقافة، بل يكتسب من خلال

(١) المصدر نفسه: ص٣٣٩.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٣٨.

الدربة والمعاناة والمكابرة. ولذلك يعيّر الرجل بأنه لا يمتلك صفات الرجولة.[١]

وقد أشارت الأنثربولوجية (فرنسواز هريتيه) في كتابها:

(masculine/Feminin, La pensee de La difference 1996)

الى أن أسباب السيطرة الذكورية إنما تعود الى خوف أصيل عند الرجال من النساء لإمتلاكهن القدرة على الإنجاب أي على تخليد الحياة. من هنا إهتم الرجال بإقامة مؤسسات تساعد على رقابة النساء اللواتي يعود أمر الخصوبة لهن.[٢]

وعلى ضوء ما عرضناه فهم يعتبرون الجندر بكامله تقريباً هو النتيجة الإجتماعية، وليس البيولوجية، لحركة المجتمع، وعلى هذا الأساس فإن البنية الإجتماعية لم تعد واقعة إجتماعية – أي تحدث بإكراه خارجي- كما يذهب الى ذلك دوركهايم، بقدر ما أصبحت إنجازاً يشترك الجميع فيها.

وفي الحقيقة إن الذين يقدمون الهوية الجندرية يريدون الإلتجاء الى طقسنة جديدة للأفعال، تاركين خصائص بنية الإستعراضات[٣]البشرية، وما يثير الإهتمام بشكله الطبيعي بين الرجل والمرأة، وهم يسعون بذلك الى نزع الإستعراضات البشرية من سياقها الأصلي وإعادة تأطيرها على أنها سخرية، أو إغاظة كما يقول عالم الإجتماع أرفينغ غوفمان في كتابه البناء الإجتماعي للهوية الجنسية.

---

(١) المصدر نفسه: ص٧١٢.

(٢) معجم العلوم الإنسانية: مصدر سابق: ص٣١٥.

(٣) الإستعراضات (displays): أنها أحداث تشير الى الهوية والمزاج والقصد والتوقعات والعلامات الخاصة بالممثلين.

والآن لو تساءلنا هل هناك هدفاً خاصاً من خلق الرجل والمرأة، يكون مرتبطاً بوجود الإختلاف فيما بينهما على نحو التلازم وعدم الإنفكاك أو الإنفلات، ولعدم وجود الفوضى والعبثية في الخلق الإلهي، فالنتيجة يجب أن يكون هنالك هدف حقيقي من ذلك، أي أن الهدف حتى يتحقق لابد أن يوجد إختلاف بينهما – وذلك لأن الهدف قد تعلق بهذا الإختلاف- وإلّا لخلقهم متشابهين لا يختلف أحدهما عن الآخر، ولرفع عنّا هذا التنازع المزعوم، من أجل الوصول الى التساوي في كل شيء بين الرجل والمرأة.

ولذلك خلق الرجل واعطاه صفات وزود بقابليات جسدية وبيولوجية تختلف عن ما أعطاه في خلق المرأة، لكي ينهض بهذا الإختلاف الجسدي والبيولوجي كلٌّ منهما بمهامّه التي يفترض عليه القيام بها على أكمل وجه. وحينئذ تصبح مسألة تغيير النمط الإجتماعي، وتبادل الأدوار خارجة عن الهدف المقصود ومضيعة للوقت، وهي بعيدة عن الإتجاه الموضوعي في توزيع الأدوار بين الرجل والمرأة، حتى وإن كانت تتعاطى هذه المسألة بقرارات تشريعية مقصودة. وذلك لأن التشريع الوضعي شيء، والجانب الموضوعي شيء آخر، ولا يمكن أن يحدد برؤية شخصية أو قرار يخرج عن مجموعة من الأفراد.

إذن هناك دور خاص بالرجل، يؤديه من خلال سيره الصحيح، وضمن ما هيء له من وضع طبيعي، وللمرأة كذلك دورها الخاص.ضمن ما هيء لها من قبل الطبيعة. وعلى هذا الأساس فلن يكون هناك أي تقاطع فيما بينهما، فكل سيسعى لتحقيق تكامله، وإن كانت هناك صوراً من التكامل لا تتم لأحدهما، دون أن تكون هناك علاقة وتماس مع الآخر، نتيجة حكم الزوجية أو أنها أخت أو أنها أم أو بنت وما شاكل ذلك، إلّا أنه بالتأكيد لن تخرج هذه العلاقة عن وجود أسس وموازين

لا يمكن أن يتعداها الفرد، وذلك لأنه من غير الممكن أن تترك الأمور سدى، أو قل قائمة بدون الإرتكاز على مباني تبنى من خلالها المصالح البشرية بصورة عامة.

وهذا هو جوهر الحقيقة من أن الهدف المشترك من خلق الرجل والمرأة هو لأجل الوصول الى الكمال الذي يحقق لهم سعادتهم في الدنيا والآخرة. وعندما نعي هذه الحقيقة، فإننا سنتوصل الى أمر مهم، وهو أن مسألة خلق الرجل والمرأة لا يمكن أن تكون على نحو التنازع فيما بينهما من أجل التساوي المطلق والتشابه أو غلبة وأفضلية أحدهما عن الآخر، كما تحاول أن تثبته بعض الفلسفات النسوية أو ما أظهرته أسس الحضارة الأوربية الجديدة، من نزعة إنسانية Humanism، لتشكل أول بوادر التغيير في العالم الغربي الجديد، ضد التحيز الجنسي – أي معاملة الفرد بشكل غير عادل بناءً على نوعه- والمدفوع بنفور أساسي تجاه المرأة، وقد انصب تركيز القدر الأكبر منها على أشكال الصور النمطية السلبية للنساء، ومقاومة منحهن حقوقاً وأدواراً مساوية للرجل.

وهنا نتساءل هل إن الإرتباط بين المرأة والرجل لا يتم إلّا عند الضرورة، حتى في بداية البشرية، أي أنه بالأصل لا يوجد بينهما أي إرتباط وتحاب لا بالطبع ولا بالإرادة، ولذلك فهما لا يأتلفان إلّا عند الحاجة، ليكون بالتالي نتيجة هذا الإجتماع أحدهما القاهر والآخر مقهورا.

ثم أن الرجل هل أراد مؤازراً له، ليقضي ويتمم له حاجاته، فأستعمل المرأة بالقهر والقوّة، ثم استعبدها على إعتبار أنها ضعيفة البدن، وبإعتبار آخر أنه لا يريد مؤازراً مساويـاً له أو أقوى منه فيستضعفه.

أو أن الإرتباط قائم على سوء الظن حسب الرأي الذي يذهب بأن نشأة سوء

الظن بين الرجل والمرأة، يعود الى الخطيئة الأصلية لحواء وحصر النظر بها – أي تصديق حواء بما اقترحته الحية عليها ومن ثم إقناعها لآدم بالإقتراب من تلك الشجرة والأكل من ثمارها- مما تسبب بإخراجهما سوية من الجنة.

بينما يذهب انجلز في كتابه (أصل الأسرة): ان تاريخ المرأة مرتبط إرتباطاً أساسياً بتاريخ التكنيك، ففي العصر الحجري، لما كانت الأرض مشاعاً بين أفراد القبيلة كانت قوة المرأة كافية للعمل في البساتين، فكان هناك تقسيم متساوٍ للأعمال بين الرجل والمرأة. الرجل يصطاد والمرأة تبقى في المنزل حيث تقوم ببعض الأعمال الإنتاجية كالنسيج والبستنة وغيرهما، وبالتالي كان لها دور كبير في الحياة الإقتصادية.

ولما اكتشفت المعادن واخترع المحراث واتسع نطاق الإستثمار الزراعي وازدادت صعوبته ظهرت الملكية الفردية. فصار بإمكان الرجل أن يصبح سيداً للعبيد والأرض وأصبح أيضاً مالكاً للمرأة. وذلك هو ((الإنكسار التاريخي الكبير للجنس النسائي)). وإنه ليفسر بالثورة التي طرأت على تقسيم العمل نتيجة لإختراع وسائل جديدة. إن العمل المنزلي الذي كان يضمن للمرأة استقلالها في السابق، صار ضمن سيطرة الرجل، لأن العمل المنزلي لم تعد له سوى قيمة ثانوية جداً أمام عمل الرجل المنتج. حينئذ حل الحق الأبوي محل حق الأم. وظهرت الأسرة الأبوية القائمة على الملكية الفردية.(١)

وهنا نرى بأنه بالرغم من أن انجلز نفسه يعترف بـ(أننا لا نعرف شيئاً حتى

---

(١) ينظر: الجنس الآخر: سيمون دي بوفوار، ترجمة ندى حداد، نشر دار الأهلية، المملكة الأردنية الهاشمية، ط١، ٢٠٠٨م: ص٢٧.

الآن عن تفصيلات التاريخ)، فكيف بدا له واضحاً بأن الملكية الفردية أدت الى حتمية عبودية المرأة، وكيف عرف بأن مناشئ العمل في بدء البشرية كانت على هذه الصورة، وكيف يحتم علينا ظهور الملكية الفردية نتيجة المصلحة التي تربط الإنسان بالملكية، ثم ما هي أسباب ظهور المصلحة التي نشأت منها المؤسسات الإجتماعية كما تقول سيمون دي بوفوار في كتابها (الجنس الآخر).

وهناك رأي للفيلسوف جون ستيوارت مل في هذا السياق يقول فيه: لم يكن الأخذ بهذا النظام الحالي – نظام اللامساواة- الذي يجعل المرأة خاضعة للرجل، نتيجة للتفكير أو التروي أو بعد النظر، أو نتيجة لأية أفكار إجتماعية، أو أية أفكار عما هو صالح للمجتمع أو يعمل لخير البشرية، بل لقد انبثق، ببساطة من واقعه أنه منذ الخيوط الأولى لفجر المجتمع البشري، وكل امرأة تجد نفسها في حالة عبودية لرجل ما (تبعـاً للقيمة التي يضيفها عليها الرجال مصحوبة بضعف قوتها البدنية). وتبدأ القوانين السياسية بإستمرار بالإعتراف بالعلاقات التي تجدها قائمة بالفعل بين الأفراد، فهي تُحيل الواقع المادي الى حق مشروع، وتضفي عليه تصديقـاً من المجتمع. وهكذا يُصبح مَن أُجبروا على الطاعة (النساء أو العبيد) ملزمين بها عن طريق القانون. وبدلاً من أن تكون العبودية مسألة قوة بين السيد والعبد، تصبح منظمة وموقع اتفاق بين السادة الذين يلتزمون، الواحد قبل الآخر، بتوفير الحماية المشتركة لممتلكاتهم الخاصة، بما فيهم عبيدهم، وهي حماية تضمنها قوتهم الجماعية. وفي العصور الأولى كانت الغالبية العظمى من الرجال عبيداً، كما كان الأمر كذلك بالنسبة لكل النساء.[1]

---

(١) استعباد النساء: جون ستيوارت مل، مراجعة وتحرير ياسر شعبان، نشر دار كنوز، القاهرة، ط١، ٢٠١٩م: ص١٤.

ثم يقول في مكان آخر: لقد مرّت عصور إنقسم فيها الجنس البشري الى طبقتين:

الأولى: صغيرة العدد وتتألف من السادة.

الثانية: ضخمة العدد وتتألف من العبيد.

وكان هذا التقسيم يبدو طبيعياً حتى بالنسبة لأصحاب العقول الممتازة والثقافية الرفيعة، بل اعتبرت هذه القسمة الوضع الطبيعي الوحيد للجنس البشري، وأعني به أرسطو الذي كان يعتقد إعتقاداً راسخاً لا أثر فيه للشك أو الريبة، أن هناك طبائع مختلفة بين البشر: طبائع الأحرار، وطبائع العبيد، وأن اليونانيين من ذوي الطبائع الحرّة، وأن الآسيويين عموماً من ذوي طبائع العبيد، وقد أقام هذه التفرقة على الأساس نفسه الذي يقام عليه عادة سيطرة الرجال على النساء.(١)

ولعل جون ستيوارت مل قد أخذ هذا المعنى – أي عبودية النساء- من أرسطو في كتابه (السياسة) حيث يقول فيه: إنما الطبيعة، وهي ترمي الى البقاء هي التي قد خلقت بعض الكائنات للإمْرة، وبعضها للطاعة، إنّما هي التي أرادت أنّ الكائن الموصوف بالعقل والتبصر يأمر بوصفه سيداً، كما أن الطبيعة هي التي أرادت أن الكائن الكفء بخصائصه الجثمانية لتنفيذ الأوامر يطيع بوصفه عبداً، وبهذا تمتزج منفعة السيد ومنفعة العبد. فالطبع إذن هو الذي عين المركز الخاص للمرأة والعبد.(٢)

---

(١) المصدر نفسه: ص٢٤.

(٢) كتاب السياسة: أرسطو طاليس، ترجمة أحمد لطفي السيد، نشر دار التنوع الثقافي، سورية، ط١، ٢٠١٨م: ص١٠٩.

وبهذا الخصوص نحن لا نريد أن نضع وكما جرى في العهود السابقة (طاعة العبيد بنفس ميزان طاعة النساء)، وكيف بدأت القوانين السياسية بإستمرار الإعتراف بالعلاقات التي تجدها قائمة بالفعل بين الأفراد، فهي تحيل الواقع المادي الى حق مشروع، وتضفي عليه تصديقاً من المجتمع. وإنّما الأمر هنا مختلف وشتان بين الإثنين، فلا يمكن قياس طاعة العبيد بطاعة النساء، فطاعة العبيد هي طاعة يمكن حصر أهم ما تتصف به بما يلي:

أولاً:

إن السيد والعبد الذكوري، كل منهما يحمل نفس المواصفات الخلقية، من ناحية القوّة والصلابة والشكل، وتحمّل الأمور الصعبة وما شابه ذلك من الأمور التي منحت الطبيعة للرجال مواصفاتهم الخاصة بهم – لكل من السيد والعبد- ولا يوجد أي إختلاف واقعي بينهم، وإنّما الإختلافات والفروق كلّها إعتبارية ومن صنع الإنسان، بحيث فرضتها ظروف إجتماعية وسياسية معينة.

ثانياً:

إن مسألة طاعة ورضوخ العبيد للسادة، لا يمكن أن تستمر الى مدى الحياة أو الى انتهاء البشرية، وانما مهما طالت، فتعتبر مرحلة طارئة وغير أصلية، ولابد من أن تنتهي في يوم ما بشكل كامل.

أمّا لماذا وجدت قوانين وتشريعات سماوية عالجت كثير من أمثال هذه القضايا – الخاصة بالعبيد والإماء والرق- فهي لم توضع جزافاً، وإنما وضعت لأن المرحلة التأريخية التي أنزلت فيها الشرائع، كان المستوى الإجتماعي، وكل ما يتحكم بالنشاط اليومي للحالة الإجتماعية في تلك العصور، هو مسألة السيد

والعبد، بحيث لا يكاد يوجد بيت من بيوت تلك المراحل من التاريخ، إلّا أن يكون فيه سيد أو عبد، ونادر ما كانت هناك بيوتات لا يوجد مثل هذا الشيء فيها.

وقد انقضت عصور كثيرة وكان بعضها يمتاز بثقافة وفكر عاليين، ولم يجرؤ أي مفكر أو فيلسوف أو حكيم ليناقش مسألة تلك العبودية والرق، فضلاً على أن يقدم على معارضة أو محاربة مثل هكذا أمور. وهذا لا يعني إن وجدت تشريعات بخصوص معاملة المالك والمملوك والسيد والعبد تبقى سارية المفعول الى مدى الحياة بإعتبار إنها شرّعت لتشجع مثل هكذا ابعاد إجتماعية وتقرها في المجتمع، وإنّما هي نزلت في مرحلة تتطلب مثل هكذا علاجات وتشريعات، بل نستطيع القول أن الضرورة الإجتماعية كانت تلح على إيجاد تلك الترتيبات. ومتى ما رفعت دواعي استخدام تلك التشريعات ينتهي مفعولها بشكل طبيعي ولا رجعة فيه، بحيث لا تحتاج الى من يؤكد عليها أو يفعّلها. وينبغي أن يكون هذا واضحاً، بل الأمر لا يتعلق بمثل هذا البعد فقط، وإنما سيشمل كل حكم يرفع موضوعه - أي لا يوجد من يقام عليه الحكم وإن بقيت الأحكام ثابتة-.

أما بالنسبة بما يتعلق بالنساء وطاعتهن، فيمكن النظر إليهن من زاوية أخرى لا تشترك مع طاعة العبيد بشيء وهي:

أولاً: انّ النساء بالأساس هن مختلفات في التكوين البيولوجي عن الرجال، ولكل منهما بناءه الفسلجي الخاص به، وواضح ما يمتاز به الرجال من القوة والصلابة، وما امتازت به النساء من الرقة والجمال العاطفة. وهذا بحد ذاته يوجد فوارق لابد من التعامل معها وفق معطياتها التي يجبر الفرد بالتعامل معها.

ثانياً: لا يمكن أن يأتي يوم ترفع فيه هذه الفوارق مهما طال الزمن وتغيرت

الظروف - كما يحدث مع السيد والعبد- فالإختلافات والفوارق أوجدت تصرفات إجتماعية وواجبات أسرية يعيشها الرجل والمرأة معًا، وبالتالي اوجدت نظامًا إنسانيًا لا نستطيع تجاوزه أو رفعه يومًا ما. فإذا كان النظام القائم بين السيد والعبد يمكن أن يرفع، ويعوض بأن يقوم الرجل السيد بأداء ما كان الرجل العبد يقوم به. فإن الأمر المتعلق بين الرجل والمرأة مختلف، فإذا ما رفعنا القوانين والطبائع الإجتماعية بين الرجل والمرأة والتي تحتاجها البشرية من أجل إستمرارها، وأزحنا المرأة من الرجل، وذلك الإرتباط الأسري التي تفرضه الزوجية، القائم على ثنائية الرجل والمرأة، فمن حينئذ سيكون بديلاً عن المرأة، من أجل أن يؤدي دورها، فهل يستطيع أن يقوم الرجال لوحدهم بذلك، كما كان الأمر بين السيد والعبد؟! إلّا اللهم متى ما تمكنا من إزالة الفروق البيولوجية بين الرجل والمرأة استطعنا أن نغير تلك النظم الإجتماعية الخاصة بكل واحد منهما، لنبني نظمًا تقام على المساواة التامة بينهما.

دم مقدس ودم مدنس

هذا وتذهب الباحثة آمال قرامي الى أبعد من ذلك عندما تتحدث عن سبب كانت تهان من خلاله وتمتهن بسببه المرأة وهو دم الحيض الذي يبعدها عن كل ما هو مقدس في الديانات والمعتقدات، بينما تبقى دماء الرجل تسيل في الطقوس المطهّرة وفي الحروب وغيرها. فهي تقول: يلتقي موقف العرب من الحائض مع موقف شعوب أخرى مثل قدماء المصريين الذين كانوا يعتبرون ملامسة النساء زمن الحيض تتسبب في حلول اللعنة، ولذلك لم يكتفوا بالتحذير من الحائض، بل حبسوها في منزل أو محل مخصوص لا تخرج منه إلّا بعد الطهر، كما كان موقف العبرانيين من الحائض والنفساء أكثر صرامة من سواهم. جاء في سفر الأحبار: (لا تمس شيئاً من الأقداس، ولا تدخل المقدس، حتى تتم أيام طهرها) (1\4)، وجاء أيضاً: (أي امرأة كان بها سيلان، أي سيلان دم من جسدها تبقى سبعة أيام في نجاسة طمثها، وكل من لمسها يكون نجساً حتى المساء) (1\19\20\21\22\23) وشاع لدى الرومان أن الحائض تلحق الضرر بغيرها، خصوصاً إذا تزامن موعد حيضها مع الخسوف والكسوف.

ولا يفهم الموقف من الحائض إلّا في ظل المقارنة بين دمها ودم الرجل الذي يسيل أثناء ممارسته لأنشطة هامة كالتشييد والبناء والصيد والحرب وغيرها من الأفعال التي تثبت قدرته على السيطرة على الطبيعة، كما أن دم الرجل يسيل عند ممارسته لبعض الطقوس المطهرة كالختان أو طقوس الحلف أو طقوس الإخاء التي يختار فيها الرجل أن يقدّم دمه من أجل هدف نبيل. وأعتبر نزف دم الرجل عند مصارعته الوحوش أو منازلة الأعداء أفضل دم لأنه علامة على حب المخاطرة والمجازفة ودليل على التضحية بالنفس في سبيل الله، كما أنه شهادة

على شجاعة صاحبه وقوّته، ولذا كان جديراً بالإنخراط في عالم المقدس حتى إن الشهيد لم يكن يغسل. ولم تكن رؤية دم الرجال في ساحات الوغى وغيرها مرعبة، ما دام المرء سيد الموقف قادراً على لجم مشاعر الخوف أو الوهن عارفاً بما ينتظر منه ساعياً الى تثبيت الإستقرار والحفاظ على النظام.

أما دم المرأة فإنه دم ملغز وعجيب يباغت، ويسيل دون إرادة مسبقة ودون سابق إنذار، ثم إنه ينفلت عن الرقابة، ولذا اعتبرته الجماعة مصدر خوف وقلق. فالحائض تكون في حالة خطيرة تنزف دون مؤثر خارجي. وكانت رؤية الدم تبعث على الحيرة والتوتر لأنها تعري مشاعر الإنسان القابعة في لا وعيه وتضعه وجهاً لوجه أمام الحدث. ولمّا كان الأمر كذلك فقد أحاطت الجماعة الحائض بطقوس سحرية وفرضت عليها قيوداً، غايتها احتواء الظاهرة الغريبة ومحاولة السيطرة عليها. ولم يكن دم الحائض علماً على البطولة والمجد، بل كان برهان إتصال المرأة بعالم المدنس ودليلاً على القلق الوجودي. ولمّا كان دم الحيض غير دال عن الحياة ولا صلة له بالقوّة، فقد اعتبر دوماً سيئاً مشيراً الى الخطر الداهم، أي الموت، وعاصفاً بإستقرار النظام. وتذهب الى أن الحيض عامل من العوامل المعمّقة للفوارق بين الجنسين ومشرّع للتمييز بين الذكر والأنثى، فقطعاً ثمّة فرق بين من يختار متى تسيل دماؤه أنهاراً وفي سبيل من، وبين تلك التي تتقبل طروق الدم كل شهر فيجري رغماً عنها مدراراً، دون هدف، وكأنّه كتب عليها تحمّل فعل الطبيعة والإذعان لأوامر الثقافة.(١)

هذا وقد بالغ وول ديورانت بل وجانب الحقيقة عندما قال في كتابه قصة

---

(١) الإختلاف في الثقافة العربية الإسلامية: آمال قرامي، نشر المدار الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م: ص٣٣٣ وما بعدها.

الحضارة: أما غير الفقيرات فقد كانت العزلة المفروضة عليهن في أيام حيضهن كلّها تمتد حتى تشمل جميع حياتهن الإجتماعية، وكان ذلك أساس نظام البردة عند المسلمين.[1]

الرد على د. آمال قرامي بخصوص الدم المقدس والمدنس

هنا في معرض الرد على ما ذهبت إليه الباحثة: فإنه لا يمكن عدّ دم الحيض عند المرأة أحد الأسباب الرئيسية في امتهان وتحقير المرأة، فهي قد وقعت في وهم إن كان من خالص أفكارها أو من أفكار متبناة من غيرها، وذلك لعدة أسباب نذكر منها:

اولاً:

إذا كان هذا السبب من الأسباب التي ساهمت في إذلال المرأة، بل تصل الأحيان الى حبسها، وكما كان يحدث عند الفراعنة أو تلك المعاملة القاسية من عزل المرأة وعدم لمسها لنجاستها، كما يحدث عند العبرانيين، إذن ماذا نقول للذين يصرّون على وجود الآلهة الأم، وتقديس المرأة، فعلى الرغم من المحاولات العديدة التي جرت عبر مراحل التاريخ المختلفة لطمس الآثار الدالة على عبادة الآلهات الاناث أو ما يسمى (دين الربّة) إلّا أن البحوث الإيركولوجية والأنثروبولوجية قد رسخت حقيقة تاريخية يتفق عليها الجميع الآن وهي أن الديانات التي سادت قديماً كان جوهرها تقديس المرأة، وأن الديانات الزراعية تحديداً تتمحور حول آلهة واحدة أطلقوا عليها الأم الكبرى أو سيدة الطبيعة التي تظهر عادة على شكل امرأة حبلى أو امرأة عارية الصدر في وضع عطاء.

---

(١) ينظر قصة الحضارة: وول ديورانت، مصدر سابق: ج٢، ص٤٤٢.

كما عبدت المرأة في الجزيرة العربية وتحديداً في الفترة المسماة العصر الجاهلي، وكانت الديانة أمومية أنثوية تماماً تمثلت بربات ثلاث، اللات- والعزة- ومناة. فاللات كانت ترمز الى الشمس وهي واجده الحياة، ومناة تعني المنى والأمل، وتشير العزّى الى القوة والعظمة.

وقد عكست عبادة الأنثى في كل مناطق العالم تقريباً صورة للمرأة لا يمكن مصادفتها اليوم، وهي تشير الى المكانة الإجتماعية والدينية العالية التي إحتلتها النساء، فقد بجلت المرأة كحكيمة ومقدامة وقوية وعادلة. كما عزيت للآلهات الإناث، بحسب السجلات المكتشفة خلق الشعوب الأولى، وخلق الأرض والسماء. وهي مخترعة الأبجدية في الهند - ساوا- ومخترعة الألواح الطينية، والكتابة عليها في سومر- نيدادا- وهي قائدة المعركة والمحاربة الشجاعة وغيرها من الصور التي تكشف عن مساحة واسعة بينها وبين الصور المعاصرة للمرأة.(١)

ثانياً:

إن دم الحيض يعتبر نجساً، وما دام نجساً فحتماً يكون مبعداً لها عن كل ما هو مقدس أو طقس يحتاج الى الطهارة. ولو كان الحدث نفسه يحدث مع الرجل لسرت عليه نفس الأحكام، ولن يبرأ منها بحال من الأحوال، وكمثال على ذلك، فقد حُرِّم على الرجل المجنب دخول المساجد أو المكث فيها، مضافاً الى أنه لا يجوز له الصلاة أو قراءة القرآن، بل يحرم عليه كل عمل يشترط فيه الطهارة. فالنجاسة تبعد صاحبها عن كل طقس يستدعي الطهارة، وليس له علاقة بأن الفرد

---

(١) ينظر: حقوق المرأة في الديانات والمعتقدات: اعمال مؤتمر الأديان السنوي الثالث لسنة ٢٠١٣، اشراف د. شمران العجلي، نشر دار الحكمة، بغداد، ط١، ٢٠١٣م: ص٢٩٠.

كان رجلاً أو امرأة.

إذن بالتالي لا يعتبر دم الحيض منقصة للمرأة وإهانة لها، بل إن حالة النجاسة التي تستتبع وجود دم الحيض، هي المانعة وليس لوجود صفة تنفرد بها الأنثى تؤدي بها الى أن تبعد عن كل شيء طاهر، فكذلك يشاركها الرجل متى ما تلبس بالنجاسة، ولن تشفع له رجولته في تجاوز ذلك الأمر، وإتيان الأعمال المشروطة بالطهارة.

أما ما استخدمه اليهود وعرضوه في توراتهم بما يخص احكام المرأة والتي كتبت بعد وفاة موسى عليه السلام بما يقارب ٨٠٠عام أو أكثر، فإن فيها دلالة واضحة على أن وراء سردياتهم وكتاباتهم تلك غايات لا تمت الى الدين بصلة، فكانت المرأة تمثل عنصراً فاعلاً فيها، بعد أن يتم تحطيم شخصيتها وإيهامها بأنها في كل وجودها عبارة عن إثم وشيطان قابع في جسد إنسان. فراجع ما كتبناه في الفصول السابقة من هذا الكتاب حول المرأة في الشريعة اليهودية.

أمّا ما كان موجود عند القدماء المصريين بخصوص تعاملهم مع الحائض فهذا لا يمكن تعميمه لأنه يجانب الواقع الإجتماعي الذي كانت تتمتع به المرأة المصرية، فقد كانت تحتل مركزاً مرموقاً في الأسرة، بل في مركز الصدارة أحياناً، وكان إذا مات الأب وليس بين ابنائه من بلغ سن الرشد، انتقلت سلطته الى امرأته حتى في علائق الأسرة مع الدولة. وقد عرفت رسميا بـ (سيدة البيت) ولها الحق القانوني في ذلك، مضافاً الى الدور السياسي الذي لعبته في ظروف معينة مثل الملكة (حتشبسوت)، وكذلك كانت هناك عابدات (آمون) في السلطة الروحية والزمنية على حد سواء، فكانت مصر القديمة لم تنظر مبدئياً الى المرأة نظرتها الى

كائن أدنى، بل كان للمرأة مركز محترم، يدل على ما شغلته من حيز في مجال الألوهية والملك.(١)

ثالثاً:

لا أدري لماذا ربطت بهذا الشكل المجحف قضية فهم الموقف من الحائض إلّا في ظل المقارنة بين دمها ودم الرجل الذي يسيل اثناء ممارسته لأنشطة كالتشييد والبناء والصيد والحرب، أو غيرها من الأفعال التي تثبت قدرته على السيطرة على الطبيعة، باعتباره أفضل دم لأنه علامة على حب المخاطرة والمجازفة ودليل على التضحية بالنفس في سبيل الله. بينما دم المرأة فإنه دم ملغز وعجيب يباغت، ويسيل دون إرادة مسبقة، لذا فهو مصدر خوف وقلق فهي تنزف دون مؤثر خارجي، ولذلك احاطوها بطقوس سحرية وفرضت عليها قيوداً، غايتها إحتواء الظاهرة الغريبة، ومحاولة السيطرة عليها. وبعد ذلك لتذهب الى أن الحيض عامل من عوامل المعمقة للفوارق بين الجنسين، ومشرّع للتمييز بين الذكر والأنثى.

ولتختم قولها: فرق بين من يختار متى تسيل دماؤه أنهاراً، وبين تلك التي تتقبل طروق الدم كل شهر فيجري رغماً عنها.

فمثل هـذا الأمر لا يستقيم ولا يمكن توجيهه بالإتجاه الصحيح، لأنّه قياس مع الفارق فشتان ما بين الدماء التي تخرج بلا علّة أو مرض، وبين دم الحيض

(١) ينظر: تاريخ الحضارات العام: ج١، ص٧٣ وما بعدها، وتاريخ الجنس العربي: ج٢، ص٣١٣ وما بعدها. وتاريخ حضارة مصر الفرعونية: ج٢، ص٢٠. والمرأة عبر التاريخ البشري: ص٩١ وما بعدها.

المتكون من دم ونسيج متهتك من جدار الرحم، مصحوباً ببعض المواد الغذائية التي اعدّها الرحم استعداداً للحمل، هذا اولاً، وأما ثانياً فهي تتكلم وتقارن دم الحيض بدماء الرجل المحارب والمجاهد، وكيف يُعدّ دماً مقدساً، فهذا لم يأت جزافاً، ولا أتى من جهة المقارنة بينه وبين دم الحيض، لأنه بالأصل لا يوجد مثل هكذا مقارنة، ولم يخطر على قلب بشر حتى يقارن بين الدم الذي يسيل من أجل هدف ما، وبين دم الحيض الذي يسيل رغماً على المرأة. فمن يفعل ذلك لابد أن يكون في حالة غيبوبة عن الواقع المعاش، فدم الرجل الذي يُقدّر ويرفع من قيمته كونه ملزماً وقد كلّف من قبل الطبيعة والشرائع بالدفاع عن العرض والمال والأوطان والدين دون المرأة، ولو كلفت المرأة بتلك الأفعال الدفاعية والجهادية، لكان دمها الذي يسيل في تلك الميادين دماً مقدساً، جالباً لها الكرامة والعزة والطهارة، كما لو أنها جاهدت ضد الكفار وقتلت في أرض المعركة لأحتسبت شهيدة، ولم تغسل أيضاً حالها حال الشهيد. وهذا قد يحدث فعلاً في بعض الحالات الإستثنائية، فبالرغم من اننا نعلم أن الجهاد ليس واجباً على المرأة، إلّا إذا هوجمت ثغور المسلمين وارضهم، وكان الجهاد دفاعاً عن ذلك، ففي تلك الحالة يصبح الجهاد واجباً على المرأة، كما تقول فتاوى الفقهاء.(١) ولكنه لا يجب في غير تلك الحالة. وفي الوقت نفسه كان رسول الله صلى الله عليه وآله يجيز لبعض النسوة المشاركة في بعض الحروب لمساعدة الجنود والعناية بالجرحى.(٢) ولكن بما أن الله قد رفع عنها كل تلك التكاليف الصعبة والتي تحتاج الى صلابة وجلادة وقوّة وبأس، بقيت في حال يناسب أنوثتها وجمالها، وفي هذا السياق يقول

---

(١) انظر: كتاب (المسالك) أول كتاب الجهاد.

(٢) ينظر: كتاب الغزوات والسير وتاريخ صدر الإسلام، وأيضاً صحيح مسلم، ج٥، ص١٩٦وص١٩٧. وسنن أبي داود، ج٢، ص١٧. وجامع الترمذي، ص٢٤٧.

الفيلسوف والأديب فلو طارخس الروماني (٥٠-١٣٨ب.م): (إن رقة النفس تبدو لدى النساء في سحر قسماتهن، وحلاوة كلامهن، وودّ دعابتهن، وحساسيتهن اليقظة). [1] بل قد هيأ الله تعالى لها، أفعالاً بيولوجية وفسلجية داخلية تحافظ بها على نقاوتها وصفائها، فكان دم الحيض أحد الوسائل التي تحافظ المرأة من خلاله على صحتها وجهوزيتها لتلقّي الحمل، وإتمام دورة الحياة من خلال الولادة والتربية.

فكان على الباحثة، إذا ما أرادت المقارنة بين دم الرجل ودم المرأة أن تختار الدم الموازي لدم الرجل في التكليف والعمل الجهادي – سواء من أجل المعيشة أو في الحروب- لا أن تختار دم الحيض الذي تنفرد به المرأة دون الرجل، ولا يمكن أن يلتقيا بحال من الأحوال.

ثم ما تلك العبارات حول دم الحيض بأنه: دم ملغز- وعجيب- ويباغت- وهو مصدر خوف وقلق- واعتباره ظاهرة غريبة يجب السيطرة عليها. فهذا غريب، فأنت عندما تسمع كلامها هذا عن الحيض، تشعرك بأنها تتكلم عن الحالة الشعورية التي إنتابت أمّنا حواء الأولى أو بناتها بالمباشر، حيث لم يكنّ قد مررن أو عاشن مثل تلك الحالة الغريبة مسبقاً. فكانت رؤيتهن للدم وهو يخرج بتلك الصورة، بالتأكيد سوف يسبب لهن القلق والحرج والخوف في كيفية التعامل أو التصرف معه. ليس فقط من جانب النساء، بل حتى الرجال الذين يعيشون ويرون البدايات البشرية وكيفية التعامل مع مثل هكذا حالات تنتاب المرأة بصورة دورية.

---

(١) التربية عبر التاريخ: د. عبد الله عبد الدائم، نشر دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨١م: ص٩٦.

أما بعد أن اعتادت المرأة على رؤية حالة الحيض الذي ينتابها كل شهر تقريباً، فبالتأكيد تكون قد هيأت نفسها لكي تتعايش معها وتتقبلها على أنها حالة لا تحدث إلّا وهي مستعدة لتلقي الحمل، وعندما يتم الحمل عندها فإنها ستنقطع عنها. وحينئذ ستصبح تلك الظاهرة الفسيولوجية وبالتكرار حالة طبيعية جداً – كما يشعرن بها ونحن الآن- ولن ينتابها بعد ذلك أي قلق، بل القلق سوف يوجد فيما لو انقطعت عنها العادة الشهرية، لأنها سوف تشعر بوجود عارض مرضي قد منع حدوثها. ولذلك يصبح طرح مثل هذا الكلام حشواً زائداً لا يغني ولا يسمن من جوع.

الأنوثة طبيعة أم صناعة؟

وجدت الأشياء في هذا الكون ليؤدي كل منها دوره في هذا العالم الفسيح، ولن تتمكن حينها إلّا من أداء ذلك الدور وإتقانه، ولن يجديها أن تتقمص أدواراً لم تكن الطبيعة قد أعدّتها لتؤدي ذلك الدور. فكل كائن قد زود تكوينا لما وجد من أجله، فأصبح لكل ماهيته التي يتقوم بها. ومتى ما استعمل إمكاناته الخلقية فسيكون ذلك دافعـاً الى أن تسير الحياة بلا منغصات أو مشاكل قد تكون شخصية أو إجتماعية، حسب شدة الموقف وتأثيره الذي تولده الأنماط السلوكية، وكما يقول أرسطو: كل شيء يستمد تعريفه من وظيفته وقدرته على تأديتها، وينتج عن ذلك أنه ما لم تكن الأشياء قادرة على تأدية وظيفتها، فلا ينبغي علينا أن نقول أنها لا تزال هي نفسها الأشياء، حتى وإن كانت لا تزال تحمل الأسماء ذاتها، فلكل موجود في هذه الدنيا وظيفة يؤديها ويستمد خاصيته الجوهرية من تأديته لهذه الوظيفة.[1]

علمـاً أن طبيعة المرأة تتيح مقارنة بالتوازي، فمكانها هو، بحسب النظام الأصلي، الى جانب الرجل إخضاع الأرض والإعتناء بالأولاد. غير أنها من الناحيتين الجسدية والروحية، ليست مؤهلة للقتال أو الغزو بقدر ما هي مفطورة على التغذية والرعاية والحماية.

أما في ما يتعلق بالمواقع الثلاثة في العالم، المعرفة- والمتعة- والإبداع- فإلى المرأة يعود عادة ثانيها، لأنـها تبدو أكثر قدرة من الرجل على السعادة والتمتع

(١) أرسطو والمرأة: د. إمام عبد الفتاح إمام، نشر مؤسسة الإسراء، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م: ص٣٣.

والفرح بالمخلوقات على إحترام، علماً أن الفرح الموقّر المجّل يفترض معرفة معينة بالخيرات تختلف عن المعرفة العقلانية، لكنها تشكّل وظيفة فكرية خاصة مستقلة، يبدو واضحاً أن فيها بالذات للمرأة مكمن قوّة مميز، ويرتبط كل هذا جلياً بمهمة المرأة المتعلقة برعاية الأولاد وتنميتهم؛ حسّ مرهف في إدراك معنى العضوية والكلية والفردية والقيم. لذا نراها في إصغاء الى كل ما يتوق الى تحقيق الذات والنمو والتفتح، والى كل وضع خاص يحتاج الى أن يؤخذ بعين الإعتبار. ولا يفيد من هذا كله الأولاد فقط، بل جميع المخلوقات وأخصّها الرجل الذي يجعل من المرأة رفيقة متفهمة معينة له في توقه الى المختلف.

إن التكامل بين الرجل والمرأة، وفقاً لنظام الطبيعة الأصلي، ظاهر بوضوح خلال ما سبق، عند الرجل تكون السيادة أولية، تليها الأبوة، وهي ثانوية لا زائدة على السيادة ولا أدنى منها مرتبة، بل تابعة لها. أمّا عند المرأة فتكون الأمومة أولية مما لا يمنع أن يكون لمساهمتها في السيادة، وإن كانت المساهمة لديها ثانوية، موقع في قلب دعوتها الى الأمومة.»[1]

ومن جانب إختلاف الرجل عن المرأة من الناحية الطبيعية، لا أظن أن هناك خلافاً بين إثنين، فكل من له أدنى إطلاع في هذا الجانب، يعلم أن الفروق بين المرأة والرجل لا تقتصر على الجهاز التناسلي فقط، إنّما الخلاف في أن هذه الفروق هل تتدخل في تحديد الحقوق والواجبات، أو لأنها تساهم في إيجاد بيئة إجتماعية أو قل تنشئة إجتماعية تختلف فيما بين الذكر والأنثى.

(١) ينظر: المرأة: إديت شتاين، نشر ديوان أوقاف المسيحيين والديانات الأخرى، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م: ص١٣٣.

هذا ويمكن أن نلاحظ أن الإختلاف البيولوجي بين المرأة والرجل يزود كلاً منهما بالقابلية على أداء دور الذكورة أو الأنوثة، ونحن لا ننكر التأثير الإجتماعي في صقل القابلية والأدوار، وكلما كان التدريب الإجتماعي أكمل وأشمل، كانت النتائج المطلوبة من الرجل والمرأة تظهر في الخارج بشكل مؤثر في المحيط الثقافي والإجتماعي لكلا الفردين، وبالتالي سيتم إجتياز كثير من العوائق ونزيح ركام المعاناة والمكابدة التي تنتج بسبب صناعة الصراع الفكري والآيديولوجي، والسعي لأجل ديمومته بين الرجل والمرأة.

ومن المهم أن نلتفت الى أن كل ذكر أو أنثى من غير الإنسان، تعمل حسب طبيعتها ولم تتغير منذ بدء التاريخ والى وقتنا الحالي، فكل يعمل حسب سجيته وما يفرضه عليه جسده الذكوري أو الأنثوي، إلّا الإنسان يريد أن يغير بنمطية الأدوار أو تساويها، فهناك بعض الفلسفات والإتجاهات النسوية نادت بالتساوي والتشابه بين جسد الأنثى والرجل حتى أنها طالبت بتبادل الأدوار حسب آخر الدراسات الجندرية. لأنها تصرّ بأن الإختلافات فيما بينهما هي خلافات اعتبارية وليست أصلية، وما وجدت نتيجة الطبيعة، وإنما نتيجة التنشئة الإجتماعية المتطرفة والمقصودة والتي عملت على تنميط الجسد الذكوري وتنمية ما يركز على هذا الجانب، ومن ثم تنميط الجسد الأنثوي وتنمية كل ما يركز هذا البعد.

والحقيقة هم غفلوا – اصحاب هذا الإتجاه النسوي – عن شيء مهم، ألا وهو أن الضرورة الإجتماعية غالباً ما تنتصر تاركة وراءها المتغيرات المصطنعة، التي تحاول أن تلبس لباس ما تسميه (التواصل الحضاري) وهي بالتالي تستهجن أي طبع إجتماعي يفرض فرضاً على الرجل والمرأة على حد سواء.

ولكن في الحقيقة حتى إذا ما حاولت تلك الجهات الداعمة للجندرة من تغيير

بعض الأنماط الذكورية والأنثوية، وتبديل جزء من أبنية النظام الإجتماعي القديم وصياغته صياغة جديدة وجعله يتناسب مع تنظيماتهم الإجتماعية الأكثر تحضراً، كما يحبون أن يسموها في الساحة الدولية، فإنهم لن يتمكنوا من الإستمرار، لأنه خلاف الجانب الموضوعي لوجود الرجل والمرأة في هذه الدنيا.

ولذلك هم يسعون لجعل الأهداف المنجزة على أرض الواقع مطابقة تماماً مع الأهداف المتصورة، ليؤدي بالتالي الى ذلك التوافق الداخلي والخارجي في أية حركة من حركات التغيير المقصود.

وعلى كل حال فالعلاقات الجديدة التي يمثلها الرجل والمرأة من جهة والمجتمع والطبقة من جهة أخرى قد تخلق وضعاً جديداً. ولكن ليس بالضرورة أن يكون مخالفاً للطبع الإنساني، الذي ألفته البشرية خلال تاريخها الطويل، فبالرغم من وجود صراع حضاري وبيئي عام مرت به البشرية، إلّا أن ثوابت الطبيعة التي تمد النواحي البيولوجية بقيت ثابتة، وتسير ضمن برنامج ابتدأ منذ أن عرف آدم حواء عليهما السلام وألتقيا ليشكلا المجتمع الإنساني برمته.

صحيح كانت هناك بعض المبادرات الفردية دفعت بها ظروف معينة نتيجة حاجات معقدة لدى صاحب المبادرة والرؤية، وإن تمكن من جلب بعض الأفراد لرأيه وبرنامجه التغييري، ولكن مهما حاول سيبقى فعله مقيداً ومحدود البقاء حتى وإن بدت له ظاهراً بوادر التجديد والإستمرار، بإعتباره ناتج عن صراع وصدام بين قوى موضوعية تفرضها الطبيعة والتكوين البيولوجي للفرد الذي يزيد من الإرادة والتصميم لديه، وبين بواعث دافعة تريد أن تحول عالم الأشياء والظروف الواقعية بأقصى ما يمكن، لتبدو وكأنها حياة إنسانية صادقة، يحركها احتياج حقيقي للتغيير.

الإتجاه الموضوعي(١) والإتجاه التشريعي لسلوكيات الرجل والمرأة

---

(١) هناك سنّة طبيعية موضوعية لا تقبل التحدي ولا النقض من قبل الانسان، وهو بالتالي محكوم لها ولا يستطيع الخروج عن دائرة طاعتها، لأنها تشكل قانوناً من قوانين الكون والطبيعة. فمثلاً الإنسان يمكنه ان لا يصلي، وذلك لأن وجوب الصلاة حكم تشريعي وليس قانونا تكوينيا. ولكنه لا يمكنه أن يتحدى القوانين الكونية والسنن الموضوعية، مثلاً: لا يمكنه أن يجعل الماء لا يغلي اذا توفرت شروط الغليان. كما لا يمكنه أن يؤخر الغليان لحظة عن موعده المعين، وذلك لأن هذا قانون والقانون صارم، والصرامة تأبى التحدي.

وهذه الفكرة التي نتصورها عادة عن القوانين، هي فكرة صحيحة إلى حد ما، لكن ليس من الضروري أن تكون كلّ سنّة طبيعية موضوعية على هذا الشكل، بحيث تأبى التحدي من قبل الانسان، بل هناك اتجاهات موضوعية في حركة التاريخ وفي مسار الإنسان، لكن مع شيء من المرونة، بحيث أنها تقبل التحدي، ولو على شوط قصير، وان لم تقبل التحدي على شوط طويل، وهذا لا يعني أنها ليست اتجاهات تمثل واقعاً موضوعياً في حركة التاريخ، هي اتجاهات ولكنها مرنة تقبل التحدي، لكنها مع ذلك قد تحطم هذا المتحدي بسنن التاريخ نفسها.

فمثلا نقول: بأن هناك في تركيب الإنسان وتكوينه اتجاهاً موضوعياً لا تشريعياً إلى اقامة العلاقات المعينة بين الذكر والانثى في المجتمع ضمن اطار من أطر النكاح والاتصال، هذا الإتجاه ليس تشريعياً وإنما هو اتجاه موضوعي، ركّب في طبيعة الإنسان وتركيبته، هذه سنّة لكنها سنّة على مستوى الاتجاه، لا على مستوى القانون. لماذا؟

لأن التحدي لهذه السنّة لحظة أو لحظات ممكن، أمكن لقوم لوط أن يتحدوا هذه السنّة فترة من الزمن، بينما لم يكن بإمكانهم ان يتحدوا سنّة الغليان بشكل من الاشكال، إلّا أن تحدي هذه السنّة يؤدي إلى أن يتحطم المتحدي على المدى الطويل، والمجتمع الذي يتحدى هذه السنّة يكتب على نفسه الفناء. وهكذا هو الحال مع الإتجاه الموضوعي في توزيع الأدوار بين الرجل والمرأة. (ينظر السنن التاريخية في القرآن للسيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره: ص٩٢)

هناك خلق إنساني أحدهما رجل والآخر امرأة، وما كان ليوجد أحدهما دون وجود الآخر. لأن كلا منهما يكمل ما يعجز الآخر عن أدائه. والأمور التي تصعب على الرجل أو المرأة أن يؤدوها تنقسم الى قسمين:

الأول:

الأمور التي يتمكن الرجل أو المرأة من ادائها بالإضطرار، أو يختاراها للتجربة ومحاولة تبديل الأدوار، ومثل هذه الأمور، قد تستمر لفترة ما وبحسب تشريعات تساعد على هذا الأمر، كمحاولة منها لإدامة هذا التحول أو التبدل الى أبعد فترة زمنية ممكنة، ولكن في الحقيقة مهما طالت هذه المحاولات والتحديات التي تضاد الطبيعة، لابد لها من أن تصل الى مرحلة الفشل أو إنزال العقاب الذي يتناسب تلك المخالفات.

فمثلاً؛ مسألة رضاعة الطفل وحضانته والإعتناء به، الطبيعة والجسد البيولوجي للمرأة مهيأ ومعبأ لأداء هذا الدور وكذلك حالتها النفسية والعاطفية، وهنا يتحد الجانب الفسيولوجي مع الجانب السيكولوجي لأداء هذه المهمة على أكمل وجه، أي نستطيع القول، بأن هناك أمور مسبقة قد رتبت من أجل إنجاح أعظم مشروع في هذا الوجود وهو مشروع تربية الإنسان وإعداده إعداداً سليماً ليؤدي دوره في الدنيا حسب ما خطط له.

فإذا تحول الأمر بالإضطرار أو الإختيار، فيكون الرجل هو المسؤول عن تربية الطفل وحضانته وتهيئة سبل الرضاعة الإصطناعية له، أو تعويض حنان الأم ودفئها، فالطفل يعيش، ولكنه سيحرم الكثير من حنان الأم ورعايتها التي تنشئه تنشئة صحيحة لا يتمكن الأب من إعطائها له كاملة، مما قد يسبب بإيجاد أمراض

نفسية وجسدية لا يحمد عقباها. مضافاً الى أن المجتمع سيفقد أدواراً لا تؤدى إلّا من قبل الرجال، والآن سوف يفقدون لأنهم انسحبوا وأنشغلوا بأمور أخرى، هي بالأصل ليس من واجباتهم.

أو من ناحية تكوين الأسرة، فالمعروف أن الأسرة تتكون من رجل وامرأة وأولاد يعيشون تحت سقف واحد. ولكن قد يشرّع قانون بالسماح بتكوين أسرة من نوع آخر، أي تتكون من رجل مع رجل أو امرأة مع امرأة، أي بذلك البعد المثلي الذي ينادي به جماعة الجندر، محاولة منهم لتشكيل هذا النوع الأسري، بإعتبار أن لا وجود للأنوثة والذكورة إلّا بوجود التنميط الإجتماعي الذي كثيراً ما يفرض فرضاً قسرياً بتربية مقصودة، لإيجاد نظام ذكوري يمايز النظام والتنشئة الأنثوية. وهذا الأمر إن حدث، حتى وإن صودق عليه من الناحية التشريعية، كما حدث في بعض البلدان، فإنه بالتأكيد لن يستمر، ولابد له من الفشل، وذلك لأمور كثيرة، منها عدم تحقق عنوان الأسرة الواقعي والتي شكلت منذ بداية تاريخ البشرية، ومن ثم إنقطاع النسل مما يؤدي الى إنقراض البشرية، مضافاً الى ما ستحدث من أمراض، نتيجة هذه المخالفات لسنن الطبيعة، الى غيرها من الأمور التي قد تتسبب بإنزال عقوبات سماوية كما حدث مع قوم لوط.

فكل تلك الأمور تحدث لأنها قد خالفت جانبها الموضوعي في هذه الدنيا، والذي يطابق طبع الإنسان، إن كان انثى أو ذكر، ومهما يكن لن يتمكن أي جانب آخر أن يزيح هذا الجانب الموضوعي من خلقة الإنسان وسنخيته، حتى وإن صدرت قوانين وتشريعات تحاول التبديل أو التجربة. فمثل هكذا أمور لن تنجح في إحداث التغيير أو إرضاخ الطبيعة بعكس ما تريد، لأن كل شيء في هذا الوجود قد وجد لأداء دوره، وهذا الأمر قائم تكويناً وهو كما يسير ويطبق على جميع

المخلوقات، بما فيها الكواكب والأفلاك والأشجار والحيوانات وغيرها، فكما لا نرى في هذا الخلق من تفاوت، أي إننا لم نر أي إختلاف وظيفي أو تغير في الطبائع والتصرفات فيها، لأنها مسيرة ضمن قانون إلهي دقيق، ولذلك نرى الوجود ثابت لم يتغير، فالشمس تشرق كل يوم، ولا يمكن لها أن لا تشرق، وكل شجرة تعطي ثمرها المعهود ولا يمكن لها أن تخالفه، وكل حيوان يبرز هويته الوجودية، إن كانت سبعية أو أليفة وهكذا، إلّا الإنسان بما منحه الله تعالى من سمة الإختيار، تراه يعاكس ويشاكس، ويحاول في كثير من الأحيان أن يمارس دوراً بديلاً لم يعهد له. فبالرغم من أن الله تعالى قد أنزل عليه التشريعات ومتى ما طبقها، فإنه سيؤدي دوره الوجودي كاملاً، ولن يتخلف كما حدث مع المخلوقات الأخرى، إلّا أن الفارق بينه وبينها، أنها مجبورة على فعلها، بينما هو قد أدى دوره إختياراً، وذلك فارق كبير وجوهري فيما بين الإنسان والمخلوقات الأخرى.

الثاني:

الأمور التي لا يتمكن كل من الرجل والمرأة من ادائها بشكل قطعي، أي مهما حاول الرجل أو المرأة من أداء أحدهما دور الآخر، ولو للحظة فإنه لن يتمكن، وذلك لعدم وجود القدرة البيولوجية لتأدية هذا الدور. أي أن الرجل هو الذي يؤديه، لا لشيء إلّا لأنه رجل، والمرأة لا تؤديه إلّا لكونها امرأة. وذلك مثل؛ أن الرجل لن يتمكن يوماً ما من أن يمارس دور الحمل والإنجاب، لأنه لم يعد بأصل خلقته للقيام بمثل هذا الدور، وإنما عهد به للمرأة، ولذلك زودت بالرحم والأعضاء الأخرى من أجل إنجازه وإتمامه. ولو أن الرجل سعى بكل طاقاته بأن يقوم بهذا الدور لن يتمكن. والمرأة كذلك لا يمكن لها أن تقوم بتأدية دور الرجل في عملية تلقيح البويضة، وإن فعلت ما فعلت، لأن الأمر غير منوط بها، وإنما

تكفل الرجل به بيولوجياً، ولن يتغير هذا القانون، إلّا أن تصبح المرأة رجلاً، والرجل امرأة، حتى يتمكنا من تبادل الأدوار فيما بينهما. وحينئذ سنبقى في نفس دائرة الرجل والمرأة ولن نخرج منها أبداً لأنها هي الواقعية لا غير.

وهنا لعلّه توجد إشارة، وهو أن الله تعالى عندما أوجد مثل هذه الأمور عند الرجل والمرأة، لكي نتمكن من التمييز فيما بينهما على اعتبار أن هناك في الإنسانية إثنان أحدهما رجل والآخر امرأة لا يمكن أن يتم تبادل الأدوار فيما بينهما، لأنهما خلقان مختلفان في وجودهما، ولكن هناك علاقة وإرتباط بينهما، يتم من خلالها التكوين والنظام الأسري الذي سيمد الحياة الدنيا بالوجود البشري، وضمن ضوابط وتشريعات إلهية يستتب الوضع الإجتماعي فيها بأكمل وجه. وبالمقابل – أي بوجود هذا الإختلاف وإقراره تكوينا- هناك تصرفات بين الرجل والمرأة، أو قل سلوكيات يجب أن تصاغ ضمن نطاق الإختيار ولو ظاهراً حتى يستحق كل منهما الثواب أو العقاب، فيثاب الرجل إن تمكن إختياراً من أداء التشريع الخاص به، وتثاب كذلك المرأة حين أدائها التشريع الخاص بها. وهنا هو الإختبار والتكامل الحقيقي للرجل والمرأة على حد سواء، وحينئذ إذا خالف أحدهما، وحاول أن يقفز من تكليفه ودوره الإجتماعي الى الطرف الآخر من التكليف، الذي هيىء لغيره، فسوف تحدث المشاكل وتتعقد الأمور وتضطرب الأسرة والمحيط الإجتماعي بشكل عام.

وفي هذا السياق يقول السيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره: الإتجاه إلى توزيع الميادين بين المرأة والرجل، إتجاه موضوعي وليس إتجاهاً ناشئاً من قرار تشريعي، إتجاه ركّب في طبيعة الرجل والمرأة، ولكن هذا الإتجاه يمكن أن يتحدى، يمكن استصدار تشريع يفرض على الرجل بأن يبقى في البيت ليتولى دور

الحضانة والتربية، وأن تخرج المرأة إلى الخارج لكي تتولى مشاق العمل والجهد، وبهذا يحصل التحدي لهذا الإتجاه. لكن هذا التحدي لن يستمر، لأن سنن التاريخ سوف تجيب على هذا التحدي، لأننا بهذا سوف نخسر كل تلك القابليات التي زودت بها المرأة من قبل هذا الإتجاه لممارسة دور الحضانة والامومة، وسوف نخسر كل تلك القابليات التي زود بها الرجل من أجل ممارسة دور يتوقف على الجلد والصبر والثبات وطول النفس. تماماً، كما أن بناية تسلم نجارياتها إلى حداد وحداداتها إلى نجار، يمكن أن تنشأ البناية أيضاً، لكن هذه البناية سوف تنهار، سوف لن يستمر هذا التحدي على شوط طويل.[1]

والآن لنأتي ونتعرض الى جانبين مهمين لبيان الإختلافات بين الذكر والأنثى، لنرى هل هي فروق طبيعة أم صناعة إجتماعية؟

الجانب الأول: البيولوجي والفسيولوجي

من موارد التفاوت التكويني بين المرأة والرجل، والآثار والإنعكاسات المتنوعة لذلك، من الموضوعات التي بحثت في أقسام وفروع علمية عدّة، فعلماء (البيولوجيا الإجتماعية) يبحثون تأثير الكروموزومات والأنزيمات ووظائف أعضاء البدن، بعد إثبات المنشأ الطبيعي للتفاوت، ثم يدرسون مقدار تأثير التمايز الطبيعي على الوظائف المتفاوتة للمرأة والرجل، وبخاصة الأدوار المنزلية

(١) السنن التاريخية في القرآن: السيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره، اعداد الشيخ محمد مهدي شمس الدين، نشر مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م: ص٩٤.

والإجتماعية.[1]

وهناك شيء مهم هو أن هناك أمر فطري يتعلق بالذكورة والأنوثة على حد سواء، وهو النواة وبداية التحرك نحو التنميط الجنسي، وهذا الشعور أو هذه الفطرة سوف يساهم التكوين البيولوجي في تقويتها وإبرازها بشكل ظاهري وفي المحيط الخارجي للفرد.

ومع أنه لا يمكن تجاهل تأثير الوضع الإجتماعي والبيئي على قسم كبير من السلوكيات والسلائق، كما ليس بالإمكان إنكار أن التربية أمر يتحقق عبر التعليم، لكن العلماء يذهبون الى أن الطبيعة والتركيبة الكيمياوية – الهرمونية لنا تعتبر الى حد كبير عاملاً لبروز سلوكياتنا... إن كثير من فعاليات الدماغ الثابتة عن طريق النظريات العلمية تتحدث قبل الولادة. ولقد اثبتت البحوث أننا غالباً ما نكون نتاجاً لبنيتنا الطبيعية، أكثر من كوننا ضحايا للنماذج الإجتماعية النمطية. ولقد بدأ علماء البيولوجيا اليوم يتحدثون عن (الجنس الدماغي)، ولذا فالتخطيط الدماغي للنساء والرجال متباين منذ اللحظة الأولى، وقبل بدء التعليم الإجتماعي، إذ إنّ هذه الإختلافات تنشأ بنحو واضح في السلوك والإنفعالات النفسية والجسدية للرجال والنساء اعتباراً من إنطلاق نشاطات الهرمونات الجنسية.

وعلى سبيل المثال، نشير الى عدد من موارد الإختلاف:

١ – القسم الأيمن من الدماغ أسرع نموّاً عند الذكور منه عند الإناث، وهذا النمو يجعلهم متفوقين عليهن في قابلية الإدراك المنطقي والفهم السريع.

---

(١) المرأة هويتها الجنسية وأدوارها الإجتماعية: محمد رضا زيبائي، ترجمة رعد الحجاج، نشر مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠١٣م: ص٢٨.

٢- الأولاد أكثر مهارة في الرياضيات، وتشييد الأبنية، وحل الكلمات المتقاطعة، وحل المسائل المعقدة، كما إنّهم أسرع منهن في تعلم هذه الموارد.

٣- دماغ الرجال متخصص ومقسّم الى أقسام متعددة.

٤- الشعور عند الرجال يقع في نصف الدماغ الأيمن، بمعنى أنّهم قادرون على التحكم بمشاعرهم بمعزل عن باقي أعمال الدماغ.(١)

ومن ناحية الوظائف التناسلية والتكاثر يقول الكسيس كارل – الفيزيولوجي والجراح وعالم الحياة الفرنسي المعروف-: لا تقتصر وظيفة الغدد التناسلية على دفعنا الى العمل الذي كان في الحياة البدائية يبقي على دوام النوع، وإنّما تضاعف هذه الغدد أيضاً أوجه نشاطنا الفسيولوجي والعقلي والروحي... لم يظهر بين الخصيان في أي وقت من الأوقات فلاسفة كبار أو علماء عظام أو حتى مجرمون خطيرون. للخصيتين والمبيضين وظيفة واسعة النطاق الى حد كبير، فهي أولا تكون الخلايا المذكرة والمؤنثة التي ينشأ من إتحادها الكائن البشري الجديد، وهي في نفس الوقت تفرز مواد تنسكب في الدم وتطبع الأنسجة والأعضاء والشعور بطابع الذكورة أو الأنوثة. وهي الى هذا تميز كافة وظائفنا بميزة النشاط الشديد. والخصية تولد الجرأة والعنف والوحشية والخصال التي يتميز بها ثور القتال عن الثور الذي يجر المحراث، وللمبيض أثر مماثل عن الكائن العضوي المؤنث، ولكنه لا يعمل إلّا خلال شطر من الحياة إذ يضمر في سن اليأس. وقصر حياة المبيض يجعل المرأة، إذ تتقدم في العمر، في مركز دون مركز الرجل، أما الخصية فهي على العكس تظل عاملة حتى أواخر الشيخوخة.

(١) ينظر: المصدر نفسه: ص٣٢١وما بعدها.

ولا ترجع الفوارق القائمة بين الرجل والمرأة الى إختلاف شكل الأعضاء التناسلية عند كل منهما، كشكل الرحم ونوع الحمل ونمط التربية فحسب، وإنّما ترجع الى سبب أعمق كثيراً، وهو غمر الكيان العضوي كله بمواد كيميائية تنتجها الغدد التناسلية. والجهل بهذه الحقائق الأساسية هو الذي قاد زعماء الحركة النسوية الأولين الى الفكرة القائلة؛ بإمكان التسوية بين الجنسين في التربية والتعليم والعمل والأعباء. والواقع أن المرأة تختلف عن الرجل جد الإختلاف. فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها، وهذا أيضاً شأن أجهزتها العضوية وعلى الأخص جهازها العصبي. وإن القوانين الفسيولوجية صارمة صرامة قوانين عالم النجوم، ومن المحال الإستعاضة عنها بالرغائب البشرية... فنحن مضطرون أن نقبلها كما هي. وينبغي للمرأة إنماء كفاياتها في إتجاه طبيعتها الخاصة دون أن تحاول تقليد الرجل، ان دورها في ازدهار الحضارة أسمى من دور الرجل، وعليها ألّا تتخلى عن ذلك الدور.[1]

هذا ومن ناحية خضوع المرأة لمدة الحمل، وتأثر حالتها الفسيولوجية والسيكولوجية نتيجة ذلك؛ فإن دور الرجل في عملية التكاثر دور قصير الأجل، في حين يدوم دور المرأة تسعة أشهر. ويتغذى الجنين خلال هذه المدة على المواد التي يحملها إليه دم أمّه، بعد أن تكون قد تقطرت بمرورها من أوعية الـ (placenta) في المشيمة. وبينما يأخذ الإبن من أمه العناصر الكيميائية التي يبني بها انسجته، تأخذ الأم بعض المواد التي تفرزها أنسجة إبنها، وقد تكون هذه المواد مفيدة أو ضارة، فالواقع أن الجنين يتكون من مواد نووية من الأب والأم

(١) الإنسان ذلك المجهول: الكسيس كارل، ترجمة انطوان العبيدي، نشر دار الكتاب المصري، القاهرة، ط١: ص١٢٨ وما بعدها.

معاً. إنه كائن من أصل أجنبي الى حد ما، إستقر في جسم المرأة.

وتخضع المرأة طوال مدة الحمل لتأثير هذا الكائن الأجنبي، فتكون أحياناً كما لو كانت مسممة من الجنين وحالتها الفسيولوجية والسيكولوجية دائمة التأثر به، ويقال أن الإناث أو على الأقل الثدييات، لا تبلغ تمام نموها إلّا بعد أن تحمل مرة أو أكثر، والنساء اللواتي ليس لهن ولد أقل إتزاناً وأكثر عصبية من الأخريات.

والخلاصة إن وجود الجنين، الذي تختلف أنسجته عن أنسجة أمه من حيث حداثتها ومن حيث أنها على وجه الخصوص تنتسب جزئيا الى الزوج، يؤثر على المرأة تأثيراً بالغاً. فنحن نفضل بوجه عام أهمية وظيفة الإنجاب للمرأة. فلا غنى عن هذه الوظيفة لإكتمال نموها. فمن الحق إذن عدم صرفها عن الإمومة، وينبغي إلا تنشأ الفتيات نفس التنشئة الفكرية التي ينشأ عليها الفتيان، ولا أن يكون لهن نفس نمط الحياة ولا نفس الهدف... وعلى المربين أن يراعوا الفوارق العضوية والعقلية في الذكر والأنثى، والدور الطبيعي الخاص بكل منهما... فبين الجنسين اختلافات لا سبيل الى إنكارها، وينبغي أن يكون لها وزنها واعتبارها في بناء العالم المتحضر.[1]

ويورد ول ديورانت في كتابه (مباهج الفلسفة) بحوثاً عن المسائل الجنسية والأسرية حيث يقول: وعند البلوغ يغني الحب أنشودته الواضحة. والمعنى الحرفي للبلوغ Puberty يدل على السن التي ينبت فيها الشعر على جلد الذكر، وبخاصة شعر الصدر الذي يتيه في توحش، وكذلك شعر الوجه والذقن الذي

(١) ينظر: المصدر نفسه: ص١٣٠ وما بعدها.

ينتزعه بصبر كصبر أيوب.[١]

ويبدو أن نوع الشعر وغزارته ينبتان ويقعان (في الظروف العادية) مع دورة القوة الجنسية، ويبلغان الأوج عند ازدهار الحيوية. هذا الشعر الذي ينبت فجأة الى جانب خشونة الصوت من (الصفات الجنسية الثانوية) التي تصيب الذكر عند البلوغ.

أما الفتاة النضرة فإن الطبيعة تجعلها ليّنة الأطراف، ثقيلة الأرداف حتى تفتن العين، عريضة الحوض لتيسير الحمل، بارزة النهدين لإرضاع الطفل. فما الذي يسبب هذه الصفات الثانوية؟ لا احد يدري. ولكن الاستاذ (ستارلنج Starling) اكتشف ما يؤيد نظريته التي تذهب الى أن الخلايا التناسلية عند البلوغ لا تشرع في إفراز البويضة والمني فقط، بل كذلك بعض (الهرمونات) التي تنفذ الى الدم، وتكون علّة حدوث تغير جسماني ونفساني. ولا يوهب الجسم فقط بقوى جديدة، بل يتأثر العقل والخلق بألوان شتى من التأثر. وفي ذلك يقول رومان رولان: تمر بالرجل فترات من العمل يحدث تغير عضوي صامت، وعند المرأة، يكون ما ذكرنا هو أهم هذه التغييرات... ومع ذلك أي قوّة داهية هذه التي تسوق الفتى في خوف نحو الفتاة، وتجعل الفتيات يتمنعن وهن الراغبات؟ أي سر غامض يعمل في جنبات الجسم ليخلق ابهى زهرة في جميع حياتنا... حب الرجل والمرأة؟[٢]

هـذا ويبدو واضحـًا أن عفـة المـرأة الشديدة تـخدم أغـراض التناسل. ذلك أن

---

(١) يقصد بهذا الوصف: أنهم كانوا يتألمون اثناء حلاقتهم للشعر لعدم توفر وسائل الحلاقة المريحة في ذلك الحين.

(٢) مباهج الفلسفة: ول ديورانت، ترجمة د. أحمد فؤاد الإهواني، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٥٥م: ج١، ص١٦٨ وما بعدها، بتصرف.

تمنعها على استحياء يعين على الإنجاب الجنسي، إذ يمكنها من التمييز بين المحبين، وإختيار ذلك الذي سوف يظفر بأن يكون والد أطفالها. وهنا نجد أن مصالح الجنس والجماعة تتخذ من المرأة سبيلاً الى التعبير. كما أن المصالح الفردية تجد صوتها القوي في الرجل، حتى إذا نفذت غرضها وحققت ذاتها بالأمومة زال حياؤها.(١)

ويقول لنا (لومبروزو) و (كيش) و (كرافت إبنج) وغيرهم من الباحثين: ان المرأة لا تنشد اللذة الحسية بمقدار ما تنشد الإعجاب الشامل بحاجاتها والعناية الشديدة بها، وكثيراً ما يرضيها مجرد اللذة بشعورها أنها مطلوبة. وفي ذلك يقول توماس هاري: (حب المرأة أن تكون محبوبة يرضي نفسها غاية الرضا).(٢)

ويعتقد بعض الباحثين في قلب المرأة المغلق أن حبها أمي **maternal** أكثر منه جنسي. أو كما يقول لومبروزو: (ليس حب المرأة في طبيعته الأساسية شيئًا أكثر من صفة ثانوية للأمومة، ولا تنشأ كافة مشاعر الحب التي تربط بين المرأة والرجل من الدوافع الجنسية، بل من غريزتي الخضوع **Subordination** والإستسلام المكتسبتين بالتكليف.(٣)

ويقول ول ديورانت عندما يتكلم عن الغرائز الفردية: ان وظيفة المرأة هي خدمة النوع، ووظيفة الرجل خدمة المرأة والبنين. وقد يكون لهما وظائف أخرى، ولكنها تتبع بحكمة هاتين الوظيفتين. ذلك أن الطبيعة قد بثت في هذين الغرضين الأساسيين وشبه اللاشعوريين ما فينا من معنى وسعادة. من أجل ذلك كما عمل

(١) المصدر نفسه: ج١، ص١٨٢.

(٢) المصدر نفسه: ج١، ص١٨٢.

(٣) المصدر نفسه: ج١، ص١٨٣.

الذكر الطبيعي هو الحماية، والكسب والمغامرة. ومهمته أن يترك العش أو البيت بحثاً عن الطعام، فهو سبيل الحياة الى التغذية، كما أن المرأة أداة الحياة للنسل. وأصبح الذكر محارباً بعد أن ضرب في الأرض يبحث عن الطعام. وذكور الحيوان تحارب بالأنياب والمخالب، ويتخذ الرجال من المنافسة المالية سلاحاً، أما الأمم فتتحارب بالجيوش والأساطيل والصحف، وكان (كبلنج) يظن أن الأنثى أشجع في القتال من الذكر. ولكنه لعله قاسى من جرح (شرق قنال السويس) أفسد نظرته. ذلك أن طبيعة المرأة البحث عن المأوى لا الحرب. وفي بعض الأنواع تبدو الأنثى هادئة بغير غريزة القتال. وهي لا تقاتل مباشرة إلّا من أجل صغارها، فإذا رأينا فيها قوة توحش فذلك بسبب هذه الضرورات الجنسية. ولكن من الواضح أنها أقل ميلاً الى العنف... وهي أكثر من الرجل صبراً. وإذا كان الرجل أكثر شجاعة في أزمات الحياة الكبرى وأمورها، فالمرأة تلجأ الى قوتها اليومية الدائبة لمواجهة مثيرات العيش الصغيرة التي لا حد لها. وهي تتحمل المرض أكثر هدوءاً، كما لو كانت تجد فيه لذة غامضة وشيئاً من الراحة من عناء عملها اللانهائي. أما الرجل فلأنه لم يتعود الحياة الراكدة فيتحمل المرض في قلق، ويخبر جميع الناس بآلامه."(١)

هذا وقد كانت الدراسات العلمية التي أنجزها العلماء في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين تدور غالباً حول بيان الإختلافات، ومنذ الستينات احتلت الإختلافات بؤرة الصراع أكثر من السابق وأثر تغلغل الموجة الثانية من الفكر النسوي والتيارات اليسارية والليبرالية الى المراكز الأكاديمية على وجهة الأبحاث العلمية، وفي هذه الفترة أجريت أبحاث ميدانية ودراسات عدّة من

(١) المصدر نفسه: ج١، ص١٨٤ وما بعدها.

أجل التقليل من دور التباينات التكوينية وإظهار الآثار الكبيرة للمحيط والتربية في بروز الذهنيات، والميولات والسلوكيات المتفاوتة. ومنذ عقد الثمانينات، ومع تقلص سيطرة الحركة النسوية الراديكالية ورواج الداروينية الإجتماعية ثانية التي تكتفي في توضيح سلوكيات المرأة والرجل بالتفسيرات البيولوجية، نجد أنفسنا أكثر مما مضى، في مواجهة تحقيقات تبين التفاوتات. (١) ومنذ مطلع عقد التسعينات دخلت عملية التعرف على الفروقات مرحلة جديدة عبر إختراع وسائل دقيقة للتصوير الدماغي، وقد أذعن البيولوجيون، الآن، على عكس مجموعة من علماء النفس والإجتماع بأن جزءاً كبيراً من نمطنا السلوكي يتأثر بالهرمونات. وتعود بداية بروز الإختلافات الأساسية الى الفترة التي يكون فيها الجنين في الرحم، فالكروموسومات (xx) علامة على أن الجنين انثى والكروموسومات (xy) علامة للجنين الذكر، وبعد إنعقاد النطفة لشهر أو اثنين يمكن فقط عن طريق الكروموسومات فهم فيما إذا كان الجنين ولداً أو بنتاً؟ وتتضح في الشهرين الثاني والثالث من الدورة الجنينية، التفاوتات في الغدد الجنسية، ويؤثر وجود

---

(١) في الوقت نفسه، يخشى بعض النسويين من إثبات طبيعية منشأ الفوارق، وكمثال عندما طرح ستيفن غولد برغ في كتاب The Inevitability (1977) رأيه القائل بأن التباينات الطبيعية بين الرجل والمرأة هي الدليل الرئيسي الوحيد على إختلاف موقعهما الإجتماعي، واجه أعنف هجوم من قبل الجماعات النسوية، وعندما كان راؤول غارفي إيلي نويز يوضح الإختلافات الدماغية بين الجنسين لطلبة الدورات فوق التخصصية في كلية الطب، طلبت منه جماعة عدم نشر أبحاثه وتحدي الإنجازات التي حققت خلال العشرين سنة الماضية.

ومن ناحية أخرى، مع تألق نتائج الأبحاث التي تؤكد على طبيعة منشأ التباينات، أخذ العديد من النسويين بنفي أهمية تأثير الإختلافات البيولوجية على السلوكيات الإجتماعية للمرأة والرجل. (المرأة في الإسلام: فريبا علا سوند، ص٦٧).

الكروموسوم (y) الذكري على النمو الجنسي فيحدد أن الجنين سوف يفرز هرمون الأندروجين الجنسي الذي هو هرمون جنسي ذكري، ولا يحتاج الجنين الأنثى في نموه الجسمي الى الهرمونات الأنثوية. ومعنى هذا أن الجنين سوف يكون أنثى إلّا إذا تدخل الأندروجين في هذا التحديد، ولا يحيط علم التشريح بتأثير الأندروجين، فهو وبعد أن يصمم الأعضاء الجنسية للجنين يغيّر تركيب غدّة الهايبو ثلاموس من خلال نشاطه على خلايا المخ، وهذه الغدّة تنظم الدوافع والحوافز عند الإنسان، هذه التأثيرات تجعل من الدماغ ذكوريّاً، ويمكنها أن تكوّن الأرضية لبعض الخصائص والسلوكيات الذكورية التي تظهر بعد أشهر أو سنوات.[1]

وفي هذا الصدد يقول الدكتور عمر شريف: أثبت العلم أن الأمومة تغير البنية العقلية والنفسية والسلوكية للمرأة حتى نهاية العمر، وذلك من خلال إحداث تعديلات في بنية ووظيفة المخ. وتؤدي هذه التعديلات إلى توسيع تعريف (الذات الإنسانية) للأم ليشمل الطفل بالإضافة إلى المرأة نفسها، إذ تصبح احتياجات الطفل جزءاً عضوياً من احتياجات أمّه وربما أهم.

إن الأمومة – مشاعر وسلوكاً– موجودة في الشفرة الجينية للمرأة، تنضجها هورمونات الحمل وتنشطها الولادة وتقويها ملازمة الطفل.و يبدأ سيناريو معجزة الأمومة قبل أن تصبح المرأة أمّاً. إن رائحة رأس طفل (نتيجة الوجود

---

(١) المرأة في الإسلام: فريبا علا سوند: ترجمة أحمد الموسوي، نشر مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠١٧م: ص٦٦ وما بعدها.

الفيرومونات)[١] تنشط مخ أي فتاة أو امرأة لإفراز المزيد من هورمون الحب الأوكسيتوسين) مما يثير في نفسها شوقاً شديداً للأمومة. إن هذا الشعور يدك صرح أشد النساء اهتماما بالعمل والحياة العملية.

ومنذ بداية الحمل يصبح مخ المرأة مغموراً في هورمونات الحمل التي يفرزها الجنين والمشيمة، ومن هذه الهورمونات البروجستيرون[٢] الذي يمارس على المرأة الحامل تأثيراً مهدءاً فتصبح في حالة من الاسترخاء، وكأنها قد تناولت عقاراً مهدءاً قوياً كالفاليوم، فتصبح عازفة حتى عن أن تنقل ورقة من موضعها.

كذلك يُنشِّط هورمون البروجستيرون مركز الشم، لذلك تعاف المرأة بعض الروائح وتعزف عن أكل أي طعام تعتقد أنه قد يضر بالجنين، كما يصيبها الغثيان وربما القيء. ومع دخول الشهر الرابع يعتاد المخ على مستوى الهورمونات المرتفع فتخف المعاناة، وتعود المرأة تقريباً إلى طبيعتها. ويعتبر الشهر الخامس شهراً حاسماً بالنسبة لنفسية المرأة إذ تشعر بحركة داخل بطنها، لا... إنها ليست غازات القولون، إنه الجنين يتحرك في أحشائها، .... ثم تبدأ خطوات الولادة، يزداد هورمون الأوكسيتوسين إلى مستويات هائلة ينقبض لها الرحم، يخرج الطفل وتعقبه المشيمة، فينخفض مستوى هورمون البروجستيرون المهدئ بشدة فتنشط آلاف الدوائر العصبية الخاصة بالأمومة.

سرور غامر يعقب الولادة (تأثير هورمون الأوكسيتوسين والناقل العصبي

---

(١) مواد كيمياوية تفرز من خلال جلد الإنسان ولها رائحة يدركها شخص آخر فتنشط داخله افراز هرمونات محددة تقوم بوظيفة معينة.

(٢)يتضاعف مستوى البروجستيرون أثناء الحمل من عشر مرات إلى مائة مرة عن فترة ما قبل الحمل.

الدوبامين)، كما تزداد حدة الحواس كلها لتستقبل كل شيء خاص بالطفل (صورته، صوته، رائحته، ملمسه)، إن كل شيء خاص بالطفل يتم دمغه في مخ الأم كالوشم... وعقب الولادة تصبح الأم شخصاً آخر، مرة أخرى تتبدل أولوياتها ومشاعرها، صارت تشعر أنها قادرة على أن توقف بذراعيها قاطرة تسير إذا هددت طفلها. وتعيد المرأة جدولة حياتها وترتيب البيت من أجل مصلحة وأمان الطفل، بل تعيد تقييم زوجها؛ هل هو قادر على توفير الرعاية وتحقيق الأمان لطفلها؟

لقد أظهر تصوير المخ أن حب الأم لطفلها يشغل نفس المراكز التي يشغلها الحب الرومانسي. في بعض الدراسات عُرضت على الأمهات صور أطفالهن وصور أزواجهن، في كلتا الحالتين نشطت نفس المراكز التي تفرز الأوكسيتوسين والدوبامين، كما نشطت دوائر الرضا والإثابة وخفتت دوائر التفكير المنطقي والعقلية الناقدة

وتؤدي الرضاعة الطبيعية دوراً حيوياً لكل من الأم والطفل. جاء في أحد توصيات مؤتمر أكاديمية نيويورك للعلوم الذي عقد عام ١٩٩٦ (أن الرضاعة الطبيعية لا تقدم فقط تركيبة غذائية مناسبة للطفل، بل إنها تمثل خطوة مهمة في نُضج المخ بما لها من تأثير على الجهاز العصبي والجهاز الهورموني للطفل). وهذا ما قصده طبيب الغدد الصماء (أيزاك كوخ) حين قال: إن لبن الأم ليس مجرد مصدر للغذاء، إنه طريق تنقل به الأم المعرفة لطفلها.

أما بالنسبة للأم فإن الرضاعة الطبيعية تثير إفراز المزيد من الأوكسيتوسين والدوبامين والبرولاكتين، مما يدعم الشعور بالحب والارتباط بالطفل، ويحقق لها الإشباع النفسي والبدني. وهذا الإشباع الذي تحصل عليه الأم من رعايتها لطفلها وإرضاعه يجعل ممارسة المرأة للعلاقة الزوجية في ذيل أولويات المرأة،

وإن الكثير من هذه التغيرات تحدث أيضاً مع (أمهات التبني)، إن وجود الطفل في حياة المرأة وملامسته وشمّه ورعايته ينشط إفراز هورمون الأوكسيتوسين ويُنشط تكوين الدوائر العصبية الجديدة في مخ أمّه بالتبني."(١)

وتخبرنا د. آليس روزي، عالمة الاجتماع الأمريكية، أن المرأة تمارس أمومتها بمشاعرها وقدراتها وسلوكها الأنثوي، بينما يمارس الرجل أبوّته بذكوريته. فالأب يحمل طفله ويلعب معه بعض الوقت، فإذا أخرج الطفل فضلاته وفاحت رائحته ناوله مسرعاً إلى أمّه قائلا: خذي ابنك، وكأنه يتبرأ منه. وقد يكون الأب متحمساً للعب مع الطفل، فإذا حان موعد قراءة الصحف أو مشاهدة المباراة أسدل الستار على مشاعر الأبوة، وناول الطفل للأم الموجودة دائماً والجاهزة دائماً بأمومتها التي تعمل على مدار الساعة، ولم تعد تحتاج مفتاح للتشغيل، إنها أمومة تعرف احتياجات الطفل ومستعدة للتعامل معها في كل وقت.

ولذلك تدفع البشرية ثمناً باهضاً لإنكار البعض أن الأمومة متجذرة فطرياً في عقل ونفس المرأة، هذا الذي تعبر عنه د. روزي في عرضها لبعض سلبيات حياتنا المادية المعاصرة فتقول: إن (الأمومة الجديدة) التي ظهرت نتيجة الضغوط الإجتماعية والسياسية والإقتصادية وتدعو لأن تتفرغ النساء للقيام بدور أكبر خارج المنزل قد أدت الى تفجر تناقضات نفسية عند الطفل لإفتقاده لأبسط إحتياجاته البيولوجية.

وكذلك أظهرت الدراسات التي أجريت على مجتمعات الكيبوتس – وما

---

(١) المخ ذكر أم انثى: د. عمرو شريف ود. نبيل كامل، تقديم د. أحمد عكاشة، نشر دار نيويورك، القاهرة، ط٨، ٢٠١٧م: ص٢١٧ وما بعدها.

شابهها- أن نمط التربية الذي يؤدي الى اضعاف العلاقة بين الطفل وأمه، لم يؤد الى إختفاء الفروق السلوكية بين الذكور والإناث، بل أخرج لنا أطفالاً وصبية مشوشين يشعرون بالإهمال ويفتقدون القدرة على الاستمتاع بالحياة.(١)

ووجود هذه الفروق، لا علاقة لها بكون المرأة أو الرجل جنساً أفضل والثاني جنساً أدنى وأحقر وأنقص. فإن لقانون الخلقة قصداً آخر في ذلك، فهو قد أوجد هذه الفوارق من أجل توثيق العلاقات العائلية بين المرأة والرجل، وتقوية أساس الوحدة بينهما. وقد أوجد هذه الفوارق من أجل أن يوزع المسؤوليات بين المرأة والرجل ويحدد لهما الحقوق والواجبات الأسرية.

وإنّ الهدف من إيجاده لهذه الفوارق شبيه بالهدف الذي من أجله أوجد الفوارق بين أعضاء الجسد الواحد، فهو حين عيّن مواقع العين والأذن واليد والرجل والعمود الفقري، لم يكن يفضّل عضواً على آخر، أو يحب عضواً ويكره آخر. والعجيب أن هناك من يصرّ على أنّ الفوارق بين المرأة والرجل من حيث الجسم والعقل نقصاً في المرأة وكمالاً للرجل، ويدّعون أنّ قانون الخلقة قد خلق المرأة ناقصة لحكمة ما. واعتبار المرأة ناقصة كان مشتهراً في الغرب، قبل ظهوره بين شعوب الشرق، فالغربيون كثيراً ما ظلموا المرأة بالطعن فيها واعتبارها ناقصة، إذ قالوا على لسان الكنيسة والدين:

- (المرأة يجب أن تخجل من كونها امرأة).

- (المرأة هي الموجود ذو الشعر الطويل والعقل القصير).

(١) المصدر نفسه: ص٢٢٣ بتصرف.

- (المرأة نقلة بين الحيوان والإنسان).

- (المرأة آخر موجود وحشي دجّنه الرجل) وأمثال ذلك.

وأعجب من هذا أن يستدير بعض الغربيين مئة وثمانين درجة ويريدون أن يتشبثوا الآن بألف دليل ودليل على أنّ الرجل موجود ناقص الخلقة، وضيع حقير، والمرأة موجود كامل وأفضل من الرجل.

ولو قرأتم كتاب (المرأة الجنس الأفضل) لـ (أشلي مونتاغو) لرأيتم كيف يريد هذا الرجل -بمختلف التلفيقات وأقوال الزور- أن يثبت أنّ المرأة أكمل من الرجل، وهذا الكتاب من حيث المعلومات الطبية والنفسية والإحصاءات الإجتماعية التي يعرضها مباشرة، قيمة جداً، ولكن حين يقوم الكاتب نفسه بالإستنتاج من ذلك ما يريد أن يثبت به عنوان كتابه، تصل التلفيقات غايتها القصوى، لماذا يعتبرون المرأة يوماً بهذه الحقارة والدناءة، لكي يضطروا في يوم آخر إلى أن يرفعوا عنها كل هذه النقائص ويلصقونها بالرجل؟ وما الداعي لاعتبار الفوارق بين المرأة والرجل نقصاً في أحداهما وكمالاً في الآخر، لنكون مضطرين إلى أن نحيف مرة على الرجل ومرة على المرأة.

ويصر (أشلي مونتاغو) على أن يقدم المرأة على أنها أفضل من الرجل من جهة، ويقوم من الجهة الأخرى بتعليل مميزات الرجل على أنها نتيجة العوامل التاريخية والإجتماعية لا العوامل الطبيعية. ولكن على كل حال، فإن الفوارق بين الرجل والمرأة فوارق تناسب وليست نقصاً وكمالاً. وقد شاء قانون الخلقة أن يوجد بهذه الفوارق تناسباً أكبر بين المرأة والرجل اللذين خلقا – قطعاً- لحياة

مشتركة وما حياة العزوبة إلّا إنحراف عن هذا القانون.(١)

وفي بعض الأحيان يُعبّر عن الإختلافات (بالنقص) و(الكمال)، ومثل هذه التعابير تتسبب بسوء فهم ويتم الخلط بين نقص في القابليات في مجال محدّد وبين العجز عن الوصول إلى الكمال ويثيرون شكوكاً خلال البحث عن الإختلافات ويبرئون الله من خلق موجودات معيبة أو ناقصة.

فعالم التكوين يعج بالتفاوت والإختلاف في القدرات، ولكن لا يعتبر أحد أن هذه الإختلافات دليل على العيب أو الكمال. وعلى سبيل المثال، فإن قدرة عين الإنسان على البصر هي أقل بكثير عن قدرة النسر أو الصقر، وإن قدرة السمع والشم عند الإنسان أضعف مما هي عند الكلب، ولكن نقص قدرة الإنسان في القضايا المذكورة ليس معناه النقص في تعالي الإنسان وكماله. ومن الممكن أن يكون الإنسان الذي يتمتع بمثل هذه القدرات لا ينتفع بها بل ستشكل له أخطاراً. وعلى هذا، فإن أي موجود حسب قدرته على العمل الخاص الذي يقوم به مزوَّد بنوع من البناء الطبيعي والجهاز التكويني، ويتحقق مفهوم البناء في مسيرة هذا العمل. وطبيعي أن الذي يضمن التنسيق بين الأهداف والتصرفات والبناء، هو مبدأ الحكمة والقصد من الهدف.

ولذلك، فإذا لم تأخذ كلمات النقص والكمال مفهومها القيمي وكانت تشير فقط إلى الخصائص الطبيعية، فإن مثل هذا المعنى من النقص والكمال يمكن استخدامه في المقارنة بين المرأة والرجل. فمثلاً يمكن القول بأن قدرة العاطفة

(١) نظام حقوق المرأة في الإسلام: مرتضى المطهري، ترجمة د. أبو زهراء النجفي، نشر آينده درخشان، قم، ط٢، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م: ص١٨٤ وما بعدها بتصرف.

والإحساسات عند المرأة أقوى من الرجل، وأن الرجل أضعف من المرأة. بينما يعتبر الرجل أقوى تدبيراً وتحملاً للأخطار، والمرأة أقل قدرة في هذا المجال.(١)

والآن لنرى ماذا قدّم الغرب للمرأة عندما رفع شعار المساواة في الحقوق بين المرأة والرجل. يعتقد بعض الباحثين بأن المرأة تضررت أكثر من غيرها من شعار التشابه الذي رفعه المفكرون الغربيون. السبب الأول؛ هو أنّه بذريعة المساواة بين المرأة والرجل طرح تقسيم المسؤوليات داخل العائلة بصورة متساوية بين المرأة والرجل، وحذفت النفقة والمهر بناءً على اعتبارها إهانة لشخصية المرأة المستقلة، ولأنها تجعل المرأة موجوداً تابعاً، وأضطرت المرأة من أجل سدّ حاجتها إلى المال وتحقيق شخصيتها الإجتماعية أن تتهافت على سوق العمل.

ومن جهة أخرى، فإن المرأة بسبب مواجهتها القضايا العائلية والتفاوت في القابليات، عجزت عن التنافس مع الرجل وخاصة في مجال الإدارة. فوجود رياض الأطفال والشقق الصغيرة، جعلت المرأة تخفف من مشاغلها الفكرية إلى حد ما. كما أن الوجبات السريعة تمكنت من سد فراغ عدم حضورها في المنزل. ولكن عملياً نرى أن المرأة أصبحت من الناحية الجسدية والروحية معرّضة أكثر من الرجل إلى الهزال. وقد اضطرت إلى تحمّل الضغوط العائلية بالإضافة إلى أعباء العمل اليومي، ومضافاً إلى ذلك فإنّ النساء العاملات قد فقدن روح الابتكار والإبداع داخل العائلة باعتبارها أمّا أو زوجة. إنهن خلافاً لأمهاتهن تمكنّ من تحقيق الاستقلال الاقتصادي، ولكنهن لم يتمكن من أداء وظيفتهن الرئيسية، وهي رعاية الزوج وتربية الأولاد. وهكذا فإن المرأة بقيت تعيش حياة دون روح

(١) ينظر: شخصية المرأة: محمد تقي سبحاني، تعريب علي بيضون، نشر مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م: ص٢٣٦.

وتواجه ظروفاً غير مناسبة في مجال العمل، وفقدت التفاهم مع زوجها، ولم تتمكن من تربية أولادها بعد أن حرمتهم من عطف الأمومة، وهؤلاء الأولاد بعد أن حرموا من عاطفة الأم رأوا مغادرة البيت، لأنهم رأوا أن الوالدين يشكلان عائقاً في طريقهم.

هذه الظروف جعلت المشاكل الإجتماعية تتفاقم تدريجيا؛ والآن تواجه الحضارة الغربية مثل هذه المشكلة وأصبحت المجتمعات الغربية تواجه الأزمات الإجتماعية. فتزلزل أساس العائلة بموجة من الطلاق المبكر والأطفال والأولاد المشردين، والاستغلال الجنسي، وحتى قضايا من قبيل مثلي الجنس، أو مساكنة الشريك بدلاً من الزواج، وعشرات المشاكل الإجتماعية الأخرى كانت بسبب تغيير دور النساء والرجال، والغفلة عن الدور الذي يجب أن يقوم به كل منهما.

والحقيقة إن طرح قضية الحريات، وعمل المرأة في الغرب كان ينظر إليهما من وجهة نظر إقتصادية بحتة، ومنها تأثير ذلك في الإنتاج الوطني وملء سلّة العائلة. ولم يؤخذ دور الأم والزوجة بعين الإعتبار، بل إن هذا الدور أُدين بشدة. فلم يتم الإكتراث للنشاطات الثقافية العميقة والإنسانية، بل أغفل التأثير الإقتصادي لتربية الأولاد ودور الاستفادة الإقتصادية للمجتمع منها.[1]

عموماً إن المرأة والرجل وإن اختلفا من حيث المركب – وهو البدن– وإن كانا مختلفين من حيث أجهزة المخ، ومن حيث أجنحة الفكر، ليسا متساويين من حيث أجنحة الجذب والميل والإنجاب والعاطفة، ويمكن أن يفكر أوساط من الرجال أفضل من النساء، ولكن لا يمكن أن يستطيع شخص إثبات ان أوساطاً من

(١) المصدر نفسه: ص٢٤٠ وما بعدها.

الرجال يطرحون ويقطعون أكثر من أوساط من النساء طريق القلب، طريق العاطفة، طريق الموعظة، طريق النصيحة، الجذب، السعي والجذبة بصورة أفضل ولا يوجد أي طريق لإثبات هذا الموضوع.(١)

الجانب الثاني: النص القرآني

هناك زمن طويل يفصلنا عن مبدعات الروح الإنسانية المبكرة، تخبرنا بأن لحظات البداية البشرية، ما كانت فوضوية، وإنما كل لحظة من لحظاتها بناء وتحول وإرتقاء، وكل ما يحدث فيها مبني على القصدية والتخطيط المسبق، ولذلك احتاج الى من يشرف على ذلك التخطيط حتى لا تضيع الأمور، وتمر الحوادث بلا أهمية أو من ضياع الى ضياع.

وهناك آثار وهناك وقائع وسير ومشاعر وشواخص، وهناك لغة وكلام، كل منها يعبر عن شيء، بل كل قد عرف ماذا يراد منه في هذا الوجود، بحيث كانت الفطرة والسجية تقود أغلب الأشياء، حتى وإن كان بعضها من الحجر أو الشجر. ومن هذه الأشياء كان في الزمن العتيق رجل وامرأة، قد عاشا تجربة القصدية في الفعل وعدم العبثية ليؤسسا أول نظام يتحرك من خلاله الرجل وتتحرك من خلاله المرأة، ثنائية منتقاة لا يمكنهما الإنفصال عنها، والتي ستتكفل بإستمرار الخلق البشري وانتشاره على هذه الأرض الفسيحة، في براريها وجبالها وسهولها وشواطئها.

ولا يمكن أن تكون كل العادات والطبائع والوظائف المتشابهة بين الشعوب

(١) جمال المرأة وجلالها: الشيخ جوادي آملي، نشر دار الكاتب العربي، بيروت، ط٦، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م: ص١٨٦.

وخصوصاً ما يتعلق بالرجال والنساء، قد نقلت من حضارة الى أخرى عن طريق الإقتباس والمحاكاة. ولكن من المؤكد وفقاً للقوانين الطبيعية أن تنشأ من الأفكار الإنسانية الأساسية لدى الشعوب المنتمية الى أجناس مختلفة ومناطق مختلفة يستقل بعضها تماماً عن البعض الآخر. بحيث تنشأ صور متشابهة في المجالين المادي والروحي على السواء، كما ذهب الى ذلك العالم الألماني (هانز ناومن Hans Naumann) الذي اعتمد على ابحاث (تايلور وبيديه ووليم فوندتس) في سيكولوجية الشعوب، كما أكدت ذلك دراسة الباحث الفرنسي (ليفي برول) التي تحمل عنوان (تفكير الشعوب الفطرية).

فلماذا يصرّ البعض على إعطاء بعداً للمرأة أكبر من طبيعتها والجبلة التي أوجدها الله فيها، ويصرّ البعض الآخر على التضييق عليها ومنعها من أن تمارس حقها في الحياة.

ونحن بطبيعة الحال لسنا مع من يضيق عليها ويحرمها من أن تمارس حقها الطبيعي في هذه الدنيا، ولا نذهب كذلك في إعطائها بعداً حركياً موازياً لحركة الرجل في مبداه ومنتهاه، فالمسألة لا تتعلق في النظر للمرأة كونها في أقصى اليمين أو في أقصى الشمال، ولا المسألة مرهونة بتجاوز البعد الطبيعي للمرأة وتعويضه بالآله، أو تسخير الرجل في عالم المعاكس. وإنما نحتاج الى النظر من أجل وضع كل من الرجل والمرأة في المكان المناسب واشغال البعد الوظيفي لهما.

والحقيقة ان الطبيعة والفطرة، قد بادرت الى تهيئة السبل وإعدادها الإعداد الصحيح بما يناسب التركيبة البيولوجية والنفسية لكل من الرجل والمرأة، وكل قد علم مسعاه ومقصده الوجودي، ضمن لوائح التشريع السماوي الذي ناسب ذلك الوجود.

ولكن لم يترك الأمر ليأخذ إنسيابيته وتوافقاته الإجتماعية التي إتضحت صورها وادوارها بشكل أصبح أقرب للتلقائية من العنف والإجبار، ولذلك عاشت البشرية وهي تطوي مراحل وجودها بوئام وسلام أسري تعجز أعظم الدساتير والنظم الحضارية الحالية من أن تجد نظاماً موازياً له. وبدلاً من قبول هذا الإتساق والإتفاق بين الذكر والأنثى الذي تماشا مع التجارب الإجتماعية بأعقد تركيباتها، راحت بعض الفلسفات والآراء تتجه اتجاهاً معاكساً لذلك وأخذت تطرح وظائف جديدة للمرأة، ولعلها تكون بديلة عن وظائف الرجل الأصلية، وحاولت أن توجد بذلك تنافساً وصراعاً بينهما لا أصل في الواقع له، فأخذت تنظّر وتفلسف لرفع أي جانب يتعلق بالإختلافات، حتى ولو كان في الجوانب الطبيعية في أصل الخلقة، فإنه وحسب ما يعتقدون - أو بحسب ما يريدون إيصاله حتى وإن كان خارج إعتقادهم لتحقيق اهداف مقصودة- فإنه من الممكن تعويض هذا البعد البيولوجي بوسائل أخرى، سواء عن طريق تنشئة إجتماعية جديدة، تركز على التمرين والتدريب على ما هو خلاف الجانب البيولوجي أو عن طريق إيجاد وسائل بديلة تعوض ما يعجز الجسد عن الإتيان به.

وهذا بدوره سيزيد من أمر التشنج والتوتر فيما بين المرأة والرجل، لأنه سيوجد مساحة من الصراع هي بالأصل غير موجودة، ولكن كلما كثر وتأكد التكرار على مثل هذه الأمور، بحيث يصل الأمر الى أن تطرح مسائل الجنوسة والجندرة بشكل يومي ومبرمج من وسائل الاعلام بكافة وسائلها، مضافاً الى عقد المؤتمرات العالمية التي تهدف الى رفع أي إختلافات بين الرجل والمرأة، للوصول الى حالة التساوي والتشابه الكامل في الجانب الوظيفي لكل منهما.

ولوجود الرفض الإجتماعي ولمعرفة الرجل بقدراته وقدرات المرأة، فإنه

سيرفض ويعارض مثل هكذا أفكار وتبنيات. وفي الجهة الأخرى تصرّ المرأة على ما تريد الوصول إليه، بسبب ذلك الفكر النسوي الذي أخذ بالإتساع والثبات، فبالتالي ستكون نتيجة هذا الإصرار والضغط من جهة النساء، والمقابلة بالرفض والمعارضة من جهة الرجال، أن يتولد صراعاً، تلزم الإنسانية الجديدة به، وإن كان على رغم أنفها، وذلك بإعتبار ان ما تطالب به بعض النساء منذ زمن بعيد، وبعد أن كانت طلباتهن مجرد رؤى افتراضية، تسبح في عالم الخيال، أصبحت الآن لها طرق متعددة في مجريات الحياة اليومية، وقد يصبح في يوم ما سلوكاً عملياً تمارسه المرأة بصورة مقبولة، وذلك الأمر إن حدث فهو من أخطر عوامل الهدم للجانب الإنساني الذي يتولد من إلتقاء المرأة بالرجل.

والآن نحن أمام مشكلة، لابد أن يكون هناك قولاً فصلاً فيها، ولا يمكن أن تترك لكل طرف أن يقيم حكماً هو فيه خصم، وأيضاً هو الحكم، وكما يقول الشاعر المتنبي:

يا أعدلَ الناس إلّا في معاملتي

فيك الخصامُ وأنت الخصمُ والحكمُ

ونحن نعرف أنه لا يمكن صدور حكم على فرد، يكون الصادر عنه الحكم هو أحد طرفي التخاصم والنزاع، لأنه لابد أن يكون حكمه نابعاً من حبه لذاته، وميل النفس لا شعورياً الى جلب المصلحة لها، سواء كانت مادية أو معنوية، فلا فرق بينهما.

فنحن هنا أمام طرفي تخاصم أحدهما الرجل والآخر المرأة، فإن صدرت

الأحكام من قبل الرجال، فالنساء سترفض وستقول بما إنكم اصحاب القرار، فستكون كل قراراتكم وآراؤكم الخاصة بالنساء، وكيفية التعامل معهن سواء في الجانب الأسري أو الجوانب الوظيفية الأخرى، أو حتى من ناحية النقص أو الكمال. فسيبقى الرجل هو المتسيد الأول، وصاحب الكمال الأعلى، ولن يقبل عن ذلك بدلا.

وأما إذا ما صدرت الأحكام والآراء من قبل النساء، فالرجال سيرفضون، وخصوصاً بعد أن سمعنا ما طالبت به بعض النساء اللواتي يعتبرن أنفسهن متحررات من الواقع الإجتماعي الراهن. وحينئذ سيصدرن من الأحكام والأفعال ما يغضب الرجال منهن، فالمناداة بالمساواة الكاملة أو فرض جوانب أسرية، لا يكون للأب حضور فيها أو تحرر المرأة من جو الأسرة والرابطة بين الأبناء والآباء أو بين الأمهات والآباء، أو حتى في العلاقات الإجتماعية بين النساء والرجال بمختلف أطرها وروابطها الأخلاقية.

إذن إذا كان الحال بهذه الصورة فإننا سنحتاج الى طرف ثالث توجد فيه صفات لا يمكن التنازل عنها ومنها:

الأولى: أن لا يكون هذا الطرف الثالث رجلاً أو امرأة.

الثانية: أن يكون عالماً مطلعاً على واقعية الرجال، وواقعية المرأة.

الثالث: أن يكون عادلاً فيما يصدر عنه من أحكام.

وهذا الطرف لا يمكن أن تحققه الأطراف المحسوسة في هذا الوجود، ولا تحققه أيضاً المخلوقات غير المحسوسة – خصوصاً ما يعنى منها بالشأن

البشري- وذلك لأن كلّ منها مشغول في شأنه، ولا توجد عنده المعايير الكاملة، حتى تشكل إستراتيجية دقيقة التحديد في معرفة حقيقة كل من الرجل والمرأة. وحينئذ سنحتاج الى موجود آخر يكون وجوده حقيقياً وليس إعتبارياً، الى موجود يكون خالقاً لا مخلوقاً، وهذا لا يمكن رؤيته إلّا في الله تعالى، فهو الخالق وهو الأقرب له من حبل الوريد، وهو الذي بعباده خبير بصير، وبالتأكيد سوف تكون المصلحة المحددة للرجل والمرأة صادرة عنه ومقننة من قبله، ولذلك ستكون كل أحكامه بهذا الخصوص هي واقعية وليست ظنية، ومن سار عليها سُعِد، ومن تخلف عنها، أو حاول التلاعب والتغيير، فإنه سيخسر جانباً مهماً وكبيراً من إنسانيته، ولن يتمكن من تعويضه بأي قانون عابر، حتى وإن كان نموذجيا في عيون البعض.

ولذلك علينا الرضوخ لهذا الأمر والقبول بحكمه، وعدم الإلتفاف عليه، لعدم وجود البديل الذي يعوضه. وعليه لنأتي الآن وننظر الى بعض آيات القرآن الكريم التي وردت بخصوص بيان الأحكام عن الرجل والمرأة، والتي بينت وجود التفاوت والإختلاف فيما بينهما، ولكن لا على نحو الإستضعاف والإستصغار أو الكمال لأحدهما والنقص في الآخر، وإنّما على نحو تعلق المصلحة بترتيب الجسد والروح وتهيأة الأجواء النفسية بما يلائم كل واحد منهما. والآن إليك عزيزي القارئ بعض من هذه الآيات المباركة:

١- الآية الأولى: (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ...) سورة النساء: ٣٤.

لكل جنس مهمة معينة خلقه الله تعالى لها ليؤديها في الأرض، وهيأه لها ووهب له ما يمكن أن يقوم بالمهمة فكلّفه عز وجل بتكاليف توافقها، وإن الرجل

خلقه الله تعالى لأجل وظائف معينة في المجتمع كالجهاد والسعي لكسب والعيش، كما خلق النساء لأداء وظائف أخرى كالحمل ورعاية البيت وتربية النشيء تربية صالحة شرعية وقد أعطى عز وجل لكل واحد منهما أجراً معيناً لا يمكن نيله إلّا بالعمل واداء الوظيفة والوفاء بالتكاليف الإلهية، فلابد من المحافظة على ذلك التنويع في الإختصاصات وعدم الإخلال بتلك المهمات الأصلية، وخلاف ذلك إفساد للفطرة وإبطال للنظام وبدون ذلك لا يستقيم المجتمع البشري ويضطرب أشد الإضطراب كما نراه في الجاهلية المعاصرة عندما خرج الناس عن الفطرة وطلبوا المساواة بين الجنسين."[1]

ثم أن في هذه الآية بيان لأهم حكم نظامي، وقد صار مثلاً قرآنياً يتضمن حكماً تربوياً إرشادياً الى النظام الأحسن – ومنه نظام العائلة والأسرة- الذي نظم في الإسلام تنظيماً دقيقاً وهذبت علاقاتها حتى تؤدي وظيفتها بأكمل وجه في المجتمع الإنساني، وقد ذكر عز وجل في هذه الآية الشريفة قوّامة الأسرة والعائلة التي هي عمودها المقوم لها وبدونها تنهدم وينفرط عقدها وتسيء احوالها وتتخلى عن وظيفتها التي قررت لها وذكر عز وجل ان هذه القوامة تتضمن من الأحكام والتبعات التي لابد من أن يكلف بها الأصلح من أفراد المجتمع، وليس هي قضية منافسة بين الرجل والمرأة، وجدال وصراع بينهما كما تراه الجاهلية المعاصرة، فإن الإسلام إنما بنى العلاقات الإجتماعية على المودة والرحمة لا على الشقاق والجدال."[2]

---

(١) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: آية الله العظمى السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري، نشر مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ط١، ١٩٩٠: ج٨، ص١٦٤.

(٢) المصدر نفسه: ج٨، ص١٧٣.

والآية الشريفة تبين أن الأصلح لهذه المهمة هو الرجل لما فضّله الله تعالى بأمور تجعله صالحـًا لهذه المهمة، وهي على ما يستفاد من الآيات الشريفة القوّة وشدّة البأس، وزيادة التعقل، بخلاف المرأة التي لم يهمل الإسلام شأنها في المجتمع. فإن حياتها تبتني على حياة احساسية عاطفية، وهذه الجهة تستدعي حياة الدعة والرفق، ولا يمكنها النهوض لتحصيل الرزق الذي يستدعي القوة ورباطة الجأش، وهذا هو مقتضى قانون الفطرة والإسلام لم يخرج عنه فإنه دين الفطرة، قال تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) سورة الروم: ٣٠"(١)

وهذه القوامة ليست لتفضل قبيل الرجال على قبيل النساء، فلو لم تكن للنساء فضيلة تجب الحفاظ عليها ما قررت على الرجال تلك القوامة القويمة على النساء، و (بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) لا تفضلهم عليهن لمكان المباعضة الطليقة في (فَضَّلَ اللهُ) فهما - إذا- وحدة ذات أبعاض، فضلت البعض على البعض، كما فضّلت الأخرى على الأولى من ناحية أخرى حسب الفاعليات والقابليات والمصالح.

و(هم) هنا في التفضيل تعمهما، وتعمية البعض تلمح الى معاكسة في ذلك التفضيل، فكما فضّل الرجال من قبيل من الفضائل على النساء، كذلك النساء فضلن في قبيل آخر من التفضيل عليهم، فلولا هذه المعاكسة في التفضيل لكان حق التعبير (بما فضلهم الله عليهن) دون (بعضهم على بعض) و (هم) تعمهما لمكان

(١) المصدر نفسه: ج٨، ص١٧٤.

بعضهم على بعضهم، وتذكير الضمير ليس إلّا للتغليب.(١)

ثم إن العائلة وحدة إجتماعية صغيرة، وهي كالإجتماع الكبير، لابد لها من قائد وقائم بإمورها، لأن القيادة والقوامة الجماعية التي يشترك فيها الرجل والمرأة معـًا، لا معنى لها ولا مفهوم، فلابد أن يستقل الرجل أو المرأة بالقوامة، ويكون (رئيسـًا) للعائلة، بينما يكون الآخر بمثابة المعاون له الذي يعمل تحت إشراف الرئيس. والقرآن يصرّح – هنا– بأن مقام القوامة والقيادة للعائلة، لابد أن يعطى للرجل. ويجب أن لا يساء فهم هذا الكلام، فليس المقصود من هذا التعبير هو الإستبداد والإجحاف والعدوان، بل المقصود هو أن تكون القيادة واحدة ومنظمة تتحمل مسؤولياتها مع أخذ مبدأ الشورى والتشاور بنظر الإعتبار. وإن هذه المسألة تبدو واضحة في هذا العصر أكثر من أي وقت مضى، وهي أن أية هيئة، حتى المؤلفة من شخصين مكلفة بالقيام بأمر لابدّ أن يتولى أحدهما زعامة تلك الهيئة، فيكون رئيسها، بينما يقوم الآخر بمساعدته فيكون بمثابة (المعاون أو العضو)، وإلّا سادت الفوضى أعمال تلك الهيئة واختلت نشاطاتها وأخفقت في تحقيق اهدافها المنشودة، وهكذا الحال بالنسبة الى العائلة، فلابد من إسناد إدارة العائلة الى الرجل.(٢)

وإنما تعطى هذه المكانة للرجل لكونه يتمتع بخصوصيات معينة مثل القدرة على ترجيح جانب العقل على جانب العاطفة والمشاعر، (على العكس من المرأة

---

(١) الفرقان في تفسير القرآن: الدكتور محمد الصادقي، نشر دار الأميرة، بيروت، ط١، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م: ج٦، ص٣٤٨ وما بعدها بتصرف.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: الفقيه المفسر الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م: ج٣، ص١٤٨.

التي تتمتع بطاقة فياضة وطاغية من الأحاسيس والعواطف) ومثل إمتلاك بنية داخلية وقوة بدنية أكبر يستطيع بالأولى أن يفكر ويخطط جيدا. ويستطيع بالثانية أن يدافع عن العائلة ويذبّ عنها.

هذا مضافاً الى أنه يستحق – لقاء ما يتحمله من الإنفاق على الأولاد والزوجة، ولقاء ما تعهده من القيام بكل التكاليف اللازمة من مهر ونفقة وإدارة مادية لائقة للعائلة- أن تناط إليه وظيفة القوامة والرئاسة في النظام العائلي.

نعم يمكن أن يكون هناك بعض النسوة ممن يتفوقن على أزواجهن في بعض الجهات، إلّا أن القوانين تسن بملاحظة النوع ومراعاة الأغلبية، لا بملاحظة الأفراد، فرداً فرداً، ولا شك أن الحالة الغالبة في الرجال أنهم يتفوقون على النساء في القابلية على القيام بهذه المهمة، وإن كانت النسوة يمكنهن أن يتعهدن القيام بوظائف أخرى لا يشك في أهميتها.(١)

ثم إن اللاقيادة فوضى يرفضها الإسلام، كما ترفضها الطبيعة، حيث أن الله خلق الذكر بحيث جُبل على حب القيادة، بينما خلق الأنثى وفطرها على الإنسجام والطاعة، ولذلك حدثت تجاوزات من قبل الذكر في حقوق الأنثى، وجاءت رسالات السماء لتحد من هذه التجاوزات، ولتضع حدوداً حاسمة لقيادة الذكر للأنثى.

ومن هنا نستطيع أن نؤكد: أن إعطاء الإسلام حق القيادة للرجل داخل الأسرة ليس سوى تقرير للوضع القائم فطرياً، فهو لم يبدع حقيقة، بل أقرّ بها تمهيداً لتنظيم القيادة، وتحديد إطار مناسب لها يمنع الزوج من تجاوزه. والقرآن يسمي

---

(١) المصدر نفسه: ج٣، ص١٤٩.

النظام بـ (القيام)، ويسمي المنظم بـ (القيم) و (القائم بالأمر)، والقائم يبالغ فيه ويقال قوام (مثل ضارب، ضراب، صائم، صوام، وهكذا) وقد استخدم القرآن هنا كلمة قوام للتعبير عن تحمل الرجال لتنظيم شؤون نسائهم، بشكل مستمر، ويحمل هذا اللفظ معنى المسؤولية التامة عن شؤونهم.(١)

هذا ويبين القرآن حكمة ذلك:

١- بالجهد الذي يبذله هؤلاء، ذلك الجهد الذي يجعل بعض الرجال أفضل من بعض في المراتب الإجتماعية، فبعضهم يصبح غنياً، والبعض فقيراً، وبعضهم يصبح مفكراً، والبعض عاملاً.. وهكذا، وكذلك الرجال أكثر جهداً وأصعب عملاً من النساء، ولذلك تحملوا المسؤولية دون النساء. ولأننا نقبل تفاضل الرجال فيما بينهم بسبب الجهد الذي يبذله البعض دون الآخر، فلابد أن نقبل أفضلية الرجال على النساء لذات السبب.

٢- بالعطاء، فعلى الرجال أن ينفقوا على النساء، بل إن طبيعة الرجال وفطرتهم الصافية تدفعهم الى الإنفاق على النساء، وقد بين التشريع السماوي هذه الطبيعة، وفرض على الإنفاق على النساء.(٢)

وفي معرض الإجابة عن طبيعة القوامة في الإسلام يقول السيد محمد حسين فضل الله: قد يخيّل لبعض الناس أنها تعني السيادة والسيطرة، فليس للمرأة كلمة مقابل كلمة الزوج، وليس لها موقف أمام موقفه، سواء في ذلك في قضاياها

(١) من هدى القرآن: آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي، نشر دار القارئ، بيروت، ط٢، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م: ج٢، ص٥١.

(٢) المصدر نفسه: ج٢، ص٥٢.

الخاصة أو في القضايا العامة، وليس لها إختيار في إدارة أمورها المالية والحياتية، وبذلك تتحول الى كميّة مهملة خالية من كلّ سمات الشخصية الإنسانية المستقلة، لتكون الإنسان التابع، لا المستقل.

ولكن هذا بعيد عن الجو الإسلامي في التشريعات الخاصة بالأسرة، فالزواج لا يلغي شخصية المرأة في جميع الأمور التي لا يشملها العقد الزوجي، من خلال ما تلتزم به المرأة من شؤون الحياة، بل كل ما يلزمها به من ناحية قانونية هو الجانب الذي تلزم به نفسها، فإن لعقد الزواج – في طبيعته- مفهومًا محدوداً من خلال ما يفرضه من إلتزامات، لابد لكل منهما من الوقوف عندها تبعًا للإلتزام بالعقد. وهو المفهوم الذي يفرض على الزوجة الإستجابة لزوجها في نطاق حاجته الجنسية، كلما رغب إليها في ذلك ... وعلى الزوج كذلك أن يلبي رغبة زوجته في ذلك، وهو ما يلتقي مع مفهوم المعاشرة بالمعروف وحمايتها من الإنحراف.

وعلى الزوج أن يكفل لزوجته النفقة في المعروف بحسب إمكاناته، في ما تقتضيه حاجاتها المادية بحسب حالها... وهذا ما يفرضه عقد الزواج من إلتزامات على الطرفين، ويبقى لكل منهما الحرية في كل القضايا الذاتية المتعلقة بالأعمال الأخرى، في شؤون العمل المنزلي، وفي حدود الشخصية المالية والاجتماعية لكل منهما، مما لا يتنافى مع الالتزامات الزوجية الخاصة، فليس للرجل أن يفرض على زوجته القيام بإدارة البيت الزوجي إلّا على أساس التزامها بذلك في ضمن شرط شخصي بينهما، حتى في موضوع حضانة الأولاد ورعايتهم، فإنها ليست مسؤولية الزوجة من ناحية شرعية قانونية، بل هي مسؤولية الزوج، ولها الحق في أن تطلب أجراً على ذلك.

وهكذا نجد أن الإسلام جعل لكل منهما مساحة واسعة للتحرك بحرية في ما يؤكد له إنسانية إرادته، وقيمتها في مجال العلاقة، ولكنه لم يترك الأمر للمزاج الذاتي وللرغبة الطارئة في قيام كل منهما بما لا يجب عليه تجاه الآخر، بل أوحى إليهما بأن الأساس المادي الذاتي ليس هو الأساس الذي ينبغي للزواج أن يرتكز عليه، فليس الزواج شركة مادية جامدة تخضع للحسابات الدقيقة في نطاق الأرباح والخسائر، بل هي علاقة روحية متحركة على أساس إنساني يجعل من شخصية كل منهما امتداداً روحياً لشخصية الآخر... وهذا ما عبّرت عنه الآية الكريمة: (وَمِنْ ءايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْواجـًا لِّتَسْكُنُواْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً) سورة الروم: ٢١، وقوله تعالى: (هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ) سورة البقرة: ١٨٧.

وفي ضوء ذلك كله، تتحرك العلاقة الزوجية في وعي كل منهما من خلال روح العطاء والتضحية والمحبة، بعيداً عن الحسابات المادية الجامدة، فنجد المرأة تتفانى في خدمة زوجها وأطفالها في كل ما تستطيع أن تبذله أو تقدمه من نفسها ومالها وحياتها، ونجد الرجل يتحرك ليجعل كل حياته لزوجته وأولاده، حتى يصل إلى حد حرمان نفسه من كثير من رغباته لمصلحة حياتهم، وذلك عندما تسير العلاقة الزوجية في خط متوازن سليم.[١]

وفي هذا السياق يقول السيد الطباطبائي قدس سره: أن قيمومة قبيل الرجال على قبيل النساء في المجتمع إنما تتعلق بالجهات العامة المشتركة بينهما المرتبطة بزيادة تعقل الرجل وشدته في البأس، وهي جهات الحكومة والقضاء والحرب من

---

(١) تفسير وحي القرآن: آية الله العظمى السيد محمد حسين فض الله، نشر دار الملاك، بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م: ج٧، ص٢٣١ وما بعدها بتصرف.

غير أن يبطل بذلك ما للمرأة من الاستقلال في الإرادة الفردية وعمل نفسها بأن تريد ما أحبت وتفعل ما شاءت من غير أن يحق للرجل أن يعارضها في شيء من ذلك في غير المنكر فلا جناح عليهم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف، كذلك قيمومة الرجل لزوجته ليست بأن لا تنفذ للمرأة فيما تملكه إرادة ولا تصرف، ولا أن لا تستقل المرأة في حفظ حقوقها الفردية والإجتماعية والدفاع عنها والتوسل إليها بالمقدمات الموصلة إليها.[1]

إذن إن (الرجال قوّامون على النساء) لم تأت أبداً لتعطي فتوى من طرف واحد وتقول للرجل أنت آمر واعمل كل ما تريد، لأن الرجل إذا خرج من محل العمل ولم يذهب إلى المنزل فهو ليس قوّاماً وقيوم وآمراً ومديراً، بناء على هذا، إذا ذكر الإسلام هذين الحكمين إلى جانب بعضهما البعض، وأمر المرأة بالتمكين في مقابل الزوج، وأمر الرجل بالمسؤولية في مقابل المرأة. فهو بيان وظيفة فقط،[2] وأي منهما ليس معيار فضيلة ولا يؤدي إلى نقص. لو قيل لرئيس مؤسسة: ابذل جهداً حتى تثبت نظام تلك المؤسسة، فهذا ليس بمعنى أن هذا النظام تحت اختيارك، وأنت تختار، ذهبت أم لم تذهب، المقصود هو: إذهب وثبته، لذا لا ترون في أية آية في مسألة الجنة أن درجات الرجل تكون أكثر من درجات المرأة، بل توزع هناك على أساس العلم والعمل الصالح.

ولذلك فإن قيمومة المرأة والرجل هي في محور أصول الأسرة، أحياناً المرأة هي قيمة الرجل، وأحياناً الرجل قيم المرأة. وكثير من المسائل تتغير في الأصول

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٣، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م: ج٤، ص٣٤٤.

(٢) أي أن قيمومة الرجل هو عمل تنفيذي وليس معياراً للفضيلة والكمال، بل هو وظيفة.

العائلية. إطاعة الابن للوالدين واجبة سواء كان ولداً، أو فتاة، وإذا عمل الابن عملاً يؤذي والديه يصبح عاقاً لوالديه، وعقوق الوالدين حرام. فإذا نهت الأم ابنها عن عمل وقالت: إن هذا العمل يسبب ايذائي، هنا إطاعة الأم واجب ولا يستطيع الابن أن يقول: إنني لم أعد تحت أمر أمي لأنني الآن في رتبة الإجتهاد أو إنني أصبحت مهندساً أو طبيباً وأمثال ذلك. وفي الحقيقة المرأة في هذه الحالات هي القيمة على الرجل. الأم قيمة على الابن ولو كان الابن مجتهداً أو متخصصاً. في المسائل المتعلقة بداخل الأسرة هناك مجموعة حقوق متقابلة. بين المرأة والزوج، والأم والابن، والأب والابن.(1)

إذن يظهر مما ذكرنا حول مسألة قيمومة الرجل على المرأة إنها ليست مسألة تسلط وقهر وجبر، وإنّما هي وظيفة كلف بها الرجل للقيام بشؤون تتعلق بالمرأة، لا يمكن أن تؤديها هي في حالة الإجتماع والألفة. أي بما أن صريح الآية عندما تقول: (بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) أي أن هناك أدوار وحالات يكون الرجل بها أفضل من المرأة، كما أن هناك أدوار وحالات تكون المرأة بها أفضل. وحالة القيمومة هي من الأمور التي فضّل بها الرجل، كونه الأنسب لتأدية هذا الدور. وهذا ليس من باب التفرقة والغبن والتقليل من شأن وأهمية المرأة، بل على العكس فهو من باب العدالة والحكمة أن يكون الشخص المناسب في المحل المناسب، حتى تسير الأمور بشكل طبيعي، بحيث يوافق الفطرة والسجية التي يتحلى بها الرجل والمرأة، فكما أن المرأة هي الأنسب والأقدر في ترتيب أمور الأسرة ورعاية أفرادها داخل محيط المنزل، فلذلك يكون أداؤها لهذا الدور

(1) جمال المرأة وجلالها: الشيخ جوادي آملي، نشر الكاتب العربي، بيروت، ط٦، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م: ص٣٤٥ بتصرف.

مؤدياً الى نتائج إيجابية بمحيط الأسرة العام، ولو كلّف الرجل بهذا الدور فلن يتمكن من الإحاطة والإلمام الكامل بهذا الأمر، وهنا سيؤدي بالتالي الى وجود عدّة ثغرات لا يمكن تجاوزها أو تعويضها بأمور أخرى.

وكذلك نرى أن قدرة المرأة من ناحية العاطفة والمشاعر والأحساسات هي أقوى من الرجل، بينما يعتبر الرجل من ناحية التدبير ومواجهة المخاطر وتحملها أقوى من المرأة. فهكذا يكون شأن قيمومة الرجل على المرأة، لأنه الدور الأنسب والأكمل للحماية والحفاظ على المرأة في المجتمع. وهذا التكليف واقعاً، يمكن التعبير عنه بأنه تشريف للرجل، بأن يكون هو القيم على المرأة، تلك المخلوقة الثمينة الوجود، وبالتالي لحمايتها وتهيئة سبل العيش الكريم لها.

إذن يفهم من هذه الآية أنها عبّرت عن أمر في غاية الأهمية، وهو دلالتها حول بيان مركز المرأة ووجودها القيمي المهم من الناحية الإجتماعية والسلوكية، حيث أعطتها خصال ووظائف هي أفضل بها من الرجل، مثلما اعطى للرجل خصالاً هو أفضل بها من المرأة. ولكن نرى هنا خصيصة فاقت بها الرجل، وهي أن يكلف بالعناية والإهتمام بها، لأنها موجود يحمل ذاتاً لها قيمة عالية، لا يمكن أن تترك من دون أن يكلف أحد بحمايتها وتهيئة كل ما تحتاج إليه في محيطها الإجتماعي والأسري، وهكذا الأشياء الثمينة لا يمكن أن تترك دون حراسة ومتابعة، خوفاً عليها من الوحوش والذئاب البشرية، التي سمتها الإفتراس والتعدي.

وفي هذا السياق تقول الباحثة الإيرانية فريبا علا سوند: قد يسأل بعض فيقول: إنّ ثمة شكّاً في قِوامة الرجال حيث تساعد بعض النساء في الوقت الحاضر أزواجهن في تهيئة احتياجات المنزل، وعليه فإن المعيار المتمثل في إنفاق الرجال غير موجود في مثل هذه الحالات. والجواب: لا تتميز مسألة إنفاق النساء في

الظروف العادية – من وجهة نظر الشريعة- بأيّ أفضلية لأن الإنفاق بحد ذاته منوط بالرجل، ومن ناحية أخرى فإن كسب المال جائز بالنسبة الى النساء وهنّ مالكات ما يكسبنه، وفي ما يخص تصرفهن بأموالهن فهن مستقلات كذلك، وهنّ لسنَ ملزمات بتوفير ما يحتاجه المنزل أو الأسرة على الإطلاق. وهكذا، فإنّ أيّ مساعدة تقدمها الزوجة لزوجها مهما كان نوعها تعتبر بإرادتها وميلها من الناحية القانونية، وليس لإجبار الزوج زوجته بذلك أي صفة قانونية من هذه الناحية.

إنّ الحكم الإسلامي الثابت القاضي بلزوم إنفاق الرجال، يحمل رسالة مفادها أنّ اشتغال النساء لا يصبّ في مصلحة الأسرة أبداً، وذمّت مجموعة من الروايات التي تناولت بعض الأمور التي ستحصل في آخر الزمان، ذمّت إنفاق النساء على أزواجهن في تلك الأزمنة. ومن ناحية أخرى فإن قوامة الرجال مرتبطة بوجوب إنفاقهم لا بالإنفاق نفسه، بحيث إذا أنفقت المرأة تغيّر مضمون القوامة، وفي الوقت نفسه أكدّ النظام الحقوقي في الإسلام ضرورة أن ينفق الرجال على النساء لكي تتحقق مقولة قِوامة الرجال على النساء.[1]

وتجدر الإشارة هنا الى أن هذه البحوث لا تشمل الموارد الإستثنائية، على سبيل المثال، إذا كان الزوج عاجزاً عن ممارسة العمل وفي الوقت نفسه كان بإستطاعة المرأة توفير إحتياجات الأسرة وتأمين دخلها وبادرت بذلك، فإن مساعيها هذه تستحق الثواب الجزيل.

وورد في بعض الروايات أن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله كان يخطب مرّة

---

(١) المرأة في الإسلام: فريبا علا سوند، ترجمة أحمد الموسوي، نشر مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠١٧م: ص٣٣٨.

في صلاة عيد الفطر أوصى فيها النساء ومؤكداً التصدق من أموالهنّ، وأن لا يحرمن أنفسهن مما في ذلك من الثواب العظيم. وبعد انتهاء صلاة العيد اقتربت منه زينب (زوجة عبد الله بن مسعود) وسالته: (هل لي من أجر في بني أبي سلمة أن أُنفق عليهم ولست بتاركتهم هكذا وهكذا وهكذا إنّما هم بنيّ؟) قال صلى الله عليه وآله: (نعم، لك فيهم أجرُ ما أَنفقتِ عليهم).[1]

٢- الآية الثانية: (وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ) سورة البقرة: ٢٢٨.

الذي يقتضيه العدل الاجتماعي، ويفسر به معنى التسوية: ان يعطى كل ذي حق حقه وينزل منزلته، فالتساوي بين الأفراد والطبقات إنما هو في نيل كل ذي حق خصوص حقه من غير أن يزاحم حق حقاً، أو يهمل أو يبطل حق بغياً أو تحكماً ونحو ذلك، وهذا هو الذي يشير إليه قوله تعالى: (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)، فأن الآية تصرح بالتساوي في عين تقرير الاختلاف بينهن وبين الرجال.

ثم إن اشتراك القبيلين أعني الرجال والنساء في أصول المواهب الوجودية أعني، الفكر والإرادة المولدتين للإختيار يستدعي اشتراكها مع الرجل في حرية الفكر والإرادة - أي الإختيار- فلها الاستقلال بالتصرف في جميع شؤون حياتها الفردية والإجتماعية عدا ما منع عنه مانع، وقد أعطاها الإسلام هذا الإستقلال والحرية على أتم الوجوه، فصارت بنعمة الله سبحانه مستقلة بنفسها، منفكة الإرادة والعمل عن الرجال وولايتهم وقيمومتهم، واجدة لما لم يسمح لها به الدنيا في جميع أدوارها وخلت عنه صحائف تاريخ وجودها، قال تعالى: (فَلَا

(١) المصدر نفسه: ص٣٣٩.

جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ سورة البقرة: ٢٣٤.

لكنها مع وجود العوامل المشتركة المذكورة في وجودها تختلف مع الرجال من جهة أخرى، فإن المتوسطة من النساء تتأخر عن المتوسط من الرجال في الخصوصيات الكمالية من بنيتها كالدماغ والقلب والشرايين والأعصاب والقامة والوزن على ما شرحه فن وظائف الأعضاء، واستوجب ذلك أن جسمها ألطف وأنعم كما أن جسم الرجل أخشن وأصلب، وأن الإحساسات اللطيفة كالحب ورقة القلب والميل إلى الجمال والزينة أغلب عليها من الرجل، كما أن التعقل أغلب عليه من المرأة، فحياتها حياة إحساسية كما أن حياة الرجل حياة تعقلية. ولذلك فرق الإسلام بينهما في الوظائف والتكاليف العامة الإجتماعية التي يرتبط قوامها بأحد الأمرين – التعقل والإحساس- فخص مثل الولاية والقضاء والقتال بالرجال لاحتياجها المبرم إلى التعقل والحياة التعقلية، إنما هي للرجل دون المرأة، وخص مثل حضانة الأولاد وتربيتها وتدبير المنزل بالمرأة، وجعل نفقتها على الرجل، وجبر ذلك له بالسهمين في الإرث (وهو في الحقيقة بمنزلة أن يقتسما الميراث نصفين ثم تعطى المرأة ثلث سهمها للرجل في مقابل نفقتها أي للإنتفاع بنصف ما في يده، فيرجع بالحقيقة إلى أن ثلثي المال في الدنيا للرجال ملكاً وعيناً وثلثيها للنساء انتفاعاً. فالتدبير الغالب إنما هو للرجال لغلبة تعقلهم، والإنتفاع والتمتع الغالب للنساء لغلبة إحساسهن.(١)

وفي هذا المقام يقول السيد عبد الأعلى السبزواري قدس سره: الدرجة هي المنزلة والمراد بها الفضل والتفوّق والقيام بالمصالح الشرعية. والإسلام مع أنه سوّى بين النساء والرجال قد أعطى للرجال درجة عليهنّ... وإعطاء هذه الدرجة

(١) الميزان في تفسير القرآن: مصدر سابق: ج٢، ص٢٧٤ وما بعدها.

للرجال من الأمور الفطرية التي بنى الإسلام عليها أحكامه، فإن المجتمع يحتاج الى من يعتمد عليه فيما يطرأ عليه من المخاطر والإختلاف، ومن يحميه عنها ويقدر على تنفيذ ما يراه من المصلحة والإنفاق عليه، والحياة الزوجية لا تخرج عن هذه السنّة، بل احتياجها الى الرجل أشدّ فهو الذي يتحمل الصعاب في تحصيل النفقة والمطالب بحماية المرأة والأولاد، ولذا أمر الشارع المرأة بتنفيذ أوامره إلّا ما حرّم حلالاً أو حلّل حراماً وإذا خرجت من هذه الطاعة تعتبر ناشزة فذاك موضوع آخر له أحكام خاصة، ومن ذلك يعرف سر التعبير بـ (الرجال) في المقام دون الأزواج، وفيه من الإشارة الى وجه التفوق والمنزلة.[1]

وجاء في تفسير الكاشف: اختلف العلماء والمفسرون في المراد من هذه الدرجة التي امتاز بها الرجل عن المرأة.. فقيل: هي العقل والدين. وقيل: هي الميراث. وقيل: هي السيادة.[2]

ثم يتكلم الشيخ مغنية عن الفروق بين الرجل والمرأة في الشريعة الإسلامية: لقد سبق الإسلام الشرائع والقوانين كلّها الى تحرير المرأة، وإقرار حقوقها بعد أن كان الرجل يعاملها معاملة السلع والحيوانات، حتى في أوروبا وأميركا الى عهد قريب. وإذا ميز الإسلام الرجل عن المرأة بأشياء فإن هذا التمييز تفرضه الفروق الطبيعية بينهما، أو مصلحة الجماعة، وليس من العقل والعدل المساواة في كل شيء، بين من تهتم بالفساتين والموضة وتسريحات الشعر وما إليها، وبين من

(١) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: آية الله العظمى السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري، نشر مطبعة الديواني، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م: ج٤، ص١٠.

(٢) التفسير الكاشف: محمد جواد مغنية، نشر دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٧٨م: ج١، ص٣٤٣.

يشعر بالمسؤولية عنها وعن أولادها، ويتحمل المصاعب والمشاق من أجلها وأجلهم. ومهما يكن، فإن فقهاء الإسلام ذكروا فروقاً بين الرجل والمرأة في الأحكام الشرعية نشير الى جملة منها فيما يلي:

١ - ان دية المرأة نصف دية الرجل.

٢ - الطلاق والرجعة بيد الزوج دون الزوجة.

٣- ليس لها أن تمتنع عن فراشه، ولا أن تسافر، وتخرج من بيته إلّا برضاه، وله أن يفعل ما يشاء.

٤- لا تجب عليها صلاة الجمعة، حتى ولو تحققت الشروط الموجبة بالنسبة الى الرجل.

٥- لا يجوز لها أن تتولى الإمره، ولا القضاء إلّا عند أبي حنيفة في حقوق الناس خاصة دون حقوق الله.

٦- لا يجوز أن تكون إماماً في الصلاة للرجال، ويجوز أن يكون الرجل إماماً للنساء.

٧- لا تقبل شهادتها اطلاقاً في غير الأموال، لا منفردة ولا منضمة الى الرجال، إلّا في مسألة الولادة، وتقبل في الأموال منضمة الى الرجال، على أن تكون شهادة امرأتين بشهادة رجل واحد.

٨- للأنثى من الميراث سهم، وللذكر سهمان.

٩- على المرأة أن تستر عن الرجال الأجانب شعرها وجميع بدنها ما عدا الوجه والكفين، ولا يجب على الرجال أن يستر عن النساء سوى القبل والدبر.

١٠- لا جهاد عليها، ولا جزية، ولا تقتل في الحرب ما لم تقاتل.

١١- لا تشارك الأم الأب في الولاية على وليدهما الصغير في الزواج، ولا التصرف في أمواله، ويستقل الأب في جميع ذلك.

١٢- أفتى الفقهاء بأن من قتل انساناً عن خطأ يحمل الدية عن القاتل من يتقرب إليه بالأب، كالأخوة والأعمام وأولادهم، ويسمون بالعاقلة، ولا تدخل المرأة معهم.(١)

٣- الآية الثالثة: (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ) سورة آل عمران: ٣٦.

جاء هذا الكلام في سياق خطاب مسبق من قبل امرأة عمران – أم مريم عليهما السلام- مع الله تعالى، ودلالات هذا الخطاب تشير الى أن هناك امرأة ذات وعي حاد بمهمتها العبادية، وعارفة لمقامها وما يتطلب منها تجاه خالقها، فهي عندما تنذر ما في بطنها وتجعله لله محرراً، والنذر كما هو معروف، إيجاب شيء على النفس والإلتزام به.

وتحرير الولد لله تعالى أو للأمكنة المقدسة، أو النفوس المحترمة هو التفرغ للعبادة والعمل للآخرة، وقد كان متعارفاً في الأمم القديمة... وهو تحرير الولد من قبل الأبوين، أي تحريره عن التبعية لهما والولاية عليه، فليس لهما بعد التحرير السلطنة على الولد في استخدامه لإغراضهما، بل هو داخل بالنذر، تحت

(١) المصدر نفسه: ج١، ص٣٤٤ وما بعدها بتصرف.

ولاية الله، فلابد من صرف خدمته في سبيله عز وجل، إمّا في التفريغ لعبادته تعالى أو خدمته الأماكن المقدسة والنفوس المحترمة. وهذا العمل كان جائزاً في الشرائع الإلهية السابقة، ويعتبرون ذلك من نذر الأبرار."[1]

ولنرى الآن سبب اصطفاء امرأة عمران من النساء دون غيرها، فإن فترة ما بين الحمل والوضع تعكس الإرتباط العميق لهذه المرأة بالله، وأنها من أصحاب الدرجات العليا فيه، لنرى العجب كل العجب ونحن نقرأ عنها النص التالي: (إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)، ياللعجب! إنها لم تعش حلم نوع الطفل على أنه ذكر على الرغم من يقينها من أنه ذكر، فهي لم تعيّنه لله، وإنما قالت (مَا فِي بَطْنِي) لإيمانها بأن الأمور قبل فعليتها وتحققها خارجاً متروكة لمشيئة الله، فقد تتحقق، وقد لا تتحقق، وإذا كانت متيقنة بالتحقيق، فلا يقين لها بعدم التبديل، فإنه سبحانه هو مالك الملك يفعل ما يشاء، ولا يُسأل عمّا يفعل، وله منتهى المعرفة والإستسلام الواعي لله.

ولننظر مرة أخرى لهذا النص: (إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا) لنرى من خلاله ان امرأة عمران لم تكن تعيش حالة أحلام التربية والحضانة والرضاعة، كما ظننا أنها كبقية النساء في هذا المنحى، بل نذرت كل ذلك لله، وهي على حملها، وانفصلت بنذرها عن أحلى ما تطمع به الأم في أن تمارس حقها في الرضاعة والحضانة، قدّمته نذراً وكان بإمكانها أن تقدمه من دون نذر، ولكن ألزمت نفسها بالنذر لتأكد إصرارها على تحريره منها، وحتى تمنع من أن يداخلها شيء في نفسها

(١) المصدر نفسه: ج٥، ص٢٨٦.

ليمنعها عن التحرير.[١]

هذا وقد ذهب الحسن البصري على أن امرأة عمران كانت ملهمة من قبل الله، كما ألهم أم موسى فقذفته في اليم وليس بوحي.[٢]

ولو رجعنا الى النص القرآني: (إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ*فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) سورة آل عمران: ٣٥-٣٦.

وألتفتنا الى هذه الألفاظ:

-(إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا).

-(قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ).

-(وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ).

-(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ).

ودققنا فيه بنظرة جديدة فإنه واقعـاً، وبغض النظر عن البعد التفسيري له، وما

(١) التجديد في تفسير القرآن المجيد، الشيخ علي عبد الرزاق مجيد مرزه، نشر دار رادنكار، قم، ط١، ١٤٢٨هـ: ج٥، ص٦٠، وينظر روح المعاني للآلوسي: ج٣، ص٧٨، وتفسير الأمثل، للشيرازي: ج٢، ص٣٢٥.

(٢) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن ابن علي التميمي البكري الرازي الشافعي، حققه وعلق عليه عماد زكي البارودي، نشر المكتبة التوقيفية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م: ج٨، ص٢٣.

بيّنه من مفردات تشفع له في بيان المراد حسب ما يناسب ذهنية وعقلية الناس في تلك المرحلة من الزمن، فإنه يحمل في طياته دلالات لم تقرأ من قبل، علينا الإلتفات لها والإشارة إليها. وهذا بالتأكيد إنّما يطرح لإكمال الفائدة التي تفهم من النص القرآني، وحينئذ فإنه لا يمنع متى ما وجدت مواقف واحداث جديدة، من أن يُقرأ النص ويفسر برؤية ذات دراية، ترفع ما يمكن أن يوجد من اشكالات أو طرح حلولاً نتيجة وجود مفردات وأحداث وظروف إجتماعية توجب علينا قراءة النص بشكل جديد، ولكن بشرط أن تبقى روح النص واضحة وبيّنة جداً، مع عدم الخروج عن الضوابط الدينية التي تضرب محيطاً واسعاً على جميع النصوص، وتمنع من عبور هذا المحيط، ولتدع مساحة كبيرة ينتقل من خلالها لمفاهيم جديدة، تستنبط من النص القرآني نفسه، وهذا هو الذي يعطي للقرآن الزخم الحيوي وفاعلية البقاء، مهما تطاولت الأيام والدهور.

فهم النص الديني
بين التشكيل الطوبولوجي لمحمد أركون
ونظرية الشجرة المثمرة

ونحن هنا لا نذهب لما ذهب إليه محمد أركون من أجل تحقيق هدف نظري عن طريق الإسهام في تشكيل طوبولوجيا للنص الديني، أي تصنيف نماذج هذا النّص وأنواعه، على أساس أنه ليس من نوع واحد، وتوليد أدوات جديدة بعيدة عن التراث الكلاسيكي كما يسميه، بحيث نحتفظ ببعض من هذا التراث، وإهمال وطرح لما ينتمي الى ثقافة قديمة عفى عليها الزمن.[1]

وبالتالي ينزع النص من الواقعية، ويجعله خادماً للمنظور الوضعي البشري، من خلال آليات تفيد هدفاً محدداً ومقصوداً في نفس الوقت.

فالطوبولوجيا (Topology) في منظورها الهندسي المعقد، تعني المطاطية في دراسة السطوح مع الأخذ بنظر الحسبان الإستمرارية بينها، فهي لا تفرق بين عدد أضلاع أو زوايا مضلع ما، فالمربع والمثلث والدائرة في الطوبولوجيا ليست إلّا شيء واحد.

ومثال على التكافؤ في الطوبولوجيا:

١- رقم (8) وحرف (B): كلٌّ منهما قد حوى فجوتين، فهما بالتالي متكافئان طوبولوجيـاً.

---

(١) ينظر: قراءات في القرآن: محمد أركون، ترجمة هاشم صالح، نشر دار الساقي، بيروت، ط١، ٢٠١٧م: ص١٩١ وما بعدها.

٢- المربع(□) والمثلث (△) : متكافئان طوبولوجياً لأنهما لا يحتويان على أية فجوة.

٣-الكوب () وكعكة الدونات() متكافئان طوبولوجيا، لأن كل واحد منهما حوى على فجوة واحدة، وهكذا.

أي اننا نستطيع تشكيل أحدهما اعتباراً من الآخر، بضغطه وتشويه أبعاده، دون المساس بالفجوة.

وهذا الأمر خطير، وفيه خطوة اساسية لتغيير روح النّص الديني ودمجها برؤية بشرية خاضعة لقصد ذاتي، ومن ثم محاولة جر النّص لهذه الرؤية، بإعتبار تلك النظرة الطوبولوجية التي أراد أركون تشبيه ذلك التحول الفكري بها.

فرؤية حرف (B) على أنه متكافئ مع الرقم (8) بإعتبار، وجود تلك الفجوتين فيهما، لا يعطينا المبرر الكافي في قبول التكافؤ، فإن لكل من الحرف (B) والرقم (8) رؤية خاصة به، ولديه خصائصه التي يتقوّم بها، بحيث الذي ينطق حرف (B) لا يخطر له إطلاقاً الرقم (8)، لأنه سيتحرك ضمن رؤية ذهنية قد تعلقت بعالم الحروف وتركيب الكلمات والجمل، ولا يمكن لعالم الأرقام أن يتدخل في إيجاد صيغة تشترك من خلالها صورة الرقم والحرف، حتى وإن كان شكليا، فأنت حين تنظر الى الحرف (B) ورقم (8) فإن الصورة الذهنية تتشكل بالمباشر برؤية شكلين منفصلين عن بعضهما البعض تماماً، ولا يوجد للوهلة الأولى ذلك القاسم المشترك الشكلي، الذي يريد أركون إيجاده من تلك الرؤية، ليبرهن بالتالي على صحة مشروعه في الفهم والقراءة الجديدة للنص الديني.

فإنّه يريد بالتجديد، مهما غيّر من الفهم للنص القرآني بإيجاد قراءة جديدة،

وبحسب ما يريده من تغيير، هو أن تبقى هذه القراءة مرتبطة بالنص، بل متكافئة مع القراءات التي سبقتها، حتى وإن إختلفت عنها بالمعنى والمضمون، وذلك لأن السطح القرآني للألفاظ هو واحد. ويمكن أن نشبّه على سبيل المثال وجود الفجوة في الشيئين المتكافئين طوبولوجيا، بحسب نظرة أركون، ببقاء النص الديني حتى بعد القراءة الجديدة له، وإن كانت مخالفة لروح النص، لأن عنوانه بالتالي هو نص ديني. ويصرّ على بقاء هذا العنوان حتى وإن خرجت القراءة عن أصل وجود النص.

فالخطاب الديني لا يخضع للتحليل الفيلولوجي، بالشكل الذي يريده أركون، لأجل أن نضعه في بعد لغوي تاريخي، يتحجم النص من خلاله. ولا يمكن لنا أن نطبق المنهج التاريخي على التراث الإسلامي بأكمله، ولا يمكن القبول بهكذا رؤية ناقصة. وليس لأحد الحق في أن يشبه العالم الإسلامي بأن هناك روح أرثوذكسية مهيمنة عليه، وبالتالي تقيده في فهم ماضيه وحاضره، وما المفروض عليه من إيجاد إجراءات سلوكية وفكرية تناسب هذا البعد.

فالرؤية الإسلامية الواقعية محفوظة، وتؤتي أُكلها كل حين، فهناك تدرج وتدريب في الصعود من أجل فهم النص الديني بشكله الأمثل، بحيث هناك بدايات تتشكل وتتبلور منها نهايات مرتبطة إرتباطًا وثيقًا ببداياتها، ولا يمكن أن تنفصل عنها معنى ومضمونًا. ويمكن تشبيه ذلك بالشجرة، فأنت عندما تنظر إليها تراها كُلًّا واحداً، بالرغم من وجود الجذر والساق والأوراق والثمر فيها، لكنها بالتالي تشكل صورة ذهنية واحدة. ولو أردنا أن نحلل هذا التشبيه في فهم ما نذهب إليه لقراءة النص الديني في ضوء تحرك النص بما يناسب مرحلة تطور البعد الإنساني بتوصيفاته المختلفة، وبما تفرزه سلوكيات البشر في كل مرحلة من

مراحل التغير الزمني، فإن الجذر يمثل وجوداً، ويمكن النظر إليه كأساس ينظر إليه بما يناسب تلك المرحلة من وجود الإنسان، وعندما يتشكل الساق يمكن أن ينظر الى صورة جديدة لم تكن موجودة من قبل، ولكنها لم تتشكل بخاصية التفرد وعدم الإحتياج الى الجذر، وهذا بإعتبار تدرج البشر في التكامل والتطور، بحيث لم تعد رؤية الجذر كافية لتناسب مع ذلك التدرج، وإنما إحتاجت الى أن يضاف له الساق، وبعد أن تنمو وتظهر الأوراق على الساق، فهنا قد تشكلت صورة ورؤية جديدة حول الشجرة، لم تكن في السابق موجودة، وإنّما الذي أظهرها هو عامل الإحتياج، وعامل سعة الفهم والتدرج والتكامل. ولكن لا زالت الصورة الذهنية لم تخرج عن مسمى الشجرة، وتماسك أجزاؤها، حتى لا يمكن رؤية أحد هذه الأجزاء بمعزل عن الرؤية الكلية للشجرة، وهكذا تنضج ثمارها، وتظهر لعالم الخارج والتحقق، وهذا يدل على أن هناك تكاملاً قد وصلت إليه البشرية تحتاج فيه الى التعمق في رؤية الأصل الذي وجدت من أجله الشجرة، وقد يكون من مصاديقه العليا بيان ثمرها الذي سوف تتميز به عن الأغيار. وهذا يحدث كما قلنا سابقاً من أجل سد الإحتياج البشري، وسد الفراغ الذي يحصل نتيجة ولادة وقائع وحالات إجتماعية وسلوكية لم تكن موجودة في السابق، فيجب حينها إعطاء البعد الوقائي والعلاجي لها، حتى لا تبقى شبهة قائمة على عودها.

فهذا هو منهجنا في فهم النص القرآني، وهذه هي رؤيتنا لمسايرة ما تحتاج له البشرية من ثمار النّص، بحيث تبقى النظرة تنبثق من أصل النص معتمدة على المفسرين الإسلاميين القدماء، وأنا أقصد المفسرين الذين اعتمدوا في تفسيرهم على من أوصى الرسول صلى الله عليه وآله بالأخذ منهم وهم عترته الأطهار، لا على نحو التفسير الأسطوري والمحرّف الذي سلكه بعض المفسرين.

وهكذا يتم الوصول لمفاهيم جديدة تستنبط من الآيات نفسها، كما تخرج الثمرة من الشجرة معتمدة في نضوجها على الجذر والسيقان. ويكون الإعتماد على المعطيات الخصوصية للخطاب القرآني، وحينئذ لن تهمنا المنهجيات الألسنية والسيميائية الدلالية التي ظهرت حديثاً في الساحة الباريسية، إن وافقت هذا المنحى في فهم النص أو لم توافقه، لأنها ولدت ووجدت في بيئة غير بيئة القرآن، وإن أرادوا تطبيقها، فلتطبق على لغة الخطاب الإنساني، لأنه محدود، ويمكن لهم الدراسة على وضوء تلك المحدودية، وذلك بإعطاء سبل أوفر حظاً لفهم ومعاينة المفردة اللغوية في اطارها الموضوعي. وتلك الضوابط التي تحاول أن تحلل النص الديني، لا يمكن أن يحدث لها هذا الأمر، وذلك لأنه وإن بدى لهم ظاهراً بأنه خطاب لغوي، وقد ظهر على لسان بشري، إلّا أنه واقعاً ظهر بعالم التنزل بهذه الصورة، وإلّا فهو خطاب له اطلاق وسعة وجودية، لا يمكن أن يحدّها قانون أو ضابطة تصدر من بشر محدود. ولعل ذلك يعد من احدى التحديات الكبرى للبشر على أن يأتوا بمثله. فبالرغم من أنه يرى النص القرآني متكون من لغة يتعامل بها البشر، ولكنه في نفس الوقت، اعطى الله تعالى لهذه اللغة والتراكيب القرآنية القدرة على اعطاء مفاهيم ومعاني متجددة، ولها القدرة على الإستمرار في ولادة تلك المعاني المتجددة، حتى وإن إستمرت البشرية في وجودها الدنيوي الى ملايين السنين.

والآن لنأتي وننظر الى مضامين كلمات القرآن التي سبقت قوله تعالى: (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ) والى القول نفسه، ولكن لا على نحو تمرين ذهني تجريدي، يخلو من أية فائدة عملية تتناغم مع الواقع بنظرة غير مسبوقة، ولا نريد أن نكتفي بالتركيبات الشكلانية، وإنما نريد أن نصل الى حقائق لها علاقة في انتاج ثقافة جديدة بالنظر الى المرأة ودورها البارز في هذه الدنيا التي حاولت الفلسفات

والآيديولوجيات المختلفة من تضييع لحقيقة المرأة ودورها الفعلي في المجتمع، من أجل إيجاد فهم كامل لذلك القول المبارك، الذي يظهر فيه عنوان الإختلاف بين الرجل والمرأة واضحاً لا لبس فيه، وذلك من خلال بيان ما يلي:

أولاً: (إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا)

ثمة امرأة أسمها (حنّه)، تنتسب الى آل عمران، وهم نفر أشار القرآن الكريم الى اصطفاء السماء إياهم، مع آدم ونوح وآل إبراهيم، بقوله تعالى: (إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ). ومن خلال هذه الآية التي أعقبتها قصة امرأة عمران مباشرة، نستكشف طبيعة الوظيفة الفنية للعنصر القصصي في السورة، فيما جاءت في سياق اصطفاء الله لمجموعة تمثل الصفوة البشرية في الإضطلاع بمهمة الخلافة على الأرض، وإيصال رسالة السماء إليها.

والمهم، أن امرأة عمران وهي شخصية نسوية قدّر لها أن تساهم بنحو أو بآخر في ممارسة الوظيفة العبادية على الأرض، قد نذرت للسماء أن تمحض وليدها للخدمة في المسجد، ومجرد كونها تمارس موقف النذر وتمحّض وليدها لممارسة الخدمة للمسجد، يفصح عن وعيها العبادي، وتقديرها لمسؤولية هذا العلم، وإدراكها لمهمة الكائن الإنساني على الأرض، وليس مجرد كونه كائنا يدبّ على الأرض، ويعمل لإشباع حاجاته الحيوية والنفسية.

وحين نساق مع النصوص المفسّرة لملاحظة خلفيات الموقف، نجد أن بعضها يشير الى أن الشخصية النسوية المذكورة، لم يتح لها الإنجاب، حتى يئست من ذلك، مما حملها الى أن تدعو الله أن يرزقها ولداً، فيما لو تمت عملية النذر المذكورة... والمهم أن خلفيات الموقف، أيّاً كانت، فإن ممارسة النذر بنحوه

المذكور، يظل مفصحًا عن خطورة الوعي العبادي عند الشخصية النسوية المذكورة: أي إدراكها لخطورة الوظيفة الخلافية على الأرض.[1]

وهنا لدينا عدّة أمور تعلقت بشخصية امرأة عمران:

١- امرأة مصطفاة.

٢- امرأة لم تر الحمل في حياتها حتى كبرت.

٣- جاءتها بشرى الحمل عن طريق زوجها عمران أو عن طريق الوحي والإلهام.

٤- لم تكن قد أخبرت بجنس الوليد، هل هو ذكر أم أنثى بحسب منطوق الآية، ودلالة السياق أيضاً لا يدل على ذلك وقد توهم من أصرّ على أنها كانت تعلم بأنها ستضع ذكراً، وإلّا لقالت: (إني نذرت لك الذكر الذي في بطني محرّراً) ولكن لعدم تحديد الجنس ووجود (ما) الموصولة التي يستوي فيها المذكر والمؤنث، دالة على أنها نذرت تحرير ما في بطنها سواء كان ذكراً أو أنثى، وهذا خلاف ما ذهب إليه العلّامة السيد الطباطبائي، حيث يذهب قدس سره الى الجزم بإعتقادها أنها ستلد ذكراً. حيث يقول: لو كانت نذرت تحرير ما في بطتها سواء كان ذكراً أو أنثى لم يكن وجه لما قالتها تحزنًا وتحسراً لما وضعتها: (رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ)، ولا وجه ظاهر لقوله تعالى: (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ).[2] وسيأتي إن شاء الله تعالى في البحوث القادمة بيان عدم تمامية هذا القول وصلاحيته للاستدلال.

---

(١) دراسات فنية في قصص القرآن: د. محمود البستاني، نشر دار البلاغة، بيروت، ط٢، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م: ص٩٠و٩١.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: مصدر سابق، ج٣، ص١٧٠.

وفي هذا السياق استدل صاحب تفسير الأمثل وبعض المفسرين ان امرأة عمران كانت تظن بأن ما في بطنها ذكراً وليس أنثى، حيث قال: أنها كانت تظنه ذكراً، بموجب البشارة التي أتاها بها زوجها، ولذلك قالت (محرّراً) ولم تقل (محرّرة). [1] وهذا أيضاً لا يمكن الإعتماد عليه، لأننا لوقلنا بأنها كانت تظن أو تعلم بأن ما في بطنها ذكراً فستقول (محرّراً)، ولو أنها علمت أو ظنت بأن ما في بطنها أنثى، فإنها سوف تقول (محرّرة)، على ضوء نفس الاستدلال، ولكن ماذا لو كانت لا تعلم ولا تظن ما جنس المولود، وأرادت في نفس الوقت أن تهب ما حملت به للخدمة في بيت المقدس، فيا ترى ماذا ستقول للتعبير عن ذلك الأمر، وهل ستقول (محرّراً) أم (محرّرة)؟. وحينئذ لابد أن تكون النتيجة بأنها ستقول (محرّراً) لأن التعبير أو اللفظ المناسب في هذا المقام، أن تقول: (محرّراً) وليس (محرّرة)، لأنها قد قصدت الحمل يكون محرّراً، بغض النظر عن كونه ذكراً أو أنثى – أي أن هذا الحمل الذي في بطني نذرته محرّراً– . فالنتيجة إذاً أنها لم تكن بقولها (محرّراً) أنها كانت تعلم أو تظن بأنه ذكراً، وكذلك لم تعلم أو تظن بأنها أنثى، ولذلك لم تقل (محرّرة)، ولكن قالت (محرّراً)، وقصدت به نفس الحمل، لا العلم بجنس ما حملت به.

وهذا إن دل على شيء، فيدل على أنها كانت نذرت ما في بطنها محرّراً، ولم تلتفت على أنه سيكون ذكراً أو أنثى، وهذا هو الإخلاص الكامل في العطاء والبذل، بالنسبة الى امرأة قد حرمت الحمل في سنين عمرها، ولم تر جمال رعاية الطفولة وعفوية وجمال الأبناء، لتقدم بالتالي، بعد أن بشّرها زوجُها عمران عليه السلام بالحمل أن تقوم بهبته الى دور العبادة، لتحرم نفسها من معطيات كثيرة

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: مصدر سابق، ج٢، ص٣٢٤.

يوفرها لها المولود، سواء إن كان ذكراً أم أنثى، فالأمر لا يختلف بالنسبة لامرأة مصطفاة، فهي ترى في الحمل الجانب الإنساني والهبة الإلهية التي تحقق وترعى ذلك الجانب.

هذا ولا يبعد أنها كانت متقصدة في إيصال أمر مهم سيتم من خلاله تغيير عدّة مفاهيم كانت سائدة في نظر وعرف أهل تلك الشرائع، وهو إبعاد الأنثى عن كثير من الأمور التي خصص العرف لها الذكور دون الاناث. وليتم تصحيح هذا المفهوم كانت امرأة عمران العنصر المقوم والمعدل لهذا الفهم. فهي بإعتبار هذا الأمر كانت تعلم وتعي ما تقول حقيقة لا لبس فيها، وحتى توهم القوم، ويكون كلامها عين الصدق والحقيقة، من دون أن تخدش العرف العام، وما كان سائداً عند القوم، في عملية قبول النذر، فقالت قولها الدال على منتهى التعقل والفطنة، فجعلته قولاً يحتمل الحمل بالذكر والحمل بالأنثى. هذا من جهة، ومن جهة أخرى ظن قومها، بأنها قد أخبرت بأنها ستحمل بذكر، ولذلك نذرته لله محرّراً.

وهنا أرادت امرأة عمران أن تغير منحى عبادي عرفته التشريعات والعادات السابقة، وهو أن الذي كان سائداً بأن الذي يُحرّر لخدمة بيت المقدس، هو الذكر وليس الأنثى. لوجود عدّة مصاعب ظاهراً تمنع من ذلك.

ولأن التحرير كان ظاهرة وعملية سائدة في ذلك الوقت، في أن بيت المقدس يؤخذ الطفل من إختيار أهله، عندما يقدمونه الى بيت المقدّس فيتبناه مدّة وهو منفصل عن أهله، فيقوم الموظفون بالبيت المقدّس من خدّام بتغذيته وتدبير شؤونه، وعندما يكبر الوليد فهناك علماء وأساتذة يقومون بتربيته وتركيز أسس العقائد الدينية والعلمية في ذهنه وشخصيته، حتى يكبر الوليد ويصل الى مرحلة البلوغ فيخير بين البقاء في خدمة البيت حتى يصبح أحد علماء البيت، أو يتخذ

طريقة أخرى في الحياة كبقية الناس، وإن عملية التحرير هذه لها إختصاص بالذكور دون الإناث، أو أنّ عملية التحرير قائمة على أساس أنها تستلم الذكر بعد البلوغ ليكون موقوفاً للبيت المقدّس، وهو ينتقل بين خدمة البيت والدراسة والتدريس، على إختلاف في النقل التاريخي لعملية التحرير، ولكن النقل مهما اختلف فهو متحد في بيان الهدف من هذه العملية، وهو أن التحرير عملية تطهير وعزوف عن الإنشغال بالدنيا وبناء شخصية روحية للوليد تتم في البيت المقدّس، مع فصل ولاية الوالدين عن ولدهما.(١)

وكذلك فإن الأنثى لا تستطيع أن تؤدي واجبها في الخدمة كما يفعل الذكر فالبنت بعد البلوغ لها عادة شهرية، ولا يمكنها دخول المسجد، مضافاً الى أن قوّاها البدنية ضعيفة، وكذلك المسائل المربوطة بالحجاب والحمل وغير ذلك.(٢)

ولكن استطاعت امرأة عمران تلك المرأة المصطفاة من أن تفرض أمراً جديداً على الجو العبادي، فيما يتعلق بخدمة البيت المقدّس، وأن تجعل للأنثى مشاركة في هذا الأمر، وفعلاً افتتح بمريم تلك المرأة القدّيسة التي سيبزغ نور النبوة منها.

فأقر الله تعالى هذا الأمر بأن تقبل تلك الأنثى بقبول حسن، واستجاب دعاء أمها الصالحة، واعاذها من الشيطان الرجيم بطريقة واقعية عملية، وذلك من خلال تهيئة الجو الطيب الطاهر الذي يجعل نموّها نموّاً طبيعياً، من دون تأثيرات سلبية منحرفة، وذلك من خلال كفالة زكريا الذي كان من الأنبياء الصالحين، وقد حضنها وتعهدها، بالتربية والتوجيه والإعداد الروحي والعملي لتكون الإنسانة

---

(١) ينظر: التجديد في تفسير القرآن المجيد، مصدر سابق: ج٥، ص٦١.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: مصدر سابق: ج٢، ص٣٢٤.

غير العادية في المستقبل من خلال الطاقات الروحية التي تحركت فيها للحصول على محبّة الله ورضاه في ممارستها العبادية التي جعلتها موضع رعاية الله وعنايته بشكل غير عادي.[١]

ثانيـاً: (قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ)

جاء في التفاسير أنها قالت ذلك على نحو الإخبار، بل هو تحسّر، أي أنها لا تصلح لذلك التحرر، لأنها أنثى، فقد تناجي ربها كمعتذرة عن تحررها أو كئيبة لأنها أنثى، مشفقة من ألّا يقبل نذرها، ولذلك فإن كلامها هو تحزن وفجع، فهي لما وضعت بنتـاً تحسرت الى مولاها وتفجعت إذ خاب منها رجاها.[٢]

ويقول الرازي في تفسيره الكبير: إنها خافت أن نذرها لم يقع الموقع الذي يعتمد به، ومعتذرة من إطلاقها النذر المتقدم، فذكرت ذلك لا على سبيل الإعلام لله تعالى، تعالى الله عن أن يحتاج الى إعلامها، بل ذكرت ذلك على سبيل الإعتذار.[٣]

وجاء في التفسير الأمثل: أن هذه الآية تشرح حال أم مريم بعد ولادتها، فقد أزعجها أن تلد أنثى، وراحت تخاطب الله قائلة: إنها أنثى، وأنت تعلم أنّ الذكر ليس كالأنثى في تحقيق النذر، فالأنثى لا تستطيع أن تؤدي واجبها في الخدمة كما

(١) تفسير وحي القرآن: مصدر سابق: ج٥، ص٣٥٠ بتصرف.

(٢) ينظر: روح المعاني، للآلوسي، ج٣، ص١٧٩، والميزان للسيد الطباطبائي، ج٣، ص١٧١، ومواهب الرحمن، للسيد السبزواري، ج٥، ص٢٩٠، والفرقان للصادقي، ج٤، ص٣٦٦، وتفسير التحرير والتنوير، لإبن عاشور، ج٣، ص٨٥.

(٣) التفسير الكبير للرازي: مصدر سابق: ج٨، ص٢٤.

يفعل الذكر، فالبنت بعد البلوغ لها عادة شهرية ولا يمكنها دخول المسجد، مضافاً الى أن قواها البدنية ضعيفة، وكذلك المسائل المربوطة بالحجاب والحمل وغير ذلك.(١)

والحقيقة بعد ما أثبتنا بأن أم مريم عليها السلام كانت في قولها، وكما عبر القرآن عنها: (إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا)، هي لم تكن محددّة لجنس المولود، وهل هو ذكر أم أنثى، وإنّما ما يرزقها الله تعالى به، هو بالحال الموهوب لها سوف تنذره، بأن يكون محرّراً.

فهي لم تشغلها الوليدة عما عاهدت الله عليه، ولم يصبها الإرتباك وعدم الإرتياح عندما رأت الوليدة، خوفاً من أن موضوع النذر قد تبدل، لأنها بالأساس تعلم بأن الله تعالى يتساوى عنده الذكر والأنثى، ولكن ظرف العمل والخدمة سوف يتغير، والمعاملة مع المحرّرة أيضاً ستحتاج الى ضابطة، وقانون لكي يتم الأمر بأحسن وجه، وليكون هناك حضوراً للأنثى تشترك به مع الذكر في ميادين الطاعة والعبادة الحرّة لله تعالى.

وهذه الحادثة أفصحت عن أمر مهم للغاية، وهو أن في نفس ميدان التساوي بقبول طاعة الرجال والنساء، يوجد هناك إختلاف من ناحية ضوابط العمل، وعلى النساء التحرز فيها، ومن ثم يدخلن في تلك الأعمال العبادية التي تشترك فيها مع الرجال. ولا يمكن وضعهما في نفس مساحة العمل والحركة، دون إيجاد مقومات الحفاظ على طهوريتها وعفتها وحرمتها.

وهنا توجد إلتفاتة نستطيع أن نخرج بها بمحصلة عن سبب الإصطفاء لآل

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: مصدر سابق: ج٢، ص٣٢٤.

عمران، وأن تكون هذه المرأة الجليلة إحدى اولئك المصطفون، والتي سيخرج من وليدها رسول عظيم ومن أولي العزم. وإلّا لو كانت متيقنة بأن ما في بطنها ذكراً، لكانت كاذبة في قولها: (إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا)، لأنها أظهرت لفظاً له معنى فيه دلالة على أن الأمر في النذر لم يحدّد، بما إذا كان المولود ذكراً أو أنثى، وحاشاها من الكذب أو أن تظهر خلاف ما تبطن.

وهي عندما قالت: (رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ) لا على نحو الخيبة والتحسر والحزن العميق، وإنّما يا ربِّ إن المتعارف عند القوم بأن لا يحرّر للبيت المقدّس إلّا الذكور، وها أنا أرزق بمولود أنثى، فكيف أحقق نذري، بأن يكون خادماً في بيت للعبادة، وليكون خالصاً لك وتحت رعايتك. وكأنّما أرادت برهانا وحجّة يقدم لقومها وللمشرفين على دور العبادة، ينكسر فيه حاجز قبول الذكور فقط، ويتم قبول هذه الأنثى لتكون أول محرّرة للخدمة في البيت المقدّس.

وفعلاً بوجود النبي زكريا عليه السلام، وتدخله في هذا الأمر بحيث كان لساناً ناطقاً عن الله تعالى، لما تمكن أحد من إقناع السدنة والأحبار من قبول مريم عليها السلام، ولذلك كان الجواب صريحاً من قبل الله عزّ وجلّ: (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا) سورة آل عمران: ٣٧.

وبهذه العملية، وهذا الموقف سوف يكون للوليدة شأناً عالياً يحاط بها من كل جانب. لأن الكل سوف يتساءل وسوف يسمع بتلك المرأة الطاهرة التي هي الأولى من جنسها، تحرّر للبيت المقدس، ولم تسبقها أية أنثى من قبل ، وفعلاً قد بانت عظمتها وكراماتها وميزاتها من بين النساء الأخريات، حتى أصبحت سيدة نساء عالمها.

فكان تحرير تلك المولودة الطاهرة في البيت المقدس بكفالة النبي زكريا عليه السلام، وهو في نفس الوقت زوج خالة مريم عليها السلام، وهو يعلم بحديث هذه الطفلة في أنها أمانة الله ومحرّرة للبيت المقدس، ولكن كيف يدخلها في البيت وأنها أنثى وقانون البيت المقدس لا يسمح بذلك؟ ويعلم أن هناك مخالفين لا يقبلون بذلك، وأنه نبي يعرف أن المستقبل الرسالي مذخور عندها، فهو يعرف منها ما لا يعرفه الآخرون، ولم يكلّفه التفكير في ذلك طويلاً، لأنه هو النبي، وهو الوجه الوجيه لتلك الوجوه، فذهب الى البيت المقدّس تقوده خطى اليقين والثقة بالله ليعلن أمام الناظرين على البيت أنّه يتكفل مريم داخل البيت، فحصلت النقاشات المتوقعة، فوضّح لهم زكريا أمر مريم... فما كانت نتيجة الحوار إلّا أن شاهد زكريا التنافس على كفالة مريم. فأخذت الفرحة زكريا وعلم أنّ الله له الدخل المباشر في هذا التحول الذي لم يسبق للبيت أن يتقبل أنثى، بل وبهذا التنافس الشريف على كفالتها.

نعم، لقد تقبلها ربها بقبوله الحسن؛ وكان تزاحم الحوار والتخاصم يشغل البيت وخارجه (إذ يختصمون)، وزكريا يعلم أنّ كفالتها لا تكون إلّا على يده لأمر الله بذلك... وبدأ زكريا عليه السلام بالعمل في كفالتها داخل البيت المقدس، وأوّل ما بدأ به بناء تلك الغرفة والمقصورة العالية التي لها باب داخلية عالية تنتهي الى مقدمة المعبد لبيت المقدس ليحجب النظر بما في داخل الغرفة، ولها باب خارجية يتم الدخول والخروج من خلالها بواسطة سلّم قليل الإرتفاع... وجاء زكريا بمريم وسكنت البيت وظلت تعبد الله من خلال غرفتها التي حولتها الى محراب.[1]

---

(١) ينظر: التجديد في تفسير القرآن المجيد، مصدر سابق: ج٥، ص٦٦ وما بعدها.

بقي شيء علينا الوقوف عنده ولعله يحتاج الى بُعد دقي في الفهم، وهو عندما بُشّرت زوجة عمران بالحمل من قبل زوجها، أو من خلال الوحي أو الإلهام، كما أوحي لأم موسى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ) سورة القصص: ٧، فإنها نذرت ما في بطنها لا على نحو التحديد، ولم تتريث من أجل التحديد، وإنّما الفرحة التي غمرتها نتيجة تلك المباشرة جعلت ثمنها أن تهب ما حرمت منه طول سنين عمرها لخدمة المعبد ليكون محرّراً لله. وهي في نفس اللحظة لم تلتفت الى كون ما سترزق به ذكراً أو أنثى هكذا بالمباشر هو موهوب لله تعالى وليكن ما يكن.(١)

ولو كان المولود ذكراً، بالتأكيد لم تكن لتفتح فمها بأية كلمة لأنه مقبول، وهو المتعارف على كل حال. ولكن بما أنها ولدت أنثى، لم تستغرب ولم تستوحش، بل ولم تحزن ولكنها قالت؛ إني وضعتها أنثى، أي يا ربّ كيف العمل لكي ندخلها بيت المقدس، وهي تعلم بأن الله تعالى هو الواهب، وهو العالم، ولكن أرادت شيئًا ليطمئن قلبها به، لأن الظرف الخارجي كان لا يسمح بحال قبول الأنثى، لأن تكون محرّرة لله تعالى، فأرادت الحصول على الإطمئنان من الله بقبول هذا الأمر، وكما قال إبراهيم عليه السلام: (قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) سورة البقرة: ٢٦.

وهي بذلك قد وصلت الى مرحلة عبرت بها التفكير الأنثوي لتضيف إليه مسحة كانت غائبة، بل لم تخطر على بال أنثى، لتخطو هذه الخطوة، كونها كانت مستسلمة للواقع وبشكل طوعي، إذ ربما لو تطوعت إحداهن قبل امرأة عمران ونذرت مثل هذا النذر، لكان قد تقبل منها، وخصوصاً إذا ما كانت حائزة على

(١) ومن المحتمل والراجح جداً أنها أخذت الإذن من قبل زوجها عمران عليه السلام في هذا النذر ولكونه يعي ويعلم المصلحة في ذلك النذر لم يعارضها.

مواصفات الطهر والعفة والنية الصادقة. أو لعل النساء لم يقدمن على مثل هذا الطلب لقناعتهن بالمستوى العبادي المنوط بهن، ولم يكن لهن طموح في زيادة البعد العبادي لهن، ورضين بالعبادة القليلة وغير المجهدة في هذا الإتجاه.

ولكون زوجة عمران عليها السلام شعرت بأهمية الدور العبادي للمرأة وعليها أن تتحرك بمساحة أكبر من دائرتها العبادية المعهودة. فلذلك طرحت أمر تحرير الأنثى وخلوصها لبيت المقدس.

ولذلك نحن نميل الى أنها كانت فرحة ومقتنعة قناعة كاملة بمولودها الأنثى، وأنها تعي بفعلها هذا سوف تولد مرحلة جديدة من مراحل الهداية والتوفيق، وستساهم بخطوة تدفع من خلالها المرأة لكي تحاط بواقع ومسحة جديدة تزداد فيها إحتراماً وثقلاً قيميّاً داخل المجتمع الإنساني.

ثالثاً: (وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ).

هذا خطاب معترض، وهو من قول الله تعالى جاء لبيان عظمة الوليدة وتكريماً لها، وأرادت من إخبارها هذا، أن تعرض خجلها واستحياءها من الله معتذرة بأروع صور الإعتذار، ذلك حين نسبت الوضع الى نفسها (إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ) مع علمها أن الواضع والخالق هو الله، وأنّ ليس لها أي دور في الحمل إلّا الوضع.[1]

وفي هذا السياق يقول السيد السبزواري قدس سره: إن الجملة مقولة له عز وجل و(ما) ترجع الى المولود الذي جهلت الأم السرّ الإلهي فيها، أي أن الله

(١) التجديد في تفسير القرآن المجيد، مصدر سابق: ج٥، ص٢٩٠.

تعالى هو الذي خلقها وصوّرها، وهو أعلم بها، بما تحمل من الأسرار وعظائم الأمور التي ربما لا تكون تلك ممكنة في المولود الذكر.[1]

ويقول السيد الطباطبائي قدس سره: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾، جملتان معترضتان، وهما جميعاً مقولتان له تعالى، لا لامرأة عمران، ولا أن الثانية قولة لها، والأولى مقولة لله.

أما الأولى فهي ظاهرة لكن لما كان قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾، مسوقاً لإظهار التحسر كان ظاهر قوله: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ إنه مسوق لبيان أنّا نعلم أنها أنثى، لكنا أردنا بذلك إنجاز ما كانت تتمناه بأحسن وجه، وأرضى طريق... ومن هنا يظهر أن قوله: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾، مقول له تعالى لا لامرأة عمران، ولو كان مقولاً لها، لكان حق الكلام ان يقال: وليس الأنثى كالذكر، لا بالعكس.[2]

هذا وقد ذهب جملة من المفسرين الى أن اللام في الذكر والأنثى هي لام العهد، أي ذلك الذكر الذي كانت امرأة عمران ترجوه وتتمناه لأن يكون خادم البيت الشريف ورسولاً ليس مثل الأنثى التي وضعتها، التي لا تقدر أن تقوم بما وقع النذر المحرر لأجله.[3]

ولكن التدقيق في كلمات الآية المباركة يبعث الى التأكيد على أن الأقرب في

---

(١) مواهب الرحمن في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٥، ص٢٩٠

(٢) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٣، ص١٧١، وينظر مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٢، ص٥٥٦.

(٣) ينظر: مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ج٥ ص٢٩١، وروح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني: ج٣، ص١٨٠، وتفسير التحرير والتنوير: ج٣، ص٨٦.

سياق الآية المباركة، أن تكون (اللام) في الذكر والأنثى هي الجنس، لا لام العهد، لم يقصد خصوص ذكر وأنثى معينين، بل إن المراد؛ أن جنس الذكر ليس كجنس الأنثى.

وفي هذا السياق قال صاحب تفسير التحرير والتنوير: وتعريف الذكر تعريف الجنس لما هو مرتكز في نفوس الناس من الرغبة في مواليد الذكور، أي ليس جنس الذكر مساوياً لجنس الأنثى.[١]

وذلك بإعتبار أن المخاطب كان عارفاً بأن الذكر ليس كالأنثى في خصوص الخدمة في البيت المقدّس، وهذا هو الجانب العملي في ذلك الزمان والمكان، وحينئذ فما الفائدة في الإخبار عن شيء هو معروف عند الناس، فلابد أن يكون قوله تعالى فيه إشارة الى أمر يخص الذكر والأنثى، قد يكون في يوم ما ملتبساً عليهم، فها هو القول الفصل فيه، قد صدر من قبل خالق الذكر والأنثى، وهو العالم بما خلق وبما أودع وهيأ فيهما.

هذا ويمكن أن نوضح المطلب بصورة أخرى:

بعد أن ثبت أن القائل (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ) هو الله جل جلاله، فإذن ماذا أراد أن يوصل لنا من وراء هذه الحقيقة المطلقة؟ فإن كان المراد كما ذكره جملة من المفسرين وهو؛ بأن الأنثى لا تصلح لما يصلح الذكر له، وإنّما يجوز لهم التحرير في الذكور دون الإناث لخدمة البيت المقدس لما يلحقها من الحيض

(١) تفسير التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور: الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، نشر مؤسسة التاريخ، بيروت، ط١، ج٣، ص٨٦.

والنفاس والصيانة عن التبرج للناس.[1]

إذن إذا كان هذا هو الحال، فلماذا أسند هذا الدور الى الأنثى وهي (مريم عليها السلام)، بعد أن تقبلها الله قبولاً حسناً. فهنا أصبح الذكر والأنثى في مقام التساوي، وصار من الممكن أن تصبح الأنثى محررة للخدمة في البيت المقدس كالذكر. ولكن هنا ستواجهنا مشكلة وسنصدم بقوله تعالى لنه جاء فيه: (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ).

إذن لا يصلح ولا ينهض مثل هكذا توجيه وتفسير. ولذلك علينا النظر للكلمات الواردة في الآية ببعد ونظرة أخرى تساهم في التقرب أكثر من الحقيقة، فإن الله تعالى يشير بقوله: (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ) الى أن هناك فارق حقيقي وجوهري بين الذكر والأنثى، لا يمكن أن يرتفع بحال. وفي هذا الفارق والإختلاف، يؤدي كل منهما دوره الخاص به، دون أن يتمكن الآخر من تأديته.

ولم يكن ليشير عزّ وجلّ الى الفوارق الجسدية فيما بينهما فقط، باعتبار أن هناك وظائف وسلوكيات يستطيع كل من الذكر والأنثى الإتيان بها على قدم المساواة، بالرغم من وجود تلك الإختلافات الجسدية. وإنّما الآية تشير الى الأعم من ذلك، لوجود وظائف وتكاليف حُصرت بالذكر دون الأنثى، والعكس صحيح. وهذا الحكم والتقدير واقعي وليس اعتباري، لأنه صادر من الخالق والمدبر، ولا يقبل التبدل والتغير، لأنه يتعلق بعالم التكوين وليس بفضاء التشريع. ولذلك كانت الإشارة بنحو الجزم والقطع في مثل هذا الأمر.

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، تحقيق وتصحيح وتعليق السيد هاشم الرسولي المحللاتي، نشر مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٩٢م: ج٢، ص٥٥٧.

مع الإلتفات الى أن في قوله تعالى: (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ) لم يكن وارداً في مقام تفضيل الذكر على الأنثى من ناحية القيمة والوجود الإنساني، حتى تتأكد مسألة الأفضلية والتسلط والتعالي عند البعض ممن يذهبون الى هذا التفاوت، وإنما أمر ومتعلق؛ (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ) هو من ناحية الوظائف والمهمات التي يتكفل بها أحدهما دون الآخر، وهذه الوظائف والسلوكيات التي يأتي بهما كل منهما، تشخص لا على نحو الأفضلية والأكملية، وإنما بحسب البعد البيولوجي الذي وجد فيه الذكر والبعد البيولوجي الذي وجدت فيه الأنثى.

الفصل السادس

العقل الواحد والتغير الوظيفي

آدم وحواء

وجد الإنسان على ظهر الأرض مخلوق إختلف عن باقي المخلوقات، وجد ليكون خليفة الله في أرضه، فحمل الأمانة لسعة القابليات الممنوحة له، فهو ليس مجرد جسداً ولجته الروح، ولا هو وجود عابر في هذا الكون الكبير، بل جعله المحور الذي تدور حوله المخلوقات الأخرى، وإن كانت نورانية أو نارية أو من أي جنس آخر.

وهذه حقيقة وإن تجاهلها الكثير منّا، لإزدحام المواقف التي تبعد مثل هكذا تصور أو تصديق عن ذهنه، وتوجهه العقلي والعاطفي نحو هذه الحقيقة، ومن ثم ليتعامل معها تعاملاً يسمو من خلاله الى ما أعدّه الله تعالى له من نعيم التكامل ونور البصيرة الذي تنكشف من خلاله حقائق الأشياء شيئاً فشيئاً، لعلّه يعي بالتالي حقيقته الوجودية ومسيره الطويل في تنقله من عالم الى آخر. تارة ينظر عوالمه السابقة واللاحقة بعين الحقيقة ونور البصيرة، وتارة أخرى لا تحضر عنده تلك العوالم لوجود التراكم من الحجب وظلام الغفلة، وحينها لن يعي وينظر من نفسه إلّا ذلك الوجود الدنيوي المحبوس بقيود المادة وصراع الأضداد الذي يؤدي به بالتالي الى الإستسلام لقوانينها التي تعلوها يد القوة، عابرة كل السبل الإنسانية التي نادى بها المصلحون. هذا الإنسان لم يكن المقصود منه الرجل فقط، لتقعد المرأة تندب حظها العاثر لعدم شمولها بهذا الخطاب، وإنّما كلمة الإنسان تعني الرجل والمرأة بلا تمييز وتفاضل، ليشكلا بالتالي نظام الزوجية الذي به تتمركز الثنائية التي تحكم نواميس الطبيعة بأية صورة من صورها.

وهكذا وجدا مقترنان معاً في هذا الوجود، ولو كان أحدهما يستطيع أن يؤدي

الهدف الذي وجد من أجله في هذه الحياة بمفرده، لكان ذاك، ولكن الأحدية والتفرد لله عزّ وجلّ وليس لغيره نصيب منها.

فراح كل منهما يعدّ لوجوده مستلزماته الخاصة به، لأن نقطة المسير الدنيوي، أو قل شريط الحياة الدنيا، قد بدأ بالتحرك وكانت خطوات آدم وحواء تخطان حروفه الأولى، ولن تكتمل كلماته وجمله بسعتها، إلّا وهما سويّة يجمعهما الأمل في مسيرهم الدنيوي، حتى يعودا صعوداً في قوس الصعود لجنتهم التي أنزلا منها لتحقيق غايات وأهداف يعيشانها معاً، وهم يفتحون مشروع المجتمع الإنساني، ليحققا الغرض من الخلق بتشكيل الشعوب والقبائل، وسيكون المقياس بينهم التقوى والصلاح.

ولئن كان الفلاسفة اليونانيون وعلى رأسهم سقراط، يدرسون الطبيعة على أساس أنها قد سبقت العرف والقانون. وذلك لأن قبل إكتشاف الطبيعة عرف الناس أن لكل شيء أو نوع شيء (طريقته) أو (عادته) أي صورته الخاصة من (السلوك المنتظم) إن هناك طريقة أو عادة للنار، وللكلاب، وللنساء، وللمجانين، وللموجودات البشرية، إذ أن النار تحرق، والكلاب تنبح وتهز ذيولها، والنساء يلدن، والمجانين يهذون، والموجودات البشرية تتكلم. ومع ذلك فإن هناك أيضاً طرقاً وعادات للقبائل البشرية المتنوعة (أعني المصريين، والفرس، والإسبراطيين، والمؤابيين، والأماليكيين... الخ) وقد أصبح الإختلاف الجذري بين هذه الأنواع من (الطرق) و (العادات) موضع إهتمام عن طريق إكتشاف الطبيعة.

فقد أدى اكتشاف الطبيعة الى إنفصال (الطريقة) أو (العادة) الى الطبيعة (بمعنى النمو) من جهة، والى إختراع القانون أو (الناموس) والعرف من جهة

أخرى. فالقول مثلاً: أن الموجودات البشرية تستطيع أن تتكلم هو أمر طبيعي. غير القول إن هذه القبيلة المعنية تستخدم هذه اللغة المعينة يرجع الى العرف، ويستلزم هذا التمييز أن ما هو طبيعي يسبق ما هو وضعي أو عرف.[1]

إن التمييز بين الطبيعة والعرف أساسي للفلسفة السياسية الكلاسيكية، وحتى لمعظم الفلسفات السياسية الحديثة، كما يمكن أن نراه ببساطة في التمييز بين الحق الطبيعي والحق الوضعي.

وهذا بالتالي سيكون له دور مباشر فيما نحن فيه الآن من قضية المرأة والرجل والبناء الطبيعي لكل منهما وعلاقة الطبائع والطرق والأعراف في إعطاء صور وقيم تناسب كلاً من الرجل والمرأة، وهذا أغلب الظن يحدث لا على نحو الصدفة أو التقليد. فالصدفة لا يمكن لها أن تنقل البشرية الى مصاف وجوانب مصيرية لتتحكم بالتالي في تكوين الأسرة، كأول نواة لبناء المجتمع الإنساني. وذلك لأنه من المعلوم أن الأسرة لا يمكن لها أن تتمحور بإطارها وتركيبها الخاص، من دون تحديد وظيفة كل فرد فيها، وهذا الترتيب وتحديد الوظائف كيف أتى؟

وأما إذا قلنا على نحو التقليد والمحاكاة، فهنا سيطرح سؤال، ألا وهو: أول تكوين للأسرة، حاكوا مَن أو تبعوا مَن؟ فمن المفروض أن الإنسان الأول هو من شكل الأسرة في عالم الدنيا، حيث لا وجود لأسر قد سبقتهم فتعلموا أو اقتبسوا هذا التكوين الإجتماعي منها. فكيف حدث هذا البناء، ومن أعطى هذه الخريطة

(١) تاريخ الفلسفة السياسية: تحرير ليو شتراوس وجوزيف كروبسي، ترجمة محمود سيد أحمد، نشر المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط٢، ٢٠١٦م.

لتكون مفتاحه لمستقبل وجوده الآتي؟

وحينئذ نتساءل مرة أخرى، يا ترى هل كان للإحتياج، وضرورة البقاء دور في التعلم وترتيب الأدوار، بإعتبار أن العادة والطبع والعرف والسلطة لم تتشكل بعد، وكما يدّعي كثير من الفلاسفة وعلماء الإجتماع والانثروبولوجيين وأهل الدراسات الجندرية، إن المفرق الأساسي والمانع الرئيسي من وجود التساوي بين المرأة والرجل هو ما ذكرناه، وإنه من الممكن أن تقوم المرأة بكل ما يناط بالرجل من وظائف وكذلك يستطيع الرجل القيام بكل ما يناط به للمرأة، متى ما قفزنا على سلطة المجتمع الذكوري أو النظام البطريركي كما يسمونه.

وبعبارة أخرى هل أن الطبيعة هي التي قامت بدور المربي كما يذهب تشارلز داروين عن طريق التمحيص المتأني والإصطفاء الطبيعي، فشكلت شيئاً بعد شيء هذه الصورة والبنية الوظيفية للرجل وللمرأة. وحينئذ نتساءل لماذا شكلته بتلك الطريقة من التكليف، ولماذا لم يكن الإصطفاء الطبيعي قد تعلق بالعكس؟

والشيء اللافت للنظر ان الذين يصرّون على التساوي بين الرجل والمرأة، وان التنشئة الإجتماعية هي الحاكمة بإيجاد الأنماط السلوكية التي تقررها للذكر والأنثى، ذهبوا الى البحث لإيجاد تفسيرات لبعض من حالات وتصرفات الأمومة لدى النساء، ومدى تعلقهن وإهتمامهن المكثف بالأطفال، بحيث يكون أكبر بكثير مما يقدمه الرجال. وعندما طرح سؤال وهو لماذا الأمهات أكثر من الآباء في وقتهن المستنفذ بجوار الأطفال، والوقت المستنفذ في ملامستهم، ووصولاً الى الوقت المستنفذ في تعليمهم.

وبدلاً من أن ينصاعوا ويقرّوا بأنهن يحملن صفاتاً بيولوجية وسيكولوجية

تؤهلهن لفعل هذا الأمر دون الرجل، ذهبوا الى ايجاد عدّة فرضيات، ليحاولوا الخروج من خلالها من هذا المأزق، الذي يشكل عائقاً كبيراً برفع هذا التساوي المزعوم، لما لديه من تأثير سلوكي واضح لأحدهما دون الآخر، ولا يمكن أن تكون للتنشئة الإجتماعية والعادات والطبائع دوراً في إيجاده. ومن أهم هذه الفرضيات التي حاولت أن تفسر غلبة الوالدية الأنثوية، سننظر في أثنتين منها والأكثر صلة بالبشر وهما:

أولاً: فرضية عدم التأكد من الأبوّة

الأمهات في كل المملكة الحيوانية هنّ عموماً متأكدات بدرجة ١٠٠ في المئة من إسهامهن الجيني في ذريتهن. من الضروري وضع كلمة متأكدات بين مزدوجين، لأنه لا لزوم لإعتراف واع بتأكدهن من والديتهن، فعندما تضع الأنثى مولوداً، أو تبيض بيضة ملقحة، ليس هناك شك بأن ذريتها تتضمن ٥٠ في المئة من مورثاتها. أمّا الذكور فلا يمكنهم أبداً أن يكونوا (متأكدين).

تعني مشكلة عدم التأكد الأبوّة، أنه من منظور الذكر هناك دوماً بعض الإحتمال أن يكون ذكراً آخر قد لقح بيوض الأنثى. وعدم التأكد من الأبوّة هو الأقوى في الأنواع التي تخصب فيها الإناث داخلياً... وبسبب هذا التخصيب الداخلي للأنثى، فحين يظهر ذكر على المسرح، يمكن أن تكون الأنثى قد اقترنت مسبقاً مع ذكر آخر، وبالتالي يمكن أن تكون بويضاتها قد لقّحت. أو من المحتمل أن تقترن بالسرّ مع ذكر آخر، وفي أي وقت خلال زواجهما. يتجشم الذكور أعباءً هائلة من خلال توجيه مواردهم إلى ذرية رجال آخرين. فالموارد المخصصة لأطفال غريم، ما هي موارد مسلوبة من أطفاله ذاته. ويسبب التكاليف التي يتحملها الذكور نتيجة لسوء توجيه الجهد الوالدي، فإن أية درجة من عدم التأكيد

من الأبوة تعني عموماً أنه سيكون من غير المجزي بالنسبة للذكور استثمار مواردهم في الرعاية الوالدية. وهكذا، يقدّم عدم التأكد من الأبوة أحد التفسيرات لشيوع تكرار الاستثمار الأنثوي أكثر من الاستثمار الذكري في الرعاية الوالدية.

ولا يكفي عدم التأكد من الأبوّة للحيلولة دون تطور الرعاية الوالدية. إلّا أنه يجعل استثمار الآباء في ذريتهم أقل مردوداً، مقارنة بحالة الأمهات. في ظروف عدم التأكد من الأبوة، يعطي كلّ بند من الاستثمار الوالدي مردوداً أكبر للأم مما يعطيه الأب، لأن بعضاً من استثمار (الأب) سيهدر على نسل ليس من صلبه .وعلى العكس من ذلك، يذهب كامل الـ ١٠٠ في المئة من استثمار الأم الوالدي إلى أولادها.

وخلاصة القول، مع أن عدم التأكد من الأبوة لا يحول دون تطور رعاية الذكر الأبوية، إلّا أنه يبقى أحد الأسباب الصامدة لنزوع الإناث واسع الانتشار للاستثمار في الذرية أكثر ما يستثمر الذكور فيها.[1]

الرد على هذه الفرضية

يمكن الرد على هذه الفرضية بعدّة نقاط منها:

١- لو فرضنا صدق حدس هذه الفرضية، فإنه من المستحيل أن تكون شاملة لجميع الذكور، فهناك كثير جداً منهم لهم قناعات بل يقين كامل بأن ما أنجبته نساؤهم هم أطفالهم، ولا يشاركهم أيّ أحد بهم، فلما ذا لا تتحول الرعاية والإهتمام، ويكون أغلب وقتهم المستنفذ قرب أولادهم، وليتركوا

(١) ينظر: علم النفس التطوري: دافيد باس، ترجمة د. مصطفى حجازي، نشر المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م: ص٤٠٥ وما بعدها.

نساؤهم يتحررن من هذا التكليف، والإنطلاق بأداء واجبات أخرى.

٢- إن الجسد الأنثوي قد خلق وأصبح مهيأ لأداء هذا الدور الأمومي والتربوي، ولو تساءلنا لماذا أُعطيت المرأة ثديين، وحصر إنتاج الحليب بهما، ولم يكن للرجل مثل هذا الحكم؟ وفي مثل هذه الحالة، لو وفّرنا فرص إجتماعية نضبط من خلالها عملية التزاوج والعملية التي يتم بها تلقيح البويضة بالحيمن الذكوري، بحيث يصبح المولود محرز من جميع جوانبه، بأنه إبن الزوج، وكان الزوج على قناعة تامة بأن المولود إبنه واستمر الحال على هذا المنوال لعدّة أجيال ولفترة طويلة من الزمن، فهل في هذه الحالة سيضمر الثدي عند المرأة، ويبرز عند الرجل، من أجل أداء دور أبوي يشابه ذلك الدور الأمومي السابق؟! أم سيبقى الحال كما هو عليه، بأن الجسد الأنثوي مزود بما أراد الله تعالى إيجاده فيه، والجسد الذكوري يبقى مزوداً بالذي أراده الله تعالى إيجاده فيه؟!

٣- من الواضح أنّ الأدوار البيولوجية لا تقبل التفويض الى الغير، ومن أمثلته تلك الأدوار – الحمل والوضع للمرأة ودور الأمومة- بنظر كثير من علماء النفس يتبلور لدى البنت في باكورة حياتها، مضافاً الى أنّ إفراز هورمون البرولاكتين أثناء فترة الحمل يهيء المرأة للنهوض بمسؤولياتها في مجال الأمومة ورعاية الطفل.(١)

فالمرأة كائن إنساني له خصائصه وسماته الفطرية والتركيبة والخلقية، كما إن

(١) المرأة هويتها الجنسية وأدوارها الإجتماعية: محمد رضا زيبائي نجاد وآخرون، ترجمة رعد الحجاج، نشر مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠١٣م.

الرجل كذلك، فحيث اقتضت هذه الخصائص التفرقة بين الجنسين، افترقت الأحكام الناظمة لحياة كل منهما، إذ ليس من المعقول أن تقوم المرأة بدور الرجل كاملاً في المجالات كلها، أو يقوم الرجل بدورها في كل الإختصاصات. ولذلك كان من بديهيات شريعة الإسلام أن لا تفرق بين الرجل والمرأة إلّا حين تدعو المصلحة.(١)

ثانياً: فرضية كلفة فرصة الإقتران

تنبع فرضية ثانية من الفروق بين الجنسين في تكاليف فرصة الاقتران. وتكاليف فرصة الإقتران هي الإقترانات الإضافية الضائعة كنتيجة مباشرة للجهد المكرس للذرية. يعاني الإناث والذكور كلاهما من تكاليف فرصة الاقتران. فخلال حمل الأم بطفلها أو إرضاعه من الثدي، أو خلال قيام الأب بإبعاد خطر المفترسين، لن يكون لدى أيّ منهما فرصة كبيرة لتأمين اقترانات إضافية. إلّا أن تكاليف فرصة الإقتران أكبر لدى الذكور مما هي لدى الإناث. وذلك بسبب أنّ نجاح تكاثر الذكور ينزع إلى أن يكون محدداً أساساً بعدد الإناث الخصبات اللواتي يمكنهم تلقيحهن بنجاح، في حالة البشر، على سبيل المثال، يستطيع الذكور إنجاب عدد أكبر من الأطفال من خلال الإقتران بنساء مختلفات، إلّا أن النساء لا يمكنهن عموماً زيادة المردود الإنجابي مباشرة من خلال الإقتران برجال مختلفين. وخلاصة القول، حيث إن تكاليف فرصة الإقتران الناجمة عن الرعاية الوالدية ستكون عموماً أكبر بالنسبة إلى الذكور مما هي بالنسبة إلى الإناث، فإن قيامهم بالرعاية الوالدية سيقل على الأرجح عمّا هو الحال لدى

(١) حقوق المرأة في الديانات والمعتقدات: اعمال مؤتمر الأديان السنوي الثالث لسنة ٢٠١١، نشر بيت الحكمة، بغداد، ط١، ٢٠١٣م.

الإناث.

تبعـًا لهذه الفرضية، يجب أن تكون الرعاية الوالدية الذكرية نادرة عندما تكون تكاليف فرص الإقتران الضائعة عالية بالنسبة إلى الذكور. أمّا عندما تكون تكاليف الفرصة التي يتجشمها الذكور جراء الإقترانات الضائعة متدنية، فإن الظروف تكون أفضل لتطور الرعاية الوالدية. وتحدث مثل هذه الظروف تحديداً لدى نوع الأسماك التي يقوم فيها الذكر باقتطاع مجال حيوي خاص والدفاع عنه. تتفحص الإناث من ثمَّ مجالات مختلف الذكور الحيوية، وتنتقي أحدها كي تضع فيه بيوضها، ويستطيع الذكور عندها حراسة البيوض بل وتغذيتها في الآن عينه الذي يحرسون فيه مجالهم الحيوي. لن تتأثر فرص اقتران الذكور في هذه الحالة كنتيجة للإستثمار الوالدي. في الحقيقة يبدو أن وجود بيوض وضعتها إناث أخريات في مجال حيوي ذكري معين، يجعل هذه الذكور جذابة للإناث، مما يحضّها على وضع بيوضها في المجال الحيوي الذي يحتوي مسبقًا على بيوض. ومن الجائز أن وجود بيوض أخرى يشير إلى الأنثى بأن المجال الحيوي آمن من المعتدين، أو أن أنثى أخرى وجدت أن هذا المقر مقبول، وباختصار عندما لا يتجشم الذكور تكاليف خسارة فرصة إقتران كنتيجة للإستثمار في الذرية، تكون الظروف ناضجة لتطور الرعاية الوالدية الذكرية.

قد تفسر فرضية تكاليف فرصة الإقتران جزئيـًا الفروق الفردية في التنشئة الوالدية لدى البشر في السياقات التي يوجد فيها فائض من الرجال المؤهلين في جمهور الإقتران، يكون من الصعب على الرجال متابعة استراتيجية إقتران قصير المدى. ولكن عندما يكون هناك بالمقابل فائض من النساء سيكون لدى الرجال المزيد من فرص الإقتران. وبالتالي، يمكننا أن نتنبأ بأنه من المرجح أن يستثمر

الرجال في الأطفال في السياقات التي تضم ا فائضاً من الرجال، إلّا أنّهم سيكونون أكثر إهمالاً للأطفال عندما يكون هناك فائض من النساء. وتشير العديد من الأدلة التجريبية بأن الأمر هو على هذا الحال. إضافة إلى النسبة بين الجنسين، من المرجح أن تتضمن عوامل أخرى تشرح الفروق الفردية ما يلي:

١- جاذبية الذكر كقرين قصير المدى (إذ من المتوقع أن يحد الذكور الأكثر جاذبية من جهدهم الوالدي ويزيدون من جهدهم في الإقتران)

٢- الكثافة السكانية (حيث توفر المدن الكبرى المزيد من الفرص للذكور للتفاعل مع الإناث، أكثر مما يحدث في المناطق الريفية منخفضة الكثافة).[1]

الرد على هذه الفرضية

يمكن الرد على هذه الفرضية بعدة نقاط منها:

١- إن عدم توفير فرص إقتران للنساء بإعتبار إنشغالهن بالحمل والرضاعة فهذا الأمر لم يأت على نحو الصدفة، أو في حالة طارئة تنتاب النساء بحيث يمكن لهن تجاوزها بعد حين، وإنما يحدث لأنهن قد زودن بآثار القابلية على تلقي وقبول المقتضي، الموجود عند الذكر، ورفع القابل عنه. ولولا ذلك لما حدث لهن الحمل والرضاعة، ولتساوين مع الذكور في زيادة فرص الإقتران. لكن ماذا نقول لعالم الطبيعة، وما أودعه الله تعالى في الجسد الأنثوي من القيام بحفظ أمانة الحمل والرضاعة التي تستدعي عدم الإقتران بأي ذكر خارجي والإكتفاء بما فرضته الطبيعة السليمة في قبول الحمل الواحد، الذي

(١) ينظر: علم النفس التطوري، مصدر سابق: ص٤٠٧ وما بعدها.

يحافظ على نفسه تلقائيا من عدم قبول الإضافة، بإعتبار ان ظرف الحمل عند المرأة والإنجاب يستدعي منها التفرغ والإستعداد لهذا الأمر، حتى يتم إنجازه ضمن ضوابط الخلقة، التي لم ولن تقبل أي تزاحم من أجل تلقي أو قبول حملاً إضافياً، تتحمل اعباءه الأنثى.

ولذلك حتى لو حجب الذكر وقللت عليه فرص الإقتران، فإنه لن يتمكن من أخذ وظيفة الأنثى والإعتناء بالمولود بدلاً عنها.

أي أننا لو فرضنا وقمنا بتقليل فرص الإقتران بالنسبة للذكور مع اناث أخريات، أو حتى لو قمنا بحجبهم ومنعهم عن القيام بذلك بشكل كامل، وهنا يطرح تساؤل؛ هل سيتمكن الذكور من تحمل مسؤولية الإنشغال بتنشئة وتربية الطفل على أكمل وجه، بحيث يرعى ويهتم بكل شؤونه، وتوفير إحتياجاته من الحنان والعاطفة والدفء وقضاء حاجاته. وعدم الملل من السهر والخدمة. أم يبقى هو ذلك المتمرد عن قبول طبيعة الأنثى وأدوارها، والرافض لأي إنقياد يخالف جبلته التي وجد فيها؟

٢- هنا في هذه الفرضية قد تم إثبات شيء علمي، هو بالواقع يؤيد ما ذهب إليه المشرّع الإسلامي في السماح للرجل من أن يقترن بأكثر من زوجة، لأنه قد تماشى مع الواقع الطبيعي الذي وجدت فيه المرأة والرجل. ولولا أن هذا الواقع قد تناسب مع طبيعة الجسد الذكوري والجسد الأنثوي، لما جاءت تلك الأحكام متماشية مع هذه الفطرة، وكما هو معروف فإن الأحكام تابعة للملاكات – المصالح والمفاسد الواقعية- لا للآراء والفرضيات النابعة من مباني نفسية ذاتية وأحادية الرؤية.

وهذا الأمر نفسه الذي تفرضه الإختلافات الطبيعية بين الرجل والمرأة هو الذي يعطي لنا مبرراً لوجود الإختلافات الحقوقية بينهما.

وفي الحقيقة لو أنهم أضافوا هذا السبب الذي سنذكره بدلاً مما ذكرا لكان له وجه وجيه، ويمكن قبوله نوعاً ما، ولن يتعرض لتلك الانتقادات، فإنهم لو ذكروا بأن بقاء الطفل في بطن أمّه ولمدة تسعة أشهر وهو ينمو ويكبر في أحشائها يوماً بعد يوم، وهي تحس بحركته ونبضاته تدغدغها في كل وقت من أوقات اليوم، ليشعرها بأنه يحاكيها، ويعيش ليسعدها لحظة الولادة، وهي تشعر بذلك بكل أحاسيسها منتظرة ذلك الحمل، لتثبت كمال أنوثتها، فهي تبقى بدون الحمل كائنا بشرياً يشعر بالنقص وعدم الكمال دونه. وهي في تلك اللحظات تعيش أوقات تشعر من خلالها بأن هذا الطفل هو لها، وهي المسؤولة عن تربيته وتهيئته للخروج في عالم الدنيا، تنتظره في كل لحظة، بل مع كل نفس، شاعرةً بأن حياتها قد تكون في خطر محدق نتيجة هذا الحمل، وعندما يخرج الى عالم الدنيا سالماً ينظر إليها وهي تنظر إليه باكياً وتضمه الى صدرها، تحس حينها بأنها قد ملكت الدنيا وما فيها. ولذلك ستشعر تلقائياً بأنها هي المسؤولة عنه، وهو عائد لها، لأنها هي التي تكفلت اللحظات التي يتقلب في بطنها من نطفة ثم علقة ثم مضغة حتى تنبت له العظام الى تمام أعضائه وجوارحه، فهذا الشعور سيكون وحده كافيا لتعلقها به وعنايتها له، أكثر بكثير من الرجل، لأن العلاقة التي نتجت عن طول الحمل، لم يكن للرجل منها نصيب، أو حتى معاناة الألم المصحوب بلذة الإنتظار. وعلى هذا فلا تصلح فرضية عدم التأكد من الأبوة، ولا فرضية كلفة فرصة الإقتران، لأنهما بعيدتان عن الواقع والمعايشة العملية.

المرأة والرجل تشابه أم تساوي؟

لو نظرنا بمنظار تاريخي وخصوصاً في عهد القرون الوسطى لرأينا أغلب الرجال ينظرون للمرأة نظرة دونية ويعتبرون المرأة جنس أوطأ، وهي إنسان غير كامل. أو بعضاً قال أنها برزخ بين الإنسان والحيوان، وهي في تلك المرحلة التاريخية من الزمن عاشت ألوان مختلفة من الإضطهاد والقسوة والتسلط حيث المجتمع الذكوري هو المتسيد وهو صاحب القرار النهائي، الى أن جاء القرن السابع عشر الميلادي وفي نهاياته قد شهدت تلك الفترة تحولات علمية وفلسفية في دول الغرب أوجدت كذلك نهضة على المستوى الإجتماعي كانت أهم مقوماتها المطالبة بحقوق الإنسان، وقد ساهم الفلاسفة والمفكرين أمثال جان جاك روسو وفولتير ومونتسكيو بوضع نظرياتهم وأفكارهم حول الحقوق الطبيعية والفطرية التي لا يمكن سلبها من أي إنسان.

فالمبدأ الأساس الذي ركز عليه هذا الجمع من المفكرين هو: أن الإنسان بحكم الفطرة ومستلزمات الخلق والطبيعة يتوفر على مجموعة من الحقوق والحريات، ولا يستطيع أي فرد أو جماعة أن ينتزع هذه الحقوق والحريات، تحت أي عنوان من أي فرد أو أمّة. بل يستطيع الفرد ذاته أن ينقلها بمحض إرادته للغير، ويجرد نفسه منها. والناس بعامة: أعم من الحاكم والمحكوم، الأبيض والأسود، الغني والفقير، متساوون في الحقوق والواجبات.

وقد جنت هذه النهضة الفكرية الإجتماعية ثمارها في بريطانيا أول الأمر ثم في أمريكا، وبعد ذلك برزت ملامحها في فرنسا – بصورة ثورية تغييرية– وأخذت تسري بعد ذلك بالتدريج الى أنحاء العالم الأخرى.

المهم إن تمحور الثورات والنهضات الإجتماعية في الغرب، خصوصاً بعد القرن السابع عشر على مرتكزين اساسيين هما الحرية والمساواة، وبما أن حركة المطالبة بحقوق المرأة كانت جزءاً من تلك النهضات، فقد طرحت خلال القرن العشرين مسألة (حقوق المرأة) مقابل (حقوق الرجل)، وأعلن لأول مرة بشكل صريح مبدأ تساوي حقوق الرجل والمرأة، عبر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي نشرته هيئة الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٨م.[١]

فالمهم من هذا المنطلق، وبعد أن أقرّت هيئة الأمم المتحدة التساوي بين الرجل والمرأة، ماذا بعد التساوي، هل نعمل لإيجاد صوت ينادي بالتشابه الوظيفي بينهما، ثم ندعم هذا الجانب عسى أن نحصل على قرار آخر من هيئة الأمم بهذا الإتجاه؟

فإذا كان الجانب الأول مدعوم عقلائيا ومدعوم إنسانياً وشرعياً، على إعتبار أن الكل هم خلق الله، وهذا الخلق يجب أن يأخذ حريته في الحياة ويمارس نشاطاته بكل إنسيابية وإحترام. فإن الأمر بالتشابه يختلف تماماً وإذا كان ذلك مدعوم – بالجوانب التي ذكرناها- فإن نفس تلك الجوانب ترفضه ولا تستسيغه بحال. فلا احد يستطيع أن يعطي حقاً للمرأة بهذا الإتجاه، فمثلاً إذا ما طالبت النساء بأن يعطي لهن حقاً بأن لا يحملن ولا يتجبن الأطفال من أجل أن يشابهن الرجل في خلوه من هذا الجانب، ومن ثم ليتمكن بالقيام بوظائف وأعمال كثيرة تشابه اعمال ووظائف الرجال. فهنا لابد أن يرفض ويمنعن من هكذا تصرف لأن بالتالي سيؤدي الى نهاية النوع الإنساني، وبالتالي ستتوقف سنّة أساسية من سنن

(١) ينظر: حقوق المرأة في النظام الإسلامي: الشهيد مرتضى مطهري، ترجمة حيدر آل حيدر، نشر الدار الإسلامية، قم، ط١، ١٤٠٥: ص٩.

وقوانين الطبيعة. وما ذلك إلّا لأن الجزء الذي تشترك فيه المرأة أو قل تسير به مع الطبيعة، وأصبحت شريكة به في هذا الوجود هو الولادة. فإذا لم تتقبل هذا الشيء، ستكون جزءاً ناشزاً وعاقاً. وحينها لن تستطيع ان تعوض وجودها بوظيفة ثانية، لأن سحنتها وجسدها هي هكذا، كما أن الشمس وظيفتها الإضاءة، وكما أن الماء وظيفته الإرواء والسقي، وكما أن النار تحرق، ولا يمكن أن تتغير هذه الطباع. ولو تغيرت لما أصبحت الشمس شمساً ولا الماء ماءً ولا النارُ ناراً، وكذلك المرأة، فيما لو أرادت أن تغير وظيفة من وظائفها الجسدية والعقلية والوجدانية، لما أصبحت امرأة ولصارت كائناً آخر.

إذن إذا كان الأمر كذلك، فلا يمكن للمرأة بخلقتها وتكوينها النفسي أن تغادر طبيعتها وتتقمص لها دوراً قد أعد أساساً للرجال يدور مدار هذا السياق الذي نتكلم عنه، فإن فرضنا بأنها تريد أن تمرن وتعود قلبها على القسوة والصلابة كالرجال في ساعات المحن والمواجهة، وتتخلى عن قلبها العطوف ذو الحنان الذي يفيض دفئاً ومودة، وأصبح قلبها بعد ذلك كزبر الحديد، وإن أرادت أن تكون مقاتلة وصاحبة سيف أو بندقية وتريد أن تدخل المعارك مع الرجال وما شاكل ذلك – أي يكون حالها حال الرجل في كل أعماله وشؤونه- بحيث يختلط عرقها بعلقها، فهي في مثل هذه الحالات قد خالفت طبيعتها وجبلتها التي خلقت من أجلها وأصبحت كأنها خلق جديد.

ونحن في هذا الوجود وهذه النشأة نحتاج المرأة، بما هي امرأة وبما أودع فيها من صفات ومزايا خاصة بها، لا لغيرها، فالرقة والعاطفة والجمال والأنوثة والحنان هي جوهر المرأة وبهن قامت وتحركت وقبلها الرجل بهن لا بغيرهن.

وفي هذا السياق يعرض السيد الشهيد محمد الصدر قدس سره عدّة أمثلة يبين

فيها أحكاماً خاصة بالرجل إما تشريعاً وإما إجتماعيا وإما إقتصاديا، وهي تبين فوارق واضحة في الأحكام بين الرجل والمرأة:

المثال الاول: الجهاد، فإنه خاص بالرجل ولا يشمل المرأة بضرورة الدين، والمفروض في الجهاد أنه موجب للقتل، أو إحتمال القتل وبهذا تحرز النساء سلامتهن من الموت وبقاءهن على قيد الحياة كما قال الشاعر:

كتب القتل والقتال علينا * وعلى المحصنات جر الذيول**

المثال الثاني: العمل أو الكسب، فإنه خاص بالرجال إجتماعيا، وعرفاً وإن لم يكن كذلك نظرياً، وتشريعياً. والعمل فيه مصاعب شتى، ومن جميع الجهات المحتملة الممكنة، حتى تعريض الحياة للخطر وقد سمعت - والقول للسيد الشهيد محمد الصدر قدس سره- من بعض أهل العمل يقول: (الحياة فداء للعمل) وهي حكمة حقيقة الحياة فداء للعمل وهو باب ينفتح منه كثير من الأبواب. أي العمل لله سبحانه وتعالى بالحقيقة وأما التعرض الكثير للأنواء الجوية كالحر، والبرد، والرياح وغير ذلك فهو: الغالب للناس في حين أن المرأة تكون في راحة من ذلك كله يأتيها رزقها رغداً، ومجاناً، صباحاً ومساءً.

المثال الثالث: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه خاص عمليا، واجتماعياً بالرجال، وإن لم يكن تشريعيا كذلك طبعاً. ومن المعلوم أن هذه الوظيفة الشرعية المقدسة ليست سهلة دائماً، بل فيها مصاعب، وإحراجات قد لا تكون متوقعة، بل قد تؤدي احيانا بالفرد الى الموت. والمرأة في راحة من كل ذلك، فإنها إن أمرت بالمعروف أو نهت عن المنكر في نطاق ضيق وسالم النتائج اطمئناناً، فإنها إنما تفعل ذلك في نطاق سالم النتائج بحسب الإطمئنان النفسي.

المثال الرابع: عدم جواز ضربها أو قتلها عند الصراع والعناد، لا أقل اجتماعياً إن لم يكن نظرياً. فيقال عرفاً عنها: إنها امرأة لا يجوز فيها ذلك وهذا واضح عرفاً. وهذا المعنى العرفي عام للنساء، والرجال معا يعني: كلا الجنسين لا يجوز أن يضرب المرأة أو يقتلها لا الرجل يقتل المرأة ولا المرأة تقتل المرأة، وهل رأيت طول الزمان امرأتان تتضاربان أو امرأة تقتل امرأة أو سمعنا بذلك؟

اذن، فالنساء من هذه الناحية في حماية بقدر الله وقضائه وإرادته.

المثال الخامس: التدخل في الأمور الإجتماعية، فإنه غالباً، وعرفاً للرجال وليس للنساء ولا يخفى ما فيه من احراجات، وإزعاجات حتى تؤدي الى السجن أو التعويق أو القتل أو الغرق أو الحرق مثلاً ،.. في حين تضمن المرأة سلامتها من هذه الجهات والشارع المقدس حين أعفاها عن الرئاسة والولاية إنما ضمن سلامتها من هذه الجهة وضمن الراحة لها في الحقيقة.

المثال السادس: عدم جواز التجمل الزائد للرجل، فالرجل ليس له أن يخرج متجملاً بكثافة وكثرة لا يجوز أصلاً، لأنه حرام. وذلك على مستويين إما أن يكون تجمله مثيراً للفتنة النوعية، والغريزة الجنسية؛ فيكون حراماً، وإما أن يكون متشبها بلباسه بالنساء فيكون حراماً أيضاً. فالمهم أن التجمل الزائد من الرجل حرام، وكذلك هو ممنوع إجتماعيا وعرفاً، في حين هو جائز للمرأة، بل أحياناً يكون مطلوباً، ومستحباً لها وبالتالي فهي ريحانة لا قهرمانة، وأمّا الرجل فلا يصدق عليه ذلك بطبيعة الحال.

المثال السابع: إن نسبة الجمال وهذا قلّما يلتفت اليه، وهو أن نسبة الجمال في الخلقة الإلهية في النساء أعلى جداً منه في الرجال ونسبة القبح بالخلقة أيضاً في

الرجال أعلى جداً منه في النساء. يكفي أن نلتفت الى أن نسبة الصلع في الرجال كثيرة، في حين لا توجد امرأة صلعاء تقريباً أو تحقيقاً، فلم نسمع عن واحدة أصلاً، وهذا من الكرامات العالية والنعم الضافية على نوع المرأة حقيقة.

المثال الثامن: إن التربية الغالبة للأطفال، إنما هي بيد النساء، وخارج عن طوق الرجال عملياً، واجتماعياً وليس تشريعيا ولا نظرياً وهذا وإن كان صعباً نسبياً إلّا إن معناه: ان الله تعالى حباها تكوينا بتحمل مسؤولية التربية الأساسية للإنسان، ومن ثم للبشرية وكانت هي الجانب الأهم فيها. ومن المعلوم أن التربية الأساسية إنما تكون في الصغر، وما يتعلمه الفرد في صغره لا يستطيع أن يتخلى عنه في كبره؛ ولذا نلاحظ أنه لو كان الأب، والأم مختلفين في اللغة، أو في اللهجة أو في أسلوب الكلام، كان الإتجاه الغالب في الذرية أو قل في الولد أو قل في البنت كان الإتجاه الغالب فيهم هو أسلوب الأم؛ لكثرة المخالطة والمعاشرة بينهما بنسبة أعلى جداً من الرجل الأب.

المثال التاسع: إن الله تعالى ابتلى الرجل بمسؤولية الإجتهاد والفتوى، بل قد يكون ذلك واجباً أما بالوجوب الكفائي أو بالوجوب العيني أحياناً. في حين يكون ذلك ساقطاً عن ذمة المرأة أي ليس واجباً وإن كان مستحباً. ولكنه لا يحتمل فيه الوجوب أصلاً. فإذا علمنا أن مسؤولية الفتوى عظيمة عند الله وأنها مظنة الحرام، والعقاب في الجحيم لأنها اذا كانت بغير حق ماذا تكون نتيجتها غير الجحيم، عرفنا عندئذ ما حباه الله للمرأة من فراغ الذمة، وعدم المسؤولية من هذه الناحية فلا مورد لها أي للفتوى بالنسبة الى النساء كي تبتلي بالعقوبة التي يمكن

أن يبتلي بها الرجال.[١]

وهناك رأي يطرحه الشهيد مرتضى مطهري بخصوص المساواة أو التشابه بين المرأة والرجل يقول: ان المبدأ الذي استند إليه المعترضون الذين يقولون ان الإسلام دين الرجال، وإنه لا يعتبر المرأة إنساناً كاملاً، ولم يضع لها حقوقاً كما يجب أن توضع للإنسان، إذ لو اعتبرها انساناً كاملاً لما أجاز تعدد الزوجات، ولما أعطى حق الطلاق للرجل، ولما اعتبر شهادة امرأتين بمثابة شهادة رجل واحد، ولما أسند رئاسة العائلة الى الرجل... وهكذا. هو تلازم تساوي المرأة والرجل في الإنسانية مع وجوب تساويهما في الحقوق.

وهنا يجب أن نأخذ بنظر الإعتبار مبدأً فلسفياً آخر هو:

ماذا يستلزم تساوي المرأة مع الرجل في الكرامة الإنسانية ؟ هل يستلزم تساويهما في الحقوق بشكل ليس فيه تفضيل أو تمييز، أم أنه يستلزم أن تكون المرأة والرجل علاوة على التساوي متشابهين في الحقوق وليس بينهما تقسيم في الواجبات والأعمال؟ فنقول: أن مما لا شك فيه هو أن تساوي المرأة والرجل في الكرامة الإنسانية يستلزم تساويهما في الحقوق الإنسانية أما أن يتشابها في الحقوق فذلك شيء آخر.

فإذا أردنا أن نتخلى عن التقليد الأعمى لفلسفة الغرب، وأجزنا لأنفسنا أن نتأمل في ما وصلنا منهم من أفكار وآراء فلسفية، فلننظر هل أن التساوي في

(١) المرأة في فكر المرجع الديني السيد الشهيد محمد الصدر (قدس سره): اعداد مكتب السيد الشهيد الصدر، قدم له السيد مقتدى الصدر، نشر دار محبين، قم، ط١، ١٤٢٩هـ: ص٩٩ وما بعدها بتصرف.

الحقوق هو نفس التشابه في الحقوق أم لا؟ ان التساوي غير التشابه.

التساوي هو المساواة، والتشابه هو المماثلة. فيمكن مثلاً أن يقسم أب ثري ثروته بين أولاده بالتساوي ولا يقسمها بشكل متشابه. ففي هذا المثال يمكن أن يكون للأب عدة أنواع من الثروات، يكون أحدها متجراً، وثانيها أرضاً زراعية، وثالثها أملاكاً مؤجّرة، ولكن بما أنه كان قد اختبر مقدماً استعدادات كل من أولاده فوجد أن لأحدهم قابلية في العمل التجاري، وللثاني رغبة في الزراعة، وللثالث قابلية في إدارة الأملاك المؤجّرة، فإذا أراد أن يقسم ثروته بين أولاده في حياته فانه - مع الأخذ بنظر الإعتبار مراعاة التساوي في القيمة عند التقسيم- سيمنح أولاده من ثروته كلاً حسب ما وجد فيه من الإستعداد لادارته والنجاح فيه. فالكم غير الكيف والتساوي غير التشابه والتماثل، فإن من المسلم به أن الإسلام لم يمنح المرأة والرجل حقوقاً من نوع واحد ولون واحد لكنه لم يفضل الرجل على المرأة في الحقوق.

لقد راعى مبدأ المساواة في الإنسانية بين المرأة والرجل... الإسلام يقر المساواة بين حقوق المرأة والرجل ولكنه لا يقر تشابه هذه الحقوق.(١)

هذا وقد نشرت مجلة (المرأة المعاصرة) نظرية بروفسور وعالم نفس أمريكي مشهور يدعى (بروفسور ريك) قضى سنوات طويلة في البحث في عادات المرأة والرجل وحصل على نتائج جيدة، وقد نشر في - كتاب ضخم- الفروق بين المرأة والرجل.

---

(١) ينظر: نظام حقوق المرأة في الإسلام: مرتضى مطهري، ترجمة د. ابو زهراء النجفي، نشر آينده درخشان، قم، ط٢، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م: ص١٣١ وما بعدها.

يقول البروفسور: (عالم الرجل يختلف عن عالم المرأة، فإذا كانت المرأة لا تستطيع أن تفكر أو تتصرف كالرجل، فإن هذا يدل على أن لكل منهما عالماً مختلفاً عن الآخر).

ويقول: (جاء في التوراة: "خلق الرجل والمرأة من لحم واحد" نعم، بالرغم من إنهما خلقا من لحم واحد، فإن لهما جسدين مختلفين ومتفاوتين كلياً من حيث التركيب، وبالإضافة إلى ذلك، فإن أحاسيس ومشاعر هذين الموجدين لن تتشابه في أي وقت من الأوقات، ولن يحدث مطلقاً أن يكون لهما رد فعل واحد تجاه الأحداث، والمرأة والرجل - بحكم الإختلاف الطبيعي في الجنس- يتصرفان بنحوين مختلفين، ويتحركان كنجمتين في مدارين متباينين، إنهما يفهمان بعضهما ويكملان بعضهما، ولكنهما لن يكونا شيئاً واحداً أبداً، لذا فهما يتمكنان من العيش سوية، يعشق أحدهما الآخر ولا يمل أو ينزعج من صفاته وأخلاقه).

وقد أجرى البروفيسور ريك مقارنة بين مشاعر كل من المرأة والرجل وسجل الفروق بين الاثنين. ومن هذه الفروق:

* (يمل الرجل البقاء مدة طويلة بجوار المرأة التي يحبها، أما المرأة فليس شيء ألذ عندها من أن تكون دائماً على مقربة ممن تحبه).

* (يحب الرجل أن يكون في كل أيامه على حال واحدة، أما المرأة فتسعى لتصنع من نفسها إنساناً جديداً كل يوم وأن تنهض من فراشها كل يوم بوجه جديد).

* (حين يهرم الرجال يشعرون بالتعاسة لأنّهم قد فقدوا مصدر قوتهم وهو القدرة على العمل، أما النساء المسنات فيشعرن بالرضا، لأن أحسن شيء في نظرهن: بيت وعدد من الأحفاد).

* (النجاح في نظر الرجال هو الحصول على مكانة اجتماعية مرموقة وشخصية موضع احترام كل أصناف المجتمع).

* (والنجاح بالنسبة للمرأة امتلاك قلب رجل والإحتفاظ به طول العمر).

* (ويسعى الرجل لأن يكسب المرأة التي يحب إلى دينه وجنسه).

* (وكما يسهل على المرأة تغيير لقبها بعد الزواج للقب زوجها، كذلك يسهل عليها تغيير دينها وجنسيتها من أجل الرجل الذي تحب).(١)

وكذلك نقلت مجلة (المرأة المعاصرة) بحثاً نفسياً كتبته عالمة نفسانية تدعى (كليف دالسون) تقول فيه:

(باعتباري متخصصة نفسانية فإن أكبر رغبة لدي هي الاطلاع على نفسيات الرجال، وقبل فترة كلفت بعمل تحقيقات حول العوامل النفسية عند الرجل والمرأة، وقد توصلت إلى هذا النتائج:

١- ترغب جميع النساء بالعمل بإمرة شخص آخر. وبتعبير آخر إنهن يفضلن أن يصبحن مرؤوسات بإشراف رئيس.

٢- تحب جميع النساء أن يشعرن أن وجودهن ذو أثر ومحل احتياج). ثم تصوغ هذه السيدة رأيها كما يلي:

(في نظري أن هذين الاحتياجين الروحيين للمرأة ينبعان من أن النساء يجرين وراء المشاعر، والرجال يجرون وراء العقل. وكثيراً ما لوحظ أن السيدات في

---

(١) المصدر نفسه: ص١٩٢ وما بعدها بتصرف.

مجال الذكاء لا يوازين الرجال فحسب، بل يفضلنهم أحياناً. ونقطة ضعف السيدات تكمن فقط في إحساساتهن المرهفة، الرجال يفكرون دائماً بشكل عملي أكثر، كما أنهم يحكمون أحسن، وينظمون أحسن ويوجهون بشكل أفضل، إذاً ففضل الرجال روحياً على النساء أمر خطته الطبيعة. ومهما حاولت السيدات أن يدفعن هذه الحقيقة فلن يجديهن ذلك نفعا، وبما إنهن أكثر حساسية من الرجال، فقد وجب عليهن إذاً أن يتقبلن حقيقة حاجتهن إلى إشراف الرجل عليهن في الحياة... والهدف الأعلى للسيدات في الحياة هو (الأمن). فإذا نلن هذا الهدف ، تركن العمل والنشاط... والمرأة من أجل الوصول إلى هذا الهدف تخشى مواجهة الأخطار. والأعمال التي تحتاج إلى التفكير الدائم تتعب المرأة وتضجرها).[1]

وهناك رأي دقيق للشيخ جوادي آملي في هذا السياق يقول فيه: إن العالم الغربي يقول: ان الإنسان نوعان أو صنفان، امرأة ورجل، ولكنهما متساويان في المسائل التعليمية والتربوية، أي أن المرأة تساوي الرجل، والرجل هو نظير المرأة، وهذا بنحو سالبة بإنتفاء المحمول، أي أن هناك امرأة وهناك رجل، ولكنهما لا يختلفان، ولكن عندما يقول الإسلام: ان الهدف من نزول الوحي هو التعليم والتربية، وتزكية النفوس وتهذيب القلوب، ولا فرق بين المرأة والرجل، فهذا بنحو السالبة بإنتفاء الموضوع، وليس بإنتفاء المحمول، أي أن محور التعليم والتربية هو أرواح الناس، والروح لا هي مذكر ولا مؤنث، وليس في الأمر امرأة ورجل أصلاً، لا أنه هناك امرأة ورجل ولكنهما متساويان – حتى تصبح قضية موجبة- أو أن بينهما فرقاً – حتى تصبح قضية سالبة- لأن صدقها هو بإنتفاء المحمول لا بإنتفاء الموضوع، ان ما يقال: ان الفرق بين الموجبة والسالبة هو في

(١) المصدر نفسه: ص١٩٨.

أن السالبة صادقة بإنتفاء الموضوع أحياناً، يصدق هنا.[1]

وتطرح الدكتورة (آن موار Anne Moir) وزميلها (دافيد جيسيل David Jessel) في كتابهما (جنس المخ Brain Sex) المشكلة التي نشأت نتيجة لإنكار هذه الفوارق الجنوسية، يقول الكاتبان تحت عنوان: معاناة المرأة في العصر الحديث:

(لم يمر على البشرية عبر التاريخ وقت سعت فيه بإصرار الى مخالفة الفطرة الإنسانية والطبيعة البيولوجية كما يحدث الآن في حضارتنا المادية الحديثة. إنه زمان بشع يصارع فيه كل من الرجل والمرأة ضد الفوارق الفطرية الطبيعية بينهما).[2]

وإذا تأملنا أسباب هذه المعاناة وجدنا من أهمها أن المفهوم الذكوري للعمل قد انسحب على مفاهيم كل من الرجال والنساء، حتى أصبح مفهوم عمل المرأة هو (أن تعمل لصالح الغير خارج منزلها ومقابل أجر)، لذلك فبالرغم من الجهد الشاق الذي تبذله الزوجة في بيتها وفي تربية ورعاية أطفالها فإنها إذا سئلت عن عملها قالت على استحياء إنها لا تعمل وإنها ربة بيت. ومع ذلك نجد في أكثر المجتمعات تمسكاً بفكرة التماثل بين الجنسين وإنكار الفوارق الجنوسية (كالدول الإسكندنافية مثلاً) تقسيماً واضحاً للمهام الأسرية، فالمرأة مسئولة في 70٪ من العائلات عن إدارة المنزل ورعاية الأطفال، بينما يضطلع الرجال بتوفير

(١) جمال المرأة وجلالها: الشيخ جوادي آملي، نشر دار الكاتب العربي، بيروت، ط٦، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م: ص٥٥.

(٢) المخ ذكر أم أنثى: د. عمر شريف ود. تبيل كامل، نشر دار نيويورك، القاهرة، ط٨، ٢٠١٧م.

مصاريف الأسرة ومتابعة أعمال الصيانة المنزلية.

وحتى في المجتمعات التي سعت إلى إزالة الفوارق الجنوسية عند تنشئة الأطفال من أجل تحقيق تماثل الجنسين (في مجتمعات الكيبوتسات في إسرائيل) نجد أن مفهوم اختلاف النساء عن الرجال مازال يفرض نفسه على الساحة على أيدي النساء أنفسهن. وإن تسعة من بين كل عشر نساء ممن اخترن القيام بأعمال ذكورية (كقيادة الجرارات) عند بداية حياتهن العملية في الكيبوتسات الإسرائيلية يتركن هذه الأعمال ليقمن بأعمال أخرى تناسبهن بشكل أفضل. وإن محاولات (الهندسة الاجتماعية) لإزالة الفوارق بين الذكور والإناث في هذه المجتمعات لم تبوء بالفشل فقط، بل إنها تركت آثاراً سلبية، فالنساء بعد أن عمِلن في مثل هذه الأعمال ثم فَضّلن العودة إلى الأعمال التي عادة ما تمارسها النساء لم يستطعن التكيف بسهولة مع أعمالهن الجديدة وكن أقل كفاءة وأقل رضا من زميلاتهن اللاتي اخترن من البداية ممارسة الأعمال المناسبة لطبيعتهن. ومازالت المرأة في الكيبوتسات تفضل القيام بأعمال العناية ببيتها، ويرجع ذلك (تبعـًا لاستطلاعات الرأي) إلى أن المنزل بالنسبة لها ليس فندقـًا (كما يعتبره معظم الرجال) ولكنه مملكتها وجزء من حياتها تشعر فيه بالأمان والحب والدفء والمشاركة.[1]

وهذا الذي استعرضناه من الآراء والأفكار عن التساوي والتشابه أو التفرقة بين الرجل والمرأة، فبالرغم من أن مجالات التساوي واضحة وبيّنة، وكذلك مجالات التفرقة. وكلّ بحسب قدراته وطاقاته التي أودعها الله تعالى فيه.

والمرأة من ناحية العقل. وأرى أن المقصود الحقيقي من الصراع الدائر الآن

(١) المصدر نفسه: ص٢٤٧ وما بعدها.

في مسألة التساوي من عدمه، هو في واقعه يرجع الى العقل. وهل أن العقل الذكوري هو فعلاً أرجح وأكمل وأتم منه في العقل الأنثوي، فإذا كان أرجح فستكون من الطبيعي الهيمنة الفكرية والنبوغ في الوعي والقيادة من نصيب الذكر. وهذ الأمر لا يمكن قبوله والرضوخ له لأنه يستتبع عدّة أمور واعتراضات من الناحية المعنوية والناحية العملية. وأما إذا كانت الأنثى أرجح في عقلها أو مساوية للرجل، فإنها في الواقع المعاش نراها قد غبنت في حقها، ولم يصلها منه إلّا النزر القليل، وبقيت السلطة الذكورية هي المهيمنة وهي المتسلطة عليها. وهذا الأمر أيضاً لا يمكن قبوله والتسليم له بهذه البساطة.

وما دمنا لم نصل بعد الى تحليل وتفكيك فكرة وجود العقل لدى الإنسان، وطريقة عمله وتركيبه لدى الرجل والمرأة، سنبقى ندور في خضم حوارات وآراء وفرضيات لا نحصد منها إلّا التخاصم والمشادّة، وقد تصل الى حد المغالات والتطرف.

والآن علينا توضيح الأمر بشيء من التفصيل من أجل الوصول الى مباني نظرية جديدة حول معرفة العقل الذكوري والعقل الأنثوي، يتم من خلالها رفع الكثير من الإشكالات والإعتراضات بهذا الخصوص.

نظرية العقل الواحد والتغير الوظيفي

شغلت المرأة حيزاً من التاريخ الإنساني العام، بحيث كانت لها مساحة شاطرت فيها المساحة التي شغلها الرجال. فمنذ زمن آدم عليه السلام وأمنّا حواء، حيث لا مثيولوجيا ولا خرافات تحكم الأمم البائدة، ثم تسري إلينا بتعاقب الأجيال لتصبح قوالب من السرديات، تعطى كالمغذي في كل عصر بحسب متخيلة وثقافة كل شعب التي تفرضها المنطقة والبيئة عليه.

ولعل من ابلغ سمات التساوي بين الرجل والمرأة هو وجودها الدنيوي المتساوي، حيث لا سبق ولا لحوق، ولا تقدم ولا تأخر، أقدام أربعة قد وطأت الأرض، كلٌّ يمشي الهوينا، وهو يبصر ميدان الحياة الجديدة.

فلا زالت المجتمعات لم توجد بعد، حتى تكون العامل الرئيس في تشكيل الإختلاف بين الذكورة والأنوثة، كما تذهب الدراسات الأنثروبولوجية التاريخية، أو الدراسات الجندرية الحديثة، حيث لا الإنتماءات العقائدية موجودة، ولا الغنى والفقر، ولا الحرية والعبودية، ولا... ولا... ولا... ولا يوجد لدينا مفاهيم لتفكيك البنية الثقافية في ذلك العصر للتوصل الى فهم ظاهرة الإختلاف بين الرجل والمرأة.

فظاهرة الإختلاف التي يحكيها السياق التاريخي الإجتماعي، وما أرسته السلطة باعتبارها هي جوهر الإجتماع، وبواسطتها تبنى أساسيات النظام الذي ينبثق من خلاله القانون، وحينها سيظهر التمييز والتفاضل، وما يسمح وما يمنع به. كل ذلك يجري بحسب المعرفة القَبْلية، بحيث تتشكل السلطة بمفرداتها المتعددة،

كسلطة الثقافة وسلطة الإقتصاد وسلطة الدين، لتجتمع بالتالي مكونة نظاماً سياسياً خاصاً بها، تتم من خلاله إدارة الأمور.

فمن هنا تظهر ظاهرة الإختلاف، ومن هنا تخرج الأيدي والقوى التي ترعاها، لتثبتها في المجتمع.

ولذلك علينا أن نفهم شيئاً مهماً، قد وقع فيه إلتباس عند دارسي وباحثي موضوع الإختلاف، وخصوصاً أعمال ميشال فوكو، وما أتت به التاريخية الجديدة من أبحاث.(١)

وهو أن المجتمع يوجد بوجود أفراده من النساء والرجال، وكذلك بوجود الإختلاف الطبقي واللوني، والإختلاف الديني، والإختلاف بالمستوى المعيشي، والحرية والعبودية الى غيرها من المسميات. هذا طبعاً بإعتبار أنّ الأعم الأغلب من مجتمعاتنا هكذا بنيتها وقوامها.

فمن الخطأ القول بأن مظاهر الإختلاف هذه التي تتولد في المجتمعات، أو قل الأنساق السياسية والإقتصادية والدينية والرمزية وغيرها، تساهم الى حد بعيد في إيجاد الإختلافات في الجسد، بحيث تمارس عليه السلطة والنفوذ والهيمنة، وتحويل ما هو معد لشيء ما الى غيره، لتحدد بالتالي علاقته بالمجتمع أو تنميط دوره فيه، واعتبارها بالتالي – أي الخلافات- كلها متصلة بعضها ببعض إتصالاً لا ينفك عن بعضه، لأنها تخضع للمنطق نفسه، وللأسباب نفسها التي تنتج حالات ومواقف مشابهة فيما بينها كالتهميش والدونية، وجسد مهيمن، وآخر مهيمن عليه،

(١) ينظر: الإختلافات في الثقافة العربية الإسلامية: آمال قرامي، نشر دار المدار الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م: ص١٠.

وجسد مدنّس رجس، وآخر مقدّس طاهر، وهكذا.

فآدم وحواء حين وجدا، وجدا لوحدهما، امرأة ورجل لا غير، مخلوقان في عالم التكوين، وهناك إختلاف فيما بينهما من ناحية الجسد، وقد لاحظا ذلك، وبالتأكيد كانا ملتفتين الى هذا الإختلاف، فلابد حينئذ أن يكون لكل منهما شأن يختلف عن الآخر، فالجسد الأنثوي له خصائصه وميزاته البيولوجية والفسيولوجية، والجسد الذكوري أيضاً له خصائصه وميزاته البيولوجية والفسيولوجية، إختلاف من حيث الفاعل والقابل. ونحن عندما نقرّ تساوي الرجل والمرأة في الإنسانية، هذا لا يعني تماثلهما وتساويهما في جميع الآثار والسلوكيات، فصحيح أنّ النساء والرجال يمتلكون الصفات الإنسانية الأولية كوجود العقل المدرك للكليات والقدرة على التفكير والنطق ومعرفة القبح والحسن، والى غيرها من الصفات التي تتقوم بها الإنسانية، فكل هذه الأشياء هي مشتركة فيما بينهما، ولكن هناك اختلافات وجدت وفرضها وجودهما الطبيعي، من أجل البقاء والإستمرار، وأداء الدور الإنساني بأكمل صورة، وبالإختلاف الموجود بينهما.

ومن هذه الإختلافات وكما قلنا في السابق الإختلافات من الناحية البيولوجية، وأمر هذا الإختلاف، لا يتعدى حال نواميس الطبيعة، فكما إن الإختلاف بين الليل والنهار كوني، ومنذ أن وجدا هو هذا الحال بالنسبة لهما، ولا يمكن أن تتغير هذه السنّة الكونية، فالليل عبارة عن غياب للشمس، ليحلّ الهدوء والسكينة والخلود الى الراحة والنوم، والنهار بشروق الشمس فيه، يكون باعثاً على تفتح الحياة حيث النشاط والعمل. وحينئذ لا يمكن أن تتغير الوظائف، بحيث وظائف الليل تنقل لتكون في النهار، ووظائف النهار تنقل لتكون في الليل.

نعم يمكن احداث تغيير في بعض الأمور، إذا أردنا أن نستخدم القوّة والضغط، أو تغيير الواقع الإجتماعي نتيجة ملابسات خاصة، أو ظروف ضاغطة، ولكن سيكون هناك دمار وخراب للإنسان نفسه، لأنه لن يقاوم ما يخالف فطرته طويلاً، وعندئذ سوف يهلك لا محال.

كذلك الرجل والمرأة كلّ قد زوّد بحسب الخلقة بأعضاء يختلف فيها عن الآخر، فلابد حينئذ يكون لكل عضو أثره في الحياة، ولا دخل للعادات المكتسبة والطبائع، ولا حتى للسلطة أثرٌ في التغيير والتبديل، وإن فعلت فستكون النتائج وخيمة.

فعندما وجد آدم وحواء عليهما السلام لا تزال عملية التنميط والتطبع الإجتماعي غير موجودة، فمثل هذه الأشياء هي والعدم سواء. فهل يبقى آدم ينظر الى حواء مجرد نظرة الإشتراك في هذا الوجود لا غير؟ بإعتبار أنّ التعامل لا زال مجهولاً بينهما، فلا أحد يعرف ما هي وظائفه، وما هي قابلياته، حيث لا تجارب مخزونة، لكي تتولد منها استفادة ومعرفة، ولا هناك معرفة ذاتية آنيّة تعينهم في إنارة الطريق لهم.

ونحن نتكلم الآن عن آدم وحواء بنظرة تجرد عن الخالق – أي وجودهما ليس له إرتباط بالوحي والنبوة- إذن في تلك اللحظات من الذي علّمهما الطريقة التي يتم من ورائها الحمل ومن ثم الإنجاب، وكيف عرفا بأنهما يحتاجان الى الذرية، بل كيف عرفا الباعث والداعي لتشكيل الأسرة ورعايتها والإهتمام بها؟ فهل نقبل بوجهة نظر الإغريق والرومان حيث ذهبوا الى أن إرتباط الرجل بالمرأة أو قل تكوين الأسرة في العالم القديم، كان يمثل رابطة دينية أكثر مما هو رابطة طبيعية أو فطرية، أي أن الزواج من وجهة نظرهم ما هو إلّا مجرد رابطة بين كائنين

في نفس الديانة المنزلية، لكي يولد منهما ثالث جدير بإستمرار هذه العبادة على يديه. وهو ما أضفى بظلاله على مفهوم مهم لكثير من المصطلحات والمفاهيم مثل: العصب، صلة، القربى، حق الإرث، سلطة الرجل (الوصي)، وسلطة الأب على جميع أفراد الأسرة.(١)

فمن أين جاءت الأديان، ومن أين عرفوا نظام العبادة؟ ولا زال فكرَ أول مخلوقين قاصراً عن إدراك تلك الحقائق والمعاني المجردة، إلّا اللهم ان تلك الشعوب بقدمها عرفت بأن أول مخلوق كان يشعر بمسؤوليته تجاه من يعبد! وبذلك سوف تتغير كثير من الحقائق التي يعتمدها ويقرّها علماء الأنثروبولوجيا والاركيولوجيا على حد سواء.

وأما أن نقول أن كلًّا من الرجل والمرأة وجدا في هذا العالم على نحو التفرد والبناء القيمي الشخصي الذي لا يلتقي بالآخر، وهنا أيضـاً ستواجهنا مشكلة وهي أن هناك ثمة لقاء حميمي وودي وإجتماعي بينهما، ولم يفترقا بعده. والدليل ما تم من حمل لأول امرأة من ذلك الرجل الأول. وقد تشكلت الأسرة وتم الإجتماع الودي بينهما.

ثم يا ترى كيف وزّعوا الأعمال بينهما، وعندما كبر بطن حواء كيف عرفا بأنّها حامل وفي داخلها جنين، فهم غير مسبوقين بتجربة كتلك، ولماذا لم يخف آدم عليه السلام من هذا الإنتفاخ الذي حصل لحواء، وهو يراه يكبر يومـاً بعد يوم، وهو بالتأكيد لم يعرف بأن إنسانـاً سيخرج من هذا البطن!

---

(١) ينظر: مقدمة كتاب المدينة العتيقة: فوستيل دي كولانج، ترجمة عباس بيومي بك، نشر المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.

ثم بعد أن جاء لماذا لم يتركانه، وكيف احتضناه، وإن كان ثدي أمّه حواء قد درّ بالحليب وغذّته، من الذي سهر عليه يراعي شؤونه ويقوم بأمره؟ فهذه الأسئلة وغيرها لابد أن يكون لها إجابة ولابد أن يكون في هذا الوضع أمران:

الأول: أن تكون هناك معرفة قَبْلية، قد سبقت وجود آدم وحواء، بحيث استندا واتكئا عليها في معرفة ما يفعلانه، وكيف تقسم الأدوار بينهما، بحيث يؤدي كلّ منهما العمل المناسب له والخاص به، مع وجود بعض الأعمال المشتركة بينهما، لوجود عامل القدرة عندهما لأداء ذلك العمل.

الثاني: وهو وجود الخالق الذي أوجدهم على هذه الأرض، وحينئذ لابد أن يدبر شؤونهم، ويمدّهم بالمعرفة التامّة بما يقومان به، بعد تحديد دور كلّ واحد منهما في هذه الدنيا. وذلك على اعتبار أنّه لم يخلق الخلق عبثاً ولم يتركهم هملا، وهذا طبعاً من باب الرحمة واللطف الإلهي. وعندها سيكون دور كلّ منهما محدداً بأصل الخلقة، ليس أكثر من ذلك ولا أقل.

وبالتأكيد سوف يكون الأول باطل، إذ من غير الممكن لأي إنسان أن تكون له معرفة قَبْلية بالأشياء دون تجربة مستفادة من قبل.

إذن يلزم الأمر الثاني، وهو وجود الخالق البارئ الذي خلق الذكر والأنثى، وهو الذي علّمهما بما يقومان به، وبيّن لكل منهما وظيفته المناسبة لشأنه وخلقه. وهو تعالى الذي أوحى لنبيه آدم عليه السلام ما يجب عليه فعله، وما يجب عليها فعله، وجعل التعاون هو ثمرة هذا الوجود الإنساني.

ولكن تكثر البشرية ووجود الشيطان ونزعة النفس الأمّارة بالسوء، تغيرت عندها كثير من لوازم التربية التي نادت بها أسس الشرائع الحقّة، وتبدلت بحسب

أهواء بني الإنسان، فأختلفت الواجبات والحقوق، وتبدلت كثير من الوظائف، وازداد الظلم وظهرت مفاهيم الدونية والعبودية والإستنقاص والهيمنة، وظهرت المجتمعات البطريركية التي لها بنية إجتماعية تضع الرجال في مكان اعلى من النساء، وفي هذا النظام الأبوي، تجريم ورفض كل ما هو انثوي، أو كل ما يتعارض مع الصورة النمطية للرجال. واستمر هذا الحال حتى عند بعض الفلاسفة المتأخرين، أمثال (نيتشه) و (شوبنهور) حيث يقول نيتشه: (إذا أقبلت على المرأة فلا تنس أن تحمل سوطك). أما شونبهور في كتابه مقال عن النساء فقد قال: (هذا الجنس القميء، ضيق الكتفين، عريض الحقوقين، قصير الرجلين).

والحقيقة ان الله عزّ وجل عندما خلق الإنسان وجعله ذكراً وأنثى، هو من أجل أن يشتركا معـًا في هذا الوجود، لتشكيل صفحة التكامل المراد من وجودهما، ومن ثم تحقيق الهدف من إيجاد هذا الخلق، الذي أخذ المصلحون على عاتقهم ترتيب وتهيئة السبل الكفيلة لإتمام هذا الأمر. فعندما خلق الذكر جعل له مواصفات وسمات وقابليات تناسب شأنه، وتناسب الدور المنوط به، وكذلك في خلقه للأنثى، جعل لها مواصفات وسمات وقابليات تناسب شأنها، وتناسب الدور المنوط بها.

وعلى هذا الأساس هناك أمور مشتركة بين الطرفين يؤديانها بالحد المشترك من القابلية التي منحت لهما، وهناك أيضـًا أمور تخص الرجال دون النساء، لا يمكن للمرأة القيام بها. وأمور تخص النساء لا يمكن للرجال الإتيان بها. فمثلاً لو أتينا على مسألة الحمل عند المرأة فمن الناحية الفسلجية والبيولوجية تكون هي مهيأة لعملية الحمل والإنجاب بشكل كامل، وعند خروج الطفل يحتاج الى نوع من التربية والإهتمام كالإرضاع وغيره. مضافـًا الى ما تفيض به من العاطفة

والحنان، لا يمكن للرجل أن يعيش هذه المراحل، ويؤدي هذا الدور المنمط للمرأة. وذلك لأن الفيض الوجداني والتأثير العاطفي الذي ينبع منها يكون في المستوى الذي يحتاجه الطفل وزيادة، ولم يأت هذا الأمر نتيجة أن المرأة قد تدربت وتهيأت للقيام بهذا الدور، أو حتى أنها تأثرت بنمط بيئي معين بحيث يجبرها بالتالي على القيام به، كما تشير بعض الدراسات الجندرية لذلك.

وإنما المرأة قد زودت بالقابلية المناسبة بأصل الخلقة، أو قل هي لديها الاستعداد الكلي للقيام بهذا الدور، وما أتى هذا الاستعداد من دون وجود قوى مزودة بقابليات لمثل هذا العطاء الزائد من العطف والحنان والإيثار. وأما البيئة والعادات والطبائع التي تنتظم في السلك الإجتماعي العام، فسيكون لها دور الموجه والمعدل للسلوك نتيجة التجربة والتكرار.

فعلى سبيل المثال؛ هناك وجود لخصائص فسلجية في المرأة، تمنحها الرقة والجمال في الغالب، بحيث لا دخل للمرأة في إيجادها، فيكون دور البيئة والمجتمع هو التعديل والترتيب، بحيث إمّا يبرز هذه الصفات والخصال، أو يتسبب في ضمورها، وعدم وضعها في مكانها المناسب، لوجود الظروف القاسية أو الجهل أو التعمد والى غيرها من الأسباب.

أما لو أتينا ونظرنا الى القوة العضلية عند الرجل، وكذلك القدرة على تحمل المشاق والصعاب والمطاولة، فهنا نجد أيضاً هناك بناء فسلجي خاص بالرجل يمدّه بهذه الخصال. وتأتي البيئة والبناء الإجتماعي من تكوين الأسرة واحتياجاتها، ومن ثم القبيلة وعاداتها، والمجتمع وقوانينه، ليعزز هذه الفوارق بين الرجل والمرأة، ليعرف كل منهما ما له وما عليه.

تتولد هذه الأشياء ثم يأتي دور المشرع أو الشريعة منذ بزوغها الأول لتمارس عملية التقنين في تثبيت ما هو صحيح ورفض ما هو باطل، ومن ثم إضافة عوامل التغيير والتعديل في ظواهر وكوامن النفس الإنسانية، وكلّ بحسبه. وهذه الإختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة، هي التي يتولد منها علاقة يكمل بواسطتها كلٌّ منهما الآخر، ليسيرا ضمن التخطيط الإلهي العام لنمو وسعادة البشرية، ولا يمكن أن يتكامل الرجل دون الإرتباط بإمرأة، ولا المرأة لها أن تتكامل دون الإرتباط برجل.

وإن سأل سائل، وقال: فكيف بمريم عليها السلام، فإنها لم ترتبط برجل طول حياتها، وقد نذرت حياتها لخدمة الربّ، وجواب ذلك يكون من عدّة وجوه منها:

١ - إن مريم عليها السلام كان لها حكمها ووضعها الخاص، كونها مصطفاة لهذا الأمر إصطفاءً من بين نساء العالمين، وكما قال تعالى: (إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) سورة آل عمران: ٤٢، فكان اصطفاؤها هو أنها قد أختيرت من بين كل النساء لأن تلد عيسى عليه السلام من غير أب. وعلى هذا الأساس يكون حال مريم عليها السلام مختلفاً تماماً عن نظائرها من النساء الأخريات، وهذا مما يجب أن يكون واضحاً ولا لبس فيه.

٢- إن الطريق الطبيعي لنوع من أنواع التربية والتكامل، هو الإرتباط الشرعي بين الرجل والمرأة، فإن حدثت ظروف معينة قد لا يتمكن من خلالها الرجل من الزواج وكذلك المرأة، ولأسباب قاهرة، لا يمتلك الإنسان قبالها اية إرادة وإختيار، ففي تلك الحالة وكما قيل: (كل ما غلب الله عليه فالله أولى بالعذر) وبما أنّ الله عزّ وجلّ عادلاً وكريماً وجواداً وحكيماً، فلابد من أن يهيء

مقاصد أخرى تكون بديلة عن الأولى، والتي كانت من المفروض أن تُهيأ بالزواج، وهذه الأمور البديلة دائماً ما تكون بالإضطرار ودون الإختيار، وقد تكون في الغالب طرقها وأسبابها التكاملية أصعب وأقهر، وهذا يحدث للتعويض عن أثر الأمر الأولي المباشر وفاعليته الكبيرة في إحداث التكامل الذي يحتاج الوصول الى رتبته جهداً وعناءً أكبر من الأمر الطبيعي.

إذن نتيجة لهذا الرأي يكون هناك تكامل لا يمكن للرجل ان يصل إليه، إلّا بالإرتباط بالمرأة، وكذلك للمرأة تكامل لا يمكن لها أن تصل إليه إلّا بالإرتباط بالرجل، وهذا النوع من العلاقة يعتبر من الآيات الكبيرة لله تعالى في خلقه، التي يبين من خلالها قوّة المودة والرحمة وتأثيرها بين الزوجين، والتي يتم بوجودها إستمرار النوع الإنساني، والحفاظ عليه أخلاقياً وإجتماعياً وصحياً، ضمن إطار عائلي يسمى الأسرة، التي بدورها تشكل النواة الأولى لبناء المجتمع.

ثلاث نظريات عن عقل الرجل والمرأة

- مناقشات وردود -

بعد أن تم التعرض لبعض الإختلافات بين الرجل والمرأة، الآن لنأتي ونتعرض الى أهم مسمى أو مشترك بالإنسانية بين الرجل والمرأة، ألا وهو (العقل) وهل هو مختلف ومتباين فيما بينهما، أم أن عقل الرجل وعقل المرأة متساويان في القوى والإدراك؟ لنتمكن بالتالي من الوصول الى نتيجة تحل من خلالها جميع أو أغلب الإشكالات والإعتراضات التي تطرح من قبل انصار الحركات النسوية التحررية أو من قبل المناوئين لها. ليصبح الأمر واضحاً بالنسبة لهذا الصراع الذي يكاد أن يكون أبدياً، بسبب ما تثيره الشكوك من قبل المعترضين سواء عن قصد أو بدونه. والذي تزداد بسببه المشاكل وتتعقد كثير من الأمور، حتى باتت كثير من الوظائف الطبيعية لكلا الفردين يهتز وجودها الإجتماعي، بسبب محاولات التغيير والتبدل الذي يدعو له اصحاب الجندر/ الجنوسة في المرحلة الراهنة.

والآن لنأتي ونستعرض ثلاث نظريات التي ذكرناها في الفصل الثالث من هذا الكتاب، وكما وعدناكم بأننا سنناقشها ونرى هل تصلح لأن تنهض وتكون قادرة على إعطاء تفسير واضح لمعرفة الإختلاف أو التشابه فيما بين عقل المرأة والرجل، أم لا، نحتاج الى نظرية أخرى تكون صريحة في بيان الإختلاف أو التشابه. والفرضيات الثلاث هي:

النظرية الأولى:

ترى أن المرأة والرجل متساويان في التمتع بالقوى العقلية، وكذلك المقدرة على استخدام هذه القوى في المعاني الثلاثة - العقل العملي- العقل النظري- العقل الآلي- ومع ذلك، وحيث إن النسوة من خلال العلاقات الإجتماعية وعن كثير من المسؤوليات والإهتمامات، فإنهن ضعفن تدريجياً عن استخدام هذه القوى، وفي النهاية، حرمن من قدرة التدبير والإستنتاج. وعلى هذا فإن نقص العقل في النساء ظاهرة إجتماعية وثقافية، وليست ظاهرة تكوينية. ومن هنا، قيل إن الرجال كان لهم دور ظالم في توفير أجواء غير ملائمة من أجل نمو عقل النساء. وعلى هذا، فإن تغيير الظروف والعلاقات الإجتماعية يمكن أن تسد هذا النقص.

وقد قالوا في توضيح وجهة النظر هذه: إنه في المجتمعات البدوية التي كانت المنتوجات الزراعية متوفرة حول بيوتها، كان بإمكان المرأة والرجل جمع المواد الغذائية بصورة مشتركة، وحيث إن المرأة كانت تتولى مسؤولية الولادة وتربية الأولاد، فإنها لم تتمكن من الإبتعاد عن منزلها للقيام الى جانب زوجها بمهنة الصيد. فالحاجة الى الصيد بصورة أكبر جعل الرجال يقومون بالبحث عن أدوات للقيام بهذه المهمة، وبذلك تم تقسيم العمل بصورة تدريجية في الحياة العائلية والإجتماعية. فالمرأة إنصرفت لوظيفتها الخطيرة والحساسة والبنّاءة، ولكن الرجل تعلم أساليب جديدة تتضمن الخديعة في زحمة المجتمع، كما تعلم المكر والإحتيال. وحيث إن المرأة كانت قليلة الحضور في داخل المجتمع والسوق والحرب، فإنها بالمقارنة مع الرجل كانت أقل إطلاعاً. إذن فبعيد عن المنطق اعتبار هذا دليلاً على ضعف قدرة عقل المرأة.[1]

---

(١) ينظر: شخصية المرأة؛ محمد تقي سبحاني، مصدر سابق: ص٢٤٦.

والآن يمكن الرد على هذه النظرية بما يلي:

١- إذا كانا المرأة والرجل متساويين في التمتع بالقوى العقلية، وكذلك المقدرة على استخدام هذه القوى في العقل العملي – والعقل النظري- والعقل الآلي الأداتي- فحينئذ على هذا العقل أن يعمل بمقتضى الطاقات والقوى التي يحملها. ولن تستطيع العلاقات الإجتماعية أو كثرة المسؤوليات والإهتمامات من إضعاف القوى العقيلة فيهن، وذلك لأمر بسيط وهو؛ لو رفعت عن المرأة تلك المسؤوليات والإهتمامات والإنشغال بأمور الأسرة أو تربية الاطفال، أو السماح لهن بالقيام ببعض النشاطات الخاصة بالرجال، فهل حينئذ تتمكن من مساواة الرجل على سبيل المثال في القدرة على القيادة وتحمل القرارات الصعبة أو إيجاد الحلول الفلسفية المعمقة والخوض في المجالات الفكرية الدقيقة، أو هل تتمكن من القدرة على تجاوز لحظات الخوف والفزع بثبات وصلابة، وهل تتمكن من تجاوز العواطف والمشاعر حين نزولها، بإستخدام قوّة العقل فقط؟ فالتجارب والمحيط الذي نعيشه يجيبنا بعدم قدرتهن على الوصول الى مثل هكذا نتائج، وحتى لو وجدت عند بعض النساء، فإنها حالات نادرة ولا يمكننا التعميم.

إذن هذه النظرية لا تصلح، ولا تستطيع الثبات، لأننا من المفروض نتكلم عن وقائع واقعية وحقيقية، تمثل مفردات لها بعدها الحركي داخل المحيط الإجتماعي الذي يؤثر على وظيفة كل من الرجل والمرأة، بما يتلاءم مع استمرار هذا الوجود بشكله المعهود، ولا نتكلم عن أحلام وفرضيات قد تؤطرها لنا تصوراتنا أو أحلامنا في عالم الذهن، لنشكل منها أموراً واقعية، وهي في الحقيقة تشكل عالم إفتراضي يحركه الجانب الذاتي لا غير.

٢- إن الله تعالى عادل ولا يضع الأشياء إلّا في مواضعها، وحينئذ لا يمكن أن يعطي للمرأة عقلاً له من القابليات والقوى الكثيرة ثم يحجب عنها هذه الإمكانات العقلية بسبب أنها قد تعطلت لعدم قدرة المرأة على إستخدامها، بسبب الواقع والضغوط الإجتماعية المفروضة عليها منذ بدء البشرية والى وقتنا الحاضر والى المستقبل، بإعتبار أن الدلائل كلّها تشير الى هذا الأمر، كونه مناسباً جداً مع ما تريد الطبيعة، وسجية وميول كل من الرجل والمرأة من الناحية العملية.

وعلى هذا كان من الطبيعي وضمن عدالة الله تعالى أن يعطي المرأة عقلاً يناسب واقعها الإجتماعي حتى تتمكن من الحياة بشكل طبيعي، ولا تتعرض لأي قهر وإضطراب نفسي، بسبب عدم قدرتها من استغلال عقلها بشكل كامل، والإنطلاق بقدراتها العقلية في مجالات أوسع وأرحب، وهذا الأمر غير مقبول لأننا من المفروض، نبحث عن شيء نستدل به على تساوي القدرات العقلية بين الرجل والمرأة، وهذا الأمر بحسب هذا الفرض مفقود هنا.

النظرية الثانية:

حاصل هذه النظرية أن المرأة والرجل متساويان في قوّة العقل، ولكن بسبب غلبة العواطف الضرورية للحياة الزوجية، والقيام بدور الأم والزوجة، فإن مجال التعقل عند المرأة هو أقل فعالية بالمقارنة مع الرجل. وعلى هذا فإن المرأة والرجل يتمتعان بالعقل بصورة متساوية، ولكن العواطف القوية للمرأة تمنعها في بعض الأحيان من استخدامها للعقل. في هذا المجال، وفي قضية شهادة المرأة، فإنه بسبب اعتماد المرأة على العاطفة كثيراً، وذلك يمكن أن يمنع المرأة من اتخاذ موقف صحيح، فإن انضمام شاهد آخر يؤدي الى الإطمئنان. وطبقاً لوجهة النظر

هذه، لو أن المرأة تمكنت من كبح عواطفها، فإنها سوف تستخدم قواها العقلية بصورة متساوية مع الرجل.

وجهة النظر هذه تختلف عن الأولى القائمة على تفاوت المرأة والرجل في التكوين وتؤيدها، وتعتقد أن الوضع الطبيعي للمرأة والرجل يؤدي الى تأثير العواطف عند المرأة على نشاطها العقلي.[1]

ويمكن الرد على هذه النظرية بما يلي:

حسب هذه النظرية فإن العاطفة هي الحاكمة والمسيطرة على العقل، وعلى هذا الحال يصبح العقل أسيراً لها، وهذا يعني أننا متى ما رفعنا هذه العاطفة وقوتها عن المرأة، استطاعت أن تستخدم عقلها بعيداً عن العاطفة، وحينئذ كيف ستتعامل مع وليدها وتربيتها لأطفالها، أو حتى في تعاملها مع زوجها، بل أن هناك الكثير من الباحثين والمتخصصين يذهبون الى أن الجزء الأكبر من جمال المرأة وأنوثتها هو متعلق بعاطفتها ومشاعرها، ومع هكذا فرض، هل تبقى المرأة هي المرأة، التي يرغبها الرجل، وأرادتها الطبيعة أن تكون عليه، من أجل التعامل مع المعطيات في هذه الدنيا بالشكل السليم، والذي تحتاج كثير من أدواره المهمة الى تحرك العاطفة بإتجاهه، حتى أنها أصبحت من العلل والأسباب الرئيسية في الحفاظ والبقاء على النوع الإنساني.

إذن العاطفة شيء أساسي زرعه الله تعالى في المرأة وهي كمال وزين لها، وليس نقص، وعندها سيكون من كمال العقل أن يتجاوب في تعامله مع تلك الخصلة الموجودة في النساء، لا أن تصبح العاطفة مانعة له من اظهار طاقاته وقوّاه

---

(١) شخصية المرأة، مصدر سابق: ص٢٤٨.

ولو كانت العاطفة تقف عائقاً في طريق العقل، وتمنعه من استخدام ما يملكه من قوى وطاقات، إذ كيف نجد كثيراً من النساء الناجحات في حياتهن الزوجية، وقد أدّن دور الأم والزوجة، وجميع العلاقات الإجتماعية التي تطفو على سطحها العاطفة بنجاح كامل. ومع ذلك لم يؤثر ذلك على نشاطها ونتاجها الفكري والعلمي، ونراها قد تغلبت في كثير من الأحيان على الرجال من دون أن يوجد أي خلل وتقصير من ناحية العاطفة المحمودة لنجاح النشاطات والأمور التي ترتكز عليها.

النظرية الثالثة:

المرأة والرجل ليسا متساويين في القدرات العقلية. وحيث إن المرأة قد اختيرت للقيام بنشاطات خاصة، طبقاً لمقتضيات الحكمة، فإنها ليست بحاجة الى الاستفادة من قابليات عقلية مساوية، فإن التفاوت العقلي بين المرأة والرجل قابل للتصور في ثلاثة مراتب العقل الأداتي والعقل النظري والعقل العملي، ويجب دراسة كلّ منها على حده.[1]

إذن على مبنى هذه النظرية يكون التفاوت العقلي بين المرأة والرجل ذو منشأ طبيعي، وهناك تباين في مدى الفائدة من القوّة العقلية، ومن الذين يذهبون الى هذه النظرية العلّامة الطباطبائي فهو يقول: مع وجود العوامل المشتركة المذكورة في وجودها تختلف مع الرجال من جهة أخرى، فإن المتوسطة من النساء تتأخر عن المتوسط من الرجال في الخصوصيات الكمالية من بنيتها كالدماغ والقلب

(١) شخصية المرأة، مصدر سابق: ص٢٤٩، نقلاً عن الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٨، ص١٨، وينظر محمد تقي جعفري، ترجمة وشرح نهج البلاغة، ج١١، ص٢٩٠-٢٩٩، وعبد الله جوادي الآملي، المرأة في مرآة الجلال والجمال، ص١٨٥.

والشرايين والأعصاب والقامة والوزن على ما شرحه فن وظائف الأعضاء، واستوجب ذلك أن جسمها ألطف وأنعم، كما أن جسم الرجل أخشن واصلب، وأن الإحساسات اللطيفة، كالحب ورقة القلب والميل الى الجمال والزينة أغلب عليها من الرجال، كما أن التعقل أغلب عليه من المرأة، فحياتها حياة إحساسية، كما أن حياة الرجل حياة تعقلية.(١)

ويمكن الرد على نظرية عدم التساوي بما يلي:

في الحقيقة لا يمكن قبول هذه النظرية أو هذه الرؤية بهذا التفسير، وذلك بإعتبار وجود عدّة شواهد إحتفظ بها التاريخ الإنساني الطويل، وما تختزنه ذاكرة الأفراد، وما هو معاش فعلاً الآن، وما نراه ويتداول ضمن صفات حياتنا اليومية من وجود دلائل تعاكس مسألة التفاوت العقلي بين الرجل والمرأة، فإذا كان العقل الذي زودت به المرأة قد خلق بشكل يناسب نشاطاتها الخاصة، وما زاد عنها فلا حاجة بتزويدها بقوى عقلية أكبر، بحيث تكون فائضة عما وجدت من أجله، وفي الطرف المقابل زود العقل الذكوري بقابليات سعتها أكبر بكثير من سعة وقابليات العقل الأنثوي، بإعتبار ان فعالياته ونشاطاته أكثر بكثير من المرأة. فإننا نشاهد العديد من النساء قد أبدعن في مجالات هي بالأساس خارج تخصصهن ونشاطاتهن اليومية – الأسرية والإجتماعية- إذ أنه من المفروض أن تحصر عقولهن بهكذا نشاطات معروفة ومألوفة لدينا – أو هي قد زودت بقوى عقلية تناسب هذا المقدار ليس أكثر ولا أقل- ولكننا نرى ابداعاتهن في زوايا فكرية وعقلية صرفة، كنيل مراكز علمية مرموقة، والوصول الى أعلى المراحل الدراسية والأكاديمية العالية، مضافاً الى أننا نجد لبعضهن أدوار فاعلة في إيجاد حلول

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٢، ص٢٧٥.

وأفكار قد خدمت بواسطتها البشرية، لا بل هناك أدوار قد أدتها النساء على طول خط البشرية الطويل يعجز الرجال عن القيام بها، إن لم نقل قد إنحصر الدور في تأدية تلك المهمات بالمرأة دون الرجل. بالرغم من أن تلك الأدوار خارجة أصلاً عن تخصصهن ونشاطاتهن الإجتماعية، وقد مارسن أخطر الأدوار التي قد يتعرضن بسببها الى الهلاك والفناء.

وكمثال على ذلك ما قامت به كل من هاجر أم النبي إسماعيل عليهما السلام، وما قامت به أم موسى وأخته وآسيا زوجة فرعون في الحفاظ على حياة موسى عليه السلام، وكذلك ما قامت به مريم عليها السلام، وما قامت به خديجة وفاطمة الزهراء وزينب بنت علي صلوات الله عليهن أجمعين، فهذه كلها دلائل على عظمة تلك النساء وعظمة عقولهن، بحيث تحملن تلك المسؤوليات الصعاب التي يهتز أمامها الأعاظم من الرجال. فيا ترى من أين جئن بتلك القدرات العقلية، التي هي من المفروض أن تكون أكبر من تلك القدرات العقلية التي وضعها وأرادها أصحاب هذا الرأي؟

إذن هذه النظرية أيضاً لا تصلح ولا تنهض لإعطاء تفسيراً أو بيان الفارق أو التساوي بين عقل المرأة وعقل الرجل.

نظرية (أوتو فيننجر) عن الذكورة والأنوثة

للألماني (أوتو فيننجر) رأي حول الذكورة والأنوثة يذكره في كتاب (الجنس والأخلاق) ومجمل هذا الرأي: أنه لا ذكورة ولا أنوثة على الإطلاق، وإنما هي نسب تتألف وتتخالف على مقاديرها في كل إنسان، ولا عبرة فيها بظواهر الجوارح والأعضاء، فإذا فرضنا مثلاً أن صفات الذكورة مائة في المائة، فأين هو الرجل

الذي تتم له المائة جميعها، بلا زيادة ولا نقصان، وتتآلف ذرات تكوينه واحدة واحدة بلا نشوز ولا إنحراف؟ وكيف تجتمع له هذه الصفات المتفرقة بحيث لا تتخلف صفة، ولا تحمل واحدة محل الأخرى؟ وكذلك النساء أين منهن المرأة التي هي مثل أعلى لجنسها، جامع لكل ما هو نسائي في الجمال والعقل والعاطفة والأعضاء والهندام؟

إن هذا الإتفاق لا يجيء به الواقع، لأن التمام من وراء ما يبلغه الإنسان أو كائن سواه في هذه الحياة، ولكنها أمور نسبية تدخل فيها صفات الرجولة والأنوثة، كما تدخل فيها صفات سائر الأشياء، فليس في الدنيا رجل هو الرجولة كلها، وليس في الدنيا امرأة هي الأنوثة كلها. وهيهات أن تقع على إنسان فيه كل صفات جنسه في جميع أخلاقه وأطواره، كما تقع كل يوم على قطرة ماء فيها كل صفات المائية التي لابد منها لتكوين كل قطرة، فإن العناصر هنا مقيدة محدودة، أما عناصر الطبائع والأخلاق والمواهب والأجسام فمما لا يقيده الحد ولا يحدّه التقدير، وعلى هذا يحب الرجل المرأة أو تحب المرأة الرجل على حسب ما بينهما من التوافق والتباين في تلك العناصر والصفات، فالرجل الذي فيه ثمانون في المائة من الرجولة وعشرون في المائة من الأنوثة، تتمّمه امرأة فيها ثمانون في المائة من الأنوثة وعشرون في المائة من الرجولة، ويجوز على هذا أن توجد امرأة ليس لها من جنسها إلّا ظواهره، فتكون هي التي فيها الثمانون في المائة من الرجولة، وهي التي تنشد الرجل الذي فيه عشرون في المائة من صفات جنسه، ومن هنا تنشأ الميول الشاذة في الجنسين وتنبو الطبائع عما خلقت له في سواء التكوين.»[1]

---

(١) فلسفة المرأة: عباس محمود العقاد، نشر دار فوارس، القاهرة، ط١، ٢٠١٦م: ص١٢٣ وما بعدها.

ويمكن الرد على هذه النظرية بما يلي:

عندما يولد الإنسان فأمّا أن يكون ذكراً وأمّا أن يكون أنثى، فإن كان ذكراً فقد حمل كل مقادير الذكورة معه، ويكون مستعداً لها بالقوّة، حتى تكتمل شيئاً فشيئاً لتصل الى مقام الفعل. وكذلك الأنثى تولد وهي مكتملة ولديها مقادير الأنوثة كلها. فيكونان مستعدين فطرياً ليؤدي كلّ منهما دوره الطبيعي في الحياة. وهذا الجانب يسمى بالجانب الوراثي لهما، فهما من هذه الناحية قد ورثا كل صفات ومميزات الذكورة والأنوثة بيولوجيا، ولا يوجد أي نقص في هذا الجانب. فالإنسان يولد أمّا ذكراً، فيكون بايولوجيا قد حمل صفات الذكورة مائة بالمائة، وأمّا أنثى فتكون بايولوجيا انثى مائة بالمائة.

ثم بعد دور الوراثة يأتي دور البيئة وما تقدمه من طرق وآليات تربوية، وذلك لأن الإنسان يتقوم بمؤثران في حياته، الأول؛ الوراثة وهو الذي يحمل بواسطته كل مقوّمات الذكورة، إذا كان ذكراً، وكل مقوّمات الأنوثة إذا كانت أنثى. ليأتي بعده دور البيئة والتربية وتنشئته الإجتماعية التي يتحمل محيطه الخارجي هذا الدور. والذي تمثله الأسرة ورعاية الأبوين، والمدرسة، وجماعة الأقران، والمؤسسات التعليمية الأخرى، مضافاً الى العادات والطبائع العامة للمجتمع. وهنا سيختلف الأمر عمّا كان عليه في الجانب الوراثي، حيث لا تأثيرات خارجية على هذا الجانب، ففي الجانب التربوي ستتغير اشياء، وتثبت أشياء، حسب نوع التربية وتأثيراتها على الذكر والأنثى. فهنا ممكن أن تتغير طبائع ويكتسب الفرد عادات وتصرفات مرغوبة ومتناسقة مع خلقته، أو يكتسب طبائع وعادات غير مرغوبة، وهنا تظهر الجوانب النسبية في مضمار التربية، فقد يبقى الذكر سائراً في طريق تربوي متكامل، ينمّي من خلاله ما ورثه من ذكورة ولادية، وبشكل نموذجي،

فيصبح والحال هذه ذكراً يحمل صفات الذكورة مائة في المائة، وكذلك الأنثى إذا ما سارت سيراً طبيعياً في طريقة تربيتها، فإنها ستحمل صفات الأنوثة مائة في المائة.

وأنا أقصد هنا بالتربية النموذجية من جميع النواحي الفكرية والعقائدية وثقافة الجسد، وأبعادها العملية في المحيط الإجتماعي والإنساني بشكل عام.

وكلما قلت سبل وطرق التربية عن مستواها المطلوب، أو كانت طرق تربوية منحرفة، قد تظهر بالأفق الذكوري والأنثوي أنماط سلوكية وفكرية تقل من خلالها نسبة الذكورة عند الذكور، ونسبة الأنوثة عند الإناث، وقد تظهر صفات أنثوية مكتسبة عند الذكور، وصفات ذكورية مكتسبة عند الإناث، وتكون مقادير هذه النسب حسب شدّة المؤثر الذي يقع في البعد التربوي.

وهذا النوع من التأثير والتأثر في صفات الذكورة والأنوثة من ناحية الزيادة أو النقصان، أما أن تكون نتائجه مضمرة وكامنة عند الفرد، وقد لا يشعر بها إطلاقاً، أو قد تكون ظاهرة في بعض الأحيان عن طريق بعض التصرفات والإجراءات السلوكية في الميدان الإجتماعي، وبحسب النسب التي تأثر بها الفرد سواء كان أنثى أو ذكراً.

وهنا نريد أن نقول إذا ولد ذكراً، وهو كامل الذكورية من ناحية الوراثة وفي بعده البيولوجي، ومن ثم تربى في بيئة صالحة من جميع النواحي الفكرية والأخلاقية والعقائدية والنواحي الإنسانية الأخرى فإنه سيكون ذكراً يحمل صفات الذكورة مائة في المائة ولن تختفي أية صفة من صفات الذكورة عنه. وعندها سيكون إنساناً كاملاً قد جمع صفات جنسه، وهذا يمكن أن نستشعره

ونلمسه في أوضح صوره عند الأنبياء والأئمة والصالحين والأمثل فالأمثل، ليكون بالتالي مثلاً أعلى لجنسه، ليسعى الآخرون في الوصول إليه بالمقدار المحتمل. وكذلك هذا الأمر يكون مع الأنثى، إذا ما حصلت على تربية نموذجية وصالحة من جميع الجوانب، فإننا سنرى الأنثى الكاملة مائة في المائة، ويمكن أن نلحظ ذلك في النساء الصالحات في التاريخ وكذلك المثلى فالمثلى، وقد جمعت صفات جنسها، ولتكون بالتالي مثلاً أعلى لجنسها.

وهذا هو المعنى الدقيق لتساوق الإنسان مع الكون الكبير ومفردات الطبيعة التي فيه، بحيث كما أن قطرة الماء، قد حملت كل صفات المائية التي لابد منها لتكوين كل قطرة، كون عناصرها قد قيدت فيها، فكذلك سيكون هناك ذكراً إنساناً كاملاً، قد وجدت فيه كل عناصر الطبائع والأخلاق والمواهب والأجسام، لتتحد وتتقيد في الإنسان الكامل، الذي يكون وجوده مساوقاً لموجودات الكون الأخرى. وكذلك بالنسبة للأنثى الكاملة.

أمّا مسألة حب الرجل للمرأة أو حب المرأة للرجل، فليس له علاقة بحسب التوافق والتباين في تلك العناصر والصفات المفقودة أو المكتسبة، ولا لها علاقة بكبر أو صغر النسبة والتباين، وإنّما طبيعة الذكورة المائة في المائة، هي تميل للأنثى، وكذلك طبيعة الأنوثة المائة في المائة هي تميل للرجل، وكلما كانت نسبة الذكورة عالية لدى الرجل، ونسبة الأنوثة عالية عند المرأة، زاد التوافق والتفاهم والإبداع فيما بينهما.

ثم هناك أمر آخر مهم وهو؛ ما وجد شيء في هذا الوجود إلّا وقد استكمل عناصر ومقومات وجوده، فكما أن الكواكب والتراب والماء والهواء والأشجار والأحجار والى غيرها من المخلوقات والكائنات الأخرى قد أدت دورها

الوجودي كاملاً، حتى ولو بالإضطرار، فكذلك الله تعالى ما خلق الذكر والأنثى ليوجدا ناقصي المقادير[1]، وإذا كان هناك نقص بهما، فحينئذ لن نسمي أحدهما ذكراً والآخر أنثى، بإعتبار عدم إكتمال مصداق الذكورة والأنوثة فيهما.

والآن بعد أن عرضنا، عدد من النظريات حول مسألة العقل وتساوي المرأة مع الرجل فيه، أو عدم التساوي والإختلاف، ورأينا كيف أنها لا تنهض في تفسيراتها لهذه المقارنة، أو إيجاد التعاليل التي يعمل كلاهما فيها. فسوف نعرض وجهة نظرنا في هذه المسألة عسى ان تكون مباني لنظرية جديدة نسميها (نظرية العقل الواحد والتغير الوظيفي) لنتقدم خطوة يرفع من خلال فهمها كثير من الإشكالات حول التمايز والفروق بين الذكر والأنثى، ولماذا يعمل كلّ منهما بهذا المستوى المعهود، ثم لنرى بعدها هل يحق لأهل (الجندر/ الجنوسة) المطالبة بالتساوي والتشابه، وتعليل الإختلافات بين الرجل والمرأة الى التنشئة الإجتماعية وتنميطاتها الثقافية، ولا دخل للولادة الذكورية أو الأنثوية في ذلك.

والآن لنبين وجهة النظر هذه:

في الرجل والمرأة يوجد التباين والإختلاف من جهة، وهذا ينبغي أن يكون واضحاً ولا يختلف عليه أحد، وكذلك يوجد الإتحاد والتساوي من جهة أخرى، حيث يتساوى الإثنان فيها من حيث العطاء الإلهي. ومن جملة هذه الأمور

---

(١) نحن هنا لا نقصد مثلاً من يولد وهو فاقد لأحد أعضاء الجسد – من ذكر أو أنثى– بل نتكلم عن العقل والروح، بما هما مودعان في جسد ذكوري أو جسد أنثوي. فبالعقل والروح يسمو الإنسان، وليس بأعضاء جسده فقط، فهذه الأعضاء قد يكون بعضها في ظروف طارئة مفقوداً عند الإنسان، ولكنه على كل حال يبقى إنساناً ولا يتحول الى مخلوق آخر.

(العقل)، فلا إختلاف بين العقل الذكوري والعقل الأنثوي، وإنّما العقل واحد ويعطى لكل منهما بالتساوي، ولكن العقل نفسه سيحكم بعدها بالإختلاف فيما بين الجسدين، وسيقر ويختار الوظيفة المناسبة له، بحسب قابلية الجسد المودع فيه، أو الممنوح له، سواء كان جسد أنثى أو كان جسد ذكري، وهذا الأمر في غاية الأهمية، وعلينا الإلتفات إليه بجد، لأنه سيحل لنا الكثير من الإشكالات والتساؤلات. حيث سيتعامل العقل بالمؤهلات والاستعدادات الماثلة أمامه لا غير، ولن يطلب المزيد، لأنه قد عرف المساحة التي يتحرك من خلالها فهو محدود بها ولا يستطيع التجاوز عنها. وإن حاول أن يتحرك بقابلية الآخر، واستعداده الممنوح له، فهنا سيصبح خلل واضح في البنية التركيبية للفرد نفسه وللمجتمع، من ناحية العادات والطبائع، أو من ناحية الوظائف المعرفية والعملية لكل منهما.

ولتوضيح هذا المطلب بشكل أوسع:

ما دام الإختلاف والتباين الجسدي موجود، فلابد من وجود وظائف تتنوع بإختلاف النواحي الجسدية، ولابد أن تكون وظيفة العضو الذكري المختلف عن العضو الأنثوي، هي أيضاً مختلفة، وإلّا لما كان أصلاً مسوغ لوجود هذا الإختلاف.

وهذا الإختلاف الجسدي الموجود بين الطرفين لابد أن يهيء أسباباً لأحدهما دون الآخر، يتمكن من خلالها للإنطلاق بمساحة تناسب ما وجد من أجله، ذاك البناء البيولوجي المختلف عن الآخر، بإعتبار أن العضو البيولوجي عند الأنثى لا يتمكن من التحرك بنفس مساحة ذلك العضو عند الذكر.

فالعقل بما هو عقل يدرك تمام الإدراك وهو عند المرأة بأنه قد جعل في جسد أنثوي يحمل من صفات الجمال الأنثوي ما يحتاج الى عناية خاصة وتفكير يناسب الرقة التي تحملها المرأة فهناك صوت رقيق وجسد ناعم وشعر طويل وجمال وجه أخاذ، وهناك دفء عاطفي، وجسد مزوّد بوسائل الإنجاب والإرضاع. فهنا العقل أمام مفردات عليه أن يتعامل معها بذكاء، وعليه أن يعرف كيف يستغلها الإستغلال التام، حتى يتم الصعود والتكامل من خلال هذا الجسد، وعليه أن يركز بوظائفه المناسبة لهذا التركيب، وهنا عليه قصر النظر على واجباته وحقوقه ويدع النظر لجسد الرجل، لأن هناك عقل غيره بنفس مستواه قد كلّف بقيادة ذلك الجسد والتعامل معه حسب مفرداته، فكما أن عقل الرجل يهتم بما يحتاجه الرجل ويقصر النظر على ذلك، فكذلك العقل الأنثوي يقصر نظره على جسده.

ولكي نثبت أن العقل واحد علينا أن نرجع الى النص والخطاب الديني الذي يتوجه الى العقل، ولنرى هل ميّز بين العقل الذكوري والعقل الأنثوي، بحيث أعطى وبين لكل منهما خصائصه وسماته، وسعة الفهم لديهما، أم كان الخطاب واحداً، وهو موجه بهذه الأحادية الى كل من الرجل والمرأة، وهنا سنختار عدّة نصوص دينية لنثبت ذلك علمياً:

اولاً: القرآن الكريم:

١- (كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) سورة البقرة: ٢٤٢.

٢- (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) سورة الأنعام: ٣٢.

٣- (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) سورة يوسف: ٢.

٤- (وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) سورة المؤمنون: ٨٠.

٥- (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) سورة الملك: ١٠.

٦- (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) سورة البقرة: ١٧١.

٧- (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ) سورة الأنفال: ٢٢.

٨- (وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) سورة العنكبوت: ٣٥.

هذه بعض من آيات القرآن الكريم، وواضح أن متعلق الخطاب هو العقل الإنساني الواحد، ولم يميز فيه بين العقل الذكوري أو العقل الأنثوي، فالكلام موجه فيه الى الإثنين بالتساوي كما هو واضح.

ثانياً: نصوص الأحاديث والروايات:

وهي كثيرة جداً وسنختار منها ما يلي:

١- عن أبي جعفر عليه السلام قال: (لما خلق الله العقل(*) استنطقه ثم قال له: أقبل فأقبل ثم قال له: أدبر فأدبر(**)، ثم قال: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحبّ إلي منك ولا أكملتك إلّا فيمن أحبّ، أما إنّي إيّاك آمر، وإيّاك أنهى، وإيّاك أُعاقب، وإيّاك أثيب.(١)

ولو وقفنا عند هذا الحديث فسنجد فيه الدلالة واضحة على التعامل مع

(*) إن العقل هو تعقل الأشياء وفهمها في أصل اللغة، واصطلح إطلاقه على أمور:
الأول: هو قوة إدراك الخير والشر والتمييز بينهما والتمكن من معرفة أسباب الأمور وذوات الأسباب وما يؤدي إليها وما يمنع منها. والعقل بهذا المعنى مناط التكليف والثواب والعقاب.
الثاني: ملكة وحالة في النفس تدعو إلى اختيار الخيرات والمنافع، واجتناب الشرور والمضار.
الثالث: القوة التي يستعملها الناس في نظام أمور معاشهم، فإن وافقت قانون الشرع واستعملت في ما استحسنه الشارع تسمى بعقل المعاش وهو ممدوح، وإذا استعملت في الأمور الباطلة والحيل الفاسدة تسمى بالنكراء والشيطنة في لسان الشرع.
الرابع: مراتب استعداد النفس لتحصيل النظريات وقربها وبعدها عن ذلك، و أثبتوا لها مراتب أربعة سموها: بالعقل الهيولاني، والعقل بالملكة، والعقل بالفعل، و العقل المستفاد.
الخامس: النفس الناطقة الانسانية التي بها يتميز عن سائر البهائم.
السادس: ما ذهب إليه الفلاسفة، من أنه جوهر قديم لا تعلق له بالمادة ذاتاً ولا فعلاً. (مرآة العقول للمجلسي)

(**) الأمر بالإقبال والادبار يمكن أن يكون حقيقياً لظهور انقياد الأشياء لما يريده تعالى منها. وأن يكون أمراً تكوينياً لتكون قابلة للأمرين، أي: الصعود إلى الكمال والقرب والوصال، و الهبوط إلى النقص وما يوجب الوبال. (مرآة العقول للعلامة المجلسي)

(١) الأصول من الكافي: أبي جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني الرازي (ت ٣٢٨/ ٣٢٩هـ)، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، نشر دار الكتب الإسلامية، طهران، ط٣، ١٣٨٨هـ: ج١، ص١٠.

العقل الإنساني على أنه واحد، ولا يقبل الإثنينية، ثم التفرقة والإختلاف بين الذكر والأنثى، فلقد كان المخاطب واحد؛ فأنظر الى تلك الخطابات:

١ -. خلق الله تعالى العقل واستنطقه – ولم يقل استنطقهما-

٢- قال له أقبل؛ والنتيجة امتثل الأمر عقل واحد (فأقبل) – ولم يقل فأقبلا-

٣- قال له أدبر؛ والنتيجة امتثل الأمر عقل واحد (فأدبر) – ولم يقل فأدبرا-

٤- لم يقل: ما خلقت خلقاً أحبّ إليّ منكما، وإنّما قال: أحب إلي منك.

ثم انظر الى هذا الخطاب الموجه للعقل الواحد: أما إني إيّاك آمر – وإيّاك أنهى- وإيّاك أعاقب- وإيّاك أثيب. ولم يقل: إيّاكما آمر وإيّاكما أنهى و... وفي ذلك دلالة أخرى، وهي مهمة جداً، لأن فيها إشارة واضحة على أن العقل قد خلق ليطيع الله تعالى في أي موقف، وفي أي مكان وضع. فهو سيعمل ضمن المحيط المعطى له، وقد زود بالقابليات والمؤهلات التي يتمكن من استغلال محيطه بالشكل الصحيح سواء كان هذا المحيط جسداً أنثوياً أو كان جسداً ذكورياً، فكلا الجنسين فيهما مساحة الطاعة والعمل مفتوحة، ولن يبرح ويغادر قابليات الجسد الذي اختاره الله تعالى ليضعه فيه. لأنه يعلم بالتالي أن ذلك الجسد يتحرك بقابليات تناسب شأنه، ولن يفلح العقل فيما إذا أراد أن يستخدم طاقات أعلى من حدود الجسد المودع فيه، تماما كما أن الروح لها قابليات وطاقة لا تهرم أو تشيب بمرور الأيام، ولكن الجسد عندما يكبر ويهرم يصبح عاجزاً عن تلقي حركة ونشاط الروح الشابة، لذلك يخمل وتقل حركته بينما الروح بالرغم من أنها تبقى في حالة من القوة والطاقة التي لا تهرم، تتعامل مع الجسد بوضعه الذي وصل إليه،

ولا يمكن أن تتعدى ذلك، لأنها تعقل ما تفعل وما يراد منها بحسب قابلية الجسد المودعة فيه.

ولذلك نحن نرى من خلال هذا الحديث الذي قد أظهر (العقل) بصفة ذلك الخلق المطيع لما يريد الله، ولا يوجد لديه أي إعتراض. وعندما يعرض لنا الحديث بأنه عندما قال تعالى للعقل؛ أقبل، فأقبل، ثم عكس الطلب فقال له: أدبر، فأدبر، هنا بدى لنا العقل كالميت بين يدي الغسال، فهو قد أظهر استعداده لخالقه، بأنه على أتم الجهوزية لتقبل وإطاعة أي أمر يخرج من قبل الله تعالى.

وعلى هذا الأساس يمكن أن نصل الى أن العقل الإنساني موجود بخلقة وصفة واحدة، وإنّما الله جلّ وعلا وضع هذا العقل تارة في جسد ذكوري وأُمر أن يتعامل مع هذا الجسد بما يحمله من قدرات، وعليه أن يبدع بالجوانب الذكورية، المطلوب من الجسد أن يسير من خلالها في وجوده الدنيوي. وكلما أحسن التصرف مع الجسد الذكوري وبما أراده الله منه، نجى ذلك العقل من العقاب واستحق الثواب، لأنه استخدم كل الطاقات والقدرات المودعة فيه في خدمة هذا الجانب الذكوري، وعلم بأنه غير ملزم بإظهار طاقات وقدرات في جسد ذكوري، وهي أصلاً لا تناسب هذا الجسد، لأنه يفهم ويعي إن تلك الأمور ليست من صلاحياته، وإنه غير مخوّل بها، وإنما تعمل في مكان آخر - أي في الجسد الأنثوي-.

وتارة أخرى نفس هذا العقل يوضع في جسد أنثوي ويؤمر أن يتعامل مع هذا الجسد بما يحمله من قدرات، فهو يعلم المساحة التي وضع فيها وسيعمل ضمن هذه المساحة، ولن يجتازها بحال، هذا فيما لو أراد أن يتكامل ويثاب من خلال هذا الجسد. فهو يعلم بأن هذا الجسد الأنثوي رقيق وليس فيه القوى العضلية

اللازمة للصراع والمواجهة أو العمل الشاق. ويعلم بأن هذا الجسد قد زود برحم قابل لأن يحمل فيه الجنين، وهو يعلم بأن لهذا الجسد ثديين يستخدمها للرضاعة، ويعلم بأن هذا الجسد فيه نواحي العاطفة والأحاسيس عالية، ويعلم أيضاً بأن من صفات هذا الجسد الجمال والرقة والى غيرها من الأمور. وبما أنه خلق مطيع، وأن الله تعالى قد وضعه في هذا الجسد فعليه أن يصل الى كماله من خلاله. ولا يتم ذلك، إلّا من خلال اتقانه وإجادته لتلك الجوانب التي زود بها الجسد الأنثوي، واستغلالها في كيفية الرضا والقبول الإلهي الذي يصل إليه بواسطة ذلك الجسد. وبالتأكيد فإنه سيكون للشريعة والتعاليم السماوية دوراً مهماً في بيان ما هو المطلوب منه من سلوكيات خاصة عندما يكون قائداً في الجسد الأنثوي، وهي تبين له تكليفه في هذا المحيط الإنسي، ومتى ما خالفه، فإنه سيعيش في شقاء، وقد تدمّر حياته وتُصْبِح وليس لها من قرار.

وكذلك بالنسبة للعقل الذي يوضع في الجسد الذكوري، فإنه أيضاً سيسير ضمن ضوابط تحددها له الشريعة والطبيعة التي تناسب ذلك الجسد، من القوّة والصرامة والجلادة وتحمل المشاق، فمتى ما إلتزم بها العقل نجا وتكامل، واستطاع أن يحصل على الإثابة، ومتى ما قصّر في أداء عمله في ذلك الجسد أو حاول أن يفعل أفعال هي تخص الجسد الأنثوي، فإنه سينال العقاب المناسب لذلك.

ولتقريب المطلب أكثر، نشبه الأمر بهذا المثال؛ هناك شخص ما، هذا الشخص في إحدى المرات دعي الى أحدى مناسبات الأفراح، كأن يكون حفلة زواج، فإنه بالتأكيد سوف يتأنق في ملابسه، وستكون مظاهر السرور بادية على شمائله، وسيتكلم، بكلمات الفرح ويهنئ أصحاب تلك المناسبة ويؤدي الأمور

الأخرى الخاصة بمثل هكذا مناسبات.

ثم بعد مدّة نفس هذا الشخص أراد أن يذهب لتعزية أحد الأقارب أو الأصدقاء، بسبب وفاة شخص قريب وعزيز عليهم، فهل سيذهب بنفس الملابس ذات اللون البّراق، وهل سيدخل مبتسماً، وبيده باقة من الورد ليعبّر بها عن سروره وإرتياحه، أم سيرتدي بدلة توحي من خلال لونها بأنه متأثر وحزين، ويلتقي بأهل العزاء بوجه حزين وكلمات المواساة تسبقه وهكذا.

وهنا لماذا إختلف سلوك الفرد في الموقفين، بالرغم من أن الشخص هو نفسه الذي أدى المهمة الثانية، ولم يكن شخصاً ثانياً ليقوم أو يؤدي المهمة الأخرى. ولكنه على كل حال قد أحسن وأجاد التصرف في كلا المناسبتين. وهكذا يمكننا القول في هذا الحال؛ (بأن لكل مقام مقال) و (لكل حادث حديث).

فهكذا هو العقل، إن وضع في جسد ذكوري، كان له تصرف يختص ويناسب ذلك الجسد، وإن وضع في جسد أنثوي كان له تصرف يناسب ذلك الجسد. وفقط في هذا الأمر سوف ينجح العقل في طاعته لله تعالى، وفي هذه الطاعة سيتكامل ويعلو، بإعتبار إنه قد عرف قدره المناسب له، في أيّ من الجسدين وعمل على ضوئه. لأنه خلق لتعقل الأشياء وفهم مكانها، وكيفية التصرف بها، وهو المدرك للخير والشر والمميز بينهما، وهو الملكة التي تتحرك من خلالها النفس بإختيار الخيرات وإجتناب الشرور، وهو تلك القوّة التي يستعملها الإنسان في ترتيب نظام معاشه وهكذا. وحينئذ ما دامت تلك الأمور عنده وزيادة، فإنه سيختار المصلحة التي يرتقي من خلالها الإنسان، كونه وجد وخلق من أجل الإنسان بما هو إنسان، وبغض النظر عن كون هذا الإنسان ذكر، أم هذا الإنسان أنثى. المهم هو الوصول بهما الى ما أراده الله تعالى لهما من هذا الوجود.

٢- سؤل أبا عبد الله عليه السلام: ما العقل؟ قال: ما عبد به الرحمن وأكتسب به الجنان.[1]

٣- ومن وصايا الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام لهشام بن الحكم: يا هشام من أراد الغنى بلا مال، وراحة القلب من الحسد والسلامة في الدين، فليتضرع الى الله عز وجل في مسألته، بأن يكمّل عقله، فمن عقل قنع بما يكفيه، ومن قنع بما يكفيه استغنى، ومن لم يقنع بما يكفيه لم يدرك الغنى ابداً.[2]

٤- عن أمير المؤمنين عليه السلام: العقل غطاء ستير، والفضل جمال ظاهر، فأستر خلل خلقك بفضلك، وقاتل هواك بعقلك، تسلم لك المودة، وتظهر لك المحبة.[3]

٥- عن أبي عبد الله عليه السلام: أكمل الناس عقلاً أحسنهم خلقاً.[4]

٦- عن أبي عبد الله عليه السلام: دعامة الإنسان العقل، والعقل منه الفطنة والفهم والحفظ والعلم، وبالعقل يكمل. وهو دليله ومبصره ومفتاح أمره، فإذا كان تأييد عقله من النور كان عالماً، حافظاً، ذاكراً، فظناً، فهماً، فعلم بذلك كيف ولم وحيث، وعرف من نصحه ومن غشه، فإذا عرف ذلك عرف مجراه وموصوله ومفصوله، وأخلص الوحدانية لله، والإقرار بالطاعة، فإذا فعل ذلك كان مستدركاً لما فات، ووارداً على ما هو آت، يعرف ما هو فيه، ولأي شيء

---

(١) الأصول من الكافي، مصدر سابق: ج١، ص١١.

(٢) المصدر نفسه: ج١، ص١٨.

(٣) المصدر نفسه: ج١، ص٢٠.

(٤) المصدر نفسه: ج١، ص٢٣.

هو ههنا، ومن أين يأتيه، والى ما هو صائر، وذلك كله من تأييد العقل.[١]

٧- عن أبي عبد الله في حديث طويل: (ان أول الأمور ومبدأها وقوتها وعمارتها التي لا ينتفع شيء إلّا به، العقل الذي جعله الله زينة لخلقه ونوراً لهم، فبالعقل عرف العباد خالقهم، وأنهم مخلوقون، وأنّه المدبر لهم، وأنهم المدبرون، وأنه الباقي وهم الفانون، واستدلوا بعقولهم على ما رأوا من خلقه، من سمائه وأرضه، وشمسه وقمره، وليلة ونهاره، وبأنّ له ولهم خالقاً ومدبراً، لم يزل ولا يزول، وعرفوا به الحسن من القبيح، وأن الظلمة في الجهل، وأن النور في العلم، فهذا ما دلهم، عليه العقل).[٢]

٨- عن أمير المؤمنين عليه السلام: (العقول أئمة الأفكار، والأفكار أئمة القلوب، والقلوب أئمة الحواس، والحواس أئمة الأعضاء)[٣]

٩- عن الإمام الكاظم عليه السلام: (إن لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة، وحجة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة، وأمّا الباطنة فالعقول)[٤]

١٠- عن أمير المؤمنين عليه السلام: (صديق كل إنسان عقله)[٥]

١١- عن رسول الله صلى الله عليه وآله: (إسترشدوا العقل ترشدوا، ولا تعصوه

---

(١) المصدر نفسه: ج١، ص٢٥.

(٢) المصدر نفسه: ج١، ص٢٩.

(٣) ميزان الحكمة: محمد الريشهري، نشر دار الحديث، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م: ج١، ص٢٦٩٣.

(٤) المصدر نفسه: ج١، ص٢٥٩٥.

(٥) المصدر نفسه: ج١، ص٢٦٩٦.

فتندموا)[1]

١٢- عن رسول الله صلى الله عليه وآله: (العقل نور خلقه الله للإنسان، وجعله يضيء القلب، ليعرف به الفرق بين المشاهدات من المغيبات).[2]

١٣- عن الإمام الصادق عليه السلام: (ان الله جلّ ثناؤه خلق العقل، وهو أول خلق خلقه من الروحانيين عن يمين العرش من نوره)[3]

١٤- عن أمير المؤمنين عليه السلام: (الكمال في العقل).[4]

والآن رأينا كيف عرضت الخطابات الدينية ما يخص العقل، وكيف بانت بأنها تتكلم عن مفهوم وقابليات وإمكانات كلها تجتمع في عقل إنساني واحد وليس إثنان، وهذا العقل نفسه سيكون من حصة الرجل، وكذلك من حصة المرأة، ولكلاهما قد رُسِم طريق من سار فيه نجى ومن تخلف عنه هلك، فهذه هي الصورة، وهذا هو وضوحها الذي نتمكن به من إزاحة كثير من الشبهات والإشكالات التي تحاول كثير من الجهات التي تدّعي حرصها على المساواة بين الرجل والمرأة، وتحرير المرأة من تبعات التنشئة الإجتماعية القاسية التي اضطهدت بسببها الأنثى، وتنمّر بواسطتها الرجل، لتخلّف بالتالي صراعات مفتعلة لم تكن يوماً من طبيعة البشر، وإنما حاولت تلك الجهات بإسم التحرر، أن توجد للتشتت والتفرق مكاناً لا تستقر بسببه الأسرة، وليضيع الأفراد في تيه

(١) المصدر نفسه: ج١، ص٢٦٩٧.

(٢) المصدر نفسه: ج١، ص٢٦٩٨

(٣) المصدر نفسه: ج١، ص٢٦٩٨.

(٤) المصدر نفسه: ج١، ص٢٦٩١.

القوانين الوضعية التي سلبت المرأة من بيتها، لتستغلها أبشع الاستغلال سواء في المجون والعهر أو في الأعمال الأخرى التي ترهقها وترهق قواها، بلا رحمة ولا أية شفقة تذكر في هذا المجال. وكلّ ذلك يجري بإسم التحرر وعدم التبعية. وكما قيل لقد خرجت النساء من عبودية المنزل الى عبودية المعمل.

وقد لاحظ أحد علماء الإجتماع الغربيين (كريستو فرلاش) أنه منذ أواخر الستينيات، أصبح من المستحيل على الأسرة الأمريكية أن تعيش على دخل واحد، أي أنه لتحقيق البقاء المادي، أصبح من اللازم على المرأة أن تصبح (يداً عاملة) و (طاقة إنتاجية) و (مادة طبيعية برانية) وأصبح من الضروري أن تتخلى عن وظائفها الإنسانية التقليدية مثل الأمومة، أي أنه تم القضاء على آخر معقل ومأوى للإنسان، وآخر مؤسسة وسيطة تقف بين الإنسان ورقعة الحياة العامة التي تديرها الدولة وتسيرها المؤسسات الإقتصادية ويوجهها قطاع اللذة.(١)

وفي الصين تعيش ملايين الأسر في حالة إنفصال: يعمل الأب في جزء من الدولة، وتعمل الأم ومعها الأطفال في جزء آخر، ولا يلتئم شمل الأسرة إلّا مرّة واحدة كل عام، والسبب المعلن هو حاجة الدول الإقتصادية أو المصلحة العامة.(٢)

وبمثل هكذا أفعال وهكذا أصوات سوف تتمزق الأسرة، وبالتالي ستنهار المجتمعات، إن لم نصح من نوم الغفلة والتهاون وغض النظر عن تأثير تلك الموجات الفكرية المنحرفة عن خط الفطرة السليم.

---

(١) قضية المرأة: د. عبد الوهاب المسيري، نشر دار نهضة مصر، القاهرة، ط٢، ٢٠١٠م: ص١٧.

(٢) إنها الأنثى: د. عبد المجيد البيانوني، ط١، ١٤٢٦هـ.

عموماً بقي شيء لابد من ذكره حول (العقل الواحد والتغير الوظيفي) وهو: ان العقل الإنساني وحسب ما ذكرناه من الآيات القرآنية والأحاديث الدينية بخصوص فاعليته وأهميته، وسعة إحاطته وإدراكه للأشياء، والتي أصبح محبوباً بها عند الله تعالى، هذه الصلاحيات التي أعطيت له، إحتاجت الى شيء تظهر من خلاله هذه القدرات والمؤهلات بشكل كامل وتام، وبما أن الجسد الذكوري لا يستطيع أن يُظْهِر كل تلك القوى والطاقات التي لدى العقل، وذلك بإعتبار ميدان الرجولة سعته لا تتحمل أن يؤدي بعض الكمالات. فهيأ للعقل جسداً انثوياً، وأصبح ميداناً جديداً ليمارس العقل ما لم يستطع ممارسته في الميدان الرجولي، وليستغل وجوده بشكل كامل، وليس على نحو الجزئية، ولتظهر بالتالي قدرة الله تعالى وعظمته في إيجاد الأشياء وتنوع عطاؤها. ولكي تتضح لنا أهمية هذا المخلوق – أي العقل – الذي يتمكن من الإحاطة بكل الكمالات الممنوحة له من قبل الله تعالى لعباده، بحيث مهما تغيرت صورها الجسمانية، فللعقل هذا المحبوب عند الله القدرة على قيادة الجسد والتحكم به.

وربما يبرز لنا أمر من خلال هذه النقطة، ولو على سبيل الأطروحة، ويبقى الموضوع مطروح للنقاش، وهو أن الرسول صلى الله عليه وآله ما قال عن فاطمة الزهراء عليها السلام: (هي بضعة مني، هي قلبي وروحي التي بين جنبي، فمن آذاها فقد آذاني). [١] و (فاطمة شجنة مني، يبسطني ما يبسطها ويقبضني ما يقبضها)[٢]

---

(١) فاطمة الزهراء من المهد الى اللحد: محمد كاظم القزويني، نشر دار الكاتب العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ، ص١٨.

(٢) فرائد السمطين: إبراهيم بن محمد الجويني الخراساني، (ت ٧٣٠هـ)، نشر دار الجواد، سورية، ط١، ١٤٢٩هـ: ج٢، ص٣٣.

القوانين الوضعية التي سلبت المرأة من بيتها، لتستغلها أبشع الاستغلال سواء في المجون والعهر أو في الأعمال الأخرى التي ترهقها وترهق قواها، بلا رحمة ولا أية شفقة تذكر في هذا المجال. وكلّ ذلك يجري بإسم التحرر وعدم التبعية. وكما قيل لقد خرجت النساء من عبودية المنزل الى عبودية المعمل.

وقد لاحظ أحد علماء الإجتماع الغربيين (كريستو فرلاش) أنه منذ أواخر الستينيات، أصبح من المستحيل على الأسرة الأمريكية أن تعيش على دخل واحد، أي أنه لتحقيق البقاء المادي، أصبح من اللازم على المرأة أن تصبح (يداً عاملة) و (طاقة إنتاجية) و (مادة طبيعية برانية) وأصبح من الضروري أن تتخلى عن وظائفها الإنسانية التقليدية مثل الأمومة، أي أنه تم القضاء على آخر معقل ومأوى للإنسان، وآخر مؤسسة وسيطة تقف بين الإنسان ورقعة الحياة العامة التي تديرها الدولة وتسيرها المؤسسات الإقتصادية ويوجهها قطاع اللذة.[1]

وفي الصين تعيش ملايين الأسر في حالة إنفصال: يعمل الأب في جزء من الدولة، وتعمل الأم ومعها الأطفال في جزء آخر، ولا يلتئم شمل الأسرة إلّا مرّة واحدة كل عام، والسبب المعلن هو حاجة الدول الإقتصادية أو المصلحة العامة.[2]

وبمثل هكذا أفعال وهكذا أصوات سوف تتمزق الأسرة، وبالتالي ستنهار المجتمعات، إن لم نصح من نوم الغفلة والتهاون وغض النظر عن تأثير تلك الموجات الفكرية المنحرفة عن خط الفطرة السليم.

---

(١) قضية المرأة: د. عبد الوهاب المسيري، نشر دار نهضة مصر، القاهرة، ط٢، ٢٠١٠م: ص١٧.

(٢) إنها الأنثى: د. عبد المجيد البيانوني، ط١، ١٤٢٦هـ.

كما أن النبي صلى الله عليه وآله كان يكنيها بـ (أمّ أبيها)[١]. إلّا من أجل بيان أن الأمر مرتبط بهذا الذي طرحناه. والله تعالى هو العالم بمجريات الأمور.

العقل غير المخ

نحن هنا عندما نتكلم عن العقل فلا نعني به العقل عند الماديين الذي يطلق كاصطلاح على عدد من الوظائف العليا التي تمارسها القشرة المخية للنصفين الكرويين لمخ الإنسان، وتشمل هذه الوظائف: الوعي- الإدراك- التعلم- الذاكرة- اللغة- المنطق- القدرة على الحكم على الأشياء.

وإنّما نتكلم عن العقل بإعتباره ظاهرة غير فيزيائية وغير مادية، وله عالمه الغيبي الخاص الذي يختلف تماماً عن المخ المادي عند الإنسان، فهو ينتمي الى عالم لا يمكن إدراكه ومعرفة حدوده.

ولزيادة الفائدة والبيان في هذا الموضوع سأنقل لكم ما قاله الدكتور عمرو شريف، ود. نبيل كامل في كتابهما المشترك (المخ ذكر أم أنثى) بخصوص المخ والعقل:

إنصبَّ استعراضنا حتى الآن لظاهرة العقل وعلاقته بجنوسة المخ وبالتفكير والسلوك على الجانب المادي الصرف، والمتمثل في الجينات والمناسل والهورمونات و الناقلات الكيميائية والمخ... إلخ. وهذه هي النظرة التي يتبناها العلم المادي المعاصر، وأساسها المنهج المادي الإختزالي Reductionism

(١) ينظر: كشف الغمة في معرفة الأئمة، للأربلي، ج٢، ص٦٨ ومقاتل الطالبيين، لأبي فرج الأصفهاني: ص٥٧ وفضائل الخمسة من الصحاح الستة للفيروز آبادي: ج٣، ص١٥٢، والبحار للمجلسي: ج٤٣، ص٦١ ح١٥، ومناقب ابن شهر آشوب: ج٣، ص٣٥٧.

الذي يُشَرِّح الكائن الحي إلى أعضاء ثم إلى أنسجة ثم إلى جزيئات حتى يصل بعد ذلك إلى مستوى الذرات والمكوّنات تحت الذرية، فيكون بذلك قد اختزل الحياة (البيولوجيا) إلى المادة (الفيزياء).

ولا شك إنّ المنهج الإختزالي حين فعل ما فعل واختزل الخلية إلى أدق مكوناتها المادية فإن ظاهرة الحياة التي يدرسها تكون قد إختفت من الخلية أصلاً!!! مما يعني أن الحياة ليست هي الجزيئات أو الذرات.

وتحت عنوان (DNA) كتبا:

حين توصل العلماء إلى أهم اكتشاف بيولوجي في القرن العشرين، وهو اكتشاف تركيب جُزيء الدنا DNA وآلية عمله(١) ظن كثير من البيولوجيين أن العلم قد اكتشف سر الحياة.

وبعد خمسين عاماً من الأبحاث المضنية زال الإنبهار وبدأ البيولوجيون يرون الحقيقة، وهي أن ((الدنا- DNA)) مجرد جزيء بيولوجي مركب بطريقة مذهلة ويعمل بطريقة مبهرة، بحيث يحتوي على المعلومات الكيميائية التي تحتاجها الخلية لتصنيع بروتيناتها ولنقل صفاتها الوراثية، ولكن ذلك ليس هو سر الحياة. إن ((الدنا- DNA)) كالكلمات المطبوعة على هذه الورقة التي بين يديك، إن الحقيقة لا تكمن في الورقة ولا في حبر الكلمات ولا في كل كلمة منفردة، ولكن في المعلومات التي توصلها هذه الكلمات المطبوعة على الورقة. وهذه المعلومات يمكن أن تسجل على شريط ممغنط، كما في جهاز التسجيل

---

(١) توصل العالمان جيمس واطسن و فرانسيس كريك في أوائل الخمسينات إلى هذا الاكتشاف وحصلا من أجل ذلك على جائزة نوبل.

ويمكن أن تسجل بمنظومة رقمية على أسطوانة مضغوطة C.D.، كل ذلك لا يهم، المهم هو المعلومات التي تمثلها هذه الرموز.

وتحت عنوان معضلة التصوير Morphogenesis، كتبا:

يرى المفهوم السائد عند الماديين الإختزاليين أن ((الدنا- DNA)) (الذي تتكون منه جينات الخلية) يحدد كل صفات الكائن الجسمية والنفسية والسلوكية.

وقد تأكد حديثاً أن هذه النظرة الإختزالية مفجعة في قصورها، إذا ثبت للبيولوجيين أن الدنا، بالآليات التي تم التوصل إليها حتى الآن، يعجز تماماً عن تصوير الكائن وتشكيله على هيئة معينة morphogenesis (أي تحويله من مجرد معلومات إلى وجود حقيقي). يمكن أن نوضح مفهوم التصوير والتشكيل بطرح مثال يقرّب لنا الصورة: كيف يمكن أن تتحول كلمات نخطها على أوراق نصف فيها هيئة إنسان مهما بلغت تفاصيلها ودقتها إلى إنسان حقيقي (من لحم ودم)!. لقد أصبح من الضروري الإقرار بأن هناك ((نظاماً ما)) مازال مجهولاً هو المسئول عن هذا التصوير والتشكيل. ولكن كيف؟ ما هو هذا النظام؟ أمجهول مطلق؟.

وتحت عنوان المخ والعقل، كتبا:

وبالمثل، عندما نختزل المخ المادي إلى مكوناته الجزيئية والذرية وتحت الذرية، هل يوصلنا ذلك إلى فهم حقيقة العقل؟ هل يمكننا أن نُرجع المفاهيم المجردة concepts التي تشغل العقل إلى كيمياء وكهرباء المخ، التي هي في النهاية أيونات صوديوم وبوتاسيوم في حركة دائبة عبر جدار الخلية العصبية؟ كيف تمكننا حركة هذه الأيونات من أن ندرك مفهوماً مثل قولنا: ((إن الإنسان هو

ذلك الكائن السامي الباحث عن المعنى، المحب للجمال، المنبهر بالمجهول، والمتطلع إلى الحقيقة والحق والخير والعدل)) ؟ إن المخ جهاز مادي يتكون من شبكات بالغة التعقيد من الخلايا العصبية(١) التي تتعامل كلها- وأكرر كلها- بلغة واحدة وهي النبضة الكهروكيميائية، ويستحيل مهما بحثنا- حتى الآن- داخل المخ أن نعثر على أي شيء يشير إلى ملايين المشاعر والمفاهيم المجرّدة والمعاني العقلية.

إن الفرق بين المخ و العقل كالفرق بين نطق الكلمة ومعنى الكلمة. فالنطق آلية من عالم الطبيعة المادية، إنه عبارة عن صوت مستمر تخرجه الحنجرة على هيئة ذبذبات وإهتزازات في الهواء، ثم يُحدِث الحلق واللسان والشفتان تقطعات في هذا الصوت المستمر لتشكله على هيئة حروف و كلمات، إن الأمر كله فيزياء، هذا هو نطق الكلمات، أما المعنى فهو شيء آخر، فقد يكون تعبيراً عن الحب أو إعلانـاً للحرب أو أي مفهوم آخر، إن معنى الكلمات شيء خارج عن هذه الآليات المادية وعن تركيب الكون المادي.

---

(١) ينبغي أن نُذكِّر هنا بأن الخلايا العصبية Neurons التي تم التركيز على دراستها لمعرفة وظائف المخ تمثل حوالي 10% من خلايا المخ، بينها تمثل الخلايا الدبقية الداعمة Glial Cells حوالي 90% من خلاياه، وقد ثبت حديثـاً أن لهذه الخلايا دوراً مهمـاً في وظائف المخ يتجاوز كثيراً ما تم إكتشافه حتى الآن من وظائف داعمة. كذلك ذكرنا أن (الدنا) الذي أعتبر سقطـاً ولا وظيفة له (سقط الدنا) يمثل حوالي 95% من بنية الدنا، إن ذلك يعني أن العلماء بتركيزهم على الجينات الموجودة داخل الخلايا العصبية عند دراستهم لعمل المخ قد ركزوا على حوالى نصف في المائة فقط من مادة المخ!! (10%×5%) مما يعني أن حوالي95.5% من مادة المخ الوراثية لم تتم دراستها جيداً بعد.

وتحت عنوان الحل عند الميتافيزيقيين كتبا:

لقد بدأ بعض كبار العلماء (انظر كتاب «مسار الخلية)) The way of the cell تأليف ((فرانكلين هارولد)) والصادر عام 2003) يتحدثون عن العجز الكامل عن فهم آلية التصوير والتشكيل **Morphogenesis** اعتماداً على الدنا فقط، ويتحدثون كذلك عن أن النشاط الكهروكيميائي لخلايا المخ يعجز وحده عن تفسير العقل والسلوك.

ويرى هؤلاء العلماء أنه لا بد من توسيع تصوراتنا لتشتمل على نوع ما من ((المجالات فوق المادية- **Supernatural Fields** » تكون هي المسؤولة عن التصوير والتشكيل وكذلك العقل والسلوك لكل كائن حي. ويضيف فرانكلين هارولد أنه يظهر من ذلك بوضوح أن الفكر المادي الطبيعي قد فشل في تفسير أو فهم الظواهر الثلاث الكلية وهي الكون- الحياة- العقل.

وللفيلسوف ((دافيد شالمرز- **David Chalmers**)) بحث قيم، بعنوان : «العقل ومكانته في الطبيعة - consciousness and its place in nature » استعرض فيه الأفكار المعاصرة التي تطرح حول حقيقة العقل.

يرى شالمرز أن هناك سؤالاً أساسياً ينبغي أن يطرح: كيف تنشأ الأحاسيس والمعاني والأفكار المجردة، وما مصدرها؟ ويوضح لنا أنه قد تصدى للإجابة على هذا السؤال الجوهري اتجاهان رئيسيان، الإتجاه المادي الفيزيائي الذي يفترض أن العقل ظاهرة مادية وأنه من نتاج المخ، وليس هناك شيء آخر غير المخ، وأن كهرباء وكيمياء المخ يمكن أن تفسر لنا العقل وما يمثله من وعي وإحساس وأفكار مجردة.

أما الاتجاه اللامادي اللافيزيائي فيرى أن العقل ظاهرة غير فيزيائية غير مادية، وإن كان على اتصال بالظواهر الفيزيائية. ويرى هذا الإتجاه أن العقل والمخ يختلفان تمام الإختلاف وينتميان إلى عالمين مختلفين، المخ ينتمي إلى عالم المادة، بينما ينتمي العقل إلى عالم غير مادي لا ندرك بتاتًا حقيقته.

وأخيراً تحت عنوان ظاهرة الرؤية المسبقة كتبا:

ومن الأدلة الحاسمة التي يقدمها أصحاب الإتجاه اللامادي ظاهرة الرؤية المسبقة Deja Vu Phenomenon وهي ظاهرة معروفة في علم النفس، بل عشناها كلنا أو معظمنا.

تعني ظاهرة الرؤية المسبقة، أننا قد تمر في حياتنا بموقف ما، ونستشعر أننا قد سبق أن عايشنا هذا الموقف بملابساته وتفاصيله، بل نشعر أن عقلنا قد سبق واطلع في أحلامنا على ما سوف يحدث من تفاصيل!.

إن هذه الظاهرة ترد الاتجاه المادي تمامًا، إذ كيف يدرك المخ المادي أمراً لم يحدث بعد بتفاصيله. لقد بسّط الماديون الأمر تمامًا ليخرجوا من هذا المأزق، وعلّلوه بأنه مجرد توهم Illusion وأن الشعور بأننا رأينا أو عشنا الموقف بملابساته مجرد شعور أحسسنا به في لحظتها. كما قدم الماديون تفسيراً آخر لهذه الظاهرة وهو أن أحد نصفي المخ قد أدرك الموقف قبل النصف الآخر بجزء ضئيل جداً من الثانية، وعندما أدرك النصف المتأخر الموقف شعر الإنسان بالألفة تجاه ما يرى.

لقد قام البعض، ومنهم كاتب السطور، بتدوين أحلامهم المفصلّة، حتى إذا مرّ بهم موقف استشعروا فيه وجود ((رؤية مسبقة)) رجعوا إلى ما دوّنوه سابقًا،

ليجدوا تطابقاً كاملاً بين بعض هذه المواقف التي يحيونها وبين إحدى الرؤى المدوّنة، إذاً فالأمر بالقطع ليس مجرد توهم أو سَبْق أحد نصفي المخ في إدراك الحدث عن النصف الآخر.[1] انتهى.

(١) المخ ذكر أم أنثى: د. عمرو شريف، د. نبيل كامل، نشر نيوبوك القاهرة، ط٨، ٢٠١٧؛ ص١٧٥ الى ص١٧٩.

الإمام علي عليه السلام ورأيه بعقل المرأة

بقي شيء طرح في البحوث السابقة من هذا الكتاب حول قول أمير المؤمنين عليه السلام عن النساء صدر عنه بعد معركة الجمل، بأنهن ناقصات عقل، ولم نعط حينها رأينا النهائي حوله، وجاء الآن بعد هذا التوضيح والبيان أن نبين وجهة نظرنا عساها أن ترفع ما يطرح من اشكالات حوله:

عندما أشار علي عليه السلام الى نقصان العقل عند المرأة، فهو ليس في مقام التوهين والتحقير، وإنّما يمكن لنا الآن أن نبين وجهة نظر يمكن لنا من خلالها عبور وتجاوز هذه الإشكالية أو هذه الصدمة، التي يقف قبالها الكثير موقف المتحير، لعدم القدرة على الإجابة عليها لوجود أمور منها:

١- هناك كثير من النساء متفوقات عقلياً على غيرهن من الرجال وبمسافات طويلة، وكثير منهن على مستوى عال من الفهم والنضج العقلي، بحيث يتفوقن على عقول كثير من الرجال، فكيف والحال هذه يوصفن بأنهن ناقصات عقول؟

٢- إنَّ قائل هذا الكلام هو سيد البلغاء وعظيم الحكماء وسيد الأوصياء، وأمير المؤمنين فكيف نوفق بين قوله، وبين ما نراه من مثل هذه الحالات التي ذكرت في الأمر الأول؟

في الحقيقة انّ الإنسان بغض النظر عن كونه رجلاً أو امرأة فهو يتكون باعتبار من الاعتبارات:

١- القلب

٢- النفس

٣- العقل

٤- الروح

أما القلب، فهو سبب العواطف والإنفعالات، كالحب والبغض والحنان والفرح والرضا، وأي شيء يقع ضمن هذا السياق.

وأمّا النفس، فالحقيقة هي تعرف بآثارها لا بوجودها، ونعلم بها حضورياً لا حصوليا، وهي سبب الشهوات، مثل الجوع والعطش والجنس وغيرها من الأمور.

وأمّا العقل، فينقسم الى العقل النظري ويطلق عليه أحياناً القوّة العلّامة، وهو إدراك ما ينبغي أن يُعْلَم. والعملي ويصطلح عليه أحياناً بالقوّة العمّالة أو المحركة، أي هو إدراك ما ينبغي أن يُعْمَل، وهناك في الحقيقة الذهن الذي هو سبب التفكير والنسيان. فهناك صورة ذهنية وهي التي يتكلم عنها المناطقة كثيراً، والذهن غير العقل، فهو معلول العقل وليس هو العقل، كما يظن ويتصور، فالعقل هو القوّة الدرّاكة للكليات النظرية والعملية.

وتبقى الروح أعلى من هذه القوى كلّها وهي فوقها، وليس محل النقاش فيها الآن، وهناك قول ينقله الشيخ حسن زاده آملي عن القيصري بشأن الروح: (... إن الروح الأعظم الذي هو في الحقيقة هو الروح الإنساني مظهر الذات الإلهية من حيث ربوبيتها، لذلك لا يمكن أن يحوم حولها حائم ولا أن يروم وصلها رائم،

الدائر حول جنابها يحار، والطالب نور جمالها يتقيد بالأستار، لا يعلم كنهها الّا الله، ولا ينال بهذه البغية سواه.(١)

وهنا يمكن لنا أن نعرض تساؤل وهو: هل للشيطان نحو علاقة وتأثير على القلب والنفس والذهن والعقل والروح، أم ليس له ذلك، وهو بعيد كل البعد عن هذا المنال؟

وفي الحقيقة خير من يعطينا جواباً شافياً هو القرآن الكريم وذلك من خلال أمرين:

الأول: إنّ الله عزّ وجلّ هو خالق الخلق، ويعلم بدقائق الأمور وخفاياها، وقابلياتها كلّها عنده، وهو أقرب للإنسان من حبل الوريد (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) سورة ق: ١٦.

ولذلك قال عزّ من قائل في أكثر من آية:

- (وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) سورة الأنعام: ٦٨.
- (فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا) سورة الأعراف: ٢٠.
- (فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ) سورة يوسف: ٤٢.
- (فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ) سورة الكهف: ٦٣.

---

(١) عيون مسائل النفس وسوح العيون في شرح العيون: آية الله الشيخ حسن زاده آملي، نشر مؤسسة انتشارات أمير، طهران، ط١.

- (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ) سورة الحج: ٥٢.

- (أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ) سورة ص: ٤١.

ففي هذه الآيات المباركات يبين الله تعالى أن هناك للشيطان نحو من أنحاء التدخل والتأثير على بني الإنسان، فيريد ان يحذرك من هذا التداخل والتأثير، ولذلك عليك أن تكون مستعداً للمواجهة.

الثاني: إن الشيطان له خبرة لها من العمق الزمني الشيء الكثير، وقد مارس اثناء وجوده مع الجن ومن ثم مع الملائكة، بحيث شمله الخطاب الإلهي الذي كان موجهاً الى الملائكة بقوله تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) سورة البقرة: ٣٤، وفي هذا الشأن يقول عنه السيد الشهيد محمد الصدر قدس سره: (أصبح ملكاً فعلاً يصدق عليه بالحمل الشائع أنه ملك).(١) وكونه أصبح ملكاً بالحمل الشائع الصناعي، شمله الخطاب، ولعدم تنفيذه لمضمون الخطاب، خرج من حضيرة الله ورحمته الى غضبه وإنتقامه.

المهم فإن هذه الخبرة التي امتلكها نتيجة رحلته الطويلة في عالم العبادة والطاعة، استطاع أن يشخص الطرق المؤدية الى باطن الإنسان، ومن ثم الوسوسة والإلقاء فيها، وعلم في نفس الوقت على من تؤثر، وعلى أيّهم لا تؤثر، ولذلك قال مخاطباً بغرور: (...وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) سورة

---

(١) مواعظ ولقاءات: آية الله العظمى السيد الشهيد محمد الصدر قدس سره، نشر هيئة تراث السيد الشهيد الصدر، بيروت، ط١، ٢٠١٣م/ ١٤٣٤هـ: ص٣٣٩.

الحجر: ٣٩-٤٠، فهو قد عرف بأن هناك عباد مخلصين، توجد حجب تمنعه من الوصول اليهم. ولكن عموماً فإنه علم بإستطاعته التسلط على كثير من الناس، ليكونوا في درب الغواية والضلال.

وبعد أن تبين أن للشيطان تأثير معين على الإنسان، فهنا يعرض تساؤل آخر، وهو على من يؤثر، هل على القلب والنفس والذهن والعقل والروح دفعة واحدة، ويكون له نحو من التسلط عليها كلها، أم لا، يكون له تأثير وعلاقة مع بعضها وليس كلها؟

في الحقيقة كما قلنا أنه لا يستطيع أن يؤثر على الروح، ولا يستطيع أن يصل اليها لأنها سماء يرجم دونها، وكذلك لا يستطيع الوصول المباشر والتأثير على العقل، لكنه له تسبيب بالواسطة للوصول إليه، ولذلك يقول السيد الشهيد محمد الصدر قدس سره: (نجد أن شياطين الإنس يستخدمون عقولهم بأدق ما يستطيعون في سبيل تمشية شهواتهم الشيطانية).[1]

أما القلب فيستطيع السيطرة عليه بإعتباره، وكما قلنا أنه محط للعواطف. وأما النفس فهي مسيطر عليها لوجود الإتحاد والسنخية ما بين النفس والشيطان، حتى ذهب جملة من العارفين الى أن يقولون: (هي عينه وليست غيره).

وأما الذهن الذي هو سبب التفكير والنسيان، والله يقول في كتابه العزيز: (وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ) سورة الكهف: ٦٣، فهنا يكون النسيان بيد الشيطان وكذلك بيده التذكير، أي التسبب الى تذكر فكرة ما، وكذلك التسبب في نسيان فكرة ما. فيكون الموقف بهذا الشكل: هو يؤثر على النفس بحيث ترغب في الشر

(١) المصدر السابق: ص٣٥٠.

وإرتكاب المحرمات، وحينئذ تستخدم الذهن لأجل الوصول الى الحرام.[1]

يحدث هذا على اعتبار أن هناك عدوين للإنسان الأول داخلي وهو النفس الأمّارة بالسوء، والثاني هو الشيطان – ولولا النفس لما استطاع الشيطان أن يخدع الكثير من الناس ويجعلهم ألعوبة– ولذلك فالنفس الأمّارة بالسوء هي الحاضنة الحقيقية لوسوسة الشيطان.[2]

وعمومـًا بما أن العقل والنفس لهما تجاوب وتبادل ونشاط، أي أن العقل يمكن أن يؤثر على النفس، والنفس تستطيع أن تؤثر على العقل، فالشيطان له باب من هذه الناحية، وهو أن يؤثر على النفس، والنفس تؤثر على العقل، أو مثلاً هو يؤثر على القلب، والقلب يؤثر على النفس، والنفس تؤثر على العقل، بالنتيجة – الشيطان– له طريق الى العقل، وليس منسداً بابه، نعم في مقابل ذلك أن العاقل الذي يعرف جملة من الحقائق له قوّة إرادة ضد هذا المعنى، لأنّه كما أن النفس تؤثر على العقل فتستعبده، كذلك العقل يؤثر على النفس فيستعبدها.[3]

والآن بعد هذه المقدمة علمنا بأن هناك تأثيراً من قبل الشيطان على القلب والنفس، يستطيع من خلالهما أن يصل الى الذهن والعقل، وحينها يستطيع أن يغيّر الكثير من التصرفات والقرارات التي يتخذها أو يخطط لها العقل.

وبمعنى آخر أن الذهن والعقل، حينما يريدان أن يشكلان صوراً ذهنية، ومن

(١) المصدر نفسه: ص٣٤٩.

(٢) إصلاح النفس، ابحاث السيد كمال الحيدري، بقلم طلال الحسن، نشر مؤسسة الجواد للفكر والثقافة، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٧م: ص٢٧٢.

(٣) مواعظ ولقاءات، مصدر سابق: ص٣٥٠.

ثم اتخاذ ما يلزم قبالها من تصرفات في عالم الخارج ، فسيعتمدان كثيراً على ما يقدمه لهما القلب والنفس – بغض النظر عمّا إذا كان القلب والنفس قلباً طاهراً ونفساً مطمئنة أو قلباً فاسداً ونفساً أمارة بالسوء- وبما أنّ الطبيعة السيكولوجية للمرأة من ناحية العواطف – كالحب والبغض والحنان- ومن ناحية الشهوات والميل الوجداني تختلف عن الرجل، وهي لشدتها سوف تنجذب وتميل في الغالب بصورة أكثر لمتطلبات الشيطان، على اعتبار أن الفروق بين الجنسين في السلوك متصلة بالمخ، حتى وإن كان التطور العصبي يتوقف الى حد كبير على الخبرات، أي أن معاملة البنين والبنات تستطيع أن تغير في كل من المخ والسلوك.(١)

وفي هذا الصدد يقول ول ديورانت: والمرأة أكثر من الرجل تعبيراً، لأنها في الغالب أشد خضوعاً للوجدان والإنفعال، وهذا هو السرّ في أنّها أكثر قبولاً للأمراض العصبية كالكوريا والرجفة والهيستريا والتلبس والخوف والأوتوماتزم والوساطة الروحية.(٢)

ولشدة عاطفة المرأة كما ذكرنا سابقاً، والتي تناغمت وتناسبت مع احتياج الطفل لها، وكذلك حنانها الذي تحتاج له الأسرة، ولوجود آثار وخصال الرقة والجمال فيها. حينئذ سوف يكون باب التعامل معها من قبل الشيطان مفتوحاً بسعة أكبر، مما هو عليه الحال مع الرجال، ولذلك سيستطيع من خلال هذه المدخلية التأثير على العقل عاطفياً ووجدانياً، بحيث يجعله يرى الباطل حقاً،

---

(١) ينظر: مدخل علم النفس: لندال دافيدوف، نشر الدار الدولية، الرياض، ط٤: ص٧٧٠.

(٢) مباهج الفلسفة: ول ديورانت، تقديم د. ابراهيم بيومي مدكور، ترجمة د. أحمد فؤاد الأهواني، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٥٥م: ص١٨٨.

والحق باطلاً، بحسب شدّة وتأثير الموقف، ولذلك أصبح حال المرأة في الشهادة على سبيل المثال لا تتقدم إلّا بامرأتين، فإذا تأثرت احداهن وتلاعبت بعقلها العواطف والهواجس، عسى أن تذكرها الأخرى وتسحبها لبساط الحق والحقيقة.

إذن فالإمام عندما يتكلم عن مثل هذا النقص في المرأة، فهو يتكلم من هذا الباب وليس من باب أن عقلها بما هو عقل مستقل فيه نقص في الخلقة، ويحتاج الى من يكمله، أبداً فإن الخلقة واحدة للعقل عند الرجل والمرأة بلا خلاف، ولكن الإختلاف وجد من جهة المؤثر الخارجي على العقل. أي أنه وجد في فاعلية وقابلية أدواتهما المعرفية والحسية.

وعلينا أن نعلم بأن هذا التسلط من قبل إبليس، هو ليس على نحو الإطلاق والتساوي بالتأثير على جميع البشر، وإنّما في الحقيقة أن معدّه وشرطه – أي تسلط ابليس– هو قابلية النفس لطاعة الشيطان والتعلق بهواه. وعلى هذا الأساس، فإن تأثير إبليس سيكون تأثيراً اقتضائياً على من يعطي نفسه له. وإلّا من لا يعطي ويسلم نفسه له فليس له أي تأثير عليه. وعليه فإن ما ورد في ذم النساء من قبل أمير المؤمنين أو غيره من المعصومين عليهم السلام، هو على نحو الصفة العامة والمطلقة، أم قابلة للإستثناء؟

والحقيقة يمكن الإجابة عن ذلك من خلال القرآن الكريم، فإننا لو لاحظنا أو نظرنا الى بعض من آياته المباركة مثل: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) سورة الأسراء: ٧٠، فهنا توجد كرامة لبني آدم. وهي كرامة تكوينية، من آثارها أن ينعم الإنسان بكثير من وسائل الراحة نتيجة ما يمتلكه من تفكير، وهذا التفضيل وهذه الكرامة الممنوحة له هي ثابتة ولم تتغير، فالأفضلية لبني آدم موجودة في الحاضر،

كما هي في الماضي، وستستمر الى إنقضاء الدنيا وما بعدها. ولكن السؤال هنا هل هي كرامة مطلقة، أم هناك استثناءات، وخصوصاً عندما يخرج الإنسان عن جادة الحق والصواب والتكامل، سالكاً طريق الغواية والضلال والإنحراف.

وفي هذا الصدد يقول الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي حول آية: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...) ظاهر هذه الآية الشريفة أنّها في مقام تفوق الإنسان في القوّة والإستعداد الوجودي بالنسبة لسائر الموجودات، وليس لإثبات حق للإنسان، بل بالعكس فإنها بصدد بيان هذه النقطة المهمة وهي: أننا قد وهبنا الإنسان الكثير من النعم فعليه أن يؤدي وظيفته في الخضوع والعبودية لله تعالى، وحتى لو افترضنا أنه يمكن من هذه الكرامة التي وهبها الله للإنسان استنباط حق قانوني له. لكن ذلك لا يعني أبداً حفظ كرامته وحرمته حتى لو إرتكب أفظع الجرائم. فأحياناً يصبح الإنسان بتصرفاته الإجرامية أسوأ من أي حيوان آخر... والله الذي أنزل آية (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا...) قد أنزل أيضاً آية أخرى يقول فيها حول الإنسان: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) سورة الاعراف: ١٧٩ ... وكذلك (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ) سورة محمد: ١٢."[1]

من هذا الباب يكون قول أمير المؤمنين عليه السلام، لا على نحو العموم والإطلاق بالنسبة للنساء، فكما أن الإنسان إذا خرج عن حضيرة الطاعة والإلتزام

(١) النظرية الحقوقية في الإسلام: آية الله الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي، ترجمة خليل عصامي الجليحاوي، نشر دار الولاء، بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م: ج١، ص٢٩٥.

بالواجبات الشرعية والنواحي الأخلاقية والإنسانية العامة، فإنه لن يكون مشمولاً بالتكريم التكويني، على اعتبار أنّه قد إنسلخ من هذه الكرامة التي منحها الله له بالإختيار، فيتحول كالأنعام بل أضلّ سبيلا.

فكذلك الأمر مع النساء، فالتي تستطيع أن تخرج من شباك الشيطان وتقتل النفس الأمارة بالسوء، والعمل دائماً للإستجابة للنفس اللوامة، والسعي الحثيث لجعل النفس المطمئنة هي المتسيدة في كيانها. وذلك بإبعاد المصاديق المرتبطة بالقلب عن هوى الشيطان، بإعتبار أنّه ليس له سلطان على الكبريات، فحينئذ ستكون مستثناة من قول أمير المؤمنين، وستدخل في آيات التكريم وحسن التقويم للإنسان بشكل عام، وكذلك في الآيات التي بيّنت فضلهن وكما قال تعالى: (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) سورة الأحزاب: ٣٥، وكذلك: (عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا) سورة التحريم: ٥.

إذن فأعلم إنّ رقة القلب، وهيجان العاطفة، وجمال الهيئة والمنظر، ولين النفس، من لوازم وضع المرأة الطبيعية، وهي في واقعها كمال ذاتي لها، تستطيع متى ما تصرفت بهن تصرفاً صحيحا أن ترتقي الى مراتب الكمال العليا التي تنافس بهن مراتب الكمال التي هيأها الله عزّ وجلّ للرجال الخواص والكمّل والتي امتازوا بها عن النساء.

أي أن هناك صفات وسمات مشتركة بين الرجل والمرأة يوصلان من خلالهما الى مراتب معينة من الكمال. وهناك صفات خاصة بالرجل دون المرأة وبالعكس، ومن خلال هذه الصفات والتصرف الصحيح معها، والذي غالباً ما يكون للشريعة دخل فيه، يولد تكامل آخر لكل منهما، فمن أحسن التصرف على أكمل وجه، علا على صاحبه، وإن تساووا في حسن التصرف والإمتثال، إرتقى كلا الطرفين بمدارج السمو والخير والبركة، دون فرق بينهما.

المصادر والمراجع

١- **القرآن الكريم.**

٢- **الإختلاف في الثقافة العربية الإسلامية**: آمال قرامي، نشر دار المدار الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م.

٣- **إستعباد النساء**: جون ستيورات مل، مراجعة وتحرير ياسر شعبان، نشر دار كنوز، القاهرة، ط١، ٢٠١٩م.

٤- **أرسطو والمرأة**: د. إمام عبد الفتاح إمام، نشر مؤسسة الإسراء، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.

٥- **الإنسان ذلك المجهول**: الكسيس كارل، ترجمة انطون العبيدي، نشر دار الكتاب المصري، القاهرة، ط١، بدون سنة طبع.

٦- **الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل**: الفقيه المفسر الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٧- **أثر الفكر الغربي على المرأة المسلمة**: د. عبد الهادي فريح القيسي، نشر بيت الحكمة، بغداد، ط١، ٢٠١٢م.

٨- **افلاطون والمرأة**: د. إمام عبد الفتاح إمام، نشر مؤسسة الإسراء، القاهرة، ط٢، ١٩٩٦م.

٩- **الإسلام والمرأة**: سعيد الأفغاني، نشر دار الفكر، ط٣، ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م.

١٠- **الأمومة عند العرب**: جورج ألكسندر ويلكن، ترجمة بندلي صليبا الجوزي، نشر مؤسسة هنداوي، ط١، ٢٠١٧م.

١١- **الأصول من الكافي**: ثقة الإسلام ابي جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني الرازي (ت ٣٢٨/ ٣٢٩هـ) صححه وعلق عليه علي أكبر الغفاري، نشر دار الكتب الإسلامية، طهران، ط٣، ١٣٨٨هـ.

١٢- **إنها الأنثى**: د. عبد المجيد البيانوني، ط١، ١٤٢٦هـ.

١٣- **إصلاح النفس**: ابحاث السيد كمال الحيدري، بقلم طلال الحسن، نشر مؤسسة الجواد للفكر والثقافة، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٧م.

١٤- **أصل العائلة**: فرد ريك انجلز، ترجمة أحمد عز العرب، نشر دار الطباعة الحديثة، القاهرة، ط١، بدون سنة طبع.

١٥- **الأساطير والأحلام والأسرار**: ميرسيا إلياد، ترجمة حسيب كاسوحة، نشر وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، ط١، ٢٠٠٤م.

١٦- **الإنجيل برواية القرآن**: فراس السواح، نشر دار التكوين، دمشق، ط٣، ٢٠١٧م.

١٧- **الأصول الوثنية للمسيحية**: إدغار ويند وآخرون، ترجمة سميرة عزمي الزين، نشر المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

١٨- **الإسرائيليات في تفسير الطبري**: د. آمال عبد الرحمن ربيع، نشر دار الثقافة العربية، القاهرة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

١٩- **أستير**: تشارلز. سو يندل، ترجمة سعيد باز، نشر دار منهل الحياة، بيروت، ط١، ٢٠١٤م.

٢٠- **إكمال المعلم بفوائد مسلم**: القاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (ت٥٤٤هـ) تحقيق د. يحيى اسماعيل، مصر، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٢١- **بحار الأنوار**: العلّامة الشيخ محمد باقر المجلسي، نشر دار الأميرة، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م.

٢٢- **تاريخ الحضارات العام** : إشراف موريس كروزيه، نقله الى العربية فريدم داغر وآخرون، نشر دار عويدات، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.

٢٣- **تاريخ الجنس العربي**: محمد عزة دروزة، نشر المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٣٧٩ هـ-١٩٥٩م.

٢٤- **تاريخ حضارة مصر الفرعونية**: د. محمود عبد الحميد أحمد، دمشق، ط١، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

٢٥- **التربية عبر التاريخ**: د. عبد الله عبد الدائم، نشر دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨١م.

٢٦- **التطرف العلماني**: سامي جواد المنذري، نشر دار الوارث، ط١، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

٢٧- **تطور المرأة عبر التاريخ**: باسمة كيال، نشر مؤسسة عز الدين، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

٢٨- **تاريخ الإغريق**: د. خليل سارة، نشر جامعة دمشق، ط١، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٦م.

٢٩- **تاريخ الحضارة الهلينية**: أرنولد توينبي، ترجمة رمزي جرجيس، نشر مكتبة الأسرة، مصر، ط١، ٢٠٠٣م.

٣٠- **تاريخ العرب**: د. محمد أسعد طلس، نشر دار الأندلس، بيروت، ط١، بدون سنة طبع.

٣١- **تاريخ الفلسفة السياسية**: تحرير ليو شتراوس وجوزيف كروبسي، ترجمة محمود سيد أحمد، نشر المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط٢، ٢٠١٦م.

٣٢- **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**: ميرسيا إلياد، ترجمة عبد الهادي عباس المحامي، نشر دار دمشق، دمشق، ط١، ١٩٨٧م.

٣٣- **تاريخ النساء الفلاسفة في العصرين اليوناني والروماني**: إشراف ماري إيلين ويث، ترجمة د. محمد مراد، نشر دار الوفاء، الاسكندرية، ط١، بدون سنة طبع.

٣٤- **تحرير المرأة**: قاسم أمين، نشر دار المعارف، القاهرة، ط١، ٢٠١٧م.

٣٥- **تاريخ اليعقوبي**: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي، تحقيق عبد الأمير مهنا، نشر شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

٣٦- **التحقيق في كلمات القرآن الكريم**: المحقق المفسر العلّامة المصطفوي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٩م.

٣٧- **التفسير التطبيقي للكتاب المقدس**: تعريب وجمع صوري شركة ماستر ميديا، القاهرة، ٢٠٠٢م.

٣٨- **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**: فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن ابن علي التميمي البكري الرازي الشافعي، حققه وعلّق عليه، عماد زكي البارودي، نشر المكتبة التوقيفية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.

٣٩- **تفسير التحرير والتنوير (المعروف بتفسير ابن عاشور)**: الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، نشر مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١ .

٤٠- **تفسير من وحي القرآن**: آية الله العظمى محمد حسين فضل الله، نشر دار الملاك، بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٤١- **التفسير الكاشف**: محمد جواد مغنية، نشر دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٧٨م.

٤٢- **التجديد في تفسير القرآن المجيد**: الشيخ علي عبد الرزاق مجيد مرزه، نشر دار رادنكار، قم، ط١، ١٤٢٨هـ.

٤٣- **تسنيم في تفسير القرآن**: العلّامة الشيخ عبد الله الجوادي الطبري الآملي، نشر دار الإسراء، بيروت، ط٢، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٤٤- **تفسير المنار**: محمد رشيد رضا، نشر دار المنار، القاهرة، ط١، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م.

٤٥-**تفسير العياشي**: المحدث الجليل أبي النصر محمد بن سعود ابن عيّاش السَلَمي السمرقندي المعروف بالعياشي، تصحيح وتعليق السيد هاشم الرسولي المحلّاتي، نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٢، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

٤٦- **الجامع لأحكام القرآن**: أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

٤٧- **جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة**: فراس السواح، نشر دار التكوين، دمشق، ط١، ٢٠١٦م.

٤٨- **جمال المرأة وجلالها**: الشيخ جوادي آملي، نشر دار الكاتب العربي، بيروت، ط٦، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٤٩- **الجنوسة**: ديفيد غلوفر وكورا كابلان، ترجمة عدنان حسن، نشر دار الأحرار، سورية، ط١، ٢٠٠٨م.

٥٠- **الجنس الآخر**: سيمون دي بوفوار، ترجمة ندى حداد، نشر دار الأهلية، الأردن، ط١، ٢٠٠٨م.

٥١- **حركات تحرير المرأة من المساواة الى الجندر**: مثنى أمين الكردستاني، تقديم د. محمد عمارة، نشر دار العلم، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٥٢- **حقوق المرأة في الديانات والمعتقدات**: اعمال مؤتمر الأديان السنوي الثالث لسنة ٢٠١١م بإشراف د. شمران العجلي، نشر دار الحكمة، بغداد، ط١، ٢٠١٣م.

٥٣- **الحكاية الخرافية**: فردريش فون ديرلاين، ترجمة د. نبيلة إبراهيم، نشر دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٧٣م.

٥٤- **حضارة بابل وآشور**: غوستاف لوبون، ترجمة محمود خيرت المحامي، نشر دار الرافدين، بيروت، ط٢، ٢٠١٧م.

٥٥- **حقوق المرأة في النظام الإسلامي**: الشهيد مرتضى مطهري، ترجمة حيدر آل حيدر، نشر الدار الإسلامية، قم، ط١، ١٤٠٥هـ.

٥٦- **الحديث عن المرأة والديانات**: الصادق النيهوم، نشر دار الإنتشار العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

٥٧- **دروس في العقيدة الإسلامية**: محمد تقي مصباح اليزدي، نشر مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١، بدون سنة طبع.

٥٨- **دراسات فنية في قصص القرآن**: د. محمود البستاني، نشر دار البلاغة، بيروت، ط٢، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

٥٩- **الدولة العادلة يوتوبيا أم واقع**: علي الزيدي، نشر دار سحر القلم، بيروت، ط١، ١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م.

٦٠- **الذكورة والأنوثة في القرآن الكريم**: د. فرح الفاضلي، نشر دار الرافدين، بيروت، ط١، ٢٠١٨م.

٦١- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**: العلّامة شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي (ت ١٢٧٠هـ)، تعليق محمد أحمد الأمد، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٦٢- **زينب عليها السلام سرّ من أسرار أهل الكساء**: تقرير لمحاضرات آية الله المحقق الشيخ محمد السند، بقلم ابراهيم حسين البغدادي، نشر دار النور، النجف، ط٢، ١٤٣٤هـ.

٦٣- **السيدة مريم في القرآن الكريم**: د. حُسْن عبود، نشر دار الساقي، بيروت، ط١، ٢٠١٠م.

٦٤- **السنن التاريخية في القرآن**: السيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره، اعداد الشيخ محمد مهدي شمس الدين، نشر مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٦٥- **شخصية المرأة**: محمد تقي سبحاني، تعريب علي بيضون، نشر مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م.

٦٦- **صحيح البخاري**: أبي عبد الله بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، ترقيم وترتيب الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دار ألفا، مصر، ط١، ٢٠٠٨م/ ١٤٢٩هـ.

٦٧- **صحيح مسلم**: أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦- ٢٦١هـ)، ترتيب الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دار ألفا، مصر، ط١، ٢٠٠٨م/ ١٤٢٩هـ.

٦٨- **صورة المرأة اليهودية بين الشريعة والواقع**: جمال صوالحين، نشر دار صفحات للدراسات، دمشق، ط١، ٢٠١٦م.

٦٩- **صراط الحق**: محمد آصف المحسني، نشر دار ذوي القربى، قم، ط١، ١٤٢٨هـ.

٧٠- **الضوابط المنطقية**: الشيخ عباس الموسى، نشر مؤسسة الراضي لإحياء التراث، بيروت، ط١، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.

٧١- **علم إجتماع الجندر**: د. معن خليل العمر، نشر دار الشروق، الأردن، ط١، ٢٠١٥م.

٧٢- **عيون مسائل النفس وسرح العيون في شرح العيون**: آية الله الشيخ حسن زاده آملي، نشر مؤسسة انتشارات أمير، طهران، ط.١

٧٣- **العقائد الحقة**: السيد علي الحسيني الصدر، نشر دار العلوم، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٧٤- **العقيدة الإسلامية**: العلّامة المحقق جعفر السبحاني، نقله الى العربية جعفر الهادي، نشر مؤسسة الإمام الصادق، قم، ط٣، ١٤٢٨هـ.

٧٥- **علم النفس التطوري**: دافيد باس، ترجمة د. مصطفى حجازي، نشر المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٧٦- **عظمة بابل**: هاري ساغز، ترجمة خالد أسعد عيسى وأحمد غسان سبانو، نشر دار أرسلان، دمشق، ط١، ٢٠١١م.

٧٧- **عظمة آشور**: هاري ساغز، ترجمة خالد أسعد عيسى، نشر دار أرسلان، دمشق، ط١، ٢٠١١م.

٧٨- **الفيلسوف المسيحي والمرأة**: د. إمام عبد الفتاح إمام، نشر مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.

٧٩- **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**: الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣- ٨٥٢هـ)، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز، أخرج أحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، نشر المكتبة السلفية.

٨٠- **الفرقان في تفسير القرآن**: د. محمد الصادقي، نشر دار الأميرة، بيروت، ط١، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

٨١- **فاطمة الزهراء من المهد الى اللحد**: محمد كاظم القزويني، نشر دار الكاتب العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ.

٨٢- **فوائد السمطين**: إبراهيم بن محمد الجويني الخراساني (ت٧٣٠هـ)، نشر دار الجواد، سورية، ط١، ١٤٢٩هـ.

٨٣- **فضائل الخمسة من الصحاح الستة**: السيد مرتضى الحسيني الفيروز آبادي، تحقيق المجمع العالمي لأهل البيت، ط٢، ١٤٢٨هـ.

٨٤- **الفصل في الملل والأهواء والنحل**: أبي محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الأندلسي الظاهري (ت ٤٥٦هـ)، وضع حواشيه أحمد شمس الدين، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط.١

٨٥- **فلسفة المرأة**: عباس محمود العقاد، نشر دار فوارس، القاهرة، ط١، ٢٠١٦م.

٨٦- **قراءات في القرآن**: محمد أركون، ترجمة هاشم صالح، نشر دار الساقي، بيروت، ط١، ٢٠١٧م.

٨٧- **قصة الحضارة**: وول ديورانت، ترجمة د. زكي نجيب محمود، نشر دار الفكر، بيروت، ط١، بدون سنة طبع.

٨٨- **قصص الأنبياء**: قطب الدين سعيد بن هبة الله الراوندي، اعداد وتنظيم السيد حسين الحسيني، نشر دار المحبين، قم، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م

٨٩- **القصص القرآني ومتوازياته التوراتية**: فراس السواح، نشر دار التكوين، دمشق، ط٢، ٢٠١٦م.

٩٠- **قضية المرأة**: د. عبد الوهاب المسيري، نشر دار نهضة مصر، القاهرة، ط٢، ٢٠١٠م.

٩١- **كتاب السياسة**: أرسطو طاليس، ترجمة أحمد لطفي السيد، نشر دار التنوع الثقافي، سورية، ط١، ٢٠١٨م.

٩٢- **كشف الغمة في معرفة الأئمة**: العلّامة المحقق أبي الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي (ت٦٩٣هـ)، نشر دار الأضواء، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م.

٩٣- **كتاب العين**: ابي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠ - ١٧٥هـ)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٩٤- **لغز عشتار**: فراس السواح، نشر دار التكوين، دمشق، ط٥، ٢٠١٧م.

٩٥- **مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول:** العلّامة شيخ الإسلام المولى محمد باقر المجلسي (ت١١١١هـ)، إخراج ومقابلة وتصحيح السيد هاشم الرسولي، نشر دار الكتب الإسلامية، طهران، ط٢، ١٤٠٤هـ.

٩٦- **المرأة وصناعة القرار:** د. رجاء محمد قاسم، نشر بيت الحكمة، بغداد، ط١، ٢٠١٥م.

٩٧- **المرأة في فكر المرجع الديني الكبير السيد الشهيد محمد الصدر قدس سره:** اعداد مكتب السيد الشهيد الصدر، قدم له السيد مقتدى الصدر، نشر دار محبين، قم، ط١، ١٤٢٩هـ.

٩٨- **المرأة في التاريخ والشرائع:** محمد جميل بيهم، بيروت، ط١، ١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م.

٩٩- **المرأة في أسفار التوراة** : د. علي عبد الله الجباوي، نشر دار التكوين، دمشق، ط١، ٢٠٠٩م.

١٠٠- **المرأة في اليهودية والمسيحية والإسلام:** زكي علي السيد أبو غضة، نشر دار الوفاء، مصر، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

١٠١- **المرأة:** إديت شتاين، نشر أوقاف المسيحيين والديانات الأخرى، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.

١٠٢- **المرأة هويتها الجنسية وأدوارها الإجتماعية:** محمد رضا زيبائي، ترجمة رعد الحجاج، نشر مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠١٣م.

١٠٣- **المرأة في الإسلام**: فريبا علا سوند، ترجمة أحمد الموسوي، نشر مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠١٧م.

١٠٤- **المرأة عبر التاريخ البشري**: د. عبد المنعم جبري، نشر دار صفحات للدراسات، دمشق، ط٣، ٢٠١٤م.

١٠٥- **المرأة خلقها ودورها الإجتماعي**: مجموعة من المؤلفين، ترجمة أحمد حسين بكر، نشر مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠١٦م.

١٠٦- **المقدمة**: العلّامة ابن خلدون، نشر دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

١٠٧- **ملحمة كلكامش**: طه باقر، نشر وزارة الإعلام في الجمهورية العراقية، ط١، ١٩٧٥م.

١٠٨- **مسألة المرأة**: مهدي مهريزي، ترجمة علي الموسوي، نشر مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م.

١٠٩- **معجم العلوم الإنسانية**: إشراف جان فرنسوا دوريته، ترجمة د. جورج كتورة، نشر المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط١، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

١١٠- **مدخل علم النفس**: لندال دافيدوف، نشر الدار الدولية، الرياض، ط.٤

١١١- **المقدس والعادي**: مرسيا إلياد، ترجمة عادل العوا، نشر دار التنوير، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م.

١١٢- **من ألواح سومر**: صموئيل كريمر، ترجمة طه باقر، نشر دار الورّاق، بيروت، ط١، ٢٠١٠م.

١١٣- **المدينة العتيقة**: فوستيل دي كولانج، ترجمة عباس بيومي بك، نشر المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.

١١٤- **موسوعة تاريخ العرب**: عبد عون الروضان، نشر الدار الأهلية، المملكة الأردنية، عمّان، ط٣، ٢٠٠٩م.

١١٥- **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**: د. جواد علي، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت،ط١، بدون سنة طبع.

١١٦- **موسوعة تاريخ الزواج**: إدوار ويستر مارك، ترجمة د. مصباح الصمد وآخرون، نشر المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

١١٧- **المخ ذكر أم أنثى**: د. عمر شريف ود. نبيل كامل، نشر دار نيويورك، القاهرة، ط٨، ٢٠١٧م.

١١٨- **منة المنان في الدفاع عن القرآن**: آية الله العظمى السيد الشهيد محمد الصدر (قدس سره)، تقرير مؤسسة المنتظر لإحياء تراث آل الصدر، نشر دار المحبين، قم، ط١، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م.

١١٩- **مجمع البيان في تفسير القرآن**: الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، تحقيق وتصحيح وتعليق السيد هاشم الرسولي المحلّاتي، نشر مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

١٢٠- **مواهب الرحمن في تفسير القرآن**: آية الله العظمى السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري، نشر دار الآداب، النجف الأشرف، ط١، ١٩٩٠م.

١٢١- **من هدى القرآن**: آية الله العظمى محمد تقي المدرسي، نشر دار القارئ، بيروت، ط٢، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

١٢٢- **الميزان في تفسير القرآن**: العلّامة السيد محمد حسين الطباطبائي، نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٣، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

١٢٣- **مباهج الفلسفة**: ول ديورانت، ترجمة أحمد فؤاد الإهواني، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٥٥م.

١٢٤- **مجمع البحرين**: فخر الدين الطريحي (ت١٠٨٥هـ)، تحقيق أحمد الحسيني، نشر مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط٢، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

١٢٥- **مقامات فاطمة الزهراء في الكتاب والسنّة**: محاضرات الشيخ محمد السند، بقلم السيد محمد علي الحلو، نشر دار الهادي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

١٢٦- **ميزان الحكمة**: محمد الريشهري، نشر دار الحديث، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

١٢٧- **مقاتل الطالبيين**: أبي فرج الأصفهاني، شرح وتحقيق أحمد صقر، نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٤، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

١٢٨- **مواعظ ولقاءات**: آية الله العظمى السيد الشهيد محمد الصدر قدس سره، نشر هيئة تراث السيد الشهيد الصدر، بيروت، ط١، ٢٠١٣م/ ١٤٣٤هـ.

١٢٩- **مسؤولية المرأة**: د. علي شريعتي، ترجمة خليل الهنداوي، نشر دار الأمير، بيروت، ط٢، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

١٣٠- **من لا يحضره الفقيه**: أبي جعفر الصدوق محمد بن علي الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ)، نشر دار الكتب، قم، ط٦، ١٣٨٣هـ.

١٣١- **مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل**: الحاج ميرزا حسين النوري الطبرسي (ت١٣٢٠هـ)، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، نشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام، بيروت، ط٣، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

١٣٢- **مفاهيم عصرية عن فاطمة الزهراء**: علي الزيدي، نشر دار الكاتب العربي، بيروت، ط١، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

١٣٣- **النظرية النقدية عند هربرت ماركيوز**: د. حسن محمد حسن، نشر دار التنوير، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

١٣٤- **نظام حقوق المرأة في الإسلام**: مرتضى مطهري، ترجمة د. أبو زهراء النجفي، تحقيق عبد الكريم الزهيري، نشر دار آينده درخشان، قم، ط٢، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

١٣٥- **النظام الأمومي والنظام الأبوي**: كافين رايلي، ترجمة د. عبد الوهاب المسيري ود. هدى عبد السميع حجازي، عالم المعرفة، الكويت.

١٣٦- **النكت الإعتقادية**: الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان ابن المعلم ابي عبد الله العكبري البغدادي (٣٣٦- ٤١٣هـ)، تحقيق رضا المختاري، نشر المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، قم، ط١، ١٤١٣هـ.

١٣٧- **نهج البلاغة**: شرح الشيخ محمد عبده، تحقيق عبد العزيز سيد الأهل، نشر مكتبة التحرير بدون سنة طبع.

١٣٨- **نهج البلاغة**: تعليق آية الله السيد محمد الحسيني الشيرازي، نشر دار العلوم، بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

١٣٩- **النظرية الحقوقية في الإسلام**: آية الله الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي، ترجمة خليل عصامي الجليحاوي، نشر دار الولاء، بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

١٤٠- **ولاية الإنسان في القرآن**: آية الله جوادي آملي، نشر دار الصفوة، بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٩م.

١٤١- **وسائل الشيعة الى تحصيل مسائل الشريعة**: الفقيه المحدث الشيخ محمد بن الحسن الحرّ العاملي (توفي سنة ١١٠٤هـ)، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

١٤٢- **اليونان، دراسات في تاريخ الحضارات القديمة**: د. حسين الشيخ، مصر، ط١، ١٩٩٢م.



المرأة و الرجل

عقل واحد أم عقلان ؟

إنّ الإختلاف بين المرأة والرجل لم يكن يوماً صناعة بشرية، ذات بعد قصدي، وإنّما الإختلاف تكويني - طبيعي- سواء في جانبه البيولوجي أم جانبه السيكولوجي. وهذا الإختلاف بدوره سيولد إختلافاً في الجانب الوظيفي حتماً، وهذا يحدد من خلال الوحي بشكل أساسي ومباشر، وبالنموذج ثم التجربة والتكرار من جانب آخر .

وعليه مادام الإنسان حُمّل مسؤولية إعمار الأرض، فعليه أن يسعى لذلك- الرجل والمرأة- ولا يتم ذلك إلّا بعد معرفة دور كل واحد منهما. وكلّما عرف الرجل دوره ومارسه بشكل كامل، وعرفت المرأة دورها ومارسته بشكل كامل عجّلنا في سعادتنا المأمولة .

علي الزيدي

978-9922-9356-1-4

دار سحر القلم للطباعة والنشر والتوزيع

jam3alaama@yahoo.com العراق / بغداد 07739584181